كزافييه دو بلانهول

تاريخ أرض الإسلام

الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام

ترجمة

د. معاوية سعيدوني

تقديم ومراجعة

د. ناصر الدين سعيدوني

العنوان الأصلي للكتاب :

Xavier de Planhol, *Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam*, Paris, Flammarion, 1968.



دار الغرب الإسلامي
تونس



كزافييه دو بلانهول

تاريخ أرض الإسلام

الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كزافييه دو بلانهول

تاريخ أرض الإسلام

الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام

ترجمة

د. معاوية سعيدوني

تقديم ومراجعة

د. ناصر الدين سعيدوني

العنوان الأصلي للكتاب :

Xavier de Planhol, *Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam,* Paris, Flammarion, 1968.



دار الغرب الإسلامي

تونس

الطبعة الأولى 2008 م



دار الغرب الإسلامي
العنوان: ص.ب.: 200 تونس 1015

فهرس الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

كان ولا يزال العالم الإسلامي بمختلف أقطاره وتعدد شعوبه وتنوع مظاهر الحياة فيه، موضوعا مفضلا لدى الدوائر العلمية في أوربا وأمريكا، ومجال اهتمام متزايد من قبل الأكاديميين من غير المسلمين، وخاصة ما يعرف منهم بالمستشرقين والمستعربين، مما وفر للمهتمين بالحضارة الإسلامية رصيدا معرفيا متميزا سواء من حيث الرؤى التي يقدمها أو المادة التي يعرضها وحتى المناهج التي يأخذ بها، وهذا ما كان له تأثير ملموس على الواقع الثقافي والتوجهات العلمية في أغلب الأقطار الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بعرض القضايا الحضارية أو ما يتصل بتحقيق التراث وتحليله.

فرغم ما يؤخذ على إسهام حركة الاستشراق أو ظاهرة الاستعراب في نظرتها لقضايا الإسلام وموقفها من أحداث التاريخ الإسلامي وتقييمها للجهد الحضاري للمسلمين، وبغض النظر عن الآراء المختلفة حولها بين رافض مستنكر لأحكامها ومتقبل لمناهجها ومعجب بأطروحاتها، إلا أن إسهامها العلمي وحضورها المعرفي كان ولا يزال يشكل جزءا أساسيا من المكتبة الإسلامية العربية، وخاصة ما يتصل منه بالخلفية التاريخية للأحداث والصورة الأدبية للتراث أو ما يتعلق بتحليل المجال الجغرافي والوضع الاجتماعي والبعد الثقافي للمجتمعات العربية الإسلامية.

إن الدراسات المتعلقة بالعالم الإسلامي في الغرب بفضائه المعرفي

الواسع من سان فرانسيسكو غربا وإلى طوكيو شرقا، تجاوزت الآن مرحلة التعرف على الآخر المتمثل في العالم الإسلامي والذي يشكل العروض الوسطى للكرة الأرضية من طنجة إلى مانيلا، ولم تعد هذه الدراسات تقتنع بتوفير الخلفية المعرفية للمشاريع السياسية والخطط الاستعمارية كما كان عليه الأمر في القرن الماضي، بل تجاوزت ذلك إلى رصد أوضاع البلدان الإسلامية الراهنة وتحليل المعطيات المعرفية المتعلقة بها في مختلف جوانبها التاريخية والجغرافية والبشرية والنفسية والعقائدية، لأن هدفها الرئيسي هو تكوين مفهوم شامل وصورة متعددة الأبعاد متكاملة الرؤى عن العالم الإسلامي، تحدد في إطارها خصوصية كل قطر وأوضاع كل شعب انطلاقا من المواصفات العامة وضمن القواسم المشتركة وذلك بهدف رصد الحركية الذاتية للشعوب الإسلامية والتعرف على مدى قدرتها واستجابتها للحوافز الداخلية ورصد قابليتها للاستفادة من مكونات موروثها الحضاري، ليسهل على ذوي السلطة وأصحاب القرار في الغرب الأوربي والأمريكي تحديد أسلوب التعامل مع البلدان الإسلامية حاضرا ورسم سياسة التواصل معها مستقبلا.

وضمن هذا التوجه أصبحت مراكز البحث حول العالم الإسلامي في الغرب تولي اهتماما متزايدا بكل ما يشكل الفضاء الإسلامي كظاهرة حضارية مركبة تتحكم فيها جدلية العناصر المكونة للحضارة الإسلامية والمتمثلة في الموروث التاريخي والبعد الروحي للحقائق البشرية وشروط البيئة وظروف العلاقات الإنسانية، في وقت ظلت فيه النظرة الأدبية والميل العاطفي تطبع جهد المسلمين في دراستهم لتراثهم وتفاعلهم مع البيئة التي يعيشون فيها ويتعاملون معها، وهذا ما حد من قيمة إنتاجهم العلمي المتعلق بجوانب حضارتهم، بل أظهر بعض الدراسات الغربية عن العالم الإسلامي أكثر عمقا في المعالجة وتميزا في المنهج وبعدا في النظر، بحيث فرضت نفسها على الساحة الثقافية وأصبح من الصعب على أي باحث تجاوزها أو

تجاهل الإشكاليات التي تطرحها.

لقد كان لمدرسة الاستشراق الفرنسية في هذا المنحى تميزا خاصا في النصف الأخير من القرن الماضي، نتج عن الخلفية التاريخية للعلاقات الثقافية الفرنسية مع العالم الإسلامي منذ حملة نابليون على مصر (1798) وعمل على الارتقاء بها سعي المؤرخين الفرنسيين في دراستهم للحضارة الإسلامية تجاوز التصورات القديمة وطرح مفاهيم جديدة تماشيا مع منهج مدرسة الحوليات الفرنسية (École=des=Annales) في مجال علوم الإنسان التي تدرس النشاط البشري باعتباره حصيلة تفاعل عوامل الزمان والمكان والإنسان في إطار تكامل مختلف المعارف الإنسانية، وهذا ما جعل الدراسات الخاصة بالعالم الإسلامي في فرنسا تتوفر على إنتاج علمي محترم ساهمت به مؤسسات علمية متخصصة جهود باحثين أكاديميين بمختلف الجامعات ومراكز البحث في فرنسا، وخاصة الجيل المتأخر، منهم أساتذة أعلام من أمثال جان سوفاجي (J. Sauvaget) وروبير مونتران (R. Mantran) وآندري ريمون (A. Raymond) وجان كوهين (J. Cohen) ودومينيك سوردال (D. Sourdel) وف. بورديه (F. Bourdier) وآندري ميكال (A. Miquel) وكزافييه دو بلانهول (X. Planhol) وموريس لومبار .(M. Lombard).

وقد حظيت بعض كتابات هؤلاء الباحثين الفرنسيين في تاريخ وحضارة الإسلام بترجمات عربية نالت اهتمام القراء، مثل كتاب موريس لومبار "الإسلام في مجده الأول" الذي ترجم عدة مرات[1]، بينما ظل البعض

---

(1) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول (ق. 8-11 م/2-5 هـ)، ترجمة إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، 1979

- موريس لومبار، الإسلام في فجر عظمته، ترجمة حسين العودات، دمشق، وزارة الثقافة و الإرشاد، 1979.

- موريس لومبار، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميد، دمشق-بيروت، دار الفكر، 1998.

الآخر مع أهميته بعيدا عن أيدي القراء العرب؛ ولعل أهم هذه الكتب التي ظلت في حكم المجهول لدى القارئ العربي كتاب "الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام" لكزافييه دو بلانهول والذي نسعد بتقديم ترجمته العربية إلى جمهور القراء العرب.

إن كتاب "الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام" (منشورات فلاماريون، باريس، 1968)[1] هو حصيلة التجربة العلمية لمؤلفه التي اكتسبها في مراكز الأبحاث الفرنسية، وعرضها في قاعات مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومدرجات جامعتي السوربون ونانسي في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وهذا ما أهله لأن يصبح أحد الأعلام المجددين في الدراسات الجغرافية والتاريخية المتعلقة بالعالم الإسلامي بفرنسا، نال عضوية أكاديمية العلوم لما وراء البحار وانتسب إلى الأكاديمية الأوربية، وعدّ مع برودال (F. Braudel) في طليعة الباحثين الذين أثروا إصدارات المكتبة العلمية في الدراسات الإنسانية بفرنسا التي تهتم أساسا بنشر نتائج البحوث الميدانية.

لقد عرف كزافييه دو بلانهول بأعماله العلمية العديدة والتي تجاوزت خمسين بحثا أو دراسة في التاريخ والجغرافيا عن مختلف الأقطار الإسلامية، ورد ذكر الكثير منها في بيبليوغرافيا الكتاب، صدر بعضها في شكل كتب تولت نشرها مؤسسات علمية ومنها:

1. الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام، منشورات فلاماريون، باريس، 1968، موضوع ترجمة هذا الكتاب.

2. العالم الإسلامي، محاولة في الجغرافية الدينية، سلسلة أساطير ومعتقدات، المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس، 1959.

---

(1) Xavier de Planhol, Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam, Nouvelle bibliothèque scientifique dirigée par Fernand Braudel, Paris, Flammarion, 1968 (442 p.).

3. من سهل بامفيليا إلى بحيرات بيزيديان بالأناضول : محاولة في دراسة الترحل والحياة الفلاحية، منشورات المكتبة الأثرية والتاريخية للمعهد الفرنسي للآثار بإستانبول، باريس، 1958.

4. القرى الجديدة بمنطقة الجزائر الوسطى (الأطلس البليدي والشنوة ومتيجة الغربية)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الجزائر، باريس، 1961.

5. أبحاث في الجغرافيا البشرية لأقاليم إيران الشمالية، سلسلة مذكرات ووثائق، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي، باريس، 1954.

6. الإسلام والبحر أو المسجد والبحار.

7. الأقليات في الإسلام، سلسلة الجغرافية السياسية والاجتماعية، منشورات فلاماريون، باريس، 2001 .

لقد تركزت جل كتابات كزافييه دو بلانهول حول الجغرافية التاريخية والديمغرافية لتركيا وإيران والجزائر، فكانت عينات علمية ومرتكزات منهجية انطلق منها لوضع تاريخ لأرض الإسلام، عالج فيه واقع العالم الإسلامي بخلفية المؤرخ وحضور الجغرافي ودقة الإحصائي، فتميزت دراساته بالعمق في النظرة والشمول في التناول والجدة في الطرح.

إن ما يميز إنتاج دو بلانهول وخاصة منه كتاب "الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام" هو تجاوزه في دراساته للحضارة الإسلامية منظور الماضي إلى رصد الوضع الحاضر، فحاول وضع تاريخ للبيئات التي ظهر فيها الاسلام وانتشر بها أو انحسر عنها، وذلك بالرجوع إلى خصوصية كل قطر وتحليل أوضاعه البشرية واستقراء خلفيته التاريخية وتلمس قدرة المجتمعات المحلية على التفاعل مع شروط البيئة والتطورات التي تفرضها الصيرورة التاريخية، ليخلص في الأخير إلى تحديد الخطوط العامة التي أعطت العالم الإسلامي

وحدته الحضارية المتكاملة القائمة على مفهوم وحدة العقيدة والمستندة إلى معطيات التاريخ والنابعة من شروط البيئة والمعبرة عن حركية المجتمع.

لقد التزم دو بلانهول في رصده لواقع المجتمعات الإسلامية ومحاولته إيجاد تفسيرات منطقية لها، بمنهج مدرسة الحوليات الفرنسية (École des Annales) في العلوم الإنسانية والمعارف الاجتماعية، فسار على خطى لوسيان فيفر (L. Fèbvre) ومارك بلوك (M. Bloch) وفرناند برودال (F. Braudel)؛ إذ زاوج بين التاريخ والجغرافيا، وانتفع بنتائج علوم الاجتماع والإحصاء والأنثروبولوجيا، وجمع بين أسلوب الجغرافي ونظرة المؤرخ وتقنية الأثري وملاحظة الأنثروبولوجي، فلم ينظر إلى المجتمعات المسلمة في مختلف أقطارها كإثنيات منطوية على نفسها وإنما رأى فيها ظواهر حضارية تعبر عن واقع بشري يتميز بالمحافظة على طابعه ويتصف باستمرارية وتواصل نشاطه الإنساني المحكوم بإشكالية عبقرية المكان وفاعلية الإنسان التي أعطت للمجموعات البشرية في العالم الإسلامي خصوصيتها الذاتية وتكاملها الحضاري. وهذا ما جعل التاريخ عند كزافييه دو بلانهول بمثابة جغرافية الماضي، كما أظهر الجغرافيا كمسرح لأحداث التاريخ؛ فالخلفية التاريخية بهذه المقاربة التي أخذ بها كزافييه دو بلانهول لا تفسر إلا بشروط المكان، كما أن المجال الجغرافي لا يفهم إلا من خلال معطيات التاريخ ونوعية النشاط البشري المعبر بالضرورة عن مدى التوافق بين قدرات الإنسان وإمكانيات المكان سلبا أو إيجابا.

انطلاقا من هذه المقاربة، حاولا كزافييه دو بلانهول أن يجعل من كتابه "الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام" عرضا شاملا لجهوده العلمية وخلاصة لأطروحاته الجغرافية واستنتاجاته التاريخية وتطبيقا لمنهجيته وطريقته في البحث، فجاء كتابه إسهاما معرفيا جادا وجهدا علميا متميزا من حيث طريقة عرضه لأوضاع المجتمعات الإسلامية، التي تجاوز في معالجتها الماضي الحضاري والأوضاع الحالية إلى رصد حركية الفرد المسلم في وسطه

الاجتماعي وبيئته الجغرافية، وهذا ما جعل من هذا الكتاب كما وصفه مؤلفه تاريخا لأرض الإسلام .(Histoire de la terre de l'Islam)

إن كتاب "الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام" باعتباره حصيلة جهد علمي خالص، لم يقف فيه صاحبه عند أطروحات مدارس الاستشراق التقليدية، وإنما حاول تجاوزها بالرجوع إلى المستجد من نتائج الدراسات التاريخية والجغرافية، وخاصة منها الألمانية والتركية التي ظلت بعيدة عن أيدي عموم الباحثين العرب لتخصصاتها الدقيقة وصعوبة الوصول إليها.

إن المادة العلمية لهذا الكتاب موجهة في أساسها للجمهور الأوربي وليس للقراء في العالم الإسلامي، وهذا ما جعلها تعبر بالضرورة عن وجهة نظر خاصة بالفضاء المعرفي الغربي، فلا تأخذ بالاعتبار متطلبات الذهنية المشدودة إلى العرض الأدبي والمولعة بعبارات الإشادة والتمجيد والمتحفظة عن كل موقف نقدي قد يخدش الذاكرة التراثية؛ وإنما تحاول الإلتزام قدر الإمكان بموقف حيادي في عرضها للحقائق وتحليلها للمعطيات، وإن كانت في بعض الأحيان تتأثر بالصور النمطية التي كونها الأوربيون عن الحضارة الإسلامية، ولعل هذا ما جعل المؤلف يقر أفكارا ويعرض مفاهيم تعبر عن وجهة نظره الخاصة لا نسلم بصحتها ولا نقر استنتاجاتها، لأنها صادرة عن خلفية حضارية مختلفة ومعبرة عن وجهة نظر خارجية لا تخضع للاعتبارات الدينية التي تطبع حياة المسلمين، وهذا ما تنبه إليه المترجم مشكورا وعلق عليه في أماكنه من النص تماشيا مع متطلبات الأمانة العلمية التي تقتضي عرض رأى المؤلف كما ورد في النص الفرنسي مع التعليق عليه، متفاديا بذلك التحويرات التي عرفتها ترجمات العديد من كتب المستشرقين، لأن ذلك لم يعد يخدم الثقافة العربية وصار لزاماً على العالم العربي أن يرى صورته كما ارتسمت في المخيال الأوربي ليتمكن من الرد العلمي والجواب الموضوعي الكفيل بإظهارها على حقيقتها.

لقد سعدت بمراجعة هذا الكتاب وتقديمه للقارئ العربي، بعد أن ظلت ترجمته إلى العربية أمنية تراودني منذ أن اطلعت عليه وتبينت لي أهمية الإشكالية التي يعرضها والمعلومات التي يتضمنها، وسررت لظهور هذه الترجمة التي وفق فيها الأستاذ الباحث د. معاوية سعيدوني بفعل جديته في البحث وتمكنه من اللغتين الفرنسية والعربية، واستطاع أن يتجاوز الصعوبات الناتجة عن خصوصية الاصطلاحات الجغرافية ودقة التعابير العلمية وكثافة المعلومات التاريخية، فجاءت ترجمة الكتاب واضحة من حيث العرض والسياق، سليمة من حيث اللغة والأسلوب، تعكس روح النص الفرنسي وبيان الأسلوب العربي، فجمعت بين صحة المعنى وسلامة المبنى، فكانت بحق إضافة نوعية للمكتبة العربية وإثراء لرصيد الدراسات الاستشراقية، فهنيئا للأستاذ د. معاوية سعيدوني على ترجمته الأمينة والمتميزة، وطوبى للقارئ العربي بهذه النافذة الجديدة التي يطل منها على المستجد من الدراسات الأوربية عن العالم الإسلامي. والله الموفق.

د. ناصر الدين سعيدوني

مونتريال، كندا في 10/ 07/ 2007

مدخل

يهدف هذا الكتاب إلى وضع تاريخ لأرض الإسلام، وهو أول محاولة من نوعها؛ فرغم توفر كتب ضخمة وذات مضمون نوعي عن تاريخ الدين والفكر والمجتمع في الإسلام، لم نجد دراسات تتناول بشكل منهجي وشامل الأرضية التي نما فيها هذا الدين. ورغم اهتمام بعض الباحثين بحياة الفلاح والبدوي، فإن الأرض التي يزرعها الفلاح والبراري التي يتنقل عبرها البدوي لم تكن أبدا موضوع دراسة من حيث كونها أرضية خصبة تارة وعقيمة تارة أخرى لتطور المجتمعات الإسلامية.

هذا وقد حان الوقت لإنجاز هذا المشروع بعد الجهد الكبير الذي قام به جيل كامل من الباحثين، من الجغرافيين خاصة، ومن المؤرخين وعلماء الاجتماع أحيانا، والذي أثمر منجزات رائدة تخص أطرا إقليمية محدودة. ففي سنة 1959، اعتبر ج. فون غرونباوم (G. von Grunebaum) أن الوقت قد حان لإنجاز دراسة مقارنة ومنهجية في هذا المجال، فاقترح علي وعلى ف. برودال (F. Braudel)، بتوصية من ب. غورو (P. Gourou)، إنجاز النسخة الفرنسية لسلسة دراسات باللغة الألمانية في هذا الموضوع[1].

إن المدة الطويلة التي استغرقها إنجاز هذا الكتاب، والتي استطاع

---

(1) ظهر الكتاب في نفس الوقت في طبعة ألمانية لأرتميس فرلاغ (Artemis Verlag) بزوريخ، و طبعة إنكليزية لجامعة كاليفورنيا و دار روتلاج و كيغان (Routledge and Kegan) بلندن.

خلالها صاحبه بصعوبة جمة تخصيص بعض الوقت لإنجاز حوصلة شاملة لأبحاثه الخاصة المتعلقة بأطر إقليمية محدودة، كانت من أهم إيجابياتها الاستفادة من الدراسات الحديثة التي عرفت نموا مضطردا، والانتفاع بعدد من الحوصلات الجزئية والدراسات النوعية.

❋ ❋ ❋

في كتاب سابق أكثر محدودية وتسرعا[1]، حاول الكاتب معاينة العلاقة بين الدين الإسلامي والإطار الجغرافي على المستوى العام، بينما يتعرض الكتاب المقدم للقارئ اليوم لجوانب ملموسة على المستوى الإقليمي، إذ حلله الكاتب من خلالها تأثير دخول المسلمين، أكثر منه من انتشار الإسلام في تلك البلاد التي فتحوها. وبفضل أدوات انتشار الإسلام الرئيسية والمتمثلة في البدو دوما، والحضر في كثير من الأحيان، وفي البحارة المستكشفين أحيانا أخرى، يتبين أن هذا الدين يشكل أداة تغيير قوية وخارقة للعادة للظروف العامة المتحكمة في كيفية شغل الأراضي. وإن كان دخول الإسلام إلى بلد ما لا تترجمه دائما تحولات آنية، فإننا نلاحظ، على مدى زمني أطول، بروز العوامل العامة المؤدية إلى تقهقر الحياة الريفية وانتشار البداوة والذي تعرضنا له في هذا المدخل. فمن وجهة النظر التاريخية، مع اختلاف زمني لبضعة قرون في بعض الأحيان، ومع الإقرار ببعض الاستثناءات الناجمة عن ظروف محلية خاصة، فإن انتشار الإسلام قد ترجمته، على الأقل في نطاقه الرئيسي الممتد من الصحراء الأطلسية ومن تخوم إفريقيا الاستوائية إلى قلب آسيا الوسطى، تقلبات هائلة على مستوى الإطار البشري. هذا ورغم وجود نظرية تقلل من الدور الذي لعبه الإسلام في هذا المجال وتفسر هذه التقلبات بالموقع الجغرافي المتاخم لأقاليم جدباء تتجاذبها حياة الاستقرار وحياة البداوة بشكل طبيعي في محيط الصحاري الكبرى للعالم القديم، فكان

---

(1) Planhol, 1957.

ردنا على هذه النظرية يتمثل في أن الإسلام ليس مسئولا بالطبع عن هذه التطورات إلا أنه رسخها بشكل ملفت، وإذا لم يكن الإسلام هو المسؤول الأصلي عن الهجوم فإنه جعل عملية الدفاع مستحيلة، وإذا لم يحدث الإسلام هذه الشروخ فإنه تقبل آثارها، مما يؤكد وجود توافق جلي بينها وبينه، فهو لم يكتف بتبنيها وإنما جعلها الحالة الطبيعية السائدة، كما أنه لعب دورا في تلغيم عوامل المقاومة، وعرقل باستمرار، حتى الفترة المعاصرة، محاولات التطور العكسي. وهذا التوافق لا يقبل النقاش عموما، إن كان ذلك من حيث التطور الزمني أو على خارطة المعمورة[1].

إن الأولوية الظاهرية والمباشرة لعالم الروح على عالم المادة، لا يجب أن تجعل القارئ يتبنى تفسيرا معمما وخاطئا بالضرورة بخصوص تأثير القوى المختلفة، فصاحب هذا الكتاب من أولئك الذين يعتقدون (أنظر الفصل الأول) أن الإسلام، وهو عامل مؤثر قوي في الإطار الجغرافي وصيرورته التاريخية، قد تأثر بدوره، ومنذ بداياته، بهذا الإطار وبهذه الصيرورة. لقد كان التوافق طبيعيا بين الإسلام وبين نتائج الحالة الأنثروبولوجية والجغرافية التي تم التطرق إليها أعلاه، لأن الدين الإسلامي في حد ذاته نتيجة لهذه الحالة في ظرف تاريخي معين. بهذا نفهم الآلية العامة للتأثير المتبادل بين الديانات والإطار الجغرافي[2]، فالدين يشهد عند نشأته عملية تأقلم ويتأثر بحتميات أساسية قد لا تكون ظاهرة اليوم غير أن التحليل المعمق يسمح في أغلب

---

(1) لا نسلم بوجهة النظر هذه التي أخذت بها العديد من الدراسات الغربية و التي تحاول أن تجد صلة بين الإسلام و متطلبات أسلوب الحياة في البيئات الصحراوية، متجاهلة الأوضاع السابقة للإسلام و الظروف التي استجدت بعد انتشاره؛ فمن المسلم به أن الإسلام دين حضري في أساسه، ظهر في بيئات حضرية (مكة المكرمة و المدينة المنورة)، و عمل على القضاء على مظاهر الجاهلية، و أسس لمجتمع منضبط ومنظم يشجع على حياة الاستقرار و على تقنين و تطوير الأعمال الزراعية و المهن الحرفية و المبادلات التجارية (المترجم).

(2) يقدم الكتاب لاحقا تفسيرات مفصلة و أمثلة عديدة عن هذه الظاهرة.

. الأحيان باستكشافها، بعد ذلك يمر الدين بفترة فتوحات حاملا نظرته للعلاقات التي تربط الإنسان بالطبيعة إلى نطاقات جغرافية بعيدة قد تختلف تماما عن موطنه الأصلي. فهناك أرضية مادية تتمثل في الواقع الملموس تسبق التصورات الدينية غير أن هذه الأخيرة تؤثر بدورها على هذه الأرضية المادية.

* * *

إن طبيعة هذا الكتاب جعلت من الصعب إنجاز بيبليوغرافية جامعة قد تضم آلاف العناوين، ولهذا فإن المختارات البيبليوغرافية التي أدرجت في نهاية كل فصل كان الهدف منها الإشارة إلى أهم المؤلفات في مجالي الجغرافيا والجغرافيا التاريخية (و لم يتم إدراج الدراسات التاريخية المحضة إلا نادرا، وإن استعملنا جداولها التاريخية في دراستنا) التي يمكن الرجوع إليها في إطار دراسة أكثر تعمقا للمجال الجغرافي. هذا ولم نتردد في إدراج العديد من الهوامش، التي خصصناها أساسا للإشارة إلى الأعمال التي تعطي نظرة عن آخر ما أنجز بخصوص المسائل المدروسة، وقد أدرجنا هذه الأعمال في فهرس بيبليوغرافي ألف بائي، وأملنا أن يصبح هذا الكتاب أداة عمل مفيدة تسمح بالوقوف على الجدل الدائر حول الإشكاليات القائمة المتعلقة بهذه المسألة أو تلك، وفي المقابل لم نورد إلا نادرا المصادر الأصلية، وفضلنا ذكر الترجمات إلى اللغات الغربية إن وجدت، ولم نلجأ إلى ذلك إلا في حالة عدم استعمالها سالفا أو عدم إدراجها في دراسات منهجية علمية يسهل الوصول إليها.

لم يترك التصور الذي وضع لسلسلة الدراسات باللغة الألمانية، والتي كان هذا الكتاب موجها إليها في البداية، مجالا لإدراج الخرائط، إلا أن الكاتب اختار، بعد تفكير ملي ومحاولات عدة، إدراج عدد محدود من الخرائط الإقليمية التحليلية، مما يجعل هذا الكتاب من النوع الذي تستوجب قراءته الاستعانة بأطلس جغرافي.

بما أن الكتاب يتوجه في الأساس إلى جمهور القراء من غير المستشرقين، فإننا توخينا كتابة صوتية فرنسية للغات (العربية، الفارسية، الخ.)، وكذلك في المجالات الجغرافية التي لا تستعمل رسميا الحروف اللاتينية. كما أننا أبقينا على الكتابة الأنكلوسكسونية المعتمدة في البلاد التي تعرف تأثيرا رسميا للغة الإنكليزية (الهند والبلدان الإفريقية التي تعتمد اللغة الإنكليزية)، وكذلك الأمر بالنسبة للكتابة اللاتينية المعتمدة في اللغة التركية. كما أبقينا على الكتابة العلمية (النظام الدولي المعتمد بالنسبة للحروف السيريلية) وتلك التي استعملها العديد من الباحثين عند اقتباسنا للنصوص أو ذكرنا للمراجع.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول
نشأة الإسلام ومغزاه الأنثربولوجي-الجغرافي

1. الظروف الأنثربولوجية- الجغرافية لنشأة الإسلام

أ. الإطار البشري في وسط الجزيرة العربية في عهد النبوة : البدو والحضر

I. ترعرع الإسلام في جزء متميز من وسط الجزيرة العربية هو الحجاز، فالحافة المرتفعة من الجبال الكريستالية المشرفة من الجهة الشرقية على منخفض البحر الأحمر تنحني نسبيا بين خطي 27 و24 درجة شمال خط الاستواء، بينما تقسم كسور طولية منحدرها الداخلي إلى منخفضات ملأت أجزاء منها تراكمات بركانية. وتسمح مسالك عرضية سهلة إلى حد ما باختراق السلسلة الساحلية وبربط الصلة بين الساحل والداخل، بينما تساير الطرق الرابطة بين الشمال والجنوب المنخفضات الداخلية ذات التكوين التكتوني (tectoniques)، التي تتبعها أيضا الشبكة المائية، كما هو الحال بالنسبة للوادي الممتد على مسافة طويلة بين مكة والمدينة. في هذا المجال الذي يطبعه الجفاف الحاد، إذ لا تتجاوز نسبة التساقط في أي نقطة منه 100 مم سنويا، توجد منابع ماء في أسفل الهضاب التي تشكلت من تراكم الطمي؛ وقد أوجدت هذه المنابع مواقع واحات ذات أهمية، مثل موقع المدينة. ونظرا لوقوعه بين أسفل كتلة نجد الكريستالية الثقيلة التي تمتد في وسط الجزيرة العربية كله، وبين منحدرات الجبال الساحلية الشديدة التي ترتفع شمال المدينة

وجنوب مكة، فإن الحجاز يكون إقليما مؤهلا طبيعيا لأن يكون نقطة التقاء ومجالا لتطور الحياة الحضرية[1].

2. من المؤكد أن الحياة الحضرية قديمة في هذه المنطقة، فمدنها كانت دوما محطات عبر طرق القوافل الكبرى التي تتبع الأودية الطولية الداخلية وتحمل من جنوب الجزيرة العربية إلى البلاد المتوسطية المواد الثمينة من توابل وبخور. وقبيل ظهور الإسلام عرفت مدن الحجاز فجأة ازدهارا معتبرا، وسلط عليها الضوء في مجال العلاقات التجارية في تلك الحقبة، مما يجعل من الصعب عدم ربط هذا الازدهار ونشأة الإسلام كما سيتضح لاحقا. هذا وأن معوقتنا بالظروف التي أحاطت بهذا الازدهار التجاري في القرن السادس شهدت الدول الحضرية في جنوب الجزيرة العربية انحطاطا، فقد خضعت للاحتلال الحبشي في 525 ثم الفارسي في 572، وفقدت استقلالها بعد تراجع امتد لفترة طويلة[2] تسببت فيه الضربات التي تلقتها من البدو ودول الحبشة، ومن المحتمل أن تراجع النشاط البحري كان له دور في ذلك أيضا. وقد أعطى انحطاط جنوب الجزيرة العربية أهمية أكبر لدور الوساطة أو الحماية المأجورة للقوافل الذي كان يضطلع به عرب الوسط والشمال[3]، الذين حولوا لفائدتهم التجارة البعيدة التي احتكرها طويلا عرب الجنوب والتي لم يكونوا يحصلون إلا على القليل من أرباحها. بهذا تزايدت ثروة مدن الحجاز بشكل مدهش، فقد كان مجهزو القوافل في مكة عشية الهجرة النبوية يحققون أرباحا تتراوح نسبتها بين 50 و100 [4]. في هذا الظرف بالذات الذي طبعه الثراء السريع وفي قلب هذه الواحة التي كانت تشهد طفرة تجارية، بعث النبي محمد ﷺ.

---

(1) Gaudefroy-Desmombynes, 1957, p. 15-16; Brunschvig, 1953.

(2) Von Wissmann, 1953, 1957.

(3) Rodinson, 1957.

(4) Lammens, 1923-24.

3. ينتشر البدو حول مدن وسط الجزيرة العربية ويستخدم أغلبهم الجمال للتنقل على مسافات طويلة وللقيام بأعمال عدوانية. هذا ورغم الغموض المحيط بنشأة الحياة البدوية في الجزيرة العربية، فإنه يمكن تحديد تاريخ ترويض الجمل، وهو الشرط الأساسي لقيام الحياة البدوية، في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد تقريبا، حيث ترجع أولى الشواهد على استعمال الجمل في القوافل إلى هذه الفترة[1]. على أن انتشار هذا النمط من البداوة ذات الطابع الحربي في كل الجهات الصحراوية والشبه الصحراوية للجزيرة العربية، تم على مراحل نجهل تفاصيلها. هذا ويجب الإقرار، على الأقل في خطوطها الكبرى، بنظرية كاسكل (W. Caskel)[2] الذي يعتبر أن انتشار البداوة تم انطلاقا من شمال وشمال غرب الجزيرة العربية، على الأرجح عن طريق طرد الحضر باتجاه الجنوب، ولم يصل هذا النمط إلى حدود المناطق الحضرية في جنوب الجزيرة العربية إلا في القرون المسيحية الأولى. وفي هذه الفترة بالذات، تراجع دور الممالك الجنوبية القائمة على الزراعة، وأهم حادثة ضمن هذا الإطار هي تهدم سد مأرب الكبير نهائيا في القرن السادس، في الوقت الذي ترسخ فيه نمط العيش البدوي الذي نعرفه اليوم، وتراجعت فيه الكتابة التي كانت مزدهرة إلى ذلك الوقت لصالح التراث الشفوي الغالب لدى البدو، كما تنسب الكتابة المعروفة بالثمودية إلى جماعات بدوية واسعة الانتشار[3].

---

(1) حسب أفكار: W. F. Albright. أنظر التوضيحات الأخيرة التي قدمها: Mikesell, 1955; von Wissmann, 1959; de Planhol, 1964. و هناك من ذهب (Dostal, 1959) إلى أن ترويض الجمل أقدم من ذلك بكثير، و أن نهاية الألفية الثانية لم تشهد سوى تغيير طريقة الركوب باعتماد الركوب على الحدبة و السرج، مما يسمح بالتنقل بسرعة أكبر. هذا ويبدو أن ترويض الجمل يرجع إلى أواسط الألفية الثانية على الأقل (Lambert, 1960).

(2) Caskel, 1953 a, b.

ضمن نفس التوجه، أنظر: Höfner, 1959.

(3) Ryckmans, 1956.

حين بعث النبي محمد ﷺ كانت هذه العملية قد اكتملت رغم أن بدو عصر الهجرة النبوية احتفظوا ببقايا نظام اجتماعي سابق. فعلى سبيل المثال يرجح أن انتشار النمط الأبوي والتجمعات القائمة على السلالة الأبوية لم يكن قد حل إلا منذ عهد قريب مكان نمط أقدم قائم على الانتساب للأم[1]، غير أن الخصائص الرئيسية لهذا المجتمع كانت قد اتضحت بحيث يمكن إجمالها في : الحياة العدوانية القائمة على الغارات وما يتبعها من أعمال انتقامية، والتضامن القبلي، وأنظمة الحماية، والبنية الاجتماعية المؤسسة على الانتساب لجد واحد، كل ذلك في جو تسوده طباع الخشونة. أما النظام السياسي المتميز بعدم استقرار القبائل وإعادة تشكلها المستمر طبقا للنتائج التي تفرزها الحرب، والقائم على دور شخصيات قوية تجمع حولها مجموعات غير قارة، فهو يوافق النظام المعروف في الفترة المعاصرة[2]. في مقابل ذلك نجهل الكثير عن ظروف مشاركة البدو في النشاط الكبير للقوافل في الجزيرة العربية ودقائق علاقاتهم مع المدن المنظمة لهذا النشاط.

ب. النتائج الجيوسياسية العامة للاحتكاك بين البدو والحضر

يتضح لنا أن الإسلام نشأ في مجال بشري معين مرسوم المعالم وهو مجال احتكاك البدو والحضر، بحيث لا يمكننا فهم نشأة هذا الدين دون

ضد هذه النظرية: Caskel, 1953, b كما أن van den Branden, 1957، يرجح أن أصحاب الكتابة الثمودية ليسوا بدوا حقيقيين. بينما يعتبر Höfner, 1959 أغلبهم من البدو.

(1) Watt, 1959.

هناك من قلل من أهمية هذا الأمر: Spencer, 1952; Henninger, 1959, p. 91-92.

(2) بالنسبة للمجتمع القديم، أنظر: Lammens, 1914، و خاصة التوضيح الأخير الذي قدمه: Henninger, 1959. أما فيما يخص المجتمع المعاصر، أنظر:

Jaussen, 1908; Musil, 1928; von Oppenheim, 1939-1952; Montagne, 1947; Dickson, 1949.

وضعه ضمن هذا المشهد العام. فما هي إذن الظواهر التاريخية التي حددت ملامح هذا المشهد؟ وما هي البنيات السياسية التي يمكن أن تنشأ في هذه الظروف وما هو مآلها؟

1. إن أهم معطى ذو طابع ديمغرافي يتمثل في الفائض البشري الدائم للمجتمع البدوي "الذي يولد بانتظام وباستمرار الرجال وكأنهم جراد"[1]. فالصحراء تفرز الحياة بشكل مدهش، وتصب قسوة طبيعتها الفائض البشري في المناطق الصالحة للزراعة. وهنا تكمن آلية الضغط الديمغرافي المستمر في الحياة البدوية الصحية، فمناخ الصحراء رغم قسوته يعتبر صحيا[2]؛ كما أن توزيع البدو عبر مساحات شاسعة يمنحهم مناعة حقيقية في مواجهة الأوبئة التي كانت تطبع الحالة الصحية التقليدية للعالم الحضري[3]، حيث هذا الفائض يكون مآله القبر إن وجد في المجال الحضري الذي يتميز بظروف صحية رديئة. كما أن المجتمعات البدوية التي تعرف جمودا ديمغرافيا تشكل حالات استثنائية (مثل منغوليا في بداية القرن العشرين)، وعادة ما تتسبب في هذا الجمود بنية اجتماعية غير طبيعية (العدد الكبير من الأفراد المنتمين لطبقة اللاما، والعزوبة التي تفرضها حياة الأديرة والتي تمس ثلث الذكور على الأقل)، ولم يتحقق التوازن الديمغرافي بين البدو والحضر إلا في الفترة المعاصرة خلال الجيلين الأخيرين، مع أفضلية للحضر الذين تنخفض بينهم وفيات الأطفال والنساء المنجبات، مما ينتج عنه معدل توالد أكبر بالرغم من خصوبة أقل في المدن منها في الريف (4 مقابل 5)[4]. وبالرغم من التطورات الحاسمة في مجال الصحة التي عرفتها العشريات الأخيرة، ظل تأثير الضغط الديمغرافي للبدو منتظما. وفي هذا المنظور يتوجب اليوم إعادة الاعتبار جزئيا

---

(1) Weulersse, 1949, p. 64.

(2) Ibid.

(3) Barth, 1961, chap. IX, pp. 113-121.

(4) Muhsam, 1951.

للتفسيرات السيكولوجية "الساذجة" التي ترى أن للمجتمع البدوي جنوحا كبيرا نحو شن الغارات[1]، وميلا أساسيا إلى الروح العدوانية[2]، مما يفسر حسب استنتاجاتها الفتوحات العربية، هذا ولا ضير في الإقرار بهاته التفسيرات بشرط الوقوف على أسسها المادية. هذا وقد تنبه ابن خلدون لأهمية المجال الصحراوي كمنبع للتفوق البنيوي والمعنوي للبدو على الحضر، والذي يرجعه لأسباب رئيسية ثلاثة: التغذية الطبيعية والتقشف في الحياة؛ والهواء الصحي للصحراء، بينما هواء المدن ملوث بخليط من الروائح الكريهة التي تسببها الكمية الكبيرة من الأوساخ؛ وأخيرا التمرين المستمر للجسم، لأن البدو يكونون دوما في حالة حركة ونشاط. ويضيف ابن خلدون أن الطب ضروري للشعوب الحضرية ولسكان المدن، بينما لا جدوى منه في حال الشعوب البدوية[3].

2. هذا ولا تشذ الصحراء العربية الشامية عن هذا القانون العام، فقد تقدم البدو على مر العصور باتجاه المناطق الحضرية من الهلال الخصيب، حتى أن مثلا عربيا يقول أن اليمن مهد العرب والعراق قبرهم[4]، حيث أن هذا التقدم من ثوابت تطور بلاد الرافدين[5]. ويعود ذكر توسع العرب باتجاه الشمال إلى القرن التاسع قبل الميلاد كما تثبته بعض الكتابات المسمارية[6]، مما أدى، في فترة سابقة للإسلام إلى تعريب واسع لبلاد الشام[7]. ومما عزز تقدم العرب موافقة هذا الاتجاه للهجرات الموسمية للبدو الذين كانوا يقضون

(1) Lammens, 1914, p. 332-334.

(2) Schumpeter, 1918-19.

(3) Prolégomènes, trad. de Slane, I, 177-183; II, 386-91.

(4) ذكره: .. von Wissmann, 1959, p. 911

(5) Kupper, 1959.

(6) Grohmann, 1957.

(7) Dussaud, 1955.

الشتاء في صحراء النفوذ الكبرى وعروقها، ويقيمون في الصيف في صحاري الشام وبلاد الرافدين[1].

3. هذا وهناك فرق جوهري يجب التنبه إليه، فالعلاقات بين البدو والحضر تختلف حسب مستوى التنظيم الذي يتمتع به البدو. ففي حالة السكان الذين يعيشون في المرحلة السابقة للبداوة، أي الذين لا يتوفرون على الحصان والجمل، وإنما يعتمدون أساسا على تربية الأغنام، كما هو حال سكان البراري أكثر منه حال أهل الصحراء، ويعيشون على هامش عالم الحضر حسب نمط عيش هامشي من وجهة النظر الاقتصادية، يرجح ميزان القوة لصالح الحضر، بينما يعيش البدو في حالة تبعية قد تتخللها بعض الأزمات نتيجة إخضاعهم من طرف الحضر؛ وفي هذه الحالة يخترق البدو، الذين يتفوقون بفائضهم الديمغرافي، على المجتمع الحضري من خلال تسرب بطيء وتدريجي. وهذا هو الوضع الذي كان سائدا، على سبيل المثال، في أطراف الهلال الخصيب حتى الألفية الأولى قبل الميلاد كما تخبرنا عن ذلك خصوصاً نصوص ماري [2]. وقد تم مؤخرا استبدال المفهوم التقليدي لـ"الغزوات" السامية لبلاد الرافدين بمفهوم التسرب المستمر للبدو، الذي ساعدت عليه في بعض الفترات الأزمات الداخلية للمجتمع الحضري[3].

4. في مقابل ذلك يتمتع بدو أوراسيا المعتمدون على العربات وقطعان الماشية الكبيرة والمعروفين عادة بـ"الفاهرر" (Fahrer)، خلافا لـ"الرايتر" (Reiter) أو البدو المعتمدين على الحصان أو الجمل، بتكاتف أو تضامن سياسي وقدرة على التوسع تفوق بكثير قدرة سكان البراري الفقيرة السابقين

---

(1) Raswan, 1930.

(2) Kupper, 1957.

(3) Kupper, 1959.

و كذلك: Klengel, 1962، الذي يؤكد على الطابع السابق للبداوة لرحل ماري.

لمرحلة البداوة. فموازين القوى القائمة بينهم وبين المجتمعات الحضرية متوازنة إلى حد كبير، رغم أن شغل الأرض في الحالتين لا يختلف كثيرا.

بالإضافة إلى تنقل البدو "القاهرر" ببطء كبير بحيث لا يتجاوز تنقلهم يوميا 5 إلى 8 كيلومترات[1]، ويتم في إطار جماعات كبيرة، بحيث يمكن اعتباره هجرة شعب بكامله وليست مجرد غزوة حربية ؛ كما أن الآفاق الجغرافية ليست محدودة بالضرورة، فعلى سبيل المثال، تمت هجرة الشعوب الناطقة بالآرية نحو إيران والهند قرونا بل ألفيات من الزمن. أما نتائج هذه الآلية فهي تشبه نتائج التسرب التدريجي مع غياب للظروف الاستثنائية.

5. أما حركية "الرايتر" أو البدوي المتنقل والعدواني، فهي مختلفة تماما، مع العلم بأن الاختراق العربي لصحراء الشام بدأ بهذا الشكل منذ تحول الجزيرة العربية إلى حياة البداوة. وتقطع الكتل القبلية هنا مسافات تتراوح بين 25 و40 كلم يوميا بالنسبة للبدو الذين تضم قطعانهم العديد من الحيوانات الحاملة للأثقال[2]، وتزيد المسافة عن ذلك بكثير بالنسبة لمجموعات المحاربين الخفاف. في هذه الحالة تتصف العلاقات بين الحضر والبدو بخاصيتين مختلفتين. فمن جهة تمر هذه العلاقات بفترات "طبيعية" يتم فيها تحجيم البدو في الصحراء بواسطة شبكة من المراكز والنقاط المحصنة، من قبيل الليمس (Limes) الروماني وسور الصين العظيم، وينشأ تبعا لذلك نوع من التعاون القائم على المصلحة المتبادلة بين العالمين، فالبدو يبحثون عن موارد لتنظيم وقيادة القوافل مستغلين في ذلك وضعهم كوسطاء ضروريين بين المجالات الحضرية البعيدة عن بعضها البعض، فيوجهون نشاطهم نحو نسج

---

(1) كان هذا هو حال رحل حوض الفولغا (Volga) الأسفل على عهد غيوم دي روبروك (Guillaume de Rubrouck)، أنظر:
Hančar, 1955, p. 558.

(2) Hančar, 1955, ibid.

العلاقات بكل أشكالها، غير أن هذا الوضع لا ينفي الغارات المعزولة والظرفية والمحدودة كتلك التي كان يتعرض لها الليمس الروماني. هذا هو الوضع الذي كان سائدا على سبيل المثال في الصحراء الطرابلسية والتونسية في القرنيين الأول والثاني الميلاديين بفضل السلم الروماني (Pax Romana) الذي ساعد على تطور التجارة الكبرى العابرة للصحراء[1]. في هذه الظروف يكون بسط السلطة السياسية للبدو على الحضر محدودا ولا يتعدى واحات معزولة في قلب المناطق غير القابلة للزراعة. في المقابل تمر العلاقة بين البدو والحضر بفترات متأزمة، تشهد شروخا في الأسوار وغزوات عنيفة، يبدو فيها عالم البدو وكأنه يتحرك فجأة، ليدمر بدون مقاومة تذكر الدفاعات القائمة ويستحوذ على أجزاء قد تكون شاسعة من مجال الحياة الحضرية التي تشهد نتيجة ذلك تراجعا كبيرا. فمن أتيلا (Attila) إلى النبي محمد ﷺ إلى جنكيز خان، ومن "الغزوات الكبرى" إلى الفتوحات العربية والغزوات التركية المنغولية وفتح المندشو (Mandchous) لبلاد الصين، نجد أنفسنا أمام تحولات حاسمة في تاريخ العالم القديم.

6. ما هي إذن أسباب وآلية هذه الأزمات؟ للإجابة عن هذا السؤال تم اقتراح تفسيرات مختلفة جوهريا عن بعضها البعض.

أ. التفسير الأول الذي يمكن وصفه بـ"التأريخي" (historicisant) يقوم على نفي المشكلة. وقد تبناه ببراعة غروسي (R. Grousset)[2] بخصوص الأزمة الجنكيزخانية، واعتمده ضمنيا في أعماله حول التاريخ الآسيوي، ومفاده أن "الانطلاقات الكبرى" للبدو مرتبطة بظهور رجال متميزين ينجحون في إقامة وحدة سياسية في مجال البراري وجمع قبائل كانت في حالة من التشرذم لتكتسب قوة اندفاع كبرى، فمن وجهة النظر هذه ترتبط الغزوات الكبرى

---

(1) Demougeot, 1960.

(2) Grousset, 1939; 1941; 1944.

أساسا بنزوات ومصائر فردية من قبيل تلك التي طبعت شخصية جنكيز خان.

ب. ويربط تفسير آخر أسباب الأزمة بحتمية طبيعية، أي قسوة النطاق الجاف. فتوسع مجال المناطق الجافة تدريجيا وفجائيا منذ العصر ما بعد الجليدي تسبب في العديد من الهجرات الكبرى، مع العلم بأن السنوات العجاف تؤدي إلى نتائج كارثية وتقضي على حوالي 40 أو 50 من قطعان الماشية في صحاري الشرق الأوسط[1]. وهذه النظرية التي وضعها هونتينغتون (E. Huntington) لآسيا الوسطى، ثم عممها عالميا بنوع من الإفراط[2]، تعرضت لانتقادات كبيرة بينت عدم صلاحية نظرية التوسع المستمر للنطاقات الجافة[3]. على أنه لا يمكن أن نغفل الآثار العميقة التي قد تحدثها التحولات المناخية على الحياة البشرية[4]، بحيث يعتبر الكثير من المؤرخين، خاصة منهم الأنجلوسكسون، أن المناخ يشكل عاملا أساسيا، وقد تبنى توينبي (A. Toynbee) هذا التفسير.

جـ . توجد مجموعة ثالثة من الباحثين تحاول أن تجد الحل لهذه الأزمة في حتمية اجتماعية وليست طبيعية. فهناك من فسر تنامي الروح العدوانية لدى البدو بتراجع التجارة الكبرى العابرة للصحراء التي تعود إلى الفترة الرومانية وما انجر عنها من إفقار للبدو[5]. ففي هذه الحالة يوجد

---

(1) كما حدث للشمار في 1925، أنظر: .Teleki, 1935, p. 173

(2) Huntington, 1907; 1924; 1935.

(3) de Terra, 1931.

(4) منذ الحوصلة التي أنجزها: Brooks, 1949، نشهد اهتماما كبيرا بهذا الموضوع. ويمكن الرجوع بخصوص الآليات المناخية للدراسة الواضحة التي أنجزها: 1957 Pédelaborde. كما يمكن الاعتماد على أعمال المؤتمر التي نشرها شابلي: ,Shapley 1953. Changes of Climate, 1961، وهي تهمنا أكثر لارتباطها بموضوعنا أي المنطقة الجافة.

(5) Capot-Rey, 1960.

السبب خارج النطاق الخاص بالبدو. وقد بذل لاتيمور (Lattimore) جهدا أكبر لتحديد معالم هذه النظرة للعلاقات السياسية بين العالمين الحضري والبدوي بالنسبة لآسيا الوسطى[1]. من هذا المنظور تخضع عملية توسع وتراجع البدو لنظام دوري، ففي عهد "الأسوار الكبرى"، كان مجال حركة البدو منحصرا في الأطراف، على أن فترات من التوسع كانت تحدث طبيعيا لرغبتهم في مراقبة حركة التجارة مع المناطق الرعوية (الماشية والصوف) أو بين الواحات، وتتشكل بذلك دول قائمة على أرستقراطية بدوية وقاعدة حضرية، يكون فيها جزء من البدو قوات احتياطية في خدمة الحكم، وهذا الوضع يمكن تسميته بعهد "الأسوار الصغرى" الذي يوازي عهد "الأسوار الكبرى" والذي يتم التطور خارجه، ويتميز بإخضاع العديد من المناطق البدوية بفعل جاذبية الدولة المختلطة، غير أن الفجوة لم تلبث أن تعمقت شيئا فشيئا بين مصالح وثروات الأرستقراطية البدوية المهيمنة على الحضر والتي تزداد ثراء، من جهة، ومصالح البدو الذين ظلوا في البراري محرومين من الجزء الأكبر من الفوائد، لتتلاشى أخيرا سلطة الأسرة الحاكمة على البدو الذين بقوا في قلب البراري، وهكذا تنتهي دورة، ويفتح الطريق أمام غزوة جديدة. إن هذا الإطار العام الذي يتميز بسلطة الأسر البدوية الحاكمة على بلاد الحضر، يعقبه التحرر التدريجي للشعوب البدوية من سلطة هذه الأسر بموازاة تحضرها، وهذا ما تكرر مرارا خلال التاريخ الصيني. كما أن هذه النظرية الدورية لظهور وانحطاط الإمبراطوريات ذات المنشأ البدوي تظهر بجلاء لدى ابن خلدون[2]. وحتى في زمن أكبر الفتوحات الإسلامية، نشهد "دورة" (حسب مفهوم لاتيمور) نموذجية في حوض تاريم (Tarim) أو تركمانستان الصيني حاليا[3] ومنغوليا. ففي فترة أولى (682–742) كان الكوكتورك (الأتراك السماويون)

---

(1) Lattimore, 1951.

(2) Prolégomènes, Livre premier, troisième section, ... "sur les dynasties"....

(3) von Gabain, 1949.

يحتلون براري منغوليا، وشرعوا في الاستقرار في فترة ثانية (742-840) بفعل تزاوجهم مع النساء الصينيات من الأسر النبيلة ومزاولتهم التجارة مع الصين بواسطة الجمال، إذ يفرض عليهم النشاط التجاري الإقامة بالمدينة لاستحالة تخزين البضائع تحت الخيام. وفي 758 أسست مدينة باي باليك (Bay Balik) أي "المدينة الغنية". وعندما تحول الويغور (Ouygour) إلى حضر وتجار ومزارعي واحات، فقدت البراري شيئا فشيئا أهميتها، وانتهى الأمر باستيلاء الكرغيز (Kighizes) على يايلا أوتوكين (Yayala d'Otüken) المقدس، وسرعان ما انقطعت الصلات مع البراري التي أصبحت مجالا لقطاع الطرق (حسب نص مؤرخ في سنة 983). هذا ويندرج وضع مكة في الفترة التي سبقت الإسلام مباشرة ولو جزئيا ضمن هذا النوع من الدورات، فقبيلة قريش المكية كانت من أصل بدوي لكنها عرفت الاستقرار منذ أكثر من قرن بحيث فقدت كل اعتبار سياسي لانتمائها الأصلي، وحتى وإن لم تكن القطيعة تامة بينها وبين القبائل المجاورة، فإن علاقات الحضر معها لتنظيم تجارة القوافل تعبر عن توازن معقد للمصالح والقوى. ففي مجال اجتماعي كهذا، كانت بعثة النبي ﷺ مؤهلة لأن تأخذ وجهة أخرى. هذا وليس هناك تناقض بين التفسير الاجتماعي والتفسير "الطبيعي" بشرط أن لا تعتبر التحولات المناخية سوى فرصا أو عوامل تحريك لآلية تحققت كل شروطها البشرية.

جـ. التفرد الأنثروبولوجي-الجغرافي للإسلام : التحالف بين الحضر والبدو

إن المصير المدهش الذي قاد القبائل العربية، خلال عشريات معدودة، من صحاريها إلى ضفاف المحيط الأطلسي والهضبة الإيرانية، يمكن اعتباره إحدى الأزمات الكبرى للبداوة العدوانية التي تطرقنا إليها. هذا والسؤال المطروح يتعلق بمدى إمكانية تطبيق هذه الآليات على الدين الإسلام الناشئ؟

1. لا يتسع هذا الكتاب للتطرق لشخصية النبي محمد ﷺ، فقد تطرق أصحاب التفسير التأريخي بإسهاب لمميزات شخصيته الخارقة للعادة،

واعتبروها العامل الأساسي الذي قام عليه الإسلام متجاهلين بشكل شبه كلي دور المحيط[1]. وإن كان تميز الشخصية هذا قاعدة بالنسبة لمؤسسي الديانات، وليس هنالك شيء خارق للعادة من منظور التاريخ العام للأديان، غير أن شيئا فريدا حدث في التاريخ العربي، ولن يتكرر أبدا، ألا وهو العلاقة التي تبدو بديهية بين حركة التوسع وشخصية النبي محمد ﷺ القوية.

إن هذه الملاحظة الأولية تترك الباب مفتوحا لنقاشات أوسع : فإلى أي مدى تأقلمت التعاليم التي نشرها النبي محمد ﷺ، عن وعي وعن غير وعي، بمجالها ؟ في البداية لا يمكن تجاهل دور المجال في صقل هذه التعاليم وتبعا لذلك كل التطورات التي عرفها الدين الجديد لاحقا ؛ ومن جهة أخرى، إلى أي مدى ساهم المجال الاجتماعي والجغرافي في نجاح الدعوة المحمدية وحتى في ظهورها ؟ إذ كان من الممكن أن ينتصر المكيون، ليصبح الإسلام أحد "الأديان المجهضة" العديدة التي شهدها العالم. وفي هذا الإطار، يتوجب علينا التحليل حتى وإن أقررنا بأولوية تفرد شخصية النبي محمد ﷺ.

رغم عدم إمكانية فصل منشأ الإسلام وتوحيد الجزيرة العربية عن شخصية النبي ﷺ، فإن دور هذه الشخصية لم يكن مؤثرا في "المغامرة الإسلامية الكبرى"، أي الفتح العربي. ورغم أن الدعوة المحمدية دعوة شاملة، فإنه من المبالغ فيه القول بأن النبي ﷺ حدد أهدافا "عالمية" للدين الجديد، فالفتح التوسعي لم يبدأ إلا في آخر حياة النبي ﷺ، منذ من 630، على حساب الإمبراطورية الفارسية التي دب فيها الضعف آنذاك، كما أنه من الصعب الجزم بأن المسلمين كانوا هم الذين دشنوا هذه العملية أو أنهم تابعوا وحولوا لصالحهم حركة سابقة لهم من عمليات الإغارة على العراق، كما يجزم وات .(W. M. Watt)كما أن غزوة تبوك (أكتوبر-ديسمبر 634) وهي

---

(1) Bousquet, 1954.

أقصى ما وصلت إليه غزوات الرسول ﷺ نحو الشمال والتي رسمت صورة حروب الفتح الكبرى اللاحقة، لا تتجاوز في الحقيقة مجال التأثير الطبيعي لدولة قائمة على مدن الحجاز وترمي إلى بسط سيطرتها على الطريق التجاري الكبير المتجه نحو الشمال. لهذا لا يمكننا الاكتفاء بالدور المشهود للنبي ﷺ لتفسير توسع الإسلام خارج الجزيرة العربية.

في واقع الأمر لم يقتصر أصحاب النظرية "التأريخية" في تحليلهم لشخصية النبي محمد ﷺ، فبحثوا عن ما يفسر سلسلة "الصدف المتتابعة" المرتبطة بالفتح الإسلامي. وأكبر جهد ضمن هذا التوجه قام به بوسكيه (G. H. Bousquet)[1] الذي يعتبر أن الفتح العربي كان نتيجة سلسلة من العوامل الداخلية (بعثة النبي ﷺ، توحيد الجزيرة العربية على يديه، وكذلك وجود زعماء حرب متميزين من بين العرب كان عمر في طليعتهم)، وعوامل خارجية (حالة الضعف والوهن التي طبعت الإمبراطوريتين الكبريين، البيزنطية والساسانية، حيث لم تعد قوتهما تتعدى المظاهر). غير أن هذا التحليل، الصحيح جزئيا، لا ينطبق، كما يقر بذلك بوسكيه نفسه، سوى على أسباب نجاح محاولات الفتح العربي وليس على الآلية الأصلية التي كانت تدفع العرب إلى الفتح. ففيما يخص هذه الآلية، يرى الكاتب نفسه أنها تتعلق بأسباب اقتصادية وعوامل دينية بحتة وذلك منذ الفترة الأولى لفتح الجزيرة العربية[2]، كما عبر عن ذلك بوضوح القرآن الكريم بخصوص غزوة أحد: ﴿... منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة...﴾ (آل عمران، الآية 152). ومن هنا يجب التطرق كذلك في هذا الأمر لحقائق أخرى.

2. من الضروري إذن التدقيق في آليات مختلفة، طبيعية أو اجتماعية، سبق ذكرها. يجب أولا التعرض لنظرية الحتمية المناخية التي تحصر الأزمة

(1) Bousquet, 1956, a, b.

(2) Bousquet, 1956, b, p. 40-41.

الإسلامية في اندفاع بدوي أوجدته فترة جفاف مناخي، والتي دافع عنها كايتاني (Caetani)[1]. وهناك دراسة جديدة دققت في هذه الإشكالية[2]، أكدت أن منطقة الشرق الأوسط عرفت تدهورا مناخيا ميزته فترات جفاف كارثية بين 591 إلى 640، كما تزامنت الفترة الأولى من تعاظم الضغط البدوي مع سنوات جافة (484 و512-517)، ولم تكن هذه التحولات المناخية ثانوية، فقد أمدت الزعماء العسكريين والدينيين بمخزون بشري يتمتع بعدوانية متزايدة ومستعد لاتباعهم نحو الأرض الموعودة، ويعبر عن ذلك بيت يخاطب البدوي معناه "أنك لم تترك حياة البداوة طمعا في الجنة وإنما طمعا في الخبز والتمر"[3]، كما أن القائد الفارسي رستم خاطب مبعوثا مسلما، في سنة 637، قائلا : أنكم لم تقوموا بما قمتم به سوى هربا من الفقر وظروف عيشكم البائسة[4]. والملفت للانتباه في هذا الشأن أن المدينة استوردت كميات معتبرة من القمح من مصر التي كانت قد فتحت حديثا، كما شكل الانتشار في الأراضي المفتوحة في مرحلة ثانية منفذا لفائض السكان. لهذا يجب الإقرار بأن الدوافع الاقتصادية لعبت دورا مهيمنا في عملية تجنيد البدو للقيام بالجهاد.

3. على أن هذا التفسير يبقى محدودا، فالفتح الإسلامي، حتى في بداياته الأولى، يتجاوز بكثير نطاق أزمة توسع البداوة العربية. فالهضبة الإيرانية ظلت منيعة في وجه تسرب البدو إليها، وكان فتح المغرب العربي (670-700) مشروعا عسكريا وسياسيا محضا ولم يعتمد على البدو. كما أن تعقيد الجهاز السياسي والديني للدين الجديد لم يكن في متناول إمكانيات البدو البسطاء. فالمثل الأعلى للإسلام الناشئ كان حضريا بالأساس، حيث يحتاج

---

(1) Caetani, 1911, passim, p. 21, 279, 366-68.

(2) Butzer, 1957.

(3) ذكره: Hitti, 1937, p. 144.

(4) Balâdhuri, trad. Hitti, 1916, p. 411-12.

الإسلام إلى المدينة ليحقق أهدافه الاجتماعية والدينية، فتأسيس مدينة من الأعمال الجليلة كما يدل على ذلك عدد الأساطير الدينية المتعلقة بتأسيس المدن، وهناك العديد من المزايا الروحية المرتبطة بالإقامة في المدينة المنورة حتى أن مغادرتها كانت تستوجب الحصول على ترخيص خاص، وعلى العكس من ذلك تعتبر الهجرة إلى المدينة من أجل الأعمال.

كما أن صلاة الجماعة هي من أسس الدين الإسلامي، وأعظم صلاة هي صلاة الجمعة حيث تجتمع الأمة كلها، وتحتاج هذه الصلاة لمساجد قارة تجمع عددا كبيرا من الناس. والمدينة هي قبل كل شيء مكان الجامع الكبير في مقابل المساجد الصغيرة حيث تقام الصلوات اليومية والتي يكون بناؤها أقل صلابة. وقد دار نقاش بين أهل العلم لإيجاد تحديد دقيق للأماكن التي يمكن أن تقام فيها صلاة الجمعة، وحصروا ذلك في المدينة، كما دار جدل حول حجم التجمعات التي تصلح لإقامة هذه الصلاة، فتسمى تارة مدنا وتارة بنادر وتارة أخرى قرى كبيرة. في كل الأحوال خص الحضر دون غيرهم بهذه الميزة، فالمسجد يجب أن يكون قارا ومبنيا في كل أجزائه، حتى أن فقهاء متشددين أبطلوا صلاة الجمعة في مصلى يكون سقفه مفتوحا بسبب تهدمه.

و إذا ما تجاوزنا صلاة الجمعة الكبرى نلاحظ أن الممارسات الإسلامية تتناسب مع حياة الحضر ؛ فهناك المسجد بميضأته التي تتطلب تجهيزا معقدا، والصلوات الخمس اليومية التي تقام عقب الآذان، وصوم رمضان ونشاطه الليلي، كل ذلك يوافق حياة المدن. كما أن الحياة الحضرية الضرورية لإقامة صلاة الجماعة ضرورية كذلك لتوفير العيش الكريم الذي دعا إليه الإسلام، فالإمام يجب أن يحيا حياة برجوازية، والنساء يجب أن تتحجبن، مما يتنافى مع ضرورات نمط العيش البدوي أو الريفي عموما. إن هذا المثل الأعلى الصارم الحذر هو مثل تجار الحجاز القساة، كما أن الإسلام يفضل لباس المدن على هندام الحقول والصحراء المفتقر لأنه يدعو إلى الاحتشام. ومن خلال هذه المتطلبات الاجتماعية والمستلزمات الروحية المرتبطة به

يتضح لنا أن الإسلام دين حضري[1].

في مقابل ذلك لم يكن البدو بالنسبة للإسلام سوى مجندين من الدرجة الثانية وأتباع لا بد منهم كجنود ومقاتلين لخوض صراع حربي، فباستثناء مهاراتهم العسكرية اعتبر البدو رجال سوء ومؤمنين ناقصين ومجادلين وفجار، ووصل الأمر إلى حد وضع حديث يكره تناول الحليب لأن الشيطان يتخفى فيه، والبدو يحبون تناوله ليرجعوا بعد ذلك إلى صحرائهم ويهجروا أماكن العبادة الجماعية[2]. ويؤكد القرآن الكريم نقص إيمان البدو إذ يرد فيه أن : ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم﴾[3]، وقد أثبتت التجربة بالفعل أن دخول البدو في الإسلام كان صعبا في غياب تجمعات حضرية تشكل مراكز للدعوة، كما يدل على ذلك رد خان تركي على مبعوث الخليفة الأموي هشام (724-743) والذي اعتبر أن الدين الجديد لا يصلح لأهل القرى الذين نشأ بينهم : "ليس من بين الأتراك حلاق ولا صانع أحذية ولا خياط، فإذا قبلوا بالإسلام وقوانينه فمن ماذا يعيشون ؟"[4].

لم يكن البدو في أحسن الأحوال سوى أدوات. وكما أن الفتح العربي يتجاوز عمل شخصية متميزة، فإنه يتجاوز كذلك أمرا بسيطا من قبيل اندفاع البداوة حتى وإن وضعت في خدمة "منظم عبقري". هذا ولا ننكر أن الإسلام أدمج الكثير من خصائص المجتمع البدوي الذي كان سائدا في الجزيرة العربية في الفترة الجاهلية، فقد درسه شلهود (J. Chelhod) مؤخرا

---

(1) Marçais (W.), 1928.
هذا التحليل مأخوذ في أغلبه من: Planhol, 1957, p. 10-11.

(2) ذكره: Marçais (W.), 1928..

(3) التوبة، الآية 97.

(4) Yakut, Mû'djam al-Buldan, ed. Wustenfeld, I, 839.
ذكره: Jakubavskij, 1955, p. 143; Barthold, 1945, p. 57.

بتفصيل وبين صواب التصورات المقدسة المستمدة من الروحانية البدوية التي التصقت بالدين الجدي في مظهره[1]، ورغم جهده المعتبر فإن هذا الكاتب يخطئ عندما يقلل من الدور المتميز للحضر[2]، إذ يؤكد على "التنازلات" لصالح البداوة، ويقول بجهل أصحاب "النظرية الحضرية" التي قام عليها الدين الإسلامي للواقع البدوي. هذا ولا يوجد تناقض جذري بين نمطي العيش الحضري والبدوي، وإنما الفرق يكمن في سلم القيم الخاصة بهما[3].

يكمن تفرد الإسلام الناشئ، في واقع الأمر، في التحالف والالتقاء بين الحضر والبدو، وهو قاعدة مشتركة تطبع التاريخ الإسلامي كله، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين الأزمة الإسلامية والموجات الكبرى الأخرى التي انطلقت من براري وصحاري العالم القديم. ورغم أن بدو الغزوات الكبرى التركية-المغولية في العصور الوسطى انتهى بهم الأمر إلى الاندماج في محيط المجتمعات الحضرية والمدنية التي استعملت هؤلاء الرعاة المحاربين للمناورة فإن هذه الحركة تبقى بدوية في جوهرها. ويتضح هذا الأمر أكثر إذا ما تعلق

(1) Chelhod, 1964.

(2) إذا كان يقر بالدور المتميز ضمنيا للحضر في كل الديانات الكبرى (ص. 23)، فإن هذا الدور واضح في الإسلام حتى وإن لم يكن ذلك حالة استثنائية.

(3) نورد هنا الفقرة النقدية لشلهود (1964، ص. 30-31) كاملة لنبين الخلط الذي وقع فيه هذا الكاتب الذي قدم عملا أصيلا وإن كان أحادي الاتجاه: "الغريب أن من يقولون بأن الإسلام ديني حضري "يحتاج إلى المدينة لتحقيق مبتغاه الاجتماعي والديني" (X. Planhol, Le monde islamique, p. 9)، هم أنفسهم الذين يؤكدون رغم ذلك "أن حدود مجاله تتطابق مع حدود البداوة الرعوية أو على الأقل مع المناطق التي عرفت تأثير البدو السياسي (Ibid, p. 126) " ، متجاهلين التناقض بين نمط العيش الحضري الذي يعتبرونه شرطا من شروط الحياة الإسلامية الحقيقية وبين نمط العيش البدوي التائه الذي يحتقر العمل اليدوي والزراعة ويفضل أعمال النهب". على أننا لا نرى تناقضا بين نمطي العيش هذين، بل هناك تكامل بينهما لم يلحظه شلهود، فقد كتبنا في نفس الكتاب "أن الإسلام دين حضر وتجار نشره البدو" (ص. 129)، ورغم بعض المبالغة في هذه الصورة إلا أن الكاتب لو تنبه لها في خاتمة كتابنا لما وقع في هذا الخطأ! (المترجم)

الأمر بالغزوات الكبرى التي عرفتها القرون الأولى بعد الميلاد.

لم تخف هذه الميزة الرئيسية للإسلام عن التحليل الاجتماعي الذي اهتم مؤخرا بأصوله. فشلهود (J. Chelhod) سبق له أن اقترح[1] تفسيرا اجتماعيا لأصول الإسلام يرى أنه تعبير عن عملية تفريق تتدرج "من الفرد إلى الشخص ومن المقدس إلى الله"، وأن الأطوار المتوالية لهذه العملية حددها الظرف السياسي والاقتصادي لتلك الفترة، إذ يتبع طور البداوة انتشار المقدس و"ظهور المدينة" وتقديس الأسرة وعلمنة السلطة. فهيمنة القرشيين أدت إلى تأسيس "دين قومي" بمكة، سرعان ما تبين عجزه عن تلبية تطلعات الأشخاص في المجتمع المكي المادي والمركنتيلي، مما ساعد على التحول في البداية إلى دين توحيدي على النمط اليهودي-المسيحي، ثم إلى نجاح الدعوة القرآنية. إن هذا البناء المهم يعبر عن تفرد الوسط المكي ومتطلباته الروحية. على أن ما يؤخذ على هذا التفسير هي تلك الأهمية التي يوليها لـ"أطوار" متتابعة، بينما المدينة وإيديولوجيتها سابقة للبداوة في الصحراء، رغم حالات تحول البدو إلى حياة الاستقرار. وفي إطار تصور تركيبي أكثر منه تطوري، يرجع الفضل لوات (W. M. Watt)[2] في اقتراح تفسير للإسلام كرد فعل ديني على وضع اجتماعي "شامل" يجمع بين عناصر تعيش تناقضا لا يمكن إلا للدين الجديد أن يحله. لقد كان المثل الأعلى الأخلاقي لبدو الصحراء يقوم على "المروءة" وهي مفهوم معقد يؤسس روح الشرف على التضامن القبلي، أما في المدن القائمة على التجارة وتجهيز القوافل، كما هو حال مكة، حيث ينمو اقتصاد مركنتيلي تزداد فيه عزلة الفرد ويرتبط مصيره بالمصلحة الشخصية، فإن الوضع الاجتماعي كان مؤهلا لتقبل دعوة تقوم على

(1) Chelhod, 1958.

و قبله أنظر: Wolf, 1951.

(2) Watt, 1953; 1956; 1961.

مسؤولية الفرد، والاستعمال الرشيد للثروات، والبحث عن الخلاص، وكانت هذه هي دعوة النبي محمد ﷺ في فترتها المكية. وقد حل البناء المحمدي معضلة عدم التوافق بين "النزعة الإنسانية" لدى البدو والروح الفردية لدى الحضر، فالنبي محمد ﷺ اضطلع بدور الحاكم الواضع للنظم الضرورية لأمة المؤمنين. وقد قام رودانسون (Max. Rodinson) بتوسيع أفق هذه الآراء[1]، ولكن بنفس المنظور، فاعتبر أن التعايش بين المدن التجارية والقبائل البدوية في وسط الجزيرة العربية كان يتطلب إقامة دولة موحدة في البلاد، تجمع بين البدو والحضر، وتوجه طاقات البدو نحو الخارج. وهذا ما تطلب إيديولوجية قومية تستجيب لمتطلبات الضمير العربي. فالدول الحضرية في جنوب الجزيرة العربية لم تقترح أبدا على البدو مشروعا من هذا القبيل، مكتفية بإخضاعهم دون أن توفر لهم منفذا، أما النبي ﷺ فقد اقترح عليهم، في إطار الدين الجديد، مكانة تستجيب لأذواقهم وتوفر لهم إمكانية الحصول على غنائم وفيرة. إن هذه الإيديولوجية الفاتحة تبدو وكأنها الأداة الضرورية التي سمحت للحضر بفرض سيطرتهم على البدو، ومن المحتمل أن قرار مهاجمة الأراضي البيزنطية والفارسية لم يمكن سوى ردا على حركة ردة القبائل التي تبعت وفاة النبي محمد ﷺ، التي كانت تعتبر علاقتها مع النبي ﷺ علاقة شخصية. وقد انتبه أبو بكر وعمر إلى أن أفضل وسيلة للحفاظ على ولاء البدو تكمن في توجيههم نحو الفتح خارج الجزيرة العربية.

4. يمكن قبول هذا التفسير قبولا تاما، إلا أنه يجب تكميله بدراسة مقارنة وتحليل جغرافي لم تشرع فيهما مدرسة "علم الاجتماع" حتى الآن. والسؤال المطروح هو: من أين يستمد الإسلام تفرده؟ لماذا لم يتحقق هذا الالتقاء الرائع بين مجموعات بشرية من الحضر والبدو لا تبدو مستعدة للتوافق فيما بينها، إلا في هذه البقعة من المجال الشاسع لبراري وصحاري

---

(1) Rodinson, 1957.

العالم القديم؟ لقد رأينا فيما سبق أن التطور السياسي "الطبيعي" في منطقة تماس بين البدو والحضر يتميز بصراع شبه دائم وقطيعة دورية، على أن لا شيء من هذا القبيل حدث في الإسلام. ففي مقابل النظرية "الدورية" التي وضعها لاتيمور (Lattimore) لآسيا الوسطى توجد هنا استمرارية في الحركة ووحدة ظاهرة. وهناك سؤال ثان يرتبط بالسؤال الأول: لماذا تحقق هذا التحالف لصالح الحضر وليس لصالح البدو الذين كانوا يتفوقون بعددهم وقدرتهم على الحركة وقوتهم العسكرية؟ لنتخيل ماذا كان سيحدث، وليس هذا الخيال مستحيلا، لو أن الإسلام قاده ابن خيمة كبيرة وليس رجل ينتمي للبرجوازية المكية. لم يكن النبي محمد ﷺ جنكيز خان، ولا يجب أن ننسى هذه الحقيقة عندما نقيم المصير الذي آلت إليه دعوته. وقد ركز ساوندرز (Saunders)[1] هنا على السبب الرئيسي لنجاح الإسلام مقارنة بالإخفاق النسبي للفاتحين المغول، فالبدوي لا يكون فعالا كمؤسس إمبراطورية إلا إذا توفر لديه محرك أسمى تجسده إيديولوجية دينية قوية. هذا ولم تكن مؤشرات هذا النداء الروحي غائبة تماما لدى المغول، الذين عرفوا دعوة عالمية سياسية ودينية حقيقية، تحت حماية الإله السماوي الأكبر، واتجهت هذه الدعوة نحو الهيمنة العالمية[2]؛ إلا أن نفس الكاتب ذهب إلى[3] أن البدو لم يتمكنوا قط من تأسيس نظام سياسي قابل للبقاء إلا إذا ما احتكوا بمجتمعات متحضرة وتمكنوا من تشغيل الآليات التقليدية لإدارة البلدان التي فتحوها؛ والمغول، البعيدين أكثر من العرب عن مراكز الحضارة، كانت تتجاذبهم العديد من الثقافات الراقية وكانوا يفتقدون لأداة توحيد استثنائية كتلك التي توفرت للعرب والمتمثلة في لغة ارتقت بفضل وظيفتها الدينية، ولذلك آل أمر المغول إلى الذوبان في البلاد التي فتحوها. وانتبه ابن خلدون إلى أن قوة

(1) Saunders, 1965.

(2) Turan, 1955.

(3) Saunders, 1965.

البدو تكمن في امتلاكهم دينا راقيا يعلمهم الاتحاد والتحكم في النفس؛ فالعرب لا يمكنهم الوصول إلى الملك إلا إذا ما تشربوا بالدين عن طريق النبوة أو الولاية أو غيرها من الظواهر الدينية[1]. ومن بين كل البدو الفاتحين تمتع العرب دون غيرهم بهذه الميزة. من هذا المنظور، يبدو أن المنعطف التاريخي للإسلام كان غزوة حنين التي وقعت في 31 يناير 630 وشهدت انتصار المسلمين على حلف قبلي بقيادة هوازن، وقد نتج عنها الانضواء النهائي للبدو تحت راية الحضر المؤمنين والمتعلمين.

إن السبب الرئيسي لتفوق المدن يمكن البحث عنه داخل المدن ذاتها، وقد رأينا سابقا أن الجزيرة العربية قبل الإسلام تميزت بالثروة المعتبرة لمدن الحجاز والظرف السياسي والتجاري الذي كانت تعكسه هذه الثروة. وإذا ما تجاوزنا هذا التفسير الأولي، يتوجب علينا الوقوف على الظاهرة الأساسية المتمثلة في وجود مدن في الصحراء، وهي ظاهرة ليست ضرورة في حد ذاتها، فالمدينة تعني إقامة علاقات بعيدة المدى تشكل مصدر ثروتها، وكذلك قاعدة زراعية قريبة منها توفر لها مستلزمات العيش، وتضمن ديمومتها في حالة تراجع عائدات التجارة. وفي عدد من الصحاري لا يمكن التوفيق بين الحياة الحضرية ووجود البدو، وقد بين راكيتنيكوف (A. N. Rakitnikov) أن الزراعة الغير المروية تكاد تنعدم في آسيا المنغولية العليا ومنطقة التيان شان، حيث الشتاء القاسي والصيف الممطر، ففي المناطق الجبلية التي قد تصلح للزراعة القائمة على ماء المطر، يوافق فصل نمو النباتات المواتي للزراعة الفصل الذي يحتاج فيه البدو إلى هذه الأعالي لرعي قطعانهم، فأجهض البدو بذلك أي تطور ممكن للزراعة وما قد ينتج عنها من حياة الاستقرار والمدينة، فهذه الحياة لا يمكنها أن تتطور إلا بتخصيص قطع من الأرض للزراعة في المناطق المخصصة للرعي خلال الفصل البارد، حيث لا يخشى من منافسة

---

(1) Trad. Rosenthal, I, p. 305.

الرعي للزراعة في فصل نمو النباتات، غير أن هذه المناطق في الغالب صحار من نوع "غوبي" لا تصلح للزراعة، التي لا تكون ممكنة بواسطة الري عند منافذ الجبال بالقرب من مسالك البدو وتحت سطوتهم، حيث تنزل القطعان من مجالاتها الشتوية للرعي ولا تستثني في ذلك قطع الأراضي المروية الصغيرة وذات المواقع المكشوفة. بالعكس من ذلك يعرف جنوب غرب آسيا الوسطى شتاء ألطف وصيفا أجف أقرب إلى النمط المتوسطي، بحيث لا تتطابق مراعي البدو الصيفية، الذين يضطرون للصعود إلى الجبال والولوج إلى دواخلها، مع مجال الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار والذي تتميز به المناطق المشابهة للبراري. وبهذا الوضع تتمتع واحات السفوح باستقلالية أكبر تجاه البدو الذين يدفعهم لطف المناخ والرطوبة النسبية إلى التفرق بحثا عن المراعي التي تنشأ بعد نزول الأمطار، مما سمح للحياة الزراعية المستقرة أن تتطور على نطاق أوسع[1]. هذا ويمكن تطبيق هذه الآلية بالتحديد على الجزيرة العربية، مع فرق يتمثل في أن البدو لا يبحثون عن مراعيهم الصيفية في الجبال وإنما في الهضاب الشمالية المحاذية للهلال الخصيب، فكانت النتيجة تقسيما مماثلا، سمح للحياة الحضرية بواحات الحجاز أن تحافظ على استقلاليتها. وعلى العكس من أعالي آسيا الممطرة صيفا والتي رسخت فيها الطبيعة تفوق البدو، من جهة، والصحراء حيث صعوبة ممارسة التجارة الكبيرة ومردودها المحدود نسبيا الذي لم يسمح بتشكل مدن مهمة، من جهة أخرى، يتضح أن الشرق الأوسط الشامي-العربي المنتمي لمنطقة الصحاري الحارة ذات الأمطار الشتوية، هيأه ضيق المجال الصحراوي وموقعه المناسب لحركة القوافل، لأن يكون "مكانا" مميزا لازدهار المدن التجارية المؤهلة للاضطلاع بدور ريادي. فلا يمكن تصور وجود جنكيز خان في الجزيرة العربية كما لا يمكن تصور ظهور النبي محمد ﷺ في الهضبة المنغولية.

---

(1) Rakitnikov, 1960.

5. يمكن تفسير ضعف البداوة العربية في وجه التماسك النسبي للمدن بأسباب داخلية تخص تنظيم البداوة نفسه؟ لقد تم لفت الانتباه كثيرا وعن صواب لميل المجتمع البدوي إلى الانقسام والانسحاق. فـ"الفرقة" التي هي أكبر تعبير سياسي لمفهوم التضامن الأسري الصارم، لا تتجاوز في كل الأحوال أحجاما صغيرة جدا. وقد كتب مونتان (R. Montagne)[1] "أن هذا "الصغر" هو الذي يفسر ضعف التصورات السياسية والاقتصادية لدى الرعاة". ويبدو أن الانشطار إلى مجموعات صغيرة الحجم فرضه فقر المجال البيئي للصحراء الحارة. هذا ولم ينجز تحليل مقارن معمق يسمح ببلورة أفكار دقيقة بهذا الشأن، لكن المؤكد أن الأمر ليس كذلك بالنسبة للهضبة القارية (الآسيوية) ذات الأمطار الصيفية، حيث الوسط الطبيعي أكثر غنى ويسمح بكثافات سكانية أكبر بكثير. فقد تأسست في هذه الهضبة هياكل اجتماعية-سياسية معقدة وذات دعائم قوية، تتجاوز مستوى العصبة (عكس "الأحلاف" المهلهلة التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي)[2]. وتتمتع هذه الهياكل بفاعلية تفوق كل ما أوجده بدو الصحاري الحارة. فـ"إمبراطورية البراري"[3] هي إمبراطورية براري أوراسيا الباردة، حيث تتخذ السلطة أشكالا أكثر متانة، كما يدل على ذلك اختلاف الألقاب. فالبدو العرب بعيدون كل البعد عن مفهوم "الخان" المنتشر في البراري الباردة مع يحمله هذا اللقب من معان غنية ومن قوة وجلالة إمبراطورية[4]، فالزعيم عند العرب ليس سوى

(1) Montagne, 1947, p. 57-58.

(2) أعمق تحليل قام به فلاديميرتسوف، رغم صرامته المبالغ فيها أحيانا، أنظر: Vladimirtsov, 1948.

(3) هذا هو العنوان الذي اختاره غروسيه (Grousset, 1939) لحوصلته التاريخية حول تتابع إمبراطوريات الرحل في أوراسيا. والمقارنة مفيدة رغم تواضع وهشاشة الفصل الذي خصصه مونتان (R. Montagne, 1947) للهياكل السياسية البدوية (Ch. V, Les émirats bédouins, p. 137-159).

(4) عن طريق التداخل بين مفهومين متقاربين، هما قان (qan) الذي يعني في الأصل أمير،

"شيخا" أو "رجلا كبيرا". ومن المحتمل أنه يمكن تفسير التماسك الأكبر لبدو الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بالوسط الطبيعي الأكثر غنى الذي يميز هذه المنطقة المتاخمة للعالم الاستوائي[1]. أما الجزيرة العربية فهي تنتمي إلى نطاق يتضح فيه عجز الرحل عن التنظيم السياسي، ولا يجب التقليل من أثر هذا العجز الذي ساعد على هيمنة المدن.

يكمن أساس هذا العجز عن تطوير هياكل سياسية صلبة في الفوضى السائدة في المستويات الدنيا، حيث نلاحظ، حتى في المستوى البسيط المتمثل في تنظيم الأسرة ونظام القرابة، أن رحل الهضبة القارية قد طوروا إلى حدود قصوى من التنظيم مبدأ الانتساب الأبوي المباشر[2] الذي يعبر عن الوسط الطبيعي الذي يميز البراري الكبرى ونمط العيش المميز للبداوة الكبرى العدوانية المرتبطة بهذا الوسط. ورغم أن عالم الصحاري الحارة ينتظم وفق نمط مشابه، حيث تعتبر السلالات الأبوية الأساس الأمثل للمجتمع، إلا أنه يخضع لوضع أكثر تنوعا من خلال وجود بقايا جلية لنظم الانتساب للأم أو عناصر تنظيم إقليمي[3]، وتكرر وأهمية الهياكل الثنائية المقتبسة عن الهياكل الحضرية، والتقسيم الاجتماعي الأكثر تعقيدا الذي تلعب فيه "الطبقات" الدنيا والعبيد دورا كبيرا على الدوام. ويتضح لنا أن عالم البراري الباردة طور بشكل أفضل من عالم الصحاري الحارة الآثار الاجتماعية الطبيعية الناجمة عن البداوة الكبرى، وكأنه، من وجهة النظر الاجتماعية، يتميز ببداوة كاملة ومحضة، وهذا عنصر مهم يسمح بتقييم وتفسير تواضع البناء الداخلي للعالم

وقايان (qa?an) المرتبط بالسلطة الإمبراطورية السامية. أنظر: Krader, 1955-56.

(1) Bataillon, 1963, p. 35-36.

(2) نتوفر الآن على نظرة شاملة بهذا الشأن يعود الفضل فيها للتحاليل المفصلة التي قام بها: Krader,. 1963

(3) Watt, 1959; cf. note 8.

البدوي العاجز دوما عن تأسيس الهياكل السياسية والاجتماعية العظيمة التي عرفتها براري أوراسيا الكبرى.

د. المكانة الثانوية للحياة الزراعية في الإسلام

إن الالتقاء بين الحضر والرحل تحت إمرة الحضر، جعل الأنشطة الزراعية آخر اهتمامات المشروع الاجتماعي للدين الناشئ، ففلاحة الأرض في واحات الحجاز كانت عملا وضيعا مقارنة بالتجارة التي تعتبر نشاطا نبيلا. وهنا كذلك تقبل الإسلام الوضع القائم، وقد تم لفت الانتباه إلى الكيفية التي حلت بها الأنظمة الاجتماعية القرآنية المشاكل التي طرحتها البنية الاجتماعية للواحات التي كانت في طور التميز[1]، كما أن الدعوة الإسلامية لم تثمن العمل في الحقول، فالقرآن الكريم لا يعتبر نمو المحاصيل نتيجة للعمل البشري وإنما نتيجة للإرادة الإلهية، فالله هو منبت الزرع[2]، بينما الإنسان مسخر للقيام بذلك. وتظهر المكانة الثانوية للفلاحة بوضوح أكبر في الأحاديث النبوية، حيث يوجد حديث مفاده أن النبي ﷺ رأى سكة وشيئا من آلة الحرث فقال: "لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل"[3].

---

(1) Beliaev, 1954.

(2) اعتمد المؤلف في ذلك على ما ورد في القرآن الكريم في الآيات التالية: "أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، ولو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون" (الآيات 63-65، من سورة الواقعة، القرآن الكريم) (المترجم).

(3) Ibn Khaldoun, Trad. De Slane, I, 297; II, 347.

الحديث رواه أبو أمامة الباهلي (ض)، ورد في شرح الإمام ابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، والمقصود هنا بالسكة هي الحديدة التي تستخدم في حرث الأرض. والمراد من الحديث ما يفرضه الولاة من حقوق الأرض التي ترهق كاهل العاملين فيها وليس احتقارا للعمل الزراعي (المترجم).

كما يوجد حديث آخر في نفس المعنى ينسب إلى الرسول ﷺ، رواه أبو داود عن ابن عمر وأورده مختصر الصحيح الجامع (الجزء الأول)، ونصه: "أخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا يرفعه حتى ترجعوا إلى دينكم

وقد بذلت فيما بعد جهود للتوفيق بين الإسلام والحياة الزراعية، من قبيل ما قام به البخاري الذي أخرج أحاديث في هذا الاتجاه من قبيل: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"[1]. ويذكر حديث آخر أن إنسانا أحب الأرض، يزرع في الدار الآخرة ويجني محاصيل تفوق الجبال[2]. وتبين أحاديث أخرى أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقومون بالأعمال الزراعية. على أن هذه ليست سوى تعديلات وتصويبات، فخارج المدينة ليس هناك ما يستحق الذكر سوى البدوي رغم كل عيوبه؛ فهو وحده الجدير بلقب "الأعرابي" المتميز، الذي كان يستعمل في الجاهلية للدلالة على سكان المناطق البدوية في الجزيرة العربية شمال الربع الخالي، بما في ذلك السكان المستقرين في الواحات لتمييزهم عن حضر جنوب الجزيرة العربية، ولم يستعمله النبي محمد ﷺ إلا للدلالة على البدو[3] هذا وأول سؤال قصير يطرح على رجل في أطراف صحراء الشام هو: هل أنت عربي أم فلاح؟ فالعربي معناه هنا "المترحل، البدوي". وليس هناك أفضل من هذا التعبير الشعبي للدلالة على أن المزارع والفلاح يوجدان خارج نطاق العالم العربي"[4].

---

* (عن الصحيح الجامع، ج/ I)، وأذناب البقر كناية عن المحراث، وكما يفهم من ظاهر نص هذا الحديث فإنه لا يوجد تلازم بين حياة الذل وممارسة الزراعة، وإنما الحديث يحث على الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي (المترجم).

(1) El-Boukhari, Trad. Peltier, chap. I.

أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المزارعة في باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، وقد رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم (المترجم).

(2) Ibid, 20.

(3) von Wissmann, 1959, p. 910; Grohmann, article Al-'Arab, EI (2).

(4) Weulersse, 1946, p. 69.

2. انتشار الإسلام ونتائجه

يتبين مما سبق أن الإسلام دين حضري، يجد أفضل تعبير عنه في مجال المدينة، غير أنه انتشر بفضل البدو المجندين في إطار حركات الفتح الحربية الكبرى، بينما كان الفلاحون في البداية أجانب بالنسبة لهذا الدين. إن هذا الطابع الثلاثي الأبعاد للإسلام يشكل أساس تحليل المناهج والنتائج التي انتشر من خلالها.

أ. التحول إلى البداوة وصمود الفلاحين أمامه

1. إن أكثر نتائج انتشار الإسلام دويا، أي تلك التي أحدثت قطيعة مع الحضارة السابقة له في البلاد التي هيمنت عليها العقيدة الجديدة، هي تلك المرتبطة بمشاركة البدو في الفتح. ففي الوقت الذي لم يحدث فيه الإسلام قطيعة ذات أثر مع التقاليد الحضرية، وتقبل نسبيا، على الأقل على مستوى الخطوط العامة، تراث العالم القديم فيها، يلاحظ أن انتشار البدو نتج عنه خراب وانحطاط كبير خاصة وأن المناطق التي تعرضت له هي نفسها التي شهدت أقل الأضرار خلال "الغزوات الكبرى" التي تسببت في انهيار الإمبراطورية الرومانية في أوربا، باستثناء الفترة الوندالية بإفريقيا، كما أن هذه المناطق هي التي حافظت أفضل من غيرها على تركة الازدهار الروماني. كما سبق ذكره، تجاوز الفتح الإسلامي غزوات البدو ولم يرتبط دوما بها، غير أنه في منظور التاريخ العالمي، فإن أعظم بصمة تركها الدين الجديد، مع فارق زمني في بعض الأحيان، هي انتصار البداوة وتراجع الحياة الحضرية، و"تحول شامل" إلى البداوة كانت نتائجه ثقيلة خاصة وأنه مس البلاد التي كانت الأكثر عمرانا وحضارة بعد الغزوات الجرمانية التي اجتاحت الضفة الشمالية للبحر المتوسط[1].

---

(1) يأخذ المؤلف بعين الاعتبار الأوضاع السائدة بالمناطق الزراعية المتاخمة للصحراء

2. إن ما يفسر استمرارية هذه الظاهرة هو تنوع الوظائف التي حددها الزعماء والملوك المسلمون للبدو، فقد كان هؤلاء عادة أدوات الفتح المباشرة والقوة الضاربة للدين الجديد، وكان الأمر كذلك خلال السنوات الأولى لنشر الإسلام في منطقة الهلال الخصيب ومصر، حيث كانت القبائل العربية الأداة الرئيسية لهذه العملية، وكذلك الشأن طوال الفترة السلجوقية، إذ كان الأمراء يتعمدون إرسال الرحل القادمين حديثا من آسيا الوسطى نحو مناطق الثغور (أوك (uc) باللغة التركية)، على أمل التخلص من هؤلاء الرعايا المشاكسين الذين كانوا يتمتعون بحماسة المعتنقين الجدد للدين وشكلوا الجزء الأكبر من المجاهدين (غازي gâzi)[1]، كما لعبت هذه الظاهرة دورا حاسما في تتريك بلاد الثغور مثل أذربيجان[2]، فالأتراك المعتنقون للإسلام حديثا بفضل دعوات بسيطة، قبل أن تعقدها المذاهب، اضطلعوا في الشرق بدور جنود العقيدة، ويذكر محمود الكشغري في هذا الصدد حديثا نصه: "إن لله جنودا بالمشرق اسمهم الترك ينتقم بهم ممن عصاه"[3].

بالهلال الخصيب والمغرب العربي والتي انحسرت الزراعة بها منذ فترة طويلة قبل ظهور الإسلام بفعل زحف البدو على الأرض الذراعية طلبا للمراعي الخصبة، وقد ارتبطت الفتوحات الإسلامية لهذه المناطق بتراجع البداوة وتوسع الزراعة بالجهات المتاخمة لوادي الفرات وأطراف الشام وسفوح الأطلس الصحراوي. ففي بلاد المغرب العربي ارتبطت البداوة أساساً باختراق قبائل الجيتول (زناتة) لخط الدفاعات الرومانية (الليمس) في تقدمها نحو الأراضي الزراعية في الشمال في القرن الثالث الميلادي، لتصبح ظاهرة عامة في القرنين الخامس والسادس بفعل الاجتياح الوندالي والتراجع البيزنطي، وبعد توقف هذه الظاهرة مؤقتا بعد الفتوحات الإسلامية (القرن السابع الميلادي)، تجددت في القرن العاشر بفعل التغريبة الهلالية وتحالفها مع عشائر زناتة البربرية (المترجم).

(1) بخصوص مفهوم أوك، أنظر: Wittek, 1944, p. 10-11.

(2) Sümer, 1957.

(3) ذكره: Barthold, 1945, p. 69. بن محمد بن محمود القزويني و هو حديث مأخوذ من كتاب الإمام محمود الكشغري "ديوان لغات الترك". كما أورد هذا الحديث الإمام زكرياء (ت. 1283 م) بنصه الكامل في كتابه "آثار البلاد وأخبار

من جهة أخرى كانت الأسر الحاكمة الحضرية تميل إلى استعمال البدو لحل الصراعات الداخلية، كما حدث مع غزو قبائل بني هلال وبني سليم العربية لشمال إفريقيا في منتصف القرن الحادي عشر والتي أرسلها الخليفة الفاطمي بالقاهرة في حملة تأديبية كانت لها آثار حاسمة في التطور البشري لبلاد المغرب العربي. وكثيرة هي الحركات السياسية-الدينية التي جندت البدو لتحقيق نجاحها، من قبيل المرابطين الذين سيطروا على المغرب الأقصى بفضل كبار البدو من البربر، والصفويين الذين وحدوا إيران بفضل البدو التركمان المتأثرين بالدعوة الشيعية، والوهابيين الذين وجدوا في أسرة آل سعود أداة للسيطرة على الحجاز. إن البدو كانوا دوما مستعدين لإتباع أول مصلح نظرا لبساطة معارفهم الدينية، كما كانوا يجدون في ذلك حجة لعدوانيتهم وفرصا سانحة لتحصيل الغنائم، ولذلك فإنهم طبعوا التاريخ الإسلامي كله.

3. ما الذي يفسر نجاحات البدو وما الذي حد منها؟ تتمثل الحدود الطبيعية للبداوة وقواعد انطلاقها في حدود الزراعة المطرية التي لا تقوم خارجها حياة حضرية باستثناء المراكز المعزولة المتمثلة في واحات الزراعة المروية. إن رسم هذه الحدود بدقة صعب إلى حد ما، نظرا للتفاوت الكبير في نسبة التساقط في هذه المناطق الشبه الصحراوية، مما يحد من صلاحية الاعتماد على معدلات التساقط؛ ومما يزيد الأمر تعقيدا طغيان الظروف الطبوغرافية المحلية على غيرها من العوامل المؤثرة في التساقط، مما يجعل الاعتماد على مجموع الأمطار دون جدوى[1]. فهذه الحدود تتأرجح بين نطاق

العباد " إن لله جنودا بالمشرق اسمهم الترك ينتقم بهم ممن عصاه فكم من حافيات حاسرات يسترحمن فلا يرحمن فإذا رأيتم ذلك فاستعدوا للقيامة" والظاهر من هذا الحديث أن المقصود بالترك هنا الأقوام التي ورد ذكرها في القرآن باسم " ياجوج وماجوج ". ليس لهذا الحديث إسناد. (المترجم)

(1) يوجد نقد أساسي لمفهوم حدود الزراعة المطرية في كتابات كل من: Wirth, 1962;

متوسط التساقط السنوي 200 مم و350 مم، حيث تقترب من نطاق 200 مم في الهضبة المنخفضة التونسية المعتمدة على طرق زراعة الزيتون الصفاقسية في التربة الخفيفة، بينما تتبع نطاق 350 مم في الهضاب العليا للجزائر الوسطى، بحيث أن تغيرات مناخية طفيفة قد تحدث اختلافات مناخية معتبرة.

لقد كانت الحياة الحضرية هشة في مناطق الأطراف هذه، إذ توسعت البداوة بشكل كبير في السهول الشبه الجافة في أطراف المنطقة الصحراوية والتي كانت تسودها زراعة الحبوب، حيث فرض الرعاة هيمنتهم بسهولة أكبر، وتمكنوا من إيصال الإسلام إلى حدود مجتمعات فلاحية ذات كثافة وتماسك ومعتمدة على وسط مناخي مستقر. هذا هو الوضع الذي عرفته، على سبيل المثال، الحدود الشمالية الغربية للهند التي توافق السهل الهندي-الغانجي الواقع في نطاق التساقط السنوي 500-600 مم، وهذه حدود مناخية رعوية نموذجية تترجم التوازن الحربي بين رعاة المنطقة الجافة الذين اعتنقوا الإسلام وسكان الجزء الشرقي للسهل الممارسين للزراعة وذوي الكثافة العالية. ونفس الظاهرة يمكن ملاحظتها في أوربا إلا أن الحدود أوجدها البحر الذي منع التوسع البدوي في شبه الجزيرة الإيبيرية وحد منه كثيرا في البلقان، فساعد بذلك المجتمعات الفلاحية على مقاومة أكبر في هذه المنطقة المعتدلة الرطبة، حيث كان البحر عاملا مساعدا للعوامل المناخية.

هكذا ارتسمت الحدود القصوى لتقدم البداوة التي لعب فيها الأثر غير المباشر للعوامل المناخية دورا مهيمنا في تحديد النتائج البشرية لنسبة تساقط يؤدي ارتفاعها مباشرة إلى حضارات فلاحية أكثر متانة وكثافة. هذا ولا يجب إغفال التأثيرات المباشرة للمناخ، فقد بينت دراسات[1] أن نطاق استعمال الجمل في شمال إفريقيا يوافق نطاق التساقط السنوي 500 مم، وما يفسر هذه

Despois, 1940, p. 444 ss; Jaeger, 1937.

(1) Despois, 1962; Charnot, 1959.

الظاهرة أن المناطق الرطبة تشهد تكاثر نوع من الذباب لا تقاوم الحيوانات لسعاته، إضافة إلى عوامل بيولوجية مشابهة، لهذا كان توسع البدو في هذه المناطق عرضيا ولا يتجاوز نهاية الفصل الجاف خاصة.

4. هذا وتوجد عوامل بيوجغرافية لعبت دورا في الحد من انتشار البداوة الإسلامية. فالراعي يحتاج إلى مجالات مكشوفة، وتناسبه البراري الجرداء، وتصده الغابة حيث تصعب حراسة القطعان ويستحيل انتقالها في مجموعات متماسكة، كما لا يمكن فيها للفرسان القيام بهجمات مفاجئة في جماعات كبيرة. وتزداد مقاومة المجتمعات الفلاحية لدى توفر غطاء نباتي يشكل حاجزا في وجه تقدم الرعاة، وقد كان هذا الدور حاسما في السهل الروسي، حيث احتمت الإمارات الروسية الكبرى في فرجات البراري المشجرة، وشكلت الغابات دفاعات زادها تحصينا استعمال الأشجار المقطوعة[1] شمال البراري التي اجتاحتها العصبة الذهبية. أما في المناطق التي تم اجتياحها فقد جعلت الغابة تقدم البدو الفاتحين يتم على مراحل، حيث شكلت حواجز متتالية أخرت تقدمهم لفترات قد تطول أو تقصر. وأول حدود لتقدم الأتراك في الأناضول على حساب إمبراطورية نيسيه (Nicée) خلال القرن الثالث عشر تجسدت في المناطق الغابية للسلاسل البونطية (pontiques) والكتل الفريجية (Phrygie) عكس براري الأناضول الداخلية، فاحتفظ الإغريق بذلك بكل منطقة كاريا (Carie) الجبلية الخضراء المطلة على البحر، بينما شهدت سهول ليسيا الداخلية (Lycie) والكيبيراتيد (Kibyratide) المرتفعة والجرداء توافد بدو الثغور. وفي شمال شرق البلاد مكنت الغابة العالية الكثافة للأراضي البونطية المنخفضة إمبراطورية طرابزون (Trébizonde) من الاستمرار حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر[2].

---

(1) Camena d'Almeida, 1932, p. 81-83.

(2) Planhol, 1965.

أما في العالم العربي-البربري فقد كانت الأوضاع أقل وضوحا في وجه الغابات الأقل كثافة والتي لا تشكل حواجز منيعة. وحتى بداية القرن العشرين كان حلف زمور البربري المغربي الكبير يقضي الشتاء في غابة معمورة الفلينية الكبيرة شمال مدينة الرباط[1]،كما أن التضاريس وليس الغابات هي التي أبعدت البدو العرب عن الجبال المشجرة.

أما في المناطق الاستوائية الحارة والرطبة فقد لعب الغطاء الغابي دورا حاسما، حيث الذباب المضر للقطعان الذي تنقله الغلوسينات (glossines) المعروفة بذباب تسي تسي الذي تبحث عن ظلال الغابة الكثيفة والأروقة (galeries ripuaires)، جعل من المناطق الاستوائية نطاقا محرما على الحضارات الرعوية، في الوقت الذي وجد فيه الإسلام في شعوب البول (Peuls) البدوية ناشريه الرئيسيين في البراري المعشوشبة لإفريقيا السوداء الغربية.

5. تلاحظ فوارق كبيرة في الدور الذي لعبته التضاريس. فقد كان رد فعل المجموعتين البدويتين الكبريين اللتين ساهمتا في نشر الإسلام، أي العرب والأتراك، مختلفا اختلافا كبيرا في مواجهة الجبال، وهذا الاختلاف اختياري في البداية، ثم فرضته المستلزمات البيومناخية للحيوانات المستعملة[2]. فالأتراك بصفتهم بدو البراري الباردة والجبال القارية لآسيا الوسطى، كانوا يستعملون في تنقلاتهم الجمل ذا السنامين والمعروف بجمل باكتريان (chameau de Bactriane) ذي الحدبتين ؛ أما العرب وهم بدو عروق وصحاري الجزيرة العربية الحارة فقد كانوا يستعملون الجمل ذا الحدبة الواحدة. هذا ويكسو جمل باكتريان وبر كثيف جعله حيوانا مقاوما للبرد، إلا أنه لا يطيق الحرارة وخاصة الحرارة الرطبة، كما أن قامته الكبيرة والممتدة

---

(1) Lesne, 1959.

(2) أخذ الجزء الأكبر مما يلي من: Planhol, 1962, p. 119-120.

التي تجعله مربوع القد بالإضافة إلى أرجله القوية، تجعله يتأقلم في الجبل والمساحات الحجرية والبلاد ذات التضاريس الوعرة والمنحدرة عموما، رغم أنه كان في الأصل من حيوانات الأراضي المسطحة والرملية. هذا وقد لفتت هذه الخصائص الجبلية التي يتمتع بها جمل باكتريان والسلالات المولدة منه الملاحظين المتعودين على الجمل ذي الحدبة الواحدة، فقد كتب عالم الطبيعة تشيهاتشيف (Tchihatchef)[1] أن "سفينة الصحراء أصبحت في الأناضول منافسا للتيس الألبي"، ونفس الملاحظات سجلها صحفي بريطاني قرب قمة زيغانا (Zigana) على الطريق الرابط بين طرابزون وأرضروم: "حتى الآن كنا ننظر إلى هذا الحيوان على أنه متعود على البلاد الحارة والصحاري الرملية فحسب، إلا أننا وجدناه هنا يتنقل عبر جبال عالية في جو شديد البرودة بحمولته الثقيلة عبر طرق صعبة أو يكسوها الثلج"[2]. أما البعير أو الجمل ذو الحدبة الواحدة فأرجله الهشة والعالية تجعله غير مناسب في المناطق الجبلية، رغم وجود بعض السلالات المحلية المتأقلمة مع الجبال في عسير وحضرموت بالجزيرة العربية[3] أو في الهقار[4]، على أن عدوه الرئيسي هو برد الشتاء، ففي شمال الجزيرة العربية تقل مقاومته في فصل الشتاء وجرت العادة أن يدخل رأسه على الأقل إلى الخيمة خلال الليل اتقاء للبرد[5].

كانت نتائج هذا التباين حاسمة، فالأتراك تنقلوا عبر الجبال وبحثوا عنها وجعلوها مجالهم المفضل، عكس العرب الذين تجاهلوها وتجنبوها مكتفين بنشر سطحي للإسلام فيها ونادرا ما سيطروا عليها تماما، فالأتراك هم بدو الأعالي والأراضي المرتفعة والبراري الباردة، بينما العرب هم بدو

(1) Tchihatchef, 1864, p. 141.
(2) Macdonald, 1893, p. 56.
(3) von Wissmann, 1959, p. 907.
(4) Lhôte, 1955, p. 274.
(5) Dickson, 1949, p. 414.

السهول والصحاري الحارة. وعندما تلتقي المجموعتان كما هو الحال في زاغروس (Zagros) وفي فارس (Fârs) يحصل تقسيم دقيق جدا بينهما حسب الارتفاع، حيث انتشر الأتراك الكاشكاي (Kachkai) في الأعلى، والعرب في الأسفل، وحل الفرس بينهما؛ وتتناوب القبائل البدوية من أصول مختلفة على استعمال نفس المراعي، فيترك الأتراك للفرس ومن بعدهم العرب أراضي الرعي التي يغادرونها تدريجيا نحو المراعي الجبلية المرتفعة في وسط فصل الصيف[1]. فالجبل صديق مضياف للبعض وعدو منفر للبعض الآخر.

هذا ويمكن تحديد معيارين كميين لهذا التباين. أولهما الحد الأعلى للسكن الشتوي الدائم المنخفض كثيرا في البلاد التركية بالأناضول، فهو في الساحل الجنوبي للأناضول يقع على ارتفاع 1,100 متر عند سفح شال داغ (Çal dag) ويشيل غول داغ (Yeil göl dad) في ليسيا، إلا أنه يوافق ارتفاع 500 متر غير بعيد من هنا في الواجهة الجنوبية الغربية لسندراس داغ (Sandras dad)، وينزل إلى 150 مترا فقط عند الحافة الجنوبية الشرقية لنفس الجبل شرق سهل كويشغيز الساحلي (Köycediz)[2]؛ بينما في الجهة المقابلة على الساحل السوري اللبناني يرتفع مستوى هذا الحد غالبا إلى 1,300–1,400 متر، كما أن أكبر القرى اللبنانية تقع على ارتفاع يتراوح بين 1,100 و1,300 متر[3]. أما المعيار الثاني فيتعلق بالكثافة السكانية المتدنية للجبال التركية، أي الجبال البافلاغونية (montagnes paphlagoniennes) والقوس الذي تشكله جبال طوروس (Taurus) التي تكاد تخلو من السكان[4]، بينما تعتبر الكثافات العالية وضعا طبيعيا في جبال العالم العربي-البربري، من قبيل كثافة 22 في الكيلومتر

(1) Barth, 1959.

(2) Planhol et Inandik, 1959 a, 1954 b.

(3) Vaumas, 1953.

(4) Tanoğlu, 1959.

المربع المسجلة في الكتلة الوسطى للأطلس الكبير حسب إحصاء 1936[1]، والتي تفوق بكثير متوسط الكثافة في المغرب الأقصى آنذاك والتي بلغت 15، وكذلك الأمر بالنسبة لكثافة جبل نفوسة الشرقي التي بلغت 25 في الكيلومتر المربع سنة 1915، قبل أحداث نهاية الحرب العالمية الأولى[2] ؛ والأمر أكثر وضوحا بالنسبة للكثافات الاستثنائية المسجلة في بعض الكتل الجبلية، والتي بلغت 173 في الكيلومتر المربع في دائرة تيزي وزو في القبائل الكبرى[3] سنة 1954، و161 في الكيلومتر المربع في لبنان باستثناء بيروت[4]، و88 في الكيلومتر المربع في جبل العلويين[5].

تثبت هذه الأرقام التحول الكامل للجبال التركية إلى نمط البداوة مقابل المقاومة الحضرية الجبلية في العالم العربي، حيث توقفت الموجة البدوية التي اجتاحت الصحاري والهضاب عند سفوح الجبال ولم تتمكن من ولوجها، ولم تنتقل إلى نمط البداوة سوى كتل جبلية صغيرة جدا لا تعدو أن تكون سوى نتوءات صخرية تطل على ممرات رسوبية واسعة، مثل الأطلس الصحراوي بالجزائر، وكذلك الأمر بالنسبة لمناطق الهضاب العشبية الشاسعة، مثل الأطلس الأوسط الذي يشكل مجالا لجماعات من البربر تحولوا إلى البداوة بفعل انعدام الأمن الذي ساد بعد الغزوات الهلالية ؛ في مقابل ذلك لم تأثر البداوة على الكتل الجبلية الكبيرة التي ترتفع فوق الصحاري، حيث حافظت عموما على نمط عيش قديم وزراعات مروية في شكل مدرجات في قلب الأودية، بالإضافة إلى الزراعة المطرية الممارسة في المنحدرات العليا ونمط عيش رعوي يقوم على التنقل لمسافات قصيرة. من جهة أخرى، عرفت

(1) Dresch, 1941.

(2) Despois, 1935.

(3) Despois, 1960.

(4) Vaumas, 1953.

(5) Vaumas, 1960.

الجبال الساحلية المتوسطية، أي لبنان وجبل العلويين والقبائل الكبرى، والتي ظلت حتى غزوات القرون الوسطى كثيفة الأشجار وقليلة السكان، تزايدا معتبرا في عدد السكان اللاجئين من السهول المجاورة، مما أحدث انقلابا حقيقيا في التوزيع السكاني للعصور القديمة. وقد شكلت الجبال التي حافظت على إطارها البشري القديم وجبال اللجوء التي أعادت تشكيلها تقلبات العصر الوسيط في المجال العربي كله حواجز كبيرة في وجه البداوة، وعموما في وجه عملية التعريب (حالة الجبال المغاربية التي بقيت بربرية اللغة رغم تقبلها للإسلام نظرا لإطارها الديني البدائي وتحولها غير المكتمل للمسيحية)، وحتى في وجه انتشار الإسلام (حالة لبنان وأراضي الحبشة المرتفعة)؛ بينما عرفت جبال أخرى تطور نحل خارجة عن التوجه الديني العام، مثل العلويين في جبل الأنصارية والدروز في جبل الدروز والزيديين في اليمن، مما يدل على الانتشار السطحي للإسلام في هذه المناطق. وقد وجد الإسلام العربي في التضاريس الجبلية أكبر الحواجز التي حدت من نجاحاته، فقد لاحظ ابن خلدون أن العرب (البدو) لا يهيمنون سوى على بلاد السهول[1]. ويختلف الأمر تماما في المجال التركي الذي كان البدو فيه يمتلكون حيوانا مكنهم من التقدم داخل الجبال، بالإضافة إلى ميلهم الأساسي للعيش في مواطنهم الصيفية المعروفة باليايلا (Yayla) التي كانت تذكرهم بإطار عيشهم التقليدي في براري آسيا الوسطى المرتفعة. ويجب الوقوف على معنى كلمة يايلا في اللغة والروح التركية، فهو يجمع بين معاني البرودة، والمياه الجارية الباردة، والمراعي الوفيرة، التي تشكل صورة حقيقية للجنة. إن هذا المعنى هو الذي يفسر انجذاب الأتراك نحو الجبال التي حولوها إلى نمط البداوة بشكل مباشر أو غير مباشر بتحول أهاليها المستقرين إلى نمط العيش البدوي وبتزايد مدى التنقلات الرعوية القصيرة التي كانت سائدة في السابق، كما هو الحال في كردستان ولورستان.

(1) Prolégomènes, Trad. de Slane, I, 309-310.

6. هذا وقد سمحت عملية اختلاط جمل باكتريان والبعير بإيجاد صنف من الجمال سمح للأتراك بالدخول تدريجيا إلى السهول المنخفضة التي اتخذوها مواطن لقضاء فصل الشتاء. والجمال المستعملة في الأناضول مولدة من جمل باكتريان (الذكر) والبعير (الأنثى). على أن هذا النوع الهجين كثير التوالد[1] ويفقد خصاله بسرعة مما يستوجب إعادة إقحام عينات أصيلة من جمل باكتريان والبعير بشكل دوري في عملية التوالد وذلك بجلب هذين الصنفين من بلاد فارس وبلاد الرافدين[2]. ولا يحتفظ بالعينات الأصيلة من الصنفين في الأناضول إلا للتوليد، كما أن الحصول على الجمال المستعملة في القوافل يتطلب تقديرا دقيقا لنصيب كل صنف في دمائها، حسب مجال استعمالها أي وسط الأناضول أو المجال المتأثر بالمناخ المتوسطي. هذا وتعود الشواهد عن توليد سلالات مختلطة من الجمال إلى القرن العاشر على الأقل[3]، وقد طور أساليبه الرحل الأتراك في تركمنستان أو في شمال إيران، الذين كانوا أكثر ابتكارا من أقرانهم من العرب وأكثر حظا من دون شك، لدى دخولهم مناطق حصل فيها التداخل الجغرافي بين الصنفين من الجمال. على كل فإن تقنية التوليد كانت وسيلة لانتشار أشمل للبداوة التركية، التي كانت جبلية أساسا قبل أن تمتد آثارها شيئا فشيئا إلى السهول المنخفضة، حيث كادت أن تختفي الحياة الفلاحية، بوتيرة مختلفة من مكان إلى آخر، من كل سواحل بحر إيجة والبحر المتوسط.

7. هكذا يمكن تحديد اتساع ومدى عملية التحول إلى البداوة في المجالات الثقافية المختلفة وإن كانت النتائج نفسها في كل مكان. فقد

---

(1) رغم الأخطاء السائدة بهذا الخصوص في الأدب الغربي. أنظر في هذا الشأن التصويب الذي قدمه كولباكوف: Kolpakow, 1935.

(2) Van Lennep, 1870, II, p. 162-164.

(3) Al Maçoudi, T. III, p. 4.

أحدثت البداوة شروخا مهمة في كيفية شغل الأرض بين مراكز معزولة ذات كثافة سكانية عالية واستغلال مكثف للأرض من جهة، ومساحات شاسعة فاصلة يتنقل عبرها الرعاة. إن هذا الانشطار في الحياة الريفية وهذا التفكك الذي أصاب تنظيما إقليميا كان في السابق أكثر تواصلا، لم يسفر فقط على نتائج سلبية فيما يخص العناصر الأنثروبولوجية-الجغرافية بل كانت له بعض الإيجابيات، ففي المناطق شبه الجافة التي أسفر استيطانها في العصور القديمة عن استغلال خطير للأرض تسبب في تدهور محسوس للمجال الطبيعي، أدى انتشار نمط أقل كثافة في شغل الأرض التي توضع في "حالة سبات" وهي مفيدة للإمكانات الطبيعية لأنها تسمح بتجدد خصوبة التربة؛ ففي الوقت الذي أدى فيه انتشار الحياة الفلاحية في العالم الروماني أو البيزنطي إلى تراجع سريع للغابات، على الأقل في السهول والأودية[1]، سمح قدوم البدو بنمو الغابة من جديد في مناطق تعرف نسبة تساقط كافية[2]. وفي المجال التركي كانت الفوارق الجهوية أقل حدة، حيث أن انتشار البداوة كان أكثر اتساقا وشمولية ولم يستثن الجبال والسهول على حد سواء، وانحصرت المقاومة في واحات حضرية كبيرة، وفي هذا المجال كانت نتائج وضع الجبال في حالة احتياط أكثر فائدة. على العكس من ذلك انجرت عن اتخاذ الجبال كملاجئ في المجال العربي حالات احتقان خطيرة وانقراض مبكر وسريع للغابات زالت معه غابات النطاقات المرتفعة، والتي كانت تمتد على مساحات شاسعة في القرون الإسلامية الأولى، فتوقف بذلك إمداد السواحل الجنوبية للمتوسط

(1) أنظر:

Darby, 1956; Semple, 1931, chap. V, Ancient Mediterranean forests and the lumber trade, p. 261-296.

و كذلك: Lombard, 1959 الذي يذكر بخصوص قبرص عن: Strabon, XIV, 6, 5 الذي وصف انقراض الغابة في السهول.

فيما يخص الأناضول، أنظر: Brice, 1955; de Planhol, 1965, a.

(2) هناك أمثلة تخص الأناضول في: Planhol, 1965 a, note 53, p. 115.

بخشب بناء السفن على ضفافه الشمالية والغابات الأناضولية، كما انجر عن تدهور الغطاء الغابي في الجبال تضخم سكاني سريع تسبب في موجات هجرة جبلية كبيرة انطلاقا من لبنان وجبل العلويين والقبائل الكبرى (حيث توجد شواهد على هذا النوع من الهجرة منذ القرن الثامن عشر).

هذا ويجب التطرق بوجه خاص للأطراف الاستوائية، حيث أن فقر المراعي دفع الرعاة إلى ممارسة حرق الغطاء النباتي الطبيعي بشكل كبير، ليس بهدف إيجاد مساحات لتنقل القطعان وإنما للمساعدة على نمو أعشاب طرية وصالحة للاستهلاك في بداية فصل الأمطار وجعل المراعي أكثر سهولة للاستعمال. إن النيران التي تسببت أكثر من غيرها من العوامل في اتساع نطاق السهول المعشوشبة الاستوائية مكان الغابات الجافة ذات الكثافة المنخفضة التي كانت تشكل الحيز المناخي (climax)[1]، كانت من فعل الرعاة، بينما ظلت الحرائق التي يشعلها المزارعون محدودة. من جهة أخرى، ونظرا لهيمنتهم السياسية على المزارعين، عمل الرعاة على إزالة أنظمة الزراعات المتصلة والمتقنة التي تسمح بتجدد خصوبة الأرض والتي كان يمارسها الفلاحون الزنوج الأوائل، واستبدلوها بأنظمة واسعة النطاق تعتمد على أسلوب إراحة الأرض و تضمن مجالا لقطعانهم، إلا أنها تؤدي إلى انجراف التربة[2] فارتبط بذلك انتشار الرعاة في المنطقة الاستوائية بالتصحر عموما.

ب. الحضر والفلاحون:

1. في الوقت الذي اعتمد فيه انتشار الإسلام في الأرياف على البدو أكثر منه على المزارعين، كان المجال الحضري أكثر تقبلا من غيره لازدهار الدين الجديد. وتعود المكانة الخاصة للمدن في الإطار العام للأقاليم

---

(1) Aubréville, 1949; Gourou, 1947, p. 64-65.

(2) Hurault, 1964.

الإسلامية إلى أن الدور المميز للمجال الحضري في الدين الإسلامي أدى إلى تأسيس مدن كثيرة. وبالرغم من أن البلاد الإسلامية بقيت إلى عهد قريب في منأى عن الثورة الصناعية ومن أن انتشار البداوة في الأرياف جعل أسس الحياة الإقليمية هشة في قطاعات شاسعة، فإن عدد المدن تكاثر بشكل كبير لأسباب مختلفة، منها : القاعدة الاقتصادية التي وفرتها التجارة التخزينية ودور الوسيط الذي كانت تلعبه هذه البلدان في التجارة الدولية الكبرى وتجهيز القوافل عند تخوم المناطق الجافة ؛ وكون المدينة من المثل العليا للدين الإسلامي، مما أدى إلى إنشاء مدن مثل مدن المعسكرات التي أسسها الفاتحون في العهد الأول في مواجهة المدن السابقة للإسلام (على سبيل المثال الفسطاط التي تحولت إلى القاهرة فيما بعد، وكلمة فوساطون (fossaton) تعني المعسكر باللغة الإغريقية) وذلك تأكيدا للشخصية الإسلامية في وجه ما سبقها، وكذلك الرباطات التي هي نوع من الزوايا المحصنة المخصصة للمجاهدين المرابطين المنتشرين خصوصا على الثغور البحرية على طول السواحل الشرقية والغربية للمغرب العربي، وقد نشأت عن هذه الرباطات مدن عديدة، تضاف إلى ذلك المدن الأميرية التي تكاثرت بفعل عدم استقرار الأسر الحاكمة، وعلى الأرجح بسبب عدم توافق حياة البلاط مع المفهوم الصارم للحياة البرجوازية الإسلامية والرغبة في فصل الأمير وحاشيته عن عامة الشعب، غير أن هذه المنشآت الرسمية سرعان ما أدت إلى تكون مدن بالقرب منها. يمكن القول أن الإسلام أسفر عموما عن حركة عمرانية واسعة، أوجدت عددا معتبرا من مراكز نشر الدعوة الإسلامية.

2. هذا ولا يمكن فصل الدعوة الإسلامية الحضرية عن الدور الذي لعبه التجار والباعة من كل الأصناف أو حتى أصحاب الحرف، وهم الذين يمثلون الأنشطة النبيلة والجديرة بالتقدير من المنظور الإسلامي. فقد انتشر الإسلام على طول طرق القوافل والطرق البحرية، حيث عكس نسيج العلاقات التجارية بين المدن الشبكة القاعدية لهذا الانتشار، الذي كان يتم

داخل بلدان تم إخضاعها وشكلت المدن فيها مراكز دعوة مبكرة وذات فاعلية كبيرة، ينتشر الإسلام انطلاقا منها في الأرياف المجاورة. هذا وعرف الإسلام انتشارا خارج حدود مجاله الرئيسي في شكل مستوطنات تجارية منتشرة عبر المدن والموانئ؛ ففي الوقت الذي لم تتعد فيه الفتوحات البدوية أطراف المنطقة الجافة، امتد تأثير الانتشار التجاري للإسلام إلى بقاع بعيدة واتخذ طابعا عالميا، نشأت معه نقاط ارتكاز تترجم تقدم الإسلام بعيدا عن مجاله الرئيسي. وفي مقابل الانتشار المرتبط بالبدو والمعتمد على الأعمال الحربية ومفهوم الجهاد، كان الانتشار التجاري سلميا بالأساس، على الأقل في بداياته، رغم أنه مهد الطريق لتأسيس دول إسلامية. وقد بقيت آلية الانتشار هذه فعالة حتى بعد زوال الشروط السياسية للفتح العسكري، ولم يستثن تأثيرها بلدانا ذات أغلبية مسيحية، ولا يزال هذا النوع من الانتشار حيويا حتى اليوم.

3. على المستوى العالمي يجب الإشارة إلى الاختلال البين للإسلام والذي نتج عن هذه العملية التي لم تمس سوى "جانبا واحدا" " منه. فالشرخ الديني الواضح الذي حدث في مجال البحر المتوسط حد بشكل كبير من العلاقات البشرية بين الضفتين. وفي وقت مبكر فقدت الحياة الحضرية الإسلامية في هذه المجال من جاذبيتها في وجه التطور السريع للعالم المسيحي، وتمكنت مقاومة الجماعات الريفية المسيحية من القضاء أو الحد من تأثير المراكز العمرانية الإسلامية التي زرعتها القوى الإسلامية في البلقان وشبه الجزيرة الإيبيرية، بفضل عملية إعادة فتح مستميتة.

من جانب آخر بدا الإسلام في الواجهتين الإفريقية والآسيوية كأداة سلمية لتنظيم اجتماعي راق. ففي إفريقيا السوداء الغربية كلها، رفع التجار، بعد بسط الهيمنة الاستعمارية، مشعل الدعوة التي وضعت أسسها الدول الإسلامية، فانتشر الإسلام بفضل الماندي ديالا غربا والهاوسا شرقا، واستقر من بعدهم المرابطون والمدرسون، وانتشر عدد لا يحصى من الجماعات

المسلمة حتى في قلب المنطقة الغابية على طول مناطق الساحل. وفي إفريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية الشرقية، في مناطق لم يصلها الإسلام الحربي باستثناء "ظاهرة صيد العبيد المقيتة"[1]، عرف الدين الجديد حركة انتشار نشطة على طول الطرق التجارية التي نقلت الإسلام بفضل التجار السواحليين من الساحل الشرقي وصولا إلى المنخفض الكونغولي، بينما تأكد حضوره بسرعة في المراكز المنجمية الحديثة النشأة التي زالت فيها الروابط القبلية. وفي آسيا الوسطى حيث لم يغير الدين الوجهة العامة للتوسع التركي نحو الغرب، لم يحدث الإسلام حركة جهاد وإنما نشره التجار والمتعلمون عبر طرق تركستان التي فتحت له أبواب الصين. وأخيرا عرفت السواحل المطلة على المحيط الهندي أكبر النجاحات، حيث أن حركة الملاحة الكبرى من حضرموت إلى إندونيسيا ومن دكان إلى زنجبار أو الطرف الشمالي لمدغشقر، استغلت، حتى قبل ظهور الإسلام، اتجاهات الرياح الموسمية، وأفرزت عملية اختلاط دائمة هيأت الظروف للتفاعلات الثقافية. وامتدت هذه الحركة شيئا فشيئا، حيث أن المستوطنات الإسلامية المقامة في موانئ جنوب الهند أوجدت مستوطنات أخرى، ونشر التجار الهنود الدين الجديد في العالم الماليزي، بينما كان الساحل الشرقي لإفريقيا حتى الموزمبيق مجالا عربيا.

---

(1) نتحفظ على وصف الفتوحات الإسلامية بالإسلام الحربي وربط استرقاق الأفارقة بالتجار العرب، لأن ذلك ينافي حقيقة الأحداث وهو تعبير عن وجهة النظر الأوربية المتحاملة على الإسلام والتي تتجاهل كون الفتوحات الإسلامية بإفريقيا جنوب الصحراء كانت موجهة في أساسها لنشر الإسلام وإيجاد تنظيم يحفظ تماسك المجتمعات المحلية دون تمييز من حيث العرق واللون، فضلا عن أن هذه النظرة الأوربية تتناسى أن ممارسة النخاسة التي عبر عنها المؤلف بصيد العبيد كانت ظاهرة تاريخية تعود جذورها إلى عهود قديمة وأن الإسلام حاول الحد منها والتخفيف من أضرارها حين جعل عتق الرقاب من أعمال البر وكفارة عن الذنوب، عكس النشاط الذي قام به المستكشفون الأوربيون للسواحل الأوربية في الفترة اللاحقة (ق. 16-18 م) الذي تسبب في صراعات قبلية ونتج عنه نزيف بشري أنهك القارة الإفريقية (المترجم).

حافظ هذا الإسلام البحري على طابع ساحلي ولم ينتشر تماما إلا في مناطق ساحلية ضيقة. ويدل الانتشار العميق للإسلام في زنجبار أو جزر القمر على أهمية نقاط الارتكاز هذه بالنسبة للبحارة، حيث بسطت الثقافات التجارية هيمنتها عليها مبكرا عكس كتلة المجال القاري التي يصعب الولوج إليها. كما أن انتشار الإسلام في العالم الماليزي، رغم أهميته العددية، يبقى من نفس النمط الساحلي إذ أبقى على جماعات بدائية داخل الجزر الكبرى.

4. إلى أي مدى أعاد الإسلام تشكيل المجال الحضري الذي وجد فيه أرضيته المفضلة؟ إن المدن الإسلامية تمتلك على أية حال خصائص أصيلة. فبين مجال المدن الأوربية التي نظمها الحكم المحلي في وقت مبكر وبين المدن الهندية التي رسمها نظام الطبقات أو المدن الصينية التي هيكلتها الإدارة بإتقان، تتميز المدن الإسلامية التقليدية بفوضى ظاهرية، وتداخل كتل ذات تهوية رديئة، ومتاهات تشكلها شوارع صغيرة ضيقة ودروب مسدودة مظلمة، ومنازل منخفضة تنتشر إلى ما لا نهاية بين باحات صغيرة تحيط بها جدران عالية، بينما يقابل نشاط البازار المنظم بدقة سكون الأحياء السكنية.

إن هذا المنظر المشوش ظاهريا لا يفتقد رغم ذلك لبنية جامعة[1]. فالعناصر العامة للتنظيم محددة بشكل جيد. أولها الانتظام الهرمي للأحياء حول المركز، فهيمنة الوظائف الدينية في المدينة تمنح للجامع الكبير موضعه المركزي، وبجواره مباشرة يوجد الحي التجاري أو البازار؛ والحي الرسمي حيث توجد القصور لا يبعد كثيرا عن المركز، رغم أن الرغبة في الابتعاد عن الغوغاء تدفع به إلى أطراف المدينة. وحول هذه الأحياء العمومية المركزية تنتظم الأحياء السكنية، وبعدها الأحياء شبه الريفية ذات الطابع الحضري والتي يسكنها المزارعون أو التي يقطنها الوافدون الجدد الذين يسكنون بيوتا بسيطة

(1) توجد نظرة شاملة بهذا الخصوص في: Planhol, 1957, p. 12-26، وقد تم اعتمادها ملخصة هنا.

جدا في شكل أكواخ أو بيوت قش، وكل هذا تحيط به المقابر التي تشكل حزاما حول المدينة يختلف تماما عن المقابر الكنسية المعروفة في العالم المسيحي في العصر الوسيط. وبالإضافة إلى هذا المخطط الذي ينتظم عادة حول المركز، تتميز المدينة الإسلامية بتنظيم صارم لعناصر النشاط التجاري والحرفي والأحياء السكنية، حيث تخضع مختلف الأنشطة التجارية لنظام هرمي ولتقسيم طبوغرافي وتتجمع حسب الفئات الحرفية المختلفة وفقا لنظام يجعل القائمين على أنواع التجارة النبيلة بجوار الجامع الكبير من قبيل تجار الشموع والبخور والعطور، ثم يليهم بائعو الكتب ومجلدوها، وبالقرب منهم تجار الأقمشة الذين يتجمعون في القيصريات، وبعدهم الخياطون وبائعو الزرابي والأغطية وبائعو المجوهرات وصناع الجلود، بينما يحتل تجار المواد الغذائية وصناع الخشب والحديد والحدادون وصناع الخزف مواقع أبعد من المركز تمتد حتى أبواب المدينة، حيث يوجد كذلك صناع السعفة والسروج الذين يتعاملون أكثر مع الزبائن الريفيين ومع القوافل. أما الأحياء السكنية فيسود فيها الفصل بين مختلف الجماعات العرقية أو الدينية، وهي مقسمة في كل جهاتها إلى وحدات مغلقة تنتظم حول شارع محوري مغلق في طرفيه بأبواب كبيرة وتنفذ إلى جانبيه أزقة مسدودة. وهناك من الباحثين من جزم أن مدينة الشرق الأدنى الشامي، حيث تبلغ الفسيفساء الثقافية والعقائدية ذروتها، هي في الواقع مجموعة مدن متكتلة تعيش حالة من الرعب خشية حدوث المجازر[1]. وتبدو المدينة الإسلامية وكأنها فاقدة لما يوحدها بشكل رهيب وكأنها تجمع لعناصر وضعت جنبا إلى جنب من دون رابط.

على كل فإن هذه البنية الهرمية غالبا ما تزول لتحل مكانها ما يمكن وصفه لأول وهلة بالفوضى العارمة التي يصعب الاهتداء خلالها إلى سبيل، فالشوارع تكون دوما متعرجة وضيقة إلى حد كبير، وفي كل مكان تتقدم

---

(1) Weulersse, 1934, a.

المنازل على حساب الشارع في شكل امتدادات وبناءات بارزة ومشربيات، في الوقت الذي تكثر فيه الأزقة المغطاة والممرات التي تتخطى الشوارع؛ في مقابل ذلك تقل الساحات والمجالات الفارغة الغير المستعملة، مما يصعب عملية التنقل، فضلا على أن الحضارة الإسلامية لم تهيء شوارع للعربات واكتفت في أحسن الأحوال بشوارع تسمح بتنقل الحيوانات بصعوبة عند التقائها. على عكس قلة الفراغات العمومية المخصصة للتنقل، تهيمن على المدينة المجالات المخصصة للحياة العائلية. فالمنازل التي تكون منخفضة غالبا، تحتوي عادة على باحات داخلية تتركز حولها الحياة، بحيث تترك متاهة وفوضى الشارع لنظام البيت ووحدته.

يمكن تفسير هذا المشهد العمراني على ضوء المبادئ الأساسية للحياة الإسلامية، ففوضى دقائق المخطط العمراني ليست ظاهرة حتمية ثابتة، فالمدن الإسلامية تخضع عموما عند إنشائها إلى مخطط تنظيمي ذي شكل شطرنجي متأثر إلى حد ما بالمخططات الهيلينية، وقد يكون هذا المخطط دائريا حول المركز. إلا أن هذه المخططات سرعان ما تتعرض للتغيير، فالمدينة الإسلامية تعاني من غياب شبه كلي لأطر التنظيم البلدي، بينما مدينة العصور القديمة مثلها مثل مدينة العصر الوسيط في الغرب تتميز بروح تضامن قوية، واعتزاز كبير بالانتماء إليها، وأشكال توافق وتعاون متينة، ولا شيء من هذا القبيل في المدينة الإسلامية، فليس فيها حق امتياز استثنائي أو حق استغلال خاص، حيث أن ثمن هيمنة المفاهيم الدينية على النظام الاجتماعي هو غياب الاهتمام السياسي بأمور الجماعة[1]، وليس هناك ما يحد من تسلط الأمير. كما أن المدينة الإسلامية لا تخضع لمسير للأمور البلدية وليس فيها قاض بلدي باستثناء المحتسب الذي لا يتعدى دوره مراقبة الأسواق والاضطلاع بدور الشرطة فيها، والنتيجة هي أن التجاوزات الفردية سرعان ما تتم بدون

---

(1) von Grunebaum, 1955.

رادع على حساب المجالات العمومية، وسرعان ما يتم اعتماد مبدإ الحق المكتسب بخصوص التعدي على الطريق العمومي نظرا للتسيب في هذا الشأن[1]. وهذا ما لاحظه رحالة فرنسي في القرن السابع عشر: "ليس هناك شارع جميل في القاهرة، وإنما عدد كبير من الأزقة الصغيرة المتعرجة، مما يدل على أن كل المنازل بنيت بلا مخطط، فكل واحد يستولي على الأماكن التي يريد أن يبني عليها دون أن يأخذ بعين الاعتبار أنه قد يسد منفذ الشارع"[2]. أما فيما يخص المدن القديمة التي انتشر الإسلام فيها، فمن المرجح أن تغيير مخطط المدينة يكون قد بدأ في الفترة السابقة للإسلام (في الفترة البيزنطية بالنسبة لحلب ودمشق)، ومما سهل هذه العملية في الأناضول وجود فترة أولى شهدت تدهورا في الحياة الحضرية بسبب غزو الرحل مع تقلص في عدد السكان وهجر للمباني، تبعها نمو غير منظم لم يحترم المخططات القديمة[3]. وسواء تم هذا التطور خلال مرحلة أو مرحلتين، فإن المدن الإسلامية لم تعرف فيما بعد عمليات إعادة التنظيم المتوالية التي كانت تعيد تشكيل المدن الغربية وتهذب نموها. إن الفصل الصارم بين الأحياء وتقوقع الحياة العائلية مظهران آخران لنفس المبدأ، حيث يعوض تماسك الحي أو الجماعة وحدة المدينة المفقودة، بينما يجري العمل على حماية العائلة من العدوى والتفرق ويتم إبعاد السلطات عن الحياة الفردية.

إن الانعدام الشبه الكلي للاندماج الحقيقي بين مختلف العناصر المكونة للمدينة كانت له آثار بليغة. فالمثل الأعلى الحضري في الإسلام لم يخلق أشكالا ولم ينتج بنية عمرانية وكان دوره فيما يخص مشهد المدينة دورا محافظا وسلبيا: محافظا لأنه أبقى على الأعضاء الرئيسية المكونة للحياة الحضرية على نفس الصورة التي وجدت في العصور القديمة، فالأسواق

---

(1) Brunschvig, 1947.

(2) Thévenot, 1664, p. 239.

(3) Bartsch, 1952.

نتجت عن الجادة ذات الأقواس، والقيصرية والفندق عن البازيليك، والحمام عن الحمامات الرومانية، والبازار عن أنظمة شرق أوسطية لم يبتكرها الإسلام كما هو الأمر بالنسبة للفصل بين الأحياء؛ كما كان هذا الدور سلبيا لأنه استبدل تكتلا وتجمعا متضامنا بتركيبة مهلهلة وفوضوية من الأحياء والعناصر المتنافرة. ونتج عن هذا، على مستوى المعمورة، بقاء أشكال عمرانية متقادمة عبر منطقة واسعة. ومن الغرابة أن حضارة دين كان مثله الأعلى حضريا انتهى بها الأمر إلى نفي النظام العمراني في حد ذاته.

5. لم يبتكر الإسلام الجديد فيما يخص التنظيم الاقتصادي والعلاقات بين المدينة والأرياف المحيطة بها. فهو، كما رأينا سابقا، لا يهتم إلا قليلا بالأوضاع الزراعية التي كانت تحتل مكانة ثانوية في الحجاز مقابل التجارة الحضرية والبداوة الرعوية، ورغم ذلك فقد انتشر الإسلام في بلدان غير صحراوية كانت الزراعة تشكل فيها النشاط الرئيسي، غير أن إهماله للأرض توافق تماما مع البنيات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت قائمة آنذاك. إن هذا التنظيم الذي سبق الإسلام بكثير هو الذي كان يميز الحضارات المدنية الأولى والحضارات الشرقية التي تم تعريفها وتحليلها لحسن الحظ[1] تحت تسمية "رأسمالية الريع" (Rentenkapitalismus)، وقد كان هذا النوع من التنظيم موجودا خاصة في الشرق الأوسط. ففي الوسط الطبيعي الشبه الجاف، يتشبث الفلاحون بأراضيهم المروية التي تشكل وسيلة عيشهم الأساسية، مما يضعهم تحت رحمة القوى المؤثرة في المدن، كما أن انتشار الري والأعمال الكبرى المرتبطة به لا يمكن أن تضطلع بها سوى سلطة مهيمنة ومركزية، دينية أولا ثم استبدادية بعد ذلك[2]، تقوم بتوزيع حق الاستفادة من الأرض أو ملكيتها على أفراد الطبقة البيروقراطية الدينية أو العسكرية التي تسهر على فرض

(1) Bobek, 1959, p. 279-287.

(2) Wittfogel, 1957.

هيمنتها على باقي السكان. ورغم الدور المهم والمبالغ فيه أحيانا[1] الذي يلعبه الري في هذه الآلية، إلا أنه توجد عوامل أخرى تعمل في نفس الاتجاه، فقد كان فلاحو الأرياف الجافة المنتجة للحبوب الذين يعانون من السنوات العجاف المتكررة بسبب تذبذب تساقط الأمطار في مناطق الأطراف، يضطرون إلى اللجوء إلى المقرضين المتواجدين بالمدن التي تشكل المكان الوحيد لتراكم الاحتياطات المالية الكبيرة، مما ينجر عنه ارتفاع ديونهم بسرعة بسبب ممارسة الربا، لينتهي الأمر بوضع اليد الفعلي على أراضيهم أو فرض حق تصرف فيها وفي ثمارها يحدد مسبقا، وفي كلتا الحالتين، يصبح هدف المالك ليس الاستغلال المباشر للأرض بواسطة عدد كبير من العمال الزراعيين والعبيد لأن ذلك يضطره لتحمل الأعباء والمخاطر مقابل ربح قليل، وإنما الحصول على عوائد من أرض يكون مردودها أكبر في أيدي فلاحين شبه أحرار يعيشون على الكفاف، مما يسفر عن ظاهرة "المتاجرة" بالحقوق على الأراضي وتجزئتها وتقسيمها بين عدد كبير من الورثة واعتبار ثمار عمل الفلاح قابلة للتقسيم في شكل "حصص" مرتبطة بعوامل الإنتاج المختلفة (الملكية الفعلية للأرض، الماء، البذور، الأدوات والمواشي، وأخيرا العمل البشري الذي تحدد حصته بالخمس)، وتكون هذه الحصص قابلة للتبادل. هكذا تشهد الملكية الريفية تجزيئا كبيرا بين أيدي طبقة حضرية لا تشارك مطلقا في عملية الاستغلال القائمة على نظام المشاركة في المحصول، فيضطر الفلاح الذي يتوفر على أدنى متطلبات العيش إلى اللجوء إلى استغلال مدمر للأرض، فضلا عن افتقاره لرأس المال اللازم للاستفادة من الابتكارات والتطورات التقنية التي تدفن إذا ما ظهرت بفعل تجاهل الطبقة المالكة لها والتي لا تعير أدنى اهتمام لآلية الإنتاج وبسبب العجز العقيم للفلاح المنتج.

---

(1) كما هو الحال بالنسبة للمدرسة الماركسية على وجه الخصوص، وأخيرا: Wittfogel, 1957.

6. نظرا لانعدام التقاليد الفلاحية في الإسلام باستثناء اللامبالاة[1]، فقد تبنى هذا النمط، وخاصة ما يتعلق منه بالتنظيمات العقارية والوضع القانوني للأرض، والتي تتمثل في ملكية الدولة وتجميد الأرض (نظام المؤسسات الدينية أو الوقف أو الحبس). ولا ترجع أصول هذا النظام إلى عهد الرسول ﷺ الذي كان يقسم الأراضي بين المجاهدين، وإنما إلى عهد عمر الذي أحيا مبدأ الملكية الجماعية القبلية القديم في شكل ملكية السلطة المركزية، وهذا هو أصل مفهوم "الوقف" قبل أن يتخذ طابع الملكية المجمدة ذات الصبغة الدينية. ورغم اختلاف موقف المدارس الفقهية المختلفة من مآل الأراضي المفتوحة عنوة، ورغم أن المذهب الحنفي يترك للإمام حق الاختيار بين تمليك الدولة أو تقسيم الأرض، قام نظام الأراضي المعتمد في الإمبراطورية العثمانية على ملكية دولة شبه مطلقة، فالتقت هنا كذلك المفاهيم الإسلامية، كما هو الأمر بالنسبة للسياسة العقارية لعمر، مع التقاليد السابقة للإسلام أي تقاليد ملكية الدولة القبلية المعتمدة قديما من قبل أتراك آسيا الوسطى[2]. بهذا يمكن القول أخيرا أن الإسلام اكتسب ميله لعدم التملك الشخصي للأرض لأنه دين نشرته الشعوب البدوية.

كان من الطبيعي أن تقسم هذه الأراضي التي تعود ملكيتها الفعلية للدولة إلى إقطاعات تمنح للجند الموظفين مقابل قيامهم بالتأطير العسكري[3]، بحيث لا يحصل المستفيد من الإقطاع على خدمات أو أعمال سخرة وإنما يكتفي بريع ثابت تحدده مبدئيا السلطة المركزية. وتبعا لآليات رأسمالية الريع، لا يجد المستفيد ما يحثه على تحسين استغلال الأرض، كما

---

(1) لقد جانب المؤلف الصواب بنفيه التقاليد الفلاحية والاهتمام بالزراعة رغم كونها تعتبر إحدى مظاهر الحياة في المجتمعات الإسلاميةن فقد كانت محل رعاية الحكام واهتمام الرعية منذ نشأة المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، وقد وضعت فيها مصنفات علمية، كما أفردت لها في المدونات الفقهية أبواب تتعلق بها (المترجم).

(2) Turan, 1958; Cahen, 1954-55 b.

(3) على الأقل في شكله المتطور، أنظر: Cahen, 1953.

أن النظام الإقطاعي الشرقي يتجاهل تماما الروابط الشخصية التي ميزت النظام الإقطاعي الغربي، مثل اهتمام الإقطاعي بحال تابعه الذي يستعمل كيد عاملة وليس فقط كمصدر لتحصيل الضريبة، ومبدأ توريث الابن الأكبر الذي يشكل حصنا في وجه تسلط الدولة، عكس الحالة السائدة في الشرق حيث عادة ما يؤول الأمر إلى عدم تقسيم الأرض بين الورثة والذي يصبح مع مرور الوقت غير معقول. وإذا كان نظام الوراثة الإسلامي لا يسمح بتشكل ملكيات زراعية فردية كبيرة من نوع اللاتيفونديا (Latifundia)، فإن تزامنه مع نظام إقطاعي ليس له صلة بالأرض قد شجع، بالإضافة للملكيات العائلية الكبيرة الغير القابلة للتقسيم، ظاهرة انقطاع الملاك القاطنين بالمدن عن ملكياتهم الريفية. إن نظام ملكية الدولة، الذي عرف أوجه على يد الأتراك العثمانيين، كان كارثة بالنسبة لتنظيم المجتمع الريفي الذي افتقد خميرة التطور التي تمثلها الملكية الكبيرة القائمة على الاستغلال المباشر؛ وقد أسفر التطور في مرحلة لاحقة إلى نظام الملكيات الكبيرة القائمة على التملك الكامل من نوع تشيفتليك (tchiftlik)، والذي تزامن مع تراجع تنظيم الدولة العثمانية، على نتائج حسنة نسبيا بما أن عددا من هذه الملكيات خضعت لاستغلال مباشر وفر لها عناية وجهد ملاكها، إلا أن هذا التطور جاء متأخرا في ظرف سادته الفوضى العارمة التي لم تشجع الملاك على السكن في الريف ولم تساعد على حدوث تقدم حقيقي. إن الوضعية العقارية التي نتجت عن هذا النظام، الذي تكون فيه الحقوق الفردية عرضة للنقض، يبدو حلها صعبا للغاية، فقد كتب ميشو (Michaud) في منتصف القرن التاسع عشر في مراسلته الشرقية (Correspondance d'Orient) أنه : "في تركيا كلها يجهل معنى ملكية الأراضي... والقرويون يعيشون في الأرياف التي يستغلونها دون أن يعرفوا من يملك الأرض التي تضمن عيشهم"[1]. وعكس الملكية الحضرية، تعاني

(1) Worms, JA, 1843, I, p. 336.

الملكية العقارية في الريف من عدم استقرار أساسي، مما يعكس فرقا جوهريا مع الغرب. ففي الغرب، يعتبر الحقل صورة للملكية في حد ذاتها، أي أنها مطلقة وكأنها أبدية، مغروسة في الأرض عن طريق ترسيم حدودها وترسيخها بواسطة عملية مسح الأراضي، أما في الشرق فإن الملكية الريفية لا ترقى أبدا إلى مرحلة السيادة الكاملة[1]، وتؤدي فوضى النظام العقاري حتما إلى الجور، إذ أن الوضع الفعلي للأرض أقل شأنا من مكانة مالكها؛ كما أن الغموض المحيط بالنظام القانوني يدخل في لعبة المبادلات العقارية عنصرا شخصيا يلعب دورا أساسيا في تكوين نظام الملكية القائم أساسا على الملكية الكبيرة أو حتى الكبيرة جدا التي ظلت سائدة (على الأقل حتى محاولات الإصلاح الزراعي الحديثة المحتشمة والجزئية في الغالب) في الشام وفي إيران وفي الأناضول الشرقي وفي شمال غرب الهند. ورغم تحريم القرآن للقروض الربوية، والذي يبقى نظريا حيث يتم عادة تضخيم المبلغ المقدم مسبقا بغير وجه حق، مما يجعل عملية الاقتراض أكثر كلفة، فإن ذلك لم يمنع من تطور الآثار الطبيعية للهيمنة الاجتماعية والسياسية للمدن. فبالإضافة للآثار الاقتصادية، نجد أن ممارسة المحسوبية والبحث عن حماية الطبقة الحاكمة الحضرية أدت بالفلاحين في المناطق البعيدة السهلية إلى التبعية؛ أما في المناطق التي تنتشر فيها البداوة، فقد تم الانتقال إلى الملكية الكبرى، ولو نظريا، لصالح الطبقة الأرستقراطية، وتصبح هذه الملكية فعلية في حالة الاستقرار؛ بينما تنشأ في المناطق الجبلية المستقلة، انطلاقا من البنية الاجتماعية الفوضوية، قوى تبسط دوما نفوذها على حيز كبير من الأراضي التي يقوم وضعها القانوني على العنف المقنع أو الصريح.

يتميز نظام استغلال الأرض كله بفصل جذري بين الملكية الكبرى والاستغلال. وقد تم تلخيص حالة الوضع الزراعي في أرياف الشرق الأوسط

---

(1) Weulersse, 1946, p. 95-96.

بهذه العبارات: "المستغل لا يملك، والمالك لا يستغل"[1]. هنا كذلك يجب البحث عن الأسباب الأساسية في إهمال الأرض والنفور مما يتصل بها واللذان يطبعان الإسلام، فلا شرف في المحراث، ويعتبر التحرر منه نصرا اجتماعيا ويكاد يكون نصرا أخلاقيا. إن نظام مشاركة صاحب الأرض للمزارع في المحصول ما هو إلا نتيجة لعدم الفاعلية الاقتصادية لجماعة الأعيان ويوافق تماما حالة الرضوخ الاجتماعي السائدة. وفي هذا الإطار تم تجاهل بعض الأحاديث النبوية التي تدين عقود الاستغلال غير المباشر، وانحصرت صرامة الفقهاء في الإيجار الزراعي الثابت الذي اعتبروه مضرا بالمستأجر لصعوبة تقدير الربح والخسارة مسبقا، بالرغم من أن هذا النظام كان في الغرب عاملا مهما في تشكل رأس المال وفي التطور الزراعي.

7. يظهر أن لعنة وخيمة لازمت الأراضي الإسلامية، وضمن هذا المشهد البائس لمجتمع ريفي تسوده الرداءة والجمود، لا توجد بقع نور كثيرة، فالمناطق التي تسود فيها الزراعة المتقنة لا تتعدى الجهات المحيطة بالمدن حيث تنتشر فيها البساتين والجنان، والتي تعرف تقسيما كبيرا للأرض واستغلالا مكثفا يقوم على سواعد الفقراء من أهل المدن. ففي الهويرتاس (huertas) المنتشرة في إسبانيا على سبيل المثال، أسهم الإسلام بشكل إيجابي في استغلال الأرض، حيث ساعدت العلاقات التجارية البعيدة على استجلاب أشجار وزراعات كانت غير معروفة، وطورت تقنيات الري عن طريق اقتباس ونشر مهارات شرق أوسطية قديمة[2]. كذلك الشأن بالنسبة للتخوم الإفريقية حيث يظهر الإسلام كعامل تطور زراعي لحثه على حياة الاستقرار مقابل الزراعة المتنقلة المعتمدة على الحرائق والمنتشرة في المنطقة الشبه الاستوائية،

---

(1) Weulersse, 1946, p. 121.

(2) هناك عرض مستفيض لإسهام الإسلام في الحياة الريفية الإيبيرية في: Lautensach, 1960, p. 56-79.

واعتمد في ذلك خاصة على مجموعات دينية فلاحية مثل المريدين في السنغال، الذين تمكنوا بفضل تنظيمهم الجماعي المحكم من تحقيق تطور كبير خاصة في زراعة الفول السوداني[1]. إن هذا الانجذاب نحو الأرض يشكل عنصرا مميزا للإسلام "الزنجي"[2]، بل عنصرا استثنائيا، حيث لم ينم هذا الارتباط بالحقول إلا على هامش التوجه العام.

8. انطلاقا من هذه البنية الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات بين المدن والأرياف، يمكن تسليط الضوء على مشكلة الجمود الإسلامي، وهي ليست مشكلة في حقيقة الأمر، ولم تنجح النقاشات الغنية بالتفاصيل التي خصصت لها مؤخرا[3] في الوقوف على جوهرها. فالمشكلة الحقيقية ليست مشكلة الجمود الإسلامي، الذي لا يشذ عن الحالات المماثلة التي شهدتها حضارات المدن في الشرق الأقصى، هندية كانت أم صينية، إنما المشكلة تكمن في تطور شمال غرب أوربا. فهنا كذلك، حسب أفكار بوبك (H. Bobek)، يكمن العنصر الحاسم في القطيعة مع التقاليد الحضرية القديمة والتي سمحت بتجاوز رأسمالية الريع (Rentenkapitalismus)، مما أوجد طبقة من الرأسماليين "المنتجين" أي البرجوازيين الذين تخلوا عن نظام الريع العقاري، في الوقت الذي ظل فيه الإسلام، شأنه شأن غيره من حضارات المدن، مرتبطا به[4]. هذا ويجب الإقرار بوجود بوادر للتطورات التي شهدتها أوربا داخل الإسلام، وقد

---

(1) Marty, 1913; Pélissier, 1951; 1966, p. 301-362.

(2) نلاحظ مبالغة غير مبررة من المؤلف في تلمس الفوارق الإثنية في المجتمعات الإسلامية ومحاولة ربط تلك الفوارق بالعقيدة الإسلامية التي لا تعترف بالاختلاف في العرق أو اللون أو اللغة وإنما تؤكد على الالتزام بأحكام العقيدة وتجعل الحياة الاجتماعية قائمة على مبدأ التقوى والعمل الصالح في إطار أخوة الإسلام وتكافل المسلمين (المترجم).

(3) L'évolution économique...; Classicisme et déclin...

(4) Bobek, 1959.

تم تحليلها تحليلا ممتازا، بين بشكل حاسم[1] أن الإسلام لا يتنافى أبدا مع التطور الرأسمالي، إلا أن الطبقات البرجوازية التي كانت في طريقها للتشكل لم تنجح أبدا في الاستحواذ على السلطة السياسية حتى على مستوى المدن، على العكس من ذلك ساعد على هذا التطور في أوربا تبلور إقطاع ريفي مستقر في الأرياف نفسها، بذل جهدا أكبر بكثير في الاستغلال المباشر للأراضي وتحسين مردوديتها، وهذا في حد ذاته نتيجة لزوال التقاليد الحضرية بشكل شبه كلي، بحيث لا يمكن الفصل بين الظاهرتين، فطبقة الإقطاعيين الجديدة نشأت في الريف، وبقي جزء كبير منها فيه، وتركت المجال في المدن بعد نهضتها، لطبقات اجتماعية تمكنت من تحقيق استقلاليتها ووجهت غايتها الاقتصادية نحو مجالات أخرى غير ملكية الأرض التي حرمت منها عموما؛ وحتى عند تمكن الطبقة البرجوازية من الحصول على ملكية الأرض، تم ذلك من خلال منظور مختلف تماما عن "رأسمالية الريع"، فبرجوازيو الغرب لا يقومون إلا بتمثيل دور الإقطاعي و"السيد" الذي يقضي بعض الوقت في أراضيه، في الوقت الذي زرعت فيه بذور "الرأسمالية المنتجة" في المدن على نطاق واسع ونمت بسرعة. على العكس من ذلك فإن محافظة الإسلام، وهو دين حضري، على التقاليد الحضرية القديمة التي أدمجت كما هي، أبقت على النظام الاجتماعي المجمد المتمثل في "رأسمالية الريع"، مما أغلق الباب تدريجيا في وجه كل تطور. والحقيقة المدهشة التي تتجلى من كل هذا هي أن توقف البداوة الإسلامية عند أبواب المدن كان عاملا سلبيا تسبب في التطور اللاحق، بينما يدين الغرب بنهضته إلى حد كبير وعلى المدى الطويل، لعملية المسح الشامل التي نجمت عن الغزوات البربرية الكبرى.

---

(1) Rodinson, 1966.

3. مبادئ تنظيم المجال في الإسلام

أ. الهياكل السياسية:

1. نشأت الهياكل السياسية عن الهيمنة المادية والمعنوية للمدن، فنموذجها الأمثل هو الدولة الحضرية، كما أن الدولة الإسلامية هي قبل كل شيء أسرة حاكمة وعاصمة أي مدينة يمكن للأمير أن يفرض فيها ذكر اسمه في الجامع الكبير في خطبة صلاة الجمعة، وحول هذه المدينة يمتد نفوذ الحكم في مجال قد يزيد أو يقل، بشكل يكون مستمرا عادة، حتى يصبح في الأخير اسميا وغير واضح المعالم بشكل عام، فخارج المناطق السهلية المحكومة والخاضعة والتي تشكل القاعدة المعيشية للمدينة والجيش، ندخل شيئا فشيئا في المناطق الريفية المتمردة على النظام القائم خاصة عندما تكون التضاريس حواجز في وجه بسط السيطرة على البلاد. ويشكل المغرب الأقصى قبل الفترة الاستعمارية أفضل نموذج لهذا التباين، فمن جهة توجد بلاد المخزن الخاضعة للسلطة الحاكمة، ومن جهة أخرى بلاد السيبة (المناطق المتمردة) التي تتكون أساسا من الجبال البربرية[1]. أما في المناطق الأخرى وخاصة في المجال التركي-الإيراني الذي تنحصر فيه المقاومة الريفية الجبلية، فتضطلع القبائل البدوية بدور التمرد على السلطة الحاكمة، التي لا يتحقق في مواجهتها تفوق الدولة الحضرية إلا بفضل تماسكها النسبي مقابل فوضى وعدم استقرار القبائل التي يستغلها الحكم لبث الصراعات بينها. وعادة ما يتخذ تنظيم القبائل البدوية شكل أحلاف قوية الهدف منها إحداث توازن مع قوة الدولة الحضرية وإيجاد محاورين من الزعماء القبليين يكونون في مستوى الأمير الحضري ويمكنهم التعامل معه كأنداد. هذا وقد عرفت إيران في الفترة الممتدة بين القرنين الثامن عشر والعشرين بشكل خاص مرحلة تشكل

---

(1) يوجد تحليل لهذه الوضعية في: Montagne, 1930.

الأحلاف الكبرى من قبيل باختياري وكاشكاي، وكذلك الأمر بالنسبة للأناضول الشرقي في القرنين السادس عشر والسابع عشر[1]، وتتزامن هذه المرحلة مع فترة تطور الدولة الحضرية الملكية والمركزية، وتعبر عن تبلور هياكل مناقضة لها في المناطق الخارجة عن سيطرتها، وبهذا يحدث توازن هش ودائم التغير بدرجات متفاوتة بين الحكم والقبائل المستقلة. وتوجد أبلغ أشكال هذه الحالة في الدول الحضرية والساحلية المعزولة وسط مناطق داخلية شاسعة ذات بنية قبلية، حيث يضعف تأثير الدولة إلى حد كبير ولا يتحقق إلا بواسطة الحملات العسكرية كتلك التي كان دايات الجزائر يرسلون خلالها جند الإنكشارية لتحصيل الضرائب سنويا في المناطق الداخلية بتواطؤ من قبائل المخزن التي ترى لها مصلحة في ذلك. ولا يوجد ما يشبه هذا الوضع في الدولة الغربية التي تعتمد منذ أمد بعيد على الممتلكات الإقليمية التي عادة ما تكون في شكل مناطق منفصلة ومتقطعة (أملاك بيت النمسا على سبيل المثال)، إلا أن حدودها مرسومة بشكل صارم.

2. هناك نوع آخر من الدول الإسلامية، فقد شكل البدو، كما رأينا، القوة الضاربة للإسلام، مما انجر عنه تبلور أسر حاكمة ذات أصول بدوية. فالمرابطون في المغرب والأسر الحاكمة التركية في الشرق الأوسط انطلقت من المناطق الخارجة عن نفوذ السلطة الحاكمة ولم تكن نتيجة صراعات داخل الحكم. فنبض التاريخ المغربي كله تهيمن عليه أسر حاكمة تنطلق من الجنوب أو تخرج من الصحراء، تضع يدها الواحدة تلو الأخرى على السهول المخزنية الغنية بمنطقة فاس. وفي إيران كانت أغلب الأسر الحاكمة ذات أصول بدوية تركية، قبل اعتلاء أسرة بهلوي الحكم في القرن العشرين. كما

(1) بالنسبة لإيران، أنظر: Barth, 1961، خاصة الفصلين الخامس والعاشر، حيث بين المعنى السياسي للأحلاف البدوية. وهناك مقارنة مع حالة الأناضول في: Planhol, 1968 a.

أن الحكم البدوي وضع الأسس الأولى لبعض الدول، ولم يكتف بالاستحواذ على غنائم جاهزة ومنظمة؛ فقد كان الأمر كذلك بالنسبة للإمارات التركية بالأناضول وأشهرها تلك التي انبثقت عنها الإمبراطورية العثمانية؛ وكذلك الشأن بالنسبة للأسرة التي وضعت شيئا فشيئا أسس الدولة الأفغانية منذ نهاية القرن الثامن عشر والتي انبثقت عن قبيلتي دوراني وغيلزاي البدويتين اللتين حققتا وحدة بلاد تتربع على الجزء الأكبر منها جبال يقطنها الفلاحون. وحتى في الحالات التي ينحدر فيها الحكام الجدد ظاهريا من وسط حضري، كالمتعلمين والفقهاء، لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة بجماعات بدوية، إذ لم يتمكن الصفويون من الانتصار إلا بفضل نجاح الدعوة الشيعية بين القبائل التركمانية في أذربيجان، رغم أن أصولهم المباشرة يجب البحث عنها في الوسط الحضري بمدينة أردبيل ؛ كما أن انتصار الوهابيين على الأسر الحاكمة الحضرية في الحجاز تحقق بفضل دعم البدو لهم. في مقابل ذلك تحتاج الروح العدوانية البدوية لغطاء ديني يسمح لها ببسط نفوذها ويمكن إمارات الرعاة الهشة من الرقي إلى مستوى الدول المنظمة. فالتخمر الديني ضروري لإيجاد اللحمة بين السادة الجدد القادمين من الصحراء ورعاياهم من الحضر. فمن الوهابيين إلى المرابطين، ومن الصفويين إلى السنوسيين، يتشكل أساس الهياكل السياسية البدوية انطلاقا من حركات دينية مذهبية، متشددة أو مبتدعة، وقد تبين أيضا أن هذه الظاهرة من العوامل المهمة في نشأة الدولة العثمانية[1].

على أي حال فإن هذه الدول البدوية هي تعبير مميز عن أوضاع انتقالية، فالأمير البدوي يتحضر بمجرد أن يعتلي العرش، ويستقر بالمدينة، ويتبنى شيئا فشيئا طريقة تفكير الحضر المحيطين به ؛ ويتم هذا التحول تدريجيا وقد يكون سريعا أو بطيئا حسب الحالات. فطيلة القرن التاسع عشر،

---

(1) prülü, 1935.K

كان الشاهات القاجاريون المنحدرون من القبيلة التركية الكبيرة التي تحمل نفس الاسم وكانت تتنقل شمال إيران، يفضلون قضاء الصيف تحت الخيمة والتمتع بهواء جبال الألبروز العليل، فيقيمون معسكرات حقيقية ويقلدهم في ذلك وزراؤهم وكبراء دولتهم، ويتنقلون من مكان إلى مكان لممارسة هواية الصيد[1]. رغم كل هذا لا تختلف مشكلات وأساليب فرض النفوذ السياسي جوهريا عن تلك التي تطبع الدول ذات القاعدة الحضرية البحتة، فمثلها مثل الأمير الحضري، تجد السلطة ذات الأصول البدوية صعوبة في فرض نفوذها خارج القبيلة التي تنحدر منها، كما يشكل تأثير قبائل أو أحلاف معادية تهديدا مستمرا عليها، من قبيل الدور الذي لعبته قبيلة باختياري المعادية للقاجار في الأزمة الدستورية سنة 1907، عندما تحركت باتجاه طهران. على أنه يمكن الإقرار بأن الدولة ذات القاعدة البدوية تجد سهولة ودعما أكبر في بسط نفوذها على المناطق المتمردة، حيث تنشر أعوانها بسهولة عكس الحرس من المرتزقة الذي يتردد في الابتعاد عن أبواب المدينة.

3. رغم أن الدولة الحضرية هي أفضل تجسيد للنموذج الإسلامي، فإن الدولة البدوية تكون بلا شك أكثر فعالية في إدارة إمبراطورية ذات امتداد كبير، والمشكلة الأساسية في الحياة السياسية الراهنة في العديد من الدول الإسلامية تكمن في صعوبة بسط رقابة فعلية وإدارة حديثة في نقاط كثيرة من أقاليمها. وقد توجب في الغالب انتظار الفترة الاستعمارية لربط المناطق المتمردة بالسلطة المركزية. فمن جهة اعتمد الأسلوب الفرنسي على الإخضاع التام ثم الإدارة المباشرة، فيما انتهج البريطانيون أسلوب إقامة "خطوط" المعسكرات الحدودية وبعدها الإدارة غير المباشرة بواسطة زعماء محليين مع الحد من التدخل الفعلي، ورغم اختلاف الأسلوبين في جوهرهما ومناهجهما فإن نتائجهما كانت متماثلة إلى حد بعيد فيما يخص التهدئة الظاهرية. وقد

---

(1) للاطلاع على الجو الذي كان سائدا في هذه المعسكرات، يجب الرجوع إلى مذكرات الطبيب الفرنسي لناصر الدين شاه: Feuvrier, 1906.

كان على الدول التي فلتت من الاستعمار أن تنتظر السنوات الأخيرة لتتوصل إلى نفس النتائج، كما فعلت الدولة الإيرانية مع حلف كاشكاي الكبير في جبال زاغروس. وكانت هذه العملية أسهل نسبيا في البلاد ذات الحضارة العمرانية العريقة مثل مصر أو تونس في المغرب العربي، بينما كانت أصعب بعض الشيء في دول من النوع "المتحضر" والتي تضم الكثير من النحل والأقليات الجبلية والأطراف الصحراوية الشاسعة، كما هو الشأن بالنسبة لسوريا التي تواجه المشكلة العلوية والعراق الذي يواجه المشكلة الكردية. هذا وتكون عملية التوحيد شاقة في "الإمبراطوريات" التي تعرف اختلافا عرقيا ودينيا بالإضافة إلى انتشار سكاني متقطع وتنوع في أنماط العيش، كما هو الحال في أفغانستان وإيران والمغرب الأقصى.

ب. عناصر الجغرافية الإقليمية:

1. يمكن تحليل حركية التطور الإقليمي من خلال هذا الوضع السياسي، فقد كانت البنية الإقليمية التقليدية للإسلام قائمة، خاصة منذ انتشار البداوة في العصور الوسطى، على ظاهرة التقطع، فهناك مناطق محدودة حافظت على حياة ريفية مقبولة، تفصل بينها مساحات شاسعة أصبحت مجالا للتنقل والتقهقر والخراب. إن اتساع هذه المجالات التي تصحرت بفعل الإنسان لم تسمح بوجود روابط متبادلة على المستوى المحلي والتي تشكل النسيج المركب لكل الوحدات الإقليمية وأساس كل محاولة استغلال عقلاني للمجالات المختلفة. ولهذا فإن التنظيم الإقليمي الوحيد يتمثل في المنطقة الحضرية أي منطقة تأثير ونفوذ مدينة ما على الريف المحيط بها، والتي تعبر عنها سياسيا الدولة الحضرية. ينتج هذا الوضع عن الوسط الجغرافي الجاف والشبه الجاف، وتتسبب فيه هشاشة الحياة الريفية خارج النطاقات المروية ذات الاستغلال الكثيف، مما يسمح بفهم سهل للصعوبات التي واجهت انتشار الإسلام في الأرياف خارج النطاق المحدود لتأثير المدن. ولا يختلف

الأمر بالنسبة للمناطق الساحلية التي انتشر الإسلام فيها بفضل التجار في ظرف طبيعي وسياسي مختلف، حيث واجهت انتشاره صعوبات في البلاد التي تكون دواخلها معادية له، وتنطبق هذه الملاحظة على سهول زراعة الأرز الواقعة في مناطق دلتا الأنهار، مثل البنغال أو سهول جافا في المنطقة الموسمية الآسيوية أو دلتا النيل. حيث أمكن للتنظيم البشري أن يتحقق في هذه المناطق ذات الظروف الطبيعية المتجانسة على نطاق واسع.

و لا تكاد توجد في البلاد الإسلامية الهياكل الإقليمية القائمة على اشتراك مناطق متكاملة اقتصاديا، مثل السهل والجبل، كما تجدر الإشارة إلى أن مواقع المدن في أرض الإسلام تحددها نقاط التقاء الطرق البعيدة الدولية أو الرابطة بين القارات، أو نقاط ارتكاز مهمة في قلب وحدات طبيعية متجانسة، حيث تكون المدن في هذه الحالة عواصم أحواض صغيرة معزولة (كرمان)، وسهول مستقلة بشؤونها، أو واحات مرتبطة بموارد مائية معتبرة (دمشق، فاس)، ومن النادر وجود المدينة-السوق المتصلة بوحدات طبيعية مختلفة على طول خط فاصل بين السهل والجبل، وهو نمط منتشر كثيرا في أوربا الغربية. هذا ورغم قلة الدراسات حول المناطق التقليدية للتأثير الحضري في البلاد الإسلامية، فإنه من المؤكد أن هذا التأثير محدود للغاية إذا ما استثنينا بعض الحواضر الكبرى ذات العلاقات البعيدة. كما يلاحظ ضعف التنظيم الهرمي للمدن أي شبكات المدن، فحول الحواضر تتشكل في بعض الأحيان شبكة من المدن التابعة، مثل المدن المحيطة بفاس (وزان في الجبل الشمالي، تازة في المغرب الشرقي وشمال الأطلس الأوسط، سفرو في قلب الأطلس الأوسط)، وتلك المحيطة بمدينة الجزائر (حزام المدن الثانوية الواقعة على بعد مرحلة أو مرحلتين، وهي شرشال ومليانة والبليدة ودلس وبرج أم نائل)[1]، على أن لا شيء من قبيل لم التنظيم الهرمي الثلاثي

(1) Le Tourneau, 1957, p. 76.

المعروف في أوربا الغربية. وفي الأناضول تبين أن شبكة "المدن الصغيرة" التي ترتبط بإقليمها وتعبر عنه ظاهرة معاصرة[1]. وفي حوض كرمان لا توجد مراكز عمرانية ثانوية إلا في الجنوب الشرقي عند الحافة الجبلية، وما عدا ذلك فإن المدينة-العاصمة تقيم علاقة مباشرة مع القرى. وحتى في الجهات التي توجد فيها قرى كبيرة تشكل مراكز شبه إقليمية، لا يتعدى دورها توفير الخدمات للريف المحيط بها، بحيث تتركز سلطة القرار في مجال الاقتصاد والملكية في المدينة الرئيسية وحدها[2]. وتؤكد ندرة أسماء البلدان النقص الملاحظ في الحياة الإقليمية بأرض الإسلام، وهذه الأسماء هي أحسن تعبير عن العلاقات الوثيقة والكثيفة بين الإنسان والأرض؛ ففي إيران وجدت في السابق أسماء كثيرة للبلدان، اختفى عدد كبير منها من الخطاب الشعبي بفعل انتشار البداوة في العصور الوسطى، ولم تبق عادة إلا أسماء شعوب أو قبائل وهي أوهن شكل لعلاقة الإنسان بالطبيعة. وفي مستوى أعلى بقليل نلاحظ عموما ترددا في استعمال تسميات المدن والجهات (حيث يستعمل اسم المدينة للدلالة على الجهة أو العكس)، مما يعبر عن أطر أخرى غير المراكز العمرانية المستقلة عن بعضها البعض، ويمكن أن تحتفظ هذه الأسماء بدلالة إقليمية لمدة طويلة بعد زوال المدينة التي كانت تطلق عليها، كما هو الأمر بالنسبة لاسم مدينة متيجة الذي أصبح مرتبطا بالسهل الذي يحمل نفس الاسم؛ أو اسم موغان الذي كان يطلق على مدينة صغيرة حتى زمن المقدسي ثم أصبح اسما لبراري يتنقل عبرها الرحل التركمان[3]، مما يبين بوضوح عدم ارتقاء نظام شغل الأرض الجديد إلى مستوى الكثافة التي تبتكر أسماء جديدة للبلدان.

2. يستوجب التطور التدريجي للدول المنظمة والمركزية تقليص

---

(1) Özçrekçi, 1944; de Planhol, 1958 a, p. 374-380.

(2) English, 1966.

(3) Schwarz, VIII, p. 1086-1094.

الفواصل بين المراكز الكثيفة السكان. وقد دفع بهذا الاتجاه، في الفترة المعاصرة، الضغط الديمغرافي الذي أوجب استعمال أراض جديدة. إن الميزة الرئيسية لهذا التطور المتأخر تتمثل في التوسع التدريجي للمراكز القديمة واستيطان أو بالأحرى إعادة استيطان المناطق الفاصلة بينها. ويتوقف الوصول إلى توازنات جهوية وتنظيمات وطنية مقبولة على حركة الانتشار هذه. ففي الوسط الشرقي لتونس الذي تراجعت فيه الحياة الحضرية منذ الغزوات الهلالية لتنحصر في شريط منطقة الساحل الضيق الذي يشكل خطا من القرى الكبيرة الملتصقة بالساحل وسط الزيتون، نلاحظ منذ نهاية القرن التاسع عشر انتعاشا كبيرا للاستقرار البشري في الهضبة السفلى[1] ؛ وتشهد منطقة الجزيرة أي الحافة الشمالية للصحراء السورية، وهي منطقة صالحة للزراعة تراجع دورها منذ العصور الوسطى إلى مجال شتوي للبدو الذين يقضون الصيف في مناطق الأراضي المرتفعة، منذ فترة الحماية الفرنسية تطورا لزراعة الحبوب على نطاق واسع[2] ؛ ويغادر العلويون جبالهم لاستغلال هضبة معمورة شرق حمص وحماة وجنوب حلب[3] ؛ واتسعت المساحة المستغلة في سهول بلاد الرافدين بأكثر من الضعف منذ نهاية القرن التاسع عشر، بعد أن كانت محصورة في أشرطة ضيقة مروية على طول الأنهار المغذية[4]. أما في المجال التركي فإن التطور يتم في اتجاه مختلف ولكنه مماثل من حيث المبدأ، حيث نلاحظ ارتفاع الحد الأعلى للسكن المستقر عبر كل الأناضول[5] باتجاه الجبال التي كانت تسود فيها البداوة، بينما تحول السكن الرعوي في الهضبة الوسطى إلى سكن مستقر[6]. وبهذا تحول الفلاحون في كل مكان إلى رواد.

---

(1) Despois, 1940.

(2) Gilbert et Févret, 1953; de Vaumas, 1956; Wirth, 1964.

(3) Weulersse, 1940 a, p. 370.

(4) Wirth, 1962.

(5) Bartsch, 1957.

(6) Hütteroth, 1962; Wenzel, 1937, p. 107-109.

3. تشكل العنصر البشري لهذا الانتشار عبر المجال في غالبه من الفائض الديمغرافي الثابت للمراكز السكانية القديمة، إلا أن قسما لا يستهان به نجم عن استقرار البدو، فالاستيطان التدريجي في الأطراف الصالحة للزراعة حرم البدو من مراعيهم المفضلة ودفع بهم نحو الصحراء، ممايجعل عيشهم في جماعات كبيرة العدد أمرا صعبا، بحيث أصبح المخرج الوحيد لهم التحول إلى حياة الاستقرار التي تسمح بكثافات سكانية أكبر بكثير، لهذا فإن استقرار البدو يندرج ضمن عملية إعادة الانتشار في الأرض، كما أنه أصبح هدفا مهما لسياسة بسط النفوذ الإداري للدول على كل أقاليمها، ويعتبر كذلك تجسيدا ساطعا لثأر الحضر من البدو الذي يطبع الظرف السياسي الحالي. ويظهر هذا الموقف خاصة في بعض دول الشرق الأوسط، فالمادة 158 من دستور 1950 في سوريا تجعل من الاستقرار الشامل للبدو هدفا رئيسيا يجب تحقيقه؛ كما أن استقرار البدو من العناصر الأساسية في السياسة السعودية التي أوجدت مراكز سكانية عديدة موجهة بصفة خاصة إلى "الإخوان" الذين كانوا رفاق الملك في كفاحه. واليوم وفي كل مكان تعرف البداوة تراجعا متسارعا باستثناء حالة أفغانستان التي تهيمن على سياستها الأصول البدوية للأسرة الحاكمة، حيث تشجع الدولة انتشار البدو الأفغان في كل منطقة القوس الجبلي الأوسط التي تشهد استحواذ البدو على العقار وكذلك انتشارا واضحا لنمط العيش البدوي[1].

4. نتج عن هذه الحركة الواسعة تحول في البنية الاقتصادية والاجتماعية للبلدان الإسلامية، فالإسلام الأصلي الحضري والبدوي في آن واحد يترك المجال شيئا فشيئا لإسلام فلاحي، حيث تتوسع المجتمعات الريفية على حساب المراكز المروية القديمة والبدو في نفس الوقت، مدفوعة في ذلك بحركة استصلاح عارمة للأرض تجسد النشاط الطبيعي الغالب في

(1) Ferdinand, 1962.

بلدان لا زالت فيها عملية التصنيع بطيئة. ورغم هذا فإن الاختلافات كثيرة بين المجال القديم والمناطق السكانية الجديدة، كما أن عملية إعادة التهيئة الإقليمية لم تتم بعد، فهناك تباينات في الكثافة السكانية وكثافة استغلال الأرض موروثة عن الماضي، على أن هذه التباينات تتقلص بالتدريج. هذا ونلاحظ تحولا في الجغرافية الإقليمية التقليدية للإسلام، التي تطبعها تباينات عميقة، نحو جغرافية جديدة تضمحل فيها التناقضات ضمن التناسق العام الذي تفرضه الموجة الريفية. إن اتخاذ الإسلام طابعا ريفيا يشكل في حد ذاته عنصرا إيجابيا بما أنه يحد من الموانع المرتبطة بالنموذج التقليدي، غير أن مأساة البلدان الإسلامية تكمن في أن هذا التوسع الزراعي يتم في مجال طبيعي صعب هو مجال مناطق الأطراف حيث تعاني الزراعة المطرية من تذبذب التساقط. وبما أن المقاومة الفلاحية تركزت في الماضي في الجبال والمناطق المروية، فإن هامش التوسع يقع أساسا في الهضاب شبه الجافة، كما أن توسع الزراعات المروية لا يمكنه رغم أهميته مجاراة نسبة النمو الديمغرافي، مما يجعل اقتصاد هذه البلدان تتحكم فيه أكثر فأكثر السماء وتقلبات مناخ متقلب إلى أبعد الحدود[1]، وفي هذه الحالة يحدث انجراف التربة خسائر جسيمة، بحيث يجب القيام بجهود تهيئة ضخمة حتى يسفر التوسع في مجال شغل الأرض عن استقرار وتقدم فعليين. هذا ويبدو الوضع أفضل في البلدان التي تتوفر على هامش واسع للتوسع الزراعي، مثل تركيا وإيران، كما أن العمل العفوي وغير المنظم للرواد يؤجل لفترة جيل أو جيلين مواجهة المشاكل الكبيرة، وعندما يتم اعتماد أشغال الري الكبرى كحل وحيد، كما هو الشأن في مصر، تصبح مسألة تراكم رأس المال غير قابلة للحل ويصير الفقر مشكلة مستعصية.

هكذا نلاحظ تحولا تدريجيا للإشكالية الأساسية المتحكمة في

---

(1) Planhol, 1960 a.

جغرافية العالم الإسلامي في الاتجاه ذاته الذي يشهده العالم المعاصر؛ بحيث يتوجب استبدال العناصر الإقليمية بنظرة شاملة ضمن الأطر الوطنية على الأقل، غير أن هذا لا ينفي أن تاريخ الإسلام كله هيمنت عليه التوجهات التي تم تحليلها فيما سبق، وإن بدأ يتخلص منها اليوم شيئا فشيئا. وتظل هذه التوجهات المفتاح الذي يسمح بفهم وضع كثير التنوع ومحير للوهلة الأولى إلا أن الدراسة المتفحصة له تعتبر شرطا لأي عملية تهيئة عقلانية.



مختارات بيبليوغرافية

أ. الكتب والدراسات الشاملة: لقد سبق لنا التطرق للإشكاليات العامة التي تم التعرض لها في هذا الكتاب وخاصة في الفصل التمهيدي من زوايا مختلفة وبأشكال متنوعة في : (Planhol, 1968 b) الذي يقدم حوصلة سريعة عن العلاقة بين الإسلام والمجال الجغرافي، وكذلك في : (Planhol, 1957) حيث حاولنا تقديم وصف تحليلي للتأثيرات المتبادلة بين الإسلام والمجال الجغرافي (بالإضافة إلى بيبليوغرافيا مفصلة).

أحسن كتاب أنجز إلى يومنا هذا كمقاربة للإسلام من منظور التاريخ الاجتماعي الموضوع في إطاره الجغرافي، هو بدون شك كتاب : ,Coon) (1952 وهو عرض شامل يرتكز على العديد من الأمثلة المستقاة من حالات معينة. أما الدراسة المتميزة والجزئية لـ : (Montagne, 1947)، فهي تركز على دور البدو. كما أن وجهات النظر الجغرافية ليست غائبة عن الكتاب المتميز، وإن كان هشا في بعض الأحيان، الذي أنجزه : .(Gautier, 1931)

ب. لا يمكن لهذا الكتاب أن يلم ببيبليوغرافيا مفصلة عن ظروف نشأة الإسلام ومجاله التاريخي. على أنه يمكن الرجوع إليها في شكل منهجي ونقدي، وضمن عرض ذكي متميز، في : (Rodinson, 1963 a)، وتبقى هذه البيبليوغرافيا صالحة إلى حد الآن.

جـ. قدمنا أهم أفكارنا عن حركة انتشار البداوة في الإسلام وآثارها في : .(Planhol, 1962) فيما يخص الدور الاجتماعي للمدن الإسلامية

وعلاقاتها بالأرياف، راجع الأعمال الأساسية لـ: (Weulersse, 1938-1946)، والتي أنجزت خلال سنوات 1930–40 من طرف ملاحظ متفحص يتمتع بموهبة متميزة في العرض وبعلاقة مباشرة مع الأرياف المشرقية التي تبرز فيها الظواهر بشكل واضح. أما أحسن مونوغرافيا عن هيمنة المدينة على الإقليم المجاور لها فهي تعود لـ: .(English, 1966)

د. توجد دراسة جيدة للهياكل السياسية البدوية في: ,Montagne) 1947) (الفصلان الخامس والسادس)، وللهياكل السياسية الإسلامية عموما في (Coon, 1952) ((الفصلان 15 و16). ولا يوجد إلى يومنا هذا تحليل لخصائص التنظيم الإقليمي الإسلامي، وإن كنا قد عرضنا أفكارنا في هذا الشأن وبشكل مقتضب في: .(Planhol, 1968 b) ويقدم: (Bowman, 1924) عرضا جيوسياسيا للإسلام المعاصر. وعادة ما نجد وجهات نظر من هذا النوع في الأدبيات الاقتصادية أو السياسية المتعلقة بالشرق الأوسط أو العالم الإسلامي عموما، غير أنها تهمل في الغالب الحقائق الأنثربولوجية والجغرافية الأساسية. حول موضوع استقرار البدو، أنظر: .(Herzog, 1963; Monteil, 1966)

الفصل الثاني
العالم العربي

أ. الشرق الأدنى

مقدمة:

إن تقدم الصحراء إلى قلب المشرق وانحصار المناطق الزراعية في الأطراف في شكل "هلال خصيب" مهد الطريق أمام انتشار البداوة في الشرق الأدنى العربي على حساب مجالات حضرية تفتقد للوحدة. وفي هذا الحيز بالذات تجلت نتائج انتشار الإسلام بشكل ساطع وفي وقت مبكر، غير بعيد عن المركز التاريخي لنشأته، وهنا كذلك كانت عودة النبض للحياة الحضرية متأخرة، إذ ظل التأثير الأوربي ضئيلا قبل القرن العشرين باستثناء مصر. لذلك نجد أنفسنا هنا أمام تاريخ يهيمن عليه البدو.

على أن مراكز زراعة مروية متميزة ظلت صامدة، مثل مناطق دلتا وحوض النيل، وأودية بلاد الرافدين بدرجة أقل، وبعض الواحات الكبرى التي تكثر فيها منابع المياه، مثل دمشق، وقد كانت بمثابة عناصر استقرار حافظت باستمرار، في الهلال الخصيب ومصر على الأقل، بل وفي الجزيرة العربية ذاتها، على هيمنة الحياة الحضرية وعلى استمرارية الدول القائمة على المدن. فإذا كان الشرق الأدنى العربي موطنا للبدوي فهو في الوقت نفسه موطنا متميزا للبرجوازي المتحضر.

و في مقابل هذين العاملين الأساسين، كان دور الأرياف المعتمدة على الزراعة المطرية محدودا نسبيا، حيث بسط البدو أو الحضر نفوذهم عليها بشكل واضح، ورغم أهمية المقاومات الجبلية في لبنان واليمن إلا أنها ظلت هامشية ودون تأثير على التطور العام.

يقدم الشرق الأدنى العربي بشكل عام وبأمثلة لا تدع مجالا للشك أفضل صورة للحركيات التي طبعت المواجهة العامة التي تم التعرض إليها فيما سبق. فالقلب الجغرافي للإسلام هو الذي جسد أفضل تجسيد آثاره الرئيسية في هذه المنطقة.

1. توازن ما قبل الإسلام وحركات انتشار البداوة

1. توفر منطقة الشرق الأدنى، وخاصة بلدان الهلال الخصيب، التي تعتبر مهد الحياة الزراعية وحضارة المدن[1]، أفضل نموذج للبلدان ذات الكثافة السكانية العالية التي عرفت فيها الحياة الريفية أوجها في العصور القديمة قبل أن تتراجع إلى مستوى متدن في الفترة المعاصرة.

و قد تم إنجاز دراسة مفصلة قارنت بين كثافة شغل الأرض في العصور القديمة وتدنيها حديثا في فلسطين، اعتمادا على خرائط سنة 1931[2]، وبينت أنه توجد 934 قرية حديثة مقابل 1,790 موقعا أثريا قديما. وفي سهل شارون الساحلي، كان هناك 21 موقعا مأهولا سنة 1800 مقابل 93 في الفترة الرومانية البيزنطية[3]. ويعتبر الهلال الخصيب بلا منازع بلاد تلال تشكلت من

(1) تبقى حوصلة شيلد أحسن ما قدم في هذا الشأن: Childe, 1953.

(2) Huntington, 1935, fig. 6, p. 580.

أنظر كذلك، فيما يخص الأردن، سلسلة الخرائط التي نشرها: Phillips, 1954, fig. 4-10.

(3) Karmon, 1959.

ترسبات الآثار والبقايا العضوية للسكن المندثر، كما اتضح أن شغل الأرض هذا ارتقى منذ العصور القديمة إلى مرحلة تقسيم الأراضي والتنظيم الجماعي[1]، كما يدل التوزيع الجغرافي للسكان قديما على توسع الحياة الحضرية باتجاه الصحراء أبعد بكثير عن حدود المناطق التي ظلت مستغلة في العصر الحديث، كما هو الأمر بالنسبة للأردن والنقب. ونفس النتائج توصلت إليها، مع دقة أكبر، المعطيات الأثرية الطبوغرافية فيما يخص بلاد الرافدين، ففي إقليم ديالى انخفضت المساحة الإجمالية التي تغطيها المواقع المأهولة بالسكن من 3,417 هكتار في العهد الساساني إلى 190 هكتار فقط (باستثناء مساحة المنطقة الحضرية لبغداد التي يعود ازدهارها لعلاقاتها الخارجية)[2]. كما تراجع عدد سكان مصر من عن 7 ملايين في الفترة البطلمية[3] إلى أكثر بقليل من مليونين نهاية القرن الثامن عشر الذي تعرضت فيه مصر للحملة الفرنسية، كما أن الآثار الهيلينية المهجورة تلاحظ بكثرة على حافة الصحراء، وبمدينة الفيوم كان عدد المساكن 198 في الفترة البيزنطية، وأقل من 100 سنة 1315، ليتراجع إلى 64 في الخريطة الفرنسية لسنة 1799-1800[4].

2. ما هي المكانة التي كانت تحتلها الحياة البدوية ونمط الاستغلال الرعوي في ظل هذا الازدهار العام للحياة الحضرية في العصور القديمة ؟ إن موقع المراعي المخصصة لقطعان الماشية التي يملكها الحضر في الأطراف

---

(1) Planhol, 1963 a.

(2) Adams, 1965.

أنظر كذلك بالنسبة لبلاد الرافدين الخريطة رقم 1 في: Wirth, 1962، والتي تتضمن المراكز السكنية القديمة، وبالنسبة لمنطقة الجزيرة الخريطة رقم 3 في: Wirth, 1964.

(3) تتوافق تقديرات ديودور (Diodore) وجوزيف (Josèphe) رغم القرن الذي يفصلهما. أنظر: Butzer, 1960.

(4) Butzer, 1960.

اعتمادا على: K. Wessely.

الواقعة على حافة الصحراء له دلالة واضحة، فقطعان أهالي القدس كانت ترعى في غور الأردن[1] أو في الأحواض العميقة الواقعة في صحراء اليهودية عند منخفض البحر الميت[2]، وقد كان الأمر يتعلق بعملية تنقل موسمي تجمع قطعانا هائلة تضم عدة آلاف من رؤوس الماشية يحرسها رعاة مهرة عبر مناطق مقفرة وغير صالحة للزراعة. كما يبين وجود قوانين يهودية منذ القرون المسيحية الأولى، تجرم على حد سواء تربية القطعان الصغيرة وقطع الأشجار[3]، وأثناء ذلك كان الضغط الديمغرافي على الإقليم الزراعي قد بلغ حدوده الطبيعية القصوى، مما دفع إلى بذل كل الجهود من أجل المحافظة على الأرض الزراعية وحماية غطاء غابي تعرض لتدهور كبير. والسؤال المطروح في هذا الوضع هو: هل كان مجال البدو لا يتجاوز المناطق الصحراوية؟ لقد كانت هذه الأخيرة مجالا للسينيتيين (Scénites) أو السراسيين (Sarracènes) الذين حرص الكتاب القدامى[4] على التفريق بينهم وبين المجموعات العربية التي كانت في طريقها للاستقرار.

3. هذا ولا يمكن تفسير الحياة الحضرية التي عرفتها منطقة الهلال الخصيب اعتمادا على التحولات المناخية فقط. ولا يمكن اليوم القبول بهذه الفكرة التي رسم إطارها بنوع من المبالغة هونتينغتون (Huntington)[5] الذي قدم كبرهان رئيسي عنها وجود أكبر عدد من الآثار في المناطق شبه الصحراوية في فلسطين وتزايد عدد المواقع الأثرية مقارنة بالقرى الحالية كلما

---

(1) Reifenberg, 1955, p. 30.

(2) Rops, 1960.

(3) قانون الربي عقيبة الذي ذكره: Reifenberg, 1955, p. 30..

(4) Pline, VI, xxxii; Strabon, XVI, i, 26; Refus Festus, XVI; Cf. Dillemann, 1962, p. 89.

(5) Huntington, 1911 et 1935.
يطبق على الشرق هذه النظرية التي تم تعميمها على آسيا والعالم المتوسطي.

اتجهنا نحو المناطق الجافة في الجنوب والشرق، على أن هذا الأمر يمكن تعليله بهشاشة الحياة الريفية في مناطق الأطراف حيث تختفي بمجرد تعرض شبكات الري للتخريب. وقد اتضح أن عملا بسيطا كبناء خزانات ماء في وسط مناخي لا يختلف عما نعرفه اليوم، كان أساس ازدهار المرتفعات التدمرية (Palmyrène) قديما[1]. على أن ما ينقض هذه النظرية هو أن الفترة الحالية التي بدأت منذ حوالي سنة 700 ميلادية أكثر مطرا من سابقتها (850 قبل الميلاد – 700 م)[2]، غير أن هذا لم يحد من تراجع الحياة الزراعية. ومع هذا لا يجب التقليل من دور التحولات المناخية على المدى القصير إلا أن أنها كانت محدودة زمنيا وكانت آثارها متواضعة قياسا بالتغيرات التي أحدثها النشاط البشري. ويوجد اليوم اتفاق شبه تام بشأن التوجه العام لهذه الاستنتاجات أو حتى تفاصيلها على المستوى المحلي[3].

4. ما هي إذن المراحل والظروف التاريخية لهذا التراجع؟ لا يجب أن نلصق مبدئيا تراجع الحياة الحضرية كله بالفاتحين المسلمين[4]. ففي مصر مثلا يظهر أن شغل الأرض عرف تراجعا محسوسا في الفترة البيزنطية والقبطية مقارنة بما كان عليه في فترة البطالمة وبداية العهد الروماني. وفي جنوب الجزيرة العربية تعود مرحلة التحول الرئيسية إلى البداوة إلى الفترة السابقة للإسلام. وقد تراجعت الحياة الحضرية منذ القرنين الخامس والسادس

---

(1) Schlumberger, 1951.

(2) Butzer, 1958, p. 118-128.

(3) Reifenberg, 1955, p. 22-23; Dillemann, 1962, p. 65-67.

(4) وضع المؤلف نفسه في موقف حرج من حيث تعارض حقائق التاريخ مع أفكاره التي تعتبر أن الإسلام له دور سلبي على حياة الاستقرار، وهذا ما تنبه له في هذه الفقرة وحاول تجاوزه، فاعتبر أن هناك حالة من الاسترخاءكانت سائدة وأن حركة التدهور كانت كامنة، وهذا ما لا نسلم به لافتقاره إلى النظرة الموضوعية وإلى الأمثلة (المترجم).

مع الانتشار التدريجي حتى في جنوب الصحراء العربية للبداوة الكبرى العدوانية، والتي من المرجح أنها لم تمس هذه المناطق قبل هذه الفترة، وكذلك بسبب ضعف الممالك الحضرية التي ارتبط ازدهارها بطريق البخور.

كما عرف سد مأرب الكبير أولى تصدعاته في 450 و542 بسبب الإهمال، قبل أن ينهار نهائيا سنة 570[1]، ومنذ القرن الثالث جمع الملك الحضرموتي "يدعيل بين" المغتصب للحكم تحت إمرته قبيلتي عام وكلب البدويتين ودمر مدينة شبوة، وفي القرن الرابع فتح الملك الحميري شمار يوهاريش حضرموت على رأس جيش ضم العديد من البدو واختار مدينة شبام مركزا لحكمه، كما ترافق توسع مملكة كندة من وسط الجزيرة العربية باتجاه جنوبها، منذ نهاية القرن الخامس، بظهور مجموعات جديدة من البدو، ومنها على الأرجح أهل همام الذين يعتبرون أكثر كبار البدو القاطنين في الخيام السوداء توسعا نحو جنوب الجزيرة العربية في تلك الفترة[2].

على العكس من ذلك عرفت الفترة التي تلت الفتح الإسلامي ازدهارا ونموا لحياة الاستقرار، وأحسن مثال على ذلك نجده في منطقة سفح طوروس في شرق أعالي بلاد الرافدين. فبالرغم من كثرة التلال الأثرية بها والتي تدل على الكثافة العالية للمواقع المأهولة في العصور القديمة، إلا أن المعطيات التي بحوزتنا تؤكد أن شريط المنطقة المستغلة فعلا في سفح الجبل كان ضيقا في الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والسادس، وكان خط الليمس (Limes) يساير مباشرة حافة الجبل من كونستانتيا (Constantia) إلى نيسيبيس (Nisibis)، إذ لم توجد جنوب هذا الخط قلاع ونقاط استقرار دائمة إلا في الأودية، بينما كان باقي السهل مجالا للبدو[3]، كما عانت هذه البلاد من

(1) Wissmann et Höfner, 1952, p. 244.

(2) Ibid, p. 333-340.

(3) Dillemann, 1962, p. 72-73.

الحروب الرومانية الفارسية ومن موقعها الحدودي، وكان الكتاب المحليون يعرفون في تلك الفترة بلدا يطلقون عليه تسمية عروب أي بلاد العرب، يمتد إلى سفح جبل كاراكا داغ (Karaka dad) حيث أقيمت قلاع بيزنطية لمحاولة مراقبة تقدم البدو خلال فصل الصيف[1]. في كل هذه البلاد عرفت المنطقة المستغلة في الفترتين الرومانية والبيزنطية تراجعا مقارنة بالفترة السابقة وكانت أقل اتساعا مقارنة بالفترة الإسلامية الأولى.

بينما تمثل منطقة سفح طوروس حالة استثنائية بفضل موقعها الإستراتيجي، تشكل سهول ديالى، الرافد الأيسر لنهر دجلة انطلاقا من زاغروس، حالة نموذجية تم تحليلها بدقة متناهية[2]. ومما لا شك فيه أن الحياة الحضرية عرفت أوجها في الفترة الساسانية، حيث بلغت كثافة شغل الأرض مستوى لم ترق إليه الفترة المعاصرة، فهذه البلاد كانت في آن واحد بعيدة عن الحدود وقريبة منها بحيث لعبت دور القاعدة الخلفية في مواجهة العالم الروماني، مما جعلها محل اهتمام الحكام.

و قد انتقل هذا الإرث الريفي إلى الفاتحين المسلمين الذين استفادوا كذلك من مشاريع الري الكبرى التي حافظت على فاعليتها لبعض الوقت، إلا أنه سرعان ما برزت عوامل انعدام النظام، مثل تراجع سلطة الخلافة، فمنذ منتصف القرن التاسع عرف الاقتصاد الزراعي تراجعا واضحا بسبب الفوضى والصراعات، وتقلصت بذلك المساحة المزروعة في حوض ديالى من 8,000 كلم مربع في العهد الساساني إلى 6,000 كلم مربع فقط. وفي سنة 937 أحدث أمير يحكم تلك المنطقة شروخا في قناة نهراوين الكبيرة لوقف تقدم أحد أعدائه، وقد تطلب إصلاحها الجزئي عشرين سنة كاملة[3]، على أن

(1) Ibid, p. 75-78.

(2) Adams, 1965.

(3) Ibid, p. 86-87.

الضربة القاضية حدثت مع الغزو المغولي في القرن الثالث عشر وإن لم تكن سوى نهاية مطاف تطور استمر مدة طويلة.

و بالموازاة مع هذا التراجع، تركز السكان في وادي الرافدين ببعض المدن الكبرى، في سامراء في بغداد وخاصة التي عرفت نموا مذهلا عبر عن حضارة بعيدة عن الأرض، وتعرض هذا النمو العمراني الاستثنائي بدوره للدمار المغولي، واكتفت المدن في الفترة العثمانية كلها بحياة بطيئة، رغم أن بغداد حافظت على مركز مهم ونمو متجانس، سمح لها منذ نهاية القرن التاسع عشر بتوسع عمراني منظم[1].

يمكن تعميم هذا الوصف على جزء كبير من بلاد المشرق مع خصوصيات إقليمية عديدة، فقد شهد العهد الأموي عددا كبيرا من أشغال الري، مثل قناة قيصرية السفلى، وقناة يزيد بدمشق، وعدة قنوات أخرى انطلاقا من نهر الفرات[2]، وفي القرون الأولى للعهد العباسي حافظت الزراعة على ازدهارها، وكانت الرقة في الصحراء إقامة مفضلة للحكام، بفضل شبكة ري مصانة بشكل جيد ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر. وازدهرت زراعة القطن والزيتون في وادي خبور بمنطقة الجزيرة، وعرف منخفض الحلة زراعة القطن والأرز بفضل نظام صرف جيد للمياه. وظل المشهد العام يتميز بالحيوية والرخاء إلى غاية نهاية القرن العاشر[3]، الذي بدأت خلاله بوادر الانحطاط، ففي نهاية هذا القرن انخفض دخل الشام وفلسطين إلى نصف ما كان عليه في بدايته[4]، ويبدو أن الفترة الفرنجية أوقفت هذا الانحطاط في المنطقة الساحلية، حيث اهتم الصليبيون بالقواعد الزراعية لمنطقة نفوذهم[5]،

---

(1) حول بغداد، أنظر: Lebon, 1956; Bagdad (Arabica), 1962; Marthelot, 1965.

(2) Reifenberg, 1955, p. 99.

(3) أنظر: المقدسي، الترجمة الإنكليزية، لندن، 1886.

(4) Le Strange, 1900, p. 48.

(5) Reifenberg, 1955, p. 102-103.

غير أن شغل الأرض تحت حكم الفرنجة لم يرق إلى ما كان عليه في العصور القديمة، فبينما عادل عدد المواقع المأهولة في الفترة الإفرنجية (35) ما كان عليه في الفترة الرومانية البيزنطية في القسم الشرقي لسهل شارون الذي يتمتع بصرف طبيعي جيد للمياه، بقي هذا العدد منخفضا (17 مقابل 56) في القسمين الأوسط والغربي من هذا السهل حيث تستوجب المستنقعات الطبيعية أشغالا كبرى لصرف المياه[1]. وعلى كل فقد كان الوجود الإفرنجي عابرا، كما أن الغزو المغولي والفوضى التي تلته ساعد على إتمام عملية الهدم، فيما شهدت الفترة المملوكية إدخال قبائل بدوية حتى إلى منطقة السهل الساحلي لتكون درعا في وجه الغارات الإفرنجية المحتملة، ووزعت الأراضي غير المستغلة على جماعات البدو، مما أدى إلى تراجع مستمر للزراعة امتد إلى غاية القرن التاسع عشر.

يتضح لنا أن الآثار الأنثروبولوجية-الجغرافية للإسلام لم تتجسد في الحين، ففي بعض الحالات استمر الرخاء لمدة طويلة، ولم يظهر الدور المؤثر للإسلام إلا على المدى الطويل، كما لم تؤثر حركيات التدهور الكامنة بشكل كامل إلا في حالة وجود ظروف مساعدة، غير أن النتيجة في النهاية كانت وخيمة على الحياة الزراعية.

5. فقد استمر تسرب البدو إلى منطقة الهلال الخصيب بدون انقطاع إلى غاية الفترة المعاصرة. وكان النصف الأول من القرن التاسع عشر مرحلة إعادة تنظيم كبرى للأطر القبلية في صحراء الشام وأطرافها. فبعد الهجرة الكبرى لقبيلة عنزة باتجاه الشمال، والتي عرفت أهم فتراتها في القرن الثامن عشر[2] ولاقت تشجيعا من السياسة العثمانية الهادفة إلى تحجيم القبائل التركمانية في جنوب شرق الأناضول، تمت عملية انتشار البداوة في منطقة

(1) Karmon, 1959.

(2) Oppenheim, 1939-52, I, p. 68-70.

الجزيرة بوصول جماعات شمر مثل جماعة جربة القادمة من شمال الجزيرة العربية في العشريات الأولى من القرن التاسع عشر (وصلت إلى جبل سنجار في 1802)، وكان هذا من نتائج تأسيس الدولة الوهابية الأولى التي عملت هذه الجماعات جاهدة على الإفلات من هيمنتها[1]. وتدخل كل هذه الحركات في إطار التوسع المستمر لبدو الصحراء العربية باتجاه الشمال، وقد بلغ توسع وتأثير البدو أوجه في الهلال الخصيب في منتصف القرن التاسع عشر. ورغم أن الاحتلال المصري القصير (1833-1840) نجح في إحداث حركة استقرار وتوسع محسوس للزراعة[2]، فقد ظلت السهول الفلسطينية في هذه الفترة مقفرة على العموم[3]، ووجب انتظار منتصف القرن، بعد حرب القرم، لتجهيز الجيش التركي تدريجيا بأسلحة حديثة وإعادة تنظيمه بشكل سمح له ببسط النظام بشكل فعال[4]. وقد كان دخول إبراهيم باشا إلى دير الزور سنة 1857، وتحويلها إلى دائرة إقليمية سنة 1862، أول الأحداث الحاسمة التي تبعتها إقامة نقاط مراقبة على طول وادي الفرات، وعودة الأمن إلى الطريق بين تدمر ودير الزور ورأس العين[5]. وفي نفس الفترة أعاد صورية باشا المقيم في القدس (1857-1862) فرض النظام في جنوب فلسطين، ومكن بعد ذلك لبناء السكك الحديدية، التي كانت تشكل كل محطة فيها حصنا صغيرا، من توسيع شبكة الوجود العثماني. غير أن هذه الانطلاقة كانت بطيئة وتوجب على الحياة الريفية أن تنهض من مستوى متدن جدا، ففي

---

(1) Oppenheim, 1939-52, I, p. 131 ss.; Montagne, 1947, p. 194 ss; Al-Kasab, 1966, p. 33.

(2) Karmon, 1953, p. 9; Oppenheim, 1939-52, III, p. 171; Weulersse, 1940 a, p. 114; Lewis, 1955, p. 52.

(3) Margalit, 1963.

(4) Lewis, 1955.

ذكره: Wirth, 1962, p. 121.

(5) Oppenheim, 1939-52, I, p. 56.

منتصف القرن كان البدو الذين تسربوا إلى المناطق الحضرية متواجدين عبر كل فلسطين تقريبا، وظلت طبرية تدفع جزية للبدو حتى سنة 1878، واستمر الأمر كذلك بالنسبة لبعض قرى الجليل الأعلى حتى نهاية القرن[1]، كما انتشر البدو في ذلك الوقت في منطقة الجزيرة كلها، بينما تراجعت الحياة الحضرية في بلاد الرافدين إلى مراكز معزولة متناثرة على ضفاف الأنهار وفاقدة للتواصل فيما بينها[2]. أما المنخفضات الطولية الداخلية في بلاد الشام، أي البقاع في قسمه الشمالي وخاصة الغاب، فقد انتشرت عبرها البداوة على نطاق واسع وأصبحت محل صراع بين البدو والفلاحين المعتصمين في الجبال المجاورة[3].

2. صمود الفلاحين

أ. الإطار الموروث:

1. ماذا تبقى من رخاء العصور القديمة؟ يجب البحث عن شواهده في الوسط الجبلي الذي ظل منغلقا في وجه البدو. أولا في الجنوب الغربي للجزيرة العربية، حيث تعرف أراضي اليمن المرتفعة كثافة سكانية عالية حتى علو 2,500 متر بفضل الأمطار الاستوائية التي تمتد من مارس إلى سبتمبر والتي تبلغ بالإضافة إلى بقايا الأمطار المتوسطية الشتوية، معدل تساقط يتراوح بين 400 و600 مم، يعتبر هذا المجال أفضل نموذج للمناطق الجبلية المقاومة للبداوة، فقد قدرت كثافة السكان فيه سنة 1930 بحوالي 22 نسمة في الكيلومتر المربع[4]،

---

(1) Ashkenazi, 1938, p. 24.

(2) أنظر الخريطتين 1 و2 ل: Wirth, 1962.

(3) فيما يخص البقاع، أنظر: Thoumin, 1936 a. وبالنسبة للغاب، أنظر: Thoumin, 1936 b; Weulersse, 1940 a.

(4) Rathjens et Wissmann, 1934, p. 129.

ويعكس هذا الرقم الحضارة الريفية التقليدية في الجبال شبه الجافة المعتمدة على زراعة المدرجات وحقول زراعة القهوة بين 1500 و2000 متر، والكروم وأشجار التين وأشجار المناطق المعتدلة في الجهات الأكثر ارتفاعا، وعلى الثور كحيوان للنقل[1]، فيما يندر استعمال الجمل. كل هذا يشكل مشهدا لحياة فلاحية متأصلة في إطار تنظيم سياسي إقطاعي قائم على قلاع رائعة هدم الأتراك أغلبها عند غزوهم للبلاد في القرن السابع عشر[2]، وفي ظل جو روحي مستقل يؤكده انتشار النحلة الزيدية التي لا يتعدى مجالها الأراضي المرتفعة[3]، والتي ظلت متسامحة، حتى قيام دولة إسرائيل، مع مجموعات يهودية كبيرة (قدر عدد أفرادها بحوالي 60,000) وافق انتشارها الجغرافي مجال الزيدية[4].

و لم يهيمن البدو إلا على الأطراف الشرقية للبلاد المشرفة على الصحاري الداخلية، حيث وجدت الواحات الزيدية في الأودية الشرقية صعوبة في الصمود في وجههم، ولم تتمكن سوى أكبر واحتين من الحفاظ على استقلالها، وهي : الجوف، ونجران في الشمال والتي ضمت إلى الأراضي السعودية. ونجد في المجال الجبلي المحيط بواحة نجران آخر النقاط المتقدمة للحياة اليمنية، حيث تمكنت جماعة مكرمي الإسماعيلية، التي قدمت من الهند إلى اليمن في القرن السابع عشر، من تطوير مركز نشاط تغطيه أشجار التين حول عاصمتها بدر الواقعة على علو يفوق 2,200 متر وهو أقصى حد لتأقلم النخيل[5]. غير أن هذه الأطراف الشرقية تعرضت لخراب كبير[6]، خاصة بلاد

---

(1) Ibid, p. 122.

(2) Ibid, p. 126.

(3) أنظر الخريطة الموجودة في: Rathjens et Wissmann, 1934, p. 130.

(4) Ibid, p. 133-136.

(5) Philby, 1952, chap. 19, p. 351-363.

(6) fner, 1952, chap. I et II.Wissmann et H

مأرب عاصمة مملكة سبأ القديمة والتي اشتهرت بسدها العظيم، ويبدو أن مركز ثقل الحياة الفلاحية انتقل بشكل محسوس نحو الغرب باتجاه الأراضي المرتفعة، فبينما كان مركز قوة مملكة سبأ القديمة يقع في نطاق الأدوية حيث تمارس الزراعة المروية في السفح الشرقي الذي كان يمر عبره طريق البخور، توجد مدينة صنعاء التي أصبحت عاصمة الدولة اليمنية الحديثة في المناطق المرتفعة على علو 2,350 مترا.

من الصعب تقدير مدى التأثير الذي تعرضت له الكتلة الجبلية المرتفعة وربما تعرضت لتأثيرات غير مباشرة؟ فقد تم اعتماد فكرة مفادها أن المنازل العالية جدا والمتراصة المميزة لليمن والتي تشبه القلاع وتضم عصبة بكاملها وتستجيب لحالة حرب قبلية دائمة، تستمد أصولها من شمال الجزيرة العربية وتعبر عن نوع جديد من العلاقات الاجتماعية مرتبط بقدوم البدو، بينما يرجح أن بيت حضارة سبأ كان من نمط المنزل ذي الصحن الذي بقي حيا في البيوت اليهودية باليمن ذات الصحن المنفتح المقام في الطابق العلوي(1). وعلى كل فقد وقع اندماج لغوي حيث عمت اللهجات العربية الشمالية مما يدل على تسرب مهم، وبالرغم من أن الحياة الريفية ظلت على ما كانت عليه إجمالا ورغم أن قوة مقاومتها كانت كافية لجعل الغزاة يتأقلمون معها دون قلبها رأسا على عقب، فإن المخزون البشري، مع ما يحمله من تقاليد ثقافية، عرف عملية تجدد كبيرة.

هذا وظلت جبال أخرى من السلسلة الجنوبية للجزيرة العربية منغلقة في وجه الغزوات البدوية، إلا أن موقعها على علو أقل ارتفاعا وظروفها الطبيعية لم تسمح بازدهار حياة حضرية كتلك التي عرفها اليمن. فبين خطي الطول 51 و56 شرقا، تسيطر قبائل قارة، التي تضم مربي قطعان الماشية الضخمة، على

(1) Goitein, in Rathjens senior, 1957, p. 7-8.

مرتفعات إقليم ظفار التي لا يتعدى علوها ألف متر[1]، وكانت تربية الجمال ثانوية بالنسبة لقبائل قارة التي كانت تتنقل على مسافات قصيرة في أودية الجبال، وتسكن حينا أكواخا بسيطة، وأحيانا أخرى، خلال برد الشتاء وأمطار الصيف تأوي إلى ملاجىء مدفونة جزئيا تحت الأرض محفورة في منحدرات الأودية. وقد تضم هذه القبائل طبقتين ثقافتين مختلفتين، إذا ما أقررنا بأن جماعة شهرة المغلوبة على أمرها والمسخرة للخدمة في وقتنا الحالي عرفت قديما حياة المدن[2]، بحيث يشكل رعاة البقر، في هذه الحالة، طبقة جديدة ربما وفدت من شرق إفريقيا قبل الإسلام[3] على كل حال نلاحظ أن التباين مع المجال البدوي ظل راسخا، كما كان في القرن الرابع عشر عندما لاحظ ابن بطوطة أن أوجه التشابه تجمع بين أهل ظفار والمغاربة أكثر مما يجمعهم بالعرب[4]. على أن بلاد قارة تشكل حالة معزولة، فعمق مرتفعات السلسلة الجنوبية الساحلية في الأماكن الأخرى لم يسمح بحماية أنماط العيش القديمة.

أما في الشرق، فتوجد مقاومة من نفس النوع في عمان. ورغم أن معارفنا حول الحياة الجبلية في عمان جزئية ولا تسمح بالتدقيق في مسألة درجة تسرب التأثيرات الخارجية، فإن قلب كتلة الجبل الأخضر ووادي إسماعيل تشهد كثافة لحياة حضرية ذات أصول قديمة. ومن المحتمل أن عناصر قادمة من غرب الجزيرة العربية واليمن اندمجت هنا خلال أزمة البداوة التي عرفتها القرون المسيحية الأولى[5]، وينعكس الطابع الروحي لهذا التفرد

(1) Bent, 1900, p. 244-276; Thomas, 1938, p. 36-105.
في زمن رحلة بنت (Bent)À كان شيخ من قبيلة قارة يمتلك 500 رأس ماشية مقابل 70 جملا فقط (ص. 250).

(2) Thomas, 1938, p. 47.

(3) Ibid, p. 69.

(4) Trad. Gibb, II, p. 385.

(5) أنظر على وجه الخصوص: Miles, 1966, p. 16 ss.

الإقليمي في مقاومة الخوارج المستميتة في هذه الأراضي المرتفعة، والتي انتصرت في الأخير رغم فترات عرفت هيمنة نظام الخلافة وتحكم القرامطة والممالك الفارسية.

ثالثا، احتضنت سلاسل هضاب قلمون الشبه الصحراوية المشرفة على الصحراء الشامية حياة فلاحية تميزت بانغلاق كبير في وجه التأثيرات الخارجية، فقد بقيت الديانة المسيحية حية في العديد من القرى، ولم ينتشر الدين الإسلامي في باقي المنطقة إلا خلال القرن الثامن عشر، كما ظلت اللهجة الآرامية سائدة في ثلاث قرى[1]. ومما يؤكد هذا التفرد المستمر تلك الأشكال الهندسية الأصيلة في البيوت كالواجهة المزخرفة بخط مزدوج من الأقواس المحمولة على أعمدة في الطابقين الأرضي والعلوي والتي نجدها في منطقة يبرد[2]. وحول مراكز قوية معتمدة على الري وقرى كبيرة ذات مواقع دفاعية، تسود الزراعات الجافة والنشاط الرعوي القائم على التنقل عبر مسافات طويلة، وذلك بفضل اتفاقات قائمة على عقود رعي مبرمة مع المجتمعات البدوية. على أن قلمون تشكل حالة استثنائية تفسرها التضاريس المعقدة والمحطات الدفاعية المتتابعة ووفرة منابع المياه في بعض المواقع المتميزة. على العكس من ذلك، عمت البداوة الهضبة الأردنية التي وإن كان ارتفاعها يماثل ارتفاع قلمون إلا أن تضاريسها أكثر رتابة ومناخها أكثر جفافا، كما أن الحياة الحضرية الحالية بها ذات أصول بدوية قديمة أو حديثة[3].

2. كان استمرار الحياة الفلاحية أكثر صعوبة في مناطق السهول. فقد انتشر البدو في كل هضاب الزراعات الجافة، وانحصرت الحياة الفلاحية خاصة في المراكز المروية والواحات وسهول مناطق دلتا الأنهار لتوفرها على

(1) Thoumin, 1936 a, p. 212-222; Weulersse, 1946, p. 278-282; Reich, 1937.

(2) Thoumin, 1936 a, p. 222.

(3) Phillips, 1954, p. 80-83.

مزايا طبيعية في هذه البلاد الجافة والشبه الجافة.

رغم هذا يجب أن نسجل في البداية أن العديد من المراكز المعتمدة على الري وذات المواقع المكشوفة والواقعة بأطراف الصحراء قد زالت تماما من الوجود خاصة عندما لم يسمح لها حجمها الصغير بالدفاع عن نفسها واسترجاع قوتها، فيما اكتفت واحات أخرى بدور الممتلكات البائسة للقبائل البدوية التي أبقت عليها لتكون نقاط ارتكاز لتجارة القوافل أو قواعد سياسية-تجارية لسلطة زعماء القبائل.

هذا هو المصير الذي لاقته على وجه الخصوص منطقة تدمر أو بلاد المناذر كما يسميها البدو اليوم للدلالة على أن واحاتها المتقاربة كأنها تحرس بعضها البعض[1]، وتتاخم هذه المنطقة آخر السلاسل التي تمتد بعيدا داخل صحراء الشام انطلاقا من جبل لبنان المضاد وقلمون. وفي القرن التاسع عشر لم تعد مدن تدمر وإريك وسخنة وطيبة والقم قائمة إلا بفضل البدو ومن أجل خدمتهم. فسكان مدينة سخنة، التي تمت دراستها بالتفصيل[2]، كلهم من أصول بدوية قريبة أو بعيدة، لكنها واضحة المعالم، كما أن صراعاتها الداخلية تترجم النزاعات بين القبائل التي تقتسم النفوذ فيها وتجمع منها ضرائب ثقيلة. وتظل الحياة الزراعية ثانوية لا تتعدى سوى بعض الحقول المخصصة لزراعة الحبوب، فيما تنعدم البساتين ذات الزراعة المكثفة، فضلا عن اعتماد نظام ري بدائي قائم على الفصل بين الماء والأرض التي يرويها. هذا ويعتمد السكان في معيشتهم على الصحراء أكثر من اعتمادهم على الواحة، فهم يستغلون عشب الصابون المعروف بالقلي الذي يستعمل رماده كملح في معامل صناعة الصابون في شمال بلاد الشام، ويقومون بقطف ثمار شجر الفستق وجمع عرق السوس والصمغ واستخراج الملح وملح البارود، بالإضافة إلى مهن

---

(1) Boucheman, 1939, p. 13.

(2) Ibid; Weulersse, 1946, p. 306-309.

صغيرة كثيرة خدمة للقبائل والنشاط التجاري المرتبط بها. كما كانت هذه المدن، التي تعتبر مدن قوافل أكثر منها واحات زراعية حقيقية والتي تشكل نقاطا متقدمة للحياة الحضرية، تعيش باستمرار تحت رحمة مزاج البدو المتقلب، ففي 1917، نهبت مدينة طيبة تماما من طرف بدو سابا الذين فرضوا حالة من الرعب حتى سنة 1936، بحيث أن النساء كن لا يجرأن على الإقامة هناك خارج موسم الحصاد[1]. وبما أن هذه المراكز تعتبر هياكل متطورة للعالم البدوي الذي انبثقت عنه أكثر منها مراكز للحياة الحضرية، فإنها لا تكاد تدخل في عداد مراكز المقاومة الفلاحية.

ثانيا، لم تكن حالة أغلب واحات الجزيرة العربية مختلفة كثيرا، باستثناء مراكز العمران الكبرى بمدن الحجاز، حيث أبقت مستلزمات الحج على حياة عمرانية غنية مندمجة في دول حضرية قوية أو محافظة على استقلال محلي شكلي، كما كان الأمر بالنسبة لشرفاء مكة. أما أغلب الواحات فقد كانت تنتمي بشكل طبيعي لمجال نفوذ القبائل، على أنها كانت تتمتع بميزة لم تتوفر لدى واحات بلاد الشام، إذ كانت الجزيرة العربية تساعد، بفضل بعدها عن الدول الحضرية الكبرى، على نشوء إمارات بدوية أو حتى ممالك بدوية ذات أهمية في حاجة لنقاط ارتكاز دائمة، واضطلعت الواحات بهذا الدور بشكل طبيعي. ضمن هذا الإطار، ازدهرت مدينة حائل كمركز في القرن التاسع عشر لدولة آل رشيد المنحدرة من قبيلة شمر[2]، وكذلك الرياض عاصمة الوهابيين[3]. وقد بلغ عدد سكان هذه الواحات 20,000 أو 30,000، كما نشأت فيها جيوب زراعية واسعة تحت حماية الأسوار والقلاع، تمتزج

(1) Weulersse, 1946, p. 310.

(2) يوجد وصف في: Doughty, I, 585-619 et II, 1-46; Euting, I, 173-240 et II, 1-106; Blunt, 224-314; Palgrave, I, 97-192.

كما توجد حوصلة ممتازة في: Montagne, 1947, p. 151-158.

(3) Philby, 1959; 1922, I, 62-107 et 340-386.

فيها الحقول وبساتين النخيل. وبفضل حماية الأمراء البدويين لواحات الجزيرة العربية التي اتخذوها مراكز لحكمهم، شهدت ازدهارا يفوق بكثير ما عرفته مثيلاتها في صحراء بلاد الشام في منطقة أطراف السلطة العثمانية حيث سادت الفوضى القبلية.

ثالثا، يجب التوجه إلى أطراف الصحراء للعثور على واحات أو مجموعات واحات تمكنت من المحافظة على استقلالها في وجه البدو، كما في جنوب الجزيرة العربية بالنسبة لخط مدن وتجمعات وادي حضرموت[1]، حيث تمكن السادة وهم زعماء دينيون من المحافظة على استقلاليتهم، في ظروف صعبة للغاية وفي جو من العداء الدائم زادته تعقيدا الصراعات الداخلية بين العصب. فمنذ زهاء ربع قرن كان فلاحو الغرفة الواقعة غرب صيفون لا يستطيعون الوصول إلى الحقول للحرث أو الحصاد إلا بالتنقل عبر خنادق[2]، كما تقلص المجال المزروع والمسكون بشكل محسوس منذ الفترات السابقة للإسلام، فالقسم الأعلى لوادي مصيلة تنتشر عبره الأطلال، وانحصرت الحياة في وادي حضرموت بين القطن وطريم، حيث تنتصب المدن الرئيسية الثلاث وهي شبام وصيفون وطريم بفضل وجود مياه باطنية غير بعيدة عن سطح الأرض وفرت القواعد اللازمة للزراعة.

كان الوضع أحسن حالا بالنسبة للغوطات الداخلية ببلاد الشام، وهي مراكز كبرى لحياة زراعية تقوم على الري وترتبط بمنابع المياه المتدفقة من السفوح الداخلية لجبال الحرمل ولبنان المضاد وقلمون، وتعتبر غوطة دمشق أفضل نموذج لها[3]. هذا ولم تقض أعمال التخريب المتكررة على شبكات الري ذات البناء البسيط والتي تزودها مياه جارية لا تنضب، فوفرة المياه

---

(1) Meulen et Wissmann, 1932; Leidlmair, 1961.

(2) Leidlmair, 1961, p. 28.

(3) Thoumin, 1936 a, p. 60-75; Weulersse, 1946, p. 283-94.

والطابع البدائي جدا للمنشآت التي يسهل ترميمها، قلصت بشكل كبير من قابلية شبه الواحات هذه للاندثار، وتعزز وضع دمشق بفضل حجمها الذي وفر لها استقرارا ملحوظا، بحيث يرجح أن مساحة المجال المروي لم تتغير منذ أكثر من ألف عام[1].

على أن تأثير الظروف السياسية العامة لم يستثن حتى أهم المجالات المروية التي تتطلب جهدا مستمرا لصيانة القنوات، وأوضح مثال على ذلك منطقة دلتا النيل التي عرفت منذ القرن الحادي عشر خاصة، تراجعا شاملا بسبب التخلي التدريجي عن أعمال صيانة شبكة الري، خصوصا خلال الفترة المملوكية التي طبعها ضعف السلطة المركزية، وعادت خلالها منطقة الدلتا إلى حالتها الطبيعية وفقدت القسم الأكبر من سكانها. ولم تكن عملية الفيضان الموجهة التي ارتبطت بوجود وقرب التجمع العمراني للقاهرة، تتعد شمالا خط ارتفاع 3 إلى 4 أمتار، بحيث كان هناك خط يحدد حيز الفيضان يمتد بين مدن دلنجات وصفط الملوك ودمنهور ودسوق ونشوط والمنصورة وسمبلاوين وفكوس وأبو الأخضر وبلبيس، يحد مناطق شمال الدلتا التي لم تبق بها سوى بعض الجيوب الآهلة بالسكان والقريبة من ذراعي النيل، خاصة في الأماكن التي يسمح فيها ارتفاع المجرى الرسوبي للنهر باعتماد ري دائم بواسطة الجاذبية الطبيعية وقنوات قصيرة جدا سهلة الصيانة من طرف القرويين أنفسهم[2].

رابعا، أيا كان مصير وظروف توسع هذه المناطق المروية، فإن تنظيمها الداخلي لم يتأثر بالأحداث التاريخية. فقد بدأ انتشار تقنيات الري التقليدية

---

(1) Thoumin, 1936 a, p. 59.

أما فيما يخص الفترة المعاصرة يجب الرجوع إلى: Wirth, 1966.

(2) Besançon, 1957, p. 99.

حول الحياة الاقتصادية بمصر في العصر الوسيط، أنظر: Weheba, 1960.

انطلاقا من مراكز تطويرها في إيران على الأرجح، واكتمل منذ القرون المسيحية الأولى بابتكار تقنية السدود المعتمدة على الوزن (سد هربقة في الشام سنة 132 م[1]، وسد مأرب). أما تقنية السدود ذات القباب الأكثر حداثة والتي استحدثت في إيران منذ القرن الثالث عشر[2]، فلم تتطور إلا مع إعادة اكتشاف الأوربيين لها وانتشارها لاحقا تحت التأثير الغربي. ومن وجهة النظر التطبيقية، تبنت الفترة الإسلامية إرث من سبقها في مجال تقنيات وتنظيم الري، فالتقنيات التقليدية (coutumiers) في الغوطات الشامية، مثل غوطة دمشق[3]، أو نظام الفيضان الموجه وأحواض حبس الماء في منطقة وادي النيل، كلها تقنيات سابقة للإسلام وتم الحفاظ عليها حتى عشية الفترة المعاصرة.

3. أخيرا، إلى أي مدى تمكنت مجتمعات فلاحية متماسكة من البقاء في الجهات السهلية المعتمدة على الزراعة المطرية دون اللجوء إلى الجبل أو المياه؟ لقد وجدت على الدوام حلقات من هذا النوع من الزراعة، تتسع وتتقلص حسب نمو أو تراجع عدد السكان، حول الغوطات الشامية الكبرى. والسؤال المطروح هو: هل وجدت شبكة كثيفة من هذا النوع خارج المراكز المعزولة؟ في بعض الحالات يمكن الإجابة عن هذا السؤال بالنفي القاطع، كما هو الأمر بالنسبة لمنطقة الجزيرة التي انتشرت بها البداوة بشكل كامل والتي تشكل ممرا للقبائل التركمانية والكردية التي تقضي الشتاء في الصحراء الشامية والصيف في أراضي الأناضول المرتفعة. على أنه يصعب تحديد ما يعكس حدوث استمرارية نمط العيش دون قطيعة لدى سكان سهول حلب أو حماة، والبقاع أو هضبة حوران البازلتية[4]. هذا ويعبر توسع الهيمنة العقارية للمدن، حماة في سهلها ودمشق في حوران، وسيطرة المدن على مجال يزوده

---

(1) Goblot, 1961.

(2) Goblot, 1961; 1963.

(3) Tresse, 1929.

(4) Weulersse, 1946, p. 252-267.

الريف بما يحتاج إليه من الغذاء، عن تجذر الحياة الفلاحية. وبالموازاة مع ذلك لا يجب التقليل من التأثير الثقافي والبشري البدوي الذي شهدته منطقة حوران وكذلك الجولان بين جبل الحرمل ونهر اليرموك ومنطقة منخفض وادي الأردن التي تعتبر ممرا يهيمن عليه البدو[1]، كما أن كبار الملاك في حماة اضطروا لإبرام عقود لتربية المواشي مع الرعاة البدو المنتشرين في الهضاب المجاورة، وقبلوا على مضض بوجودهم. هذا ولم تمنع الهيمنة الاجتماعية لبرجوازيي المدن الأرياف التابعة لهم من استيعاب عدد كبير من البدو الذين تحرروا طوعا من الأطر القبلية ولم يؤثروا على استمرارية نمط شغل الأرض. على العكس من ذلك تنتشر جنوب غرب حلب الملكية القروية الصغيرة والمتوسطة، وتدل كثافة الحياة الزراعية في مقاطعتي إدلب وإريحا على تقاليد فلاحية راسخة.

لا يمكن فصل إشكالية الاستمرارية البشرية في السهول الجافة عن إشكالية نشأة الأراضي الجماعية ذات الحقول المزروعة حسب نظام إراحة التربة وذات التقسيم الطولي، المعروفة في كل الشام باسم الأراضي "المشاعة"، والتي توجد شواهد على وجودها منذ بداية القرن التاسع عشر على الأقل، ويبدو أن القانون العقاري العثماني لسنة 1868 شجع توسع الملكيات الكبرى على حساب الأراضي المشاعة[2]. وإذا ما أخذنا في الحسبان أن مناطق أعيد تعميرها في الفترة المعاصرة، مثل الجزء الشمالي من بلاد الرافدين، لا تعرف تقسيما للأراضي إلا في شكل الحقول المتكتلة، يصبح من الجائز أن نرى في نظام الأراضي "المشاعة" رد فعل لقدم الأراضي، يعبر عن وجود سكاني كثيف أدى إلى تنظيم صارم تتعايش فيه

فيما يخص سهول حلب، أنظر: Hamidé, 1960.

(1) هذا ما نستشفه من قراءة: Bagh, 1961.

(2) Weulersse, 1946, p. 102.

القطعان والأراضي الزراعية في المجال نفسه[1]. مع العلم بأن الشرق الأدنى شهد تطورات من هذا القبيل منذ أبعد العصور التاريخية القديمة[2]. من هذا المنظور يمكننا فهم افتقاد سهل البقاع الأوسط للتجانس، حيث يوجد تقسيم طولي للأرض يعود إلى زمن بعيد جنبا إلى جنب مع تقسيم حديث من صنف الحقول المتكتلة أو في شكل شريطي[3].

ب. مناطق اللجوء:

1 .في مقابل عدم وجود استقرار في أغلب المناطق السهلية وهجرها، تميزت جهات أخرى بتراكم للسكان، وتطورت بها أنماط عيش جديدة، وازدهرت فيها الحياة الفلاحية، حتى أن هذه الملاجئ تتفوق من حيث كثافتها ومستوى شغل الأرض فيها على المناطق ذات الوجود السكاني العريق والتي تجاوزت رغم الصعوبات حقبة الخراب. وقد كانت بعض هذه الملاجئ مجرد مراكز متواضعة معزولة، مثل قرية الصلت الكبيرة التي تشرف على منخفض نهر الأردن من منحدر الهضبة الأردنية، والتي ينقسم سكانها بين ثلاثين جماعة قبلية، عشرة منها مسيحية، والتي استوطنت القرية منذ 150 إلى 300 سنة[4].

2. هناك مجالات طبيعية متميزة صارت مناطق لجوء بالنسبة لمناطق شاسعة. ويتعلق الأمر أحيانا بسهول سمح لها موقعها على هامش الموجات البشرية الكبرى أن تصبح مأوى إلى حد ما. ويشكل توزيع جماعة متولي في لبنان نموذجا في هذا الشأن[5]، فقد استقرت هذه الأقلية الشيعية في بادئ

---

(1) أنظر: Latron, 1936؛ وهناك مناقشة عامة لهذه المسألة في: Weulersse, 1946, p. 99-109.

(2) Planhol, 1963.

(3) أنظر الصور الجوية التي نشرها: Klaer, 1962. التقسيم الطولي في الصور 3-4-5، والحقول الكتل أو الأراضي المقسمة في شكل شريطي في الصور 6-7-8-10.

(4) Phillips, 1954, p. 81.

(5) Vaumas, 1955, p. 543-548.

الأمر في الجزء اللبناني من الجليل الأعلى وفي هضاب بلاد عش شقيف التي تعتبر امتدادا لها في الشمال، حيث يعود أول ذكر لوجود هذه الأقلية فيها إلى القرن الثالث عشر، ومن هنا انتشرت في البقاع وحتى في جزء من جبل لبنان خلال القرن الثامن عشر. وبعد تعرض الجماعة في تلك الفترة لانتكاسات كبيرة على يد يوسف شهاب والمارونيين، احتمت بالبقاع الشمالي وهو سهل جاف تتركز الحياة فيه حول بعض المراكز المروية الكبيرة مثل بعلبك، ويشكل ممرا واسعا أجرد يمتد من الشمال إلى الجنوب عكس اتجاه موجات التنقل البشري الكبرى، ولم يستعمل قط كطريق عبور، كما حافظت الجماعة على مواقعها الأصلية في بلاد الشقيف وهي منطقة معزولة وذات موارد متواضعة، بينما طردت من سهول البقاع الجنوبي الأكثر غنى، حيث يمر الطريق الكبير بين بيروت ودمشق الذي لم تسمح السلطات القائمة أن يكون ضمن مجال نفوذ نحلة منحرفة.

3. تشكل مستنقعات بلاد الرافدين السفلى المنفرة مجالا آخر يمكن الاحتماء به. فنمط العيش المعقد لسكانها المعادن[1] المعتمد على التربية الشبه البدوية للجاموس في الجزء الأوسط للمستنقعات، وزراعة الأرز على ضفافها، وعلى قطف الثمار وضفر القصب في كل الجهات، جمع بين عناصر من أصول مختلفة. ويبرز عدم التجانس خاصة في الفصل الصارم بين زراعة الأرز وتربية الجاموس الذي لا يستعمل أبدا في الأعمال الزراعية. إن الإشكالية الأساسية تكمن في تقدير نصيب العناصر الأولى التي تنتمي لثقافة المستنقعات الأصلية في هذه التركيبة، من جهة، ونصيب الإضافات اللاحقة التي حملتها الطبقات الثقافية المتوالية التي تراكمت في البلاد من جهة أخرى، وكذلك في تحديد المراحل التاريخية التي أنتجت هذا الخليط. هذا ويجب

(1) Thesiger, 1954 a et b, 1964; Wirth, 1955; Westphal-Hellsbuch, 1956; Westphal-Hellsbuch et Westphal, 1962; Dauphin, 1960; Salim, 1962.

الإقرار بأن خصائص مادية أصيلة جدا ظهرت في منطقة المستنقعات، مثل الحربة المستعملة في الصيد، والقوارب ذات الشكل المتميز بالمقدمة ذات المنقار الطويل التي تسمح بالتنقل عبر أدغال القصب، أو نماذج متميزة جدا من منازل القصب المضفور، كما أنه من المؤكد أن العديد من مكونات الثقافة المادية قديمة جدا كالقوارب التي نعرف منها نموذجا سومريا يرجع إلى حوالي 2,744 قبل الميلاد[1]، والتقنيات المختلفة لاستعمال القصب، والسكين الحجري المستعمل لقطعها. وقد ذهب بعض الكتاب[2] إلى حد اعتبار المعادن من بقايا سكان أصليين ينحدرون مباشرة من السومريين، كما رأوا في ثقافتهم ثقافة مختلفة؛ على أن تحليلا أعمق توصل إلى التمييز بين مختلف التأثيرات وخلص إلى أن الجزء الأكبر من ثقافة المعادن متأخر[3]، مما يفسر عدم اكتمال التركيبة الجامعة لعناصر أدخلت في فترات مختلفة. فزراعة الأرز، على سبيل المثال، التي كانت مجهولة في العهود البابلية ومعروفة في زمن حملة الإسكندر المقدوني، أدخلت خلال فترة الاحتلال الفارسي. على العكس من ذلك يبدو أن تربية الجاموس أتت بها قبيلة زوط الغجرية مع نهاية القرن السابع. هذا ولم يكن السكان السومريون قطاع القصب في الواقع سوى يدا عاملة في خدمة سكان البر الذين سخروهم لاستغلال هذه الثروة الطبيعية، كما يجب التخلي عن البحث في مستنقعات تلك الفترة عن خصائص نمط عيش مستقل، فيما أن زراعة صنف من الذرة وتربية الأبقار كانت تشكل في المناطق المحيطة بالمستنقعات قاعدة عيش تختلف تماما عن نمط العيش

(1) اعتمادا على اكتشافات: Wolley، والتي ورد ذكرها في: Westphal-Hellsbuch et Westphal, 1962, p. 310.

(2) Dauphin, 1960.

(3) أنظر خاصة: Wirth, 1955, p. 38-40; Westphal-Hellsbuch et Westphal, 1962, p. 306-328.

الحالي. من جهة أخرى، يتضح أن التبعية الثقافية لمنطقة المستنقعات تجاه أهالي البر كانت كاملة فيما يخص على الأقل أداتين أساسيتين في الحياة اليومية، هما السكين الحجري المستعمل في قطع القصب والذي كان يصنعه حدادون من صابئة العمارة ويباع في أسواق المنطقة المحيطة بالمستنقعات، وكذلك القوارب المبنية في هوير في الفرات الأسفل. كما أن التقاليد المحلية التي ترجع إلى فترة لا تزيد عن بضعة قرون والتي تعتبر أغلب المعادن من أصول عربية، تؤكد الطابع المتأخر لثقافتهم وتدفع إلى البحث عن أصل أغلب السكان في منابع خارجية.

هذا ويشكل تاريخ وتغير سطح المستنقعات عنصرا أساسيا. وقد تم التخلي في وقتنا الحالي عن أطروحة مفادها أن بحيرات بلاد الرافدين السفلى من بقايا خليج فارسي كان يمتد في السابق شمالا وتراجع بفعل التراكمات الرسوبية[1]، ومن المؤكد أن البحيرات والمستنقعات التي وجدت فيها آثار عديدة، نتجت ولو جزئيا عن غمر متأخر نسبيا لا علاقة له بتغير الشريط الساحلي. ومن الممكن أنه نجم عن هبوط محدود في مستوى الأرض[2]، ويرجح[3] أن العامل الأساسي في تغير المساحات المغمورة يكمن في ظروف جريان الأنهار الكبرى وتنظيم الري والتسيير البشري للمياه، وبجانب البحيرات العميقة الثابتة، تعرضت مساحات المستنقعات غير العميقة، والتي يحتمل أنها كانت أكثر اتساعا قبل العهد السومري، إلى تقلص مستمر خلال العصور التاريخية القديمة وما قبلها، بفعل التقدم المنتظم في مجال استغلال المياه. غير أن التراكم الرسوبي في المجاري النهرية والارتفاع التدريجي للتضاريس المحيطة بالوديان (bourrelets ripuaires) أدى في الأخير إلى تصدع الحواجز في القرن الخامس الميلادي وإلى كارثة سنة 629 التي شهدت

---

(1) de Morgan, 1895, t. II, p. 283-99.

(2) Lees et Falcon, 1952.

(3) Wirth, 1955, p. 64-68.

غمر نهري دجلة والفرات للمنطقة السفلى دون أن يتمكن الملك بارفيز من التصدي لذلك[1]. ولم تسمح الاضطرابات التي ميزت فترة الفتح الإسلامي والفترات التي تلتها باستعادة السيطرة الكاملة على المياه، حيث تمتد اليوم المستنقعات غير العميقة إلى المناطق المحيطة بالبحيرات العميقة التي كان الكتاب المسلمون في العصر الوسيط يطلقون عليها اسم الحور[2]، بينما يطلق هذا الاسم اليوم على كل المستنقعات.

يبدو النموذج الثقافي للمعادن كنتيجة نمطية لانتشار الإسلام، ففي هذه المسطحات المائية المتشكلة حديثا، تبلور تدريجيا نمط العيش الشبه البدوي المميز لمربي الجاموس عقب وفود قبيلة زوط التي وجدت في المستنقعات ملجأ ومجالا مناسبا، ومما لا شك فيه أن قبيلة الفريجات التي تعتمد فقط على تربية المواشي هي الوريثة المباشرة لزوط. هذا ووفدت عناصر لاجئة أخرى بأعداد كبيرة منها : جماعة الزنج المتمردة التي اتخذت في القرن التاسع من المستنقعات قاعدة سمحت لها بمقاومة جيش الخليفة لفترة ؛ وبعد ذلك لحق بها عدد كبير من العناصر التي نبذها المجتمع البدوي، خاصة جماعتي المنتفق والعباد[3]، والعناصر الإيرانية من البختياري والأكراد التي اندمج بعضها في مجتمع المعادن منذ مدة قصيرة، وأخيرا عدد من المغامرين والخارجين عن القانون من مشارب مختلفة. هذا ولم ينتشر القادمون الجدد في كل الأماكن، فجزر الحور الأوسط العائمة، بين دجلة والفرات، تمتد على طول قنوات أو مجار نهرية قديمة، وتحافظ على آثار السكنات الآرامية العريقة، التي تعتبر قبيلة شاغانبة وريثتها الآن. على أن مجال المستنقعات،

(1) اعتمادا على البلاذري، ذكره: Le Strange, 1895، وبعد ذلك: Westphal, 1962, p. 307-308.

(2) Ibn Serapion, in Le Strange, 1895.

ذكر في: Westphal-Hellsbuch et Westphal, 1962, p. 307.

(3) Oppenheim, III, p. 188.

رغم أصالة نمط العيش الذي يفرضه، لم يكن منغلقا في وجه التأثيرات الخارجية بالقدر الذي يسمح بتبلور وحدة سياسية أو بشرية مستقلة، باستثناء محاولة الزنج التي لم تعمر طويلا. هذا وقد بلغ التأثر الثقافي بسكان المناطق المحيطة مداه في المجال الروحي والديني، بفعل الضغط المستمر للقبائل البدوية وروابط التبعية الاقتصادية مع المدن المجاورة؛ فالانتماء الشيعي في العراق كان شاملا ولم يكن مقتصرا على منطقة المستنقعات، كما أن المسيحيين الصابئة حافظوا على خصوصيتهم في مدن المنطقة وليس في المستنقعات، بحيث أن هذه الأخيرة تشكل ملجأ غير مكتمل.

جـ . اقتصار إمكانيات الحماية الكاملة على الإطار الجبلي:

أ. كانت جبال السواحل المشرقية تتميز بمجالها شبه الفارغ من السكان أو المقفر تماما في بعض الأحيان، مما وفر إمكانيات كبيرة للاستقرار فيها، فهذه الواجهة الشديدة الانحدار وذات الأمطار الغزيرة والتي تغطيها غابات كثيفة، لم يتم اختراقها في العصور القديمة في جهاتها الشمالية على أقل تقدير. فلبنان ظل طوال الفترة الرومانية مجال غابات شاسعة لا تخترقها سوى بعض المسالك الضرورية لاستغلال الثروة الغابية والتي نجد عبرها كتابات هادريان[1]، كما أن الآثار السابقة للإسلام شبه منعدمة في جبل الأنصارية[2]. وفي القرون الإسلامية الأولى كان خشب البناء نادرا بعد قرون من الاستغلال المكثف، وانتقل أهم مركز لتصدير خشب بناء السفن من مصر إلى الشمال، أي إلى كاسيوس وأمانوس وقوس جبال طوروس، على أن لبنان حافظ على مكانته كمصدر لخشب الحرق والفحم والزفت، خاصة باتجاه واحة دمشق. فالغابة اللبنانية النحيلة ذات الحجم الصغير كانت لا تزال تتوفر آنذاك على

(1) Vaumas, 1953, p. 69-70; 1954, p. 282-84.

(2) Vaumas, 1960, p. 294.

غطاء كثيف[1]، ووجد فيها المسيحيون والمسلمون المنشقون ملجأ شبه مقفر.

منذ الفترات الأول للفتح الإسلامي بدأ استقرار المردة (Mardates) في لبنان، ومن بعدهم المارونيين الوافدين من سهول نهر العاصي بمنطقة حمص، والذين استقروا منذ القرن السابع في وادي قاديشة .(Kadicha) وهناك أدلة على وجود كنيسة في إهدن سنة 749، واستوعب المارونيون بسرعة السكان الأصليين القليلين، وفي 759–60 اندلعت ثورة أولى ضد العباسيين. ومع حلول القرن العاشر، أي في سنة 327 هجرية (938–39)، انتقلت البطريركية المارونية إلى لبنان، في الوقت الذي آلت فيه مراكز منطقة نهر العاصي إلى الزوال. وسرعان ما استقرت في الجبل النحلة الدرزية، التي نشأت في وادي التيم في القرن العاشر، وكانت قد لجأت في البداية إلى جبل الحرمل الذي ضاق بها، فتسربت عناصرها منذ القرن الحادي عشر إلى لبنان في منطقتي المتن وكسروان[2]. وشيئا فشيئا فقد الجبل، الذي كان مشجرا جزئيا في القرن الرابع عشر، غطاءه الغابي بفعل انتشار الفلاحة وتزايد السكان واستعمال الفلاحين للخشب، وبعد ذلك تدهور الغطاء النباتي بسبب الاستغلال الرعوي[3]. واجتهدت المجموعات المارونية الخاضعة للتأطير القوي لرجال الدين والمتركزة في قرى كبيرة، في تهيئة مدرجات رائعة[4] قسمت منحدرات الجبل إلى مسطحات كبيرة، تمارس فيها، في قلب الجبل الممطر، تقنيات استغلال الأرض التي اعتاد عليها هؤلاء الوافدون من الهضاب المروية.

كان استقرار العلويين في جبل الأنصارية متأخرا عن ذلك، فقد انتشروا فيه في القرنين العاشر والحادي عشر على حساب السكان السابقين لهم الذين تبقت منهم جماعات إغريقية أرثوذوكسية في وادي النصارى جنوب الكتلة

---

(1) Lombard, 1959.

(2) Vaumas, 1953, p. 72-74.

(3) Mikesell, 1964.

(4) Lewis, 1953.

الجبلية[1]. والتحق بهم في القرن الثاني عشر، منذ سنة 1132–1133، الإسماعيليون الذين لم يتمكنوا من الاستقرار بجبل لبنان لكثرة السكان به آنذاك[2]. ويختلف المجال هنا عما هو عليه في لبنان، فالأراضي الجيدة منعدمة بسبب زوال الطبقات المتنوعة التي تعود للحقبة الطينية القديمة (Crétacé inférieur) وبروز الطبقات الكلسية، مما لم يسمح بوجود تلك المدرجات التي توجد في قلب جبل لبنان. كما تنعدم هنا النتوئات الكبيرة تاركة مكانها للطبقات السطحية التي لا تمتص الماء. من جهة أخرى فإن السكن منعزل عكس القرى اللبنانية الضخمة المنتظمة حول منابع المياه، فضلا عن أن تضاريس الجبل متقطعة ومجاله أضيق من جبل لبنان، مما لم يسمح باستقلال تام تجاه السلطة القائمة في السهل، كما أن هذه الجماعات المسلمة لم تحظ بالمساعدات التي حصلت عليها الجماعات المسيحية في لبنان من الغرب بفضل العلاقات البحرية انطلاقا من طرابلس وبيروت وصيدا، رغم الهيمنة الإسلامية على الساحل[3]. كل هذا يفسر مصير جبل العلويين الأقل بريقا، فكثافته السكانية أقل بكثير من كثافة جبل لبنان (88 في الكيلومتر المربع مقابل 161 باستثناء بيروت)[4]. وكانت تهيئة المجال فيه أكثر هشاشة، حيث تبقى بصمة الإنسان متواضعة، فليس هناك مدرجات ولا منحدرات كبيرة مقسمة في شكل مسطحات، وكل ما هنالك قرى متناثرة في الأماكن المسطحة وقليلة الحجارة. "ففي جبل العلويين ليس الجبل هو الذي أصبح أكثر إنسانية وإنما الإنسان هو الذي توحش"[5]. وقد انبثقت عن هذا التباين آثار حاسمة على المصير السياسي لكل من الكتلتين الجبليتين (أنظر أدناه).

---

(1) Vaumas, 1960, p. 298-300.

(2) Vaumas, Ibid; Weulersse, 1940 a, p. 63, 102-104.

(3) Vaumas, 1960, p. 272-79.

(4) Vaumas, 1953; 1960.

(5) Weulersse, 1940, p. 317.

على أن حالتي جبلي لبنان والأنصارية فريدتان في الساحل المشرقي. ففي الجنوب، كانت جبال الجليل وفلسطين قليلة الارتفاع مأهولة بالسكان في زمن مبكر، منذ الأزمنة التوراتية[1]، وارتبط مصيرها دوما بالسهول المجاورة. وفي شمال الكتلة العلوية ذي الكثافات المرتفعة يقل عدد السكان في جبال كاسيوس وأمانوس التي شهدت عملية تتريك جزئية وانتشرت فيها البداوة، حيث أن نمط انتشار السكان يشبه ما هو موجود في العالم التركي. وكذلك الأمر بالنسبة لكتلة بلوس (Belus) الكلسية الداخلية بين أنطاكية وشالسيس التي عرفت ازدهارا في الفترتين الرومانية والبيزنطية بفضل زراعة أشجار الزيتون لأهداف تجارية، وانحطاطا بعد الحروب الفارسية، قبل أن يطبعها جمود مستمر على هذه الحدود العرقية العربية-الكردية، والذي يفسره كذلك تأثير تركماني كبير في الجهات المرتفعة[2]. ولم يكن جبل العلويين وحتى جبل لبنان في منأى عن هؤلاء الرحل الأتراك، حيث ذكرت في القرن السادس عشر فرق بدوية تركمانية تقضي الشتاء بنواحي تدمر والصيف في الجبال الساحلية[3]، غير أن الأمر يتعلق بجماعات صغيرة جدا لم تترك آثارا بشرية كبيرة، كما أن الغالبية العظمى للبدو التركمان التي كانت تقضي الشتاء في صحراء الشام كانت تفضل قضاء الصيف في الهضبة الأناضولية. هذا ويتركز تركمان بلاد العلويين اليوم في مناطق السهول الساحلية السنية وليس في الجبل[4].

ب. وجدت مناطق لجوء أخرى في الهضاب الشبه الصحراوية. فاليزيدون الذين كانوا ينتشرون في مجال يمتد من أرمينيا السوفيتية إلى أذربيجان الإيراني إلى تركيا الشرقية وحتى السفح السوري العراقي لجبل

(1) Vaumas, 1953, p. 68.

(2) Tchalenko, 1953-58.

(3) Sümer, 1949-50.

(4) Vaumas, 1960, p. 303-304.

طوروس، لجؤوا إلى جبل سيمان جنوب كيليس قرب الحدود السورية التركية، وإلى شيخان شمال شرق الموصل، وخاصة إلى جبل سنجار وهو سلسلة جبلية صغيرة معزولة وسط منطقة الجزيرة غرب الموصل، حيث طوروا زراعات مكثفة جدا، أهمها زراعة الخضر والتبغ في قلب الأودية المروية التي هيأت في شكل مدرجات وسط جبل كلسي منفر تجوبه قطعان الماعز[1]. هذا ولا تتوفر معلومات تسمح بإعادة تصور الظروف التاريخية التي أدت إلى سيطرة هذه الأقلية على الكتلة الجبلية الصغيرة وسمحت لها بالدفاع عنها في وجه القبائل البدوية التي كانت تدفع لها "ضريبة أخوة" مقابل السماح لقطعانها بقضاء الشتاء في الصحراء. على العكس من ذلك نتوفر على معلومات أكثر دقة عن ظروف انتشار الدروز في الجبل الذي يحمل اسمهم اليوم في قلب منطقة حوران البركانية. وقد بدأ هذا الانتشار في جبل الدروز بشكل متقطع في العصر الوسيط (القرنان الثاني عشر والثالث عشر)، ثم تأكد بوضوح ابتداء من بداية القرن الثامن عشر بعد الصراع الذي نشب بين فرقة يمني (التي هزمت في عين دارة سنة 1771) وفرقة رايزي، حيث ضاق جبل لبنان بالدروز بفعل الحيوية الديمغرافية للمارونيين الذين لم يتركوا لهم سوى الجهات الجنوبية، وتسارعت عملية الانتشار في جبل الدروز بعد الصراع الدامي بين الطائفتين اللبنانيتين سنة 1860 (من المرجح أنه لم يكن آنذاك سوى 6,000 إلى 7,000 درزي في الجبل). وقد جذبتهم الأراضي الخصبة الناتجة عن تحلل البازلت، رغم نسبة تساقط منخفضة. غير أن تهيئة الجبل ظلت متواضعة، فبينما كانت منشآت نقل الماء كثيرة في العهد الروماني، لم يتوفر الدروز القادمون من جبل ساحلي ممطر والمفتقرون لتماسك سياسي واجتماعي كاف، على التقنيات والتنظيم الذي يتطلبه استغلال المياه، حيث ظل استعمالهم للثروة المائية متواضعا وغير متقن. واقتصر جبل الدروز، رغم

(1) Lescot, 1938; Wirth, 1962, p. 175-178.

إمكانياته، على زراعة الحبوب المعتمدة على الأمطار، وظل تحت رحمة الفقر والمجاعة، لا يتعدى متوسط حصة الفرد فيه من الماء ست لترات يوميا[1]، كما اختفت آخر الغابات في القرن التاسع عشر، وأصبح البازلت المادة الوحيدة لتشييد البيوت المبنية بالأحجار الجافة والتي لا تتميز كثيرا عن الهضاب المقامة فيها[2]. فهنا كما في جبل العلويين، وخلافا لجبل لبنان وجبل سنجار، انتصرت الطبيعة على الإنسان.

3. استرجاع المواقع والتوسعات المعاصرة

لم يعد الشرق الأدنى كما كان عليه منذ نصف قرن، حيث كان الخوف يشل مراكز الحياة المعزولة والمنغلقة على نفسها. فهناك اليوم حركة واسعة لاستيطان الأرض في المجالات الفاصلة، سمحت في كثير من الأحيان من استعادة حدود الانتشار البشري التي كانت معروفة في العهود القديمة، بل تجاوزتها في بعض الأحيان. ووفرت الرصيد البشري لهذا الانتشار المراكز القديمة ذات الاستغلال المكثف في السهول، وانبثقت عن الانفجار الديمغرافي المعاصر عصارة هائلة ذات انتشار سريع مصدرها المراكز العمرانية أو الأقاليم الريفية القديمة المحيطة بها، التي لم يكن في مقدورها وحدها الاضطلاع بعملية الانتشار في الأرض هذه لولا تحولات عميقة طالت توزيع السكان وترتيب أنماط العيش، ساعدت على انتشار الأقليات الدينية التي تم إظهار[3] دورها الحاسم في حركيات التجديد والتقدم بالمشرق.

---

(1) Dufourg, 1955.

حول الهجرة الدرزية، أنظر كذلك: Lewis, 1955.

(2) Dufourg, 1951.

(3) Wirth, 1965 b.

أ. العناصر البشرية الجديدة: النزول من الجبل:

سرعان ما انتهزت الجماعات المنشقة والأقليات المعتصمة في الجبال فرص مغادرة أقاليمها الضيقة والصعبة مع عودة الأمن. وشكل العلويون أكثر هذه الجماعات عددا وهم الذين لم يتمكنوا من تهيئة جبلهم بصفة تجعل منه ملجأ مضيافا، وانتشروا منذ حوالي قرن في السهول المجاورة: عكار في الجنوب، واللاذقية في الغرب، والغاب في الشرق. وفي هذا السهل الأخير سكنوا أولى البلدات سنة 1860، حث أقاموا في وقت قصير عدة قرى، ولم يلبث أن تقهقر أمامهم المسيحيون وحتى المسلمون السنة باتجاه هضبة حماة. وقد اقتصر هذا التقدم السلمي على الضفة اليسرى لنهر العاصي، بينما صار الجزء الغربي لسهل الغاب كله نصيريا تماما، ولم يحتفظ المسلمون السنة سوى بالقلاع الشرقية. وأبعد من ذلك، في أطراف الصحراء، تم الاستيطان في المعمورة وهضاب شرق حمص وحماة وجنوب شرق حلب وصولا إلى الفرات عند مسكن، تحت إشراف أغوات حماة الذين استعانوا باليد العاملة العلوية الفظة والراضخة. وفي الشمال، انتشرت نهاية القرن التاسع عشر أعداد تقدر بعشرات الآلاف في سهل سيليسيا وخاصة في الحدود الشرقية لجبل جيور داغ (Giaur dag) أي جبل الكفار الذي قد يكون سمي هكذا للدلالة عليهم[1]. غير أن هذا الانتشار الريفي كان يفتقر للتنظيم وظل يخضع للأطر الاجتماعية والعقارية التي تفرضها مناطق الاستقبال، كما لم يشهد تطورا متميزا.

كان الإسماعيليون المنحدرون من نفس الجبل أكثر حيوية، حيث كونوا في منتصف القرن التاسع عشر مستعمرة كبيرة في السلمية شرق حماة عند حدود صحراء الشام، وقد كانت العاصمة القديمة للنحلة قبل أن تهجر

---

(1) Schaffer, p. 27.

منذ القرن العاشر في منطقة عمت فيها البداوة. وبدأت هذه الهجرة موسمية قبل أن تصبح نهائية بالتدريج. وبالإضافة إلى دافع إحياء مركزهم الديني القديم، كان هناك دافع اقتصادي ثمين للإسماعيليين، وهو الأراضي الخصبة التي ازدهرت بفضل روح المبادرة لديهم. ويوجد اليوم أكثر من 30,000 إسماعيلي يعيشون هناك، مقابل أقل من 10,000 في الجبل، وتعرف هذه الجماعة اليوم ازدهارا كبيرا[1].

لم تنبثق حركة مماثلة من جبل الدروز، حيث أن الانتشار البشري به جاء متأخرا والكثافة السكانية أضعف بكثير، ويقتصر الأمر هنا أساسا على هجرات مؤقتة نحو الأردن وفلسطين تتسبب فيها السنوات العجاف والمحاصيل الرديئة التي تأخذ منحى مأساويا في هذا الإقليم الهامشي، وحتى هذه الهجرات تراجعت بفعل تعدد المنشآت الحديثة لنقل المياه منذ بداية فترة الحماية الفرنسية.

2. كان جبل لبنان الأقل مساهمة في حركة النزول نحو السهول رغم أنه الأكثر سكانا وحيوية. فبينما كان أفق العلويين والإسماعيليين ضيقا وانحصر في المناطق المجاورة، اتخذت الهجرة اللبنانية بعدا عالميا قادها إلى ما وراء الأطلسي، ولم تشارك بذلك في حركة إعادة استيطان الشرق الأدنى. وهناك أسباب بشرية واضحة لهذا التميز، فالعلاقات الثقافية مع العوالم المسيحية وراء البحار لم تنقطع أبدا، وتعززت في الفترة المعاصرة بدور فكري إقليمي ارتبط بالتنافس بين مختلف الجماعات الدينية واللغوية والذي جعل من بيروت مركزا جامعيا مهما ومن جبل لبنان مصدرا لذوي الشهادات العليا، مما غذى حركة هجرة الأطر المؤهلة. بالموازاة مع ذلك، حصلت بيروت، التي لم يكن لها مجال تأثير بعيد، على دور حاسم كمحور تجاري ومالي منذ نهاية القرن التاسع عشر، بفضل تجدد نشاط الساحل السوري

---

(1) Lewis, 1952.

اللبناني عندما تحولت الطرق القارية بين الشرق الأوسط وأوربا عن المسالك القديمة الطويلة والصعبة عبر طرابزون وباطوم أو إستانبول، لتقصر الطريق عبر صحراء الشام التي أصبحت مجالا مفتوحا في وجه الطرق والسكك الحديدية. وهكذا تجدد الدور البحري والتجاري للفينيقيين القدامى، وكان الجبل، وهو خزان بشري، العنصر الحاسم للانتشار البعيد المدى للتأثير اللبناني. وبعد أن اتجهت الهجرة اللبنانية في بداية القرن التاسع عشر إلى كبريات مدن الشرق الأدنى وخاصة المدن المصرية، تحولت مع نهاية القرن نحو آفاق أبعد، ويرجح أن أول مهاجر لبناني نزل في بوسطن (Boston) سنة 1854، وفي البرازيل سنة 1880[1]. وغادر لبنان حوالي 400,000 شخص بين 1860 والحرب العالمية الثانية (قدرت أعداد المهاجرين بـ: 120,000 بين 1860 و1900، وحوالي 200,000 بين 1900 و1914، و80,000 في فترة ما بين الحربين). واستمرت هذه الهجرة بنسبة 3,000 إلى 4,000 مهاجر سنويا بعد الحرب العالمية الثانية إلى غاية 1955-56، ورغم تراجع حركة الهجرة بشكل ملحوظ بعد ذلك فإنها لا تزال مستمرة إلى الآن.

ب. العناصر البشرية الجديدة: استقرار البدو.

1. شكل البدو أنفسهم جزءاً مهما من سكان الأراضي التي تم استيطانها مجددا، حيث أن أعدادا كبيرة منهم أصبحت تتحول إلى حياة الاستقرار. وهذا التوجه، الذي يغذيه الفائض الديمغرافي الدائم للصحراء، لم ينقطع أبدا. إلا أنه وحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان التحول إلى حياة الاستقرار يقتصر على المهزومين والمفقرين والمنبوذين من المجتمع البدوي الذين كان الاستقرار ملجأ بالنسبة لهم، مثل الغوارنة الذين استوطنوا منذ سنوات 1830 مستنقعات منخفض الحولة[2]. وسرعان ما عرف كبار البدو

---

(1) Safa, p. 177.

(2) Karmon, 1935.

نفس المصير بفقدانهم لجاههم وفرص الغنيمة مع استتباب الأمن، فبحثوا عفويا في العالم الحضري عن عيش أفضل[1].

أ. يكون الاستقرار في البداية جماعيا، وهذا هو النمط الذي عرفته كل أطراف المناطق الصحراوية، حيث كانت تتوفر فراغات واسعة موحدة، وكانت العملية تتم تحت قيادة الزعماء البدويين الذين كانوا يلعبون دورا متعاظما في مجتمع في طريقه للاستقرار. وقد ساد هذا الوضع في أطراف دلتا النيل حيث تشكلت قرى متجانسة يسكنها بدو سابقون، وكذلك الأمر في منطقة حوض النيل حيث استقر البدو الذين يطلق عليهم اسم النوقو (مفرد: ناقة) والمنحدرون من مصر الوسطى والعليا، بضفاف المجرى الصغير الذي كان يوفر لهم مجالا للرعي[2]. وتتكرر نفس الظاهرة في منطقة الجزيرة حيث استقر الشمر تحت قيادة زعمائهم بين الحربين العالميتين، بعد أن كانوا يعيشون حياة كسولة وطفيلية على حساب الحضر المجاورين[3]؛ ومن جهتهم أنشأ بدو العقيدات عدة قرى بين دير الزور والحدود العراقية على ضفاف الفرات الأوسط[4]، ويقسمون وقتهم بين أراضي الوادي التي كانت تروى في البداية بواسطة النصبة (آلة رافعة ذات جرارة) ثم بعد ذلك بواسطة النوريات أو المضخات ذات المحرك، والصحراء حيث لا زال أثرياؤهم يمارسون نمط عيش شبه بدوي في الشتاء. وعادة ما يمر البدو بمرحلة شبه بداوة قبل استقرارهم الجماعي، وهذا ما يميز قبائل شمبول الشبه المستقرة في هضاب حماة وحمص، والقبائل التي أعيد تشكيلها والتي تطلق عليها تسمية قبائل الرعي (الرعاة) مثل الموالي والحديديين، ويكون الحديديون ذوو الأصول العلوية تكتلا يفتقد للتجانس ويجمع عناصر من أصول مختلفة يتأرجح نمط

---

(1) يقدم مونتان حوصلة جيدة في هذا الشأن: Montagne, 1947, chap. VII, p. 190-226.

(2) Lozach et Hug, 1930, p. 160-164.

(3) Al-Kasab, 1966.

(4) Charles, 1938; cf. Weulersse, 1946, p. 304-306; Montagne, 1947, p. 205-209.

عيشهم بين الاستقرار والبداوة، حسب الظروف[1].

ب. هذا وتقتصر عملية الاستقرار في قلب المناطق الحضرية الضيقة على التسرب الفردي، الذي يطبع المرحلة الثانية للاستقرار، من قبيل ما حدث في قلب منطقة دلتا النيل المعروفة بـ"الريف"[2]. هذا وقد نتج استقرار بدو إسرائيل[3] عن نفس الدوافع رغم المواقع الهامشية للسكنات الجديدة بالنسبة للمراكز الحضرية القديمة، التي يبلغ تعداد البدو المستقرين فيها 27,000، يحصلون على القسط الأكبر من دخلهم من العمل المأجور داخل المجال الحضري، ضمن شركات البناء، خاصة في الجليل.

جـ. شكل ضغط الحكومات محركا حاسما في عدة حالات، ويظهر ذلك بوضوح أكبر في الدول ذات التقاليد الحضرية التي اعتمدت تجارب طموحة للاستقرار الجماعي. فمصر عرفت منذ بداية القرن العشرين عدداً من نماذج الاستقرار الموجه، في واحة خرجة أو في برج العرب على الساحل المتوسطي[4]، ومؤخرا تم إطلاق مشاريع كبرى في رأس الحكمة، وهي قرية صغيرة بين الإسكندرية والسلوم، لحث الرعاة على الاستقرار عن طريق تحسين المراعي الطبيعية بوادي النطرون الذي ينخفض بـ 22 مترا عن مستوى سطح البحر والذي تسمح آباره بتطوير الزراعة؛ كما تم وضع مخططات أكثر طموحا لتحويل منخفض قطارة (14,000 كلم مربع) إلى بحيرة بربطها بالبحر المتوسط[5]. وفي العراق، تعمل الحكومة منذ سنة 1951 على تسريع استقرار الشمر بمنطقة الجزيرة، كما تحققت مشاريع أخرى مثل قرية مسيجب الكبير على بعد 80 كيلومترا من بغداد، والتي تضم 30من البدو في قرية جديدة

---

(1) Montagne, 1947, p. 209-214.

(2) Awad, 1954.

(3) Amiran et Ben-Arieh, 1963.

(4) Herzog, p. 98.

(5) Abou-Zeid, 1959; Hetzel, 1961; Herzog, 1963, p. 98 ss.

تعتمد على الزراعة المروية[1]. وفي النقب الإسرائيلي تم إنشاء ثلاث قرى لاستقبال 5,000 نسمة، أي أكثر من ثلث البدو المتبقين بعد إقامة دولة إسرائيل[2]. وحتى دولة العربية السعودية ذات التقاليد البدوية المحضة لم تكن في منأى عن سياسة الاستقرار المفروض، فالاستقرار يشكل إحدى السمات الأساسية للحركة الدينية الوهابية في الفترة المعاصرة، فقد أقامت الدولة مراكز جديدة عديدة (يطلق عليها عادة اسم الهجرة نسبة لهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة التي تعتبر في حد ذاتها عمل عبادة متميز)، وانطلقت هذه العملية منذ 1930 لصالح قدامى المجاهدين الذين يطلق عليهم اسم الإخوان، ويبلغ اليوم عدد سكان أقدم مراكز الإخوان، ووهو عرطاوية، أكثر من 10,000 نسمة[3].

2. كانت النتائج العددية، في حالة توفرها، مدهشة في مجملها. ففي مصر لم يعد عدد البدو وشبه البدو يتعدى 55,000 في منتصف القرن العشرين أي أقل من نصف تعدادهم سنة 1907، ولا يتجاوز عددهم بضعة آلاف في الصحراء العربية، ولم يبق هذا العدد معتبرا إلا في سناء في الصحراء الليبية الغربية خاصة، حيث قدرهم إحصاء 1947 بـ 68,000 بدوي، منهم 23,000 رعاة بأتم معنى الكلمة، أما الباقون فهم شبه مستقرين. وفي سورية، قدر عدد البدو مؤخرا بـ 150,000، بعد أن كانوا 350,000 في فترة الحماية الفرنسية. وفي الأردن يتراوح عدد البدو وشبه البدو بين 170,000 و200,000، لا تتعدى نسبة البدو الحقيقيين منهم الثلث[4]. وفي العراق تتراوح التقديرات بين 200,000 و250,000، وهو على الأرجح نفس عدد البدو الحقيقيين في العربية السعودية ضمن عدد سكان قد لا يتجاوز خمسة ملايين.

---

(1) Al-Kasab, 1966, passim v. p. 113.

(2) Muhsam, 1959.

(3) Herzog, 1963, p. 151.

(4) Herzog, p. 158.

جـ. النتائج : اتساع مجال المناطق المروية:

1. تجسدت نتائج هذا الاستعمار الجديد للأرض في المناطق القابلة للري قبل غيرها، وتحقق هذا التقدم أولا في مصر أكثر مراكز الحياة الحضرية حيوية. فمنذ عهد محمد علي، وابتداء من سنة 1832، ساهم اعتماد زراعة تجارية تقوم على إنتاج القطن الموجه للتصدير، في التحكم في نظام الري ثم توسيعه[1].

كانت المشكلة تتمثل في استبدال نظام تقليدي يقوم على الفيضان الموجه في أحواض يملؤها الارتفاع السنوي للمياه مؤقتا، ثم تتم فيها زراعة الطمي الناجم عن تراجع المياه، بنظام ري دائم لا يمكن فصله عن عملية استصلاح أراضي الدلتا التي هجر الجزء الأكبر منها الذي لم يعد يشهد الفيضان السنوي منذ الارتفاع التدريجي لمستوى الطبقة الرسوبية وإهمال صيانة القنوات، فمع نهاية القرن الثامن عشر لم تبق في شمال الدلتا سوى بعض الجيوب السكنية المجاورة لذراعي النيل قرب فرعي روزيت (Rosette) ودمياط، وكذلك في جهات بحيرة منزلة حيث يكفي الارتفاع الكبير للحزام الرسوبي المحيط بالنهر لرفع مستوى المياه المنخفضة إلى علو يقارب ارتفاع سهل الدلتا، مما يسمح بسقي مستمر. في البداية كان الهدف هو توسيع نظام الري الدائم الطبيعي إلى كل أراضي الدلتا عن طريق ضبط وتعميق شبكة القنوات، التي ظلت إلى ذلك الوقت كثيرة التعرجات والانحناءات الموروثة عن نظام القنوات الطبيعية، وقد اعتمدت في هذا الشأن الخطوط المستقيمة للاستفادة من المنحدرات بشكل كامل وحفرت خلالها منافذ عميقة تسمح لها بالتزود بالماء حتى في فترات الجفاف. وقد تطلبت أشغال التنظيف الضخمة تسخيرا دائما لعمال تراوح عددهم بين 300,000 و400,000، وسرعان ما تعلق

(1) يوجد عرض جيد لهذا التطور في: Besançon, 1957؛ أنظر كذلك: Lozach, 1935; Hamdan, in HLUAR, p. 126-141.

الأمر برفع مستوى المياه، والشرع في بناء سد رأس الدلتا سنة 1843، وبدأ تخزين الماء فيه سنة 1863، ليصل مستوى المياه فيه سنة 1890 إلى 3,50 أمتار، وتدعم سنة 1931 بارتفاع مستوى الماء إلى 3,80 أمتار، فأصبح بذلك حجر الزاوية في شبكة ري مصر السفلى، عبر قنوات الإسماعيلية باتجاه قناة السويس، والشرقية في أعلى السد باتجاه شرق الدلتا، والتوفيقية والمنوفية والبحيرة التي تربط السد مباشرة بالذراعين الطبيعيين للنهر. وفي سنة 1939، استبدل هذا السد بسد محمد علي الذي يتكون من مقطعين في كلا الذراعين، مما رفع مستوى المياه إلى 4,20 أمتار، بينما مكن سد زفتة، عند مصب دمياط، من ري الأراضي المرتفعة في الشرق. وبدأت مرحلة جديدة باعتماد تخزين المياه الذي سمح بادخار جزء من المياه المرتفعة، وذلك ببناء سد أسوان الأول (1899-1902) الذي رفع مستواه مرة أولى خلال الفترة الممتدة بين 1907 و1912، ثم مرة ثانية في 1929-34، مما رفع طاقة تخزينه إلى 5,3 كلم مكعب، ثم تبعه السد العالي الذي تبلغ طاقته 130 كلم مكعب، منها 30 كلم مكعب مخصصة لترسب الطمي، وقد بدأ في تجميع المياه فيه سنة 1964، ويمكن الجزم من الآن أن نتائجه ستكون معتبرة. هذا ويتراجع النظام التقليدي للري عن طريق أحواض الغمر منذ القرن التاسع عشر، وقد بدأ هذا التراجع في مصر السفلى التي لم يبق بها أثر لهذا النمط القديم، ويمتد اليوم بشكل محسوس إلى مصر الوسطى والعليا التي لا زالت تحافظ على نسبة كبيرة من الأحواض تبلغ 300,000 هكتار من بين المليون هكتار المستغلة في مصر الوسطى والعليا. بالموازاة مع ذلك، استمرت عملية إعادة استيطان تدريجية للدلتا وأراضي الشمال وأراضي "البراري"، امتدت إلى أطراف مثلث الدلتا. هذا وسترتفع المساحة المستغلة إلى 3,200,000 هكتار (2,450,000 حاليا) مع الانتهاء من إنجاز السد العالي، مما سيسمح كذلك بالتحول النهائي من نظام الأحواض التقليدية إلى الري الدائم، لترتفع بذلك المساحة المستغلة بنسبة الثلث.

يختلف الوسط والمجتمع المنبثقين عن هذه التحولات كثيرا عَمَّا يميز المناطق المستغلة منذ القدم. فقد حلت أنماط أخرى مكان القرى الكبيرة المتراصة والواقعة على ضفاف النهر والمحمية بالحواجز أو التلال الاصطناعية والتي كانت تقام بجنبها أو بمحاذاة الأحواض وبشكل مؤقت سكنات متنقلة؛ ففي مناطق وسط وجنوب الدلتا حيث تم التخلي عن نظام الأحواض منذ فترة أطول، تسود التجمعات المقامة عفويا في المناطق الفاصلة والمعروفة باسم الكفر؛ بينما تنتشر في الأراضي الشمالية المستصلحة حديثا، المستوطنات المنظمة المعروفة باسم العزبة، ذات البيوت المنتظمة على طول الشارع والمخطط الهندسي، والتي يتم اختيار موقعها بالقرب من الأراضي الفلاحية وليس تبعا للارتفاع بالنسبة لمستوى مسطح الغمر[1]. ويجسد نمط العزبة استيطانا من النوع الرأسمالي وتأثير كبار الملاك الذين كان لهم دور فعال في عملية الاستيطان بسبب التكاليف الباهضة التي تتطلبها تهيئة الأراضي حسب نظام الري الدائم. وقد هيمنت الملكية الكبرى على البنية الاجتماعية في الأراضي الجديدة حتى الإصلاح الزراعي لسنة 1952 على الأقل، عكس الأقاليم القديمة المعتمدة على الأحواض التي شكلت قراها دائما وحدات جبائية واجتماعية مستقلة، نقل فيها مسح الأراضي الذي أنجزه محمد علي الملكية الظاهرية للأرض من الدولة إلى الفلاحين.

2. عرفت الزراعة المروية تقدما متأخرا ومن خلال سبل مختلفة فوضوية وغير منظمة في مهدها ببلاد الرافدين[2]. فالعنصر البشري هنا أقل كثافة بكثير مقارنة بمصر، ولم يتمكن أبدا من السيطرة تماما على أنهار تناهز قوتها قوة النيل، إلا أنها أقل انتظاما وأكثر تدميرا منه، ويتوفر على إمكانيات لا محدودة

---

(1) Lozach et Hug, 1930.

(2) أنظر على وجه الخصوص: Wirth, 1962; de Vaumas, 1958; Cressey, 1958; Lebon, 1955.

لتوسيع المجال الزراعي. فبينما تزرع الأرض في مصر بعناية فائقة في شريط خضرة مستمر على طول الوادي يتسع في منطقة الدلتا، نجد أن استغلال الأرض ببلاد الرافدين يظل مهلهلا، فالفصل الصارم بين الصحراء والمنطقة الزراعية الذي يميز مصر، يترك هنا المجال لوسط طبيعي انتقالي تختلط فيه بشكل متقطع وغير منتظم المناطق المستغلة والأراضي الخاضعة لنظام إراحة الأرض والأراضي غير الصالحة للزراعة. وقد امتدت فترة انعدام الأمن هنا بسبب قرب بدو صحراء الشام الكبرى منها، بحيث أنه في بداية القرن العشرين كانت المساحة الزراعية المروية ضيقة جدا، وقد قدرت في سنة 1918 بـ 380,000 هكتار فقط (فيما تبلغ المساحة القابلة للاستغلال نظريا أكثر من 8 ملايين هكتار). على أن التطور كان سريعا، إذ قدرت هذه المساحة سنة 1943 بـ 1,700,000 هكتار وبأكثر من ثلاثة ملايين هكتار سنة 1952، على أن هذا التوسع اعتمد أساسا على طرق الري الفردية، مثل الآلات الرافعة من النوع التقليدي كالنوريات (56,000 هكتار)، وخاصة المضخات ذات المحرك (1,300,000 هكتار). وعلى ضفاف نهر دجلة فاقت نسبة الأراضي المروية بالمضخات 50كما أن الأراضي المروية بواسطة القنوات (1,700,000 هكتار) تضم نسبة كبيرة من الأشغال الصغرى مثل التحويلات الفوضوية والاستقطاب الفردي للمياه، ولا يتعدى الأمر عادة إعادة إصلاح منشآت قديمة بالاعتماد أساسا على التجربة العملية، كما كان دور السدود الكبرى محدودا على العموم: سد هندية على نهر الفرات (1911-13، تم تحديثه في 1917 و1926) الذي ساهم خاصة في إنقاذ ذراع الحلة في الفرات الأسفل والحفاظ على النظام العام لجريان النهر؛ وعلى نهر دجلة، سمح سد الكوت (1937-39) بتنظيم الري على طول ذراع الغراف، وقنوات منطقة العمارة. وكما هو الحال في مصر، تسيطر على الأراضي المستصلحة حديثا الملكية الكبيرة والكبيرة جدا المرتبطة مباشرة بالزعامات القبلية، ولم تفلت من قبضتها سوى الأراضي المروية وأحزمة الواحات القديمة، مثل ضفاف شط العرب ومناطق كربلاء-الكوفة والمناطق

المروية منذ القدم شمال بغداد أو على ضفاف الفرات الأوسط، بينما يخضع لها تماما إقليم دجلة جنوب بغداد والفرات الأسفل. وكان 0,5من الملكيات يضم 80من الأراضي المستغلة في العراق كله، قبل الإصلاح الزراعي لسنة 1958، كما أن الجزء الأكبر من أرياف بلاد الرافدين كان يعيش وضعا شبيها بالعبودية.

بدأت مرحلة جديدة منذ منتصف القرن العشرين بإنشاء مكتب التجهيز (Development Board) سنة 1950 واعتماد المخططات الخماسية. وكان الهدف الأول هو ضمان التحكم الفعلي في المياه وحماية بلاد الرافدين من الفيضانات الاستثنائية ومظاهر الغمر وتغيير مجرى الأنهار التي تليها. وكان هذا هو الهدف من إنشاء سدود كردستان (طاقتها الإجمالية 10 كلم مكعب) على الزاب الكبير والزاب الصغير وديالى، فضلا عن دورها في مجال الري. كما تمت تهيئة وادي الثرثار وهو واد ميت كمنطقة تفريغ على مستوى – 3 أمتار، بين دجلة والفرات، بطاقة تخزين تبلغ 30 كيلومتر مكعب على مستوى + 36 مترا، والتي بدأ استعمالها في ربيع 1956 بعد بناء سد سامراء، وتمت تهيئة بحيرة الحبانية ومنخفض أبو دبيس (بطاقة إجمالية تبلغ 6,75 كيلومتر مكعب) انطلاقا من سد الرمادي وقناة الورار على الفرات. مكنت كل هذه الأشغال من استيعاب منسوب فيضان يناهز 16,000 متر مكعب في الثانية بالنسبة لدجلة (7,000 بواسطة النهر، و9,000 بواسطة قناة وادي الثرثار)، و4,800 متر مكعب في الثانية بالنسبة للفرات (2,000 بواسطة النهر و2,800 بواسطة قناة الورار). ولا ترقى هذه الكميات بعد إلى مستوى الفيضانات الكبرى الممكنة نظريا (22,900 متر مكعب في الثانية بالنسبة لدجلة في سامراء، 6,500 متر مكعب في الثانية بالنسبة للفرات في هيت)، إلا أنها تعادل مستوى الفيضانات التي يمكن التنبؤ بها عادة، مما يفسح المجال الآن لإقامة مشاريع ري كبرى، فهناك مخططات لاستعمال 47 كيلومتر مكعب سنويا (من كمية متوفرة متوسطها السنوي 64 كيلومتر مكعب بالنسبة لدجلة والفرات عند

وصولهما إلى السهل)، ولري 5,400,000 هكتار مزروعة بشكل دائم، مقابل استعمال 39 كيلومتراً مكعباً فقط إذا ما أبقي على النظام القديم القائم على إراحة التربة كل سنتين. كل هذا يشير على بداية إقامة ما يشبه دلتا النيل في بلاد الرافدين.

3. ظلت التطورات في مجال الري بالواجهة المشرقية للهلال الخصيب جزئية، بسبب الاعتماد على الزراعة المطرية التي يمكنها توفير أسس العيش عبر شريط ساحلي متسع[1]. ولم تتعد مشاريع التهيئة المهمة لبنان الذي اضطره ضيق أراضيه وكثافة سكانه إلى تكثيف الزراعة بالاعتماد على روح المبادرة والقاعدة المالية الضرورية التي وفرها له مستوى نموه الاقتصادي العام المرتفع، بحيث أن 22,7من الأراضي المزروعة تستفيد من الري[2]. على أن هذا الجهد قام على مبادرات فردية ومنعزلة وصغيرة الحجم، كما هو الأمر بالنسبة لبساتين الحمضيات والموز وبساتين الخضروات التي أوجدتها برجوازية بيروت والمدن الساحلية الأخرى على طول السهل الساحلي عن طريق استغلال مياه الأودية الساحلية الصغيرة بواسطة قنوات تفريع بسيطة؛ وكذلك الشأن فيما يتعلق بالري المعتمد على القنوات والمضخات والآبار في سهل البقاع الأوسط؛ وأخيرا بساتين التفاح المروية التي غطت منذ 1940 المدرجات العليا للمستوى الأعلى لجبل لبنان (بلغت مساحتها 11,000 هكتار في 1959)، هذه المدرجات التي تتم إقامتها الآن بالوسائل الآلية، والتي تعتبر مركز تصدير مهم للفواكه باتجاه البلدان المجاورة. هذا ويشكل مشروع تهيئة الليطاني، الذي أشرف على الانتهاء، أول مشروع من الحجم الكبير، وسيسمح بري 30,000 هكتار، منها 10,000 هكتار في سهل البقاع الجنوبي.

4. على أن حالة لبنان استثنائية، ففي سورية، تم استعمال الآليات

---

(1) Peretz, 1964.

(2) Sanlaville, 1963; Klaer, 1962.

الرافعة (النوريات الكبيرة) الضخمة في بعض الأحيان منذ وقت طويل لري سهل العاصي[1]، إلا أنها ظلت موزعة ومتقطعة على طول النهر الذي شرع في تهيئته الشاملة مؤخرا، حيث بدأت المرحلة الأولى قبل نهاية فترة الحماية الفرنسية في المنطقة المحيطة بحمص، وقد أدت إلى توسيع نطاق المنطقة المروية عادة برفع مستوى البحيرة التي تعود إلى العصور القديمة (حوالي الألفية الثانية قبل الميلاد)، غير أن هذه التهيئة تمت دون المساهمة الاقتصادية والتقنية للمستعملين المحتملين، كما واجهتها مشاكل عقارية في منطقة مزروعة منذ أمد بعيد وبشكل كامل، لأنها استوجبت تغييرا في تقسيم الأراضي والسكن، ووصلت هذه العملية إلى مراحلها النهائية بتدرج كبير وكان الاستعمال الفعلي للإمكانيات الجديدة بطيئا للغاية[2] ؛ وخصت المرحلة الثانية منطقة الغاب وتم الانتهاء منها بين 1950 و1961، وقد شملت تجفيف منطقة المستنقعات وبناء سدين للتخزين، مما رفع المساحة المروية إلى 40,000 هكتار. وفي المنطقة المحيطة بدمشق، مكن استعمال المضخات ذات المحرك بتوسيع معتبر للغوطة[3]. على أن هذه المشاريع لم تمس منطقة الفرات التي تشكل المصدر الرئيسي للمياه في البلاد، وبذلك ظلت نسبة الأراضي المروية لا تتجاوز 8,3من مجموع الأراضي المزروعة.

و في الأردن، تضاعفت المساحة المروية في البلاد بعد الانتهاء من بناء قناة الغور الشرقي سنة 1963، بعد أن كانت نسبتها لا تتجاوز 5من مجمل الأراضي المزروعة، وتسمح هذه القناة بنقل 140 مليون متر مكعب من مياه اليرموك سنويا باتجاه 25,000 هكتار من الأراضي المروية. على أن الصراع مع إسرائيل لم يسمح بتهيئة عقلانية وكاملة لحوض وادي الأردن والتي وضعت نظريا منذ 1955 (مخطط جونستون (Johnston)). وتبقى هذه المشاريع

---

(1) Weulersse, 1940 b.

(2) Gibert, 1949.

(3) Wirth, 1966.

متواضعة على العموم، فالواجهة المشرقية ظلت تبحث عن هامش توسعها في الزراعة المطرية أساسا.

د. النتائج : استيطان الأطراف الجافة : منطقة الجزيرة

وجدت سوريا هامش توسعها الزراعي أساسا في الشريط الواقع بسفوح طوروس أي منطقة الجزيرة التي تكون الزراعة المطرية ممكنة فيها[1]. في هذه المنطقة التي كانت في الماضي مأهولة بالسكان والتي شهدت تراجعا شديدا بفعل موقعها الهامشي على أطراف الصحراء ودورها كمرعى شتوي أسفل أراضي الأناضول المرتفعة (أنظر أعلاه)، جاءت عملية التهدئة متأخرة ولم تتحقق إلا تحت سلطة الحماية الفرنسية ابتداء من سنوات 1926-30. وفي هذه الفترة[2] لم يكن السكان المستقرون في الجزيرة يتجاوزون باتجاه الجنوب شريطا ضيقا يتراوح عرضه بين 15 و20 كلم على طول الحدود التركية وخط السكة الحديدية ؛ وباستثناء بعض المراكز الكردية الشبه الحضرية على ضفاف الأنهار، كان باقي البلاد متروكا لجماعات الشمر. وبعد استتباب الأمن شهدت المنطقة نموا سكانيا سريعا، فانتقل عدد القرى من 250 سنة 1939 إلى 336 سنة 1933، ثم إلى 1,050 سنة 1949، كما ارتفع عدد السكان من 40,000 سنة 1929 إلى 106,000 سنة 1939، و238,000 سنة 1954. وتوافدت أقليات مختلفة بحثا عن مجال نشاط لها في هذا الثغر الجديد، خاصة الأشوريين والأكراد المسيحيين (النسطوريين) الذين استوطنوا العراق بعد الحرب العالمية الأولى التي اضطروا معها إلى مغادرة أوديتهم الجبلية، والذين وجدوا في ضفاف وادي خبور ملجأ لهم بعد مجازر عام 1933، وكان عددهم آنذاك 9,000، بحيث شكلوا ربع العدد الإجمالي للسكان وعنصرا فاعلا في استصلاح الإقليم.

على أن ازدهار المنطقة لا يعود الفضل فيه لسكان القرى الجديدة

---

(1) Gibert et Févret, 1953; de Vaumas, 1956; Wirth, 1964; Wirth, 1965 a.

(2) Poidebard, 1927.

وإنما للاستيطان الرأسمالي على نطاق واسع، الذي يختلف عن الأنماط المعهودة في الشرق الأدنى، فقد تم بواسطة مقاولي الزراعة الآلية القادمين من مدن الشرق (خاصة حلب) والذين انتهزوا فرصة ندرة الحبوب خلال الحرب العالمية الثانية، التي تزامنت مع اهتمام أصحاب رؤوس الأموال بالأراضي الشاغرة في الجزيرة، واتفقوا مع الأغوات الأكراد وشيوخ البدو أصحاب الحقوق في الأرض، على أن يدفعوا لهم ما قيمته 10 إلى 12من المحصول باعتبارهم ملاك الأرض نظريا، مقابل تطوير زراعة حبوب آلية واسعة النطاق (679 آلة حصاد و1,200 جرار سنة 1961). فارتفعت بذلك مساحة الأراضي المستغلة من 200,000 هكتار سنة 1939 إلى 650,000 هكتار سنة 1954. وظل نصيب كبار الملاك المحليين ضئيلا جدا مقارنة بنصيب المقاولين الوافدين الذين امتدت أيديهم إلى الأشرطة المروية المحاذية للأودية أو حتى أقاليم جديدة مروية أنشئت حول الآبار. وقد خصص نصف الماء المستكشف لكبار ملاك الأرض المحليين مقابل تنازلهم عن نصف الأراضي التي أصبحت قابلة للري حديثا. كما استحوذ المقاولون الجدد على قسم كبير من المراكز المروية الأصلية عن طريق الشراء أو الكراء، والتي طوروا فيها، منذ 1949–50، زراعة قطن واسعة النطاق غطت 33,000 هكتار سنة 1961. ومن بين السكان الأصليين للأرض من القرويين وأشباه البدو، تمكن الأشوريون وحدهم من مسايرة هذا التطور بإقامة منشآت فلاحية ذات طابع تجاري، أما الباقون فيعيشون حياة من الخمول بجنب أنواع من النشاط غريبة عنهم. وتوجد أوجه شبه مع هذا الوضع في الجهة الأخرى من الحدود أي في منطقة الجزيرة العراقية، التي أخذ زمام المبادرة فيها حضر الموصل، الذين استفادوا من الاستقرار الإداري منذ 1951، ثم الإصلاح الزراعي منذ 1958، اللذين انبثقت عنهما كذلك طبقة صغار ملاك من البدو المستقرين المستعينين بالمقاولين الزراعيين[1].

---

(1) Al-Kasab, 1966.

لم يغير الاستيطان الرأسمالي الواسع النطاق الطابع العام للمجال حيث تظل بصمته سطحية وغير قارة، فهو يهجر الأقاليم المستصلحة خلال الشتاء بين فترتي البذر والحصاد، كما أنه لم يحدث بنية تحتية ولم يسهم في التطور العمراني، غير أنه أنشأ، في مقابل ذلك، بنية اقتصادية متينة وجدت في الأرباح الضخمة لسنوات الرخاء (حيث يتم تعويض كلفة العتاد بفضل محصول جيد واحد) قوة المقاومة الضرورية للاستمرار خلال سنوات الجفاف وانعدام المحصول، كما في سنة 1954–55 مثلا، وخاصة السنوات العجاف الثلاث 1958–1961 التي قضت على قطعان البدو واضطرت الكثير منهم إلى الاستقرار بسبب الفقر المدقع، مما انجر عنه تراجع طفيف لخط زراعة الحبوب، إلا أن هذه السنوات لم تثبط عزيمة أغلب المقاولين الزراعيين الذين عوضوا خسائرهم بفضل محصول سنة 1962 الممتاز. ويكمن المشكل العويص في الوضع القانوني للأراضي وتأقلم الاستيطان واسع النطاق مع الإصلاحات الزراعية التي طبقت تدريجيا عبر الأراضي السورية، فإذا كان المشكل غير مطروح بالنسبة للأراضي المسجلة باسم كبار الملاك والتي يتم تأجيرها بنفس الشروط لصغار الفلاحين المستفيدين من الإصلاح، فإنه يبقى مطروحا فيما يتعلق بالأراضي الشاسعة غير المسجلة والتي تظل الحقوق المزعومة بشأنها نظرية، وكذلك الأمر بالنسبة للأراضي المهجورة التي تم استصلاحها مباشرة. ورغم ذلك فليس هناك ما يفرض إعادة النظر في هذا النظام ككل.

إن هذا التطور المتميز الذي يعبر عن روح المبادرة الواسعة المستجدة في بلاد الشرق، لم يتجاوز نطاق الهلال الخصيب. فالأطراف الداخلية للساحل المشرقي لم تشهد تطورات مشابهة بسبب كثافة الفلاحين العالية بها وقلة الأراضي الشاغرة. على أنه توجد حالات مشابهة في خوزستان الفارسي أو في هضاب غورغان (Gourdan)، كما أن حالات مماثلة يمكن أن تتجسد يوما ما عند اجتماع الشروط الاقتصادية والاجتماعية المناسبة في أقاليم تتوفر

على بعض الشروط الضرورية، مثل الهضبة الأردنية حيث توجد أطراف مهمة صالحة للزراعة لم تستغل بالقدر الكافي من طرف القبائل البدوية.

4. الدول

يعكس تنوع أنواع البناء السياسي التوازن المتغير والمعقد لبلدان الشرق الأدنى، حيث تتعايش كل الأنماط الكبرى التي عرفتها الدول الإسلامية نتيجة بنيتها وحيويتها وما يرتبط بهما من مشاكل وأوضاع.

أ. دول البدو:

تتربع على قلب الصحراء العربية-الشامية دولتان هما العربية السعودية والأردن، تعبر كلتاهما، بشكل مختلف، عن وضع سياسي واجتماعي طغت عليه، إلى فترة متأخرة، القوى البدوية.

1. تحققت الوحدة السياسية للجزء الأكبر من الجزيرة العربية خلال الربع الأول من القرن العشرين تحت إمرة الأسرة السعودية والطريقة الوهابية، على حساب أشراف الحجاز. وأصبحت واحة الرياض المتواضعة عاصمة للجزيرة العربية على حساب حواضر الحج الكبرى. ولهذا الوضع دلالة عميقة، فهو يجسد التفوق الكامن لقوى نجد البدوية أساسا، التي حققت النصر السعودي على مدن الأطراف الكبرى.

هذا ولا يجب التسرع في الحكم بأن العربية السعودية اليوم ما هي إلا إمارة من بين تلك الإمارات غير المستقرة والعابرة التي يفرزها عالم البداوة باستمرار، فالحركة الدينية القوية والمتشددة التي شكلت أساس الدولة، وفرت لها لحمة أمتن بكثير من روح الهيمنة وحدها. كما حدث تحول سريع إلى ملكية مستقرة بكل المعايير، واضطرت القبائل إلى الرضوخ لهذا القانون الصارم.

من المؤكد أن الدولة السعودية لا زالت متأثرة في العمق بأصولها البدوية القريبة، ففي كل مكان تستشعر حق الغزو الذي يجعل من المملكة ملكا خالصا للأمير وأسرته، ويجعل من الصعب الفصل بوضوح بين ميزانية الدولة والخزينة الملكية، إلا أن هناك عناصر كثيرة مستجدة، فالمنطقة المعزولة التي أوجدتها شركة آرامكو (Aramco) على الساحل الشرقي لم تعد حالة استثنائية اليوم، كما أن إعادة تأهيل وفتح خط سكة حديد الحجاز المرتقب سنة 1966، والذي هجر منذ 1918، ستوجد محور تطور جديد، فضلا عن أن المراكز المحركة في البلاد هي المدن الكبرى : جدة والرياض التي تركت واحتها القديمة المجال لعاصمة ذات حداثة واضحة[1]. وهناك اهتمام من طرف الملك والأسرة الحاكمة بالتجارب الزراعية، مثل تجربة الخرج[2]، واستقر الإخوان في المراكز الجديدة الدائمة. وخلال جيل واحد، انتقلت العربية السعودية من مرحلة الإمارة البدوية إلى طور الدولة المركزية. وبفضل ماضيها البدوي القريب وقبضة الفاتحين الحديدية تفادت الصراعات الداخلية التي عادة ما تمزق البلدان الحضرية القديمة، فمشاكلها تتعلق بالتنظيم أكثر منها بالوحدة.

2. رغم أن الأسرة الحاكمة في الأردن المنحدرة من مدن الحجاز حضرية في جوهرها، فإن الدولة الأردنية، التي تكونت في البداية من شرق الأردن وحده ثم ضم إليها جزء فلسطيني بفعل الوضع الناتج عن قيام دولة إسرائيل، اعتمدت أساسا في بدايتها على الهيمنة السياسية والاجتماعية للقبائل التي كانت تسيطر بسهولة على حيز شرق الأردن الضيق القابل للزراعة. وقد كانت الدولة الأردنية نتيجة لاهتمام بريطانيا بتوفير مجال لأحد أهم حلفائها الهاشميين، الأمير عبد الله، وفي نفس الوقت حرصها على جعل الجزء

(1) Philby, 1959.

(2) Sanger, 1954, p. 58-72.

الشمالي للصحراء في منأى عن السيطرة السعودية. وتشكل الإمارة الأردنية منطقة ثغور لمجال الحماية البريطانية في فلسطين في مواجهة المملكة الوهابية التي دخلت في دائرة العالم الحضري المشرقي، إلا أنها رغم ذلك تشبه في نقاط عدة إمارات الصحراء البدوية التقليدية. وليس أدل على ذلك من اختيار موقع العاصمة سنة 1921 والذي استاء منه حضر الصلت التي كانت أكبر حاضرة في البلاد آنذاك، فقد اختار الأمير عمان التي كانت قرية كبيرة أحياها اللاجئون الشركس، منذ 1878، من أنقاض مدينة راباث آمون (Rabath-Ammon) القديمة[1]، واستقر فيها معسكر الجيش العربي (Légion Arabe) الذي يعتبر الأداة الرئيسية للسلطة وقاعدة تأطير القبائل. وعشية تقسيم فلسطين، كان الأردن دولة بدوية محضة في مرحلة التعمير والتحضر التدريجيين، حيث يترافق استتباب الأمن والاستقرار مع الحفاظ على الهيمنة الاجتماعية لزعماء القبائل.

انكسر هذا التوازن بضم جزء من الضفة الغربية للدولة الفتية ونزوح اللاجئين من الجزء المحتل من فلسطين. فنشأت بذلك صراعات كبيرة، مما جعل الأسرة الحاكمة الأردنية تبحث عن دعم أسس سلطتها لدى البدو، في الوقت الذي لم يعودوا يشكلون فيه سوى أقلية من السكان، فمنذ 1952، لم يعد عدد العناصر ذات الأصول البدوية يتعدى 100,000 (يضاف إليهم 30,000 فردا مرابطا في معسكر الجيش العربي) من مجموع 1,360,000 نسمة[2]. وفي عمان التي وفد إليها عدد كبير من اللاجئين، كانت نسبة الوافدين من فلسطين، سنة 1958، تقدر بـ 40 من بين سكان المدينة البالغ عددهم 170,000 نسمة، هكذا تغير المشهد الأردني الذي اقتربت من نمط دول المدن، إلا أن هذا التغير لم يتجسد بعد في موازين القوى السياسية.

---

(1) Hacker, 1960.

(2) Phillips, 1954.

ب. الدول الحضرية:

تكونت حول أهم مراكز الزراعة المروية دول قامت حسب النمط المعتاد في العالم الإسلامي، الذي تميزه هيمنة المدن القوية على محيطها الريفي.

1. مصر هي أكثر هذه الدول استقرارا وتماسكا. فانحصار المجال القابل للزراعة في منطقة مروية ممتدة ومستغلة بكثافة أفرز تجانسا كبيرا في نمط العيش، بينما لم تجد القبائل البدوية الضعيفة أساس عيش جيد في الصحاري الكبرى المحيطة يسمح لها بتهديد الحضر بشكل جدي، مما أوجد مستوى من التطور العمراني لا مثيل له في بقية الشرق الأدنى، وسمح بديمومة ووحدة البناء السياسي القائم على حوض ودلتا وادي النيل، كما أن موقع العاصمة القاهرة عند رأس الدلتا، جعل منها نقطة مركزية متفردة حافظت على مكانتها طوال الفترة الإسلامية[1]، على حساب مدينة الإسكندرية التي تعبر، عكس القاهرة، عن وجود الحضارة الهلينية والتأثيرات الخارجية. وترافق انبعاث الإسكندرية منذ سنوات 1830[2] مع انفتاح مصر مجددا على الخارج والتأثير الغربي في البلاد، غير أنها لم تهدد هيمنة القاهرة التي رسختها القومية المصرية.

2. أما الدولة السورية فقد انبثقت بعد الحرب العالمية الأولى من شام انتقصت منه أكبر أجزائه : لبنان وفلسطين والمناطق الجبلية الساحلية. وتتميز سورية بموقعها في منطقة التقاء قديمة تضافرت فيها حيوية العلاقات وكثافة الحياة الريفية لتشجع النمو العمراني والهيمنة السياسية المطلقة للمدن. ففي وسط غوطاتها وأريافها الجافة، تجسد مدن دمشق[3] وحلب[4] وحماة

---

(1) Clerget, 1934.

(2) Marchal, 1954.

(3) Thounan, 1936, p. 237-260; Wirth, 1966.

(4) Sauvaget, 1941; Wirth, 1966.

وحمص نموذج الحواضر التي تسود بشكل شبه مطلق البلاد السهلية المحيطة بها وتتركز فيها الثروة العقارية والجاه الاجتماعي. ويشكل البدو الذين تم إخضاعهم منذ فترة الحماية الفرنسية عنصرا غير مؤثر يخضع لسياسة استقرار نشطة اعتمدتها السلطات الحضرية التي تحركها روح انتقامية تجاههم. أما العناصر الوافدة الجبلية كدروز الجبل القليلين، وخاصة كتلة العلويين الفاقدة للتنظيم وذات المستوى البسيط جدا، فلا تشكل تهديدا جديا على التوجه نحو المركزية السياسية التي أصبحت فعلية.

3. يختلف عن ذلك بكثير ميزان القوى الذي تحقق داخل الدولة العراقية التي تبدو ظاهريا وكأنها نتيجة ظروف طبيعية، تشكلت حول نهرين كبيرين يبثان الحياة في الصحراء، وتستمد وحدتها من وحدة الحوضين النهريين. غير أن استغلال الأرض ظل متواضعا، كما تبين سابقا، ولم ترق المراكز الفلاحية الواقعة على ضفة النهر إلى مستوى الشريط الرائع والمنظم لوادي النيل. ولم تكن بغداد مع نهاية العهد العثماني سوى جزيرة معزولة وسط صحاري لا تخضع لها، وكان البدو متواجدين في كل مكان، وظلت البنية القبلية سائدة. وفي منطقة مستنقعات مصب النهرين، كان الشيوخ يمارسون سلطة شبه مطلقة معتمدين في ذلك على حراسهم الخصوصيين على حساب عموم الشعب الأميين والذين بدؤوا يستيقظون بالكاد بفعل الهجرة نحو المدن. هذا وقد وجدت الأسرة الهاشمية ذات المذهب السني الحاكمة في العراق صعوبة في حكم أغلبية السكان الشيعية وفي تحقيق وحدة بلاد الرافدين. إلا أن انقساما أخطر بدأ في التبلور، فمنذ 1934 تنبه فويلرس (Weulersse) قبل غيره، أن الشرق الأدنى كان يشهد ظهور حركات قومية عرقية أكثر فعالية من الاختلافات الدينية التقليدية، حيث أن الخطر الرئيسي الذي يتهدد الدولة العراقية هو خطر الأكراد رغم اشتراكهم مع الأسرة الحاكمة في الانتماء للمذهب السني[1] ؛ ويتحصن الأكراد في جبالهم

(1) Weulersse, 1934 b.

حيث تسمح لهم زراعة الحبوب المعتمدة على الأمطار بعيش مستقل، كما يتمتعون بنشاط وروح عدوانية ملحوظة جعلتهم يزعزعون، منذ سنوات عديدة، بنية سياسية تبدو غير قابلة للاستمرار في شكلها الوحدوي على الأقل، والتي يمكن التنبؤ من الآن بتراجعها إلى سفوح الجبال. هذا وقد تجلى فشل الدولة الحضرية المتركزة في بغداد في محاولة تحقيق وحدة البلاد، مما يؤكد تأخر التطور البشري لبلاد الرافدين.

جـ. الدول الجبلية:

يظهر أن التمرد الكردي ما هو إلا مؤشر للتحرر الشامل لأقليات المناطق المرتفعة، فنادرة هي البناءات السياسية القائمة على المقاومات الفلاحية الجبلية. فهؤلاء المطرودون الذين يعيشون على هامش التيارات الفكرية الحضرية والمحرومون من نور العقيدة ومن الميزة التي خص بها البدو كحاملي سيف الدفاع عن الدين القويم، لم يتمكنوا من الارتقاء إلى مرحلة الدولة المنظمة والحصول أو الحفاظ على استقلاليتهم السياسية إلا في ظل ظروف مساعدة استثنائية.

1. أهلت الظروف الطبيعية لبنان لأن يكون إحدى هذه الاستثناءات[1]. فجبل لبنان أعلى جبل في المشرق، يرتفع إلى أكثر من 3,000 متر ويستفيد من أحسن الظروف الهيدرولوجية التي تسمح بتخزين ماء المطر الغزير في قباب كلسية جوراسية (jurassiques) وسينومانية (cénomaniennes)، لينبع بعد ذلك في شكل عيون غزيرة عند الالتقاء بالحجر الرملي والتربة الطينية التي تعود للحقبة الطينية القديمة (crétacé inférieur) في مستويات أقل ارتفاعا. كما يستفيد جبل لبنان من اتصاله المباشر بالبحر المتوسط، إذ تشرف منحدراته الشديدة على الخلجان الصغيرة والمراسي الواقعة على ساحل يوجد به سهل

(1) de Vaumas, 1948; 1953; 1955.

ساحلي سمح اتساعه بإقامة طريق سهلة واصلة تعتبر المحور الوحيد الممكن للمواصلات ولتوحيد البلاد طوليا. إن الميزة المزدوجة لجبل لبنان كجبل عال مؤهل للاستقلال وكجبل بحري منفتح على التأثيرات الخارجية هي التي جعلت منه قاعدة إحدى أمتن البنيات السياسية وأكثرها أصالة في الشرق الأدنى. وقد تحققت الاستقلالية السياسية فيه منذ العهد العثماني بزعامة أمراء، مثل فخر الدين (1585-1635)، يتمتعون بانفتاح كبير على العالم الغربي. وحقق لبنان الصغير في سنة 1861 كشبه محمية للقوى المسيحية، توازنا سياسيا بين أهم نحلتين جبليتين، المارونيين والدروز، بعد صراعهما الدموي خلال عام 1860. وبعد حرب 1918، جسد لبنان الكبير امتداد تأثير الجبل على السهول المجاورة، بضمه المدن السنية الواقعة في المناطق الساحلية بأقلياتها الحضرية مثل الإغريق الأرثوذكس الحريصين على حماية السلطة الشرعية لهم، ومتولو الداخل. مما يجعل هذه التركيبة فريدة من نوعها، تقوم فيها الدولة على تناسب دقيق لسلطات وتأثيرات الجماعات المختلفة، وتعتمد على جزيرة رخاء اقتصادي يوفره خاصة الدور المالي الدولي للبلاد في الشرق الأدنى، والروابط العالمية مع المهاجرين، وتصنيع حديث العهد يعرف تطورا سريعا، في الوقت الذي تحتل فيه زراعة الأشجار المثمرة التجارية، المتوسطية في المناطق الساحلية والمعتدلة في المناطق المرتفعة (أشجار التفاح)، مكان الزراعات الصناعية، مثل الحرير، التي كانت تشكل في الماضي نشاطا مهما[1]. كل هذا يؤهل الدولة اللبنانية لمواجهة النزاعات والصراعات الداخلية التي تبلغ في بعض الأحيان مستويات مأساوية، إلا أنها سرعان ما تخمد.

2. تجسد الدولة اليمنية كذلك هيمنة مجموعة منشقة تبسط، انطلاقا من أراضيها المرتفعة، سيطرتها على سهل ساحلي سني يضمن اتصالاتها مع الخارج. واستفادت الدولة اليمنية من استمرارية التقاليد الحضرية السابقة

---

(1) Févret, 1949.

للإسلام ومن بقايا الازدهار الذي أوجدته في الماضي تجارة البخور العابرة للجزيرة العربية. هكذا ضم زيديو الكتلة الجبلية المرتفعة الجزء المجاور لجبالهم من السهل الساحلي وهو منطقة تهامة، إلا أن هذه الهيمنة لا تعبر عن حيوية قوية، فسكان تهامة وهي عبارة عن شريط شبه صحراوي، لم يكونوا سوى مجموعات بدائية متناثرة، وأشباه بدو يرعون الغنم، ومزارعون متواضعون للسورغو والذرة الصغيرة[1]. أما داخل الجزيرة العربية، فاليمن يوجد في حالة دفاع في وجه الروح العدائية السعودية، فمجال النحلة الزيدية يمتد شمالا أبعد من حدود اليمن، كما أن الحد الزراعي والبيوجغرافي الفاصل بين زراعة الكروم والقهوة باليمن وواحات وسط الجزيرة العربية يوجد الآن داخل الأراضي السعودية، حيث تبدأ زراعة الكروم في القبضة جنوب الظهران، فيما يمر الحد الشمالي لزراعة القهوة بجبل حمالة، وتتعدد حقول زراعة القهوة ابتداء من جبل خولان، مما يجعل جزء كبيرا من المنطقة المنتجة للقهوة داخل الأراضي السعودية[2]. وكذلك الأمر بالنسبة للمجال الكبير لزراعات المدرجات الذي يمتد قليلا شمال حدود اليمن، حتى وادي جورة في الجبل المشرف على تهامة، وحتى إقليم فيفة الذي تتوزع عبره أنماط سكنية متنوعة جدا وسط الحقول، جنوب إقليم بني مالك الذي يصبح السكن فيه مركزا فجأة وتختفي منه زراعات المدرجات[3]. ورغم أن أهم جزء من أراضي عسير المرتفعة يشكل امتدادا أنثربولوجيا وجغرافيا وثقافيا لليمن، فإن الحدود السياسية الواقعة جنوبا تجسد، منذ معاهدة 1934، ميزان قوى سياسية لا يتوافق مع الواقع الطبيعي والبشري، إلا أنه يؤكد في ذات الوقت ضعف الدولة اليمنية الهشة والمهددة، والتي تزعزعها اليوم أزمة تعبر إلى حد القطيعة عن انعدام خطير للوحدة الداخلية.

---

(1) Rathjens et Wissmann, p. 18-22.

(2) Philby, 1952, p. 15.

(3) Philby, 1952, chap. 27, p. 481-510.

مختارات بيبليوغرافية

أ. الكتب الجغرافية العامة: كان كتاب (Blanchard, 1929) متميزا في زمنه إلا أنه أصبح غير صالح اليوم. أما كتاب (Fisher, 1962) فهو يتميز بالوضوح والذكاء إلا أنه يفتقر على العموم للمادة وصار قديما نوعا ما. وتشكل دراسة (Dresch, in Birot et Dresch, II, 1956) مدخلا ممتازا. فيما أن كتاب (Cressey, 1960) يبقى متواضعا. لهذا يجب الرجوع إلى :

ب. الحوصلات الإقليمية: هناك عدد من الدراسات المعمقة الخاصة بدولة أو بإقليم ما. بالنسبة للعراق يوجد كتاب .(Wirth, 1962) أما فيما يخص بلاد العلويين يمكن الرجوع إلى كتاب (Weulersse, 1940 a)؛ وبالنسبة للبنان، توجد سلسلة أعمال دي فوما (E. de Vaumas, 1948, 1953, 1954, 1955) التي تشكل مونوغرافيا فريدة من نوعها. ويبقى كتاب (Thoumin, 1936) مفيدا فيما يخص القطر السوري. ولا ننسى فيما يتعلق بالمشرق على العموم، الجزء الإقليمي المختصر والممتاز لـ .(Weulersse, 1946, p. 250-310) وهناك كتاب (Phillips, 1954) بالنسبة للأردن، وكتاب (Besançon, 1957) بالنسبة لمصر، وكتاب (Rathjens et von Wissmann, 1934) الخاص باليمن، وكتاب (Miles, 1966) بالنسبة لعمان. أما بخصوص العربية السعودية يظل الرجوع إلى كتب الرحالة ضروريا، وأحدثها وأكثرها مادة كتب (Philby, 1922, 1933, 1952, 1957)، كما يمكن الاعتماد على الصورة الحية التي يقدمها (Sanger, 1954).

جـ. يمكن الوقوف على معالم التطور التاريخي بالرجوع أساسا إلى (Reifenberg, 1955; Adams, 1965; Whyte in HLUAR, 1961, P. 57-118).

وهناك جداول ضرورية ترسم التطور التاريخي اعتمادا على الجغرافيين العرب، في (Le Strange, 1890, 1905; Marmadji, 1951)، ويمكن إكمالها فيما يتعلق بالفترة المملوكية بالرجوع إلى (Gaudefroy-Demombynes, 1923; Al-Feel, 1965).



الفصل الثالث

العالم العربي

ب. إفريقيا الشمالية

مقدمة : تميز التاريخ المغاربي

يتبع الإطار العام لتطور المغرب العربي، كما هو الحال في الشرق الأدنى، الصورة الإجمالية التي تتكرر في أغلب مناطق العالم الإسلامي وتطبعها فترة ازدهار في العهود القديمة، يليها انتشار البداوة في العصر الوسيط، وأخيرا تقدم الحياة الحضرية مجددا في الفترة المعاصرة. رغم هذا فإن المعطيات الطبيعية والظروف التاريخية ميزت بشكل واضح إفريقيا الشمالية عن بلاد المشرق.

1. فقد تضافرت عوامل عديدة لتوجد هزات عنيفة وتباينات راسخة جدا في الحياة الاجتماعية والوضع البشري. ولذلك أسباب طبيعية، فالمغرب العربي يفتقر للأنهار الكبرى وسهول مناطق الدلتا الغنية، مثل منطقة وادي النيل أو بدرجة أقل بلاد الرافدين اللتين شكلتا في الشرق الأدنى مراكز دائمة للحياة الحضرية، ويعتمد استغلال الأرض فيه أساسا على الزراعات المطرية أو في أحسن الأحوال على أشغال تهيئة مائية متواضعة جدا مجزأة عبر أودية الجبال أو سفوحها الضيقة، والتي لا يمكن أن تشكل أسس تنظيمات سياسية مستقرة. هذا ما جعل عمليات التراجع والاندفاع سريعة جدا. كما أن ترتيب

مناطق التضاريس الكبرى والمناخ يدفعان في نفس الاتجاه، فالمناطق التي تسود فيها الحياة الحضرية تفتقر للوحدة، فهي تمتد في الوسط بين بجاية ومليلية في شكل شريط لا يتعدى عرضه 100 كلم، ولا تتسع هذه المناطق إلا في الطرفين : في المغرب الأطلسي، وفي الجهات الواقعة شرق الحضنة، أما بينهما فقد ساعد امتداد الظروف الصحراوية نحو الشمال على انتشار حياة البداوة، ولم يمكن من قيام وحدة سياسية في إطار بناء يضم المغرب كله. فالدول الحضرية المجزأة والتي تتجاذبها قوى خارجية لم تتمكن من تنسيق جهودها، كما لم يتمكن المغرب العربي من أن يوجد أسسا تسمح له بالتجديد في ظل الصراع بين البدو والفلاحين.

2. على العكس من ذلك، يكمن التميز الآخر لبلاد المغرب في قوة التأثير الخارجي، وذلك لمرتين اثنتين، مرة أولى في العهود القديمة بفعل الاستعمار البونيقي وخاصة الروماني، ومرة ثانية في الفترة المعاصرة من خلال قرن وثلث قرن من الاستعمار الفرنسي (1830-1962)، حيث رضخ المغرب العربي لتأثيرات قوة أجنبية فاعلة فرضت تطورا سريعا ومنظما للحياة الحضرية. وتختلف وسائل وظروف هاتين السياستين الاستعماريتين، كما كانت نتائج الاستعمار الثاني (الفرنسي) أكثر اتساعا، غير أنه لا ضير في المقارنة بين هذين الاستعمارين لأنهما واجها أساسا نفس المجالات، السهول والهضاب، باستثناء الجبال، حيث طورا استعمال الأرض بشكل مذهل في فترة زمنية لم تتعد قرنا بالنسبة للاستعمار الثاني، وقد وصل استعمال الأرض بالنسبة للاستعمار الأول (الروماني) أوجه خلال فترة لم تتجاوز القرنين.

3. ضمن هذا التاريخ العنيف والمنتظم في آن واحد، تعتبر الكتل الجبلية عنصر استقرار. فالمغرب العربي في مجمله أرض مرتفعة، وإذا كان جزء منه تشكله الهضاب العليا، التي تتخللها بعض السلاسل الجبلية الصغيرة الضيقة، ويسهل اختراقه من طرف البدو، فإن كتلا جبلية كبرى ذات وجود بشري قوي حتى في أطراف الصحراء كانت بالنسبة للبدو حاجزا منيعا.

فالجهات الغربية للأطلس الكبير والأوراس وحتى الريف الشرقي ظلت في منأى عن التقلبات التي عرفها المغرب العربي. وفيما تشهد بلاد السهول والهضاب تحولات سريعة، نلاحظ الاستقرار الكبير الذي طبع هذه الكتل الجبلية، بينما تحولت الجبال الساحلية الرطبة، كما هو الحال في المشرق، إلى مناطق لجوء لسكان السهول المجاورة. ورغم أن الدور البشري للجبال كان مهما فإن مصيرها السياسي كان متواضعا دائما، إذ أن هذه المرتفعات المغاربية، وهي الجبال المنيعة أو جبال اللجوء، لم تكن أبدا قواعد بناء سياسي دائم، فالأطلس الكبير أو الأوراس لم يلعبا الدور الذي لعبه اليمن، ولم ترق القبائل الكبرى إلى دور لبنان، لأن هذه الجبال ظلت على هامش التأثيرات الثقافية الخارجية، مثل التعريب، والتأثيرات الاستعمارية، التي تركزت في السهول. وظل المجال الجبلي حكرا على سكان بسطاء لم يتجاوز مستوى تنظيمهم جماعات القرى أو أحلاف الأودية على أكثر تقدير، وظلوا على هامش "التاريخ المغاربي الكبير". ولم يتحقق التنظيم الإقليمي إلا انطلاقا من السواحل أو من ممالك السهول التي كانت حلقات وصل للتأثيرات الخارجية الراقية التي هيمنت على تطور إفريقيا الشمالية.

1. توازن شمال إفريقيا قبل الهجرة الهلالية

ورثت الفترة الإسلامية الأولى في شمال إفريقيا وضعا يشبه إلى حد كبير، مع بعض الفوارق الطفيفة، الوضع الذي نتج عن قرون من الاستعمار الفينيقي ثم الروماني. فهناك سهول انتشر فيها الاستغلال الزراعي الدائم، تقابلها مناطق جبلية ظلت أغلبها على هامش المجتمع المتحضر، يسكنها أشباه البدو وهم الرعاة أو المزارعون قاطعو الأخشاب المنعزلون في الغابات، وكذلك هضاب وصحاري تنتشر فيها أكثر فأكثر البداوة الكبرى ذات الميول العدوانية والتي لم تتمكن إلى ذلك الحين من تهديد ازدهار المناطق الزراعية .

أ. الاستعمار في العهود القديمة:

1. مهد الاستعمار الفينيقي في تونس وطرابلس الغرب والاستعمار الإغريقي في برقة الطريق أمام الاستعمار الروماني في جزء كبير من إفريقيا الشمالية. ففي بداية الأمر لم يقم الفينيقيون سوى محطات ساحلية، وكانت قرطاج، التي أسست في 814 قبل الميلاد، تدفع إتاوة للأهالي مقابل الأرض التي تحتلها، غير أن تحررها من هذه الضريبة حوالي 450 قبل الميلاد كان إشارة لبدء تشكل إمبراطورية إقليمية امتدت على الأرجح إلى الحدود التونسية-الجزائرية الحالية تقريبا، وضمت الظهر التونسي والهضبة السفلى حتى جنوب صفاقس. وكانت تونس البونيقية أرض حبوب أساسا، على أن حدائق وبساتين نشأت في منطقة الرأس الطيب (Cap Bon)، وكان أهم إسهام للفينيقيين هو إدخال زراعة أشجار الزيتون الذين لقن مزارعوهم الأكفاء لليبيين كيفية تطعيمها وزراعتها، ومن المرجح أن معارفهم السابقة كانت تنحصر في استخراج الزيت من الزيتون البري[1]. وفي البلاد الطرابلسية، اقتصر الفينيقيون على نشاطهم البحري والتجاري وعلى إنشاء محطات بحرية، كانت من بينها حمص (Leptis Magna) وهي المحطة الوحيدة التي شكلت مركز منطقة مزدهرة نسبيا لزراعة الحبوب والزياتين، على العكس من ذلك كان إقليم برقة منطقة حيوية للتوسع البشري والتطور الزراعي، حسب النمط الاستعماري الإغريقي، فمنذ تأسيس تكتل المدن الخمس (Pentapole) في القرن السابع قبل الميلاد، شهدت برقة تحت حكم الأسرة البطية (Battiades) ازدهارا مذهلا[2].

2. اعتمد الاستعمار الروماني كذلك على زراعة الحبوب وأشجار الثمار الجافة. فقد كانت إفريقيا (Africa) في البداية مطمور روما. وعرفت

---

(1) Despois, 1940, p. 124-125.

(2) Chamoux, 1953.

الفترة الممتدة منذ القرن الثاني الميلادي، خاصة خلال عهد هادريان (Hadrien)، تطورا كبيرا لأشجار الزيتون وتوسعا بشريا في الهضاب الداخلية والجنوبية لتونس. ولم يكن هذا الازدهار معتمدا بشكل خاص على الري، الذي كان معروفا وبلغ في بعض الأحيان مستوى راق[1]، فقد تبين بما لا يدع مجالا للشك أن هذه الزراعة كانت تعتمد على الأمطار وأن مشاريع الري الكثيرة في الهضبة التونسية هي نتيجة للتوسع البشري وليست السبب فيه، فالأشغال والآبار والخزانات ومنشآت التقاط مياه الينابيع كان الهدف الأساسي منها تزويد البشر والحيوانات بالماء.

رغم تشابه الأسس الاقتصادية للاستعمارين الروماني والبونيقي، فإن الاستعمار الروماني عرف توسعا جغرافيا أكبر بكثير، فقد شمل إطاره الذي اتخذ شكل لوحة الشطرنج بمربعاته المنتظمة تونس الشرقية كلها، وكل أودية الظهر التونسي، والهضاب العليا القسنطينية، وساحل مدينة الجزائر وما جاوره، وسهول الشلف، والسهول الوهرانية السفلى، وفي المغرب الأقصى سهول سبو. وتدل على هذا التوسع علامات الحدود المتتابعة التي احتفظت بآثارها الأرض التونسية بوجه خاص[2]. وفي إطار الملكية الكبرى السائدة إلى جنب مستعمرات المستوطنين الأحرار، انتشر السكن الريفي انتشارا شبه كامل في الداخل التونسي في تباين مع المدن المتركزة في الساحل، مما يؤكد تقدم الحياة الحضرية خلال الفترة الإمبراطورية في جو من الأمن التام. وحتى في الجهات الغربية بمناطق سهول الشلف التي لم تكن خاضعة بشكل كامل للسيادة الرومانية، كان السكن الريفي يتركز مجددا عند سفوح جبال الونشريس القريبة من خط الليمس (Limes).[3]

---

(1) Despois, dans HLUAR, p. 227-28.

(2) Gaillemer et Chevalier, 1954, 1957; Despois, 1957 b.

(3) الليمس (Fossotum Africae) هو خط دفاعات رومانية يتشكل من تحصينات وخنادق وأبراج للمراقبة يفصل بين المناطق الزراعية الخاضعة للرومان في شمال إفريقيا عن

3. اقتصر الاستعمار الروماني على السهول والهضاب العليا الجرداء، ولم يتوغل في المناطق الجبلية الغابية. ففي الداخل لم يطل الأوراس الذي يشكل كتلة منيعة ضخمة، وإن توسع بالقرب منها ليشمل أجزاءً من الأودية المرتفعة والأحواض في جبال النمامشة، بين قمم جبال ضيقة. واعتمد في البلاد الطرابلسية على جبل نفوسة في وسط مجال شبه صحراوي. وكذلك الأمر بالنسبة للجبال الساحلية، ففي القبائل الكبرى مثلا تندر الآثار الرومانية خارج بعض المحطات الساحلية ومراكز الإقليم الواقع شمال ساباو من جهة، وكذلك في الجهات البعيدة عن مسلك الطريق الروماني الرابط بين بجاية ودلس من جهة أخرى، ويتعلق الأمر خاصة بآثار منشآت عسكرية وخطوط تحصينات أنشئت لمراقبة جرجرة انطلاقا من حوضي سباو والصومام[1]. كما لا توجد أيضا آثار قديمة في جبال الخمير أو الريف، فقد اقتصر التوغل الروماني على الكتل الجبلية التلية الجافة، مثل الجزء الغربي من الظهرة أو ما يعرف بالظهرة الوهرانية (منطقة رونو Renaut)[2] حيث تقل كثافة الغابة التي يرجح أنها كانت قد زالت منذ ذلك الوقت، وكذلك الحال في السلاسل الجبلية الصغيرة المتقطعة في شمال شرق تونس. فالرومان لم يكونوا مستصلحين للأراضي، لكون المجالات التي استعمروها كانت قد فتحت قبلهم من دون شك من طرف القبائل البربرية الشبه البدوية التي طردوها من أراضيها، وهذا ما يؤكد لنا أن الرومان كانوا مستعمرين وليسوا مستصلحين للأرض.

المجال الصحراوي الذي تنتشر به القبائل البدوية المعروفة بالجيتول. وقد بلغ خط الليمس أقصى اتساعه في القرن الثالث، فأصبح يلتف على المناطق الزراعية جنوب طرابلس ومنطقة الجريد التونسي تخوم الأوراس والحضنة المحاذية للصحراء ومناطق الونشريس وتلمسان وحوض سبو شمال المغرب الأقصى (المترجم).

(1) Courtois, 1955, p. 115.

(2) رونو تعرف اليوم بسيدي محمد بن علي وهي تقع بمنطقة الظهرة (المترجم).

ب. تغير خط الليمس ودلالته: ظهور البداوة الكبرى ذات الطابع العدواني:

1. اتبع الليمس في بادئ الأمر الكتل الجبلية كحد للتوسع الروماني. ففي القرن الأول الميلادي كان الليمس الأول يمر شمال النمامشة والأوراس والحضنة، ثم على طول الشلف الأسفل حيث ترتفع معسكرات الوادي في وجه كتلة الونشريس المنيعة، ففي ذلك الوقت كان أهم الأعداء هم السكان المستقرون في الجبال أو أشباه البدو المتنقلين عبر مسافات قصيرة. وقد شمل التوسع الروماني لاحقا هذه الجبال، ففي القرن الثالث شمل خط الليمس[1] جبل نفوسة في مقدمة سهل جفارة الساحلي في البلاد الطرابلسية؛ وفي تونس ضم الهضبة العليا والهضبة السفلى حتى واحات الجريد وحافة المسطح الصحراوي؛ وارتكز في الغرب على واحات السفح الجنوبي للأوراس الذي احتواه بالإضافة إلى النمامشة، كما ضم كل الهضاب العليا القسنطينية، وأقام حصونا متقدمة في الأطراف الجنوبية الغربية للحضنة؛ وفي الجزائر الغربية، اتسع نطاق الليمس ليضم الونشريس، إلا أنه لم يتجاوز الحافة الجنوبية للأطلس التلي ولم يتسع في الهضاب العليا الأكثر جفافا باستثناء منطقة السرسو الزراعية في خط يمر تقريبا بتيارت وفرندة وتلمسان، ليتبع بعد ذلك رواق وجدة[2] ويحمي سهول سبو المنفتحة على المحيط الأطلسي. وقد تم توضيح دلالة توسع الليمس[3]، الذي احتوى الجبال البربرية التي وإن كانت متمردة إلا أنها كانت مجالا لحياة الاستقرار. فعكس الفترة الأولى أصبح مصدر الخطر الرئيسي في الجنوب، أي في الصحراء أو في الهضاب غير الصالحة للزراعة، وهو خطر كبار البدو.

---

(1) Ibid, p. 65-91.

(2) الذي كان يضمن المواصلات: Carcopino, 1943, p. 233-44.

(3) Despois, 1942 a.

2. استجد خلال هذه الفترة وضع بشري مواز ومعاصر للاستعمار الروماني، وهو ظهور البداوة الكبرى الرعوية الحربية في صحراء وهضاب شمال إفريقيا. وفي هذه الظرف بالتحديد تم إدخال أداة هذا النمط الجديد للعيش وهو البعير الذي يرجح أنه انقرض من الصحراء بعد الحقبة الرباعية (Quaternaire) ليظهر من جديد[1] قادما من الشرق، حيث انتشر في مصر بعد الغزو الفارسي وخلال العهد الإسكندري، قبيل ظهور المسيحية، فأول نص يذكر يقينا البعير في المغرب العربي يرجع إلى سنة 46 قبل الميلاد[2]، غير أن انتشاره الواسع في إفريقيا الشمالية تم خلال القرون الأولى للحقبة المسيحية[3]، أولا في البلاد الطرابلسية وتونس خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين[4]، حيث أصبح الوسيلة الرئيسية للتجارة الكبرى العابرة للصحراء التي أصبحت ممكنة بفضل السلم الروماني.

رافقت هذا التحول ظروف متنوعة دقيقة، نذكر منها: ضغط الاستعمار الروماني الذي طرد نحو الصحراء بربر الهضاب أشباه البدو الذين تبنوا البعير وطريقة عيش البداوة الكبرى ذات الطابع العدواني[5]؛ وما تبعه من رد فعل عنيف وطفيلي أضر بتجارة القوافل الكبرى التي ازدهرت خلال فترة السلم الروماني دون ضرورة اللجوء إلى طرد السكان البربر نحو الصحراء[6]؛ يضاف إلى ذلك الأزمة التي مست الناقلين بسبب تراجع التجارة الرومانية العابرة للصحراء[7]. مهما كانت هذه الظروف، فمن المؤكد

(1) على أنه يجب الوقوف على النظرية المعاكسة: Courtois, 1955, p. 98-101.

(2) César, Bell. Afric., LXVIII, 4.

(3) Gautier, 1927, p. 165-185.

(4) Demougeot, 1960.

(5) Gsell, 1925.

(6) Demougeot, 1960.

(7) Capot-Rey, 1960.

أن أول الشهادات التي تصف بوضوح رحلا على مسافات كبيرة يستخدمون الجمال ويتصفون بالعدوانية حسب النموذج البدوي، تعود إلى أواخر القرن الثالث الميلادي[1].

3. كانت نتيجة هذا التطور حدوث أول تقلص في مجال الاستعمار الروماني. فمنذ نهاية القرن الثالث الميلادي قرر الامبراطور دقلديانوس (Dioclétien)، في وجه الخطر المحدق، تراجع خط الدفاع الروماني المعروف بليمس موريطانيا القيصرية إلى وادي رهيو ووادي الشلف الأسفل، متخليا بذلك عن المناطق الجافة في الجهة الوهرانية والمغرب الأقصى الشرقي وعن الاتصال البري مع موريطانيا الطنجية (شمال المغرب الأقصى) التي تم الانسحاب من الجزء الأكبر منها. في نفس الوقت تم التخلي عن منطقة التيطري وبلاد الحضنة، وتراجع الليمس إلى خط يربط بين أوزيا (Auzia) (سور الغزلان حاليا) والسفح الجنوبي الشرقي للحضنة والسفح الجنوبي للأوراس. وفي نفس الفترة انكفأ الاستعمار الروماني في البلاد الطرابلسية في الأودية الساحلية[2]. ونجمت عن الأزمة الوندالية مرحلة تراجع جديدة، حيث أن الحدود البيزنطية، التي حافظت على خطها القديم جنوب (Byzacène)، اتجهت رأسا نحو الشمال من الحضنة إلى بجاية[3]، وفقدت المدن المستعمرة في ساحل موريطانيا القيصرية امتدادها الداخلي، وسقطت في هذه الفترة المستعمرات الرومانية في سهول الشلف تحت ضربات بربر الجبال[4]. وفي سنة 534 غزا كبار البدو المستخدمين للجمال منطقة بيزاسين (Byzacène)[5] التي دخلت حقبة يطبعها الخوف والتهديد.

---

(1) Gautier, 1927, loc. cit.; Courtois, 1955, p. 102-104.

(2) Courtois, 1955, p. 65-91.

(3) Courtois, 1955, p. 326-327.

(4) Yacono, 1955, I, p.187-88.

(5) Courtois, 1955, p. 349-350.

جـ. الفترة الإسلامية الأولى واستمرارية الإرث القديم:

1. استمر الازدهار القديم في المناطق التي ظلت تحميها خطوط الليمس الجديدة خلال فترة "السلم الوندالي"[1]، حيث كانت حقول الحبوب والزيتون تغطي أرض إفريقيا، كما أن أعمال التخريب البدوية التي شهدتها الفترة البيزنطية كانت محدودة مكانا وزمانا. ورغم فوضى أواسط القرن السادس، تصف نصوص القرن السابع بلادا غنية وخصبة[2].

خلال القرن السابع أعقبت الفتح العربي اضطرابات استمرت على مدى 150 عاما[3]، ففي تونس الوسطى لجأ السكان إلى القرى الكبيرة في منطقة الساحل، وسط غابات أشجار الزيتون، كما تقلص عدد سكان الهضبة السفلى مقارنة بالفترة السابقة، وتركز السكان في مناطق محددة بعد أن كانوا منتشرين في أنحائها.

هذا ولا يجب تضخيم هذه التحولات، فقد حدثت نهضة حقيقية خاصة منذ القرن التاسع تحت حكم الأغالبة (800-909)، والفاطميين (909-973)، والزيريين (973-أواسط القرن الحادي عشر). وظلت عدة مدن مزدهرة وإن زالت اليوم من الوجود. ووراء البساتين الساحلية، كانت الهضبة السفلى منطقة كبرى لزراعة الحبوب[4]، وتجسد ازدهارها القيروان، المدينة المعسكر

---

(1) Ibid, p. 310-324.

(2) Despois, 1940, p. 154-155.

(3) يقصد به المؤلف ثورات الخوارج بالمغرب العربي أثناء فترة حكم ولاة القيروان على عهد الخلافة الأموية والتي لم يتسبب فيها الفتح الإسلامي، وإنما كانت حركة مذهبية ذات بعد عقائدي ومظهر اجتماعي وأهداف سياسية أسفرت عن تغيير نظام الحكم وظهور كيانات سياسية خارجية أهمها الإمارة الرستمية بتاهرت التي عمقت العقيدة الإسلامية في المجتمعات القبلية البدوية وأدمجتها في الفضاء الإسلامي الذي كان قبلها يعتمد على نشاط الرعية ورعاية الحكام ويتركز في البيئات الحضرية بالمدن التي استقر بها الجند العربي (المترجم).

(4) Ibid, p. 157-163.

التي أسست سنة 670، كنقطة ارتكاز عسكرية أقامها عقبة بن نافع عند مدخل مناطق الظهر التونسي الجبلية، وسرعان ما تحولت إلى مدينة دينية وحرفية وسوق كبيرة وسط منطقة الزراعات[1]، وقد تعززت المنتجات القديمة بزراعات جديدة استجلبت من المشرق من قبيل قصب السكر والحمضيات والقطن والأرز. هكذا حافظت إفريقيا (تحريف لكلمة أفريكا (Africa) يدل على استمرارية الوجود البشري) إجمالا على ازدهارها، حتى أنها توسعت أحيانا عما كانت عليه في الفترة البيزنطية.

و في البلاد الطرابلسية انحسرت الحياة الحضرية في هذه الفترة إلى شريط المدن الساحلية، هذا إذا استثنينا جبل نفوسة الذي كان خارج مجال العالم المتحضر وظل مأهولا بالسكان مع كونه محاطا بهضاب سادت فيها حياة البداوة منذ تلك الفترة)، بينما احتفظت منطقة برقة بازدهارها الريفي، وكانت مدينة برقة[2] مركزها الكبير الذي يتوسط بساتين تفوق عائداتها عائدات مدينة طرابلس[3]، وكانت هذه المنطقة تصدر عددا كبيرا من رؤوس الماشية إلى مصر.

2. خارج خط الليمس القديم، سادت حياة البداوة في الهضاب الجزائرية-المغربية التي يجوبها بربر زناتة، وهم من كبار البدو الذين يرجح أنهم كانوا يعتمدون آنذاك على الخيل أكثر من الجمال[4]، والذين اعتنقوا الإسلام سطحيا وأيدوا الحركة الخارجية. وشكلت مملكة تاهرت، قرب تيارت الحالية، بين الهضاب والتل، مركزهم الذي هيمن مدة قرن ونصف (761-908) على مناطق ظلت فيها الحياة الحضرية نادرة[5]. في مقابل ذلك

---

(1) Despois, 1927; 1930; 1940, p. 164-170.

(2) Ibn Hauqal, I, p. 62-63; El-Bekri, p. 14-15.

(3) Ibn Hauqal, I, p. 65.

(4) Golvin, 1957, p. 33.

(5) Gautier, 1927, p. 293-308.

كان نمط عيش حلف صنهاجة أكثر استقرارا في الجزائر الشرقية، شمال شرق خط يربط بين الأوراس وتنس، فصنهاجة تتألف من رعاة مزراعين أو أشباه بدو على أكثر تقدير[1]، ينحدرون على الأرجح من البربر الذين كانوا يعمرون الجبال في العهود القديمة، وهم متعودون على الحياة الحضرية في شكل قرى صغيرة تضطلع بدور الأسواق والمراكز الحرفية[2]. وكانت عواصم أسرهم الحاكمة : أشير، قلعة بني حماد، بجاية، مراكز مهمة. هذا ويبدو أن سهول الشلف عرفت بين القرن التاسع ونهاية القرن الثالث عشر ازدهارا ريفيا حقيقيا[3]. كما شهد المغرب الأقصى هو الآخر نهضة مماثلة بتأسيس مملكة الأدارسة سنة 788، وأنشئت مدينة فاس نفسها سنة 807، وهذا ما ساعد على امتداد تأثير الدولة الجديدة إلى مناطق الأطلس الكبير[4] التي لم يطأها الاستعمار الروماني أبدا. وقد تمكن حكم المرابطين، وهم بربر رحل قدموا من الصحراء الغربية وأسسوا مراكش سنة 1062، وحكم الموحدين المنحدرين من جبال الأطلس الكبير، وكلا الحكمين المرابطي والموحدي كان تعبيرا عن حركات روحية أكثر منه نتيجة لعوامل اقتصادية مستجدة، من المحافظة على هذا الازدهار الذي عززته العلاقات الوطيدة مع حضارة عمرانية مزدهرة في إسبانيا. وخلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، أصبح المغرب الأطلسي مجالا لحياة ريفية مستقرة، تشهد الضيعات المعزولة على استتباب الأمن فيه[5].

ظل وسط المغرب وغربه بربريا أساسا، ومع أن الإسلام كان ينتشر فيه تدريجيا (حيث ذكر آخر مركز مسيحي سنة 1114 بقلعة بني حماد)، فإن

---

(1) Golvin, 1957, p. 23-26.

(2) Ibid, p. 79-87.

(3) Yacono, 1955, I, p. 199-201.

(4) Gautier, 1927, p. 274-291.

(5) Terrasse, 1949, I, p. 203-208.

التحول فيما بعد إلى الإسلام كان شاملا، فيما انحصرت عملية التعريب أواسط القرن الحادي عشر في الجهات الشرقية التي عربتها بسرعة الأطر الحضرية الموروثة عن العهود القديمة، بينما لم يتم في الغرب التعريب إلا في بعض المراكز العمرانية.

يبدو عموما أن الحياة البدوية لم تسد إلا في الجهات الأكثر جفافا بالهضاب العليا الداخلية، أي الهضاب الجزائرية-المغربية، بينما ظلت الحياة التقليدية لبربر الجبال من الفلاحين والرعاة ومراكز الحياة الحضرية قائمة. و لم يعد مركز ثقل السكان هو نفسه في الجهات التي خضعت للاستعمار الروماني في العهد القديم بعد أن استرجع أهالي الجبال دورهم، وإن ظل نبض نمط العيش مختلفا والبلاد مأهولة ومستغلة بكثافة.

2. خراب بلاد المغرب

أ. إشكالية التحولات المناخية:

إلى أي مدى تسبب تغير المناخ في الإخلال بالتوازن القديم الذي ظل قائما في مجمله خلال القرون الإسلامية الأولى؟

ففي هذه البلاد التي تتقدم وتتراجع فيها الحياة الحضرية على نطاق واسع والتي وجد بها المستوطنون الفرنسيون في القرن التاسع عشر آثار الحضارة الرومانية في كل مكان، كان من البديهي أن تطرح إشكالية المناخ قبل أي محاولة استيطان للمجالات التي استصلحت في العهود القديمة أو قبل أي تفكير في مصير البلاد.

1. لأول وهلة تبدو لنا التعليلات القائمة على فكرة تدهور المناخ، وخاصة تلك المعتمدة على نسبة التساقط بأنها مسألة تثير التساؤل أو الدهشة، نذكر من بينها : انخفاض مستوى ماء بعض الينابيع أو الآبار القديمة ؛ كثافة الآثار بالقرب من ينابيع قليلة الماء أو في جهات تكاد تنعدم فيها الينابيع ؛

أهمية الآثار في بعض الجهات السهبية، مثل تمقاد في الهضاب العليا القسنطينية أو الجم (Thysdrus) في الهضبة السفلى التونسية، كما يدل على ذلك وجود حواضر كبرى لا تتناسب مع المناخ السائد الآن ؛ كل هذا يعزز فكرة نسبة تساقط أعلى في العهود القديمة. وخارج نظرية تدهور المناخ يصعب تصور اشتهار إفريقيا الشمالية بخصوبة أرضها الاستثنائية، فقد كانت إفريقيا (Africa) مطمور روما، كما سجل الكتاب القدامى[1] مردودا خارقا للعادة يبلغ 100 أو حتى 150 في منطقة بيزاسيوم (Byzacium) (دواخل منطقة سوسة) والتي بلغت فيها زراعة الحبوب اليوم مستوياتها القصوى دون أن تبلغ هذا المدى. كما يمكن الوقوف على أدلة أخرى تخص عالم الحيوان، فالفيلة ظلت موجودة حتى القرن الثالث الميلادي ويبدو من الصعب الإقرار بوجودها ضمن المناخ الحالي الذي يتميز بطول فصله الجاف.

2. رغم كل هذا تبنى أغلب المؤرخين وعلماء الآثار نظرية معاكسة تتمثل في عدم تغير المناخ[2]. فمستوى مياه الينابيع والآبار يكون قد انخفض بسبب انعدام صيانة العيون أو انجراف التربة، إذ أن العديد من الآبار الرومانية لا تزال مستعملة، مما يدل على أن مستوى المياه الجوفية لم يتغير كثيرا ؛ كما أن تركز الآثار في منطقة جغرافية معينة لا يدل على أنها متزامنة ؛ بينما يمكن تفسير الحجم الكبير لبعض البناءات كمسرح الجم (الذي كان يتسع لـ 60,000 شخص) بدورها كنقاط تجمع لكل المنطقة المحيطة وليس للمدينة فقط. كما أن الآثار الكثيرة للمدن التي لا تزودها عيون الماء تجد تفسيرا لها في تطور تقنيات خزانات الماء. وقد تبين[3] أن مردود الحبوب الذي قد يبدو مذهلا ليس خارقا للعادة، فالبذر المتباعد واستعمال سيقان متعددة لنفس الحبة تمكن اليوم من الحصول على مردود مشابه في حالة سقوط أمطار غزيرة أو عندما

(1) جمع هذه النصوص: Despois, 1937 a.

(2) أجمل هذا النقاش: Gsell, 1913, I, p. 41-99.

(3) Despois, 1937 a.

تغمر المياه الجارية التربة، في بعض الأعوام، في مساحات محددة قد ينعدم فيها المحصول في ظروف أخرى ولهذا فإن مردود زراعة الحبوب في العهود القديمة استثنائي وليس خارقا للعادة.

أما مسألة وجود الفيلة فهي أكثر إشكالا لأننا لا نعرف أين وكيف كانت تعيش هذه الحيوانات الصغيرة الحجم التي كانت تتنقل بسهولة والتي يحتمل أنها كانت تقضي الصيف في جهات قليلة السكان بمنطقة التل حيث تجد موارد كافية، على أي حال فإن وجود هذه الحيوانات يستلزم غطاء نباتيا غابيا أكثر كثافة من الغطاء الحالي وليس بالضرورة مناخا مختلفا.

في مقابل ذلك نلاحظ أن أغلب النصوص القديمة المتعلقة بالمناخ تتطابق مع الأوضاع المناخية الحالية، فلا شيء تغير في تتابع فترات الجفاف الطويلة وسنوات الرخاء والسنوات العجاف، وهبوب رياح السيروكو بنفس المميزات التي نعرفها اليوم، كما لم تتغير مواسم الحصاد. وقد لوحظ بنوع من الفكاهة أن الإمبراطور هادريان (Hadrien) تمتع بشعبية في تونس مثله مثل الرئيس فاليير (Fallières) سنة 1911، لأن زيارته توافقت مع عدة سنين ماطرة[1]. هذا ويجب الإقرار بأن المناخ لم يتغير منذ العهود القديمة على مستوى خصائصه الرئيسية على الأقل.

3. ويمكن الوقوف على هذه المسألة بشكل أدق في إطار إقليمي معين بالمقارنة بين الظروف العامة للعيش والاستغلال في الحدود القصوى لإمكانيات الزراعة. وقد استنتجت دراسة معمقة خصت الهضبة السفلى التونسية[2]، وهي منطقة يرتبط فيها انتشار الحياة الحضرية نحو الجنوب الآن كما في العهد الروماني بزراعة أشجار الزيتون الجافة، أن المناخ لم يتغير، فتوزيع بساتين الزيتون قديما (حسب آثار معاصر الزيتون) وحديثا يتأثر في

---

(1) Despois, 1940, p. 242.

(2) Despois, 1940, p. 241-244.

كلتا الحالتين بتوزيع أصناف التربة، ففي جنوب منطقة صفاقس، امتدت بساتين الزيتون قديما كما هو الحال الآن على الأراضي ذات التربة الخفيفة التي تستقطب بسهولة الرطوبة الناجمة عن تساقط أمطار قليلة، وليس على الأراضي ذات التربة الطينية الثقيلة. غير أن تغيرا في نسبة التساقط ببضعة عشرات من المليمترات يكون قد سمح بتوسع زراعة الزيتون بهذه الأخيرة.

و هناك وجهات نظر مختلفة بخصوص منطقة سهول الشلف التي تسود فيها زراعة الحبوب[1]، والتي اعتمدت على التفسير الاقتصادي أساسا، الذي يشير إلى أن سهول الشلف استمر فيها الاستعمار الزراعي الروماني مدة ثلاثة قرون على أقل تقدير وازدهر بفضل زراعة الحبوب، بينما وصل الاستيطان الفرنسي المعتمد على زراعة الحبوب إلى حد الإفلاس بعد نصف قرن رغم أن إمكانياته كانت أكبر بكثير، ولم ينقذ هذا الاستيطان إلا بالتحول إلى زراعة الكروم. ورغم السكة الحديدية والمساعدة المستمرة للدولة والمحراث الذي يسمح بحرث عميق للأرض، انتهى أمر المستوطنين إلى الإفلاس. مما يؤكد أن مستوى الموارد المائية يختلف بالتأكيد، فقد كان الرومان يسقون 16,000 هكتار في سهل مينا، بينما لم يتمكن سلاح الهندسة الفرنسي من سقي سوى 8,000 هكتار باستعمال المنشآت القديمة التي أضيفت لها شبكة جديدة من القنوات سنة 1847. كما أن الغطاء النباتي كان بالتأكيد أكثر كثافة في الجبال في العهود القديمة، وكان الترسب وتراكم الطمي في المنشآت المائية أقل سرعة، ونسبة تخزين المياه أكبر. إلا أنه يجب الإقرار بأن محاصيل الحبوب كانت أقل تذبذبا. فتغير طفيف في نسبة التساقط في حيز 300 إلى 500 مم سنويا، أي عند حدود مردودية زراعة الحبوب المعتمدة على المطر، كان له أثر حاسم على ظروف العمران البشري. في الواقع، يمكن الإجابة على هذا الطرح بأن الظروف البشرية للاستعمار الروماني لا تشبه تلك

---

(1) Yacono, 1955, I, p. 186-187.

التي ميزت الاستعمار الفرنسي، فالمستوطنون الرومان كانت مطالبهم أقل من المستوطنين الفرنسيين وكانوا أقل حاجة للفائض الموجه للتصدير. غير أن أشجار الزيتون، من جهة أخرى، أقل تضررا بالتذبذب الكبير للأمطار، وخاصة بالسنوات العجاف، من زراعات الحبوب، لأن جني الزيتون تحدده الظروف السائدة خلال سنتين متتابعتين (سنة لنمو الأغصان وسنة للإثمار)، بينما لا يمكن تطبيق مبدأ متوسط الإنتاج على زراعات الحبوب التي تتأثر كثيرا بالظروف السنوية. هذا ما يجعلنا لا نستبعد أن تغيرات طفيفة في المناخ قد أثرت على المجال البشري وساهمت في إضعاف الأقاليم الحضرية الهامشية في وجه الغزوات البدوية، إلا أن عامل المناخ كان ثانويا.

4. كان تغير مستويات الحرارة أقل أهمية، فنسبة التساقط أهم في هذه البلاد الشبه الجافة، غير أن العوامل الحرارية تؤثر على توسع زراعة الأشجار المثمرة المتوسطية في الأراضي المرتفعة بدواخل المغرب العربي، كما يتضح من مقارنة الحدود القديمة والحالية لشجرة الزيتون، التي كانت أكبر زراعة في إفريقيا الرومانية، والتي لا يمكن أن تنتشر في مناطق تهبط فيها درجة الحرارة الدنيا السنوية خلال الشتاء إلى حوالي – 8 درجة مئوية. فشجرة الزيتون، كما يدل على ذلك توزيع آثار المعاصر، كانت خلال العهد الروماني منتشرة بكثرة في كامل الهضبة العليا التونسية وفي بلد النمامشة، حتى ارتفاع 1,200 متر على أقل تقدير[1]، بينما لا نجد لها اليوم أثرا في كامل الهضبة العليا التونسية والجزء الأكبر من الهضاب العليا القسنطينية والمنحدر الشمالي للأوراس والنمامشة، ولا توجد إلا في الأودية الدافئة المحمية في الأوراس وفي الأجزاء الأقل ارتفاعا غرب الهضاب العليا القسنطينية (سهول عريب وبني سليمان). ومن المؤكد أن هذا التراجع كان نتيجة العوامل البشرية وحدها، فمجمل الهضاب العليا القسنطينية تدخل اليوم في مجال زراعة شجرة

---

(1) Camps-Fabrer, 1953.

الزيتون[1]. غير أن تدهورا في المناخ ميزه تزايد البرودة القصوى في الشتاء، قد تسبب أيضا في تراجع شجرة الزيتون في الأودية الأكثر ارتفاعا، ويتعلق الأمر هنا على كل حال بمجال ضيق. هنا كذلك يبقى المشكل مطروحا، إلا أن التغيرات المحتملة لم تلعب سوى دورا ضئيلا مقارنة بالعوامل البشرية.

ب. الغزوات الهلالية وآثارها:

1. كان الإنسان هو السبب الرئيسي في هذه التحولات. ففي أواسط القرن الحادي عشر (1051-1052)، تعرض المغرب العربي لكارثة لم يشهد لها مثيلا عندما سلط عليه السلطان الفاطمي في القاهرة عشرات الآلاف من البدو العرب من قبائل بني هلال الذين ما فتئ أن تبعهم بنو سليم ومعقل، لتأديب بلد أصبح مستقلا. وقد توجهوا إلى إفريقية كالجراد يفسدون ويخربون كل ما وجدوه في طريقهم، حسب تعبير ابن خلدون الشهير[2]. وقد كان الأمر أدهى من الجراد لأن الغزو استمر لمدة[3]. وتعرضت الهضبة التونسية قبل غيرها لآثار هذا الغزو وخربت تماما. وكان تقدم الفوضى باتجاه الغرب بطيئا إلا أنه كان ثابتا. فلمدة طويلة لم تتجاوز القبائل العربية خطا يمتد من رأس بوقرعون إلى الحضنة[4]، ولم تجرأ على الولوج إلى وادي الصومام، ولم تصل إلى سهول الشلف إلا في حوالي النصف الأول من القرن الثالث عشر التي استقرت بها القبائل العربية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ولم يظهر البدو العرب بالمغرب الأقصى إلا في فترة متأخرة عن ذلك، حيث أن السلاطين الموحدين هم الذين أدخلوا الدودة في الجرح بترحيلهم القبائل العربية إلى سهول المغرب الأطلسي، بينما سيطرت قبائل معقل على منطقة

---

(1) Planhol et Tabuteau, 1956.

(2) Histoire des Berbères, I, p. 34.

(3) Despois, 1940, p. 178.

(4) G. Marçais, 1913, p. 163.

الواحات المغربية كلها منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر بعد أن تقدمت غربا عبر الهضاب الشبه الصحراوية، ولم تتمكن المجموعتان من الالتقاء بسبب حاجز الأطلس الأوسط، إلا أن "الصدأ البدوي" انتشر رغم هذا. وقد كان المغرب الأقصى لا يزال غنيا وكثير السكان عند اعتلاء المرينيين الحكم أواسط القرن الثالث عشر، قبل أن يغرق خلال القرون الثلاثة اللاحقة في الفوضى البدوية[1]. وفي الفترة التي كتب فيها الحسن الوزان (Léon L'Africain) كانت مدنه قد بلغت الحضيض، فقد كتب بخصوص مدينة المنصورة (بين الرباط والدار البيضاء) أنه يمكن إعادة إعمارها بسهولة، حيث يتوقف الأمر على إعادة بناء المنازل، إلا أن هؤلاء الوحوش من عرب تامسنة لا يريدون أن يتركوها تعمر من جديد لأنهم شريرون وظلمة[2]. وقد شكلت هذه القرون القليلة المنعرج الحاسم للتطور البشري لإفريقيا الشمالية.

2. كانت النتيجة المباشرة أو غير المباشرة تحول الجزء الأكبر من البلاد إلى حياة البداوة. ولم يكن هذا التحول في أكثر الأحوال بفعل القبائل العربية نفسها التي كان تعدادها قليلا نسبيا، وإنما نجم عن انعدام الأمن الذي أوجدته والذي سمح أيضا بتوسع البربر الرحل الذين ازدادت عدوانيتهم والذين تعربوا بسرعة، من جهة، بينما اضطر العديد من الحضر إلى التحول إلى حياة البداوة، من جهة أخرى.

هناك أمثلة كثيرة عن العملية الأولى، فالقبائل البربرية المنبوذة اضطرت إلى القيام بهجرات على مسافات طويلة. ففرقة من لواتة، وهي قبيلة بربرية من إفريقية، استقرت أولا جنوب تيارت، ثم طردها الزناتيون إلى منطقة جبل الناظور (الهضاب العليا الوهرانية)، قبل أن تستقر أخيرا في القرن الرابع عشر بجبل دراق بين العطاف ومليانة[3]. واستقطب الأطلس الأوسط والسهل

(1) Terrasse, 1949-50, I, p. 346-47; II, p. 17-27, 150-56.

(2) Trad. Epaulard, I, 161.

(3) G. Marçais, 1913, p. 597 ss.

الأوسط بالمغرب الأقصى، بمساحاتهما العشبية الشاسعة، أكثر من غيرهما، القبائل الرحل البربرية[1]، وتكونت فيهما الأحلاف الكبرى مثل حلف زمور الذي واصل تقدمه باتجاه المغرب الأطلسي حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث كان يقضي الشتاء في غابة معمورة بجوار الرباط[2]. وتؤكد طبيعة المنازل الأصل الصحراوي المتأخر لأغلب القبائل الشبه البدوية بالأطلس الأوسط[3]. وهناك دلائل أخرى كثيرة على الأصل الجنوبي لهذه القبائل، منها : تقدم القصور الصحراوية داخل حوض ملوية، وانتشار المنازل ذات السطوح رغم ثقل الثلج، والخيام رغم قسوة المناخ، وتيغرمت وهي عبارة عن بناءات مربعة كبيرة ذات أربعة أبراج تتوسطها باحة تنتشر في الأطلس الكبير ومنحدراته الجنوبية. ويؤكد تدهور السكن بفعل تقدم رحل الجنوب استعمال عبارة إغرام للدلالة على تجمع السكنات، وهي عبارة تتضمن فكرة الأسوار الحجرية، بينما كل هذه الأسوار اليوم مبنية بالطين المجفف. وتحتفظ كل جهات الهضبة الوسطى التي يجوبها رعاة زيان وسقوقو بآثار الأقاليم الزراعية القديمة وزراعات المدرجات وقنوات الري والقرى المندثرة[4].

و يجسد تحول الأطلس الصحراوي الجزائري إلى البداوة العملية الثانية (تحول الحضر إلى البداوة)[5]. فقد كان انتشار البدو سهلا في هذه الجبال المعزولة التي لا تتعدى في بعض الأحيان نتوءات صخرية في وسط الهضاب العليا، كان يسكنها بربر جبليون متشبثون بقصورهم مثل بني راشد في جبل عمور، والصحاري في جبال أولاد نائل. ومنذ القرنين الثالث عشر

(1) Célérier, 1927.

(2) Lesne, 1959.

(3) Laoust, 1930-32-34; Colin, 1938; Despois, 1949, p. 261-263.

(4) Célérier, 1943, p. 145.

(5) Despois, 1957 a; 1959 a.

والرابع عشر تعربوا وتحولوا إلى حياة البداوة تدريجيا، وهجروا أكثر قصورهم، فهناك حوالي أربعين قرية مهجورة في جبل عمور الذي انتشرت فيه شيئا فشيئا قبائل عمور التي استمد اسمه منها، وهم من أصول شرقية جزئيا طردوا من الجنوب واحتموا بالجبل. وفي جبال أولاد نائل تراجع الصحاري أمام قبائل صحراوية مختلفة إلى أن وصلوا شمالا إلى السلسلة الجبلية الصغيرة التي تحمل اسمهم. وخلال القرن السابع عشر تشكل حلف أولاد نائل حول ولي صالح أخذ عنه اسمه، واختلط هذا الحلف بسكان الجبل القدامى لتبدأ بذلك المرحلة الثانية من التحول إلى البداوة. وشهدت جبال القصور خلال القرن الثامن عشر تطورا مماثلا حيث تشكل حلف أولاد سيدي الشيخ. ويتميز نمط العيش بتمازج فريد بين عناصر مستمدة من السكان الجدد والوافدين، فقد تخلى بدو عمور الذين اختلطوا ببني راشد عن الجمال التي لا تقوى على العيش في هذا الجبل البارد والرطب عندما يتعذر قضاء الشتاء في الصحراء، وتبنوا الثور الحامل للأثقال كوسيلة نقل. واعتمد بدو آخرون البقر في تنقلاتهم طبقا لنمط عيش جبلي قديم، كما هو الحال بالنسبة لعشائر أغواط كسال في الجزء المجاور من جبال القصور وجماعة أبازيز في منطقة شارف وهي جماعة صغيرة من أولاد نائل[1]. ولم تحافظ القرى القديمة على طابعها إلا في جبال القصور، حيث احتفظت باللهجات البربرية، ويسود فيها فصل واضح بين القصوريين والبدو.

كما نجد أمثلة عديدة عن نفس التطور في الأطلس الكبير الكلسي، إذ يمكن الوقوف على كل مراحل التحول من الشلوح الحضر بالكتلة القديمة للأطلس الكبير الغربي إلى كبار البدو الصحراويين، مرورا بجماعات الشلوح التي تبنت الخيمة مع احتفاظها باقتصادها الزراعي، أو كبار البدو من البربر الذين يقتصر سكنهم على سكنات قديمة تغطيها حصائر النخيل أو الخيمة

(1) Despois, 1959 a, p. 406.

الجلدية العريقة السابقة لانتشار الخيمة السوداء[1].

3. كانت الكتل الجبلية الضخمة والمرتفعة أهم مراكز المقاومة حيث شكلت حواجز منيعة في وجه البدو العرب وجمالهم، مما أكد الدور القديم لأهالي الجبال في إفريقيا الشمالية فوق السهول الخاضعة للاستعمار الروماني، حيث ظلوا في معزل عن المد العربي وعن مشاريع السلطات السياسية الحضرية التي استعملت كل الوسائل المتاحة من قبيل الحملات التأديبية المؤقتة لإخضاع عالم القبائل البدوية المتحرك، إلا أنها لم تغامر إلا في حالات نادرة بالتوغل في المجال الجبلي. فقد كتب ابن خلدون أن بربر الجبال تمكنوا دوما من تفادي الإذلال المتمثل في دفع الضريبة[2].

و فوق الهضاب والصحاري تركزت المقاومة البربرية في القوس الشبه الصحراوي، أي الأطلس المضاد (Anti-Atlas) وجبال مطماطة وجبل نفوسة، وفي جبال السلاسل الأطلسية الأكثر ارتفاعا، أي الكتلة القديمة للأطلس الكبير الغربي والأوراس. ففي الوقت الذي لم تتمكن فيه المرتفعات المتوسطة الهزيلة التي تقطعها ممرات سهلية واسعة من تفادي انتشار البداوة، حافظت الكتل الكبرى بشكل شبه تام على نمط العيش القديم السائد في الجبال الجافة والمعتمد على الزراعة المروية داخل الأودية المهيأة في شكل مدرجات، وعلى الحياة الرعوية على مسافات قصيرة والمرتكزة على بيوت العزيب (سكنات صيفية مؤقتة) المقامة في المنحدرات الجبلية، والتي تتحول إلى نمط شبه بدوي في الشتاء في الاتجاه المعاكس نحو الأودية المنخفضة والسهول المحيطة، بينما كان مخزون الحبوب يتكدس في المطامر المحصنة (أغادير أو إغرام في الأطلس الكبير، القلعة في الأوراس، القصر أو تيميدلت

---

(1) Dresch, 1949 b, 1953.

(2) Ibn Khaldoun.

ذكره: Despois, 1953 a, p. 192.

في جبل نفوسة) المعلقة أحيانا في منحدرات الجبال، والمحفورة بداخلها أحيانا أخرى. وتجسد هذه الحضارة الريفية "الشبه الصحراوية"[1] حتى وقتنا الحاضر بقاء الأرضية البربرية القديمة التي لم تطلها تقلبات العصور الوسطى. وتنتمي منطقة الريف الشرقي لهذا الصنف بلهجاتها البربرية ومساكنها المنعزلة ذات السقوف المسطحة وزراعاتها في شكل مدرجات[2]، وهي بذلك نموذج تلي فريد لهذا الصنف الشبه الصحراوي، شهد تطور نواة سكانية قادرة على المقاومة لاحقا بسبب الهشاشة النسبية للغابة في وسط شبه جاف.

هذا ولا يجب فهم المقاومة بمعناها المطلق وإنما النسبي، فقد بين استطلاع أجري في الأطلس الكبير بين قبيلة سكساوة في وسط الجبل الشلحي أن قدوم سكان من الخارج، خاصة من الجنوب، لم يتوقف أبدا[3]. وفي الأوراس لم يعد هناك أثر لقبيلة الكاهنة، جراوة، مع حلول القرن الرابع عشر. ورغم بقاء بني عبد الواد السابقين على ما يبدو للفتح الإسلامي، وكذلك جماعتي لواتة وبن باديس في الغرب اللتين تتألفان من عناصر سكانية قديمة، فإن أغلب سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية للأوراس وفدوا بعد الغزو الهلالي[4]، على أن تسرب العناصر الوافدة تم بالتدريج بأعداد قليلة وفي وسط بشري متأصل ومستقر كانت قوة إدماج نمط عيشه حاسمة، وتتأكد استمراريته البشرية في كون اسم الأوراس هو اسم التضاريس الوحيد الذي بقي حيا في اللغة الشعبية منذ العهد الروماني (أوراسيوس مونس، Aurasius Mons).

كان التجدد السكاني كافيا في بعض الأحيان ليحدث تحولا لغويا بل تغيراً في نمط العيش نفسه. فالقوس الذي تشكله الجبال بتونس الجنوبية

---

(1) Despois, 1953 b; 1956; 1959 c.

(2) Mikesell, 1961.

(3) Berque, 1955, p. 63-74.

(4) G. Marçais, 1913, p. 632-633.

والبلاد الطرابلسية الذي يتكون من المسطح الصحراوي وجبال مطماطة وجبل نفوسة يعتبر مثالا على ذلك، فقد تشبث الحضر بشريط ضيق وساعدهم على المقاومة تميزهم الديني وانتماؤهم للمذهب الإباضي، غير أن التعريب كان شاملا ولم يستثن سوى الجزء الغربي للجبل الطرابلسي أي جبل نفوسة فيما تعربت كل الجهات الشرقية ومناطق مطماطة. وامتزج السكان بشكل كبير، واضطر عدد كبير من السكان إلى الهجرة في فترات الفوضى نحو البلاد التونسية وباقي بلاد المغرب. وتبين آثار القرى العديدة بجبل نفوسة النتائج المأسوية للغارات البدوية[1]، وكذلك الأمر بالنسبة لتغير مواقع القرى (عموديا غرب جبل نفوسة حيث تركزت القرى في مرتفعات الجبال؛ وأفقيا في الشرق حيث تراجعت القرى إلى خط القمم الجبلية)[2]. في مقابل ذلك لم يتغير نمط العيش القديم بشكل محسوس، فقد ظل أهالي نفوسة ومطماطة يمارسون زراعة الأشجار المثمرة الجبلية ولا يقومون برعي مواشيهم إلا على مسافات قصيرة في السهول والهضاب المجاورة (من فبراير إلى مايو، في فترة الحليب، بالنسبة للنفوسيين)، كما كانوا يكلفون رعاة أجانب برعي قطعانهم (كما هو الحال بالنسبة لمطماطة)[3]. ومما يؤكد قوة نمط عيشهم تحول الودارنة، وهم عرب رحل يعيشون بين ثمانية وعشرة أشهر تحت الخيمة[4]، تدريجيا واقترابهم شيئا فشيئا من النمط البشري لسكان الجبال الأكثر استقرارا. ولم

(1) يقصد بها غارات قبائل البربر القاطنة بالصحراء والمعروفة بالجيتول وضغطها على مجال الزراعة في أودية جبال الأطلس الصحراوي، خاصة منه الأوراس، طلبا للمراعي وبحثا عن أماكن وجود المياه، وقد ارتبطت هذه الحركة بعد الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب بتحرك زناتة نحو المناطق الشمالية والتي وجدت في زحف العشائر الهلالية في الفترة الإسلامية خير حليف لها في صراعها مع قبائل صنهاجة وأحلافها من القبائل المستقرة في المناطق الزراعية بالشمال (المترجم).

(2) Despois, 1935 a.

(3) Despois, 1935 a; Prost, 1954 a et b.

(4) Prost, 1954 a et b; Clarke, 1959.

يكن التحول إلى نمط البداوة كاملا إلا في أقصى شرق الجبل الطرابلسي، جبل ترهونة، الذي اختفت منه القرى تماما لتترك المجال للخيام[1].

4. في الوقت الذي تفادت فيه الغزوات الهلالية الكتل الجبلية ذات التواجد السكاني البربري القديم، أدت إلى ظهور نوع جديد من الجبال هي جبال اللجوء وإلى تحول عميق لمركز الثقل السكاني للبربر. فقد كان هذا المركز قبل تقلبات القرن الحادي عشر يقع في الجنوب أي في الجبال الأطلسية، حيث يوجد مركز المقاومة الأولى للفتح الإسلامي في الأوراس والتي حملت لواءها الكاهنة، أو في أقصى جنوب السلاسل التلية خلال القرنين العاشر والحادي عشر، كما يتبين من مواقع العواصم المتوالية للزيريين من صنهاجة الذين شكلوا أول أسرة حاكمة لبربر الشمال والتي أقيمت في المنحدرات الداخلية للتل، مثل أشير في التيطري (935)، وقلعة بني حماد في جبال الحضنة (1007)، قبل التراجع إلى مدينة بجاية الساحلية (1067). وقد كان مجال الحكم الزيري لا يزال مرتكزا على الطريق التي تمر جنوب كتلة القبائل الكبرى، وتربط بين سطيف وسور الغزلان والمدية. في هذا الوقت كانت السلاسل الجبلية الشمالية متأخرة باستثناء جنوب شرق القبائل الصغرى بين سطيف وجيجل وجبال البابور وقسنطينة، والتي يطلق عليها اسم قبائل الحضرة (أو قبائل المدن) والتي أوصلت فاطميي كتامة إلى الحكم خلال القرن العاشر. إلا أن الأمر يتعلق هنا بأطراف إقليم جبلي قريبة جدا من التأثيرات الحضارية لإقليم كان كثير العمران في العهد الروماني[2]. أما الجبال الساحلية فلم يكن لها تاريخ في إفريقيا الشمالية القديمة، حيث كانت القبائل الكبرى مجالا للكنكيجينتياني (Quinquegentiani) وهي فسيفساء من القبائل الصغيرة الضعيفة ذات التنظيم المعقد، وكذلك الشأن بالنسبة لقبائل جبال

---

(1) Brehony, 1960.

(2) أنظر: Gautier, 1927, p. 314-317.

البابور[1]. ورغم أن هذه الأقاليم لم تكن مقفرة من السكان إلا أنهم كانوا مبعثرين في فرجات الغابات ويعيشون حياة شبه متوحشة. وقد ترك لنا بروكوب (Procope) وصفا بليغا بشأنهم جاء فيه: "يسكنون شتاء وصيفا في أكواخ خانقة (يمكن استعمال عبارة قوربي الشائعة اليوم)، ينامون على الأرض، لا يعرفون الخبز ولا الخمر، ويأكلون الحب دون طهيه أو تحضيره مثلهم مثل البهائم"[2]. ولم يعرف هؤلاء السكان دولا منظمة فهم يشكلون "قبائل" كما يسميهم الكتاب العرب، كما أن أصولهم تظل محل جدل. هذا ولم تكن حياتهم تختلف عن المعلومات التي جمعتها نصوص أواسط القرن التاسع عشر[3]، حيث تقوم موارد عيشهم على زراعة متنقلة تعتمد على إشعال الحرائق في فرجات الغابات ونشاط رعي متواضع في الغابة، بالإضافة إلى استغلال وتحويل الخشب. كما كانت قرى هؤلاء السكان المعتمدين على قطع أشجار الغابة، تنتشر معزولة في الجبال الساحلية وتعيش في توازن مع وسطها بحيث لا تهدد الغابة. وفي بداية العصر الوسيط لم يتطور هذا البلد، فأقاليم بلاد القبائل، وخاصة القبائل الكبرى، ظلت كثيرة الأشجار وتزود تجارة خشب مهمة باتجاه تونس وحتى مصر انطلاقا من بجاية ودلس[4].

تغير هذا المشهد تماما مع الغزوات الهلالية، حيث لجأ سكان السهول التلية المجاورة شيئا فشيئا إلى القبائل الكبرى هربا من خراب البدو، فقد بقيت قبيلة مليكيش بمتيجة حتى بداية القرن الرابع عشر، واضطر العرب الثعالبة إلى دفع ضريبة لهم عند دخولهم إلى السهل خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، إلا أن مقاومة مليكيش انهارت في بداية القرن الرابع عشر واضطروا إلى اللجوء إلى جنوب الكتلة القبائلية حيث نجدهم اليوم في إقليم

(1) Courtois, p. 120.

(2) ذكره: Gautier, 1927, p. 317.

(3) Nouschi, 1959.

(4) Lombard, 1959.

بلدية آقبو[1]. وفي الوقت الذي كتب فيه ابن خلدون مقدمته في القرن الرابع عشر، كانت أهم قبائل منطقة القبائل الكبرى قد وجدت مكانها واتخذت أسماءها الحالية. وأصبحت هذه المنطقة مركز مقاومة بربرية ومنطقة تراكم بشري. وإذا كانت الكثافة الحالية (التي تبلغ عادة مئات من السكان في الكيلومتر المربع الواحد، 173 بالنسبة لدائرة تيزي وزو سنة 1954) تعبر عن النمو الديمغرافي المعاصر، فمن المؤكد أن عدد السكان بلغ مستويات معتبرة في وقت مبكر، وتدفق الفائض السكاني خارج الكتلة الجبلية المكتظة، في الوقت الذي شكل قطع الأشجار وتدهور التربة خطرا كبيرا على المجال. وهناك شواهد على الهجرة القبائلية إلى مدن الإيالة الجزائرية، وخاصة مدينة الجزائر، منذ القرن الثامن عشر، قبل الاحتلال الفرنسي. بالموازاة مع ذلك تبلور نمط السكن في القبائل الكبرى بقراه الكبيرة المقامة في قمم جبال جرجرة والتي نمت مكان أنماط السكن المنتشر والمجزأ في شكل قرى صغيرة[2] التي تمثل طبقات أقدم للتواجد البشري. هذا ويقوم نمط الاقتصاد على استغلال الأشجار المثمرة - أشجار الزيتون والتين - الذي يفوق زراعة الحبوب، ويؤكد التأقلم غير المكتمل للزراعة مع الحياة الجبلية الطابع الدخيل للسكان. وقد لوحظ[3] غياب زراعات المدرجات في هذا الجبل المكتظ بالسكان الذي تمارس فيه الزراعة على المنحدرات الشديدة. ولا يتعدى الأمر إضافات للتربة لرفع مستوى الأرض أسفل الأشجار المثمرة، فسكان القبائل الكبرى قدموا من سهول التل التي لا تتطلب إقامة المدرجات والري، كما لم يجلبوا معهم إلى هذه الجبال سوى التقنيات البدائية التي كاوا يعرفونها.

و إذا كانت القبائل الكبرى تعتبر نموذجا مكتملا فإنها ليست حالة

---

(1) G. Marçais, 1913, p. 604.

(2) للاطلاع على هذه الجوانب المتنوعة، أنظر: Larnaude, 1932.

(3) Despois, 1959; 1959 c.

معزولة. فبالرغم من أن أقاليم القبائل الشرقية الصغيرة تعربت بوتيرة متفاوتة ودخلتها القبائل البدوية، وأن منطقة الخمير وجبال موقود التي ظلت بربرية عموما حتى القرن الرابع عشر تعربت تماما فيما بعد[1]، فإن جبالا تلية أخرى تسودها كثافات سكانية عالية، وأغلبها بربري اللسان، مثل الريف الغربي (الذي تعرب)؛ وكتلة زرهون وهي المركز المتقدم للريف جنوبا والتي ساهم وجود ضريح مولاي إدريس فيها في تحولها إلى ملجأ بشري[2]؛ وكتلة بني سناسن الصغيرة شمال سهل وجدة التي آوت الكثير من اللاجئين خاصة من منطقة معسكر الجزائرية؛ وكتلة طرارة المجاورة في الأراضي الجزائرية والتي تعربت منذ أمد طويل والتي تشكل صورة مصغرة للقبائل الكبرى بأشجارها المثمرة وقراها وهجرة سكانها المؤقتة. وفوق متيجة الغربية وشرق شرشال ظلت كتلة شنوة الصغيرة بربرية بفرقها الموزعة على القمم والمنتظمة حسب خطوط الربط بين الأودية حيث يذكر التواجد البشري الكثيف فيها بالقبائل الكبرى[3]. وفي أماكن عديدة من جبال الظهرة والونشريس والأطلس البليدي التلية توجد جيوب تواجد بشري كثيف كما يدل على ذلك تركز الأشجار المثمرة في مواقع منيعة[4]، والذي يجسد صمود السكان المستقرين في مجالات تشهد مزيجا متميزا بين أنماط العيش الجبلية البربرية القديمة والعناصر الوافدة حديثا[5]. وأخيرا هناك ما يمكن تسميته بأقاليم قبائل الهضاب، وأفضل مثال عنها جبل وسلات في تونس الوسطى على بعد 35

---

(1) فيما يخص عملية تعريب السلاسل الجبلية في شمال شرق المغرب العربي، أنظر: Marçais, 1913, p. 657 ss.

(2) Dresch, 1930.

(3) Planhol, 1961 a, p. 57-59.

(4) على سبيل المثال في الضفة الشمالية لوادي المرجة في الأطلس البليدي، أنظر: Planhol, 1961 a, p. 44.

(5) لم تحظ هذه العناصر للأسف بتحليل كاف، على أنه يمكن الرجوع إلى: Carayol, 1944.

كلم غرب القيروان[1]، وهو عبارة عن جزيرة بربرية صغيرة في بلاد تونسية تعربت تماما، وقد بقي فيه فلاحون بربر حتى أواسط القرن الثامن عشر يسكنون قرى ومداشر معلقة وسط أراضيهم المهيأة بعناية ومدرجاتهم التي تغطيها أشجار الزيتون والتي لم تبق منها سوى الأطلال، بعد أن تم تفريق هؤلاء الجبليين الرافضين لدفع الضرائب وإخلاء الجبل من سكانه تماما من طرف جند باي تونس سنة 1762[2].

5. شكلت الجبال المنيعة أو جبال اللجوء أسس مقاومة البداوة، في الوقت الذي كانت فيه المقاومة محدودة إلى حد كبير في السهول التي لم تبق فيها سوى المدن المحاطة بالأسوار. كما أن قرى وتجمعات أقصى الجنوب أو القصور المعلقة في الأطلس الصحراوي أو الواحات الكبيرة المفتوحة كانت تعيش في تبعية كاملة لبدو السهول أو سكان الجبال المجاورة، فليس هناك ما يستحق الذكر في داخل البلاد، كما تشهد على ذلك القطيعة شبه المطلقة بين الحياة الحضرية في العهود القديمة والفترة الحديثة. ففي الجزائر الداخلية لم تنج سوى مدينة قسنطينة المعلقة فوق صخرتها المنيعة، ولم يبق خلافها أي مركز حضري ذو أهمية. وفي الجزائر الوسطى لم تتمكن مدينتا المدية ومليانة اللتين أسسهما الزيريون في القرن العاشر، من تجاوز فترات الفوضى إلا بفضل وقوع أولاهما على طريق مواصلات مهمة وتمتع ثانيهما بموقع منيع، إلا أنهما لم تكونا في واقع الأمر سوى تجمعين قبائليين صغيرين يطغى عليهما الطابع الجبلي، يمكن وصفهما بالقريتين وليس المدينتين. وفي الجزائر الغربية لم تبق سوى تلمسان عاصمة أسرة بني عبد

---

(1) Despois, 1959 b.

(2) يشير في ذلك إلى حملة علي باي بن حسين بن علي التركي (1759-1782) على جبل وسلات للقضاء على تمرد أحد أحفاد ابن عمه علي باشا الذي قضى عليه حسين بن علي وحكم تونس في فترة سابقة (1735-1756) (المترجم).

الواد ذات الطابع المغربي والبربري والمعتمدة على البربر الرحل[1].

لم يكن الوضع أحسن حالا بالمغرب الأقصى، فمن بين المدن المغربية المخزنية الأربع، التي يوجد بها قصر سلطاني، وهي فاس والرباط-سلا ومكناس ومراكش، كانت تسكن المدينتين الأخيرتين عائلات ذات أصول ريفية أساسا، ولم تكونا مركزين قديمين لحضارة عمرانية. وكانت المدن المعروفة بالمدن الحضرية، وهي فاس والرباط-سلا وتطوان وحدها مدنا بالمعنى الكامل للكلمة[2]، وكانت واحدة فقط من بينها تقع في الداخل وهي مدينة فاس. وقد سمح بهذه المقاومة تضافر فريد لعوامل مساعدة منها: الحفاظ على تقاليد عريقة في مجال زراعة الأشجار المثمرة غير بعيد من المدينة في تلال زرهون وتضاريس وليلي القريبة من الريف والواقعة على بعد كيلومترين من فوليبيليس (Volubilis) والتي اعتمد مولاي إدريس في البداية اسمها المشتق من التسمية القديمة؛ والموقع الرائع لمدينة فاس الواقعة قرب منابع الماء الغزيرة من النوع الفوكلوزي (Vauclusiennes) لوادي فاس الذي تخترق روافده الدائمة المدينة دون حاجة لأشغال تهيئة؛ وأخيرا قدوم قبائل أوربة الأوراسية ذات التقاليد الحضرية والتي ظلت منطوية على نفسها إلى ذلك الحين. كل هذه العوامل تفسر قيام مملكة فاس[3]. وقد جعلت هذه الظروف المساعدة، التي عززها الموقع الممتاز، من فاس قلب المغرب الأقصى المخزني إلى الأبد. ولم تكن عواصم الداخل الأخرى سوى انتشارا محتشما لهذه المدينة المتميزة. إلا أن حالة فاس فريدة من نوعها، فقد زال تماما أثر حضارة المدن في باقي دواخل المغرب العربي. وخلال القرون التي تلت الفترة الهلالية، لم تعد القيروان عاصمة الأغالبة الرائعة سوى قرية بائسة

(1) Gautier, 1927, p. 394, 397.

(2) Despois, 1949, p. 333.

(3) Gautier, 1927, p. 274-291.

وسوقا للبدو، أنقذتها مكانتها الدينية من الخراب التام، حيث كان من بين هؤلاء البرابرة أناس ورعون آثروا أن يدفنوا تحت ظلال مساجدها[1]. ولم يبق أي مركز عمراني في سهول الشلف التي زالت منها آخر المدن مع نهاية القرن الخامس عشر على الأرجح[2]، وفي نفس الفترة اختفت آخر المدن من سهول المغرب الأقصى الأطلسي.

هكذا انهارت الحياة الحضرية باستثناء بعض الحالات النادرة. ولم يكن الوضع كذلك في السواحل التي احتمت بها لقرون عدة حياة حضرية تركزت في مدن البحر التي كانت تعتمد على الجهاد البحري وتستمد أهم مواردها من البحر. ويعتبر هذا التوجه نحو البحر رد فعل مباشر على انتشار البداوة الهلالية، إذ أننا لا نجد ذكرا لإنجازات مجاهدي البحر قبل القرن الحادي عشر وحتى ذلك الوقت كانت مدن المغرب الأوسط مدنا تجارية مسالمة، ومن المحتمل أن مدينة بونة هي أول من مارست النشاط الجديد مع بداية القرن الحادي عشر[3]، وكانت هذه الحالة استثنائية، فقد تبين بشكل لا يدع مجالا للشك أن البربر لم يتحولوا إلى البحر المتوسط كمصدر عيش إلا بعد أن تعرضوا للضغط البدوي وطردوا باتجاه الساحل وحماهم من دواخل المغرب الأوسط حاجز جبلي مستعص على الغزاة. وفي هذه الفترة بالذات أصبحت بجاية التي أسست سنة 1067، مرفأ حرب وجهاد بحري كبير وآخر معقل لقوة الحماديين[4]، *فإذا لم يبتكر القرن الحادي عشر القرصنة البربرية (الجهاد البحري)، فإنه ساهم بشكل فريد في تطورها ومنحها مميزات مؤسسة

يوجد وصف مفصل للمدينة عشية الاستعمار في: Le Tourneau, 1949.

(1) Despois, 1940.

(2) Yacono, 1955, p. 200-201.

(3) El Bekri, 1969.

(4) Marçais, 1946, p. 215 ss; Marçais, 1955; cf. Golvin, 1957, p. 88, 124, 144-48.

(5) Golvin, 1957, p. 148.

حقيقية»[1].

ظلت مدن القراصنة معزولة عن بعضها البعض ولم يكن لها تأثير يذكر على أقاليمها الداخلية، بل لم يكن لها ضاحية تابعة لها، إذ ينعدم الأمن بمجرد الابتعاد عن الأسوار، كما هو حال سلا التي كانت حتى عشية الحرب العالمية الأولى تغلق أبوابها كل مساء لتحتمي خلف أسوارها[2]. كما أن كثافة المدن متغيرة بشكل كبير، وقبل الهجرة الأندلسية كان عددها قليل على ساحل المغرب الأقصى، في مواجهة مياه المحيط الصعبة والخطرة حيث كانت الحياة البحرية الأهلية متواضعة[3]. ولم توجد هذه المدن لقرون عديدة على سواحل برقة التي كانت الفريسة الأولى للقبائل الهلالية والتي تتميز عن غيرها بانتشار البداوة حتى الساحل، وانطفأت فيها آخر المدن الساحلية بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، بينما انتشر صغار البدو وكبارهم في ربوع الجبل الأخضر ونصبوا خيامهم فوق أطلال سيرين (Cyrène) (قورين أو الشحات) التي تحولت أضرحتها إلى ملاجئ أو إسطبلات تحت الأرض[4]، هذا وظل مركز صغير جدا قائما على أطلال برينيس (Bérénice) (بني غازي القديمة)، ولم تأسس بنغازي نهاية القرن الخامس عشر إلا بفضل هجرة قصدتها من طرابلس.

على العكس من ذلك كانت المدن من هذا النوع كثيرة العدد في تونس على الخصوص، وكان تأثيرها على الأقاليم المحيطة بها كبيرا. وتوجد أسباب تاريخية واضحة تفسر هذه الميزة، فالأمر يتعلق هنا ببلد حضري عريق، ظلت فيه بصمة الاستعمار القديم قائمة على مدى أكثر من خمسة عشر قرنا،

---

(1) Gautier, 1927, p. 412.

(2) Boucau, 1924.

(3) Despois, 1935 b.

(4) Brunschvig, 1940-47.

وزرعت فيه بذور الحياة العمرانية بقوة كبيرة. ولما اضطر خراب الهضاب وانحطاط مدينة القيروان الحفصيين إلى التحول إلى المنطقة الساحلية، اختاروا مدينة تونس على ضفاف لسان شبه بحري ليقيموا فيها مركز قوتهم (القرنان الثالث عشر والرابع عشر) ويؤسسوا الدولة الحضرية الوحيدة شرق المغرب العربي والممتدة من طرابلس إلى بجاية وقسنطينة في مواجهة مملكتي تلمسان والمغرب الأقصى التي كانتا تهيمنان على أقصى الغرب[1]. وضمن هذا الإطار شكلت المدن والقرى الساحلية تجمعات مترابطة قادرة على مقاومة البدو بشكل منسق، وكانت من أهم أشكال هذه المقاومة التي ارتسمت منذ القرن الثاني عشر في تونس الوسطى، لجوء سكان الهضاب إلى المدن الساحلية واحتمائهم بقلاعها المحصنة الموروثة غالبا عن الرباطات القديمة، وأهمها سوسة والمنستير والمهدية وصفاقس المعزولة في الجنوب. وأصبح هذا الثغر أو الليمس البحري الذي كان يواجه المسيحيين آخر خط تراجع للحياة الحضرية. ومن القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر تأسست قرى تجمع فيها البدو الذين حطوا الرحال حول أضرحة المرابطين، لتنشأ بذلك بين سوسة والمهدية منطقة ريفية حقيقية تغطيها بساتين الزيتون وحافظت على التقاليد القديمة لزراعة الأشجار المثمرة. وتجسد تميز هذه المنطقة في وجه الهضبة البدوية باعتماد تسمية الساحل - أي ساحل البحر[2].

هذا وقد تبلورت "سواحل" أخرى أقل قوة واتساعا في أماكن عديدة من الساحل التونسي، مثل الساحل الذي ارتسمت ملامحه في إطار الدولة الحفصية شرق رأس بون، والذي يؤكد استمرارية التواجد البشري فيه بقاء الأسماء القديمة للأماكن حيث تحولت كلوبيا (Clupea) إلى القليبية وكوروبيس (Curubis) إلى كربة ونيابوليس (Neapolis) إلى نابل. وتعزز هذا

(1) Despois, 1940, p. 183-191.

(2) Trad. Epaulard, II, 389.

الساحل بتأسيس الحفصيين لمدينة الحمامات المحصنة وإعادة بناء القليبية من طرف الأسبان بين 1535 و1547، على أن هذه النهضة ظلت متواضعة بما أن الحسن الوزان لا يذكر في بداية القرن السادس عشر أيا من المدن الثلاث المذكورة آنفا، ويصف الحمامات بأنها مدينة "يسكنها أناس بؤساء. كلهم صيادون وعمال على ظهر المراكب وتجار فحم ومنظفو أشرعة"[1]. على أن التطور كان سريعا لعدم وجود بدو يهددون على الدوام هذه السواحل. وتسكن دواخل رأس بون قبيلتان مرابطيتان بربريتان استقرتا هنا منذ 1228، في إطار الدولة الحفصية الخاضعة للتأثير الموحدي، وهما المعاوين والعطايات المعتمدتان على الفلاحة وحياة الاستقرار واللتين لهما تقاليد في زراعة الحبوب، وقد أسستا عدة زوايا في شمال شبه الجزيرة وإقليم التلال في الشرق[2]. على أن استعمال هؤلاء السكان للبعير في النقل والمنتشر اليوم في المنطقة بشكل واسع، يدل على النمط الجنوبي والشبه البدوي لمعيشة هؤلاء السكان المتميزين عن أصحاب البساتين في المنطقة الساحلية، غير أنه لا يوجد بين الصنفين فصل قائم على العدوانية كذلك الذي نجده في وسط تونس بين الساحل والهضبة السفلى. كما استمرت الحياة الزراعية بصعوبة كبيرة في سواحل طرابلس الغرب، حيث أن مدينة طرابلس، وهي مدينة جهاد بحري كبيرة، حمت وحافظت على ساحل ضيق، ظلت فيه اللغة البربرية حية بين أفراد قبيلة زوارة.

6. كما وجدت الحياة الحضرية في الجزر. ففي داخل خليج قابس، ارتفعت في جزيرة جربة كثافة السكان الحضر حتى فاقت في الفترة المعاصرة 100 نسمة في الكيلومتر المربع الواحد، وانفردت هذه الجزيرة بخصائصها

نلاحظ أيضا أن مدينة نابل الحديثة تبعد بأربع كيلومترات عن المدينة القديمة، لهذا لا يجب أن نعتبر استمرارية الأسماء كدليل قاطع على أهمية استمرارية الحياة الحضرية.

(1) Achenbach, 56-57.

(2) بخصوص جربة، أنظر: Tlatli, 1942; Delmas, 1952; Suter, 1960.

الإثنية أو الدينية: مثل انتشار المذهب الخارجي الذي يتبعه إلى حد الآن نصف السكان؛ واعتماد اللغة البربرية (حيث لا يزال ثلث السكان ينطقون بها)؛ وتواجد جماعات ريفية يهودية تقطن قريتين كبيرتين. وإذا ما استثنينا هاتين القريتين فإن نمط السكن موزع مما يؤكد الأمان الذي كانت تتمتع به الجزيرة والذي لا نجد له مثيلا في إفريقيا الشمالية. ويخضع استغلال الأرض لنظام دائري محكم (واحات النخيل قرب السواحل العقيمة والمعرضة للرياح؛ ثم منطقة الزياتين التي لا تصلح كثيرا للزراعة بالقرب من الساحل؛ وأخيرا في الداخل منطقة البساتين والكروم المروية بواسطة آبار يصل عمقها إلى مستوى المسطح المائي الجوفي). وبالإضافة إلى هذا النشاط الزراعي يمارس السكان الصيد (خاصة صيد الإسفنج)، وصناعة الخزف، ونسج الصوف (الذي يشغل اليد العاملة النسوية كلها)، لتشكل جربة أحد أقاليم المغرب العربي الأكثر نشاطا[1]. أما جزر قرقنة التي ظلت حتى القرن السادس عشر عرضة للأطماع الإسبانية والمسيحية والتي شهدت عدة حملات مدمرة، فيتركز فيها السكن في القرى وتمارس فيها زراعات أقل اتقانا أهمها واحات النخيل، بالإضافة إلى الصيد الذي يعتبر النشاط الرئيسي[2].

7. بعد فترة تقهقر الحياة الحضرية التي تلت الغزوات الهلالية، بدأ تشكل الهياكل السياسية التي تبلورت منذ فترة الوجود التركي والتي ستقتسم المغرب العربي بمكوناتها البشرية.

في أقصى الشرق تتميز تونس بالتباين الكبير بين تونس البحر والسواحل والجزر التي حافظت على أسس حضرية قوية وورثت الحضارة العمرانية والزراعية العريقة لإفريقية، من جهة، وبين تونس الداخلية التي تسود فيها البداوة والفوضى. هذا ما يجعل تقدم العالم المتحضر الذي يشكل أساس

---

(1) Despois, 1937 b; Louis, 1961-65.

(2) Despois, 1942 b.

الدولة التونسية وريثة الحفصيين يتم ببطء وبصعوبة باتجاه الداخل وإن كان يعتمد على قواعد متينة[1].

و في أقصى غرب المغرب العربي، قامت الدولة المغربية على مركز فاس الحضري والعمراني. وإن كانت مشاكلها تشبه ما نجده في تونس إلا أنها أكثر خطورة. فهي تواجه قبائل بدوية كبيرة وحركات عصيان جبلية مستعصية. كما أن التنظيم العام للأقاليم البشرية يختلف كثيرا، فليس هنا ما يشبه تقسيم الأراضي التونسية المنتظم إلى مناطق. فمغرب فاس المخزني وكأنه مغروس في كتل جبلية لا تخضع لسلطته، في الوقت الذي تعاني فيه مجالاته المختلفة من التجزئة وعدم التواصل، بحيث اضطرت الأسر الحاكمة المرينية والعلوية إلى اعتماد سياسة توازنات بين الزعماء المتنافسين وتركيبات سياسية متغيرة. ففي مثل هذه الظروف لا يمكن تصور فرض سيطرة كاملة.

و أخيرا، يطبع الجزائر في وسط المغرب العربي فراغ سياسي بين مناطق التأثير المغربية والتونسية، وقد تمكن الوجود التركي بالمدن الساحلية من ملأ هذا الفراغ بصعوبة. فالمغرب الأوسط شهد أكبر تقهقر للحياة الحضرية، في مناطق السهول على الأقل، بسبب تقدم الظروف الطبيعية الصحراوية نحو البحر المتوسط في هذه المناطق الوسطى أكثر من غيرها. هذا ما جعل تأثير الدولة ينحصر في قواعد معزولة عن بعضها البعض على ساحل طويل، ويكتفي بحملات باتجاه الداخل عديمة الجدوى وتفتقر للفاعلية. كل هذا يفسر بطء وهشاشة التطور الذي سبق الاحتلال الفرنسي.

جـ. عمليات الاسترداد الأولى والوضع السائد قبل الفترة الاستعمارية

1. رغم كل هذا أعطت هجرة اللاجئين الأندلسيين دفعة قوية لنمط شغل الأرض. وقد كانت أكثر موجاتها عددا تلك التي تلت سقوط غرناطة

(1) Brunot, 1920.

نهاية القرن الخامس عشر، إلا أن أهمها كانت آخرها التي حدثت بعد طرد الموريسكيين من إسبانيا سنة 1609، والتي انجر عنها استيطان ريفي في مناطق عدة. ففي المغرب الأقصى الذي لجأت إليه أعداد كبيرة من الأندلسيين، لم يسمح لهم الوسط البشري باستيطان حقيقي للأرض، واستقروا خاصة في المدن، ولم يكن تأثيرهم محسوسا سوى على الحياة البحرية، حيث شكلوا عنصرا مؤثرا في نشأة الجهاد البحري على السواحل الأطلسية للمغرب الأقصى التي كانت قليلة النشاط في هذا المجال. فمدينة سلا التي تأسست سنة 1610 بجانب الرباط على الضفة المقابلة من مصب وادي بورقراق تمثل نموذج تجمعات الصيادين ومجاهدي البحر، وكل شيء يتعلق بالنشاط البحري فيها يرتبط بالتقاليد الأندلسية[1]. وفي الجزائر كذلك كانت المدن الجديدة تقع ضمن نطاق تأثير المدينة الكبيرة، ففي طرفي متيجة، تعتبر البليدة التي أسست سنة 1535، والقليعة التي يعود تاريخ إنشائها إلى سنة 1550، نقطتا ارتكاز أساسيتين لهيمنة مدينة الجزائر على السهل. وفي إقليم برقة، أعاد الأندلسيون بناء مدينة درنة في القرن الخامس عشر لتكون المدينة الوحيدة الجديرة بالذكر إلى جانب مدينة بنغازي، وقد نظم بها أحد الحكام المحليين (البايات) الري في القرن السابع عشر، واستقر سكان طرابلسيون حول المركز الأندلسي[2].

هذا وكان دور الأندلسيين حاسما في تونس، حيث استقرت أعداد كبيرة منهم في المدن وخاصة مدينة تونس التي طوروا فيها بشكل ملحوظ بعض الحرف كصناعة الشاشية[3]، كما ساهموا كثيرا في تعزيز صفوف الحضر في السواحل الموجودة آنذاك، فإذا كان عددهم قليلا في ساحل تونس الوسطى، فإنهم عززوا المراكز الحضرية القديمة في ساحل شرق رأس بون بتسهيل اتصالاتها بين بعضها البعض وتقوية تماسكها. من جهة

(1) Despois, 1935 b, p. 41-42.

(2) Lathem, 1957, p. 242-45; Pennec, 1964, p. 26-28, 162-68.

(3) Lathem, 1957; Achenbach, p. 59-60 et carte p. 61.

أخرى، ظهرت مناطق فلاحية جديدة ارتبطت باستقرار الأندلسيين بها، ويتعلق الأمر بـ"ساحل بنزرت" الذي تشكل قراه شرق بنزرت وعلى جانبي جبل الناظور خطا مستمرا حتى الرفراف وبورتو فارينا. كما ساهمت المراكز العديدة التي أنشأت في حوض وادي مجردة من تبوربة إلى مجاز الباب وتستور في توسيع مجال تأثير البايليك على طول هذا الطريق الذي لعب دورا حاسما في التوغل نحو الداخل. وأخيرا، ربطت منطقة مدينة تونس بسواحل الشاطئ الشرقي بفضل المركز الكبير الذي ظهر في الطرف الغربي لرأس بون، من منزل بوزلفة وسليمان وبني خالد إلى قرمباليا[1]. في المجموع، استقبل أكثر من أربعين موقعا في شمال تونس الأندلسيين الذين غيروا صورة هذا البلد.

جلب الأندلسيون ما هو أهم من أعدادهم وأيديهم، فقد استقدموا معهم تقنيات زراعية متطورة وتقاليد الري المعروفة في الهويرتاس (huertas) الإسبانية، ومن المحتمل أنهم أدخلوا النبات الأمريكية التي تم توطينها مبكرا في إسبانيا (خاصة الذرة والطماطم وكذلك التين البربري – Opuntia ficus indica –[2] الذي يحتل مكانة مميزة في المشهد الريفي للشمال الإفريقي كحاجز بين الملكيات). كما ساهم الأندلسيون بشكل حاسم في تكثيف الزراعات في مراكز الزراعة التي كانت موجودة قبل توافدهم. ففي الجزائر أدخلوا زراعة الكروم المتقنة في شكل دوالي متراصة بإحكام وسط قطع أرض مسورة، والتي كانت تحيط بمدينتي معسكر ومليانة قبل فترة الاستعمار الفرنسي والتي تشهد على تقاليد زراعية عريقة تختلف كثيرا عن الدوالي المعلقة المعروفة وحدها في البساتين الإسلامية[3]. وحتى وإن لم يساهم الأندلسيون في إعادة تعمير المناطق التي تعرضت لخراب البدو، فإن دورهم

---

(1) Lathem, 1957, p. 232-42.

(2) Isnard, 1947, Livre II, p. 261-73 (la viticulture dans l'Algérie musulmane).

(3) Despois, 1940, p. 219-235.

كان حاسما في تعزيز وتوسيع مجال الحياة الحضرية في الأماكن التي ظلت هذه الحياة قائمة فيها.

2. كان من الطبيعي أن ترتسم عملية إعادة الانتشار الحضري في تونس قبل الاحتلال الفرنسي وذلك لتوفر الشروط المساعدة نسبيا على ذلك. فمن القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، تعزز التواجد البشري في ساحل تونس الوسطى بشكل خاص، حيث أنشأت فيه قرى جديدة ثانوية، بينما توسعت أهم قراه. وبدأ القرويون في اكتراء الأراضي المنتجة للحبوب في الهضبة السفلى المجاورة التي تسود فيها البدواة، وأصبحوا يرعون أغنامهم فيها، كما بدأت مدينة صفاقس البعيدة والمنعزلة في الخروج من أسوارها وظهرت حولها ضاحية من بساتين أشجار الزيتون (18,000 هكتار سنة 1880)، وعرفت الحياة الحضرية ازدهارا نسبيا[1].

و كانت عودة الحياة الحضرية أصعب في البلاد الطرابلسية، على أنها استفادت من نهضة التجارة العابرة للصحراء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في سياق التوغل التركي نحو الداخل، وانجر عن ذلك ازدهار منطقة الساحل الضيقة وإعادة انتشار جزئي لخط الواحات. وقبل الاحتلال الإيطالي، ارتسم خط مستمر من التجمعات العمرانية من زوارة إلى مصراتة مرورا بالعجيلات والزاوية وجنزور وطرابلس وتاجورة وحمص وزليتن. كان التوازن الذي يعكسه هذا الخط بين قوة انتشار البداوة وبين المقاومة الحضرية هشا، وكان من الممكن أن يتوسع مجال هذه التجمعات كما حدث مع الاحتلال الإيطالي. وحول الآبار التي يتراوح عمق الماء فيها بين 5 و15 مترا، تتداخل أشجار النخيل (عند حدود إنتاجها الشمالية) مع زراعة الشعير والبساتين والجنات على عمق يتراوح بين 10 و30 كيلومترا. على أن السكان كانوا يسكنون الخيام خلال فترة من السنة، وتوجد كل الحالات الانتقالية من أولئك

---

(1) Despois, 1945 a, p. 356.

الذين يتخذون من الخيمة سكنا طوال السنة إلى أولئك الذين يسكنوها من شهر يناير إلى شهر أبريل، خلال فصل الحليب، إلى أشباه البدو الحقيقيين الذين يقضون القسم الأكبر من السنة في الهضاب ويستخدمون عمالا زراعيين في الواحة، وهذا هو التباين بين القرويين الحقيقيين أو البلديين (الذين يهيمنون على واحة طرابلس-تاجورة دون سواها) والعربيين (العرب الرحل). كما تعبر عن هذا الاختلاف أنماط السكن، فمن جهة ينحصر الحضر القدامى في قلب الواحات، بينما يتركز البدو المستقرون حديثا في تجمعات على أطرافها[1] في امتزاج سكاني خارق للعادة[2]. ويختلف الساحل الطرابلسي عن الساحل التونسي لأنه يعبر عن توسع هش للحياة الحضرية، فهو شبه ساحل تخترقه حياة ومجتمع البداوة.

هذا ومن الصعب أن نقيم بدقة الحالة السائدة في باقي مناطق المغرب العربي التي لا نتوفر بشأنها على معلومات كافية تخص المناطق الداخلية. ففي المغرب الأقصى استمرت التقلبات القبلية إلى فترة متأخرة، وأفضل نموذج على ذلك منطقة الغرب[3]، التي لم تعرف تواجدا سكانيا كثيفا في العهود القديمة والعصور الوسطى، والتي جعلت منها ظروفها الطبيعية القاسية أرضا يسكنها المنبوذون والمرحلون بقرار من السلطان أو المهزومون، فبعد قبائل "المخزن" (سفيان وبني مالك الهلاليتين) التي استوطنهما السلاطين، توغلت قبيلة بني أحسن في هذه المنطقة نهاية القرن الثامن عشر تحت ضغط قبائل زمور. وفي بداية القرن التاسع عشر، استقرت قبيلة الشراردة الجنوبية الوافدة من إقليم الحوز والتي رحلت بدورها إلى منطقة الغرب بأمر سلطاني، ومنذ ذلك ظلت الأوضاع كما هي قبل حلول القرن العشرين.

---

(1) Bulugma, 1960.

(2) Le Coz, 1964, I, p. 235-59.

(3) يوجد وصف جيد لها في: Boyer, 1963, p. 139-146.

في مقابل ذلك لم تكن حوصلة الإدارة التركية بالجزائر سلبية فقط، رغم الطابع الشكلي لتحكم الأتراك في البلاد، خاصة تنظيمها من خلال بايليكات ثلاث : بايليك التيطري (المدية) في الوسط، بايليك قسنطينة في الشرق، وبايليك معسكر في الغرب، وتركزهم في مراسي مدن الجزائر وبجاية وعنابة، وتفاديهم التوغل في دواخلها إلا من خلال حملات جمع الضرائب السنوية المعروفة باسم المحلات[1]، واعتمادهم في الحكم على قبائل المخزن، رغم كل هذا فقد نجح الأتراك في إيجاد حد أدنى من الهيكلة الإدارية للبلاد، بواسطة شبكة مواصلات وحصون، حيث وجدت حصون تركية ومراكز استراحة بسهول الشلف تجتمع حولها عادة الخيام. وكانت هناك حركة بريد منتظمة بين مدينة الجزائر ووهران وبين معسكر والمدية والمناطق الساحلية[2]. وكان هذا المجال الذي تهيمن عليه قبائل المخزن متحضرا نسبيا، ويغطي أكبر جزء من سهول التل الغربي، والتيطري، والقسم الأكبر من الهضاب العليا القسنطينية، كما تحقق نوع من التوازن بين الحياة البدوية والحياة الحضرية. وعكس الأسطورة التي رسخت شيئا فشيئا بعد الاستعمار الفرنسي، الذي اعتبر لمدة طويلة أنها كانت فارغة من السكان، فإن السهول الجزائرية كانت مستغلة بشكل جيد نسبيا على العموم. ورغم أن نمط العيش المهيمن هو النمط الشبه البدوي وأن السكن الغالب هو الخيمة، إلا أن التنقل كان يتم على مسافات قصيرة جدا وعبر حقول مستغلة بانتظام، وكانت مواطن الشتاء التي تعمر خلال فصل الخريف وسط الزراعات، تهجر في فصل الربيع عندما تنمو المحاصيل، لتنتقل بذلك الخيام إلى الأراضي التي سيتم استغلالها في السنة التالية في إطار عملية إراحة للتربة على مدى سنتين، ولا يتم الرجوع إلى الأراضي التي هجرت إلا

---

(1) Yacono, 1955, I, p. 202-204, 231.

أنظر كذلك وصف حملة باي معسكر في الجنوب سنة 1785: Hattal, 1858-59.

(2) Ibid, p. 212-213.

بحلول موسم الحصاد، مما يسمح بتسميد الأراضي باستمرار في وقت مبكر ويعكس نظاما فعالا لإراحة التربة[1]. ويتطلب هذا النظام استعمالا مكثفا للأرض، فقد قدرت الكثافة السكانية بسهول الشلف سنة 1830 بـ 24 نسمة في الكيلومتر المربع مقابل 15 في الونشريس المجاور، فيما قدر عدد سكان الجزائر الإجمالي بحوالي ثلاثة ملايين[2]. ومما يؤكد كثافة زراعات الحبوب، أن سهول الشلف ومتيجة كانت تستعين خلال موسم الحصاد بيد عاملة مؤقتة قادمة من الجبال المجاورة[3]. وكان كبار البدو الوافدين من الجنوب يحصلون على حق الدخول إلى التل بعد الحصاد مقابل دفع ضريبة للبايليك، وووصلوا في بعض الأعوام حتى جبال الظهرة وساحل البحر قرب تنس، إلا أن قبولهم في التل كان يخضع إجمالا للمراقبة وكان هدفهم المشاركة في التجارة وتجهيز القوافل أكثر من البحث عن المراعي.

يصعب تقدير مدى تحقق هذا النوع من التوازن في تونس والمغرب الأقصى، إلا أن الجزء الأكبر من الهضاب التونسية كان يعيش هذا النوع من التوازن، التي وإن كان الأمن أقل استتبابا والزراعات أقل انتشارا فيها من بلاد المخزن الجزائرية وإن وجدت أوجه تشابه مبدئية بينهما، كما أن أعمال الفوضى الواسعة النطاق كانت أمرا استثنائيا[4] كما أن شمال المزيتا المغربية كان يشهد، من دون شك، أوضاعا مشابهة بفعل قربه النسبي من السلطة القائمة في فاس.

---

(1) Yacono, 1954.

(2) فيما يخص سهول الشلف، أنظر: Yacono, 1955, I, 214. وفيما يتعلق بمتيجة، أنظر: Trumelet, p. 82 الذي يصف حملة الأتراك ضد بني صالح في جبال الأطلس، وقد كانوا تلقوا أمرا للقيام بعملية الحصاد في مزارع كبرى في متيجة لكنهم رفضوه.

(3) Despois, 1940, p. 213-16.

(4) للإطلاع على حالة متيجة في 1830، أنظر: Isnard, 1949؛ وكذلك النصوص المجموعة بطريقة تفتقر للوضوح إلا أنها ذات فائدة في: E. et E. Sergent, p. 60-76.

كانت المناطق المجاورة لأهم التجمعات العمرانية تعرف حالة متميزة. ففي ساحل مدينة الجزائر ومتيجة كما في سهل مدينة عنابة، التي كانت تشكل ضواحي كبرى للمدن التركية، تبلور نمط سكن دائم في المزارع الكبرى التي يمتلكها أصحاب الجاه من الأتراك وحاشيتهم. فمتيجة المستغلة جيدا في جزئها الجنوبي خاصة، رغم المستنقعات المضرة في القسم الشمالي[1]، مثلها مثل ساحل مدينة الجزائر، عرفت تنظيما إداريا خاصا بها قائما على وحدة إقليمية هي "الوطن" الذي يشرف "قائد" على شؤونه، بينما تشكل القبيلة الوحدة الإدارية في باقي الأقاليم[2].

عرفت برقة نفسها وهي أكثر أقاليم بلاد المغرب العربي بداوة، نهضة محتشمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإلى جانب الزوايا السنوسية (أولها زواية البيضاء في قلب الجبل الأخضر) التي لم تؤد إلى نشوء تجمعات سكانية حقيقية، لعب التأثير التركي دورا في ظهور تجمعات مثل: المرج في مكان مدينة برقة القديمة (Barké) والذي تطور تحت حماية حصن دفاعي؛ ومرسى سوسة الذي نشأ على أنقاض مدينة أبولوني (Apollonie) في سياق هجرة مسلمي جزيرة كريت الفارين من التوسع اليوناني (1897)[3].

يتضح إجمالا أن التراجع الذي تلا الغزوات الهلالية كان قد عرف حده الأقصى في فترة سابقة بكثير للفترة السابقة للاستعمار. فقد حدثت نهضات حضرية محتشمة ومنحصرة في مناطق ضيقة، وبدأ تحول داخلي

---

(1) Boyer, p. 100.

(2) Despois, 1935 b, p. 42.

فيما يتعلق بالسنوسيين والتطور البشري المعاصر لإقليم برقة، أنظر: Evans-Pritchard, 1949.

(3) في متيجة على سبيل المثال (Isnard, 1949) حدد متوسط حصة الأسرة الجزائرية من الأرض بـ 6 هـ و5، أو 12 هـ. 5، أو 13 هـ.، أو 14 هـ، حسب القطاعات.

للبداوة نفسها. ففي الأقاليم الزراعية تراجعت البداوة الكبرى العدوانية والمخربة لتترك المجال لشبه بداوة أكثر استقرارا توفر مجالا فسيحا للحياة الزراعية في إطار وحدات إقليمية محددة، ومن المؤكد أن إفريقيا الشمالية كانت قد بدأت تشهد تطورا وإن كان محدودا، قبل التدخل الفرنسي أو الإيطالي. وتسارع هذا التطور بفعل الاستعمار الذي جعله أكثر تعقيدا.

3. آثار الاستعمار الأوربي

أ. الاستيطان الأوربي في السهول ونتائجه:

1. تميز الاستعمار الاستيطاني الأوربي الذي طبع إفريقيا الشمالية بالسيطرة على السهول والمنطقة التلية، واعتمد في بسط سيطرته على آليات قانونية مختلفة.

في الجزائر ورثت فرنسا البايليك وحقوقه النظرية الكبيرة في بلاد المخزن، واستحوذت بذلك على مساحات شاسعة من الأراضي، منذ المرحلة الأولى للاستعمار، واتبعت في ذلك سياسة تجميع السكان (cantonnement) التي لم تترك لأصحاب الأرض من الأهالي الشبه البدويين سوى حصة يتم تحديدها في ضوء حاجيات استغلال مستقر للأرض[1]، أي حسب كثافة عالية تسمح بتحرير باقي الأرض لصالح الاستيطان الاستعماري[2]. ومنذ إقرار نظام السناتوس كونسولت (Sénatus-Consulte) سنة 1863 الذي يحصر حق الانتفاع بالأرض في من يستغلها بشرط أن تكون محددة، تم تسهيل عملية تحويل ملكية السكان الجزائريين التي تم ترسيمها في نفس الوقت، وبذلك توسع

---

(1) يمكن الاطلاع على الخصائص الإقليمية لهذه السياسة في: Isnard, 1937, 1949; Tinthoin, 1947; Yacono, 1955-56.

(2) Despois, 1935 b, p. 52.

نطاق أراضي الاستعمار عن طريق عمليات الشراء.

في المغرب الأقصى وتونس الذين ظلت الأراضي تخضع فيها نظريا للتشريع الإسلامي، تم اعتماد نظام التسجيل (immatriculation) الذي سهل عمليات البيع والشراء التي أصبح يضمنها القانون الفرنسي، وبهذا توفر الإطار القانوني لاستيطان قائم فقط على شراء الأراضي (الاستعمار الخاص) أو على تقسيم الأراضي التي يتم شراؤها إلى حصص (الاستعمار الرسمي). وفي ليبيا ألحق مرسوم 1922 كل الأراضي غير المستغلة بالأملاك العامة، إلا إذا ما تم إثبات العكس، مما فسح المجال أمام الاستعمار[1].

كانت المساحة الإجمالية للأراضي التي تم الاستحواذ عليها بهذه الطرق المختلفة كبيرة، خاصة في الجزائر التي وضع الاستعمار فيها يده على أكثر من ثلاثة ملايين هكتار. وعشية الثورة الجزائرية، كانت المزارع الأوربية تغطي، رغم تراجع محدود، 2,700,000 هكتار أي حوالي 27من الأراضي الزراعية في الجزائر[2]، منها 1,600,000 هكتار مصدرها الاستعمار الرسمي وأكثر من مليون هكتار تدخل في إطار الاستعمار الخاص. ولم تكن مساحة الأراضي التي سيطر عليها الاستعمار في تونس أقل بكثير من وجهة النظر النسبية : 770,000 هكتار منها حوالي 400,000 في إطار الاستعمار الرسمي من مجموع حوالي 3,800,000 من الأراضي الزراعية[3]. أما المغرب الأقصى الذي دخله الاستعمار الفرنسي متأخرا، فلم تبلغ فيه المساحة الإجمالية لأراضي الاستعمار سوى 850,000 هكتار منها 275,000 هكتار في إطار الاستعمار الرسمي، أي أكثر بقليل من عشر الأراضي الزراعية (أكثر من سبعة ملايين هكتار)[4]. وفي إقليم طرابلس الغرب، شمل الاستعمار أكثر

---

(1) Isnard, 1958.

(2) Poncet, 1962 a.

(3) Gadille, 1957.

من 200,000 هكتار، أي أكثر من نصف المساحات المستغلة فعليا في إطار الزراعات الدائمة[1].

تركز الاستعمار الأوربي في السهول خاصة منها سهول المنطقة التلية. فقد شمل في الجزائر بشكل خاص السهول المنخفضة والعليا للتل الوهراني، والجهات الساحلية لمنطقة مدينة الجزائر (ساحل مدينة الجزائر : 85من الأراضي، ومتيجة : 59، وسهل مدينة عنابة. وكان الاستعمار متواجدا بقوة في سهول الشلف (56من الأراضي)، والتيطري، وفي القطاعات المحاذية للطريق الرابط بين سكيكدة وقسنطينة، ومنطقة سطيف، كما ضم جيوبا كبيرة في الهضاب العليا القسنطينية في شكل حقوق امتياز منحت لشركات كبرى،. وفي المناطق الواقعة جنوب الأطلس التلي، توسع الاستعمار في الهضاب العليا الوهرانية، خاصة في منطقة السرسو (أكثر من 50من الأراضي، الصالحة لزراعة الحبوب)، وجنوب جبال تلمسان. في المقابل تجاهل الاستعمار المناطق الجبلية، حيث اكتفى بحزام محيط بالقبائل الكبرى في حوضي وادي الصومام ووادي يسر وتوغل محتشم في الكتلة الجبلية عبر حوض وادي سباو في سياق عملية مصادرة الأراضي بعد ثورة 1871. وفي تونس، شمل الاستعمار سهول الشمال والشمال الشرقي ومنطقتي رأس بون ومدينة تونس في إطار استيطان إيطالي صغير، بالإضافة للمزارع الكبرى في الهضبة السفلى، خاصة في دواخل منطقة صفاقس. وفي المغرب الأقصى، تركز الاستعمار بشكل مماثل في الشمال : هضبة مكناس-فاس، والغرب، وإقليم الشاوية في دواخل منطقة الدار البيضاء، وتوغل في بعض الجهات نحو الجنوب حتى حدود الزراعة المطرية كما في جهات حوز مراكش وفي شكل بعض المراكز الكبرى المخصصة لزراعة الحمضيات المروية في منطقة السوس. وفي البلاد الطرابلسية، استحوذ الاستعمار على الأراضي الزراعية في سهل جفارة حول

---

(1) Fisher, 1953.

الواحات الساحلية القديمة. وفي برقة، توغل في المناطق الجبلية : هضبة برقة والجبل الأخضر.

داخل هذه المجالات الاستعمارية، ارتسم مشهد بشري جديد، يتكون من قرى في مناطق الاستعمار الرسمي في الجزائر (بلغ مجموع هذه القرى 975 ذات مخطط هندسي متغير : مستطيل، شطرنجي، في شكل حرف T، مقوس، وينتظم هذا المخطط دائما حول ساحة مركزية)، بينما نجد في الجهات الأخرى ضيعات معزولة. وقد ارتكز الاستعمار في بدايته على زراعة الحبوب خاصة منها القمح اللين، بينما كان الأهالي يزرعون الشعير والقمح الصلب، واعتمد في مرحلة لاحقة على زراعة الكروم، خاصة في الجزائر التي غطت فيها الكروم مساحة قصوى بلغت 410,000 هكتار سنة 1938 (50,000 هكتار في تونس و25,000 هكتار فقط في المغرب الأقصى)، ثم تحول، منذ 1920، إلى زراعة الخضر في الأراضي الرملية الساحلية حول مدن الجزائر ووهران وعنابة وخاصة في الساحل الأوسط للمغرب الأقصى شمال وجنوب الدار البيضاء، وطور أخيرا زراعة الحمضيات في كل من متيجة وسهل عنابة وسهول الشلف أو في الجهات الداخلية لمرسى ليوتي (Port Lyautey). وقد نتجت عن هذه التحولات أنماط مختلفة جدا من التركيبات الزراعية والاجتماعية. فقد ظلت الجهات الجنوبية عموما، أي السرسو[1] ومناطق الاستيطان في الهضاب العليا الوهرانية وكذلك الهضاب العليا القسنطينية مجالات لزراعة الحبوب الواسعة النطاق التي اتجهت أكثر فأكثر نحو التكتل ضمن مستغلات زراعية كبرى، وكذلك الأمر بالنسبة لسهول الشلف[2]. أما السهول المنخفضة الوهرانية فقد تحول الجزء الأكبر منها لزراعة الكروم التي شملت أيضا مناطق التلال والهضاب المنخفضة الساحلية في نفس الجهة (هضبة مستغانم التي تغطي الكروم فيها ثلثي الأراضي، وهضبتي وهران وعين

(1) Perrin, 1960-61.

(2) Yacono, 1955-56.

تموشنت التي تبلغ نسبة مساحة الكروم فيها الثلث). كما تغطي الكروم بين خمس وربع الأراضي في السهول العليا للتل الوهراني (سهل سيدي بلعباس، 24؛ حوض تلمسان، 10أو في التيطري (18أما السهول الساحلية مثل سهل مدينة عنابة وساحل مدينة الجزائر (الساحل ومتيجة) فهي مجالات لزراعة متنوعة مكثفة تجمع بين زراعة الحبوب والكروم والخضر والفواكه، مثلها مثل المساحات المروية في المناطق الوهرانية الجافة مثل سهل الهبرة أو المحمدية[1] وسهل مينا[2]، التي تكمل فيها زراعة العلف زراعات أخرى متنوعة جدا. وفي تونس والمغرب الأقصى، ظل الاستعمار الأوربي معتمدا أساسا على زراعة الحبوب باستثناء مناطق استعمار صغير طور زراعة الخضر، وهو استعمار إيطالي على الخصوص شمال تونس أو في بعض المزارع الكبرى لزراعة الأشجار المثمرة. أما في ليبيا فقد كانت الزراعة أكثر تنوعا، حيث جمعت بين الحبوب والأشجار المثمرة الجافة (الزيتون، اللوز، الكروم) في البلاد الطرابلسية، في الوقت الذي عرف فيه الجبل الأخضر توسعا في مجال تربية المواشي.

يختلف المشهد الزراعي المنبثق عن الاستعمار عن ذلك الذي ظل يطبع مناطق السهول التي تجمع فيها السكان الأصليون، فبينما عرف المجتمع الاستعماري تكتلا سريعا للمزارع وتراجعا في تواجد السكان في الريف، عانى السكان الريفيون الأصليون، في الفترات الأخيرة، بفعل الضغط الديمغرافي، من تجزئة كبيرة للأراضي التي اتخذت شكل حصص طولية ضيقة. ودون معرفة أنماط السكن، يكفي الإطلاع على صور فوتوغرافية جوية لتمييز مناطق الاستعمار الأوربي عن غيرها[3].

2. أثر التواجد الأوربي في السهول بشكل حاسم على التطور البشري

(1) Tinthoin, 1937.

(2) Tinthoin, 1954.

(3) Poncet, 1962 b; Despois, 1964.

المعاصر لإفريقيا الشمالية. ففي الشرق الأدنى لم تواجه عقبات كبيرة انتشار الجماعات الجبلية في السهول البحرية ولم تحد منه سوى ضرورة التعامل مع البدو، بينما رسمت الهيمنة الاستعمارية في شمال إفريقيا إطارا صارما للتطور، إذ حدت من إمكانيات الاستقرار في السهول وقننتها.

لهذا لم تسفر الهجرات الجبلية باتجاه السهول المجاورة في شمال إفريقيا على استقرار نهائي، وكانت في الواقع هجرات مؤقتة لليد العاملة نحو أراضي الاستعمار، أو هجرات نحو أقاليم بعيدة. فقد استعانت مناطق الاستعمار المعتمدة على الحبوب والكروم دوما على أعداد كبيرة من العمال المؤقتين في مواسم الحصاد والجني، فاستقطبت الجهة الوهرانية سكان جبال الشمال المغربي من أهالي منطقتي الريف الفرنسية والإسبانية ؛ واعتمدت متيجة في جزئها الشرقي خاصة وسهول عنابة وسكيكدة على القبائل ؛ وسهول الشلف على سكان جبال الظهرة والونشريس[1].

و يوجد تشابه بين الهجرات الجبلية وتلك القادمة من المناطق الشبه الصحراوية في الجنوب، والتي توجهت إلى أراضي التل المباركة وظلت هجرات عمل مؤقتة للقيام بأعمال الحصاد في متيجة، أو في شمال تونس التي قدرت فيه مؤخرا هجرات العمل من الهضبة إلى بلاد التل في سنة متوسطة شبه جافة ما بين 50,000 و60,000 شخص للقيام بالحصاد و20,000 لجني العنب، ويزداد عدد المهاجرين في السنوات العجاف[2].

كما تميزت المناطق الجنوبية بهجرات دائمة تتمثل في هجرة المحاربين المستخدمين في الجيش الفرنسي الذين كانوا يستقرون بعد انتهاء مدة خدمتهم في بلدهم الأصلي، كما جرت العادة حتى الاستقلال لدى شلوح الأطلس الكبير المغربي وأهالي واحاتي بوسعادة والجلفة جنوب الجزائر. كما يتعلق الأمر خاصة بهجرة تجار وأصحاب حرف صغيرة وبائعين

---

(1) Milliot, 1934; Larnaude, 1936.

(2) Clarke, 1952.

متنقلين، فقد مارس أهالي السوس التجارة المتنقلة في الأرياف المغربية، كما احتكر أتباع المذهب الإباضي في الجنوب من ميزابيين وجربيين ونفوسيين بعض أنواع التجارة في المدن، فالميزابيون كانوا بقالين في مدينة الجزائر ومدن التل الجزائري، ومارس الجربيون نفس النشاط في مدينة تونس، كما امتهن الميزابيون عددا كبيرا من الحرف الصغيرة في منطقة مدينة الجزائر وأهم مدن التل. وهناك ذكر للهجرة الميزابية منذ القرن الرابع عشر، حيث احتكرت أنشطة تجارية مختلفة بمدينة الجزائر منذ القرن الثامن عشر (الجزارون، الكناسون، مستخدمو الحمامات)، وقد تعاظمت هذه الهجرة بشكل كبير منذ بداية الاستعمار بسبب توسع المدن، حيث بلغت 5,000 مهاجر في السنة وأكثر من 50,000 مهاجر مستقر بمدن التل[1]. أما النفوسيون فقد كانوا خبازين وحمالين للخبز في مدينة تونس، كما كانت مدن الشمال التونسي دائما نقاط استقطاب للطرابلسيين على العموم.

نظرا لعدم تمكنهم من الاستقرار في السهول اختار كثير من أهالي الجبال المدن التي عرفت نموا سريعا بفعل الاستعمار، لا نجد له مثيلا في الشرق الأدنى، والتحقت بأهالي الجبال جماعات كبيرة من سكان الأرياف من مشارب مختلفة. هكذا عمر أهالي القبائل الأحياء الأهلية في حاضرة الجزائر وتجمعوا في القصبة على وجه الخصوص[2]، وأصبحت الأحياء المتقادمة في مراكز المدن (قصبة مدينة الجزائر، مدينة البليدة القديمة) تتمتع بقوة استقطاب بعيدة المدى وبمستويات مهنية عالية نسبيا أو مستقرة على أقل تقدير، رغم تكدس السكان فيها وضيق مجالها[3]. إلا أنه سرعان ما تشكلت في المدن الأحياء القصديرية الكبيرة التي تطبع النمو العمراني السريع لمدن شمال إفريقيا

(1) Vigourous, 1945.

(2) منذ 1926، أعطى ليسبس كثافة مذهلة بلغت 2,255 نسمة في الهكتار الواحد: Lespès, 1930, p. 523.

(3) Pelletier, 1959; Planhol, 1961 b.

وخاصة مدينة الجزائر[1]، التي بلغ عدد سكان الأحياء القصديرية فيها سنة 1955 حوالي 50,000 نسمة، وكان الأمر أكثر تفاقما في مدينة الدار البيضاء التي حازت على الرقم القياسي في هذا المجال بحيها القصديري بن مسيك الذي وصل عدد سكانه إلى 45,000 سنة 1950[2]، فيما بلغ مجمل سكان الأحياء القصديرية في الدار البيضاء اليوم حوالي 200,000 نسمة. هذا في الوقت الذي نمت فيه أحياء جديدة خاصة بالسكان الأصليين في ضواحي المدن، تبلور فيها نمط سكني بسيط جدا لا زالت تطبعه في بعض الأحيان خصائص شبه ريفية حتى أنه أطلقت على هذه الأحياء تسمية "القرى"[3]آوت الأحياء القصديرية أو القرى الأهلية سكان الأرياف القادمين من الأقاليم القريبة منها، وكان هؤلاء أقل تأهيلا من الفئة التي سبقتهم واستقرت رغم الصعوبات التي واجهتها في مراكز المدن. وقد نمت أحياء الضواحي وتوسعت إلى حد كبير خلال الثورة الجزائرية التي أحدثت هجرة كبيرة للسكان الفارين من المناطق المضطربة، هذا ولم تختف هذه الأحياء بعد جلاء الأوربيين وتحول مساكنهم للجزائريين بعد الاستقلال، وبلغ التوسع العمراني في أطراف مدن شمال إفريقيا مستويات لا مثيل لها في الشرق الأدنى رغم عدد السكان المتقارب.

أخيرا، فتح الاستعمار أبواب سوق العمل الضخمة والقريبة نسبيا في فرنسا. وإذا كانت أعداد المغاربة المهاجرين إلى فرنسا لم تتعد عشرات

(1) Pelletier, 1955, 1959.

(2) بخصوص مدينة الدار البيضاء، أنظر: Joly, 1948; A. Adam, 1949-50; 1950.

(3) راجع بالنسبة لمدينة وهران:

Lespès, 1938; Emsalem, 1950; Tinthoin, 1954; Coquery, 1962.

وفيما يتعلق بحالات أخرى، أنظر الكتابات التالية التي تتعرض للوضع في البلاد الجزائرية فقط:

Faidutti, 1961; Prenant, 1953, 1956; Descloitres et Reverdy, 1961.

وكذلك: Planhol, 1961 b.

الآلاف وكذلك الأمر بالنسبة للتونسيين، فإن عدد المهاجرين الجزائريين قدر سنة 1965 بـ 540,000 (منهم 280,000 من العمال المستقرين) (دون الأخذ بعين الاعتبار الجزائريين الذين اختاروا الجنسية الفرنسية)، مما يمثل قرابة ربع السكان الذكور البالغين سن العمل في الجزائر، أكثر من نصفهم من القبائل. ومع هيمنة منطقة القبائل على الهجرة الجزائرية إلى فرنسا لمدة طويلة بالإضافة إلى هجرة وافدة من الكتل الجبلية التلية مثل الظهرة والطرارة، فإن مناطق الهجرة نحو فرنسا توسعت بشكل كبير خاصة بعد الحرب العالمية الأولى لتشمل أقاليم الجنوب (منطقة بسكرة والزيبان)، والهضاب العليا القسنطينية، والأوراس، أي القطر الجزائري كله[1]. ويماثل حجم الهجرة بالنسبة لمنطقة القبائل حجم الهجرة اللبنانية، إلا أن قربها من موطنها الأصلي لم يؤد إلى قطع صلاتها معه كما حدث للهجرة اللبنانية، لتكرر السفر المنتظم ذهابا وإيابا. وإذا ما أخذنا في عين الاعتبار مجمل القطر الجزائري يتضح أن الهجرة الجزائرية فاقت إلى حد كبير الهجرة السورية اللبنانية.

3. إن الهجرات المؤقتة أو الدائمة، نحو المدن أو العابرة للمتوسط، غيرت مصائر جزء كبير من سكان الأرياف الذين لم يكتفوا بالانتشار في السهول التي احتكرها الاستعمار الأوربي الذي أحدث رغم ذلك في المناطق التي هيمن عليها موجات إعادة انتشار سكاني كبيرة وإن لم تكن مدهشة عموما، لأن هذا الانتشار خضع لأطر صارمة حددتها احتياجات الاستعمار أو الفراغات التي تركها.

أ. يوجد نوع أول لتعمير الأهالي للسهول الخاضعة للاستيطان يمكن وصفه بتعمير الشراكة، حيث تشكلت تجمعات للعمال بجوار المزارع، كما تكونت في القرى الاستعمارية أحياء فوضوية الشكل ومبنية بمواد هشة، هيمنت تدريجيا على المركز الأوربي القديم المبني بالمواد الصلبة وحسب

(1) لا توجد دراسة شاملة حديثة في هذا الموضوع، لهذا يتوجب الرجوع كتابين قديمين نسبيا وهما: Muraciole, 1950; Rager, 1950.

مخطط هندسي[1]. وقد كانت هذه الظاهرة مبكرة وبلغت حدها الأقصى والشامل في منطقة ساحل مدينة الجزائر، حيث تمت دراستها بشكل دقيق[2]. وفي الجزء الشرقي خاصة، أي شرق وادي مازافران، الذي تم إفراغه في البداية من سكانه الأصليين والذي كان الأوربيون يمتلكون فيه 83من الأراضي، أدى توسع زراعة الكروم إلى الاستعانة بعدد كبير من القبائل منذ 1875، وبسكان السهول العليا والأطلس التلي منذ 1920، وتشكلت فيه قرى قبائلية حقيقية مثل تيقصرين، وفي سنة 1948 كان يسكن قرية معالمة 615 فردا وافدين من بلدية عين بوسيف المختلطة (ثلثاهم قدموا بين سنتي 1936 و1948). وكانت نسبة القبائل تبلغ بين ثلث ونصف إجمالي السكان في بلديات هضبة الساحل، ولم يعد السكان القدامى يشكلون أكثر من النصف إلا في القرى القديمة الواقعة في السفح الجنوبي للهضبة. وشهدت مناطق تلية وساحلية عديدة نفس الظاهرة، حيث نشأت بفعل نزوح السكان المسلمين من الداخل إلى الجهات الساحلية مناطق سكانية كثيفة، يمكن أن نطلق عليها اسم "السواحل الجديدة"، غير أن الوجود الأوربي ظل يطبع البنيات العقارية، وتتكرر هذه الظاهرة في منطقة الدار البيضاء في المغرب الأقصى، وبعض مناطق الجهة الوهرانية، وسهل مورناق جنوب شرق مدينة تونس.

هذا وقد نشأت تجمعات منعزلة صغيرة للسكان المسلمين غير بعيد عن القرى والمزارع الأوربية، وارتبطت هذه التجمعات ذات الأنماط السكنية البسيطة بالعمل المأجور في الأراضي الأوربية، وازداد حجمها في الفترات المتأخرة من الاستعمار في سياق تراجع التواجد الأوربي في الريف والتكتل التدريجي للمزارع. ويطلق على هذه التجمعات عادة اسم "الدوار" وهي كلمة قبلية الأصل رغم أن السكان لم يعودوا يخضعون للأطر القبلية

(1) أنظر مخطط الشفة في: Planhol, 1961 a, fig. 10, p. 84.

(2) Isnard, 1936; Ananou, 1953-54.

ويجتمعون في الدوار رغم اختلاف أصولهم، وقد يكون الدوار بجوار القرية أو في عزلة تامة عنها، وقد يكون كفرا صغيرا أو تجمعا للمئات أو حتى الآلاف من السكان. وغالبا ما يكون موقعه غير مناسب في تلال عقيمة أو في مناطق لا تصلح كثيرا للزراعة، غير أنها تسمح بتربية أعداد صغيرة من المواشي وتطوير بعض الزراعات إضافة للموارد التي يوفرها العمل المأجور.

ب. هناك نوع ثان لاستقرار السكان في السهول يمكن تسميته بالسكن الهامشي، لا يرتبط بالشراكة المباشرة في إطار العمل في الأراضي الاستعمارية، ويتعلق الأمر هنا بتجمعات للسكان المسلمين في آخر الفراغات التي تركها الاستعمار ومجالات تجميع السكان الأصليين. ولم يجد الوافدون الجدد سوى الأراضي والمواقع الغير اللائقة من مستنقعات ومحار، غير أن هذا لم يمنع من توافد مهاجرين كثيرين خاصة من الجهات الجنوبية، المعروفين بالقبليين أو أهالي الجنوب الذين ينتشرون بكثرة في متيجة حتى في مجاري الأودية أو في أطراف الغابات التي يقرضونها شيئا فشيئا، واستقر بعضهم كعمال زراعيين في الأراضي التابعة للمسلمين، واستصلح بعضهم أراض غير صالحة للزراعة في منطقة مخروط تفريغ (cône de déjection) تشكل من ترسبات الأتربة التي تضعها الأودية على سفح الأطلس البليدي المتاخم لسهل متيجة، حيث أقاموا نمطا سكنيا مستقرا ومتطورا نسبيا[1].

جـ. أدت الأطر الاقتصادية والعقارية التي أوجدها الاستعمار في بعض الحالات إلى تشكل مناطق بشرية متجانسة يغلب عليها نمط الاستغلال المحلي. وأحسن مثال على ذلك هو الاستعمار الفرنسي-الصفاقسي، حيث منح حق الانتفاع في أراض عمومية كثيرة في دواخل إقليم صفاقس منذ 1890 بفضل الدعاية الذكية لبول بورد (Paul Bourde) الذي أثبت أن ازدهار البلاد في الفترة الرومانية يعود لزراعة الزيتون الجافة، وتم استصلاح المنطقة اعتمادا

(1) Planhol, 1961 a, p. 68-69.

على عقود مغارسة أساسا، يقوم بموجبها المغارسي المحلي باستصلاح وغرس أرض المالك، لتقسم الزيتون بينهما عند نضجها. وقد اتبع الكثير من السكان المحليين هذا النموذج، ففي المجموع لم يكن المستوطنون الأوربيون يمتلكون سوى سبع شجيرات زيتون غابة أشجار الزيتون الشاسعة (سبعة ملايين شجرة) التي غرست في الهضبة الصفاقسية وكانت بمثابة ساحل جديد يرتبط إلى حد ما بساحل سوسة القديم. على أن هذا النوع من الاستعمار لم يتبعه تواجد سكاني كبير، حيث بقي السكن محصورا ومنتشرا في منطقة البساتين المحيطة مباشرة بالمدينة، وانطلاقا منها ومن المدينة نفسها كان يتم الاعتناء ببساتين الزيتون البعيدة غالبا[1]. هذا وقد جذبت زراعة الكروم في المناطق الرملية لهضبة مستغانم سكانا أكثر، ونشأت بها اعتمادا على أنماط مشابهة للعمل الزراعي، زراعة كروم خاصة بالمسلمين.

كما أثرت إقامة مساحات مروية جديدة يستصلحها السكان المحليون على التواجد السكاني بشكل أكبر بكثير، غير أن هذا النوع من الإنجازات ظل محدودا ؛ ففي الجزائر التي استغلت الجزء الأكبر من المساحات المروية فيها الزراعة الأوربية، لم تتعد مساحتها 90,000 هكتار عشية الاستقلال ؛ وفي تونس يعرف مشروع استصلاح أراضي وادي مجردة الأسفل، الذي سيؤدي إلى إيجاد 70,000 هكتار مروي، تقدما بطيئا منذ سنة 1953[2]، وقد أقيمت قرى في هذه الأراضي ؛ على أن أهم الإنجازات تتركز في المغرب الأقصى، خاصة في مساحات تادلة (سد قصبة تادلة على وادي أم الربيع وسد بين الويدان على وادي العبيد)، التي شرع في استصلاحها منذ سنة 1930 وتجاوزت اليوم 100,000 هكتار. غير أن هذا التوسع في المساحات المروية لا يستقطب سوى جزءا صغيرا جدا من النمو الديمغرافي الطبيعي. وعكس الشرق الأدنى، لا زال الإنتاج الزراعي في شمال إفريقيا يعتمد أساسا على

---

(1) Despois, 1940, p. 405-447.

(2) Poncet, 1956; Mensching, 1962.

الزراعة المطرية وعلى أعمال التهيئة التقليدية التي تسمح باستغلال الموارد المائية في الوديان.

ب. التحولات الداخلية في حياة السكان المحليين:

1. كانت التأثيرات المباشرة للاستعمار على نمط العيش البدوي أكبر من غيرها. فقبل الاستعمار كان المشهد التقليدي في شمال إفريقيا معقدا بشكل فريد[1]، فهناك قبائل كبار البدو الذين يقومون بتنقلات منتظمة على مسافات طويلة وغالبا ما يقضون الشتاء في شمال الصحراء (سفوح الأطلس الصحراوي) والصيف في التل (على سبيل المثال قبيلتي سعيد عتبة والأرباع في الجزائر)، ويتنقلون أحيانا داخل الهضاب العليا فقط (بني غيل في المغرب الشرقي أو حميان في الهضاب العليا الوهرانية)؛ وهناك قبائل تتنقل على مسافات قصيرة في مجال محدود داخل مناطق متجانسة (مثل أغلب قبائل الهضاب العليا الوهرانية والسهول العليا القسنطينية، وقبائل الهضبة التونسية العليا والسفلى، أو الحوض الأسفل لوادي ملوية بالمغرب الأقصى)، أو بين سهل وجبل متجاورين (مثل بدو جبال الأطلس الصحراوي الجزائري، والأطلس الكبير الكلسي المغربي[2] أو الأطلس الأوسط[3].

في الجزائر بدأ تجميع البدو الصارم ضمن حدود معينة منذ القرن التاسع عشر[4]، ولم يعد يسمح لهم بدخول سهول الاستعمار في التل إلا في مجموعات صغيرة من العمال المصحوبين ببعض رؤوس الغنم، حسب ما تمليه حاجة المستوطنين الأوربيين وخارج أي إطار قبلي. وفي الهضاب العليا

---

(1) يوجد أحسن وصف لهذه الحالة في: Merner, 1937; Despois, 1949 b, p. 217-256.

(2) Dresch, 1949, 1953.

(3) Célérier, 1927.

(4) A. Bernard et Lacroix, 1906; Lehuraux, 1931, 1948.

الوهرانية نفسها تم وضع تنظيم زمني لتنقل البدو صيفا باتجاه الشمال في أطراف منطقة السرسو التي لا يسمح لقبيلتي عيد عتبة والأرباع بالدخول إليها إلا بعد جمع المحصول في النصف الثاني من شهر أغسطس. ومع اختلاف زمني بسبب تأخر الاستعمار فيها، عرفت المناطق الشمالية من تونس وسهول المزيتا المغربية نفس التطورات؛ ففي هذه الأخيرة، حصرت الحكومة المغربية تدريجيا رعي قطعان قبيلة زمور في جيوب صغيرة في غابة الفلين الكبيرة المعروفة بغابة معمورة والواقعة شمال الرباط، ثم منعت منعا باتا رعي الماعز فيها سنة 1939[1]، فاضطرت جماعات زمور إلى عكس حركة توسعها التقليدية نحو الشمال الغربي والتراجع إلى المرتفعات الغابية في الجنوب والجنوب الشرقي. وبالإضافة لضغط الاستعمار واجه البدو ضغط الفلاحين المسلمين المستقرين الذين أصبحوا يتوفرون على الأدوات القانونية التي تسمح لهم بالمقاومة، مما أدى إلى تعميم الحد من مجالات الرعي، الذي يشكل المرحلة الأولى لتحول البداوة في شمال إفريقيا. وقد أثر هذا الوضع بالخصوص على كبار البدو المتنقلين بانتظام على مسافات طويلة والذين كانوا يقضون الشتاء في سفوح الأطلس الصحراوي والصيف في التل. كما ساهمت الثورة الجزائرية بين 1954 و1962 في الحد من تنقلاتهم التي فرضت عليها حدود إدارية ملزمة، وقد استمر هذا الوضع بعد انتهاء الثورة.

سرعان ما تجسدت مرحلة التحول الثانية المتمثلة في الاستقرار التدريجي والتي مست على حد سواء كبار البدو المتنقلين بانتظام على مسافات طويلة، وأشباه البدو المتنقلين على مسافات قصيرة في الهضاب، وبدو جبال الأطلس الصحراوي. ويتم هذا التطور التدريجي على مستويات عديدة. ففي البداية ينشأ سكن مستقر قرب نقطة ماء أو أرض صالحة للزراعة، أو في الجبال قرب كهوف تستعمل عادة كإسطبلات في الشتاء، وتكون

(1) Lesne, 1959.

المساكن بسيطة في الغالب في شكل خيام وأكواخ (قوربي) أو حتى مخازن جماعية، وتتخذ أحيانا شكل بيوت مستطيلة مبنية بالمواد الصلبة مثل النمط المعروف بتيغرمت في الأطلس الأوسط والأطلس الكبير الكلسي، والأهم من ذلك هو التخلي عن الهجرات الجماعية. وقد بينت دراسة مراحل هذا التطور في المغرب الأقصى[1]، حيث لم يعد يرعى قطعان الماشية سوى الرعاة فقط، مما يشكل انتقالا إلى نمط شبه بدوي تنفصل فيه الأسرة عن القبيلة، أو إلى رعي متنقل بالمعنى الضيق للكلمة يعتمد على رعاة مأجورين يجمعون قطعان أسر عديدة أو يخدمون كبار الملاك. وفي بعض الحالات تم التخلي حتى عن التنقل الموسمي للقطعان الذي استبدل بعقود إيجار وهي عقود شراكة تمتد على مدة طويلة توضع القطعان بموجبها بين أيدي أهالي المناطق المستقبلة مقابل استفادتها من نصف نمو القطيع. كما جرت العادة كذلك على ترك القطعان باستمرار في مناطق بعيدة جدا إلى أنها أكثر رطوبة وتتوفر على موارد أكبر. وتترافق هذه التحولات دائما بتقلص محسوس في رؤوس الماشية، حيث انخفضت بالنسبة لقبيلة زمور من 700,000 رأس سنة 1925 إلى 400,000 سنة 1955، هذا بينما يبقى عدد البقر مستقرا ويرتفع عدد البغال والحمير المستعملة كوسائل نقل في الحياة الفلاحية. بالموازاة مع ذلك يتسع نطاق الزراعات، التي تتكون في البداية أساسا من الحبوب التي يليها ظهور البساتين، أو حتى الزياتين كما في الهضبة السفلى التونسية، ونمط أوبونتيا (opuntia) المغلق الذي ينشر الحياة في مشهد طبيعي أجرد. وحدثت تطورات من هذا القبيل خلال سنوات نصف القرن الأخير في كل مناطق البداوة المغاربية، في سهول المغرب الأطلسي[2]، وفي السهوب العليا جنوب الجهة الوهرانية، التي انتقلت فيها قبيلة حميان في وقت مبكر إلى نمط عيش شبه بدوي بعد أن كانت في الماضي من كبار البدو، بتأثير من الاستعمار الفرنسي،

---

(1) Ibid.

(2) Despois, 1949, p. 308-310.

عكس جيرانهم بني غيل في المغرب الأقصى[1]؛ ونفس التطورات شهدتها مناطق السهول العليا القسنطينية[2]، والهضبة التونسية العليا والسفلى[3]، وجفارة في البلاد الطرابلسية[4]. وكانت أغلب هذه التحولات عفوية، ولم تلعب الإدارة سوى دورا أسرع في تجسيدها، حيث أوجدت الكثير من نقاط التزود بالماء ووفرت قطع زراعية في الأراضي العمومية[5].

كما نلاحظ تراجعا سريعا للحياة الرعوية حتى لدى البدو الرافضين لحياة الاستقرار بسبب تقلص مجالات الرعي. فالسنوات العجاف تؤدي إلى خسائر في رؤوس الماشية من الصعب تعويضها. كما أنه توجد أمثلة عديدة عن تحول إلى حياة الاستقرار سببه الفقر، ولم يعد النمط الرعوي البحت قائما إلا بالنسبة لأقلية من البدو يعيشون تحت الخيام بصفة دائمة. وفي سنة 1962، في السهول العليا جنوب الجهة الوهرانية، بين جبلي الناظور وعمور، صرح 60من أرباب الأسر البدوية أنهم عمال يوميين يمارسون قطف الحلفاء. ولم يكن سوى خمس الرحل الفعليين يمتلكون المئات من رؤوس الماشية وهو العدد الضروري لضمان عيش الأسرة البدوية، أما الآخرون فقد تحولوا إلى رعاة مأجورين في خدمة كبار الملاك المستقرين، وكانوا يكملون موارد عيشهم بقطف الحلفاء في الشتاء أو بالعمل في الأراضي الزراعية خلال الصيف[6].

كل هذا يؤكد التطور السريع للبداوة، حيث يرجح أنه لم يبق في وقتنا

---

(1) Ibid, p. 237-39.

(2) Ibid, p. 305-307.

(3) Iibid, p. 241-45; Despois, 1940, p. 473-329.

(4) Clarke, 1960.

(5) توجد أمثلة عن ذلك في الهضبة السفلى التونسية في: Despois, 1940, p.. 541-505
فيما يخص الهضبة العليا، أنظر: Bessis et alii, 1956.

(6) Sivignon, 1963.

الحاضر بدو بالمعنى الكامل للكلمة، أي بدو يعيشون طوال السنة تحت الخيمة ولا يمارسون سوى الرعي، إلا في الإقليم المتاخم للصحراء في تونس. هذا ويعرف النمط الشبه البدوي التقليدي داخل السهوب العليا استقرارا أكبر بفضل توسع النشاطات الزراعية.

2. أما حياة الاستقرار التقليدية فلم تتغير كثيرا في المناطق التي لم ينتشر فيها الاستعمار بشكل كبير، على أن مساحتها ازدادت بسبب الضغط الديمغرافي المعاصر، فتوسعت الحقول على حساب المراعي. وهذا أهم تحول شهده نمط السكن إذ تراجعت الخيام إلى الحدود القصوى للزراعة المطرية الدائمة أي إلى السهوب الغير الصالحة للزراعة. وقد وضعت خرائط في هذا الشأن بالنسبة للجهة الوهرانية، على فترة تمتد من 1911 إلى 1936[1]، ففي 1911 كان مجال الخيام يمتد إلى سواحل البحر المتوسط، خاصة في المنطقة الواقعة غرب مدينة وهران وفي أقصى غرب جبال الظهرة، وتراجع هذا المجال في 1936 إلى حدود الهضاب العليا، واستبدلت الخيام ببيوت قارة في شكل أكواخ (قوربي) أو منازل مبنية بالمواد الصلبة. بالموازاة مع ذلك عرف السكن توزعا أكبر بفضل استتباب الأمن، ولم ينتكس مجرى هذا التطور أبدا في تونس والمغرب الأقصى.

أما الجزائر فقد عرفت خلال سنوات الثورة (1954-1962)، ثورة كاملة في ظروف شغل الأرض في اتجاه معاكس للتحولات المذكورة آنفا. ولم تكن هذه الظاهرة جديدة، فخلال فترة الغزو الفرنسي، عمل ضباط الشؤون الأهلية (officiers des Affaires Indigènes)، خاصة في التل الغربي، على تجميع القبائل الشبه بدوية في قرى مدمجة تسهل تأطير السكان وتحولهم إلى حياة الاستقرار، وفي هذا السياق تم إنشاء زمالات وهي قرى عسكرية أهلية، تعود أصولها إلى الأتراك وتضم مليشيات من الجند المزارعين. وكانت قرى

(1) Larnaude, 1937.

الفلاحين المدنيين أكثر عددا، فقد أنشأت المكاتب العربية (Bureaux Arabes) بين سنتي 1848 و1862، 79 قرية غرب التل على نمط القرى الأوربية لتلك الفترة، على أن أغلب هذه القرى لم تعمر، حيث هجرها سكانها وسرعان ما عادوا إلى العيش تحت الخيام. وظلت بعض هذه القرى قائمة لتكون نواة لقرى صغيرة من الأكواخ، إلا أن سكانها الأصليين عادة ما يرحلون عنها ليحل مكانهم سكان آخرون، مما ينجر عنه عدم استقرار للوجود السكاني في هذه القرى[1].

هذا وقد كان للثورة الجزائرية بين 1954 و1962 تأثير أكبر بكثير وأطول أمدا[2]، فقد شهدت سنواتها الأولى إعادة انتشار لسكان المناطق المضطربة في ضواحي المدن وأحيائها القصديرية. وبدأت عملية تحول السكن الريفي بشكل عفوي في السنوات الأولى للثورة مع إقامة شبكة كثيفة من نقاط المراقبة العسكرية في الأرياف، وجمع سكان الأرياف الفارين من انعدام الأمن حول النقاط القريبة منهم وكذلك بالقرب من الأراضي الزراعية. ومنذ 1957-1958، شجعت السلطة العسكرية هذا التوجه بعد أن عرقلته في البداية، لتعتمد في الأخير سياسة منسقة لتحويل السكن خاصة خلال سنوات 1958-1960. وتقوم هذه السياسة على صنفين رئيسيين : في الفترة الأولى تم اعتماد سياسة التجميع التي تمثلت في تحويل مركز ثقل السكان، حيث نزل سكان الجبال بكثافة ليتجمعوا حول المراكز العسكرية الواقعة غالبا في السفوح أو الأودية، وقد قدر متوسط نزول نطاق السكن في المناطق الجبلية بما يتراوح بين 200 و400 متر، رغم أن تنقل السكان نادرا ما يفوق 5 إلى 10 كيلومترات، فيما بقي جزء من المجال الريفي مفتوحا. في المرحلة الثانية من السياسة المنسقة تم التضييق على السكان بحيث استبدل السكن المنتشر بسكن مركز بجمع

---

(1) Yacono, 1953.

(2) توجد دراسة شاملة في: Planhol, 1960 b, 1961 c; Lesne, 1962.

و هناك دراسة تفصيلية لحالة إقليمية في: Planhol, 1961 a.

السكان في قرى مدمجة، من دون تغيير العلاقة بين الإنسان والأرض، فالقرية الجديدة تقع في قلب الأراضي الزراعية وليس هناك ما يضر بالتوازن العام للموارد. في المرحلة الأولى اختيرت مواقع لا تتناسب مع ضرورات الحياة الريفية، خاصة المواقع المعلقة في قمم التلال الصغيرة التي أقيمت فيها المراكز العسكرية لأسباب دفاعية، وعادة ما تفتقر هذه المواقع للماء وتطرح المشاكل التقليدية التي يواجهها السكن في القمم في المجال المتوسطي. أما في المرحلة الثانية، فقد وضعت دراسات لاختيار أنسب للمواقع، وكانت الغالبية العظمى من التجمعات تخضع لمخططات هندسية، في شكل شطرنجي أو أشكال منتظمة متنوعة، مع كثافة عالية جدا وفصل للملحقات الريفية (الإسطبلات) التي جعلت في إحدى أطراف القرية في معزل عن السكنات، وقد بنيت هذه الأخيرة في البداية بمواد مؤقتة ثم أعيد بناؤها تدريجيا بمواد صلبة. وبلغت هذه الحركية حجما مذهلا، ففي نهاية سنة 1961، قدر إجمالي السكان في المراكز الجديدة بـ 1,850,000 يتوزعون على 2,385 قرية جديدة، منها 1,281 قرية صنفت كقرى دائمة والباقي كقرى مؤقتة.

كانت النتائج الجغرافية لهذه التطورات حاسمة. وإن لم يغير التضييق على السكان الأرضية العامة للحياة الريفية، فإن هجر المناطق الجبلية التي تركت للغابة والرعي المتنقل على مسافات طويلة، والنزول العارم لسكان الجبال إلى الأودية والسهول، واستصلاح آخر الأراضي غير المزروعة وإعادة توزيع الأراضي في مناطق السفوح التي استقبلت الوافدين الجدد، كلها عوامل جنت منها الجزائر فجأة، على الأقل في المناطق المتوسطية الصالحة للزراعة، توزيعا لسكان الأرياف يتناسب مع الضرورات الطبيعية، بحيث أزيلت خلال خمس سنوات فقط آثار التاريخ وانتشار البداوة، التي كانت تتطلب إزالتها عقودا من الزمن إذا ما خضعت لحركة عفوية. ومما يشهد على أن هذا التطور طبيعي في حد ذاته، أن السكان لم يعودوا إلى الجبال بعد أن استرجعوا حرية تنقلهم بعد الاستقلال. وظلت أغلب المراكز الجديدة قائمة، ولم تهجر إلا

بسبب النزوح إلى المدن. هذا وتتمثل ضريبة هذه الظاهرة في ضرورة القيام بجهد تهيئة كبير، وتجميع عقاري، وغرس للأشجار المثمرة حول القرى الجديدة في السفوح، حيث يشكل حزام الأشجار المثمرة في منحدرات الجبال موردا أساسيا. ويبدو أن هذا الجهد ليس في متناول بلد أفقره نزوح الإطارات الأوربية. في نفس الوقت، طرحت تجمعات الجنوب، في الأجزاء الفقيرة من البلاد، مشاكل عويصة. وكانت النتائج الاجتماعية الناجمة عن تفكك البنيات التقليدية ذات أثر سلبي. هذا ومن السابق لأوانه التكهن بما إذا كانت الأرياف الجزائرية ستقدر على استيعاب تحول يحمل في طياته آفاقا واعدة وكذلك صعوبات جمة.



مختارات بيبليوغرافية

أ. الكتب الجغرافية العامة:

هناك كتاب (A. Bernard, 1937) الذي أصبح قديما اليوم. وتمثل دراسة (Dresch) في (Birot et Dresch, I, 1953) مدخلا جيدا غير أنه سريع. هذا وتهيمن على الدراسة البشرية لإفريقيا الشمالية إنجازات (J. Despois) الذي قدم عدة دراسات مهمة لحالات إقليمية (أنظر أسفله)، فضلا عن مقالات شاملة ممتازة (J. Despois, 1953 b, 1956, 1964)، كما أنجز كتابا أساسيا (J. Despois, 1949) (من منظور عام بحت). ويقدم (Isnard, 1966) دراسة مجددة، كما توجد دراسات جيدة عديدة تخص الأطر القطرية لشمال إفريقيا : بالنسبة لتونس (J. Despois, 1961 a)، والجزائر (Larnaude, 1950)، والمغرب الأقصى (Célérier, 1948 ; Martin et autres, 1964). وهناك وصف إقليمي مفصل وشامل في. (J. Despois et Raynal, 1966)

ب. أهم الدراسات الإقليمية:

ليبيا :.(J. Despois, 1935 a et b, 1945 ; FSL (Wilmott et Clarke, 1960)

تونس : (J. Despois, 1940 et 1942 b) وهو مقال مهم جدا، وكذلك (Bonniard, 1934) وهي دراسة متواضعة، و(Monchicourt, 1913) وهي دراسة مفيدة رغم قدمها. ذ

الجزائر : . (J. Despois, 1953 c, 1957 a ; Yacono, 1955-56)

المغرب الأقصى : هناك دراستان دسمتان حول كتلة الأطلس الكبير القديمة : (Dresch, 1941 ; Berque, 1955)، وكذلك (Lesne, 1959) الذي يقدم أفضل مونوغرافيا لجماعة بدوية في طريق الاستقرار، وكذلك (Le Coz, 1964; Mikesell, 1961).

جـ. المقاربات التاريخية :

يرسم (Courtois, 1955) أحسن صورة للمغرب العربي قبل الإسلام. وتوجد دراسة للتحولات الأنثروبولوجية والجغرافية التالية لانتشار الإسلام في كتاب موح رغم هشاشته أحيانا وهو كتاب .(Gautier, 1927) كما نجد عرضا للظروف التي أحاطت بعملية التعريب في الكتاب الأساسي لـ (G. Marçais, 1913). وهناك لوحات جزئية جيدة في .(Brunschvig, 1940-47; Golvin, 1957). هذا ويعتبر كتاب (Terrasse, 1949-50) ذي الطابع الجغرافي، أفضل عرض تاريخي خاص بقطر واحد. وأخيرا أنجز (Despois, 1961 b) دراسة شاملة.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الرابع

العالم العربي

جـ. الصحراء

تعتبر الصحراء الكبرى بطبيعتها مجالا مناسبا للبداوة التي سبقت انتشار الإسلام فيها. في مقابل ذلك قدر للحياة الحضرية في الصحراء أن تظل هشة ولم تزدهر فيها العناصر العمرانية التي طبعت الإسلام. تضافر هذان الاعتباران ليسفرا عن نتيجة غريبة تتمثل في أن دور الإسلام في تطور الحياة كان أقل تأثيرا في المجال الصحراوي المعرب تماما أو جزئيا منه في المجالات الجغرافية الأخرى.

1. بداوة ما قبل الإسلام في الصحراء وتأثير الإسلام

1. إن الظروف الدقيقة التي تحققت من خلالها هيمنة البداوة الكبرى ذات الطابع الحربي في الصحراء تظل مبهمة، إلا أنه من المؤكد أنها سبقت بكثير انتشار الإسلام وقدوم البدو العرب. هذا ونعرف على الأقل المراحل العامة لتطورها[1]، ففي البداية، كانت الصحراء في الزمن الحجري المتأخر (néolithique) أرضا زراعية بفضل آخر مراحل الحقبة الممطرة الاستوائية التي

(1) Capot-Rey, 1953, p. 75-101.

طبعها توسع الأمطار الموسمية نحو شمال إفريقيا الغربية والتي وافقت المستوى الحراري الأمثل (optimum xérothermique) للحقبة ما بعد الجليدية في المناطق المعتدلة[1]. بعدها عم الجفاف واستبدل السكان المستقرون من مزارعين وصيادين بشعوب من الرعاة الرحل الذين كانوا يصطادون الفيلة في بادئ الأمر، ثم تحولوا إلى تربية البقر، وأخيرا الخيول ثم الجمال، كما يبين ذلك تتابع الآثار المتوالية للنقوش الصخرية. وعلى الأرجح أن هذا التطور وصل إلى نهايته مع بداية العهد المسيحي، حيث انتشر الجمل في الصحراء خلال القرون الميلادية الأولى واحتل مكان الخيول والعربات التي ميزت الفترة السابقة، والتي امتدت تقريبا طوال الألفية الأولى قبل الميلاد والتي ميزتها حضارة الرعاة المحاربين. في الوقت نفسه، يبدو أن التحولات المناخية توقفت، بحيث لم تشهد الفترة التاريخية الممتدة على مدى الألفيتين الأخيرتين تحولا أحادي الاتجاه، ما عدا تغيرات طفيفة للتوازن الحالي. وقد تبلورت البداوة البربرية الكبرى في الصحراء قبل وصول الفاتحين العرب الأوائل إلى إفريقيا الشمالية وتقدمهم إلى عمقها.

2. كانت هذه البداوة البربرية أول من حمل راية الإسلام، وكان دور كبار البدو من البربر في تراجع الممالك الوثنية الزنجية عن الأطراف الجنوبية للصحراء أكثر أثرا من الفتوحات المتفرقة لأصحاب الرسول ﷺ. ففي الوقت الذي أسست فيه زناتة عددا من الدول الصغيرة المستقلة على الحدود الشمالية للصحراء، سيطرت صنهاجة، وهي مجموعة بربرية كبيرة أخرى، على وسط وغرب الصحراء، وانتزعت في القرن التاسع من زنوج سونينكي مدينة واداغوست في الحوض، والتي تعتبر رأس طرق القوافل، لتضطلع بهذا الدور بعد ذلك غانا في الجنوب الشرقي، قبل أن تسقط هي الأخرى سنة 1076 تحت ضربات المرابطين الذين حققوا لأول مرة وحدة الصحراء الغربية

---

(1) هذا في حالة اعتماد نظرية توازن المناطق المناخية لـ: Balout, 1952.

والمغرب العربي، من السنغال إلى البحر المتوسط. وقبل الإسلام، منذ القرن السابع الميلادي، وصل أول التوارق الرحل إلى منطقة العاير (Aïr)، التي استوطنوها شيئا فشيئا على حساب سكانها الأوائل من المزارعين السود[1].

3. استقرت المجموعات العربية، كما حدث في المغرب العربي، منذ نهاية القرن الحادي عشر وخاصة في سياق الغزوات الهلالية. هنا كذلك كان الانتشار العددي للعرب محدودا، إلا أنه أدى إلى تعريب جماعات بربرية عديدة. فقد تعربت قبائل الصحراء الشمالية بشكل شبه تام، باستثناء قبائل أقصى جنوب المغرب الأقصى التي احتمت بالمجال الجبلي الذي يشكله الأطلس والأطلس المضاد. كما انتشر التعريب من خلال موجة امتدت على طول الصحراء الأطلسية، من المغرب الأقصى إلى السنغال، ويتعلق الأمر هنا بطريق الحملات المغربية باتجاه بلدان حلقة نهر النيجر والتي كانت عنصرا حاسما في انتشار التعريب في موريتانيا كلها. هذا وبينما تعربت القبائل المعربة قبل غيرها في البلاد الطرابلسية والجنوب التونسي وجنوب إقليمي الجزائر وقسنطينة بشكل تام شمل اللغة والعادات في آن واحد، نلاحظ أن عملية الاندماج لم تكن كاملة في موريتانيا. وإلى جانب قبائل حسان المحاربة المنحدرة من غزاة معقل، تمكنت القبائل التابعة من استرجاع الجاه الذي فقدته على المستوى السياسي باضطلاعها بدور ديني، إذ تعتبر موريتانيا المجال المفضل لما يعرف بالقبائل المرابطية التي انتدبت نفسها للصلاة والدراسة، والتي تمكنت من إيجاد نمط حياة مادية منظمة وكثيفة بفضل تنازلها عن الموارد الضخمة التي توفرها الحرب، واحتفظ الكثير منها بمؤسسات بربرية تقوم على حكم الجماعة والانتساب للأم، كما هو الحال بالنسبة لحلف الرقيبات القواسم الكبير العدواني، الذي يشكل في الواقع نمطا

---

(1) Nicolaisen, 1962, p. 20-25.

وسطا بين المحاربين والمرابطين، فهم "رجال دين تحولوا إلى محاربين"[1].
ويوجد محور تعريب آخر أقل فعالية في الصحراء الشرقية على طول رواق النيل وعلى مقربة منه، وعبره وصل العرب الذين تسللوا إلى منطقة الساحل إلى حوض تشاد خاصة منذ القرن الخامس عشر، مرورا بكردفان ودارفور. ولا يستبعد حدوث هجرات عبر الصحراء من خلال طرق مباشرة، فقد قدم أولاد سليمان من البلاد الطرابلسية إلى بلاد تشاد في موجتين، موجة قديمة تزامنت مع توسع السيطرة الفعلية للإدارة التركية على فزان حوالي 1840، والثانية موجة جديدة في سياق الغزو الإيطالي في 1928-1930[2].

لم تتوقف الغزوات العربية أبدا، حيث استمر تسلل وتوسع بعض القبائل إلى أيامنا هذه. فقد انتقل أولاد بوسبع الذين نفاهم سلاطين المغرب الأقصى إلى موريتانيا عبر الطريق الأطلسية منذ حوالي قرن، وتمت هجرة بعض فرقهم منذ ربع قرن فقط[3]. أما قبيلة كونته المرابطية فقد غادرت شمال موريتانيا في بداية القرن الثامن عشر، وتوسعت تدريجيا خلال القرنين الماضيين بوسائل سلمية حتى حدود العاير، وهي تنتشر اليوم في كل الصحراء الغربية والجنوبية[4].

رغم أنها جاءت بعد أهم التطورات الحاسمة فإن آثار الغزوات العربية على تراجع الحياة الريفية الصحراوية كانت معتبرة، خاصة في الصحراء الشمالية. وتفسر هذه الغزوات وانعدام الأمن الذي تلاها المراحل الرئيسية لانحطاط إقليم فزان الذي اختفت منه في تلك الفترة القلاع المحصنة والفوقارات المنجزة بإتقان والتي ميزت الفترة السابقة، لتترك المجال لمساكن

---

(1) Capot-Rey, 1953, p. 182.

(2) بخصوص أولاد سليمان، أنظر: Le Rouvreur, 1962, p. 297-301 et 436-441.

(3) Capot-Rey, 1953, p. 192-93.

(4) Ibid, p. 193.

بسيطة وري يعتمد على الآبار[1]. وفي الصحراء الغربية، أدت غزوات معقل إلى اندثار القرى في منطقة تمتد إلى الأدرار والحوض. كما أدت أزمات الغلو الإسلامي مثل تلك التي تلت سقوط غرناطة إلى ارتكاب مجازر في حق يهود توات أو تفريقهم، مما أضر بواحات عديدة. وقد احتفظت ذاكرة السكان بذكريات عن تخريب أحد الحكام أو القادة كل واحات منطقة بشار في القرن التاسع الهجري[2].

كما أثرت الغزوات العربية على البدو البربر الذين لجؤوا إلى الجنوب. فرغم أن البربر وصلوا إلى منطقة العاير قبل الإسلام، إلا أن الغزوات الهلالية كانت السبب في أهم موجة بربرية باتجاه كتلة التوارق، حيث طردت القبائل العربية البربر من إقليمي طرابلس وفزان[3]. وامتدت حركة انتشار البداوة في الأطراف الجنوبية للصحراء حتى عشية الاحتلال الفرنسي. فجماعة دونزة في منطقة بوركو العليا كانت تتبع نمط عيش شبه بدوي وتمتلك بيوتا مبنية بالحجارة، وتحولت منذ القرن التاسع عشر فقط إلى بداوة حقيقية واعتمدت الخيمة سكنا لها[4].

مع أن البداوة الصحراوية سبقت الفاتحين العرب ورغم أن البربر هم الذين نشروا نمط العيش البدوي في الثغور الجنوبية للصحراء، فإن الغزوات العربية هي التي عززت الوجود العددي للبدو في الصحراء وعمقت من دون شك الآثار الناجمة عن انتشار البداوة. فقد عمق انتشار الإسلام توجها سابقا له وغير مرتبط به.

4. كانت آثار الغزوات العربية على المشهد البشري في الصحراء مهمة، فهي التي نشرت الخيمة السوداء المنسوجة بقطع القماش التي جلبها

---

(1) Despois, 1946, p. 55-61.

(2) Capot-Rey, 1953, p. 283.

(3) Nicolaisen, 1962, p. 21-22.

(4) Capot-Rey, 1961 a, p. 99-102.

العرب من الشرق الأدنى والمختلفة عن خيمة التوارق المصنوعة من جلود الحيوانات وعن الأكواخ النصف الكروية المعروفة المغطاة بالحصير التي تسكنها جماعات التوبو[1]. ولم تتبن الخيمة السوداء من بين التوارق سوى جماعة إيمنغاساتن التي تتنقل في شمال غرب فزان[2]. هذا ونلاحظ أن الخيمة السوداء التي تشكل رمزا ماديا للحياة العربية، لم تبق موجودة إلا في المناطق التي تفوق فيها الوافدون الجدد عدديا، ففي الصحراء الجنوبية الشرقية، خاصة في المنطقة التشادية، تخلت عنها القبائل العربية لصالح الأكواخ من نوع التوبو وحتى خيمة الجلود. كما تخلى عنها أولاد سليمان القدامى بعد أن ظلوا متمسكين بها حتى منتصف القرن التاسع عشر[3]، بينما لا يزال يستعملها أولاد سليمان الجدد الذين وفدوا منذ جيل فقط[4]. في مقابل ذلك، عمت الخيمة السوداء في سياق عملية التعريب كل الصحراء الشمالية والغربية.

هذا ويظل تأثير العرب على الحياة الحضرية محل نقاش، فهناك نظرية تقول بأن البيت المبني بالآجر والمغطى بسقف مسطح والمرتبط بالحضارة المادية للإسلام قد انتشر مع انتشار الإسلام في الصحراء[5]، بحيث سبقته في جزء كبير من الصحراء البيوت الحجرية، خاصة في الصحراء الشمالية، وفي الصحراء الجنوبية من أدرار وتاغيت غربا إلى أدرار الإفوغاس وإلى العاير والتبستي[6]. هذا وقد اتضحت هشاشة هذه النظرية، بما أن البيت الطيني ينتمي إلى تركيبة أقدم بكثير[7]، مرتبطة بالتأثيرات العابرة للصحراء التي سبقت

(1) Feilberg, 1944.

(2) Capot-Rey, 1953, p. 222.

(3) Nachtigal, 1879, II, p. 43 et 68; cf. Feilberg, 1944, p. 125.

(4) Le Rouvreur, 1962, p. 296.

(5) Capot-Rey, 1953, p. 232.

(6) Ibid, p. 233.

(7) Monod, 1946, chapitre XXIII, p. 175-180.

الإسلام. كما طرحت فكرة تحول أنماط السكن في الواحات، حيث اعتمد البيت المنخفض، الذي يدل على مجتمع قائم على المساواة والتواضع والبساطة، بمنطقة التوات في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع استقرار الأشراف الذين استقرّوا على حساب السكان الوثنيين، وحل هذا البيت مكان القلاع الحجرية المعلقة والمحصنة التي تعبر عن مجتمع ارستقراطي وعدواني، فالأمر قد يتعلق هنا باستيطان روحاني عربي(1). هذا وهناك فرضية تبدو أكثر واقعية، تفسر انتشار الواحات ذات المخطط الهندسي بالاستيطان العربي خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر(2).

كما كان التأثير العربي في المجال الزراعي محدودا، فالزراعات التي جلبها العرب لم تعرف ازدهارا كبيرا (أشجار البرتقال وزراعة القطن)، وبعضها تراجعت شيئا فشيئا بل اختفت بشكل شبه كلي (قصب السكر، الموز). ويرجح أن العرب طوروا زراعة النخيل التي كانت موجودة قبلهم في الواحات الشمالية كالجريد أو الزيبان حيث كانت تنتشر الكروم والزياتين في العهود القديمة(3). وفي مجال الري سبقت أغلب التقنيات، المعروفة بتسمياتها البربرية، قدوم العرب، الذين يرجع الفضل إليهم في إدخال نظام النورية وحده وهو عبارة عن ترس كبير يديره حيوان، غير أن هذه التقنية قليلة الاستعمال في الصحراء ولا توجد إلا في حافتها الشمالية في تافلالت في الجنوب المغربي، وفي وادي ريغ، وفي البلاد الطرابلسية(4). ويحوم شك كبير بخصوص نشر العرب لنظام الفوقارات الذي لا يوجد إلا في النصف الشمالي من الصحراء، رغم أن العرف يقر بأنه جاء مع تأثيرات شرقية في العصر الوسيط. هذا ومن المؤكد أن أصول الفوقارات توجد في الشرق الأدنى، إلا

---

(1) Gautier, 1908, p. 261; cf. Capot-Rey, 1953, p. 232-33.

(2) Capot-Rey, 1953, p. 233.

(3) Ibid, p. 195.

(4) Ibid, p. 195-96, 323-24.

أن انتشارها في الصحراء سابق للإسلام من دون شك. من جانب آخر، من المرجح أن انتشار البداوة ساهم في اعتماد الآبار التي تستعمل فيها الجرارات أو قوة الحيوانات والتي حلت مكان الآبار القديمة المعتمدة على قوة الإنسان والتي تواصل تقدمها باتجاه الجنوب[1]. عموما يتبين أن العناصر الأساسية لحضارة الاستقرار في الصحراء، بشقيها الريفي والحضري، سابقة للإسلام الذي لم يسهم فيها إلا من خلال بعض التفاصيل.

5. ما مدى مساهمة الإسلام في تشكل مجموعات ثقافية كبرى غير عربية في الصحراء الوسطى، أي التوارق والتوبو؟ إن الإجابة عن هذا السؤال صعبة للغاية. على أن الدراسات الإثنولوجية الشاملة التي خصصت مؤخرا لهاتين المجموعتين تسمح بوضع استنتاجات مؤقتة. ففي عالم التوارق يمكن تصنيف السكان[2] إلى طبقتين أساسيتين، أولها تتألف من السكان القدامى رعاة الماعز، وثانيهما طبقة حديثة تتكون من كبار البدو المعتمدين على الجمال، والتي اندمجت مع الطبقة الأولى مع إدخال الجمل إلى الصحراء، وطغت الطبقة الثانية على الأولى من دون أن تمحوها تماما. ويظهر التباين بين الطبقتين في البنية الاجتماعية المعقدة لمجتمع التوارق بنبلائه وأتباعه، كما يجسده التعارض الاقتصادي الذي لا يزال قائما إلى الآن بين أصحاب الجمال ورعاة الماعز والذي لا يمكن تبينه من خلال دراسة المحيط. مما لا شك فيه أن هذا التراكم سبق الإسلام، ويعكس تقدم البداوة الكبرى المعتمدة على الجمل في الصحراء، غير أن عناصر عربية وإسلامية اندمجت فيما بعد وجلبت معها خصائص مادية واجتماعية عديدة (مثل استبدال النظام القديم القائم على الانتساب للأم بنظام الانتساب إلى الأب لدى توارق الجنوب، أي العاير والسودان، بينما ظل هذا النظام سائدا لدى توارق الهقار الذين يعيشون في عزلة والذين لم تسمح العلاقات الاقتصادية الصارمة بينهم بحدوث هذا

(1) Ibid, p. 322.

(2) Nicolaisen, 1954, 1959, 1962, 1963.

التحول البنيوي الذي كان ممكنا لدى توارق الجنوب الذين كان نبلاؤهم يعيشون نوعا من الاستقلالية تجاه أتباعهم[1]، وجلب العرب كذلك خصائص روحية ثقافية وبنيات سياسية جديدة، من قبيل سلطنة العاير التي لعبت دور الحكم بين جماعات التوارق المختلفة انطلاقا من مركزها بأغادس، والتي تأسست في بداية القرن السادس عشر. ورغم أن عالم التوارق لم يتعرب لأنه احتمى بوسط الصحراء القاسي الذي كان ملجأ له، فإنه لم يكن منغلقا تماما في وجه الإسلام الذي أثر فيه على مستويات أخلاقية وتشريعية عدة.

هذا ونجد صعوبة أكبر في تحليل وضع التوبو بالنظر إلى معارفنا الحالية[2]. وهناك اتفاق عام اليوم للبحث عن المكون الرئيسي لمخزونهم الأنثروبولوجي في عرق أسمر (لا أبيض ولا أسود) سكن قبل غيره الصحراء الجنوبية، وهو نفسه الذي ترك آثارا في السكان العبيد المستقرين في الواحات المعروفين بالحراثين ذوي السحنة الداكنة، وكذلك في فزان[3]، والذين ينتمون من وجهة النظر اللغوية لمجموعات العالم الأسود الممتد بين النيل وتشاد. ومن المرجح أن سكانا قريبين منهم توسعوا باتجاه الشمال في الصحراء الليبية وفزان، قبل أن يتراجعوا نحو الجنوب تحت ضغط الغزوات العربية. وهناك احتمال كبير أن أصل جماعات تيدا المعتمدة على الجمال يرتبط بهؤلاء السكان الوافدين من الشمال. ويوجد عنصر أساسي آخر تشكله جماعات الدازا الذين كانوا يمارسون في الأصل تربية البقر ووفدوا بلا شك من مناطق الأدغال والبراري الجنوبية ربما في سياق تحول مناخي رطب سمح بهذا التوسع نحو الشمال خلال الفترة الممتدة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، وهذا ما يفسر كذلك دخولهم إلى التبستي الذي اضطروا إلى مغادرته

(1) Nicolaisen, 1963, p. 476-78.

(2) Chapelle, 1957; Kronenberg, 1958.

(3) Capot-Rey, 1953, p. 168-75.

بفعل تحول مناخي جاف[1]، فالتبستي مجال جذب وطرد[2] لعب دورا حاسما في هذا التبلور الإثني الذي يرجح أن مراحله الحاسمة لم تسبق فترة القرنين الخامس عشر والسابع عشر[3]. هذا وقد شكلت العناصر العربية نسبة لا يستهان بها في هذه البوتقة، ويسود اعتقاد بأن جماعات عرنة، ذات الأصول العربية حسب العرف المحلي، هي التي أدخلت الجمل إلى التبستي[4]، وإن كان الأصل العربي لهذه الجماعات يبقى محل شك.

على كل حال يلاحظ الدارس للجغرافيا أن كتلة التبستي الجبلية شكلت محور مقاومة التوبو للعناصر العربية التي تحاصرها من الشمال والشرق والجنوب. فقد أكد التوبو تميزهم وحافظوا عليه بالارتكاز على هذه المنطقة الصعبة، رغم التأثير البشري والثقافي العربي، ورغم وجود أمثلة لاندماج جماعات منهم في الجماعات العربية التشادية في الفترة المعاصرة[5]. رغم كل هذا يمكن إلحاق تبلور كتلة التوبو بالمقاومة الجبلية لانتشار الإسلام، حيث تأخر دخول التوبو في الإسلام إلى القرن التاسع عشر وتحقق بفضل الدعوة السنوسية أساسا، ولا يزال إسلامهم سطحيا[6].



2. نحو توازن جديد

1. يتبين أن التوازن البشري في الصحراء الذي تطبعه بداوة سابقة للإسلام، يتوفر على قدرة كبيرة على المقاومة ولم يعرف تغييرا يذكر قبل

(1) D'Arbaumont, 1954.

(2) Chapelle, p. 41 ss.

(3) Kronenberg, p. 140-42.

(4) Ibid, p. 83-85, 109.

(5) Le Rouvreur, 1962, p. 295-96.

(6) Kronenberg, p. 99-124.

التوسع الاستعماري الفرنسي والإيطالي في القرن العشرين. فبينما شهدت البلاد الحضرية في الشرق الأدنى وشمال إفريقيا بداية نهضة حتى قبل التدخل الأوربي، فإن الصحراء ظلت في منأى عن هذا التقدم في غياب دول منظمة بها.

هذا لا يعني أن الصحراء لم تعرف مظاهر الاستقرار وتشكل الواحات وتعمير الأرض، ففي هذا الإطار يجب أن نستثني تعمير الصحراء الشمالية من طرف الإباضيين الذين يعتبرون مذهبا صحراويا بحتا. وقد تبين[1] أن المذهب الخارجي في عمومه القائم على قاعدة بربرية ديمقراطية بدوية زناتية والذي يعتبر رد فعل رافض للإطار الاجتماعي لحضارة المدن، كان في بدايته دين السهوب أي الهضاب العليا الرعوية، وبعد القضاء على مملكة سجلماسة بتافلالت وعلى حلف تيهرت، تفرق الخوارج في الصحراء في ورقلة وميزاب وسيوه، كما تركزوا في جبل نفوسة. ويقول ماسكوراي (Masqueray) بهذا الشأن أنه : "لا توجد واحة من قابس إلى فقيق وسجلماسة، لم يساهم الخوارج في تطورها، فقد كانوا بحق معمري الصحراء"[2]. ويعتبر الخوارج قبل كل شيء جزءا من تاريخ إفريقيا الشمالية التي تشهد اليوم نشاطا كبيرا للميزابيين يحصلون منه على الموارد الضرورية لعيش واحاتهم. وقد لعبت نحل أخرى دورا في إنشاء الواحات وتعمير الصحراء، ففي سنة 1855 عندما حولت الطريقة السنوسية مقرها إلى مكان قريب من آبار جغبوب، استقرت بواحتها أفراد قافلة من عبيد بعد أن تعرضوا لاحدى الغارات، وطورت بها زراعات ووفرت مورد عيش للزاوية. وهناك حالة أخرى للجوء إلى الصحراء تمثلها جماعة غضف بموريتانيا (تاغانت)، وهي خليط يضم عناصر من أصول متعددة وطبقات مختلفة سمح لهم توحيد مواردهم بالإقامة في الصحراء[3].

---

(1) Gautier, 1927.

(2) Masqueray, 1878, in Abou Zakaria, p. 276, note; cf. Gautier, 1927, p. 297.

(3) Dermenghem, 1954, p. 241.

يقدم بيبليوغرافية في هذا الموضوع.

إذا استثنينا مظاهر التعمير الديني هذه، فإن الاستقرار لم يكن سوى نتيجة ثانوية للتطور الاجتماعي للبداوة. فالقبائل الضعيفة لم تستطع مواصلة الحياة البدوية وباشرت في بناء قرى واستغلال واحات، مثل: العرب في الزيبان، والزناتيين البربر الذين ينتسب إليهم سكان القورارة والذين لحقت بهم طبقات عديدة متوالية من اللاجئين العرب[1]، والأشراف في التوات، وأخيرا جماعة من زوة في تيديكالت والذين استقروا بعد أن فقدوا جمالهم في الغارات، بينما ظل فرع من نفس الأسرة حافظ على قطعانه، يتبع نمط عيش بدوي[2]. أما الوضع في منطقة وادي سوف فيبدو أكثر تعقيدا، فقد ساعد على استقرار البدو فيه وجود طبقة مياه جوفية قليلة العمق تستفيد منها زراعة النخيل في منخفضات تحفر في الرمل، مما يغني عن الري، وقد استمرت عملية الاستقرار هذه دون انقطاع منذ القرن الرابع عشر؛ ويضم وادي سوف كذلك جماعات عدوانية طردت من الأقاليم الواقعة تحت التأثير المغاربي، وجماعات مفقرة؛ وجماعات ظلت شبه بدوية، وجماعات مستقرة تماما، أنشأت معسكراتها المعروفة بالنزلة بالقرب من القرى الحضرية القديمة[3]. ويربط بين هذه العناصر تجمعها في منطقة لجوء تقع على هامش الطرق الكبرى العابرة للصحراء[4]. في المجموع يظل عدد هذه الواحات أقل بكثير من حيث العدد والأهمية مقارنة بالتراجع المستمر الذي تشهده الواحات الصحراوية منذ العصور الوسطى، وتعتبر منطقة فزان نموذجا في هذا الشأن[5]. هذا ولم تستقر في الواحات إلا أقلية صغيرة من البدو الذين كانوا في السابق يحتقرون هذا النمط من العيش، وقد تطورت علاقات البدو بالمجال الحضري

(1) Bisson, 1956, p. 92-97.

(2) Capot-Rey, 1953, p. 283.

(3) Bataillon, 1955.

(4) Ibid, p. 27.

(5) Despois, 1946.

في اتجاه شبه بداوة تتخللها إقامة موسمية في الواحات "المحمية" لأخذ قسط من الراحة وجمع الضرائب، خاصة في موسم جني التمور.

2. هــذا وقــد أدت "ثــورة فــرض الــســلــم" (révolution de la pacification)، وهي العبارة التي استعملها كابو-ري (R. Capot-Rey)[1] للدلالة على فرض الهيمنة الفرنسية على الصحراء، إلى نتائج كبيرة خاصة وأنها كانت فجائية. ولم يستتب الأمن التام في الصحراء الفرنسية إلا منذ 1935، وحتى ذلك الوقت كانت القبائل الصحراوية نفسها في حالة تأهب لمواجهة تهديد القبائل المتمردة. والغريب في الأمر أن أول نتائج فرض السلم كانت امتداد نطاق تنقل البدو الذي توسع بحرية دون الخشية من الغارات، وانتشار البداوة في كل مكان، واتساع نطاق التنقلات الرعوية الذي تم في بعض الأحيان على حساب الحياة الحضرية، فقد أصبح العيش تحت الخيمة ممكنا حتى بالنسبة للضعفاء الذين وجدوا فيه ضالتهم خاصة في الصحراء الشمالية، فهجروا قراهم المحصنة بحثا عن المراعي. غير أن الظروف الجديدة سرعان ما أدت إلى تراجع الوضع المادي والمعنوي للبدو، فقد زالت بالتدريج الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، مثل الضرائب التي كانوا يحصلون عليها من القبائل التابعة أو أهالي الواحات، وتحرر الأسرى الكثيرين كما هو الشأن بالنسبة للعبيد السود المعروفين بإكلان الذين كانوا بين أيدي التوارق جنوب الصحراء، وقد تحرر هؤلاء خلال مرحلتين اثنتين : في بداية الأمر تم تحرير العبيد المستخدمين في الزراعة والمستقرين في قرى تابعة، بعد تمرد 1916؛ ومنذ 1946، ثم تحرر العبيد المرافقون للأسياد في تنقلاتهم ؛ وأخيرا، انتهى هذا التطور بتراجع النقل بالجمال وتجارة القوافل بفعل منافسة النقل بالسيارات، ولم يبق قائما إلا في القطاعات البعيدة والصعبة التي لا يمكن للسيارات الوصول إليها والتي لا يزال الجمل مستعملا فيها. تضافرت كل هذه

(1) Capot-Rey, 1953, p. 284-296.

العناصر لتفرغ الحياة البدوية من نبلها وتفقدها جاذبيتها. وقد شهد عالم التوارق أقصى درجات هذا التفكك، فالقبائل النبيلة لم تعد قادرة على تأمين عيشها من دون الاستعانة بالعبيد، وعرفت أزمة اقتصادية وديمغرافية واجتماعية فقدت معها "طعم العيش"، بينما تأقلمت القبائل التابعة مع الوضع الجديد بسهولة أكبر[1]. وبعد أن تعرضوا للمهانة والمراقبة والفقر، اضطر البدو إلى الاقتراب من الواحات، وفعلوا ذلك بسبب الإنهاك وليس اختيارا منهم. في نفس الوقت، ظهر نوع جديد من الاستقرار، لم يكن معروفا في السابق، فبالإضافة للاستقرار الذي يسببه الفقر، وجد استقرار ناجم عن الثراء، فالبدوي الذي جمع ثروة يمكنه الآن وضع قطعانه تحت إشراف راع ليتمتع هو بالحياة المريحة في الواحة.

هذا وقد أوجد الاستعمار لكل هؤلاء مكانا في المراكز الحضرية بفضل التطور الكبير للموارد المائية الذي أصبح ممكنا باستغلال طبقات المياه الجوفية الوفيرة بحفر الآبار العميقة (مثل طبقة الحجر الرملي الألبي (grès albiens) بين القليعة ووادي ريغ في الصحراء الشمالية، أو طبقات منخفض فزان)[2]، في الوقت الذي تراجعت أو اختفت فيه تماما طرق الري الأخرى، مثل الفوقارات التي تتطلب أعمال صيانة صعبة.

3. تعرف الصحراء إذن عملية استقرار واسعة، خاصة الصحراء الشمالية، كما هول الحال في منخفض ورقلة، الذي قدر مؤخرا عدد سكانه بحوالي 9,000 إلى 10,000 نسمة أي ما يناهز نصف السكان الرحل المتجمعين الآن حول الواحات البربرية التي كانت في السابق تخضع لسيطرتهم وحمايتهم[3]، وكذلك الأمر في نفزاوة[4]. وهناك تنام تدريجي

(1) Bernus, 1962.

(2) Capot-Rey, 1953, p. 425-432.

(3) Rovillois-Brigo;, in NNS.

(4) Sarel-Sternberg, in NNS.

للنشاط الزراعي لدى أشباه البدو الذين يتبعون نمط عيش أكثر استقرارا من كبار البدو يوفر لهم موارد أكبر[1]. ومؤخرا برز دافع جديد لاستقرار البدو يتمثل في مستوى الأجور الذي يوفره قطاع الصناعة، كما هو الحال في مناجم الرصاص في تافلالت والفحم في بشار والفوسفات في الجنوب التونسي، وأخيرا المنشآت البترولية. وقد أصبحت النشاطات الصناعية اليوم أهم عامل في استقرار البدو[2].

أما في الصحراء الجنوبية فلم تسفر هذه الحركية فيها على استقرار تام للسكان أو اختفاء التنظيم القبلي في العالم الحضري، على أننا نلاحظ في موريتانيا تقدما مستمرا باتجاه الجنوب، فكبار البدو المعتمدين على الجمال يدفعون نحو الجنوب قبائل المرابطين ومربي الأغنام التي تستقر نهائيا في موريتانيا السفلى حيث تكثر مصادر الماء. وبالنسبة لجماعات الرقيبات، يلاحظ أن الخيام العائلية تقام أكثر فأكثر داخل منطقة تاغنت الذي لا يغادرها باتجاه الشمال سوى الرعاة وقطعانهم. وفي عالم التوارق، يهاجر الأسرى القدامى إلى الجنوب، كما تقام قرى زراعية في حدود منطقة الساحل.

رغم قوة هذه الحركية، يبدو أن نمط العيش البدوي سيستمر على الأقل في الأمد القريب. وقد بين أكبر عارف بعالم البداوة الصحراوي[3] استحالة تحول الصحراء كلها إلى حياة الاستقرار، لأن امتداد الأراضي الكريستالية يحد من إمكانية حفر الآبار وتوسع الواحات، في الوقت الذي لا يمكن فيه لقطاع البحث عن البترول واستغلاله استيعاب أكثر من عشر السكان العاملين. كل هذا يؤكد أن بقايا البداوة ستبقى في منأى عن حياة الاستقرار في ظل الظروف الاقتصادية الحالية أو المرتقبة، فالبداوة تظل النظام الوحيد

---

(1) Bataillon, in NNS, P. 143-151.

(2) Prohuza, 1960.

(3) Capot-Rey, 1961 b, 1962.

الذي يسمح باستعمال رعوي للصحراء، رغم أن تعدد نقاط الماء خاصة في مناطق الأطراف قد يسفر عن نمط رعوي على مسافات قصيرة حول نقاط استقرار. هذا وتعرف حياة الاستقرار اليوم تطورا كبيرا في الصحراء الشمالية نظرا لتأثير تطور التقنيات الجديدة لاستخراج الماء والاقتصاد البترولي، بينما يظل هذا التطور بطيئا في الصحراء الجنوبية والأجزاء الوسطى التي ينتشر فيها كبار البدو من الرقيبات والتوارق، حيث كان أغلب بدو الصحراء الذين قدر عددهم بـ 1,600,000 نسمة يتجمعون في الجنوب سنة 1960[1]. إن التوازن الجديد في الصحراء سيختلف تماما عن ذلك الذي كان سائدا في الماضي، فحياة الاستقرار ستتربع في الصحراء الكبرى على نطاق أكبر بكثير من الحيز الذي عرفته منذ انتشار الجمل والغزوات العربية، غير أن البداوة ستحتفظ كذلك بمجالها ولزمن طويل.



(1) NNS, p. 22.

مختارات بيبليوغرافية

أ. الكتب العامة: المصدر الرئيسي هو الكتاب الشامل في وقته والذي أبدع صاحبه من حيث وضوح وأناقة العرض : (Capot-Rey, 1953)، وقد تجاوز فيه الأعمال الإيحائية والرائدة في زمنها التي أنجزها (Gautier, 1927) و.(Eydoux, 1942) على أن هذا الكتاب يخص الصحراء الفرنسية فقط ولا يتعرض للأقاليم الإسبانية والليبية، كما أنه لم تتم مراجعته في ضوء المعطيات الجديدة. هذا ويمكن تكملة معلوماته فيما يخص البداوة بالرجوع إلى (NNS, 1963)، وهو كتاب يجمع دراسات مونوغرافية وحوصلات ممتازة. ويمكن الرجوع إلى وصف إقليمي في .(Despois et Raynal, 1966) أما فيما يتعلق بالجغرافية التاريخية فإن العرض التاريخي الذي يقدمه كتاب (Mauny, 1961) يشمل إفريقيا السوداء الغربية وكذلك كل الصحراء الجنوبية.

ب. الدراسات الجزئية :

1. الدراسات المخصصة للأقاليم ومجموعات الواحات :

(Despois, 1946; Bataillon, 1955; Bisson, 1956; Capot-Rey, 1961 a; Le Rouvreur, 1962).

2. الدراسات المتعلقة بجماعات البدو :

بالإضافة للدراسات المجموعة في (NNS)، يمكن الرجوع بالنسبة للتوارق إلى كتابي (Lhôte, 1955; Bernus, 1963)؛ وكذلك الأعمال العديدة لنيكولايزن (Nicolaisen)، وخاصة أعماله في سنتي 1962 و1963. وفيما يخص

التوبو، يمكن الرجوع إلى كتابي (Chapelle, 1957 ; Kronenberg, 1958)؛ وفي موضوع التأقلم مع الاقتصاد الحديث توجد الدراسة المعمقة لـ (Prohuza, 1960).



الفصل الخامس
العالم التركي-الإيراني

مقدمة:

إن الميزة الرئيسية للعالم التركي-الإيراني هي الانتشار الشامل للبداوة. فلأسباب بيوجغرافية تم التعرض لها، انتشرت البداوة التركية في نطاق أوسع من ذلك الذي عرفته البداوة العربية، وذلك لتوفرها على أداة لا مثيل لها تتمثل في الجمل ذي السنامين المعروف بجمل باكتريان والسلالات المنحدرة منه، وانحصرت المقاومات الشاملة في مناطق محدودة في الغابات البونطية (forêts pontiques) والقزوينية. وفي ظل القابلية الكبيرة لانتشار البدو، تلاشت التباينات الإقليمية وأصبحت أقل حدة من تلك التي تطبع العالم العربي. والقاعدة هنا هي تداخل أنماط العيش، بحيث لا يجب البحث عن آلية التطور في التماسك الداخلي للمناطق المختلفة وإنما في حيوية أنماط الحياة المختلفة.

يجدر بنا التعرض لمختلف الحالات الجغرافية والسياسية المهيمنة والسائدة من الأناضول إلى إيران، ومن آسيا الوسطى الروسية إلى أفغانستان، والتي أدت إلى تبلور موازين قوى متناقضة تخضع لوتيرة تطور مختلفة، تكون سريعة جدا في الأناضول وآسيا الوسطى، وبطيئة في إيران وأفغانستان. هذا وتقوم الفكرة المحورية للتحليل على العوامل التاريخية والحدثية، ويتمثل

إطاره العام في سياسة الدول.

1. البداوة وحياة الاستقرار قبل الغزوات التركية-المغولية الكبرى

1. تتشابه أقاليم الأناضول وإيران من حيث البنية الطبيعية التي تميزها أحزمة من سلاسل جبلية رطبة وغابية تتخللها قطاعات ساحلية دافئة، وتحيط بكتلة وسطى من الأراضي المرتفعة الجافة والباردة شتاء تتربع عليها السهوب أو الصحاري. على أن انتشار البداوة وحياة الاستقرار في الأناضول وإيران يخضع لظروف مختلفة. فسهوب وسط الأناضول تكون صالحة للزراعة حتى في أجزائها الأكثر جفافا حيث لا تقل نسبة التساقط عن 300-350 مم، وقد انتشرت مزارع الدولة الكبرى حتى على ضفاف توز غولو (Tuz gölü)[1]، وكأن الطبيعة أهلت الأناضول كله لحياة الاستقرار. في مقابل ذلك يطبع الجفاف إيران بشكل أكبر، بحيث لا تدخل في نطاق الزراعة المطرية، التي خضعت لدراسة مفصلة[2]، الصحاري الداخلية ومنطقتي الكفير الكبير ولوط، وكذلك أغلب أحواض أذربيجان، وجزء كبير من السلاسل الجنوبية، وجنوب شرق زاغروس، وبلوشستان، ومنخفضات جنوب غرب أفغانستان. أما آسيا الوسطى السفلى فهي غير صالحة للزراعة في كل الجهات الواقعة شمال كوبيت داغ (Kopet dagh) والهندوكوش (Hindou-Kouch)، وغرب تيان شان (Tian-Chan) والبامير .(Pamir)

2. لم يطرأ تغير محسوس على هذه الظروف في الأزمان التاريخية، على الأقل فيما يخص نسبة التساقط. فهناك تطابق بين مجالي أشجار الزيتون على ضفاف البحر الأسود في العهود القديمة والمعاصرة والتي تتأثر إمكانيات إثمارها إلى حد كبير بتغير التساقط المطري، مما يؤكد أن الوضع في عهد

---

(1) Ardel et Tümertekin, 1954.

(2) Bobek, 1951.

كزينوفون (Xénophon) يتطابق تماما مع الوضع الحالي[1]. هذا وبينت مقارنة بين المجال القديم والمعاصر للأشجار المثمرة المتوسطية (الزيتون والتين والكروم) في الهضبة العليا الأناضولية أن درجات الحرارة السلبية القصوى كانت في الشتاء أقل انخفاضا في العهود القديمة مما هي عليه اليوم، وذلك في زمن الإمبراطورية الحيثية (الألفية الثانية قبل الميلاد) وحتى بداية العهد المسيحي على أقل تقدير. ويرجح أن هذه الحقبة التي ميزتها ظروف شتوية لطيفة تمثل آخر مرحلة في الفترة المعتدلة التي تلت العصر الجليدي، والتي سمحت بالاستيطان الهيليني في الهضبة العليا الأناضولية وحضارته القائمة على زراعة الأشجار المثمرة[2]. وقد ورد في العهود القديمة ذكر غابة أشجار زيتون في سينادا (Synnada) بمنطقة فريجيا (Phrygie)[3] التي تعرف اليوم ظروفا مناخية قاسية، ومن المؤكد أن هذه الغابة انقرضت قبل القرن التاسع[4]. وقد أدى هذا التطور إلى تراجع في شغل الأرض لوحظ في الهضبة العليا خلال الفترة البيزنطية. ورغم هذا التحول في نوعية الزراعات الذي تسببت فيه جزئيا التحولات المناخية، فإن نطاق الزراعة المطرية لم يتغير بشكل محسوس، كما أن التحولات المناخية التي يعكسها تغير مستوى بحر القزوين لم تحدث في اتجاه واحد[5]. هذا وتتزامن قطع الأشجار في المناطق العليا من الأناضول وزوال غاباتها الهشة والموزعة مع فترات الضغط الديمغرافي الكبير بين العصر الحجري المتأخر (Néolithique) والعصر البرونزي، والفترتين الهلينية والرومانية، والفترة المعاصرة لتوسع حياة

(1) Planhol, 1954 a.

(2) Ibid.

(3) Strabon, XII, 577.

(4) Robert, 1961, p. 147.

(5) cf. Butzer, 1958; Bobek, 1953-54.

يخلص بوبك كذلك إلى فكرة الاستقرار النسبي للمناخ في الأزمنة التاريخية.

الاستقرار[1]، ولا تخضع هذه الظاهرة لتغير المناخ. كما لا يختلف الأمر في إيران[2].

3. كل هذا يفسر لأول وهلة المكانة الأكبر التي تحتلها البداوة في الحياة الإيرانية. فبينما لا يتعدى عدد البدو الحقيقيين في تركيا اليوم عشرات الآلاف، يرجح أنهم يتجاوزون المليون في إيران[3]، ويرتفع عددهم على أقل تقدير إلى أكثر من مليونين في أفغانستان[4]. وتبين الدراسة عدم ارتباط انتشار أهم جماعات الرحل بالمعطيات الطبيعية، فآخر رحل تركيا لا يتواجدون اليوم في هضبة وسط الأناضول وإنما في سلاسل جبال طوروس وفي سفحها الجنوبي، من السهل البامفيلي (plaine pamphylienne) وحتى جنوب شرق الأناضول[5]. هذا ولا يوجد أي تفسير طبيعي للاختلاف بين بقايا البداوة في الجزء الغربي من طوروس حيث تتواجد جماعات لا تتعدى بضعة خيام تجبر في الصيف على التوجه نحو قمم الجبال وتتسرب في الشتاء بين القرى، وفي طوروس الشرقي حيث توجد قبائل لا تزال متماسكة يبلغ تعدداها عدة مئات أو عدة آلاف من الأفراد، تتنقل بانتظام بين الهضبة العليا الأرمينية-الكردية والسفح الجنوبي شمال الحدود السورية. وفي إيران يبدو أن انتشار البدو

---

(1) Brice, 1955; Planhol, 1965 a.

(2) لا توجد لحد الآن دراسة مفصلة بهذا الشأن. هذا ويتضح أن الفترتين الأخمينية والساسانية خاصة شهدتا ضغطا كبيرا على الأرض، كانت له نفس آثار الفترة الرومانية في الأناضول.

(3) يقدرهم إحصاء سنة 1956 بـ 247,000 بدوي وهو ما ينافي الواقع، خاصة وأن هذا الإحصاء يغفل ذكر بدو بلوشستان على سبيل المثال.

(4) Ferdinand in Humlum, 1959.

(5) للتعرف على وضع البداوة الأناضولية المعاصرة، أنظر فيما يخص جنوب شرق الأناضول: Frödin, 1944، وخاصة 1948؛ Hütteroth, 1959. وفيما يتعلق بطوروس سيليسيا: Güngür, 1941; Spreitzer, 1957. وفيما يخص جنوب غرب الأناضول: Planhol, 1958 a; Planhol et Inandık, 1959 a. كما توجد حوصلة شاملة في: Planhol, 1959 b.

يوافق الظروف الطبيعية في السلاسل الشمالية حيث يتجمعون في المنحدر الداخلي الجاف لجبل ألبروز أو في هضاب طرفي ساحل بحر القزوين، من موغان إلى أتراك، على جانبي شريط ساحلي غابي ممتنع عليهم. هذا ويندر تواجد البدو في الصحاري الكبرى في وسط البلاد، بينما يكثرون في مجالات أكثر جاذبية مثل سلاسل زاغروس رغم أن الطبيعة أهلتها لحياة الاستقرار، فهنا لا زالت توجد أحلاف بدوية من أكبر الأحلاف البدوية على وجه الأرض (بختياري، كاشكاي، خامسه)، بينما الغالبية العظمى من السكان الأكراد واللورسيين من جهة، والبلوش والبشكارد من جهة أخرى، لا زالت تتبع نمط عيش شبه بدوي على نطاق قد يتسع أو يضيق[1]. وفي أفغانستان، يقضي الرحل الشتاء في المنخفضات الجافة بجنوب غرب البلاد وفي أودية الجنوب الشرقي أو في سهول شمال الهندوكوش، وينتشرون في الصيف في جبال وسط أفغانستان الصالحة للزراعة[2]، في الوقت الذي يرتاد فيه الكرغيز كل مرتفعات البامير. ولا يمكن تفسير هذا التوزيع الغريب إلا من خلال حتمية بسيطة موروثة من الماضي المتمثل بحركات انتشار البداوة في العصر الوسيط والتي بلغت هنا حدا لا مثيل له.

4. خلال حقبات زمنية طويلة جدا، امتدت بالتحديد إلى فترة الغزوات الكبرى التركية المغولية في العصر الوسيط، سادت في الأناضول وإيران ظروف عادية. وبعد التوسع الكبير في حياة الاستقرار الذي عرفه العصر الحجري المتأخر، أثرت أولى غزوات "الرحل" خاصة على مناطق السهول المرتفعة الجافة التي كانت قد فقدت غطاءها الغابي وأصبحت مجالا للمراعي. هكذا تزامن التراجع الكبير للسكن المستقر في الأناضول نهاية العصر البرونزي القديم (2,300 قبل الميلاد) مع هجر السكان للمنطقة الأكثر

---

(1) لأخذ فكرة شاملة عن البداوة الإيرانية، يجب الرجوع إلى جرد القبائل الذي يتضمنه تصنيف: Field, 1939.

(2) خريطة فرديناند (Ferdinand) ضمن كتاب: Humlum, 1959, p. 278.

جفافا في الهضبة الوسطى، أي السهوب الممتدة بين أنقرة وقونية ومناطق البحيرات والبولجيات البيزيدولسية (poljés pisidoliciens)[1]. وفي إيران الأخمينية، كان مجال أهم قبيلة رحل وهي قبيلة الساغاريين (Sagartiens) ينحصر أساسا في الصحراء الوسطى والجنوبية الشرقية، أي في مجالها الطبيعي[2]؛ كما أن استقرار أول الغزاة، الذين يشكلون بلا شك مخزونا بشريا من صنف الفاهرر (Fahrer) أي الرعاة المتنقلين ببطء والمستخدمين للعربات وليس من صنف الرايتر (Reiter) أي الرحل من الفرسان المحاربين المتنقلين على مسافات طويلة، تم بسرعة وكان تأثيرهم السلبي محدودا. كما لا نجد ذكرا للرحل في الأناضول في النصوص الحتية (hittites) التي تعود للألفية الثانية قبل الميلاد؛ وكل ما فيها عبارات تدل على مجال الرعي في المرتفعات الجبلية (louvite: lapana) (alpage) وعلى الراعي (louvite: (pâtre) lapanalli)[3]، وتدل هذه العبارات على وجود حياة رعوية صيفية على مسافات قصيرة في منحدرات الكتل الجبلية انطلاقا من المراكز الحضرية. ويصف هيرودوت (Hérodote)[4] نمط عيش مشابه، حيث يذكر أن هارباج (Harpage)، وهو جنرال سيروس (Cyrus) استولى على مدينة كزانثوس (Xanthos) في ليسيا (Lycie) وقتل كل سكانها، وقد كانت ثمانون أسرة غائبة عن المدينة (من المؤكد أنها كانت في الجبل)، وهي التي عمرت المدينة فيما بعد. وقد كان الرعاة الذين كانوا يجوبون سهوب وسط الأناضول في العهد الروماني في خدمة المراكز الحضرية[5]. أما في سلاسل جبال طوروس فقد كانت حدود المدن معلمة في أعلى القمم التي تفصل بينها مما لا يترك مجالا

(1) Mellaart, 1962.

(2) Hérodote, VII, 84-87.

(3) Laroche, 1959, p. 62.

(4) I, 176.

(5) Wenzel, 1937, p. 45-46.

لاستغلال رعوي منتظم ما عدا استغلال فلاحي للأودية المجاورة. وينطبق نص شيشيرون (Cicéron) بخصوص الرعاة الفريجيين والبيزيديين والسيليسيين "الذين كانوا يجوبون السهول والجبال صيفا وشتاء"[1]، على السكان الذين كانوا يولون أهمية خاصة لتربية المواشي والذين يتعارض نمط عيشهم مع نمط عيش مزارعي الإقليم الليسي الأسفل الذين يذكرهم بعد ذلك مباشرة وليس بالضرورة مع الرحل من غير البدو والذين يمكن أن نطلق عليهم تعريف أشباه البدو.

في إيران، بلغ استقرار الغزاة الآريين مستويات متقدمة في الفترة الأخمينية، وشهدت الهضبة الإيرانية تقلبات حقيقية حوالي سنة 1,000 قبل الميلاد، وعرفت تطورا للبداوة المعتمدة على الخيل والتي تزامنت مع ظهور نمط عمراني محصن جديد يتميز بالتباين الكبير بين إقامة الزعيم المرتفعة في شكل مدرجات وبين المدينة السفلى[2]. ومن المرجح أن نفس الفترة عرفت انتشارا، عبر كل المجال الثقافي الإيراني، لنمط السكن المحصن المستطيل ذي الأبراج المقامة في الزوايا والسور المسكون والمعروف بالقلعة (kal'é)[3]. أما هيرودوت فيصف مجتمعا يغلب عليه الطابع الحضري، حيث لا يشكل البدو سوى عشر فرسان جيش كسرى (Xerxès)[4]، وباستثناء قبيلة الساغاريين الكبيرة، تشكل قبائل الرحل الأخرى من مرديين (Mardéens)، ودروبيسيين (Dropiciens)، وديين (Déens)[5] جماعات متخلفة تحمل أسماء مشينة – البرابرة والأوغاد والبؤساء، وهناك وصف يقدم المرديين على أنهم أناس مدنسين ومتوحشين وذوي عادات منفرة، يقتاتون من لحم مواشيهم أو

---

(1) De Divinatione, I, 42.

(2) Ghirshman, 1964.

(3) Rosenfeld, 1951; Planhol, 1958 b, 1964 b (chapitre I); Turri, 1964.

(4) Hérodote, VII, 84-87.

(5) Hérodote, I, 125; cf. Field, 1939, I, p. 38-39.

الحيوانات التي يصطادونها، ويسكنون في الكهوف[1]. ويعيش هؤلاء المنبوذون في كل مكان وخاصة في المناطق المحيطة ببحر قزوين على هامش المجتمع الإيراني، مثلهم مثل "القبائل" التي تعيش اليوم في شبه الجزيرة الهندية. وبخلاف هؤلاء الرحل، يذكر هيرودوت من جهة أخرى "قبائل تحرث الأرض"، وهم البانثاليين (Panthaléens)، والدروزيين (Dérousiens)، والجرمانيين (Germaniens)، ولهذه القبائل خصائصها المميزة إلا أنها تشبه عموما باقي الفرس. كما اندمجت القبائل شبه البدوية في زاغروس داخل أطر الدولة الأخمينية، ورغم أن رعاة الجهات البعيدة كانوا لا يخضعون تماما للسلطة كما هو حال الأوكسيين (ما وراء النهر) (Ouxiens) في الجبال الذين كانوا يفرضون على الملك نفسه دفع إتاوة مقابل السماح له بالمرور[2]، فإن الطريق الكبيرة بين برسيبوليس (Persépolis) وإكتبان (المدائن) (Ectabane) كانت تمر في قلب الإقليم الجبلي عبر الأودية الطولية التي كانت تشكل حلقة وصل مباشرة، ويختلف هذا الوضع عما نعرفه اليوم، حيث أن الطريق بين همذان وشيراز تتبع بحذر المنحدر الشمالي للجبال في ظرف مختلف يتميز بالبداوة الكبرى العدوانية[3]. ونستنتج من هذا أن نمط العيش الذي ساد في جبال زاغروس بعد القدوم التدريجي للقبائل الإيرانية خلال الألفيتين الثانية والأولى قبل الميلاد هو شبه بداوة منتشرة في الأودية تقوم على تنقلات قصيرة المدى والتي ينحدر منها مباشرة نمط العيش الحالي للأكراد واللورسيين (Lours)[4]. هذا ونظرا لعدم تلاؤم العربات مع تضاريس الأودية الجبلية فإن نمط النقل الرئيسي كان يعتمد على الثور الحامل للأثقال الذي لوحظ أنه كان سائدا في كردستان بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر،

---

(1) Quinte-Curce, V, 6.

(2) Arrien, Anabase, III, XVII, 2-5.

(3) كما لاحظ ذلك: A. Gabriel, 1952, p. 9.

(4) يوجد وصف جيد له في: Feilberg, 1952.

ولا يزال كذلك في لورستان حتى اليوم[1] ؛ وكان هذا الحيوان يستخدم في النقل في الجبال الإيرانية خلال القرن السابع عشر، حيث كانت توضع قطع حديدية في أقدامه[2]. وفي القرن الثالث عشر ذكر ماركو بولو (Marco Polo) بإعجاب مزايا الثيران الكبيرة البيضاء الحاملة للأثقال التي صادفها في الإقليم الممتد بين كرمان وهرمز[3]. ويتعلق الأمر هنا بتنقلات مختلفة عن تنقلات كبار البدو المعتمدة على الخيول والجمال، مما يشهد على استمرار تقليد سابق لتقلبات العصور الوسطى. ورغم أن نمط الحياة كان أقل استقرارا من السكن نفسه، إذ ينتمي الصنف القروي إلى حياة رعوية قصيرة ترجع إلى العصر النيوليتي، فإنه لا شيء يجمع بين هذا الصنف وبين حياة الترحال على مسافات طويلة التي تعيشها الأحلاف القوية الكبرى حاليا. والفيرايتيرونغ (Verreiterung) التي أثرت في الصحراء الكبرى الإيرانية وجنوب شرق زاغروس الجاف، لم تمس الجزء الأكبر من هذه الجبال. وليس مستحيلا أن شبه البداوة الكردية واللورسية الأكثر تجذرا من التنقلات الرعوية في أودية الأناضول، شكلت أرضية أكثر خصوبة لانتشار البداوة الكبرى التي ميزت فيما بعد إيران خاصة[4].

(1) هناك مراجع كثيرة في هذا الشأن؛ ونكتفي بخصوص القرن السادس عشر بذكر: Sherley, 1825, p. 53 (رحلة سير أنتوني شيرلي في 1599، اعتمادا على نص مانوارينغ G. Manwaring)؛ ونذكر فيما يتعلق بالقرن التاسع عشر: Fraser, 1840, I, p. 194; Millingen, 1870, p. 42-43, 159, 164-65؛ وفيما يخص لوريستان عشية الفترة المعاصرة: Feilberg, 1952, p. 59.

(2) Chardin, T. VI, p. 186.

(3) Edit. Hambis, p. 41.

(4) من المرجح أن الحيوية المستمرة لشبه البداوة في فجر العصور الوسطى تجد تفسيرا لها في البداية المتأخرة لتنقلات السكان والتي أدت إلى التميز الإثني للأكراد، هذا في حالة تقبل تصورات منورسكي ((Minorsky (EI, 1ère édit.)) و.Vilčevskij, 1961 وهناك نظرية تقليدية ترجع هذا التميز لفترة سابقة، أنظر: von Eickstedt, 1961؛ كما يمكن الرجوع كذلك لتوضيح: Nikitine, 1956, p. 2-22.

منذ تلك الفترة كان هناك مجال أكثر تأثرا بالبداوة ويتمثل في آسيا الوسطى السفلى، التي تقع كلها خارج نطاق الزراعة المطرية، فباستثناء المراكز المروية الواقعة في الحوضين الكبيرين لنهري سير داريا (Syr Daria) وآموداريا (Amou Daria) وروافدهما، هيمن الرحل على كل هذه البلاد، وكانت الدول الحضرية المتركزة في النطاقات المروية تخضع باستمرار لسيطرة الأسر الحاكمة البدوية الأصل[1]. أما الممالك الإغريقية في باكتريان (Bactriane) بالسفوح الشمالية للهندوكوش فلم تذق طعم الاستقرار والأمان، رغم الطابع المتوسطي للإقليم[2] الذي سهل من دون شك إقامتها. ورغم أن نمط العيش الدقيق لسكان السهوب يبقى محل جدل ورغم أنهم كانوا أحيانا أشباه بدو يحيطون بالمراكز العمرانية أكثر منهم بدوا كبارا[3]، فإن المراكز الحضرية كانت تخضع لتأثيراتهم المتغيرة وكانت تعيش منذ ذلك الوقت حالة كبيرة من عدم الاستقرار، كما تدل على ذلك الآثار الكثيرة. وعرفت منطقة خوارزم بشكل خاص تواتر فترات الازدهار والتراجع، فقد بلغت حضارتها ذروتها بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي، وتلتها فترة من الانقسام الإقطاعي وانعدام الأمن ميزها بناء القلاع التي حلت مكان الحواضر الكبرى غير المحصنة التي عرفتها الفترة السابقة[4]. ونفس الوضع شهدته واحات حوض تاريم التي كانت مركز مدنية حضرية هندو-أوربية حولها الويغور إلى حضارة تركية شيئا فشيئا بدءا من النصف الثاني من القرن الثامن[5]. وتكثر في

(1) أنظر: .Grousset, 1939 وفيما يتعلق بخوارزم، أنظر: .Tolstov, 1948 a et b

(2) Rathjens, 1958.

(3) يطرح هذا المشكل على سبيل المثال بالنسبة للهفتاليين (Hephthalites) الذين يعتبرهم (Grousset, 1939, p. 113) من كبار البدو، بينما يصنفهم (Tolstov, 1953, p. 231) في خانة أشباه البدو الذين هيمنوا على آسيا الوسطى السفلى خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين.

(4) Tolstov, 1948.

(5) Grousset, 1939, p. 87-93 et 142-45, 174-178.

هذا الإقليم مواقع مهجورة تعود لفترات تاريخية مختلفة سبق أغلبها انتشار الإسلام الذي تم على يد القاراخانيين (Karakhanides) (الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر)[1]. وحتى قبل العهد المسيحي، كانت حدود العالم الذي يغلب عليه الطابع الحضري في إيران تتبع سلاسل خراسان وكوبت داغ التي تشبثت بها آخر الزراعات المطرية. أما سهوب أتراك فكانت منذ ذلك الوقت محل مد وجزر، تنشأ فيها أحيانا مدنيات حضرية لامعة يتبعها أحيانا أخرى انحطاط كامل كذلك الذي عرفته الألفية الثانية قبل الميلاد والذي تبع فترة كثافة سكانية عالية ميزت الألفية الثالثة قبل الميلاد[2]، وهكذا أقفر هذا الإقليم حتى الاستيطان العابر الذي شهده القرن الثامن.

5. يوجد تباين في توزيع الحياة الرعوية وخصائصها في كل من الأناضول وإيران منذ العصور القديمة، وهذا ما كان له انعكاس على النظام الزراعي، حيث أدت الظروف الطبيعية المختلفة إلى تطوير نظم زراعية متنوعة. فالتقاليد الزراعية الأناضولية تقوم أساسا على الزراعة المطرية واقتصاد الأشجار المثمرة، وقد بينا أن حقبة شهدت درجات حرارة شتوية لطيفة في الهضبة العليا تكون قد ساعدت على هذا التطور، ويتعلق الأمر بزراعات متنوعة جافة متوسطية، تعتمد أساسا على الحبوب والكروم والزيتون والتين، وامتد نطاقها إلى الأراضي المرتفعة الوسطى. وقد ظل حيز الزراعة المروية محدودا حتى في هضبة وسط الأناضول التي كان اقتصاد المدن بها يعتمد خاصة على تربية المواشي[3]، ولا نكاد نجد أثرا لزراعات المدرجات في الأناضول[4]، كما كان الحال في العهود القديمة الإغريقية الرومانية في مجمل

---

(1) توجد العديد من الرحلات التي تصف هذه المدن الميتة، انظر خاصة: Stein, 1933; Le Coq, 1926, 1928.

(2) Arne, 1935.

(3) Wenzel, 1937, p. 45-46.

(4) لم ينتشر هذا النوع من الزراعات وبشكل غير عادي سوى في منكقة أكسيكي (Akseki) في جبال طوروس الإيزورية (Taurus isaurien)، وهي منطقة عرفت ضغطا ديمغرافيا

الضفة الشمالية للمتوسط[1]

هذا وتختلف بشكل كبير التقاليد الزراعية الإيرانية[2] في بلاد أكثر جفافا على العموم باستثناء ضفاف بحر قزوين. وقد كان أساس شغل الأرض دوما، إذا ما استثنينا الواحات، يتمثل في دواخل الأودية التي تمت تهيئتها في شكل مدرجات تروى وتسمد بكثافة بفضل السماد الذي توفره القطعان الكبيرة التي تأويها إسطبلات وتسمح بتغذيتها زراعة العلف (خاصة البرسيم). ولم تكن الزراعات المطرية سوى عنصرا هامشيا مكملا له دور ثانوي في معيشة السكان. ويبدو أن هذا النوع من شغل الأرض ينتشر بدءا من الهضبة الأرمينية العليا. هذا ولا يجب إغفال دور الصراع السياسي الطويل بين الإمبراطورية الرومانية (أو البيزنطية) والإمبراطورية الفارسية في تبلور نظامين مختلفين لشغل الأرض وذلك من خلال انتشار التأثيرات والتقنيات داخل الحدود السياسية.

6. لم تغير الفتوحات (أو الغزوات) العربية هذا الوضع بشكل كبير، فالفتح العربي لإيران وانتشار الإسلام فيها لم يسفرا عن دخول أعداد معتبرة من البدو العرب إلى الهضبة الإيرانية العليا حيث لا تحتمل جمالهم برد شتائها، وانحصر انتشار القبائل العربية في تسرب محدود عبر الشريط الساحلي لغارمسير (garmsîr) في إقليم فارس على طول الخليج الفارسي، وهي المنطقة الوحيدة التي نجد فيها أعدادا معتبرة من البدو العرب الذين يشكلون أحلافا تجمع بينهم وبين البدو الناطقين باللغة الإيرانية واللغة التركية، خاصة في إطار حلف خامسه[3]، وقد وصلوا في فترات سابقة إلى منطقة السند في

كبيرا وهجرة باتجاه أقاليم بعيدة.

(1) Despois, 1959 c, p. 110.

يلاحظ هذا الكاتب غياب مفردات للدلالة على المدرج في اللغات الكلاسيكية.

(2) Planhol, 1964 a.

(3) Field, 1939, cf. index s.v.; Barth, 1961.

إطار جماعات منظمة، ويرجح أنهم ساهموا إلى حد كبير في تشكل العنصر السكاني في بلوشستان[1]. ومن الجماعات العربية التي حافظت على خصوصيتها في خراسان[2] انحدرت بقايا القبائل التي تعرضت للترحيل الإداري من طرف تيمور حسب بعض الروايات. واستقرت جماعات أخرى مرات عديدة في الهضبة الإيرانية في إطار سياسة ترحيل القبائل التي تعتمدها السلطة العليا في إيران باستمرار، إلا أن تسرب السكان العرب إلى الهضبة لم يغير من المعطى الرئيسي وهو أن تسربهم العفوي انحصر في إيران في الأراضي المنخفضة الجنوبية.كما لم تستوطن منخفضات آسيا الوسطى السفلى سوى بعض القبائل التي وفدت في سياق الفتح الإسلامي.

إن المشهد العام لأنماط العيش خلال القرن العاشر والذي يمكن استخلاصه من كتابات الرحالة العرب القدامى كان يتميز بهيمنة المجتمع الحضري[3]. فالاصطخري وابن حوقل كانا يعتبران الأكراد أهم مجموعة بدوية، ويلاحظان أن خيولهم لم تكن تتمتع بلياقة حسنة[4]، مما يجعلهم بعيدين عن صنف الرايتر (Reiter) الذين يعتبرون فرسانا رحلا محاربين. ويبالغ الاصطخري عندما يقدر عدد خيامهم السوداء بـ 500,000 تتوزع على بلاد فارس، ويذكر أنهم كانوا منذ ذلك الوقت يبحثون عن المراعي صيفا وشتاء على شاكلة البدو، إلا أنه يوضح أن القبائل القريبة من حدود ساردسير (sardsîr) وغارمسير (garmsîr) تعيش حياة استقرار ولا تتنقل[5]. ونفس

(1) Field, 1939, cf. index s.v. Arabs.

فيما يتعلق بالجماعات البدوية العربية في سيستان، أنظر كذلك: Ferrier, p. 420.

(2) Ferrier, p. 437-40; Curzon, I, p. 179, 199; Field, p. 249, 253.

(3) انظر المعطيات التي يقدمها هؤلاء الرحالة والتي جمعها شفارتز في كتابه الضخم: Schwarz, 1896-1935.

(4) Istakhri, 115, 7; Schwarz, III, p. 115.

(5) Istakhri, 115, 6; Ibn Hauqal, 186, 17.

بخصوص كل هذا، أنظر: Schwarz, III, p. 115-7.

الملاحظة سجلها ابن حوقل وإن عممها على كل سكان غارمسير الذين لا يتنقلون على مسافات طويلة، وإنما يبحثون عن مراع صيفية داخل مجالهم الضيق. وفي إقليم فارس، لا يحتل البدو سوى أربع قطاعات محددة بوضوح، ويتجمعون حول سكن دائم، ويتعلق الأمر هنا في الحقيقة بأشباه بدو. وفي أحد القطاعات "البدوية" وهو قطاع بازانجان شمال غرب شيراز، تختلط قطعان حاكم أصفهان الحضري المقيم بعيدا عن هذه المنطقة بقطعان الأهالي المحليين[1]. وإلى الشرق في الإقليم الواقع جنوب شرق جيروفت، بين هرمز غربا ومكران شرقا، توجد جماعات الكوف وهم قطاع طرق أكثر منهم بدوا، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا يتنقلون مشيا وليس على ظهور الخيل[2]. وفي الجهات الأخرى لم يرد ذكر لأعداد كبيرة من البدو. وكان الأكراد يعمرون الكتل الجبلية لأذربيجان ويتنقلون بانتظام عبر منحدرات هذه الجبال مثل كتلة سفلان حيث التزم الفاتحون العرب الأوائل بعدم عرقلة تنقلاتهم[3]. وإذا قبلنا المعطيات المبالغ فيها والتي يقدمها الاصطخري حول الأكراد، فإن هؤلاء قد أخذوا يتنقلون على مسافات أطول بعد الفتوحات العربية، على أنه يلاحظ ميلهم إلى حياة الاستقرار منذ ذلك الزمن، فمدينة قندرية قرب أوسنوه أسسها الأكراد[4]. ولم يؤثر الفتح العربي بشكل كبير على استغلال الأرض في إيران وآسيا السفلى، فالنظام العقاري الإسلامي الذي يقر بقوة حق الملكية الخاصة، كان أكثر تشجيعا لاستقرار الفلاحين من النظام الإقطاعي الذي كان سائدا في إيران على عهد الساسانيين[5]، حتى أن سهوب أتراك شهدت في القرن الثامن

(1) حسب ابن خرداذبه، أنظر: Schwarz, III, p. 135-39.

(2) Istakhri, 164, 4; Ibn Hauqal, 221, I.

أنظر: Schwarz, III, p. 260-67.

(3) Balâdhuri, 326, 4; Yâkout, I, 160, 21; Schwarz, VIII, p. 1246 ss.

(4) Schwarz, VIII, p. 1246.

(5) Christensen, 1936; Lambton, 1953, chap. I-II, p. 10-52.

فترة استيطان ريفي لم ترق إلى مستوى الكثافة السكانية قبل التاريخ إلا أنها كانت مهمة[1]. أما خوارزم التي كانت لفترة طويلة أرض نهب وغزو لأسياد الهضبة الإيرانية العرب، فقد عرفت انحطاطا كبيرا خلال القرن الثامن في سياق حالة الخراب التي أعقبت الفتح، قبل أن تعرف خلال القرنين التاسع والعاشر نهضة رائعة رغم تهديد الأوغوز (Oduz) المتواجدين قريبا من شمال شرق بحر آرال[2].

و في آسيا الصغرى لم يستطع البدو العرب أبدا الاستقرار في الهضبة الأناضولية العليا التي لا تتحمل جمالهم شتاءها القاسي، وهنا يكمن أحد الأسباب الرئيسية لنجاح المقاومة البيزنطية ؛ غير أن الهضبة الأناضولية كانت مجالا مفتوحا لغزوات صيفية مستمرة مما يؤكد التفوق العسكري للغزاة الذين لم تحل دون سيطرتهم على البلاد سوى الظروف المناخية. وكانت النتائج معتبرة بالنسبة لمناطق السهول الواسعة والسهوب المنفتحة على الغزوات، إذ يعود انحطاط الحياة الحضرية والريفية في الهضبة الوسطى إلى هذه االفترة[3]. هذا ما يؤكده التراجع المستمر لعدد أسقفيات ليكاونيا (Lycaonie) المشاركة في تجمعات الأساقفة خلال القرنين الثامن والتاسع، كما انحصرت بشكل عام شبكة المدن في الأناضول الأوسط والغربي الذي كان في العهود القديمة يعد الكثير من المدن الصغرى والمتوسطة التي زالت ولم تبق سوى التجمعات الكبرى والقلاع، وهكذا تراجع الأناضول الأوسط والغربي إلى مستوى الأناضول الشرقي لتصبح شبكة المدن متجانسة في كل الأناضول[4]. من جهة أخرى، عرفت هذه الفترة انتشارا شاملا للسكن في المرتفعات لم يستثن المناطق الغربية من البلاد، كما هو الحال بالنسبة لمدن

---

(1) Arne, 1935.

(2) Tolstov, 1948 a et b.

(3) Wenzel, 1937, p. 48-50.

(4) Ahrweiler, 1962, p. 30-31.

وادي ليكوس (Lycos)، حيث تأسست مدينة خوناي في الالتواء الكبير للوادي في موقع محصن يرتفع عدة كيلومترات عن موقع مدينة كولوسيس (Colosses) القديمة، لتحل محلها خلال القرنين الثامن والتاسع[1]. كما نشأت تجمعات أديرة كبيرة في الجهات الساحلية[2] والكتل الجبلية التي كانت في منأى عن غارات العرب مثل أوليمب بيثينيا (Olympe de Bithynie) الذي أطلق عليه الأتراك اسم قسيس داغ (Kei dad) - أي جبل الرهبان. ولم تشهد فترة عودة الأمن القصيرة خلال القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر سوى تراجع محتشم في نمط السكن المحصن، ففي منطقة الألف كنيسة وكنيسة (bin bir kilise) بجبل قارة داغ (Kara dad) بنيت خلال هذه الفترة كنائس في السهل[3]. والغريب في الأمر أن هذه الفترة التي غلب عليها انعدام الأمن عرفت في المناطق النائية آخر انتشار لنمط العيش الهيليني وآخر تطور لشغل الأرض، ففي الجبال البيزيدية (montagnes pisidiennes) تم تعمير الأودية الجبلية المعزولة التي ظلت حتى ذلك الوقت خالية من السكان[4]، كما أن سهل بامفيليا (Pamphylie) الساحلي الذي كان عرضة لغارات البحارة العرب، ظل مستغلا بشكل جيد ومأهولا خلال القرن التاسع[5].

2. انتشار البداوة في العصور الوسطى

وجد الأتراك في الهضاب العليا الباردة شتاء مجالا مناسبا لهم، وسمحت لهم تقنية توليد الجمل والبعير بالتأقلم بسهولة، مما أدى إلى هيمنة

---

(1) Ramsay, 1895, I, p. 213-216.

(2) Ahrweiler, 1962, p. 18.

(3) Wenzel, 1937, p. 50.

(4) Planhol, 1958 a, p. 82.

(5) Ibid, p. 84.

نمط عيش جديد. وتركت التنقلات الرعوية قصيرة المدى التي كان يمارسها أشباه البدو المعتمدين على الثيران المسالمة المجال لتنقلات البداوة الجبلية على مسافات طويلة قد تصل إلى مئات الكيلومترات، وتغير الوضع السائد تماما، حيث أصبحت أعمال التخريب أو الصراع الدائم تطبع العلاقة مع الحضر، وتراجعت الحياة الريفية بشكل رهيب بفعل الضربات القاصمة التي تعرضت لها. وليس هناك مبالغة في استعمال عبارة "انتشار البداوة" للدلالة على هذا التحول، كما أن مصادر العصور الوسطى تطلق على الأتراك الرحل أنفسهم تسمية "البدو"، هذا وقد تخلى أغلب أتراك ومغول الشرق الأدنى عن سكنهم التقليدي المتمثل في اليورت (yourte) الذي وإن كان يوفر لهم الدفء إلا أنه ثقيل ويصعب نقله، واستبدلوه بالخيمة السوداء المصنوعة من شعر الماعز[1]، وهي أخف بكثير ويسهل استعمالها في التنقلات السريعة. هذا وقد أدت ظاهرة انتشار البداوة المتشابهة في جوهرها في كل من الأناضول وإيران إلى نتائج مختلفة تماما في كلتا الحالتين.

أ. انتشار البداوة الكبرى في إيران:

كان التطور أكثر حدة في إيران التي تعرضت لضغط الرحل على نطاق واسع مع الدخول التدريجي للأتراك إليها منذ القرن العاشر[2]، والذي بلغ ذروته في القرن الثالث عشر مع كارثة الغزو المغولي. وتظهر الكتابات المتعاقبة للجغرافيين العرب السيطرة التدريجية للتركمان على مناطق واسعة. وتعتبر حالة هضاب موغان جنوب نهر الآراكس (l'Araxe) مثالا حيا في هذا الشأن، فموغان كانت مدينة صغيرة في كتابات ابن الفقيه والاصطخري وابن

(1) للوقوف على هذين النوعين من السكن وتوزيعهما، يظل المرجع الأساسي هو كتاب: Feilberg, 1944.

(2) هذا إذا ما استثنينا دخول الأتراك القديم والجزئي إلى أذربيجان في القرن السادس (أنظر تقييد ميشيل السوري: Chronique de Michel le Syrien, Livre XIV).

حوقل، ويصفها المقدسي بأجمل الأوصاف، أما ياقوت فيذكر موغان كمنطقة يسكنها أساسا التركمان وتوجد بها بعض المدن وخاصة مراع كثيرة، وأخيرا، يصفها القزويني في القرن الخامس عشر بأنها مجرد موطن شتاء للتتار (المغول) الذين حلوا مكان التركمان[1].

هذا مثال الانتشار المباشر للبداوة، إلا أن النتائج غير المباشرة لهذه الظاهرة كانت مهمة أيضا، فمن أهم التحولات التي تبعت غزو السلاجقة انتشار البداوة في بلوشستان، فأصول البلوش شمالية على الأرجح، وقد قدمت مؤخرا تفسيرات لغوية تعزز نظرية قدومهم من مناطق الكفير الكبير (Grand Kévir) الشمالية[2] التي غادروها بسبب أول غزو تركي دفع بهم إلى منطقة كرمان التي يؤكد الجغرافيون العرب وجودهم فيها خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وبقوا فيها حتى فتح السلاجقة لها وبعده الغزو المغولي الذي دفع بهم نحو الشرق ومناطق سيستان ومكران حيث اندمجوا مع السكان القدامى (الذين كانوا يتحدثون لغة درافيدية (dravidienne). كما يرجح أن الغزوات التركية أدت كذلك إلى انتشار البداوة الكبرى لدى قبائل المناطق الشبه الصحراوية في جنوب أفغانستان، وهي قبائل الدوراني والغيزلاي، حيث ساهمت هذه الغزوات في تبني شعوب وسط أفغانستان ذات الأصول الجبلية نمط عيش يقوم على البداوة الكبرى[3].

تزامنت المرحلة الحاسمة لهذا التطور مع الغزوات المغولية والخراب الذي أحدثته والذي تبعه تراجع مدهش للسكن المستقر في مناطق عديدة تحول فلاحوها قسرا إلى حياة البداوة. وقد ترك لنا ماركو بولو الذي قام برحلته في هذه الفترة شهادات قيمة عن القرى التي هجرت في الجهات

---

(1) كل هذه المراجع مجموعة في: Schwarz, VIII, p. 1086-1094.

(2) Frye, 1961.

(3) Schurmann, p. 45.

الجبلية المرتفعة بجنوب كرمان والذي أصبح مجالا يحتكره الرعاة كما هو الحال اليوم[1]. كما يصف لنا نص مهم يخص منطقة لورستان هروب الحضر من الجبل وقد تبنوا كرد فعل على أوضاعهم نمط عيش بدوي مماثل لنمط عيش الغزاة: "و هم قطاع الأتابك في اللور الكبير... من أسباب ازدهار البلاد أن الأتابك شمس الدين اعتمد نظام اليايلاك (yaylâk) والكيشلاك (kichlâk) المعروف لدى المغول. فقد كانوا يقضون الشتاء في إيداج (Idadj) وسوز (Suse)، ويفدون في الصيف إلى منطقة كوحي زارداك (Kouh-i Zardak) التي ينبع منها وادي زاندا رود (Zanda Roud)، حيث لا تحتاج البهائم التي يركبها الجند إلى العلف، كما لا يتعرض الفلاحون إلى عنف أول وافد إليهم"[2]. وليس غريبا أن المفردات التركية للدلالة على مواطن الشتاء والصيف، أي الكيشلاك واليايلاك، انتقلت بهذا المعنى إلى اللغة الفارسية، في مناطق شمال ووسط إيران، باستثناء القطاعات الجنوبية من خوزستان وفارس. ومنذ ذلك الوقت تعددت الدلائل على تراجع حياة الاستقرار في كل إيران، حيث توجد في كل مكان تقريبا آثار القرى وأطلال الأقاليم المهجورة[3]. ويرتبط انتشار بعض الأعشاب المضرة مثل الفلوميس برسيكا (Phlomis persica) في مجالات جبلية شاسعة بزاغروس بين ارتفاعي 1,500 و2,000 متر، بانتشار الزراعة فيها قديما[4]. كما تؤكد هذه المعطيات

---

(1) Edit. Hambis, p. 40.

يوجد تحليل لتراجع الحياة الحضرية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشرفي منطقة بام المجاورة في كتاب: Aubin, 1956, p. 86-89.

(2) Mountahab al-tavarih-i Mouini, Édit. J. Aubin, Téhéran, 1957, p. 44.

كتب المصنف بين 1414 و1415، وترجع الأحداث المذكورة في هذا المقطع إلى سنوات 1260. وأدين لأوبان بهذا النص.

(3) توجد الكثير من الملاحظات التي يقدمها الرحالة؛ على سبيل المثال: Herzfeld, 1907, p. 60; Feilberg, 1952, p. 85.

(4) Pabot, 1960.

دراسة تقنية لصناعة الخيمة السوداء، فبعض أشكالها الموجودة في بلوشستان تنحدر مباشرة من الأكواخ ذات الأقواس الصغيرة المعروفة لدى الفلاحين أشباه البدو[1]، مما يشهد على الانتقال من حياة شبه بدوية محدودة إلى بدواة كبرى حربية. هذا ولم تتجسد نتائج انتشار البداوة للتو بشكل كامل، وإنما امتدت هنا وهناك إلى عهد قريب، في سياق أعمال التخريب وتنقلات أو صراعات الجماعات البدوية. وحتى في بداية القرن العشرين، تعرضت واحتا نيح وديح سالم في صحراء لوط للخراب بفعل غارات البلوش[2].

2. ظلت بعض مراكز الحياة الحضرية قائمة في وجه اجتياح البدو، إلا أنها انطوت على نفسها وتكتلت في نطاقات ضيقة، وتشبثت بأماكن ومواقع مناسبة جدا. فقد انتشر البدو في الأجزاء الجنوبية والغربية لكتلة دمافند (Damâvand) الكبرى، رغم وجود شواهد كثيرة عن زراعة قديمة، ويتعلق الأمر هنا بيايلاك بالنسبة للتتار الذين يقضون الشتاء في المنحدر الجنوبي للألبروز، وقد قام سفير إسبانيا لدى بلاط تيمور، كلافيخو (Clavijo)، في سنة 1404 بزيارة إلى صهر الأمير في هذه المنطقة، حيث وجده وسط تجمع يضم 3,000 خيمة. وقد ظلت هذه المنحدرات المعشوشبة إقامة مفضلة لملوك القاجار (Kâdjâr) حتى منتصف القرن التاسع عشر. في مقابل ذلك استمرت حياة الاستقرار في إقليم لاريجان القروي المحدود المساحة الواقع في المنحدرات البركانية الشمالية والشرقية للهضاب العليا المسطحة التي تشكلت أراضيها من التوف (tuf) والتي تشرف على خانق هراز الرهيب وهو مفتاح طريق رئيسي يربط بين الهضبة الإيرانية وبحر قزوين، وأصبحت هذه المنطقة قاعدة إقليمية لإمارة صغيرة ظلت شبه مستقلة عن سلطة طهران حتى منتصف

---

(1) Ferdinand, 1959 b, 1960.

(2) Stratil-Sauer, 1956, p. 11 et 20.

القرن التاسع عشر[1]. تركزت إذن مراكز المقاومة الحضرية المعزولة في المناطق الجبلية في الشمال، خاصة في الألبروز وكتل أذربيجان الجبلية مثل ساهند التي يمثل مشهدها الريفي بمدرجاته المقامة في قلب الأودية المروية وبحياته الرعوية في المنحدرات المجاورة، نموذجا لمشهد الجبل الإيراني بقراه الكبيرة المقامة جزئيا تحت الأرض[2]. ولا يكاد الأتراك الذين اتخذت حياتهم المادية طابعا إيرانيا يعرفون الخيمة التي نجدها بكثرة لدى فلاحي آسيا الصغرى المجاورة. كما أن أغلب أسماء الأماكن في الجبل تعود إلى الفترة السابقة للأتراك[3]، مما يؤكد عدم الانقطاع في نمط شغل الأرض. هذا وقد تمكنت الحضارة الزراعية الإيرانية القديمة من البقاء بفضل قوة تجذرها وذلك بالرغم من تجدد شبه كلي للمخزون العرقي، فهي تقوم على تقنية تهيئة للجبل لا مثيل لها، مما جعل الوافدين الجدد، وهم رعاة بسطاء ليس لهم تقاليد مشابهة، يتبنونها بشكل طبيعي عندما وجدوا من يلقنها لهم. أما التتريك اللغوي فلم يتم بشكل عنيف وحافظ على استمرارية الحياة الريفية. ونفس الوضع نجده لدى جماعات نوخورلي بمنطقة كوبت داغ (Kopet dagh) على الحدود الروسية الإيرانية، وهي جماعات تركمانية تسربت مؤخرا (خاصة منذ دخول الروس إلى تركستان حوالي 1880) إلى الجبل إلا أنها اندمجت تماما من حيث مظاهر الحضارة المادية في ثقافة الفلاحين الإيرانيين[4]. هذا ونجد في جهات عديدة من مناطق تعرضت أكثر من غيرها للخراب جزرا من القرى القديمة كما يدل على ذلك اعتماد زراعة المدرجات والتقنيات المكثفة لاستغلال الأرض، كما هو الحال في خراسان وحتى في بلوشستان[5].

---

(1) جمعت المراجع المتعلقة بانتشار البداوة في إقليم دمفاند في: Planhol, 1964 b, chapitre II, A.

(2) Planhol, 1958 c, 1960 c.

(3) أنظر خريطة أسماء الأماكن في ساهند ضمن كتاب: Planhol, 1966.

(4) Vasileva, 1954; Findeisen, 1960.

(5) بالنسبة لخراسان، أنظر القرى التي وصفها: Coon, 1952, p. 179-182.

شكلت سلاسل الهندوكوش والبامير وسط أفغانستان محورا مهما في المقاومة الحضرية. وبين المناطق التي انتشرت فيها البداوة وهي سهوب وسط آسيا من جهة ومنخفضات هلمند وأحواض بلوشستان من جهة أخرى، استمر تواجد السكان القدامى الناطقين بالإيرانية والدردية في الأودية العميقة، ويتعلق الأمر هنا بتاجيك الجبال المعروفين بالكفير لأنهم ظلوا وثنيين حتى بداية القرن العشرين واحتفظوا بأبقارهم الحاملة للأثقال[1]. أما الرحل الكرغيز الذين يحكمون سيطرتهم على غرب تيان شان (Tuan Chan) منذ القرن السابع عشر[2]، فلم تستقر سوى أعداد قليلة منهم في مرتفعات البامير المشرفة على الجماعات الريفية المستقرة في الأودية[3]. هذا وتزداد القابلية لتسرب الرحل كلما ابتعدنا غربا عن العقدة الجبلية الرئيسية للبامير والهندوكوش. وفي وسط أفغانستان، يعتبر إقليم هزارة مثالا جيدا للإدماج الثقافي والمادي للمغول الذين يحتمل أنهم مروا قبل ذلك بمرحلة بداوة في جنوب أفغانستان قبل أن يدفع بهم إلى الجبال تحت ضغط الرحل الأفغان في القرن الثامن عشر[4]، وأغلب السكان ينحدرون منهم وإن تخلوا تماما عن ثقافتهم الأصلية بتبنيهم للغة فلاحي الجبال ومظاهر حضارتهم المادية، ولم يعودوا يتنقلون للرعي إلا على مسافات قصيرة في منحدرات الأودية، كما لم تبق سوى بعض الخصائص التي تدل على أصلهم الإثني من قبيل مسكنهم الصيفي المؤقت في المراعي الجبلية والمعروف بالتشابار (tchapar)، وهو ذو شكل نصف كروي ويغطيه اللباد، ويبدو أنه ينحدر من اليورت (yourte). وفي

و فيما يخص بلوشستان، أنظر: .Balsan, 1957, p. 143 et pl. XII, I, p. 129

(1) ورد ذكر لهم ضمن جماعات زورغبة في جنوب شرق الهندوكوش، أنظر: Ferdinand in Humlum, 1959, p. 279.

(2) Krader, 1962, p. 59-60.

(3) حول تاجيك الجبال، أنظر خاصة: .Olufsen, 1904 وحول الكفير، أنظر: Robertson, 1896.

(4) Ferdinand, 1959 a, p. 12.

الغرب تشكل جماعات تشاهار-أيماك (فيروزكوهي، تايماني، تيموري، جامشيدي) التي تظل أصولها الإثنية غامضة، تركيبة مماثلة، حيث تحققت وحدتها الثقافية في إطار اللهجات الفارسية رغم أن التأثيرات الكبيرة للعناصر البدوية في الثقافة المادية (اليورت والخصائص المنحدرة من وسط آسيا التي تطبع كثيرا تشاهار-أيماك الشماليين وهم الجامشيدي والفيروزكوهي ؛ الخيام السوداء المتميزة جدا ذات الأصول الغريبة والمعروفة لدى التايماني الذين تعرضوا لأفغنة عميقة)، وتتنقل هذه الجماعات أكثر من الهزارة في إطار نمط عيش شبه بدوي واضح[1]. وفي أقصى الغرب، قرب هرات، استمر وجود جماعات مغولية اللغة إلى يومنا هذا، إلى جانب التاجيك القدامى الناطقين بالإيرانية، وتظهر الفوارق بين المجموعتين في النظم الزراعية المتبعة من طرف مجموعة مغولية حافظت بشكل مدهش على لغتها قرب هرات، وجيرانها تاجيك جبال بوركامان. فالمغول يقسمون أراضيهم إلى منطقتين دائريتين ومركز تنتشر فيه المنازل وسط حقول دائمة تسمد يدويا وتنتج أساسا القمح دون فترات إراحة للتربة، وتحيط بها حلقة خارجية تمارس فيها إراحة التربة وتخصب برعي المواشي التي تجلب إليها مع خيام الصيف بعد الحصاد. أما سكن التاجيك فيتجمع في شكل مراكز كثيفة، وتتربع أراضيهم الزراعية على مساحات أكبر وتمارس فيها إراحة التربة وزراعات متنوعة من قمح وبرسيم وذرة، بينما تحتل تربية المواشي حيزا أقل بكثير في حياتهم. هذا ما يجعل التقاليد البدوية أكثر وضوحا لدى المغول على مستوى السكن والنظام الزراعي منها لدى التاجيك[2].

يعتبر القوقاز مجالا آخر للمقاومة الحضرية، فكتلته الجبلية لم تتعرض

(1) حول جبال وسط أفغانستان، أنظر:
Bacon, 1951; Collin-Delavaud, 1958; Ferdinand, 1959 a; Schurmann, 1962
(يمكن تكميله وتصحيحه بالرجوع إلى): Ferdinand, 1964; Grötzbach, 1965.

(2) Schurmann, 1962, p. 246-301.

عموما للتتريك الذي لم يمس سوى الجزء الشرقي من المنخفض القوقازي وسواحل بحر قزوين، ولم تدخل إلى الجبال سوى جماعات تركية ضعيفة من البلكار (Balkar) والكراتشاي (Karatchay) التي استقرت في منطقة منبعي تريك (Terek) وكوبان (Kouban)[1].

باستثناء المناطق الجبلية لا توجد سوى حالة واحدة لمنطقة كبيرة ظلت في منأى عن التقلبات، ويتعلق الأمر بالجهات الرطبة والغابية لبحر قزوين، في إقليمي مازندران وغيلان، التي كانت بالنسبة للرحل حاجزا بيوجغرافيا يستحيل دخوله، ولم تتسرب إليها سوى جماعات تشكل بقايا قبلية بائسة تحولت إلى ممارسة حرف على شاكلة الغجر[2] في القطاعات الأكثر جفافا والأقل أشجارا مثل هضاب موغان غربا التي تحولت إلى مراع شتوية للرحل الذين يقضون الصيف في إقليم أذربيجان الأعلى، أو بلاد غورغان شرقا حيث توجد حدود يطبعها العداء مع تركمان جبل أتراك.

كما أن عددا من الواحات الكبرى ذات الطابع الحضري حافظت على وجودها، مثل أصفهان ويزد وكرمان وشيراز وغيرها من المراكز التي لم تنج من التخريب وتدين ببقائها لحجمها الكبير الذي أنقذها من الخراب الشامل. هذا وقد زالت العديد منها لصغر حجمها ولقلة مواردها المائية بعد أن دمرت منشآت نقل الماء، كما تراجعت المساحات المروية بشكل كبير وفي كل مكان، وقد تم وضع خريطة لهذا التراجع في إقليم خوارزم[3].

أخيرا، تجدر الإشارة إلى أن القسم الأكبر من أشباه الرحل الجبليين المتنقلين على مسافات قصيرة لم يتأثر بهذه التقلبات. ففي الجهات الجنوبية

---

(1) أحسن دراسة شاملة عن القوقاز هي: Byhan, 1936؛ وفيما يتعلق بالبلقار والكاراتشاي، أنظر: Karça et Kosay, 1954 (يوجد تقديم بالفرنسية لهذا الكتاب: Planhol, 1956 b).

(2) أنظر على سبيل المثال: Melgunof, 1868, p. 212; de Planhol, 1964 b, chapitre III.

(3) Tolstov, 1948 a et b.

الشرقية من جبال زاغروس نفسها، وهي أكثر جفافا ولا تساعد على استمرار أنماط العيش القديمة، نلاحظ بقاء مميزات واضحة لأنماط العيش الشبه البدوية، فجماعات الباشكارد في بلوشستان الغربي تعيش شبه بداوة تقوم على تنقلات قصيرة وقاعدة زراعية في واحات مروية تستغل فيها أشجار النخيل وزراعات في شكل مدرجات، وتتخذ مخازن جماعية تحت الأرض، وتعتمد على صنف من الحمير لحمل الأثقال اشتهر منذ العصور القديمة ولم يتغير منذ ذلك الزمن[1]. أما البقر الحامل للأثقال الذي يعتبر شاهدا على استمرار نمط التنقل القديم، فهو معروف في بلوشستان ذاتها، حيث نجد له أثرا محدودا في السهول ووجودا أكبر في الجبل[2]، الذي توجد فيه المدرجات والزراعة الكثيفة، مما يدل على تقاليد زراعية قديمة[3]. في مقابل ذلك وفي الكتل الأكثر حجما ورطوبة في الشمال الغربي من زاغروس، عمد الأكراد واللورسيون إلى إطالة تنقلاتهم إلا أنهم احتفظوا بأنماط تنقلاتهم البطيئة المعتمدة على الأبقار، وقد نجحوا في استيعاب تأثيرات تركية ومغولية كثيرة، كما تظهر ذلك الأسماء المغولية للأماكن في كردستان[4]، ويبدو أن أهالي كردستان نتاج طبقات عديدة تداخلت فيها جماعات من أصول مختلفة وفدت من الشمال والجنوب. كما أن نحلة الكاكاي الصوفية ذات النزعة الشيعية من بقايا سكان لم يخضعوا للأطر القبلية[5] في جبال كردستان العراق الحالي،

---

(1) Gershevitch, 1959.

حول الحمير في المنطقة، أنظر: Onesicritus in Strabon, XV, 2, 15.

يرجح أن إقليم الباشكارد هو نفسه غقليم كانثونيك (Kanthonike) الذي يذكره بطوليمي: Ptolémée, VI, 8, 2.

(2) Gabriel, 1929, p. 186-88 (حول جبل بربر); St. John in Goldsmid, 1876, p. 80 (حول الطريق من بامبور إلى كرمان).

(3) Balsan, 1957, loc. cit.

(4) Minorsky, 1957.

(5) Edmonds, p. 182 ss.

وذلك قبل الموجات الكردية البدوية الكبرى التي اجتاحت الجنوب الغربي والتي وصلت آخرها (جاف، مرادي، هامافند) إلى العراق مع نهاية القرن الثامن عشر[1]. وتضم قبيلة بايات ذات الاسم التركي والتي استقرت بمنطقة طوز خورماتو (قضاء كيفير، مقاطعة كركوك)، عناصر تركية وأخرى عربية تحولت إلى الكردية[2]. وقد أبدى العنصر الأصلي ونمط العيش المحلي على العموم قدرة كبيرة على الإندماج، ولم تنجح عملية التتريك إلا في الشمال في منخفضات أذربيجان السهبية، غير أننا نجد آثارا للقاعدة القديمة من قبيل استعمال الكثير من القبائل الأذربيجانية للبقر الحامل للأثقال، مما يدل على أنها قبائل كردية تم تتريكها[3].

هذا ومن الصعب أن نحدد بدقة وضع الآشوريين الكلدانيين في كردستان والذين حافظوا على ديانتهم المسيحية في الأودية النائية في قلب الجبل في منطقة الزاب الكبير وحتى الضفاف الغربية لبحيرة أورمية. فهل يتعلق الأمر هنا بمقاومة محلية تشهد على قطاعات لم يطلها التحول في وسط المجال الجبلي، أم أننا بصدد ظاهرة لجوء سكان السهول إلى المناطق الجبلية ؟ ويبدو أن الاحتمال الثاني هو الأرجح إذا ما أقررنا بالروايات التي ترجع استقرار هؤلاء السكان في الجبال إلى عصر تيمور والتي تحدد موقع بطريركيتهم الأولى في بغداد قبل أن تنتقل إلى الموصل[4]. وهذه الجبال هي أكثر مناطق اللجوء الجبلية شمالا بالنسبة للصحراء العربية. هذا ويضم هؤلاء السكان من دون شك عناصر محلية قديمة[5].

---

(1) Ibid, p. 37 ss, 141 ss.

(2) Ibid, p. 278.

(3) أنظر على سبيل المثال: Harris, 1896, p. 154.

(4) Lehmann-Haupt, I, 286-87; Lynch, II, p. 69-70.

يورد بيرسي روايات مناقضة: Percy, p. 195, 201.

(5) Lehmann-Haupt, I, 304-306.

ب. غزوات واستيطان الأتراك في الأناضول:

تختلف ظروف ونتائج وصول الرحل إلى الأناضول عما تم وصفه حتى الآن، فرغم أعمال التخريب والهدم التي رافقته إلا أنها كانت أقل حدة مما عرفته إيران[1]. كما لم يشهد الأناضول، خاصة غربه ووسطه إلا نادرا ظاهرة عودة السكان المستقرين إلى حياة البداوة والتي طغت على بعض المناطق في إيران. في مقابل ذلك كان التحول العرقي للأناضول أكثر سرعة وعمقا مما نلاحظه في إيران، التي كلله فيها صمود الانتماء الإيراني بعد قرون من الهيمنة السياسية للأسر الحاكمة التركية بالنجاح. هذا ونحاول فيما يلي تفسير هاتين الظاهرتين اللتين قد تبدوان متناقضتين لأول وهلة.

1. هناك أسباب مختلفة لهاتين الظاهرتين يجب البحث عنها أولا لدى الوافدين الجدد أنفسهم، ففترة الغزوات كانت قصيرة مقارنة مع ما حدث في إيران، إذ امتدت أساسا من الثلث الأخير للقرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر، وانقسمت إلى مرحلتين رئيسيتين، تمثلت أولاهما في فتح آسيا الصغرى نهاية القرن الحادي عشر، وثانيهما في الغزو المغولي خلال القرن الثالث عشر. هذا ولم يعرف الأناضول سوى آثارا غير مباشرة للغزو المغولي الذي كان حاسما في إيران، فقد نجا الأناضول من أعمال التخريب المباشرة وشهد في مقابل ذلك تسربا تدريجيا أكثر منه غزوات حقيقية لمجموعات تركية طردها الضغط المغولي من إيران وخوارزم. أما المغول أنفسهم فلم يدخلوا إلا نادرا إلى الأناضول[2]. ورغم أن أغلب أسماء قبائل الأوغوز

بحث عن آثار لشعب كالديس أرمينيا (Chaldes d'Arménie) القديم.

(1) بخصوص الفتح التركي للأناضول، أنظر بوجه عام: Cahen, 1954-55 a; Brice, 1955-56.

كما توجد دراسة للمعطيات البشرية في إطار إقليمي في: Planhol, 1958 a.

(2) يطلق اسم قارة تتار على العناصر المغولية التي وصلت إلى وسط الأناضول، حيث

(Oduz) لم يرد ذكرها في الأناضول قبل القرن الثالث عشر[1]، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أنها لم تصل إليه قبل تلك الفترة. ومنذ القرن الثاني عشر، تطلق المصادر الغربية الخاصة بحملة فردريك بربروسة (Frédéric Barberousse) على الأناضول اسم تركيا[2]. هذا ورغم استحالة تقديم أرقام حول المساهمة الحقيقية للعنصر التركي، فإنه يمكن الجزم بأن انتشاره السكاني تم خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، على الأرجح خلال فترة لم تتعد بضع عشرات من السنين، عندما كانت القوة السلجوقية تسيطر على إيران بإحكام وتوجه نحو الثغور الغربية أو الأوك (Uc) الرحل المشاكسين المعروفين باسم الغازي (gazi) والذين تبنوا مبدأ نشر الدعوة الإسلامية خاصة وأنهم كانوا حديثي العهد بالدين ووجدوا في ذلك فرصة لجمع الغنائم. إن هذا التراكم العددي على الحدود لعب من دون شك دورا كبيرا في التتريك السريع للأناضول وأذربيجان كذلك، حيث كانت إيران منطقة عبور بالنسبة للأتراك. ومن المحتمل أنه كان من بين هؤلاء الغزاة عدد كبير من أشباه البدو أو حتى العناصر الحضرية، التي اتضح دورها في تركستان الذي انطلق منه الأوغوز خلال القرنين العاشر والحادي عشر، وكان يطلق على هذه العناصر الحضرية اسم ياتوك (yatuk) (أي الكسالى وهي كلمة مشتقة من المصدر يات (yat)، والفعل هو ياتماك (yatmak) ومعناه: يضطجع). ويدل استعمال هذه التسمية على أن هذه العناصر الحضرية كانت تشكل أقلية لا يستهان بها عدديا، وعكس ياتوك هو اسم يوروك (yürük) الذي أطلق فيما بعد على رحل غرب الأناضول (أنظر أدناه). كما تدل

كانت عنصر فوضى حتى بداية القرن الخامس عشر، وقد قدر عددهم آنذاك مع بعض المبالغة بـ 40,000 خيمة، وقد هجرهم تيمور إلى آسيا الوسطى سنة 1403، ولم يرد ذكرهم بعد ذلك. أنظر: Sümer, 1960.

(1) Cahen, 1951; 1954-55 a; p. 357.

(2) Cahen, 1954-55 a, p. 358.

المفردات التي يستعملها الوافدون الجدد على تعودهم الكبير على الحياة الفلاحية[1]. وقد كان هدف هؤلاء السكان، الذين اضطروا إلى الهجرة تحت ضغط الكيبتشاك (Kipçak) والمغول، الاستقرار في أسرع وقت بأراض جديدة يفتحونها.

كما يمكن البحث عن أسباب أخرى دفعت نحو نفس الاتجاه في وضع البلاد نفسها في زمن الغزوات. فقد تم التأكيد على قلة سكان الأناضول عند دخول الأتراك إليه[2]، حيث لم تكن آثار الغارات العربية قد انمحت بعد، كما أن الاستيطان البيزنطي المتجدد لم يطل سوى مناطق السهول التي يسهل استغلالها، في إطار تنظيم اجتماعي قائم على الملكية الكبرى، مما مكن الرحل من حط الرحال بمحاذاة السكان المستقرين السابقين لهم دون قلب أوضاعهم. هذا ما يفسر سرعة الانتشار والتتريك. كما أن صلاحية البلاد للزراعة المطرية تفسر هذا التحول السريع عكس المقاومة الإيرانية، حيث كانت المراكز المروية والواحات الكبرى في الصحراء الإيرانية أو دواخل الأودية المهيأة في شكل مدرجات في المناطق الجبلية نقاط ارتكاز لا غنى عنها لاستغلال الأرض، تشبث بها السكان الذين لم يتخلوا عنها إلا في حالة تعرضهم للمجازر، ويفسر هذا التجذر المقاومة الثقافية واللغوية. أما في بلاد الزراعة المطرية، فقد كان المد والجزر يتمان بوتيرة سريعة في الأرياف وكان سكان الريف أكثر تنقلا، واقتصرت نقاط الاستقرار على المدن وحدها، وخارجها اختلط السكان إلى حد كبير وشجعت على ذلك سياسة الحكام السلاجقة القائمة على الاستيطان والترحيل.

2. في مقابل ذلك كانت المقاومات مهمة، وظلت مناطق شاسعة خارج سيطرة الغزاة لفترات قد تطول أو تقصر. ويرجع سبب إحدى هذه

---

(1) Sümer, 1958; 1960.

(2) Cahen, 1954-55 a.

المقاومات إلى الظروف الطبيعية، ويتعلق الأمر هنا بإمبراطورية طرابزون التي استمرت حتى القرن الخامس عشر في منطقة الغابة البونطية الساحلية، تحميها سلسلة جبلية شاهقة ممتدة شرق يشيل أرماك (Yeşil Irmak)، حيث امتنع هذا الإقليم الذي تميزه المنحدرات الشديدة والغطاء النباتي الكثيف عن الرحل، مثله مثل شريط بحر قزوين في إيران[1]، ولم تتعد قبيلة أوغوز الشيبني (Oduz des Çepni) الكبيرة التي كانت تتحكم في حدود إمبراطورية طرابزون خط القمم. هذا وتعبر الملحمة التركية المعروفة بكتاب ديدي كوركوت (Dede Korkut) التي وضعت وكتبت على الأرجح في القرن الخامس عشر، عن الفترة الطويلة التي تعثر فيها البدو في الهضاب العليا السهبية ولم يستطيعوا الدخول إلى الأراضي المنخفضة الرطبة والغابية في طرابزون وجورجيا، كما تروي المعارك التي شهدتها الثغور[2]. وقد كان التسرب التركي إلى المنحدر البونتي بطيئا جدا ولم يؤثر على استمرارية الحياة الريفية في المنطقة، وتكرر نفس المشهد مرارا بحدة أقل في مجمل المناطق البونطية. ويستعمل الأتراك عبارة "بحر الغابات" (agaç denizi) للدلالة على هذه المناطق، مما يعبر عن مشهد غابة الأراضي المنخفضة التي ينظرون إليها من أعلى والواقعة أسفل مرتفعات وسط الأناضول الجرداء التي سيطر عليها الرعاة بسرعة. وقد ارتكزت ثغور أخرى على حواجز غابية أقل كثافة، فدولة أرمينيا الصغرى في سهل سليسيا والمحتمية بجبال طوروس، منعت البدو من الدخول إلى جزء كبير من هذا القطاع حتى القرن الرابع عشر، وأخيرا ظل قسم من آسيا الصغرى الغربية تحت سيطرة بيزنطة ثم إمبراطورية نيسيا (empire de Nicée) حتى نهاية القرن الثالث عشر، وذلك غرب خط يربط بين مدن كاستامونو (Kastamonu) وكوتاهية (Kütahya) ودنيزلي (Denizli, Laodicée) وفتحية (Fethiye)، وهو خط المرتفعات الغابية المنيعة في فريجيا

(1) Planhol, 1963 b.

(2) Melikoff, 1964; Planhol, 1966 b.

(Phrygie) وكاريا العليا .(Haute Carie) وقد مكنت حرب الاسترجاع التي قادها الكومنين (Comnène) بعد فوضى العشريات الأخيرة للقرن الحادي عشر من السيطرة على أغلب السواحل والمدن الساحلية، حيث كتب أوستاش السالونيكي (Eustache de Thessalonique) سنة 1194: "أنه في الوقت الحالي، أصبحت رؤية وجه تركي تثير فضولا كبيرا لدى البحارة"[1].

3. هل يمكن في هذه الحالة وضع حوصلة أنثروبولوجية-جغرافية لهذه الغزوات؟ يلاحظ في الأقاليم التي فتحت سريعا خلال الفترة الأولى، الموافقة للقرن الحادي عشر، أي الهضبة الوسطى الأناضولية، أن أعمال التقتيل والتخريب توقفت بسرعة[2]، واهتم السلاطين السلاجقة الأوائل في آسيا الصغرى، بعد أن اندمجوا بسرعة في الوسط الحضري، بتوسيع مجال الحياة الحضرية أو إعادتها إلى سابق عهدها وذهبوا في ذلك إلى حد توطين غير المسلمين[3]. ولم توضع إلى حد الآن خريطة شاملة لأسماء أماكن آسيا الصغرى قبل الأتراك والتي يؤشر بقاؤها على استمرارية الحياة الريفية، إلا أن الدراسات الجزئية المنجزة[4] بينت كثرة هذه الأسماء في منطقة الأحواض الداخلية القريبة من جبال طوروس في بيسيديا (Pisidie)، كما يمكن تعميم هذا النوع من الاستنتاجات من خلال تحليل يشمل الجزء الأكبر من المناطق المشابهة في البلاد المرتفعة. وقد تمكنت جماعات عديدة من البقاء في الأودية الضيقة لهضبة كبادوسيا (Cappadoce)، حيث استمرت إقامة عدد مهم من السكان الإغريق إلى غاية تبادل السكان سنة 1923. ونلاحظ نفس

(1) Regel, Fontes Rer. Byz., I, p. 29.
ذكره: .H. Glykatzi-Ahrweiler, 1958

(2) Cahen, 1954-55 a.

(3) Nicétas, 504-505.

(4) بالنسبة لمنطقتي بيسيديا (Pisidie) وبامفيليا (Pamphylie)، أنظر: Planhol, 1958 a, p. 98-103 et carte II.

الاستمرارية في الهضبة العليا الأرمينية حيث استمر وجود القرى التي يوجد جزء منها تحت الأرض من النوع الذي أشار إليه كزينوفون[1].

والغريب في الأمر أن مناطق الأطراف الساحلية للأناضول الغربي التي ظلت أكثر من غيرها تحت سيطرة بيزنطة، هي التي تعرضت إلى الخراب أكثر من غيرها، إذ كانت هذه السهول والأودية مجالا للغارات الشتوية التي كان يقوم بها رحل الهضبة، وتضررت الزراعة بشكل كبير من جراء ذلك[2]. ويصف الشاعر يونس إمري (Yunus Emre) في بداية القرن الرابع عشر هذه الحملات :

النص التركي :

Yndik Rumu kiladk, çok hayr u er iledik
Usbahar oldu, geri goçtük elhamdülillâh [3]

الترجمة العربية :

نزلنا إلى أراضي الروم، وقضينا فيها الشتاء، وفعلنا فيها الخير والشر - وعندما حل الربيع رجعنا على أعقابنا، والحمد لله.

هذا ما يفسر التراجع المدهش لحياة الاستقرار في السهول الساحلية، والتي يعتبر السهل البامفيلي (plaine pamphylienne) مثالا حيا عنها[4]. وقد ساعد تفشي حمى المستنقعات على التسريع في العملية التي بدأها الرحل، والتي حددت مصير هذه المناطق لقرون عدة. ولم تحافظ سوى المدن الساحلية الرئيسية على وجود هش، حيث لم يتعد تأثيرها الجهات المتاخمة لها.

---

(1) Anabasc, IV, 5.

فيما يخص الدراسات الوصفية الحديثة، توجد مراجع كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:
Millingen, p. 17; Pietschmann, p. 261, 263.

(2) Anne Comnène, XV, 1-5.

(3) ذكر في: A. et T. Akarca, 1954.

(4) de Planhol, 1958 a.

3. تطور البداوة:

التحولات الأولى

وجدت البداوة التركية-المغولية سهولة في الدخول إلى المجال الجبلي، مما سمح لها بالانتشار في كل الجهات باستثناء الغابات الساحلية البونطية والقزوينية التي تحولت إلى مناطق لجوء. إن هذا الانتشار الشامل تقريبا جعل من تراجع البداوة أو تطويقها شرطا ضروريا لنهضة مستديمة. وتتجسد الأطر الأساسية للتطور البشري في العالم التركي-الإيراني في المراحل الكبرى لتاريخ البداوة. وقد كانت هذه المراحل مبكرة في الأناضول ومتأخرة في إيران وأفغانستان كما في وسط آسيا إلى غاية الاحتلال الروسي لها، ونفس المراحل عرفها هذا المجال كله مع فارق زمني قد يمتد على مدى عدة قرون من الغرب إلى الشرق.

أ. الاستقرار الأول وتنظيم طرق البداوة في الأناضول وإيران

1. تؤكد كل الدلائل أن الاستقرار تم بسرعة في هضبة الأناضول خلال العهد السلجوقي، كما يبينه الرجوع إلى خريطة أسماء الأماكن المشتقة من أسماء قبائل الأوغوز الكبرى (24 قبيلة كبيرة حسب القائمة التي وضعها رشيد الدين الذي شارك في الغزو)، التي تدل على وجود طبقة سكانية أقدم، قبل تفكك وانقسام هذه التنظيمات الكبرى الأصلية التي احتفظت بأسمائها بعض الجماعات الصغيرة خلال العهد العثماني كله[1]؛ ولم تعد هذه الأسماء تشكل إلا أقلية ضئيلة من بين أسماء العشائر (ajiret) في دفاتر القرن السادس عشر، وأسماء هذه العشائر الأقل عددا مستعارة أو طوطمية أو مهنية، إذ يتعلق

(1) أنظر الأعمال الكثيرة التي أنجزها: F. Sümer, 1948, 1949 b, 1949-50 a, 1951, 1951-53, 1953, a, b, c.

و قد تحرى هذا الكاتب بالتفصيل عن مصير بقايا القبائل الكبرى.

الأمر في الواقع، مع بعض الاستثناءات التي لا تقلل من القيمة الإحصائية للوثيقة، بطبقة أسماء تعود إلى نهاية القرن الرابع عشر على أكثر تقدير. وتبين الخريطة ندرة هذه الأسماء في السهب الأوسط الموحش والمقفر، وفي أرمينيا الصغرى (طوروس وسيليسيا)، وفي إمبراطورية طرابزون، وفي الأناضول الغربي البيزنطي الذي تستثنى منه بعض الأودية الكبرى التي دخلها الرحل في وقت مبكر بحثا عن مجال لقضاء الشتاء. في مقابل ذلك نلاحظ كثافة مميزة لهذه الأسماء لأسباب تاريخية على طول حدود إمبراطورية نيسيا (Nicée)، من الشمال إلى الجنوب، وتزداد هذه الكثافة خاصة في منطقة التراكم في ليسيا العليا (haute Lycie) ومواطن الشتاء التابعة لها. على أن خاصيتين مميزتين ظهرتا منذ ذلك الوقت، أولها ندرة أسماء الطبقة القديمة في المناطق الساحلية والسهول المنخفضة من جهة، والعدد الكبير لهذه الأسماء في المناطق البونطية وخاصة في أحواضها الداخلية (جهات أنقرة، وشوروم (Çorum)، وكاستامونو (Kastamonu)). ويتأكد هذا الواقع من خلال توزيع اسم كوشلا (kla) (أي موطن الشتاء) والمفردات المشتقة منه، فباستثناء بعض الجماعات المعزولة في المناطق المتوسطية (وادي غوكسو (Göksu) مثلا)، تتركز الغالبية العظمى للأماكن التي يطلق عليها اسم كوشلا في الجهات البونطية، وأحواض المنحدر الداخلي (شوروم، أنقرة) أو السهول الطولية أو الأودية الواقعة وسط الجبال (مناطق كاستامونو، وإزنيك (Yznik)، وأرتفين (Artvin)، وأودية يشيل إرماك (Yejil Irmak) وفليوس شاي (Filyos çay) أكثر منها في المنحدر الساحلي. ويمكن تفسير جاذبية المناطق البونطية بالمناخ الأكثر برودة واعتدالا، والذي يناسب رحل السهوب الباردة من الأتراك الذين كانوا يخشون الحرارة المرتفعة في جنوب الأناضول. فقد كانوا يجدون في المناطق البونطية آفاقا تعودوا عليها وجبالا متوسطة توفر المرعى خلال الصيف (يايلا) وأحواضا محمية يقضون فيها الشتاء (كوشلا، كوشلاك). وباستثناء بعض الحالات النادرة، لا يستعمل اسم كوشلا إلا في الهضبة أو في الأحواض التي تضمها كتلة

الأراضي المرتفعة، مما يدل على المسالك الأولى التي اتبعتها الجماعات البدوية الوافدة حديثا، وتوافق هذه المسالك التنقلات على مسافات قصيرة بين الجبال والمنخفضات المجاورة لها عبر التضاريس المتقطعة للكتلة الأناضولية، مع تفادي السهول المنخفضة والسواحل التي ظلت لمدة طويلة تحت سيطرة الحصون البيزنطية، والتي لم يجذب دفؤها الشتوي الأتراك المتعودين على مناخ يتميز بشدة برودة شتائه.

في هذه المنخفضات المحمية للهضبة العليا، وعلى وجه الخصوص في المنحدرات الطورية والبونطية، استقر الرحل بسرعة خلال فترة الإمارات السلجوقية المزدهرة في القرن الرابع عشر. وسرعان ما تأكد دور الفلاح-البدوي على حساب البدوي. وعلى هامش مجموعات الفلاحين التي تعززت شيئا فشيئا غرب الأناضول، لم يلبث البدو أن أصبحوا أقلية بل استثناء. وفي هذه الفترة بالذات أطلق عليهم في غرب شبه الجزيرة الاسم الذي لا زالوا يعرفون به إلى يومنا هذا وهو يوروك (Yürük) (أي الشخص الذي يمشي، والمشتق من المصدر يورو (yürü)، والفعل هو يوروميك (yürümek): يمشي). وقد ظهر هذا الاسم في القرن الخامس عشر[1]، في الوقت الذي احتفظ فيه شرق الأناضول، شرق المجرى العلوي لوادي كزل أرماك (Kzl Irmak) وخط يكمله نحو الجنوب وصولا إلى البحر، بتسمية التركمان (و هي تعظيم لتسمية تركي، بمعنى التركي القح والنبيل والقوي، الخ) التي عرفت في وسط آسيا منذ القرن التاسع[2]. وقد أصبح اليوروك يشكلون طبقة متميزة تفرض عليها التزامات عسكرية محددة[3]، ومع الضغط الذي مارسه عليهم

(1) ظهر لأول مرة في كتاب تاريخ السلاجقة لعلي يزيشيوغلو (Tevarih-i Al-i-Selcuk, de Ali Yazıcıoğlu) الذي كتب في عهد مراد الثاني (1422-1451). وفي القرن الرابع عشر، أطلق ابن بطوطة اسم التركمان على كل الأتراك الرحل في غرب الأناضول).

(2) Kafesoǧlu, 1958.

(3) Çetintürk, 1943; Cf. Gibb et Bowen, 1950, p. 250 ss.

الفلاحون اضطر الرحل إلى البحث عن مواطن شتوية خارج الهضبة، فاتجهوا منذ ذلك الوقت إلى السهول المنخفضة، وبذلك تشكلت مسالك البداوة التي تطبع إلى يومنا هذا غرب الأناضول، حيث يقضي الرحل الصيف في مرتفعات طوروس أو في كتل جبلية داخل الأناضول (سلطان داغ (Sultan dağ، أناماس داغ (Anamas dağ)، مراد داغ (Murat dağ))، ويتنقلون في الشتاء إلى السهول المنخفضة السيليسية والبامفيلية والليسية في حوضي وادي الميناندر (Méandre) ووادي غديز (Gediz) في الواجهة البحرية لإيجة التي تغطيها في الصيف أحراش مضرة ولا تكاد تصلح للزراعة. وتمتد هذه التنقلات المستجدة على مسافات تتراوح بين 100 و200 كيلومتر. كما أن دفاتر الضريبة التي تعود إلى القرن السادس عشر تخبرنا عن وضع لا يختلف كثيرا عمّا نعرفه اليوم[1]. ورغم أن جماعات الرحل كانت آنذاك أكثر عددا مما هي عليه اليوم (حيث كانت تضم عادة عدة مئات وأحيانا عدة آلاف من الخيام)، فإن المشهد العام لتنظيم البداوة ومسالكها ومرورها ما بين جماعات السكان المستقرين الذين تتزايد كثافتهم لم تتغير منذ ذلك الوقت.

2. بعكس الأناضول لا نتوفر على معلومات تسمح لنا بتتبع دقيق لتطور الوجود البشري البدوي في إيران التي تحول فيها البدو في بعض الحالات إلى حياة الاستقرار في وقت مبكر، فمنذ القرن الثالث عشر، ورد ذكر الجورمائيين، الذين يوصفون بالمغول، على أنهم في طريقهم للاستقرار في إقليم غارمسير اللار (كوربال). واستقر آخرون حوالي سنة 1340 بدارابجيرد بإقليم ساردسير[2]، غير أن هذا الاستقرار عرف انقطاعا مستمرا وعرقله التجدد الدائم لصفوف الرحل. وفي أذربيجان التي يتوفر بها تاريخ مفصل لتتابع القبائل[3]، كان عند التركمان كثيراً، خاصة في شمال البلاد الذي

(1) de Planhol, 1958 a, p. 115-117.

(2) Aubin, 1955.

(3) Sümer, 1957.

يشكل منطقة ثغرية (أوك، uc) في مواجهة جورجيا المسيحية، وذلك حتى الغزو المغولي الذي اضطرهم إلى هجرة كاملة نحو شرق الأناضول. وفي زمن القوة المغولية الكبرى، ظهرت جماعات تركية ومغولية جديدة في كل أذربيجان. وبعد موت أبي سعيد (1335) حدث تحول جديد، حيث رجعت إلى إيران جماعات متزايدة من رحل شرق الأناضول مثل الشوبانلو (Çobanl) الذين وصلوا إلى أذربيجان (إرّن، Erran) من منطقة أرضنكان (Erzincan) في منتصف القرن الرابع عشر. وازدادت هذه الحركة في عهد القارة قويونلو (Kara Koyunlu) (حيث رجع إلى إيران الأغاجريين (Ağaçeri) من منطقة مرعش (Msara)، والمعروفين اليوم في لورستان وفارس إلى جانب الكاشكاي (Kachkai))[1]، ونفس الظاهرة عرفها عهد الأق قويونلو (Ak koyunlu) وهي عبارة عن إمارات تأسست بالاعتماد على الدعم السياسي للرحل. ومنذ ذلك الوقت بدأ يرتسم الاختلاف بين الاستمرارية السياسية العثمانية والاستقرار في الأناضول من جهة، وعدم الاستقرار السياسي وما يرتبط به من تجديد مستمر للبداوة في إيران من جهة أخرى. هذا وبلغت حركة عودة البدو ذروتها في العهد الصفوي، فبالموازاة مع إعلان المذهب الشيعي مذهبا رسميا للدولة في إيران، قدمت إليها أعداد كبيرة من التركمان الرحل الوافدين من الأناضول والتي كانت الدعوة الشيعية نشطة بينهم، والتف الكزل باش (Kzl ba) الوافدون من منطقة أرضنكان (Erzincan) حول الشاه إسماعيل منذ 1540، وطالت هذه الحركة جنوب غرب آسيا الصغرى، حيث غادر التيكيلو (Tekelü) موطنهم بشبه الجزيرة الليسية باتجاه إيران رفقة 15,000 جمل. هكذا شهد أذربيجان تجددا مستمرا للبداوة حتى القرن السابع عشر وتأخر الاستقرار فيه بقرنين أو ثلاثة عن الأناضول الغربي، ولم يبرز كبلد للقرويين الأتراك بحدوده اللغوية الحالية إلا مع حلول القرن السابع عشر[2].

---

(1) Bala, 1953.

(2) Cf. Evliya Çelebi, II, 227 ss et IV, 286 ss.

ب. مرحلة الأحلاف الكبرى في الأناضول وإيران:

1 .تتأكد الفوارق من خلال تطور متشابه ومختلف زمنيا في كل من إيران وشرق الأناضول، تمثل في مرحلة مميزة لتطور البداوة في البلاد ذات الطابع الحضري، ألا وهي مرحلة الأحلاف الكبرى. ويرجع الفضل لبارث (F. Barth) عند دراسته للبداوة المعاصرة في زاغروس[1] في توضيح المعنى الاجتماعي والسياسي للأحلاف البدوية الكبرى التي قد تضم أكثر من 100,000 شخص، كما هو الحال بالنسبة للبختياري والكاشكاي والخامسة، والتي تتكون أحيانا من قبائل ذات لغات مختلفة (حيث يضم حلف الخامسة قبائل ناطقة بالعربية والتركية والإيرانية). وتعكس هذه الأحلاف الضخمة مرحلة شغل للأرض يميزها تشبع مجالات الرعي المتوفرة للبدو، مع تواجد مراكز حضرية مهمة تتداخل معها المسالك البدوية إلى حد كبير، بحيث تتطلب هذه الكثافة وضع تنظيم صارم جدا للمسالك التي تتوالى عليها مختلف القبائل خلال السنة في إطار وتيرة البداوة الجبلية، حيث تغادر بعض القبائل المراعي الواقعة على ارتفاع منخفض باتجاه المراعي الجبلية المرتفعة لتأخذ مكانها قبائل أخرى، كما هو الحال الآن في فارس إذ يتحدد تتابع المجموعات الإثنية المختلفة بقدرتها على شغل المجال الجبلي، وعادة ما يضع الترتيب العادي الأتراك في وقت ما في المستويات العليا، والعرب في المستويات السفلى، والإيرانيين في المستويات المتوسطة[2]. ويستوجب هذا التنظيم وجود سلطة قوية قادرة على فرض توزيع دقيق للمراعي وتحديد المسالك، ومؤهلة كذلك للتفاوض على مستوى أعلى مع السلطة السياسية الحضرية لضمان التعايش الصعب بين كبار البدو والدولة المنظمة وذلك بالحد بقدر الإمكان من النزاعات.

---

(1) Barth, 1961.

(2) Barth, 1959-60.

تشكل الأحلاف البدوية بنيات قوية ومركزية إلى حد كبير، كما أن مرحلة التشبع تفرض من جهة أخرى الطرد العفوي باتجاه المجتمع الحضري للفائض الديمغرافي البدوي الناتج عن نمط عيش ملائم وصحي مقارنة بالحياة الحضرية، فضلا عن أن توزع البدو يقيهم غالبا الأوبئة الكبرى. وتسهل آليات اجتماعية واقتصادية منتظمة استقرار الفائض البشري الذي يعيش في حالة فقر والذي يستخدم في إطار الهيمنة العقارية للأرستقراطية البدوية، ففي فارس قبل التقلبات المعاصرة التي عرفتها الظروف الديمغرافية ومتوسط العمر، قدر أن نصف السكان المستقرين من كل جيل هم من أصل بدوي، بحيث شكل عالم الريف مقبرة للفائض الديمغرافي المنتظم للقبائل. هذا ما يجعل من مرحلة الأحلاف الكبرى المرحلة النهائية والأكثر إحكاما للتعايش بين البدو والحضر في حالة توازن في وسط جغرافي ذي طابع حضري، قبل أن ترجح الكفة نهائيا لصالح حياة الاستقرار. ويسبق هذه المرحلة تطور طويل المدى يميزه نمو ديمغرافي للبدو إلى أقصى طاقة المسالك الرعوية المتوفرة، وتحديد لهذه المسالك التي لا تتغير إلا نادرا.

2. لا زالت الأحلاف الكبرى قائمة أو تفككت منذ وقت قريب في جبال زاغروس التي استمر فيها مفعول الآليات المذكورة آنفا إلى غاية السنوات الأخيرة. ويرجع تشكل هذه الهياكل القوية إلى عهد متأخر نسبيا، فالكاشكاي ذوو الأصول التركية والذين أدمج مخزونهم الإثني المعقد جدا عناصر مختلفة خلال تقلبات العصور الوسطى، يرد ذكر اسمهم منذ 1415[1]، غير أن التطور الكبير للحلف لم يحدث قبل القرن السابع عشر. وإلى نفس الفترة يعود تنظيم حلف البختياري، الذي ضم في إطار الدولة الصفوية، أشباه البدو الإيرانيين القدامى في زاغروس والذين تحولوا إلى البداوة الكبرى بين الجبل وسهول خوزستان. أما نشوء حلف الخامسة فلا يتعدى منتصف القرن

(1) Aubin, 1955.

التاسع عشر، وشجعته أسرة غافام التجارية الغنية المستقرة في شيراز لضمان حماية القوافل ولخلق توازن مع قوة الكاشكاي[1].

أما معارفنا حول أفغانستان فتظل ناقصة إلى حد كبير بحيث لا تسمح لنا بتحديد تاريخ تكون تنظيمات مماثلة فيها لعبت دورا مشابها. على أنه من المحتمل أن تشكل تشاهار أيماك (Tchahar-Aimak) وهي قبائل شبه بدوية كبيرة في غرب مرتفعات وسط أفغانستان، يعود لأحد الحكام التيموريين[2]. وفي نفس السياق، نشأت في القرن التاسع عشر علاقات بين جماعات بدوية والأمراء الأفغان في كابول وقندهار وهرات[3].

3. لم يعرف الأناضول الغربي شيئا من هذا القبيل، فقد استقر فيه البدو في وقت مبكر وبكثافة، بينما عاش الأناضول الشرقي مرحلة الأحلاف الكبرى، فقد تسرب البدو إليه بكثرة خلال فترة الغزو المغولي، وكان الاستقرار العفوي فيه بطيئا مقارنة مع الغرب. من جهة أخرى، تراجع الرحل التركمان إلى الهضبة الأناضولية بعد أن انتشروا في الصحراء السورية وتعرضوا لقهر الدولة المملوكية. وانتشروا في الصحراء من جديد بعد فتوحات السلطان سليم في إطار بداوة كبرى جبلية، إذ كانوا يرجعون كل صيف إلى الهضبة العليا لشرق الأناضول. وبعد أن تبلورت الإدارة العثمانية في هذه البلاد، لم تتجسد، كما هو الحال في غرب الأناضول، في إطار مقاطعات إقليمية تضم اليوروك، وإنما اتخذت أساسا شكل أحلاف بدوية ضخمة يتم إحصاؤها بدقة إلا أن ولاءها كان شخصيا، وكانت حدودها الجغرافية غامضة إلى حد ما بحيث تمتد هذه المقاطعات من الشمال إلى

---

(1) Barth, 1961.

(2) Ferdinand, 1959 a.

(3) أنظر الوصف الرائع الذي يقدمه فيريي من خلال رحلته عن الوضع السياسي الأفغاني: Ferrier, 1856.

الجنوب، أي من يايلا (yayla) الهضبة الأناضولية العليا إلى كيشلاك (klak) سفح طوروس والصحراء السورية. وقد مكنت دفاتر الإدارة العثمانية التي تعود للفترة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر[1] من وضع جدول بأهم التجمعات : قارة أولوس (Kara Ulus) في جنوب بحيرة فان، بوز أولوس (Boz Ulus) في منطقة ديار بكر، دولكادورلو (Dulkadrl) ويني إيل (Yeni Yl) بين مرعش (Maraj) وسيواس (Sivas)، وبوز أوك (Boz Ok) في حلقة كوزول إرماك (kzl Irmak)، وأوش أوكلو (Oç Oklu) ورمضانلو (Ramazanl) في طوروس السيليسي. وتوجد جماعات أقل عددا من قبيل تركمان دمشق الذين كانوا يقضون الصيف في طوروس المضاد (Anti-Taurus) شمال مرعش، وتركمان حماة والرقة المنتشرين في الصحراء. وتشكل جماعة أت شاكن (At çaken) (ترجمتها الحرفية : الذين يجرون الخيل، أو قادة الخيل، وأطلق عليهم هذا الاسم بسبب ضريبة الخيل التي فرضت عليهم)، مجموعة انتقالية مع اليوروك، وتقضي الشتاء في سهل سيليسيا والصيف في السهب الأناضولي الأوسط حتى منطقة قونية. وهناك مؤشرات على استقرار جزئي متقدم خاصة بالنسبة لجماعة يني إيل جنوب سيواس، بحيث توجد علامات انتقال منظم إلى مرحلة شبه البداوة، كما يدل على ذلك استعمال التسمية القانونية صباحي (sipahi) التي تعكس ارتباطا دائما بالأرض. غير أن أغلب الأحلاف ظلت هياكل بدوية كبيرة لم تتغير. وكانت جماعة بوز أولوس التي وصلتنا بشأنها وثائق دقيقة[2]، تقضي الشتاء جنوب مردين والصيف في الهضبة الأناضولية في منطقتي ديار بكر وأرضروم، وكانت تصل أحيانا إلى جورجيا وبلاد فارس، وكانت هذه الجماعة تضم 40,000 فرد وتمتلك حوالي مليوني رأس ماشية. هذا ما يؤكد التشابه الكبير بين الوضع في شرق الأناضول والوضع الذي ساد لقرون عديدة أخرى في زاغروس.

---

(1) Sümer, 1949-50 a.

(2) Sümer-Demirta?, 1949 a.

جـ. البداوة والتبلور الإثني في آسيا الوسطى السفلى بعد الفترة المغولية

تطورت البداوة في آسيا السفلى ضمن إطار مختلف بعد التحولات الإثنية الكبرى التي أحدثها غزو جنكيز خان في القرن الثالث عشر، فقد كان البدو فيها يتمتعون بحرية حركة أكبر بكثير، ورغم احتفاظهم عادة بروابط سياسية مع الدول ذات القاعدة الحضرية التي اتخذت من الواحات عواصم لها، فإنهم كانوا قادرين على كسر هذه الروابط بسهولة. وكانت القبيلة القائمة على صلة الدم والتي ينحدر أفرادها من جد واحد تشكل الوحدة الأساسية أكثر من الحلف السياسي. وفي إطار الجماعات البدوية، نسجت العلاقات الثقافية والتبادلات التي أدت إلى الوحدة اللغوية والتبلور الإثني، خارج تأثير السلطة الحضرية، وقد استمر مفعول هذه الآليات على مدى قرون عدة.

1. هذا ويجسد تشكل الشعب الأوزبكي مثالا عن تبلور إثني تحقق في إطار تبعية كبيرة تجاه المراكز السياسية الحضرية. فقد تم تتريك آسيا السفلى على أنقاض القوة المغولية، منذ الفترة التيمورية، حيث أن الدول المتعاقبة في واحات بلاد ما وراء النهر اعتمدت لغة تشاغاتاي (Tchagatay) التركية لغة أدبية ورسمية. وقد تشكلت القومية الأوزبكية في إطار هذه الإمارات، خاصة إمارات فروع الأسرة الشيبانية التي استمر وجودها إلى غاية الغزو الروسي. وترجع تسمية الأوزبك إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر إلا أن مدلولها الإثني لم يتبلور إلا مع نهاية القرن الخامس عشر. وقد تشكل هذا الخليط بتأثير من أمراء بلاد ما وراء النهر والمغول الذين تحولوا إلى التركية (الأتراك المحليين)، وكذلك من الأتراك المهاجرين المنحدرين من العصبة الذهبية، والسكان الإيرانيين الحضر القدامى المعروفين بالسارتيين (Sartes). وظلت القومية الأوزبكية خلال القرون التالية تجذب إليها عناصر أخرى على حساب الشعوب البدوية الكبرى المجاورة، مثل الكوراما (Kourama) القاطنين بحوض وادي فرغانة والمنحدرين من الكازاك الذين

فقدوا مكانتهم الاجتماعية[1].

2 .غير أن أهم الشعوب البدوية التي تهيمن إلى يومنا هذا على الحياة في آسيا السفلى، تشكلت خارج مجال تأثير الإمارات الحضرية، فالكازاك ينحدرون من جماعات انفصلت عن الخان الكبير الأوزبكي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، وهم "مغامرون" و"ثائرون" و"محاربون أحرار"، وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على تنظيم سياسي بدوي، ثم على شعب بأكمله، ولا زالت بعض الشعوب التركية تستعمله للدلالة على جيل الشبان التواقين للمغامرات البطولية[2]. كانت اللحمة التي وحدت هذه الشعوب استقلاليتها عن الإمارات الأوزبكية، وأخذت شكل ثلاث عصب كبرى هي : العصبة الكبيرة، والعصبة الصغرى، والعصبة الوسطى، وانتشرت هذه العصب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من بحيرة بلكاش (Balkach) وإيسيك كول (Issyk Koul) شرقا، حيث يوجد موطنها الأصلي، إلى الأورال وقزوين غربا[3]. أما نشأة الشعب الكرغيزي فتظل أكثر غموضا، فعلاقاته مع كرغيز إينيسيائي (Iénissei) التي تطرقت إليها المصادر الصينية في العصور الوسطى، تبقى محل جدل، وترجع أولى المعطيات المؤكدة لوجود الشعب الكرغيزي الحالي إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر في منطقة سميرتشي (Semiretchye)، التي هجروها تحت ضغط الروس والكازاك باتجاه جبال تيان شان الغربية (Tian Chan) والبامير مع نهاية القرن السابع عشر. وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر شهدت السهوب المقابلة لبحر قزوين الفترة الحاسمة في تشكل الشعب التركماني الذي يتكون من أحفاد أوغوز (Oduz) العصور الوسطى بالإضافة إلى عناصر مختلفة أخرى خاصة العرب[4].

---

(1) Jakubovskij, 1941; Krader, 1962, p. 60-63.

(2) von Gabain, 1962.

(3) Krader, 1962, p. 63-66.

(4) Ibid, p. 57-58.

4. تطور البداوة:

الاستقرار والتحول في الفترة المعاصرة

أ. السياسة العثمانية لاستقرار البدو:

1. لم تستمر الأحلاف الكبرى التي عرفها شرق الأناضول في القرن السادس عشر لمدة طويلة[1]، حيث أن اهتمام الدفاتر العثمانية في القرن السادس عشر بالبدو كان ينطوي على أهداف محددة، فالإمبراطورية العثمانية التي أهملت إلى حد ما بدوها خلال فترة توسعها الكبرى، أخذت تبدي اهتماما متزايدا بهم مع تعثر وكلفة تقدمها في أوربا، وكانت دوافع هذا الاهتمام مالية (تحصيل الضرائب) وعسكرية (تجنيد الفرسان). وبهذا تزايد ضغط محصلي الضرائب والحكام المحليين، رغم صعوبة مهمتهم في وجه جماعات قوية جدا. ومع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر اعتمد حكام شرق الأناضول سياسة منهجية تشجع الفلاحين المستقرين بما في ذلك المسيحيين منهم على حساب البدو، لأنهم يوفرون موارد أكثر استقرارا؛ حتى أن السلاطين اضطروا أحيانا للتدخل لضمان حرية تنقل البدو[2]. بفعل الضغط الشديد عليها انتهى الأمر بالأحلاف إلى التفكك والتفرق، إذ لجأت أعداد كبيرة من البدو الشيعة إلى إيران الصفوية، وتسرب الذين ظلوا على المذهب السني إلى البلاد العثمانية باتجاه غرب الأناضول في شكل جماعات صغيرة. ويمثل حلف بوز أولوس (Boz Ulus) مثالا حيا عن

---

(1) فيما يخص ما يلي، اعتمدنا أساسا، بخلاف الوثائق التي جمعها في أعمال مختلفة سومر (F. Sümer)، على النصوص المهمة حول البدو المنشورة في تركيا. فمن وجهة النظر العامة يمكن الرجوع إلى: Ahmet Refik, 1930؛ وعلى المستوى المحلي إلى: K. Su, 1938; I Gökçen, 1946.

(2) Refik, N° 14, p. 7, 972 H; N°, p. 10, 975 H.

هذا التحول[1]، ففي سنتي 1602 و1613 ورد ذكر عناصر منه في مناطق وسط الأناضول وإقليم كرمان؛ وفي 1673، جردت حملات حقيقية ضدهم في جهات أقشهير (Akjehir) وأفيون (Afyon) وكوتاهية (Kütahya) بهدف جمع الضرائب، مما اضطر من تبقى منهم إلى الانتشار غربا حتى وصلوا إلى أقاليم ساروهان (Saruhan) وأيدون (Aydn) ومنتشيه (Menteje) الساحلية، ورحلوا حتى إلى رودس (Rhodes) وإستانكوي (Istanköy)، كما استقرت عناصر منهم في كوش أدازو (Ku adas) حيث بنوا بيوتا، واستوطنت جماعات صغيرة في القرن الثامن عشر حلقة سكاريا (Sakarya) في منطقة أنقرة، فيما ظل آخرون على بداوتهم، وقد ورد ذكرهم في القرن الثامن عشر في منطقتي أكشهير (Akjehir) وأولغون (Ilgn)، ثم في منتصف القرن التاسع عشر في ناحيتي أفيون (Afyon) وكوتاهية (Kütahya)، حيث لا زال تجمع عشائر صغيرة يحمل اسم بوز أولوس. هذا وقد تم تقدم بوز أولوس نحو غرب الأناضول عبر الجهات الداخلية أي الهضبة الوسطى والسفوح الداخلية لجبال طوروس، ولم يتوغلوا في الأطراف إلا عندما وصلوا في تقدمهم إلى أقصى غرب الأناضول، وقد ظلت المراعي الشتوية للساحل المتوسطي، وهي السهول السيليسية والبامفيلية، خارج نطاق تقدمهم. وتكررت بذلك بعد قرون من الزمن الظروف التي ميزت الغزو البدوي الأول. هذا وشهدت الأحلاف الأخرى تطورا مشابها، مما انجر عنه تجدد سريع للتواجد البدوي في غرب الأناضول، كما يثبته الفرق الشاسع بين قوائم القبائل التي وضعت في القرن الثامن عشر[2] وتلك التي تتضمنها الدفاتر الجبائية للقرن السادس عشر، بينما لا تختلف كثيرا عن القوائم الحالية أو الموضوعة مؤخرا[3]. هذا وقد ظهر نوع جديد من البدو وهم

---

(1) Sümer-Demirtas, 1949 a.

(2) خاصة القوائم التي وضعتها المحكمة الشرعية في اصبرته (Isparta)، أنظر: Planhol, 1958 a, p. 11

(3) بالنسبة لنفس المنطقة، أنظر القائمة التي وضعها: Atabeyi, 1940.

اليوروك القدامى (Eski Yürük)، وهم عبارة عن قبيلة تضم خليطا من بدو الطبقة القديمة السابقة لتجدد السكان الذي شهده القرن السابع عشر.

2. أصبح هدف السياسة العثمانية في مواجهة هذا التشرذم يتمثل في دفع البدو إلى الاستقرار مهما كلف الثمن، واتخذت منذ نهاية القرن السابع عشر طابعا منسقا[1]، يعكس تغير مصالح الإمبراطورية التي وجهت أنظارها نحو الأناضول مع بداية التراجع في أوربا. وكانت هناك إمكانية أولى تتمثل في توطين بقايا الأحلاف الكبرى في مواطنها الشتوية قليلة السكان أي في سفح جبال طوروس الشرقية وشمال الصحراء السورية بهدف تحجيم ومراقبة القبائل العربية، خاصة الشمر الذين كانوا في تلك الفترة يتوسعون باتجاه الشمال في الفراغ الذي تركته أحلاف شرق الأناضول التركمانية الكبرى التي هجرت مواطنها الشتوية في الصحراء السورية. وهنا نجد أكبر عدد من المساكن الحضرية، من سهل سيليسيا إلى حوض الفرات (الرقة) وحوض الأورونت (جهات حماة وحمص). وقد تمت محاولات كثيرة في هذه المناطق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر[2]، إلا أنها فشلت، فهذه الأراضي الحارة، الحارقة صيفا، لم تجذب الأتراك الذين يفضلون برودة الصيف، وكان من الطبيعي أن تبوء سياسة مناقضة تماما لتطلعات وحاجيات بدو السهوب الباردة بالفشل. فقد فر التركمان الذين استقروا في منطقة الرقة إلى الهضبة الأناضولية[3]، ولم تفلح محاولات نقلهم إلى موطنهم الأصلي[4]. كان لهذا الفشل الذريع نتائج مهمة، إذ تزامن مع توسع البدو العرب نحو الشمال والتعريب النهائي للصحراء السورية مع تفكك الأحلاف الكبرى

---

(1) Orhonlu, 1963.

(2) أنظر: Orhonlu, 1963؛ وكذلك: Refik, N° 148, p. 96, 1102 H; N° 159, p. 106, 1104 H.

(3) Refik, N° 154, p. 100, 1102 H; N° 169, p. 117, 1110 H

(4) Refik, N° 233, p. 202, 1153 H; N° 212, p. 171, 1141 H

التركمانية التي كانت تتنقل بين شمال وجنوب شرق الأناضول، ولم تبق في أقصى شمال الصحراء السورية سوى بعض آثار السياسة العثمانية الكبرى التي انتهجت في القرن الثامن عشر. وتمثل جماعة براك (Barak) مثالا حيا في هذا الشأن، والتي نجد اليوم أعدادا كبيرة منها قرب الحدود السورية، جنوب شرق غازيانتيب (Gaziantep)، على الضفة الغربية للفرات، وتعتبر ملحمتها[1] وثيقة تاريخية ذات قيمة كبيرة، تسمح بتتبع أهم مراحل تطورها. تبدأ هذه الملحمة بأبيات شعرية تصف الهجرة الأولى الأسطورية لجماعة براك من خراسان إلى منطقة يوزغات (Yozgat)، ثم تتناول تاريخ "النفي" الذي تعرضت له بسبب شكاوى فلاحي الهضبة العليا والذي قادها إلى منطقة كلاب (Culab) جنوب أورفة وأغشاكالي (Adça Kale)، ولم يتقبل أفراد براك هذا النفي بسهولة، فقد تحول نصفهم (تحت تأثير الدعوة الشيعية على الأرجح) إلى إيران رفقة شخص يدعى فيروز باي، بينما هاجر قسم آخر من القبيلة تحت ضغط الحكام المحليين حتى منطقة إزمير، ويمكن تأريخ هذه المرحلة حوالي سنة 1700 بالرجوع إلى النصوص المتعلقة باستقرار التركمان في الجنوب الشرقي والتي تذكر بعض فروع قبيلة براك. ولم تبق سوى مجموعة واحدة في منطقة أورفة، تحولت مع نهاية القرن الثامن عشر إلى الضفة اليمنى للفرات إثر نزاع مع قبيلة كردية، لتستقر هناك نهائيا.

3. أدى الضغط الحكومي العثماني إلى القضاء على البداوة الكبرى التركمانية في شرق الأناضول، إلا أنه فشل عموما في توطين البدو في ثغور الصحراء السورية، كما لاقى صعوبات جمة في فرض حياة الاستقرار على الموجة الجديدة من البدو التي تسربت باتجاه الغرب. وتشهد وثائق كثيرة على هذه السياسة التي اتبعت بعناد نادر، فقد استعملت كل الوسائل المتاحة، واتخذت شكل "مطاردة" حقيقية وبلا هوادة للبدو. ففي الوقت الذي كانت

---

(1) نشرها: Tanyol, 1952-54.

توزع فيه الأراضي على البدو، كان العصاة منهم يسخرون للعمل في المناجم والتحصينات، كما جرت محاولة نفي بعضهم إلى قبرص[1]. هذا ولاقت محاولات التوطين القسرية في الهضبة الأناضولية نجاحا أكبر من المحاولات التي تمت في الصحراء السورية، فقد تركت آثارا معتبرة في المجال الممتد من منطقة منابع الميناندر الكبير (Grand Méandre) إلى حلقة كوزول أرماك (Kzl Irmak)[2].

كان ضغط الفلاحين أكثر وقعا على البدو من السياسة الرسمية في الأناضول الغربي، فمنذ بداية القرن التاسع عشر، استتب الأمن فيه نهائيا، وبدأ استيطان سريع للأراضي المنخفضة وسهول وأودية الأطراف بفضل المنافذ الخارجية الجديدة (سكة حديد حوض المياندر). بذلك ضاقت شيئا فشيئا مجالات الرعي التي يستعملها البدو، واضطرت مجموعات صغيرة عديدة في القرن التاسع عشر إلى الهجرة من غرب الأناضول إلى الجبال السيليسية وطوروس الشرقي وطوروس المضاد التي يقل فيها الضغط الحضري. ونجد إلى حد الآن لدى العديد من كبار بدو الجبال السيليسية روايات تحدد مواطنهم الأصلية في جهات أيدون (Aydn) وأفيون (Afyon)[3]. ويتعلق الأمر هنا بحركة معاكسة لتلك التي شهدها القرن السابع عشر، إلا أنها مست أعدادا أقل بكثير ولم تطل سوى البقايا المتواضعة للوافدين الجدد خلال تلك الفترة. هذا وتركز جهد السلاطين العثمانيين لتوطين البدو خلال القرن التاسع عشر في السهل السيليسي ولواحقه الشرقية[4]، وقد ترك لنا الشاعر التركماني دادالوغلو (Dadalodlu) شهادة معبرة بهذا الصدد في عهد السلطان عبد العزيز

---

(1) Refik, N° 191, p. 140, 1119 H; N° 193, p. 143, 1124 H; N° 196, p. 148, 1126 H.

(2) أنظر خرائط: .Orhonlu, 1963

(3) Yalgın, 1931-39.

(4) Eberhard, 1953.

(1865) [1]. كما اتخذت سياسة دفع البدو نحو الاستقرار أشكالا مختلفة: الضغط على رؤساء القبائل وحدهم حيث أجبروا على الإقامة في مساكن قارة، والتحول إلى ملاك أرض (كما حدث في مدينة ومنطقة قوزان (Kozan) = سيس (Sis) في السهل السيليسي، استقرار 1865)؛ أو استقرار جماعي للقبيلة مما أدى إلى نشأة قرى من الفلاحين الأحرار (على سبيل المثال منطقة ريحانية (Reyhaniye) قرب أنقرة، بفعل توطين سنة 1852)[2].

و في غرب الأناضول استمر الاستقرار العفوي من خلال تأسيس القرى في الهضبة العليا أولا، ثم في مواطن الشتاء أكثر فأكثر مع تأكد المصلحة الاقتصادية التي يمكن أن يجنيها البدو من ممارسة الزراعات المتخصصة، أو من خلال تسرب فردي داخل المجتمع الحضري في أدنى مستوى وهو مستوى الفلاح بدون أرض[3]. وتحول آخر البدو الذين عاشوا هذه الظروف ولم تكن لهم الموارد لشراء الأرض إلى بقايا متواضعة يدفع بها صيفا نحو القمم وتضطر إلى كراء مراعيها الشتوية[4].

4. أما في شرق الأناضول فقد احتل بدو آخرون الفراغ الذي تركه تفكك الأحلاف التركمانية الكبرى، إذ دفعت غزوات العصور الوسطى بالأكراد إلى شرق الأناضول[5]، حيث يرجح أن قبيلة منهم شكلت نواة التركمان الجرميان الذين وصلوا إلى غرب الأناضول وأسسوا في القرن الرابع عشر إمارة مهمة في منطقة كوتاهية (Kütahya)[6]، على أن أغلب الأكراد

(1) Boratav, 1945.

(2) Eberhard, 1953.

(3) توجد أمثلة عن الاستقرار في القرى ضمن كتاب: Collin-Delavaud, 1958 b, Dönmez, 1963-64؛ أنظر كذلك: Roux, 1961, 1963.

(4) de Planhol, 1958 a, chapitre IV.

(5) Cahen, 1955.

(6) Cahen, 1951 a.

بقوا في جبالهم يتبعون نمط عيش شبه بدوي جبلي يقوم على تنقلات قصيرة المدى نسبيا، وانتشروا خارج مجالاتهم القديمة. ويبدو أن السلاطين هم الذين شجعوا الأكراد على الاستيطان في الهضبة العليا الأناضولية الشرقية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، لضمان الدفاع عن الحدود الشرقية في وجه الفرس، في وقت ترك فيه تفرق الأحلاف التركمانية وهجرة البدو الشيعة فراغا مقلقا. وأعفي الأكراد آنذاك من دفع الضريبة شريطة تجهيز قوة عسكرية دائمة. كما تقدم الأكراد نحو الغرب، ففي منتصف القرن التاسع عشر، ورد تواجد بدو أكراد في هضبة وسط الأناضول قرب هيمانة (Haymana)، جنوب أنقرة[1]، وحتى في منطقة أوسكوب (Üsküb) في سهل بولو (Bolu) من إقليم بافلاغونيا (Paphlagonie)[2]. وقد حول الأكراد لصالحهم التنقلات الكبرى بين الشمال والجنوب، أي بين الهضبة الأناضولية العليا والسفح الجنوبي لطوروس، حيث تواصلوا مع البدو العرب، وهم يشكلون اليوم الغالبية العظمى من بدو شرق الأناضول. هذا وقد طبعت مراحل فرض هيمنة السلطة التركية على السكان الأكراد ثورات متتالية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، غير أن استقرارهم في الهضبة الأناضولية العليا الشرقية عرف تقدما ملحوظا. ومنذ القرن السابع عشر حدث تفاهم بينهم وبين الفلاحين الأرمن، لكون البدو المقيمين في الهضاب العليا لغايات عسكرية كانوا مضطرين إلى إيواء مواشيهم خلال الشتاء في مناخ لا يسمح للمواشي بالعيش في الهواء الطلق، وحصلوا بسبب ذلك على ترخيص بقضاء الشتاء في القرى الأرمينية التي أجبرت على إيوائهم، ورغم التشنجات الدائمة التي انجرت عن هذا الوضع فإنه أصبح مع مرور الوقت عادة مألوفة حاولت الحكومة العثمانية عبثا وضع حد لها سنوات 1830–1840 في سياق الإصلاحات الحديثة التي أدخلت على الإمبراطورية وتزامنت آنذاك مع الثورات الكردية الكبرى.

---

(1) Perrot, 1865.

(2) Perrot, 1864, p. 261.

بعد ترحيل وتفريق الأرمن خلال الحرب العالمية الأولى، استقرت أعداد كبيرة من الأكراد بشكل طبيعي في قراهم المهجورة، ليتحول بذلك القسم الأكبر من قبائل الهضبة العليا إلى شبه بدواة أو إلى حياة رعوية على مسافات قصيرة، انطلاقا من نقاط الارتكاز التي تشكلها القرى الأرمينية القديمة، مثل قرية غرافي (Gravi) في سهل نوردوز (Norduz) جنوب بحيرة فان (Van)[1]. في مقابل ذلك سمح التراجع الكبير للكثافة الريفية بعد تفرق الأرمن للبداوة الكبرى الجبلية لأكراد طوروس من التوسع بحرية، ورغم أعدادهم المتواضعة (حوالي خمسين ألف بدوي في المجموع) فإن هذه المنطقة توفر للبدو أكبر فرص البقاء على المدى الطويل في ظل الظرف الاقتصادي الحالي.

ب. الاستعمار الروسي والصيني واستقرار البدو في آسيا الوسطى:

1. كانت نتيجة تدخل شعب أوربي قوي في آسيا الوسطى السفلى التطور السريع باتجاه حياة الاستقرار، غير أن تحولات عفوية كثيرة حدثت قبل بسط الهيمنة الروسية.

فقد بدأ الاستقرار قبل ذلك في أحواض الأودية الكبرى لبلاد ما وراء النهر، إذ لا يمكن فصل نشأة الشعب الأوزبكي عن الاستقرار التدريجي لجماعات الرحل التي دخلت شيئا فشيئا في مدار الإمارات الشيبانية، فالأوزبك الذين ظلوا إلى غاية بداية القرن السادس عشر بدوا حقيقيين، شرعوا في ممارسة الزراعة المروية مع مستهل القرن السابع عشر[2].

أما الكازاك والتركمان البعيدون عن الأودية الصالحة للزراعة فقد ظلوا على بداوتهم لفترة أطول، رغم أن حركة الاستقرار كانت قد بدأت بشكل

(1) Erinç, 1952-53, p. 88.

(2) Krader, 1962, p. 92.

ملحوظ لدى جماعات تركمانية عديدة. فمنذ بداية القرن التاسع عشر، تشكلت تجمعات قارة لبيوت اليورت (yourtes) على ضفاف بحر قزوين، كما تكاثرت البيوت الخشبية المقامة على أعمدة أسوة بالروس منذ 1870[1]. هذا وقد أنجزت دراسة مفصلة عن حالة تركمان كوبت داغ (Kopet dagh)، بينت الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت باستقرارهم. ففي بادئ الأمر، هيمنت جماعة أكحل تيكي (Akhal-Teke) على الواحات التي تحمل اسمها اليوم والتي تتوزع على المنحدر الشمالي لكوبت داغ، وحدث هذا التطور منذ القرن السابع عشر وتعزز خاصة منذ انهيار قوة نادر شاه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وتحولت الجماعة لحياة الاستقرار تدريجيا، حيث مرت بفترة طويلة وافقت فيها بين الأنشطة الزراعية في الواحات والحياة الرعوية في الصحراء، حسب الفصول (ممارسة الزراعة صيفا، والرعي خلال الفصل البارد والممطر المساعد على انتشار القطعان)، أو حسب نظام توزيع للأدوار داخل الأسرة، حيث يكلف قسم منها برعي القطعان في السهوب بصفة دائمة. وكان لهذا التطور آثار عميقة على التنظيم الاجتماعي، حيث كان المجتمع الرعوي التركماني التقليدي من قبل قليل التراتب في وسطه الفقير والصعب الذي تطبعه رمال صحراء القاراقوم (Kara Koum)، وكانت الحياة تنتظم وفق "بداوة قارة" تشهد تركزا في الصيف حول نقاط الماء وانتشارا في الشتاء، بحيث لم يعد ممكنا تكوين قطعان كبيرة جدا تتنقل في آن واحد، كما كانت الفوارق بين الأغنياء والفقراء ضئيلة، تحد منها آليات التكافل أو بدايات التنظيم الجماعي، من قبيل إقراض الماشية للفقراء أو تشكيل قطعان جماعية تسمح برعي مواشي صغار الملاك، وكانت الأسرة الزوجية النواة الاقتصادية الأساسية، بحيث يحصل كل ولد عند زواجه على جزء من قطيع الأب، إذ أن العصب المشكلة خارج الأسرة كانت وحدات اصطناعية بالنسبة للتركمان ولم

(1) Dikiev, 1957.

تعرف إلا مع إعادة تشكيل القبائل الكبرى في الفترة الممتدة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، واستمدت من التنظيم الإداري الأسطوري لشعوب الأوغوز .(Oduz) هذا وقد عرف هذا الوضع القديم تحولات حاسمة في سياق الاستقرار الذي فرضته إلى حد كبير الخسائر في القطعان خلال الحروب ضد الإيرانيين أو خانة خيفا (khanat de Khiva)، فتكاثرت بذلك الواحات الصغيرة ذات الكريز (kariz) (الكريز هي أروقة لنقل الماء تحت الأرض)، وهي وحدات زراعية مستقلة يسهل على زعيم محلي صغير وضع اليد عليها ويسمح فيها الحصول على حقوق مميزة في الماء بفرض سريع للهيمنة الاقتصادية، مما أدى إلى التحول من مجتمع يقوم على العصب إلى مجتمع إقليمي تسيطر عليه أرستقراطية عسكرية، وجدت في نفس الوقت في غارات العبيد داخل الحدود الإيرانية مصدرا مهما لجمع الثروة. ومع بداية التوسع الروسي في منتصف القرن التاسع عشر، كان التيكي (Teke) يعيشون في فجر المجتمع الطبقي وبدايات الدولة[1]، أما جيرانهم في مرو (Merv) الذين لم يقيموا معسكراتهم من اليورت في هذه الواحة الكبيرة إلا مع حلول منتصف القرن التاسع عشر، وسط أطلال المدن المهجورة، فقد وصلوا إلى مرحلة مشابهة من التطور في وقت أسرع، وقد أنشؤوا مجلسا حقيقيا لزعماء القبائل، وهو نواة هيئة تنفيذية مشتركة وشرطة فرضتها ضرورة صيانة السدود المقامة على الروافد الكبرى لنهر مرغب (Murghab)، والتي كانت تستعمل في سقي الحقول المزروعة[2]. وهكذا وصل التيكي إلى مرحلة مشابهة لتلك التي عرفها الأوزبك في نهاية القرن السادس عشر مع فارق زمني ناهز ثلاثة قرون.

لم تستثن هذه التحولات الكازاك أنفسهم، وهم كبار بدو بأتم معنى

(1) König, 1962.

(2) توجد صورة حية للبنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية في واحة ميرف قبل الغزو الروسي في: O'Donovan, 1882.

الكلمة. وترجع نشأة قارة كالباك (Kara Kalpak) إلى استقرار جماعة كازاكية أو قريبة جدا من الكازاك، ويقيم قارة كالباك اليوم في الدلتا السفلى لنهر آمو داريا (Amou Darya) التي استقروا فيها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قادمين من منطقة نهر سير داريا الأسفل التي ارتبط ذكرهم بها منذ 1598[1]. هذا وكان تحديد أصلهم بدقة محل جدل لوجود تسميات إثنية مشابهة (شيرني كلوبوكي، èernye klobuki) منذ القرن الثاني عشر في سهوب جنوب روسيا، حيث ظهرت عندهم فكرة انحدارهم من البيتشينيغ (Petchénègues)، على أن هذه الروابط لم تلبث أن تلاشت ومن المرجح أن التسمية الإثنية المذكورة كانت تطلق في السهوب الممتدة بين البحر الأسود وبحر آرال على قبائل مختلفة. في مقابل ذلك يدل التشابه اللغوي بين قارة كالباك والكازاك أن المجموعة الأولى انفصلت عن عرق الكازاك واكتسبت خصوصيتها بعد استقرارها في مصبات أنهار بحر آرال، حيث اعتمدت نمط عيش شبه بدوي زراعي يقوم على زراعة الذرة وتربية قطعان الماشية الكبيرة، مع الاعتماد على الإفاضة الطبيعية للمياه في سهول البحيرات ودلتا الأنهار والأودية المنخفضة، وكانت هذه الجماعات تضطر للتنقل المستمر بسبب عدم تغير التضاريس الرسوبية، ويتعلق الأمر هنا بنمط عيش قديم جدا في الأراضي الآرالية المنخفضة، يمثل إحدى الأشكال البدائية للفلاحة فيها، ويبدو أنه أدمج على مر العصور جماعات بدوية متتالية، حيث يعتبر قارة كالباك ورثة جماعات الأوغوز في العصور الوسطى[2].

2. زاد الاستيطان الروسي في وتيرة هذه التحولات. وقد انضوى الكازاك تدريجيا تحت راية الروس بدءا من منتصف القرن الثامن عشر (تأسيس أورنبورغ (Orenbourg) في 1743، وإقامة خط إمبا الدفاعي (ligne

---

(1) Krader, 1962, p. 66.

(2) Ždanko, 1950; 1961.

d'Emba) في 1745، الذي سمح باحتواء الأقاليم الشمالية والغربية للعصبة الصغرى والأقاليم الشمالية والشرقية للعصبة الوسطى). ومع نهاية القرن التاسع عشر، اكتملت السيطرة الروسية بالاستحواذ على المناطق الزراعية وصحاري آسيا الوسطى السفلى وضم التركمان والكرغيز. وقد طبعت التقدم الروسي في السهوب منذ البداية إقامة خطوط دفاعية تتكون من مراكز حضرية شبه فلاحية وشبه عسكرية، وهي قرى الكوزاك الذين ورد ذكرهم لأول مرة في شبه جزيرة القرم في نهاية القرن الثالث عشر، ضمن دائرة نفوذ المدن الجنوية، ثم في منتصف القرن الخامس عشر في منطقتي ريازان (Riazan) وموسكو، بصفتهم تتار غير نظاميين يعيشون حياة تشرد في المناطق المضطربة عبر السهوب المقفرة، وظل الطابع التتاري يغلب على الكوزاك إلى حوالي سنة 1480. وفي الفترة الممتدة من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن السادس عشر، تشكلت بدافع التقليد جماعات الكوزاك السلاف الذين سرعان ما أصبحوا العنصر الأساسي للدفاع عن الحدود[1]، قبل أن يدمجوا في تنظيمات الدولة ويصبحوا العنصر الرئيسي لتقدم السكان الرواد السلاف خلال قرون عديدة.

سمح لحياة البداوة بالاستمرار لوقت طويل داخل المناطق التي حددتها الخطوط الدفاعية للإمبراطورية الروسية والتي كانت أحيانا مجال استقبال جماعات البدو القادمة من خارج الحدود، مثل "العصبة الداخلية" أو "عصبة بوكاي" (horde de Bukey) نسبة لزعيمها، وهي جماعة كازاكية حصلت مع نهاية القرن الثامن عشر على ترخيص بالاستقرار بين نهر الفولغا والأورال[2]. وخلال العهد القيصري كله كان استقرار الرحل عفويا، ساعد عليه تحديد صارم لمناطق التنقل. رغم هذا عرفت بداية الفترة السوفيتية استمرار النظام التقليدي للبداوة التي تطبعها تنقلات فصلية على مسافات طويلة بين الشمال

(1) Stökl, 1953.

(2) Krader, 1962, p. 99.

والجنوب، أي بين المناطق الجنوبية الأقل برودة التي يقضي فيها البدو الشتاء والمناطق الواقعة إلى الشمال التي يلجؤون إليها في الصيف.

منذ هذه الفترة حدث تطور حاسم نحو شبه بداوة على مسافات أقصر[1]، وجمعت مقاطعات فلاحية رعوية كبرى تضم ما بين 20 و40 ألف ساكن في إطار الكولخوز وما بين 50 و70 ألف ساكن بالنسبة للسوفخوز، الأراضي المنخفضة في الأودية والسهول المعرضة لأن تغمرها المياه والتي تسمح بإنتاج العلف وتوفير أسباب العيش في الشتاء من جهة، وأراضي الرعي الواقعة في الهضبة والتي تستعمل في الصيف من جهة أخرى. وبهذا أصبحت التنقلات تتم أساسا من الهضاب إلى الأودية حسب خطوط متوازية تمتد من الشرق إلى الغرب على مسافات أقصر بكثير مما كانت عليه في السابق.

ترافقت هذه التحولات مع آخر التغيرات الإثنية وتحول السكان. ونورد كمثال عن ذلك حالة البلوش الذين وصلت جماعات كبيرة منهم إلى تركمانستان في نهاية القرن التاسع عشر، ثم في سنوات 1923–1928، قادمة من أفغانستان على وجه الخصوص، واستقدمت معها براهويين (Brahoui) ناطقين باللغة الدرافيدية. ولا زال عددهم يناهز 5 إلى 6 آلاف رغم أن قسما منهم رجع إلى أفغانستان سنة 1932. وتحول الذين بقوا إلى حياة الاستقرار في 1935–1937، وأصبحوا يمارسون زراعة القطن الآلية مع احتفاظهم بتقاليدهم الرعوية؛ ويقومون ضمن الكولخوزات المختلطة عرقيا والتي أصبحوا جزءا منها برعي القطعان الصغيرة في مزارع تربية المواشي المقامة في الرمال على مسافة بعيدة أحيانا عن مركز التجمع الرئيسي. وتتميز حياة الاستقرار الحديثة العهد بعدم الثبات وبتغيير متكرر للسكن أو بانتماء غير دائم إلى هذه الجماعة المستقرة أو تلك[2]، غير أنه لا يمكن تصور عودة

---

(1) Meckelein, 1951-52; Coulter, 1954; Rakitnikov, 1956; Karger, 1965.

(2) Vinnikov, 1952; Gafferberg, 1960.

حياة البداوة كما كانت عليه في الماضي، كما أن حركية استقرار الجماعات التي تعيش وضعا مشابها تتم بسرعة في كل الحالات، إذ تخضع حياة البداوة في آسيا الوسطى السوفيتية لرقابة صارمة.

3. لا نتوفر على نفس القدر من المعلومات عن آثار الاستعمار الصيني في تركستان الشرقي، حيث يبدو أنه إلى غاية وصول الشيوعيين إلى الحكم لم تشهد البداوة التقليدية تحولا ملحوظا. فالأوصاف التي عرفت بها خلال السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية[1]، يرسم لنا بداوة كبرى لا تخضع للقيود في الجبال والسفوح بين الواحات، ولم تتحول إلى شبه البداوة أو إلى حياة الاستقرار سوى أقليات صغيرة من السكان الذين انحدروا إلى مستوى الفقر بعد فقدان مواشيهم بسبب الأوبئة، هذا ونادرا ما يلجأ السكان إلى تخزين العلف تحسبا للشتاء، غير أن الجبال لم تكن متشبعة بهؤلاء الرحل وظلت مجالات مفتوحة لتنقل قطعان كبار ملاك واحات السفح تحت إشراف رعاة مأجورين. وبعد إقامة النظام الشيوعي، تزايد الضغط الصيني الهادف إلى تأطير الرحل، وإن كنا لا نعرف مراحل هذا التطور، الذي أسفر عن رحيل جماعات مهمة من الكازاك الذين فروا في 1949–1950 إلى كشمير عبر الهضاب العليا التبتية، وقد بادرت الحكومة التركية بتوطين الناجين من هذه الحادثة التي لم يعرف مثلها سابقا في الأناضول[2].

جـ. التطورات المؤجلة: إيران وأفغانستان

1. كان مصير البداوة في العصر الحديث مختلفا إلى حد كبير في المجال الإيراني عنه في تركيا، فبينما تفككت الأحلاف التركمانية في شرق الأناضول تحت ضغط السلطة، استمرت جماعات مشابهة في التكون، كما

(1) Golomb, 1959.

يتعلق هذا الوصف بالعشرية الممتدة من 1929 إلى 1939.

(2) Lias, 1956; Oraltay, 1961.

سبق ذكره، في جبال زاغروس بإيران إلى غاية القرن التاسع عشر، حيث ساهمت السلطة المركزية أحيانا في تكونها. ففي بداية القرن السابع عشر، قام الشاه عباس بإعادة تنظيم رحل أذربيجان في شكل حلف شاه سيفين (Châh seven) القوي (معنى التسمية هو محبو الشاه، مما يدل بوضوح على الهدف من تكوين الحلف) ليتحرر من قبضة قبائل كوزول باش (Kzl ba) التي ساهمت في ترسيخ القوة الصفوية. وفي بداية القرن التاسع عشر، كان الشاه سيفين يشكلون أقوى مجموعة رحل في أذربيجان، أي ما يناهز نصف العدد الإجمالي من الرحل[1]، ويبلغ عدد خيامهم في منطقة سافالان (Savalân) 20,000 مع نهاية القرن التاسع عشر[2]. كما استخدم الشاهات المنحدرون من قبائل تركية البدو الناطقين بلغتهم كوسيلة أساسية للسيطرة على الإمبراطورية الإيرانية الشاسعة، ولم تكن هذه السياسة تهدف أبدا إلى دفعهم نحو الاستقرار وإنما استعمالهم كأداة حكم ووسيلة سلطة.

لقد كانت القبائل تنقل وتوطن في المناطق التي تستوجب مراقبة خاصة مع الإبقاء على تنظيم جماعاتها الكبرى على الأقل، وأفضل مثال على ذلك هو قبيلة القاجار (Kâdjâr)[3] التي كانت تعيش في أذربيجان، وقد قام الصفويون في القرن السابع عشر بتوطينها شمال شرق بلاد فارس في منطقتي أستراباد (Asterâbâd) وخراسان. كما أن سياسة الشاهات القاجاريين أنفسهم ظلت قائمة على هذه المبادئ، حيث احتفظوا إلى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر بتقاليد بدوية فيما يتعلق بقضاء الصيف في المراعي[4]، كما اتبعوا

---

(1) 58,000 خيمة من مجموع 130,000 حسب معطيات: Ritter, Asien, T. VI, p. 400-403.

(2) Togan, 1950, p. 93.

(3) Bala, 1952.

(4) فيما يخص تنقل البلاط القاجاري في جبال الألبروز وفي معسكرات دمافند (Damâvand) أو في سهل سلطانية، يقدم لنا أطباء ناصر الدين شاه الأوربيين وثائق حية، أنظر: Polak, 1965, p. 101-105; Feuvrier, 1906.

سياسة لنشر البداوة في الهضبة الإيرانية التي أدخلوا إليها عناصر بدوية من مناطق الأطراف مثل التركمان الذين استقدموا من ضفاف نهر أتراك (Atrak) إلى سهل غورغان (Gourgân) من طرف آغا محمد مؤسس السلالة الحاكمة ؛ وكذلك جماعات السدفند (Sadvand) وكايني (Kaini) التي نقلت من فارس إلى هضبة شمال وشرق مدينة قم بقرار من محمد شاه (1834-48) لضمان النقل بالجمال ؛ وجماعات شيني (Chini) وكارزه (Karzeh) التي استقدمت إلى نفس المنطقة من كيرمان شاه (Kirmânchâh)؛ وأخيرا جماعات ميش ماست العربية التي استقرت قرب طهران. وهناك عناصر مثل هودافند (Houdavand) والتي رحلها إلى فارس كريم زند خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، قبل أن يرجعها آغا محمد إلى المنطقة القريبة من طهران[1]. هذا وقد حدث استقرار عفوي خلال هذا الوقت في جبال زاغروس خاصة لدى القبائل العربية المنتشرة في المنحدر الجنوبي، حيث أن المشهد الحالي للتنقلات يختلف كثيرا عما كان عليه في نهاية القرن التاسع عشر[2]، على أن بنية الأحلاف الكبرى لم تتغير طيلة الفترة القاجارية، كما لا يخفى الدور السياسي الحاسم الذي لعبته جماعات البختياري خلال ثورة 1907. فقد ظلت إيران على مدى القرون الأخيرة، مجالا للرحل وملكا لسلالات حاكمة حافظت على ذهنيتها البدوية.

2. لم تتغير الأمور إلا مع وصول رضا شاه إلى الحكم واتباعه سياسة إصلاحية وتبنيه المفهوم الجديد لتنظيم الدولة والذي اعتمدته الأسرة البهلوية، فتبدلت سياسة السلطة المركزية تجاه البدو واتخذت منحى السيطرة عليهم من خلال محاولات إخضاعهم لاستقرار قسري، إذ قام بالمحاولة الأولى رضا شاه، غير أن معلوماتنا عنها قليلة، وقد أورد الرحالة الذين جابوا جبال

(1) Lambton, 1953, p. 141-42.

(2) Ibid, 157 ss.

زاغروس في الثلاثينيات من القرن العشرين[1] صورا مدهشة عن الخيام التي أزيلت واستبدلت بأكواخ من الطين المجفف في شكل صفوف مرصوصة بإحكام، فيما لجأ البعض إلى حيلة إخفاء خيامهم في الوهاد بحيث كانوا يغادرون بيوتهم للسكن فيها خلال الصيف[2]، وقد منيت هذه المحاولة الأولى بفشل ذريع لإهمالها تطلعات السكان فيما يخص الاستقرار ضمن السردسير (sardsîr) أو الغرمسير (garmsîr)، وللصعوبة التي واجهت السكان المستقرين قسرا خلال الشتاء في مرتفعات عادة ما يناهز علوها 1,800 متر[3]، وخاصة فقدان رؤوس الماشية حيث قدر أن 70إلى 80منها تموت في حالة الاستقرار القسري في إطار السردسير أو الغرمسير.

و بعد تنازل رضا شاه عن الحكم وما تبعه من ضعف للسلطة المركزية، تشكلت الأحلاف من جديد واسترجعت مجالات تنقلها القديمة، وبدأت مرحلة ثانية سنة 1957، بروح ومناهج لا تختلف كثيرا عن تلك التي طبعت المرحلة السابقة، وتمت عمليات مشابهة إلا أنها أكثر عقلانية في سهوب موغان .(Moughân) ويبدو أنها مضمونة النتائج رغم كلفتها الباهضة، كما أنها تحتاج إلى وقت طويل وإلى احتراس أكبر بحيث يجب أن تمر بفترات شبه بداوة انتقالية[4].

3. أثر البدو بشكل أكبر وإلى وقت متأخر في مصائر الدولة الأفغانية. وقد أدت تطورات السياسة الدولية التي ميزها التنافس الروسي الإنكليزي خلال القرن التاسع عشر ورغبة بريطانيا في إيجاد دولة عازلة على التخوم الشمالية الغربية للهند عندما وصل التوسع الروسي إلى آسيا الوسطى السفلى، وهذا ما أدى بالدولتين الكبريين إلى وقف تقدمهما عند تخوم منطقة

(1) (يرجع سفره إلى سنة 1940) Stein, 1940; Lindberg, 1955

(2) Stein, 1940, p. 303.

(3) (سهل عليشتار). Ibid, p. 276

(4) Barth, 1962.

الهندوكوش الجبلية وامتدادها الغربي والجهات المتصلة بها في السفح الشمالي والجنوبي. ومن بين العناصر البشرية الثلاثة المتواجدة (التاجيك والغلزاي والدوراني)، لم يكن المزارعون المسالمون من التاجيك المتحولين إلى التركية في الواحات الشمالية أكثر استعدادا من السكان الجبليين الأجلاف المنتشرين في القوس الأوسط لمواجهة قبائل جنوب أفغانستان المتميزة بنشاطها واندفاعها من الغلزاي (Ghilzai) والدوراني (Dourani)، والتي كانت تسيطر على الواحات المتاخمة للأحواض الشبه الصحراوية. وقد ارتقت هذه القبائل منذ القرن الثامن عشر إلى نوع من التماسك بفضل صراعها مع الحكومة المركزية الفارسية، وبموت نادر شاه في سنة 1747، عين الأمير عبدلي أحمد خان دوراني في قندهار وصيا على كل الأفغان. وفي سنة 1773، انتقل ابنه تيمور إلى كابول. ورغم تراجع التأثير الأفغاني مع بداية القرن التاسع عشر باتجاه الجنوب أمام إمبراطورية السيخ وبعدها التأثير البريطاني[1]، فإن وحدة القبائل ترسخت أخيرا خلال الحروب الإنكليزية-الأفغانية في سنوات 1838-42، 1878-80، 1919.

كانت النتيجة الرئيسية لتحقق الوحدة السياسية للرحل الأفغان تمكنهم من بسط نفوذهم على الجبال الوسطى. ففي 1896، جهز الأمير عبد الرحمن خان حملة لنشر الإسلام بين جماعات الكفير الذين حول اسم بلادهم إلى نورستان (أي بلاد النور). وعرف تأطير السلطة الأفغانية للهزارة تقدما كبيرا في نهاية القرن التاسع عشر على عهد عبد الرحمن نفسه (1880-1901). وفي هذه الفترة بالذات تم فتح الجزء الأكبر من هزارجات (Hazardjat) في وجه البدو[2]، وكانوا قبل ذلك يقضون الشتاء في الصحاري الجنوبية ولم تكن

(1) هذا ما يفسر وجود أقلية كبيرة ناطقة بالأفغانية (البوشتو) في الأراضي الباكستانية، مما يطرح مشكلة تمرد ويعقد العلاقات بين البلدين، بحيث تتحكم باكستان في مقابل ذلك في المنافذ البحرية لأفغانستان.

(2) Ferdinand, in Humlum, 1959.

تنقلاتهم الصيفية إلى ذلك الحين تتجاوز الجزء الغربي من الجبال الوسطى أي منطقة تشهار أيماك (Tchahar Aimak). بهذا كانت أهم نتيجة أنثروبولوجية-جغرافية للبناء السياسي لأفغانستان هي الانتشار المتأخر والسريع للبداوة في الجبال. ولم تكن آثار انتشار البداوة سلبية فقط، بل كان لها أثر إيجابي، فقد أدخل البدو الأفغان الذين يمارسون التجارة وتجهيز القوافل إلى جانب الرعي إلى المناطق الجبلية الاقتصاد القائم على التبادلات والذي انتظم انطلاقا من البازارات الكبرى المؤقتة في الصيف، مثل غوماب (Gomâb)، وأبول (Aboul)، وكرمان (Kirmân)، وتشراس (Tcharâs)، ويقع البازاران الأولان على ارتفاع 2,800 و2,600 متر في قلب الأراضي المرتفعة[1]. غير أن الهزارة الذين أنهكتهم الديون تحولوا إلى خماسين في خدمة الرحل وتنازلوا لصالحهم عن حق ملكية قطع أرض، كما أن عملية إخضاعهم الاجتماعي والاقتصادي مستمرة. هذا ما يجعل سكان جبال وسط أفغانستان في وضع سياسي واجتماعي أقرب من وضع العلويين منه من حالة اللبنانيين، وإن كانت الهيمنة الأفغانية تقوم على قبائل محاربة لا يوجد شبه بينها وبين برجوازيي الغوطات السورية ذوي السلوك المتحضر.

5. إعادة التعمير في الفترة المعاصرة

العناصر البشرية

بينما كانت تطبع المجال العربي حركة ذات اتجاه واحد من جبال اللجوء والجبال الممتنعة نحو السهول، ميزت المجال التركي الإيراني حركات سكان معاصرة أكثر تعقيدا. ورغم أن السهول تظل الهدف الرئيسي بأنواعها: سهول الأطراف المنخفضة ذات المناخ الدافئ والصالحة لزراعة الأشجار

(1) Peter of Greece, 1954; Ferdinand, 1962.

المثمرة والقطن، والأراضي المرتفعة الأناضولية والإيرانية، والسهوب الشبه الجافة الصالحة لزراعة الحبوب في أطراف المناطق الشبه الصحراوية ؛ فإننا نشهد بالموازاة مع ذلك انتشارا للسكان في الجبال التي عمت فيها البداوة، بحيث يطرد توسع الحياة الحضرية البدو شيئا فشيئا باتجاه المناطق الأكثر ارتفاعا.

تتكرر نفس الاختلافات التي طبعت تطور البداوة في الظرف السياسي العام للبلدان المختلفة. فقد كانت التحولات أكثر حدة والتمازج أكثر عمقا في الأناضول الذي عرف تطورا ساعد عليه التراجع المبكر للبداوة، كما أن وفود أعداد كبيرة من اللاجئين الأتراك والمسلمين ساعد على الإسراع في ملء الفضاءات الفارغة. في مقابل ذلك، ظلت هذه الظواهر في بداياتها في إيران وأفغانستان، حيث استمر ضغط البدو لفترة أطول نظرا لقلة عدد العناصر البشرية المتوفرة. في الوقت الذي دفعت فيه عملية التعمير الكثيفة التي ميزت العالم السوفيتي بجزء كبير من السكان نحو المدن، مما أوجد في جزء من المجال الريفي أنماطا مكثفة لشغل الأرض، وبالموازاة مع ذلك حدث تطور كبير للمراكز المروية التي أصبحت تشكل محاور استقرار جديدة.

أ. الهجرات:

رغم التداخل الحاصل بين البدو والحضر القدامى في أغلب المناطق الجبلية، فإن المقاومة التي شهدتها لم تسمح لهذه الأراضي المرتفعة بأن تكون مصدرا لحركات سكانية مهمة.

ومن بين منطقتي اللجوء الجبليتين والغابيتين الكبريين، وهما المنطقة البونطية والمنطقة القزوينية، شكلت أولاهما التي تميزها منحدرات شديدة وأودية عميقة ضيقة ذات صرف جيد للمياه ومناخ صحي، منذ زمن مبكر مجالا للتراكم السكاني، وقد أمدت منذ بداية القرن العشرين سهول بافلاغونيا السفلى (Basse Paphlagonie)، أي مناطق دوزجي (Düzce)، وأدا

بازار (Ada Pazar) وإريغلي (Eredli)[1]، وكذلك مدينة إستانبول بأعداد كبيرة من السكان. ففي تركيا، ترتفع نسبة السكان المقيمين خارج مقاطعتهم الأصلية في كل من ولايات ريزي (Rize)، وغوموشان (Gümüşhane)، وطرابزون (Trabzon)، وقد قدرت بـ 23,8من السكان في ولاية ريزي[2]، وبـ 17في ولاية طرابزون. وقد اتجهت الهجرة مؤخرا نحو دلتا النهرين البونتيين : يشيل أرماك (Yeşil Irmak) وكوزول أرماك .(Kzl Irmak)

في مقابل ذلك لم تبلغ المناطق الغابية والجبلية في جنوب بحر قزوين مرحلة التضخم الديمغرافي إلا في الفترة الأخيرة التي تشهد بداية حركة الهجرة. وقد ظل إقليما غيلان ومازندران مجالين للحمى والبؤس، أسفل الجبال التي ترعى فيها قطعان القرويين المقيمين في الشريط الداخلي. كما تقدم استصلاح الأرض بوتيرة بطيئة جدا، حيث يصف رحالة القرن السابع عشر بلاد غيلان كأرض غير صالحة للزراعة ومتوحشة[3]، ولم تشهد حركة استيطان واسعة النطاق إلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، عندما نقل إليها ملوك إيران ومنهم شاه عباس ونادر شاه ومن بعدهم أول ملوك الأسرة القاجارية، قبائل بكاملها من الأكراد خاصة، بهدف مراقبة هذا الإقليم المشاكس. ويمثل كالار دشت (Kalâr Dacht) وهو حوض في منطقة الغابة الجبلية، مثالا حيا في هذا الشأن، فهو يقع على ارتفاع 1,300-1,400 متر ولم يتم تعميره نهائيا إلا باستقرار القبائل البدوية التي منحها آغا محمد قاجار في نهاية القرن الثامن عشر مراعي الجبل، ومن بعده قدم فلاحو منحدر طلقان (Talakan) الجاف الداخلي الذين استقروا مع نهاية القرن التاسع عشر. وبعد ذلك أوجد استغلال الغابة الجبلية ما بين 1930 و1958، في سياق إنشاء طريق لفك العزلة عنها، نشاطا جديدا لسكان ينمون بسرعة. ومنذ ذلك التاريخ بدأ

---

(1) Kutluk, 1947, N° 296, 307; Planhol, 1952.

(2) Öngör, 1958-59.

(3) Gabriel, 1952, p. 54-55.

النزوح باتجاه ساحل بحر قزوين أو طهران والذي ارتبط أساسا بحظر استغلال الخشب[1].

و في المجال العثماني توجد شواهد على هجرة مبكرة من مناطق الهضبة العليا التي بقت في منأى عن البداوة. وقد ساعد على حركة الهجرة هذه تطلع الأقليات إلى الإفلات من الأوضاع المهينة، وقد ورد ذكر للهجرة الأرمينية[2] والأشورية-الكلدانية[3] مرارا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد وصل أفرادها في نزوحهم إلى العالم الجديد. كما بدأت الهجرة من أودية كبادوسيا (Cappadoce)، التي تعتبر أهم مركز هيليني في الهضبة الأناضولية، باتجاه سهول أطراف آسيا الصغرى أو إستانبول في وقت سابق بكثير لنزوح هؤلاء السكان عنها في سياق تبادل السكان بعد الحرب العالمية الأولى وعقب الحرب التركية-اليونانية.

يدل على جاذبية السهل السيليسي قول مأثور في فاراسا (Pharassa) (منطقة كوزول أرماك الأوسط) مفاده أن: "لا خبز خارج أرض أضنة"[4]. وفي هذا الاتجاه شهدت الأقاليم التركية للمنحدرات الداخلية للسلاسل البونطية التي عرفت حياة الاستقرار قديما، ظواهر مماثلة في وقت مبكر، من قبيل هجرة أهالي منطقتي سفرانبولو (Safranbolu) وإفلاني (Eflani) نحو إستانبول والتي بدأت منذ القرن السادس عشر وتسارعت في عهدي السلطانين سليم الثالث ومحمود الثاني وفي فترة لاحقة تعود إلى ما بعد 1850، وقد اشتغل هؤلاء في المراكب البحرية وخاصة في طهي الخبز وهو نشاط قديم تحول إلى شبه احتكار خاص بهم منذ 1860، حيث كان ثلاثة أخماس خبازي

---

(1) Planhol, 1964 b, chapitre III.

(2) Millingen, 1870, p. 66 et 104.

يذكر قرى أرمينية لا يوجد فيها رجال لأنهم هاجروا منها.

(3) Percy, 1901, p. 192-3, 217.

(4) Planhol, 1952, p. 591.

حاضرة إستانبول ينحدرون من هاتين المنطقتين. وقد ظلت هذه الهجرة مؤقتة أو في شكل نزوح على فترة طويلة إلى غاية حوالي 1900، لتصبح بعد ذلك هجرة نهائية[1].

لم يعرف المجال الإيراني إلا نادرا ظواهر من هذا القبيل. فهناك نزوح سكاني منتظم لأهالي المنحدر الجاف للألبروز باتجاه سهول الساحل القزويني، كما هو حال أهالي لاريجان الذين يتنقلون إلى منطقة آمول أو أحواض وسط المنحدر الشمالي، أو أهالي طلقان الذين نزحوا باتجاه كالار دشت كما ورد ذكره[2]، ولم يكن سبب هذه الهجرات الموسمية الفائض السكاني في الوسط الجبلي، وإنما كانت تعكس التكامل المناخي وعادة ما تنتهي إلى استقرار نهائي في الأقاليم المنخفضة نظرا لوجود أراض شاغرة ومناخ أكثر اعتدالا. في مقابل ذلك وحتى وقت قريب، وجدت قرى ساهند المرتفعة ضالتها في توسيع نطاق الحياة الرعوية في مجالات الرعي المرتفعة للكتلة الجبلية على حساب الرحل الذين أبعدوا شيئا فشيئا منها، ولم تعرف هجرة من أجل العمل إلا حديثا لدى الجيل المتأخر، وقد ظلت محتشمة ومقتصرة على فترة نهاية الربيع التي تشهد تناقصا في مخزون الغلة السابقة من الحبوب[3]. هذا وقد عرفت بعض الواحات الكبرى في الصحراء الإيرانية هجرة نحو طهران بسبب مواردها المائية المحدودة، كما هو الأمر بالنسبة لواحة ناطنز (Natanz)، وإن ظلت هذه الظاهرة محدودة حتى وقت قريب.

لم تتأكد ظاهرة حركة النزوح إلا خلال ربع القرن الأخير الذي شهد تطورا سريعا بهذا الخصوص، يمكن تفسيره بانجذاب السكان نحو حاضرة طهران التي عرفت نموا مذهلا ولم يكن ناجما عن ضرورة حيوية. ففي

---

(1) Ibid, p. 595-96.

(2) Planhol, 1964 b.

(3) Planhol, 1960 c.

الثلاثينيات من القرن العشرين توسع نطاق الأرض المزروعة في منحدر دمافند (Damâvand) إلى ارتفاع 2,800–3,000 متر ولم يفق هذا الارتفاع بكثير مستوى العديد من القرى الدائمة في تلك المنطقة، ورغم أن الحد الأقصى لارتفاع الزراعة انخفض إلى 2,300–2,500 متر خلال العشريتين الأخيرتين، فإن هذه الظاهرة نتيجة لانتظام مجال جذب حاضرة طهران على المستوى المحلي. وعلى بعد عشرات الكيلومترات من هنا، ظلت زراعات جبلية مشابهة قائمة ولم تبحث عن منفذ باتجاه السهول المجاورة[1].

تتجلى هذه الظواهر أكثر في المجال الأفغاني، فمدنه لم تصبح مراكز جذب إلا خلال السنوات الأخيرة. ويعتبر الحرفيون الكفير الذين وفدوا إلى كابول روادا في هذا الشأن. كما أن النزوح من جبال وسط أفغانستان لم يرق إلى حد الآن إلى مستوى الاستقرار النهائي خارج نطاق السلسلة الجبلية. وفي وادي فرخار (شمال غرب جبال خواجة محمد بالهندوكوش الأوسط)، تطورت هجرة موسمية باتجاه حقول الأرز والقطن في منطقة كطغان (Kataghân) الواقعة في السفح[2]. أما حركات السكان المهمة حاليا فما هي إلا امتداد للهيمنة الأفغانية على كامل البلاد، وتتجاوز ظاهرة انتشار البداوة في الجبال حاليا. فقد اتبعت الحكومة القائمة سياسة استيطان أفغاني منظمة، حيث وطنت في شمال الهندوكوش جماعات منحدرة من الأقاليم الأفغانية الجنوبية، ولا يزال نظام استعمالها للأرض وتهيئة القطاعات المروية في مواطنها الجديدة في السفح الشمالي بسيطا جدا ولا يرقى إلى مستوى أصحاب الأرض التقليديين من التاجيك والأوزبك[3].

على العكس من ذلك تشهد آسيا الصغرى من الآن تمازجا كبيرا للسكان، إذ يبلغ متوسط نسبة تنقل السكان (القاطنين في مقاطعة غير مقاطعة

---

(1) Planhol, 1964 b, chapitre II.

(2) Grötzbach, 1965.

(3) Collin-Delavaud, 1958 a; 1960.

منشئهم) 8,5من مجموع السكان سنة 1950. ويشكل الجزء الأوسط والشمال الشرقي من الهضبة العليا الأناضولية، من كيرشهير (Krehir) ويوزغات (Yozgat) إلى أرضروم (Erzurum) منطقة نزوح باتجاه الشمال الشرقي البونتي[1]. كما أن منطقة البحيرات البيسيدية كانت مركز نزوح يفوق المتوسط العام، فقد أدى الاستقرار المبكر للبدو في آسيا الصغرى والتطور السريع للحياة الريفية في أحواض الهضبة العليا، وخاصة في المنحدر الداخلي للسلاسل البونطية، إلى وصول كثير من المناطق إلى مستوى التضخم الديمغرافي في وقت مبكر.

ب. المهاجرون الأتراك

لعب عامل آخر دورا حاسما في التسريع في عملية الاستيطان الحضري في آسيا الصغرى، وهو قدوم اللاجئين الأتراك والمسلمين المعروفين بالمهاجرين (muhacir) إلى الأناضول، في سياق تقهقر القوة التركية في البلقان، خاصة بعد 1878 (حيث أن الأراضي التي تم التخلي عنها قبل هذا التاريخ لم توجد فيها سوى أقليات تركية صغيرة جدا أعيد توطينها في أوربا نفسها). في نفس الوقت، أحدث التقدم الروسي في البلاد الإسلامية من شبه جزيرة القرم والقوقاز وآسيا الوسطى موجة هجرة لا تقل كثيرا عن الأولى. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وصلت موجات مستمرة من اللاجئين، أقدمها وفدت من شبه جزيرة القرم التي وجد فيها مليون ونصف من التتار أنفسهم تحت الهيمنة الروسية بعد ضمها من طرف روسيا في سنة 1783، وقد لجأ أكثر من 300,000 منهم إلى الإمبراطورية العثمانية خلال السنوات السبع التالية، ثم بدأ نزوح استمر طوال القرن التاسع عشر، مع زيادة معتبرة في أعداد اللاجئين خلال الحروب : في سنوات 1812–1828 (200,000)، وبعد

(1) Öngör, 1958-59, p. 102.

حرب القرم (225,000)، وقد عرفت نهاية القرن التاسع عشر تجددا في الهجرة، إذ قدم ما بين 1890 و1892 حوالي 20,000 شخص سنويا. ومع حلول سنة 1914 لم يبق من التتار في شبه جزيرة القرم سوى 238,000 نسمة خاصة في الجزء الجبلي والمنحدر الجنوبي، بعد أن تركوا تماما الهضبة الشمالية[1]. وفي الفترة الممتدة بين 1859 و1864، أحدث الغزو الروسي للقوقاز نزوح 100,000 من تتار نوغاي المقيمين في سهوب غرب بحر قزوين والمنتمين للأسرة التركية، إلى الإمبراطورية العثمانية، وما بين 4 آلاف و5 آلاف من الشركس المسلمين المنتمين للأسرة القوقازية.

و لقد كانت حركة اللجوء إلى الإمبراطورية العثمانية أقل حدة من سيبيريا وآسيا الوسطى رغم أهميتها، ففي 1908، وصلت جماعة من التتار السيبيريين من مقاطعة تومسك (Tomsk) واستقروا في هضبة وسط الأناضول بقرية بوغروديليك (Bogrüdelik) شمال شرق بحيرة أكشهير (Aksehir)[2]. وقد تعرضنا فيما سبق لقدوم كازاك تركستان الصيني إلى الأناضول بعد نزوحهم سنة 1951 عبر التبت. وفي البلقان تزامنت كل مراحل التراجع العثماني مع موجات هجرة كبيرة، بلغ تعدادها مئات الآلاف بعد 1878، ونفس العدد تقريبا بعد الحروب البلقانية في 1912-1913، وعشرات الآلاف بعد فقدان جزيرة كريت سنة 1900. أما موجة الهجرة بين 1921 و1928، التي نتوفر بشأنها على معطيات دقيقة، فقد شملت 463,000 شخص، وفد حوالي 400,000 منهم من الأراضي اليونانية. ولم تنقطع حركة الهجرة في فترات السلم، حيث توجد، على سبيل المثال، قرية للسكان القبارصة أنشئت سنة 1936 في السهل البامفيلي. كما لم تنقطع هجرة الأفراد أو الجماعات الصغيرة، مع تزايد في هذه الظاهرة خلال الأزمات السياسية. فقد بدأ آخر

(1) Gözaydin, 1948.

(2) Wenzel, 1937, p. 89.

نزوح كبير، وهو نزوح أتراك بلغاريا المتواجدين بكثرة في الجزء الروماني سابقا من دوبروجا (Dobroudja) وفي ديلي أورمان (Deli Orman) حول فارنا (Varna)[1]، في شكل هجرة عفوية للآلاف من الأفراد سنويا، قننتها اتفاقية 1925؛ غير أن أعداد المهاجرين تعاظمت فجأة سنة 1950-1951 بعد قرار بلغاريا طرد الجزء الأكبر من هذه الأقلية التي اعتبرت غير قابلة للاندماج، وقد بلغ العدد ربع المجموع (155,000) الذي قدر بـ 700,000 شخص، حتى غلق الحدود مجددا ونهائيا سنة 1951.

تبين هذه الأرقام الأهمية العددية للوافدين الجدد الذين قدر عددهم الإجمالي بثلاثة ملايين، كما يتضح تنوع مشاربهم، بحيث لم يكن يجمع بينهم سوى الانتماء للدين الإسلامي. في مقابل ذلك لم توصد الإمبراطورية العثمانية ذات التقاليد المتسامحة الباب في وجه المهاجرين المسيحيين كذلك، فقد استقبل الأناضول مرات عديدة لاجئين مجريين، خاصة بعد 1848، وبولنديين بعد عمليات التقسيم التي فرضت على بولندا نهاية القرن الثامن عشر، وقد أسس هؤلاء قرية بولونيز كوي (Polonez köy) في شبه جزيرة كوكايلي (Kocaeli) على بعد 20 كلم من إستانبول، وقد حافظت إلى يومنا هذا على خصوصيتها الدينية واللغوية وتمارس تربية الخنازير لتموين المجموعات المسيحية في إستانبول التي تجد في هذه القرية نوعا من السياحة الريفية العائلية. كما أسست قرية أخرى في تركيا الأوروبية بمنطقة دوبروجا، بالإضافة إلى مراكز للكوزاك المعروفين بقدامى المؤمنين الموسكوبيين (Moscovites vieux-croyants). غير أن اللاجئين المسيحيين كانوا نادرين، كما لم يحاول الأتراك المسيحيون في دبروجا وبسارابيا (Bessarabie)، المعروفون بالغاغاووز (Gagaouz)، الهجرة إلى الأناضول، بل على العكس من ذلك، تحولوا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى المناطق التي احتلها بنو

(1) Tanoğlu, 1935; Kostanick, 1957.

دينهم من الروس. وفي أغلب الحالات كان المعيار الوحيد للانتماء القومي هو الدين. وبالإضافة للشركس، كانت اللغة الأم للكثير من المهاجرين المسلمين من البلقان هي السلافية، كما أن الكريتيين المسلمين الذين التحق أغلبهم بالإمبراطورية العثمانية بعد ضم الجزيرة لليونان، يتحدثون اللغة الإغريقية، كما كان الشأن قبل 75 سنة بالنسبة للمهاجرين المسلمين المرايين (Morates) في الحي الشمالي لأنطالية (Antalya) الذين كانوا يتحدثون الإغريقية عند استقلال اليونان. وقد بلغت هذه السياسة أوجها بإبرام اتفاقية لوزان سنة 1923 التي قننت تبادل السكان اعتمادا على المعيار الديني فقط (المسلمون مقابل الأرثوذكس)، مما أدى إلى نقل جماعة مسيحية أرثوذكسية عربية من منطقة سيليسيا إلى اليونان، بينما لم يسمح للإغريق القاطنين بالتراب التركي والذين تحولوا إلى الكاثوليكية والبروتستانتية بمغادرته. وتطلب الأمر مفاوضات طويلة أمام اللجنة المختلطة لتفادي التهجير الجماعي للألبان المسلمين من اليونان، والرومانيين والبلغار واليوغسلاف الأرثوذكس من تركيا.

2. حتى الحرب العالمية الأولى لم يكن الأناضول الأرض الوحيدة التي استقبلت المهاجرين، فالكثير منهم استقر بصفة نهائية في أراضي كانت لا تزال عثمانية في زمن هجرتهم، بينما اتخذها بعضهم محطة مؤقتة قبل هجرتهم النهائية مع تراجع القوة التركية نهائيا إلى الأناضول. في هذا الإطار، آوى الجزء البلقاني من تركيا، إلى غاية سنة 1878 أساسا، العديد من اللاجئين الفارين من الضغط الروسي[1]، كما استقر أغلب تتار القرم والنوغاي (Nogai) قبل هذا التاريخ في مناطق دوبروجا ودلتا الدانوب التي عرفت عملية تتريك عميقة، وساهموا في تقدم الاستيطان بها أو في أراض استصلحها البلغار الذين رحل جزء منهم إلى التراب الروسي حيث أخذوا مكانهم في شبه جزيرة القرم، ومن هذه المناطق تنقلوا فيما بعد إلى الأناضول. أما هجرة

---

(1) (بخصوص لجوء الترتار والشركس إلى البلقان) Wilhelmy, 1935, p. 186-97 .

الشركس فقد انقسمت إلى أجزاء شبه متساوية، فمنهم من استقر في مناطق البلقان (قدر عدد المهاجرين الذين نزلوا في موانئ الدانوب بحوالي 200,000)، ولو بشكل مؤقت، واستقر جزء آخر في الأناضول (240,000 نزلوا خاصة في موانئ سينوب (Sinope)، وسمسون (Samsun)، وطرابزون (Trébizonde))، بينما استوطنت أعداد كبيرة منهم الأجزاء الشمالية والغربية من الهلال الخصيب، من الأردن إلى الجزيرة والفرات الأوسط، حيث يشكلون اليوم في سوريا والأردن أقليات معتبرة، بعدما لعبوا دورا مهما في تقدم الحياة الحضرية في سهوب أطراف الصحراء السورية، حيث مكنتهم طبيعتهم الحربية من الدفاع عن أنفسهم في وجه البدو[1]. وفي الأناضول، استقروا بكثرة بالقرب من الموانئ التي نزلوا بها، أي في الشمال الغربي (منطقة مرمرة وأحواض سكاريا (Sakarya))، وفي أقاليم سمسون (Samsun) وحلقة كوزول أرماك (Kzl Irmak))، وفي السهل السيليسي وطوروس المضاد.

هذا وتركز اللاجئون الوافدون من البلقان في 1878 ثم في 1912-1914 في الأجزاء الغربية من الأناضول بما في ذلك الهضبة الوسطى. أما أهالي كريت فقد استقروا في الأطراف والجهات الساحلية، ولم يضطروا إلا نادرا لمواجهة مناخ الهضبة العليا القاسي بالنسبة لأهالي الجزر هؤلاء[2] الذين انتشرت أعداد كبيرة منهم في كل الجهات الساحلية التي كانت لا تزال خاضعة للسلطة العثمانية من رودس (حيث توجد إلى يومنا هذا قرية كبيرة بكريتيكا (Kritika) على الساحل الغربي) إلى برقة. هكذا ساهم البلقانيون بشكل ملحوظ في تعمير كثير من سهول منطقة مرمرة (سهل بورصة مثلا) التي لم يكتمل فيها التواجد السكاني، وفي استيطان السهل الفريجي وأطراف الهضبة الوسطى (منطقتي قونية وأكشهير (Akşehir)، وفي استصلاح السهل البامفيلي. ووجد تتار نوغاي في هضبة وسط الأناضول ظروفا مشابهة لظروف

(1) Wirth, 1963.

(2) رغم تواجدهم الاستثنائي في طوروس المضاد، أنظر: Percy, 1901, p. 100.

موطنهم الأصلي، وأسسوا ست قرى في الجزء الأكثر جفافا من الإقليم شمال غرب البحيرة المالحة[1]. هذا وقد شهدت المراحل الأولى استقرارا محدودا في المدن إذا ما استثنينا نزوح عدد من هؤلاء اللاجئين من الريف إلى المدن بسبب عدم تأقلمهم، فعلى سبيل نمت مدينة أسكشهير (Eski¡ehir) بشكل كبير بإقامة العديد من أحياء المهاجرين فيها بعد سنة 1878.

تعتبر موجة التراجع التي تلت الحرب التركية-اليونانية بعد 1921، أول موجة هجرة نتوفر بشأنها على معطيات دقيقة نسبيا فيما يخص مناطق الاستقرار[2]. وقد استجدت معطيات جديدة، إذ يتعلق الأمر هنا بتبادل للسكان نجم عنه هجر مناطق شاسعة في الأناضول، ومن جهة أخرى أدت هجرة الأرمن والمجازر التي تعرضوا لها بالإضافة إلى الخراب الناجم عن الحرب العالمية الأولى إلى إقفار قلب الأناضول الشرقي جنوب وجنوب-غرب بحيرة فان. غير أن السكان الإغريق المهجرين من آسيا الصغرى وتراقيا (Thrace) كانوا أكثر عددا (ثلاثة أضعاف) من الوافدين الجدد الذين وجدوا مجالا فسيحا، فاختاروا بشكل طبيعي المناطق الشاغرة، وتوزعوا طبقا للتواجد السكاني الإغريقي السابق في آسيا الصغرى، فتركزوا بشكل كبير في منطقتي مرمرة وتراقيا ومناطق بحر إيجة وكبادوسيا (Cappadoce) وعلى سواحل البحر الأسود في منطقة سمسون (Samsum)، في مقابل ذلك، انتشر القليل منهم في فريجيا وهضبة وسط الأناضول التي لم يكن الإغريق متواجدين فيها بكثرة والتي عمرتها موجات هجرة سابقة. كما تمت محاولات محدودة في شرق الأناضول بسبب انعدام الأمن الناجم عن التمرد الكردي. هذا وتثبت إحدى الوثائق هذه المعلومات، وهي في أساسها خريطة تتعلق بنسبة السكان المولودين خارج التراب الوطني، والتي وضعت حسب الأقاليم اعتمادا على

(1) Wenzel, 1937.

(2) جمعت الإحصائيات الخاصة بكل مقاطعة في: Kostanick, 1957.

إحصائي 1935 و1945، إذ بلغ عدد المولودين بالخارج 938,000 سنة 1935 و827,000 سنة 1945[1]. وباستثناء التركز في المدن الثلاث الرئيسية وهي إستانبول وإزمير وأنقرة الذي يعكس النمو العمراني للبلاد، وفي هضبة قارس (Kars) التي ظلت تستقبل باستمرار اللاجئين عبر الحدود السوفيتية، وفي منطقة سمسون التي عوضت فيها أقلية إغريقية مهمة، وفي السهل السيليسي المتوسطي الذي تم استيطانه من جديد بعد تراجع حاد للسكان، فإن ما يلفت الانتباه بخصوص انتشار الوافدين الجدد هو تركزهم الكبير في الغرب وبالتحديد في شمال غرب البلاد في أقاليم بحر إيجة وتراقيا ومرمرة.

تأكد هذا التركز في الغرب مع آخر نزوح كبير وهو نزوح أتراك بلغاريا في 1950-1951 الذي نتوفر بشأنه على معلومات كاملة، فقد كان أغلب المطرودين من العناصر غير المنتجة من السكان، إذ كان من بينهم 54من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 15 عاما، و31من الأشخاص الذين تتجاوز أعمارهم 45 عاما، ولم تتعد نسبة البالغين الذين تتراوح أعمارهم بين 16 و45 عاما 15من المجموع. ونظرا لتركيبتهم الديمغرافية لم يكن ممكنا الاعتماد على الوافدين الجدد ليكونوا روادا في مجال الاستيطان، بحيث لم يوطن أي منهم شرق الخط الرابط بين أنطاكية (Antakya) ومالاتيا (Malatya) وأرضنكان (Erzincan) وأوردو (Ordu)، وتتواجد أهم المجموعات في تراقيا وفي مناطق مرمرة وإيجة، وخاصة منها جهات إستانبول وبورصة وإزمير، واستقرت الجماعات المهمة الأخرى في قلب الهضبة الوسطى (مناطق قونية (Konya) وأنقرة (Ankara) وأسكشهير (Eskişehir). ومهما كان السبب الكامن وراء هذا التوزيع والذي ساهمت فيه عوامل معقدة من قبيل الحيطة السياسية تجاه لاجئين اعتبروا متأثرين بالحكم الشيوعي البلغاري، والتي جعلت الحكومة التركية ترفض توطينهم في الأقاليم المتاخمة للاتحاد السوفيتي،

(1) Tunçdilek et Tümertekin, p. 69.

والتقاعس المستمر الذي يطبع السياسة التركية في تعمير شرق الأناضول رغم قلة سكانه منذ دمار الحرب العالمية الأولى، والخشية من أن الحالة السيئة للبنية التحتية والظروف القاسية قد تشكل عائقا في وجه نجاح شريحة سكانية قليلة النشاط، مهما كانت هذه العوامل فإن النتيجة تمثلت في ترسيخ الاختلال الديمغرافي الإقليمي في تركيا بين الأجزاء الغربية والشرقية للبلاد، إذ تشكل الأقاليم الشرقية حملا ثقيلا بالنسبة للدولة التركية، التي لم تبذل أي جهد لجعل اللاجئين يساهمون في حل المشكلة، بحيث يظل الشرق البعيد يفتقر للرواد المعمرين الراغبين في الاستقرار[1].

3. وفد السكان المهاجرون في الغالب من مناطق أكثر تطورا وتقدما من عموم الأناضول، وتركزوا جغرافيا في الجهات ذات التواجد البشري الكثيف والتي توفر أفضل ظروف العيش في البلاد، بحيث كان من المنتظر أن يكونوا نموذج وخميرة التقدم في تركيا الجديدة، غير أن دورهم حددته الظروف المتنوعة لاستقرارهم والمصاعب المتباينة التي واجهوها. ولم تتوفر لهم أحسن الفرص بما أنهم كانوا آخر الوافدين، فباستثناء لاجئي موجة 1921–1923 الذين حلوا مكان الإغريق في مناطق جيدة، اضطر لاجئو الموجات السابقة إلى التوطن في الفراغات المتوفرة. وفي غرب ووسط الأناضول حيث استقر أغلبهم، استوطنوا عادة في سفوح الجبال التي كان يميزها غالبا شريط ممتد من القرى يرسم حدود الأحواض والأودية التي تتركز فيها الأراضي الصالحة للزراعة، فيما ظلت أراض كثيرة شاغرة في الأجزاء الوسطى التي عادة ما تغطيها المستنقعات في السهول وتتخللها الأودية في المناطق الجبلية، التي استقر فيها الشركس الذين واجهت محاولاتهم الاستيطانية صعوبات جمة، فالسهل السيليسي الذي كان غير صالح للسكن آنذاك اعتبر مقبرة حقيقية بالنسبة لهم، إذ بلغت الخسائر البشرية بينهم

(1) Barkan, 1949-50 b.

تسعة أعشار[1]. أما أهالي الروميلي والبلقان الذين توافدوا في سنوات 1878 و1912–1914 فقد استقروا بالسهول، حسب أنماط إقليمية مختلفة، ففي فريجيا الشمالية (Phrygie du Nord)[2] يتواجد المهاجرون في كل مكان، إذ يهيمنون على مناطق السهل حيث تزيد نسبتهم عن مثيلتها في سفوح الجبال، وكذلك بالقرب من أسكشهير (Eski¡ehir) التي كانت مركز توزعهم. في مقابل ذلك لا نكاد نجد أثرا للاجئين في بامفيليا (Pamphylie) وبيسيديا (Pisidie)[3]، وهي مناطق ذات تضاريس مرتفعة كثيفة السكان، بينما تكثر أعدادهم في السهل البامفيلي الذي كان يشهد حركة إعادة تعمير كبيرة نهاية القرن التاسع عشر بعدما ظل لفترة طويلة مجالا للأحراش التي لا تساعد على الزراعة، وقد استقرت فيه جماعات صغيرة كونت ثلاث أو أربع قرى سمح لها تكافلها بمواجهة الظروف المعنوية والطبيعية الصعبة. وفي سيليسيا (Cilicie) وكبادوسيا (Cappadoce)، تأسست قرى عديدة في السهل، بينما ترك نزوح السكان الإغريق من الإقليم المرتفع مجالا فسيحا في القرى الموجودة. وفي طوروس المضاد (Anti-Taurus)، تتواجد أعداد كبيرة من مهاجري 1878 في السهول العليا والأودية الفسيحة. بينما استقر الشركس في حوض غوكسون (Göksün)، وخاصة في أودية أوزون يايلا (Uzun Yayla) الجبلية[4]، كما نجدهم في هضبة وسط الأناضول[5]، في سهول بحيرتي أكشهير (Ak¡ehir) وأولغون (Ilgn) وفي منطقة البحيرة المالحة الكبرى أساسا، فيما يتركز السكان الأصليون في منحدر سلطان داغ (Sultan dad) وفي الإقليم المرتفع الجنوبي.

في هذه المناطق التي لم يتواجد فيها السكان بكثرة قبل وفودهم،

---

(1) Banse, p. 175; Wirth, 1963.

(2) Tunçdilek, 1959.

(3) Planhol, 1958 a.

(4) Grothe, 1912, II, 161-166.

(5) Wenzel, 1937.

حصل المهاجرون على حصص معتبرة من الأراضي قدر متوسطها بحوالي 5 إلى 6 هكتارات للفرد الواحد، أي ما يناهز 25 إلى 30 هكتار للأسرة الواحدة، وسرعان ما توسعت الملكيات عندما رخص لقرى المهاجرين باستصلاح وتهيئة الأراضي البور الواقعة بين قرى السكان الأصليين. إن هذا التملك السريع للأرض من طرف المهاجرين الذين كانوا يتوفرون على أدوات معتبرة للعمل والزراعة، أدى إلى تبلور طبقية اجتماعية متجذرة في قراهم وإلى تباين في توزيع الأرض لا نجد له مثيلا في قرى السكان الأصليين كما بينته دراسة حول إقليم فريجيا (Phrygie)[1]. على أن الأراضي التي حصلوا عليها كانت رديئة في أغلب الأحيان، يصعب تجفيفها، أو كما هو الحال في السهول البامفيلية والسيليسية ذات الطبيعة الصخرية، فهي تتألف من طبقة تربة رقيقة فوق مسطحات من الحصى لما يطلق عليه بالتركية اسم كير مملكة (kr mamleket) (البلد الرمادي أو بلد السهوب) الذي يرتفع فوق الأودية الرسوبية الغنية. ولم يرض اللاجئون بهذا الوضع، وإن تميزت إحدى القرى في السهل البامفيلي بعكس ذلك، فهي تحمل اسم شاتورلو مهاجيرلر (patrl muhacirler) (المهاجرون السعداء)، وهذا ما جعل هذه التسمية تعبر عن وضع استثنائي.

في ظل هذه الظروف التي ميزت استقرار المهاجرين كانت حياة اللاجئين صعبة، وكان طريق البحث عن التوازن الاقتصادي مضنيا وشاقا، حيث لم يستطع الكثيرون الاستقرار في الريف واضطروا إلى النزوح إلى المدن حيث شكلوا بروليتاريا بائسة. هذا وقد آلت المحاولات الزراعية الأولى إلى نتائج كارثية بسبب انعدام التأطير التقني خاصة في نهاية القرن التاسع عشر، إذ تعفنت بذور القمح في أراضي المستنقعات، وحاول الكريتيون عبثا إحياء نمط عيش قائم على تربية قطعان الماعز وأشجار الزيتون في السهول الرطبة التي وطنوا فيها عادة. وفي بداية الأمر كان المورد القار الوحيد هو

---

(1) Tunçdilek, 1957.

زراعة الحبوب الفقيرة مثل الذرة القادرة على التأقلم مع خصائص التربة، قبل أن تتم زراعة القمح والشعير بشكل لائق. وفي السهول الجنوبية لم يكن في مقدور المهاجرين الذين اكتفوا بالمواقع الرديئة اقتحام مجال المضاربات الزراعية الكبرى، مثل زراعة القطن التي نمت في المسطحات الرسوبية. واختصوا بالنشاطات المميزة للمناطق الفقيرة مثل: النسيج العائلي في البيوت؛ وزراعة البطيخ المناسبة للتربة الرملية الخفيفة والتي تحتل مكانا مهما في النظام الغذائي بالأناضول. أما الاختصاصات التي كانت لهم فيها تقاليد عريقة والتي كان من الممكن أن يساهموا في تطويرها من قبيل زراعة التبغ فقد جعلت ظروف الاستقرار التي واجهوها من الصعب تنمية هذه الزراعة، ومما يلاحظ أن الشركس ظلوا يمارسون تربية الحيوانات، خاصة الخيول، أكثر من الزراعة. فيما وضع الكازاك خبرتهم في مجال الرعي تحت تصرف جيرانهم من كبار الملاك.

واجهت موجات الهجرة التي تلت الحرب العالمية الأولى مشاكل من نوع خاص، فقد وفر الاستقرار في القرى والأراضي التي هجرها الإغريق للمهاجرين إرثا قد يحسد عليه المهاجرون، غير أن استغلاله كان يتطلب اعتماد معايير وضعها فلاحون آخرون ومجتمع مختلف. وبغض النظر عن مشاكل العيش والبقاء واحتلال الأرض، واجه الوافدون الجدد مشاكل التعلم والتأقلم التقني في ممارسة الزراعة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالغرس. وأفضل مثال على ذلك هو زراعة الكروم التي شجعت الحكومة العثمانية ممارستها في القرى الإغريقية لإنتاج الخمر وذلك لأسباب جبائية، حيث استفادت من المساعدة التي توفرها إدارة الديون. وإن ورث المهاجرون هذه الكروم إلا أن الدولة اضطرت إلى الاضطلاع بإنتاج الخمر بمساعدة تقنيين أجانب، وكانت هذه هي الحالة الوحيدة لبلد إسلامي تقوم فيه الدولة بإنتاج الخمر. أما فيما يخص الزراعة في حد ذاتها، فقد كانت العقبات عديدة، وكان التأقلم أكثر سهولة بالنسبة لغراسة الزيتون التي نجح فيها الوافدون الجدد،

خاصة في منطقة أيافالوك-إدرميت (Ayavalk-Edremit)، حيث طوروا صناعة زيت وصابون مزدهرة، على أن تراجع المستوى العام لاستغلال الأرض شمل كل الجهات عموما.

لم يؤثر المهاجرون إيجابيا على الحياة في الأناضول، سواء كان ذلك على مستوى التوزيع العام للسكان على أرضه والذي لم يصحح قدومهم الاختلالات الإقليمية، أو على مستوى النشاطات الاقتصادية التي لم تحدث نهضة اقتصادية كبيرة كفيلة بتفادي التراجع الاقتصادي الملاحظ في تلك المناطق، وفي مقابل ذلك، ظهر تميزهم جليا في مجال التأثيرات الثقافية التي كان بإمكانهم أن يسهموا فيها بشكل إيجابي، ورغم عملية الاندماج المستمرة، فإن ازدواجية اللغة تظل تطبع كل أولئك الذين كانوا يتكلمون لغات أو لهجات غير اللغة العثمانية بما في ذلك النساء. على أن تميزهم يبرز أكثر في مجال السكن، فمنذ قدوم الكريتيين وفرت الدولة للاجئين سكنات نموذجية تتألف عادة من غرفتين ومبنية بالآجر وذات سقف قرميدي أحادي الانحدار ومغطى بالقرميد، إلا أن المهاجرين القدامى جلبوا معهم أنماط سكناتهم وطرق تنظيم قراهم. ففي الهضبة العليا يظل الاختلاف قائما بعد ما يناهز قرناً من الزمن بين قرى مهاجري الروميلي الفسيحة ذات البيوت الموزعة والمغطاة بالقش أو القصب وبين قرى السكان الأصليين الكثيفة ذات السطوح، بحيث يمكن التمييز بين النمطين في الهضاب من مسافة بعيدة. وفي فريجيا (Phrygie) أحدث المهاجرون ثورة عميقة في مجال مواد البناء، فإلى جانب البيوت الحجرية القديمة شبه المدفونة التي نجدها في جبال فريجيا، والبيوت الخشبية التي يقيمها الرحل المقيمون في المرتفعات الغابية، أدخل المهاجرون البيت الطيني المبني بالآجر الخام الذي جلبوه معهم من سهول البلقان الطينية والذي تأقلم تماما في السهول السهبية التي استقروا فيها، ولم يتخلوا عن مساكنهم القديمة - البيت المربع ذو السقف المنحني في أربع جهات بالنسبة لأغلب الروميليين - إلا في السهول الساحلية المنخفضة (السهل البامفيلي أو

السهل السيليسي)، حيث يمكن الاكتفاء بملجأ بسيط نظرا لدفء الشتاء، وقد تبنوا مساكن مطابقة لمساكن سكان السهل الأصليين، خاصة البيت المرتفع الذي يعكس ازدهار الريف. بشكل عام، فإن تطور السكن نحو أنماط حضرية أو شبه حضرية هو الميزة الأساسية لقرى المهاجرين، التي ينتشر فيها سقف القرميد بوتيرة أسرع مقارنة بالقرى الأصلية وذلك على حساب السقوف القديمة المصنوعة من القش أو المسطحة.

وتظهر العادات الحضرية في كل مجالات حياة المهاجرين، كما يؤكد ذلك وصف جيرانهم من السكان الأصليين لهم بـ "أصحاب العادات الحضرية" (çehir usulü)، فهم يأكلون خبز الفرن الذي يختلف عن خبز الرحل الرقيق الذي يطهى على الأحجار المسطحة المستديرة بدون خميرة، والذي لا زال إلى اليوم خبز الغالبية العظمى من فلاحي الأناضول. ويمكن التعرف للوهلة الأولى على قرى المهاجرين البلقانيين من خلال وجود فرن فردي أو جماعي. كما أنهم يستعملون الأثاث من طاولات وكراسي وأحيانا الأسرة المنصوبة، بينما جرت العادة في الأناضول أن ينام الناس على الأرض على فراش يمد في المساء ويلف في الصباح في إحدى زوايا الغرفة. ورغم أن غالبيتهم من الفقراء، فإن مستوى عيش المهاجرين كان أفضل من غيرهم لكونهم كانوا يتقاسمون أسرار حضارة أرقى، مما أثار غيرة جيرانهم. كما أن العلاقات بين السكان الأصليين والمهاجرين ليست على أحسن حال، حيث لا يتزاوجون إلا نادرا في المجتمع الريفي. ويثير الشركس حفيظة جيرانهم أكثر من غيرهم، حيث اكتسبوا سمعة سيئة للغاية بسبب ممارستهم للنهب وسرقة الخيول والبنات. هذا ولم تؤثر هذه الخصوصيات على الوسط المحلي كثيرا، ورغم انعدام الدراسات الخاصة بالتحول الثقافي، يمكن الجزم بأن المهاجرين لم ينقلوا ميزاتهم لجيرانهم وظل دورهم التربوي باهتا. ولا يوجد سوى مجال واحد أثروا فيه بشكل حاسم وهو مجال أنماط النقل، فعند وصول المهاجرين البلقانيين في 1878-1880، كان يسود في الأناضول، كما هو الشأن اليوم في

الهضبة الإيرانية، الجمل وكانت أفضل وسيلة للنقل فيه هي العربة الثقيلة ذات الدولابين المليئين التي تجرها الثيران والمعروفة باسم كاغني (kadn)، وقد أدخل المهاجرون وسيلة نقل على نطاق واسع تتمثل في عرباتهم الطويلة ذات الدفة والعجلات الأربع التي أطلق عليها اسم تتار عرباسي (Tatar arabas) أو العربة التتارية، والتي انتشرت في الهضبة الوسطى وفي كل السهول الصالحة لتنقل العربات. وفي تلك الفترة التي نشطت فيها التجارة الأوربية باتجاه المشرق عرفت البلاد أول خطوط السكك الحديدية وكانت مهيأة لتقبل هذه التقنية الجديدة. أما في مجال الحياة الاجتماعية أو العادات اليومية فالأمر مختلف تماما، فقد وجب الانتظار طويلا قبل أن يصبح المهاجرون محل تقليد من طرف السكان الآخرين.

من خلال كل هذا يظهر أن الحصيلة العامة لاستقرار المهاجرين كانت متواضعة. فقد تبخرت الآمال المعقودة عليهم بسبب مقاومة المجال الذي استقبلهم، فقد فقد الوافدون الجدد قدرا كبيرا من حيويتهم الكامنة بسبب الصعوبات الجمة التي واجهتهم، وهذا ما جعل تأثيرهم لا يرقى إلى مستوى تأثير الأندلسيين في شمال إفريقيا، الذي وإن كان محدودا جغرافيا في الأساس إلا أن تركزه الكبير ترك بصمة عميقة في المجال الحضري وما جاوره. هذا ما يجعلنا نقر بأن تأثير المهاجرين كان تأثيرا عدديا قبل كل شيء إذ ساهموا في ملء خريطة الأناضول التي كانت لا تزال فارغة في نهاية القرن التاسع عشر.

6. إعادة التعمير في الفترة المعاصرة

مجالات الاستقبال وأنماط الاستيطان

1. ساهم قسم مهم من العناصر البشرية الجديدة الكثيرة في الأناضول في حركة عمرانية مبكرة، فغذت المدن التي كان نطاق جاذبيتها أكبر بكثير مقارنة بالبلاد الإيرانية-الأفغانية التي لم تعرف حركة نزوح ريفي كبيرة نحو

المدن، والتي لم تبدأ باتجاه كابول إلا خلال السنوات الأخيرة[1]، بينما بدأ النمو الكبير لطهران في الثلاثينيات من القرن العشرين[2]، على أن دورها كحاضرة كبرى لا يمتد على كامل التراب الإيراني وإنما اقتصرت جاذبيتها على المناطق المجاورة لها من خلال هجرة كبيرة من الأودية الجبلية للمنحدر الداخلي للألبروز وهبوط حاد للحدود العليا للزراعة، حيث لم يتعد تأثير طهران شمال وشمال-غرب إيران[3]. من جهة أخرى نلاحظ حركة تعمير أقل أهمية باتجاه العواصم الإقليمية الأخرى التي لا يكاد نموها يتجاوز الفائض الديمغرافي الطبيعي للمدينة، كما هو حال مدينة شيراز[4]. وتشذ عن باقي الحواضر المهمة مدينة عبدان الصناعية الجديدة التي يمتد نطاق جاذبيتها إلى خوزستان وفارس وزاغروس الغربي كله حتى نواحي أصفهان[5]. وفي هذه الحركة التعميرية لا توجد الأحياء المبنية بالمواد الخفيفة إذا استثنينا الأحياء الفوضوية في مدينتي طهران وعبدان، وهي ليست أحياء قصديرية بأتم معنى الكلمة.

على العكس من ذلك تشهد تركيا حركة شاملة لنمو المدن على حساب الأرياف المحيطة بها، بما في ذلك المناطق الأكثر فقرا وعزلة في شرق الأناضول التي تعرف نموا عمرانيا كبيرا وسريعا بسبب قسوة الحياة الشتوية في القرى التي تدفع إلى البحث عن ظروف أنسب في المدن[6]. كما تشكل الأحياء القصديرية مشهدا لا يتجزأ من الصورة العمرانية لمديني إستانبول وأنقرة، وهي تعكس قوة ظاهرة النزوح الريفي. ومنذ منتصف القرن

(1) بالنسبة لكابول، أنظر: Hahn, 1964-65.

(2) فيما يخص طهران، أنظر: Bobek, 1958; Planhol, 1964 b, chapitre IV.

(3) Planhol, 1964 b, p. 73-75.

(4) Clarke, 1963, p. 6-8.

(5) IERS Tehran, 1964, p. 366.

(6) Yüçel, 1960-61.

التاسع عشر، كان تأثير إستانبول العاصمة الوحيدة آنذاك بدون منازع، يمتد إلى الأجزاء الأكثر عزلة في الهضبة العليا وشرق الأناضول[1]، وكانت حاضرة ومركز جذب لكل البلاد التركية، عكس طهران بالنسبة لإيران. ورغم أن نشاط أغلب المدن الأناضولية يظل ريفيا بالأساس ومع أن قسما كبيرا من سكان المدن الجدد لا يتوفرون على نشاط محدد ومستقر، إلا أنه يوجد عنصر اختلاف أساسي مع إيران، يجعل حالة الأناضول تشبه الوضع السائد في المستعمرات الروسية في آسيا الوسطى ذات النمو العمراني السريع.

لم تستوعب المجالات الحضرية كل هذا الزخم، خاصة وأن آثار النمو الديمغرافي السريع[2] على المجال الملائم والصحي للهضبة العليا الأناضولية جاءت لتعزز في تركيا العناصر التي تطرقنا إليها آنفا، فيما ترك الانتشار الشامل للبداوة فراغات فسيحة في متناول الاستيطان الريفي.

2. شمل أول مجال تعمير السهول المنخفضة الساحلية الواقعة في أطراف الأراضي المرتفعة والتي كانت دوما مواطن شتاء للبدو وتعرضت لتراجع كبير بسبب انتشار الملاريا والخراب المباشر الذي كان يلحقه بها الرعاة، مما جعل حالة المناطق المحيطة بالأناضول في بداية العصور الحديثة تختلف تماما عن الوضع الذي كان سائدا في العصور القديمة، غير أن حركة إعادة إعمار شاملة مكنت هذه المناطق شيئا فشيئا من استرجاع وجود ريفي قوي.

و قد بينت دراسة مفصلة خصصت لحالة إقليمية وهي حالة السهل البامفيلي[3]، أن التراجع بلغ مداه خلال القرن السابع عشر، حيث لم تبق

---

(1) Planhol, 1952, p. 595-98.

(2) Tunçdilek et Tümertkin, 1959.

يتجاوز النمو الديمغرافي حاليا 3 ٪ سنويا.

(3) Planhol, 1958 a.

سوى بعض القرى الواقعة بين المواطن الشتوية للبدو والتي سمح لها تركزها في منطقة واحدة من مقاومتهم. على أن الاستقرار شهد تقدما مستمرا خلال القرن الثامن عشر كله، انطلاقا من المواقع الأكثر ملاءمة في البلاد التي تتخللها التلال الصغيرة في القطاع الغربي من السهل، بينما ظلت مدرجات القطاع الغربي المسطحة والمفتقرة للماء مهملة إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر. كما عرفت المنطقة المتاخمة للجبال تقدما أسرع من ذلك الذي شهدته قطاعات السهول الرسوبية المنخفضة التي ظلت لوقت طويل غير صالحة للسكن ومهجورة رغم خصوبتها والتي آوت عبيدا سودا قدامى يشكلون اليوم قرية قرب مصب نهر أكسو .(Aksu) وساهمت في العملية كل العناصر البشرية من بدو مستقرين، ومهاجرين وفدوا بأعداد كبيرة منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وفلاحين بسطاء استصلحوا الإقليم الإيزوري المرتفع (haut pays isaurien) (يعرف هؤلاء الفلاحون بالكوكشو (kökçu) أي مستأصلي الجذور)، وكانوا قد نزلوا في أول الأمر للعمل المؤقت واستقروا شيئا فشيئا في فرجات الواقعة بين آخر الكتل الغابية التي اقتلعوها. وقد تمت عملية الإعمار بشكل شبه كلي اليوم، وأصبحت هذه البلاد المستغلة بشكل جيد تجذب إليها هجرات عمل كبيرة في شكل موجات متتالية من العمال الزراعيين من الكوكشو (kökçu) والهندكشي (hendekçi) (أي العمال المستخدمين في قنوات الري) خلال الشتاء، أو من القائمين بأعمال الحرث وقاطفي القطن خلال الصيف، ومن الحصادين في نهاية الربيع والمستخدمين في حصاد آخر محاصيل الحبوب الشتوية[1]، فيما تترك زراعة الحبوب شيئا فشيئا المجال للمحاصيل التجارية خاصة الصيفية منها. وقد عرف السهل السيليسي الذي نتوفر بشأنه على معلومات كثيرة تطورا مشابها[2]، وإن لم يستقر الفلاحون ولم تتطور زراعة الأرز فيه إلا مع الاحتلال المصري في العهد الفرعوني.

---

(1) Ibid, p. 168-73.

(2) أنظر على وجه الخصوص: Schaffer, 1903.

وفي منتصف القرن التاسع، كانت تقطنها عناصر زنجية أو تميل إلى السمرة تسكن سلاسل جبل ميسيس داغ (Misis dad) المعزول في وسط السهل[1]، وكانوا يمارسون صيد الجاموس البري في الأحراش والمستنقعات[2]. إلا أنه منذ تلك الفترة، استقر فيه البدو عشوائيا[3]، ومنذ 1875 ورد ذكر قرويي جبال شمال شرق السهل الذين ينزلون للقيام بأعمال الحصاد[4]. على أن التحول الحاسم حدث مع توافد المهاجرين، وأصبح السهل اليوم مركزا زراعيا كبيرا يؤم إليه العمال المهاجرون بصفة مؤقتة ويقدر عددهم في حقول القطن وحدها بـ 100,000 فرد[5]، ويمتد مجال تأثير السهل السيليسي إلى شرق طوروس وطوروس المضاد وحتى كردستان[6].

ينطبق مشهد الإعمار هذا على كل السهول الساحلية الأناضولية المشرفة على البحر المتوسط وبحر إيجة، مع تقدم للمناطق الساحلية المطلة على بحر إيجة لانفتاحها قبل غيرها في وجه التجارة الأوروبية التي بلغت مستوى معتبرا منذ القرن الثامن عشر والتي أعطت فيها سكة حديد وادي المياندر (vallée du Méandre) دفعة قوية للزراعات الموجهة للتصدير منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر. ولم تسبقها حركة الاستيطان في السهول المنخفضة بدلتا النهريين البونتيين كوزول أرماك (Kzl Irmak) ويشيل أرماك (Yeşil Irmak). ويصف "شعر السفر" (Seyahat destani) للشاعر الشعبي إسبارتالو سيراني (Ispartal Seyrani) الذي يرجع إلى سنوات 1820، السهل

---

(1) Langlois, p. 139.

(2) Ibid, p. 414.

أنظر كذلك: Le Tour du Monde, 1862 (1), p. 330.

(3) أنظر على سبيل المثال: Davis, 1879, p. 79-80.

(4) Ibid, p. 84.

(5) Akdoğan, 1955.

(6) Planhol, 1952, p. 591.

الأخير بأنه مجال تغطيه الغابات (Görmedim bir yerde öyle orman) - لم أر غابة مثلها في مكان آخر[1]. وقد بدأت عملية الاستصلاح الكبرى بعد هذا، وتسارعت مع نهاية القرن باستقرار العديد من مهاجري الجبال البونطية الشرقية.

منذ حوالي قرن ونصف، برزت تخصصات زراعية كبرى بفعل التأثير المتزايد للتجارة الدولية، وتقسم الزراعات المتخصصة السهول الساحلية المحيطة بالهضبة العليا الأناضولية إلى قطاعات إقليمية محددة : العنب والتبغ والتين في سهول إيجة ؛ التبغ والزيتون في منطقة أحواض مرمرة ؛ التبغ في دلتا الأنهار البونطية ؛ البندق في الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود ؛ القطن والحمضيات في السهول المتوسطية[2]. وقد عرفت هذه الحركية تقدما ملحوظا ولم تنته بعد، حيث تظهر اختصاصات زراعية جديدة باستمرار، مثل ما هو الحال بالنسبة لاستغلال الثمار التجارية، من قبيل الصيد في سهل بورصة[3]. كما تتواصل عملية التوزيع الإقليمي للسكان، فبين 1935 و1950 كانت المناطق ذات النمو الديمغرافي الذي يفوق المتوسط العام تتركز، بالإضافة إلى سواحل جنوب شرق البحر الأسود، في السهل السيليسي، وسفح طوروس الشرقي في جهة غازيانتيب (Gaziantep)، وسهول إيجة في منطقة إزمير، وسهول وأحواض شمال غرب الأناضول من مرمرة إلى البحر الأسود بين بورصة وزونغولداك (Zonguldak)[4].

أما في إيران فقد اقتصرت التطورات المشابهة على ساحل بحر قزوين، حيث ساهمت حركة نزول سكان أودية ألبروز العليا إلى السهول الساحلية في

---

(1) نشر النص: Nacı (Kum), 1927.

(2) Erinç et Tunçdilek, 1952.

(3) Denker, 1963-64.

(4) Louis, 1955.

تعمير هذه المنطقة المنخفضة التي ظلت قليلة السكان إلى غاية بداية العصور الحديثة. ورغم تعذر متابعة التطورات بدقة، إلا أنها كانت من دون شك بطيئة نسبيا، وأفضل شاهد على ذلك هو أن اسم أهم مدن غيلان اليوم وهي مدينة رشت لم يظهر إلا مع بداية القرن الرابع عشر[1]، وكان أهلها يوصفون بالجبليين. ظل هذا القطاع القزويني غير صالح للسكن وهامشيا في الحياة الإيرانية وخارج نطاق انتشار البداوة في العصور الوسطى، غير أنه استفاد من توافد العديد من السكان اللاجئين من الأودية الجبلية القريبة، وأصبح مركزا لزراعة الأرز المركزة ولتواجد سكاني كثيف جدا[2]، تحقق بدون انقطاع خلال الفترات المتعاقبة ولم يكن نتيجة عملية إعادة إعمار أعقبت فترة تراجع، بحيث لم تشهد هذه المنطقة نهضة من قبيل تلك التي عرفتها سهول أطراف الأناضول. كما أن حركة الاستيطان الحالية في خوزستان والمرتبطة جزئيا بمنشآت الري المنجزة فيها والتي لا نتوفر بشأنها على معلومات كافية[3]، تقوم أساسا على استقرار البدو العرب واللورسيين في مواطنهم الشتوية تحت إمرة زعمائهم في إطار نظام الملكية الكبرى، ولا يتعلق الأمر هنا بنزول حقيقي لفلاحي الجبال. كما لم ترتسم بعد بوضوح حركة من هذا النوع في سواحل الخليج الفارسي.

3. انفتح مجال آخر أمام استقرار السكان، وهو مجال الجبال العليا التي يجوبها صيفا الرعاة الأتراك الذين جزأتهم سياسة السلاطين إلى جماعات صغيرة لم يعد في مقدورها مقاومة الوضع القائم، وتزايد ضغط الفلاحين باتجاه المناطق المرتفعة، خاصة وأن الفلاح التركي، وريث نظام العيش المتميز لشعبه، يتوق لبرودة الصيف واليايلا (yayla) والحياة الرعوية. وانطلاقا

(1) ورد ذكرها لأول مرة في كتاب: حمد الله مستوفي، نزهة القلوب، ص. 159 (المصنف سنة 1340).

(2) فيما يخص الحالة العامة للإقليم: .Sahami, 1965

(3) توجد دراسة سطحية جدا أنجزها: .Nezam-Mafi, 1962

من القرى المقامة في محيط أحواض الهضبة العليا الأناضولية في مواقع السفوح، ارتسمت حركة توسع مزدوجة للسكن، من جهة باتجاه الأجزاء التي تغطيها المستنقعات في وسط السهول والتي تم تجفيفها واستصلاحها تدريجيا، ومن جهة أخرى وخاصة باتجاه الجبال المجاورة، وقد تأخرت الحركة الثانية نسبيا، فبسبب انتشار الرحل وعصابات قطاع الطرق في الجبال، اكتفت مدن الأناضول لوقت طويل بمجال يايلا لم يتعد الحدائق والبساتين والكروم التي انتشرت فيها المساكن الصيفية، وتقع هذه التجمعات الصيفية في مستوى المدينة الرئيسية نفسها وعلى علو أقل ارتفاعا، واحتفظت بعضها بوظيفتها الأصلية في الحياة المحلية كإغريدير (Edridir)[1] وموغلا (Mudla). وتؤشر هذه التجمعات على تخل متأخر لأشباه بدو عن التنقلات على مسافات طويلة، وهي عادة قديمة جدا وسابقة لإعادة تعمير الجبال، كما هو الشأن بالنسبة لكروم إغريدير (Edridir) التي ورد ذكرها منذ عهد محمد الفاتح[2].

غير أنه منذ قرن على أقل تقدير بدأت حركة واسعة لإقامة قرى صغيرة قارة في منحدرات الجبال، ويتعلق الأمر غالبا بتحويل الإقامات المؤقتة الصيفية إلى مساكن قارة. ومن خلال مقارنة دقيقة مع شغل الأرض في الفترات السابقة للأتراك في جنوب-شرق الأناضول الأوسط، يتبين أن توسع السكن القار لم يتجاوز لحد الآن نطاق السكن في الفترة البيزنطية ولم يتعد حدوده العليا[3]، غير أنه يكاد يبلغ مستواه في الكثير من المواقع وهو مستمر بشكل دؤوب ويحقق تقدما كل يوم.

في المجال الإيراني كذلك توجد حركة انتشار السكن المستقر باتجاه

(1) Planhol, 1958 a, p. 238-39.

(2) Ibid, p. 120.

(3) Bartsch, 1957, p. 76.

الجبال على حساب الرحل، إلا أنها ما زالت في مستويات لم ترق إلى حركة عمرانية واسعة. فتأسيس التجمعات القارة الجديدة لا يشمل سوى حالات استثنائية، ويتعلق الأمر أساسا بتحول الهجرات الرعوية للقرى والأودية نحو القمم المرتفعة مع إقامة مساكن ذات طابع صيفي ودون استقرار دائم، بحيث يعتبر هذا التحول توسعا في مجال القرى وليس تأسيسا لسكنات مستقلة جديدة. وفي ساهند، يبدو أن التضخم الديمغرافي الذي أدى إلى هذا التوسع في الحياة الرعوية متأخر بحيث لا يتعدى ربع أو ثلث القرن الأخير كأقصى حد[1]. ومن المرجح أن هذه الحركة بدأت في فترة سابقة في لاريجان على المنحدر الجاف للألبروز، وقد ترجع إلى القرن التاسع عشر وبلغت ذروتها في سنوات 1930، إلا أن هذه المنطقة شهدت تراجعا كبيرا بسبب الهجرة إلى حاضرة طهران المجاورة، بحيث استرجع الرحل مؤخرا مواقع مهمة في الجبل[2]. وهذا ما يجعلنا نلاحظ إجمالا أن إعادة تعمير الجبال والسهول ظلت بعيدة في المجال الإيراني عن المستوى الذي بلغته في الأناضول.

4. كما هو الحال في العالم العربي، ظلت السهوب الشبه الصحراوية الصالحة للزراعة إلى فترة متأخرة مجالا مميزا لتنقل الرحل. وحتى التوسع الروسي في آسيا الوسطى خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، لم تشهد سهوب أتراك (Atrak) الإيرانية المعرضة لغارات التركمان نهضة حضرية محسوسة. وفي هضبة وسط الأناضول، التي عرفت في وقت مبكر تأطيرا للرحل الذين لم يعد في مقدورهم القيام بأعمال النهب، حققت السياسة العثمانية نتائج معتبرة، تمثلت أساسا في بعث شبكة من القرى والمدن يقوم وجودها على الري، إلا أن السهب ظل مجال استغلال رعوي تجوبه قطعان هذه المدن الصغرى التي انتشر حولها عدد كبير من اليايلا، أي المواطن الصيفية، على ارتفاع يزيد قليلا وقد ينخفض عن مستوى السكن القار،

(1) Planhol, 1958 c, 1960 c.

(2) Planhol, 1964 b, p. 33-36.

يسكنها في فصل الصيف حراس القطعان وأسرهم. وعلى سبيل المثال، فإن قرية قارابونار (Karapnar) الكبيرة شرق قونية ذات الطابع الزراعي البحت والتي بلغ عدد سكانها 10,770 نسمة 1960، تعد حاليا ما لا يقل عن 107 يايلا منتشرة في إقليمها[1]. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كان السهب الصالح للزراعة مجال رعي فقط، رغم أن الرحل لم يعودوا يحتلون فيه سوى حيزا ضيقا[2].

تغيرت الظروف تدريجيا منذ 1860، وهو التاريخ الذي توافدت فيه أول موجة كبرى من المهاجرين مؤذنة ببداية عهد التواجد السكاني القار في السهب. فتأسست قرى عديدة، رغم عدم توفر أغلبها على موارد ري واعتمادها أساسا على الزراعة الجافة. من جهة أخرى ومنذ بداية القرن العشرين، تزايد الضغط الديمغرافي في المراكز القديمة، فتحولت العديد من المساكن المؤقتة الصيفية شيئا فشيئا إلى مساكن قارة ذات قاعدة اقتصادية زراعية أكثر منها رعوية، تقوم على زراعة الحبوب المعتمدة على الأمطار. تسارع هذا التوجه الملاحظ بدءا من سنوات 1930[3] بشكل كبير منذ ذلك الحين، بسبب النمو العام لسكان تركيا والطلب المتزايد على الحبوب الذي وجد في المساحات الشاسعة المتوفرة في السهب الأوسط أهم مصدر قادر على توفير القوت للبلاد. وفي الفترة الممتدة بين 1940 و1960، تضاعفت المساحة المزروعة تقريبا[4]. ويلاحظ هذا التطور في كل الجهات الداخلية للأناضول، وقد تم التعرض للأخطار التي يشكلها على البنية الاقتصادية للبلاد من حيث التدهور السريع للتربة الناجم عن التوسع غير المدروس للزراعة في المناطق الشبه الجافة أو في المسطحات الجبلية، وهشاشة التوازن الغذائي

(1) Tunçdilek, 1960.

(2) Wenzel, 1937, p. 57-65.

(3) Ibid, p. 109.

(4) Hütteroth, 1962.

الذي يخضع لتذبذب الأمطار في هذه المناطق الهامشية، إذ تتباين نسبة التساقط من سنة إلى أخرى كما أظهر ذلك جليا المحصول الكارثي لسنة 1954[1].

حدث التوسع الكبير للزراعات المطرية في وسط الأناضول ضمن إطار اجتماعي متنوع، لا تحتل فيه المزارع الكبرى بالضرورة حيزا كبيرا، وإنما لعبت دورا رياديا خاصة من خلال مزارع الدولة الكبرى التي تقوم بتوزيع البذور والتي نجدها حتى على ضفاف البحيرة المالحة.

أما التطور المشابه لزراعة الحبوب الكبرى في السهب والذي ارتسمت معالمه مؤخرا في إيران في أقاليم أتراك لدى التركمان المستقرين في إطار الملكية الكبرى الموروثة عن الزعامة القبلية التقليدية[2]، فهو أقرب من نمط الاستغلال الرأسمالي الكبير الذي نجده في منطقة الجزيرة. غير أن هذه التحولات لا زالت محدودة جدا في إيران، عكس ما نلاحظه في مجال اجتماعي مختلف في آسيا الوسطى السوفيتية التي تشهد استصلاحا لـ"لأراضي البكر" في كازاخستان والذي يتم على نطاق واسع خاصة منذ 1955 ضمن أهداف اقتصادية تشبه إلى حد كبير الأهداف المرجوة في هضبة وسط الأناضول، أي توفير كميات كبيرة من الحبوب لمواجهة النمو السكاني السريع في الاتحاد السوفيتي، مما أدى إلى آثار مطابقة تتمثل في استبدال الاقتصاد الرعوي للسهب الكازاكي باقتصاد زراعي[3]. وكما هو الحال في الأناضول، فإن النتائج كانت هنا أيضا غير قارة نظرا للتذبذب الكبير للأمطار.

5. نظرا لتوفر مساحات شاسعة انتشرت عبرها الحياة الحضرية في السهول المنخفضة الساحلية وفي الجبال المتاخمة أو في سهوب الأطراف،

---

(1) Planhol, 1960 a.

(2) Collin-Dellavaud, 1961, p. 110-112.

(3) Jackson, 1956; Karger, 1965.

فإن المجالات المروية لم تعرف في الأناضول سوى توسعا ونموا ثانويين. ورغم بعض الإنجازات المهمة في سهل بورصة، وفي حوضي جديز (Gediz) والمياندر (Méandre)، وفي حوض سيهان (Seyhan) الذي يروي الجزء الغربي للسهل السيليسي، وفي حوض ملاتيا (Malatya) أو في سهل أقصراي (Aksaray) في الأناضول الداخلي، لم تتجاوز المساحة الإجمالية المستصلحة بواسطة أعمال الري الحديثة بين 1940 و1960 ما يعادل 36,000 هكتار وهو رقم ضعيف نسبيا إذ لا يمثل سوى 2 من المساحة المستغلة الإجمالية.

نظرا لظروف مناخية أكثر جفافا، أولت إيران وأفغانستان أهمية أكبر للري. وقد خصت التطورات في أفغانستان السفح الشمالي للهندوكوش (حوض قندوز) وحوض هلمند، حيث كلف المشروع الأخير حتى الآن 20 % من ميزانية البلاد ويشمل 300,000 هكتار سيقام فيها نظام ري جديد أو سيعاد ضبط نظام الري الموجود مما يسمح باستقرار 500,000 نسمة يشكل البدو المتحولون إلى حياة الاستقرار نسبة كبيرة منهم[1]. ورغم أن الإنجازات الإيرانية أقل حجما فإنها ذات أهمية ؛ فقد أنشئ في خوزستان سدا ديز وخاركه ؛ وفي الألبروز عزز سد كبير أقيم على نهر سفيد-رود تزويد غيلان بالماء، والغريب في الأمر أنه يجمع مياه المنحدر الجاف لينقلها إلى المنحدر الرطب مما سمح بزيادة وإعادة تنظيم إنتاج زراعة الأرز ؛ كما أنجزت مشاريع صغيرة في كل جهات البلاد الأخرى[2]. ومن السابق للأوان الحكم بنجاح مشاريع هلمند الطموحة، فهي تتقدم بصعوبة، ومن بين 120,000 هكتار تمت تهيئتها سنة 1964، يتضح أن نسبة المساحة التي كانت مهيأة فعلا للاستغلال والتي شغلت بشكل طبيعي لا تتجاوز نصف أو ثلاثة أرباع المساحة الإجمالية في أحسن الأحوال[3]. كما يظل تطوير الشبكات الثانوية المتصلة بالمنشآت

(1) أنظر: Humlum, 1959, p. 236-261.

(2) Bémont, 1961.

(3) Étienne, 1965.

الكبرى بطيئا جدا، ولم تنجم عنه حركة تعمير واسعة النطاق. هذا ولا زالت التطورات الجديدة مرتبطة بمبادرات محدودة الحجم، من قبيل إقامة قنوات جديدة (kanat)، التي اتضح أن مردودها يماثل مردود السدود الكبرى[1]، وكذلك عملية حفر الآبار كما هو الشأن حول واحة أصفهان الكبرى، حيث أدت إلى إيجاد مجالات جديدة مخصصة للإنتاج التجاري من خلال استثمار أموال البرجوازية المتوسطة المحلية[2]. ولا زال الاعتماد على القنوات التقليدية التي يتراوح منسوبها الإجمالي في الهضبة الإيرانية بين 600 و700 متر مكعب في الثانية يهيمن على الزراعة المروية الفارسية. أما في آسيا الوسطى، فقد مكنت القوة الروسية ومستواها التقني العالي من إعادة تنظيم شامل للقنوات التقليدية بهدف تحقيق إنتاج كبير موجه للسوق التجارية، كما مكنت من تحقيق توسع كبير للمساحات المروية التي بلغت 7 ملايين هكتار سنة 1960 مقابل ما لا يزيد عن مليون هكتار سنة 1914[3]. وقد ارتبطت التوجهات المختلفة بالانتماء السياسي والمستوى الاقتصادي العام الذين كان لهما دور أكثر تأثيرا من الظروف الطبيعية.



(1) Beckett, 1953.

(2) Cordonnier, 1964.

(3) Schmieder, p. 382-86.

مختارات بيبليوغرافية

أ. الكتب العامة:

فضلا عن الكتب العامة حول الشرق الأوسط المذكورة في المختارات البيبليوغرافية الخاصة بالفصل الثاني، يمكن الرجوع بالنسبة لأفغانستان إلى (Humlum, 1959) الذي يقدم حوصلة سابقة لأوانها إلا أنها مفيدة. هذا ولا تكاد جغرافية الأقاليم الإيرانية والأفغانية تتجاوز مرحلة الرحلات للدخول في مجال الدراسات التحليلية، حيث لا زالت كتب الرحالة تشكل المصادر الرئيسية في هذا الشأن، ويقدم (Gabriel, 1952) قائمة كاملة عن كتب الرحالة المتعلقة بإيران. ولا نتوفر على كتاب مماثل بخصوص تركيا، إذ يجب الرجوع إلى كتاب (Vivien de Saint-Martin, 1845-46) الذي يمكن تكميله فيما يخص أرمينيا بالبيبليوغرافيا الشاملة التي يقدمها .(Lynch, 1901)

ب. الدراسات الإقليمية :

تركيا : تتوفر أعمال معمقة كثيرة :

Bartsch, 1934-34; Wenzel, 1937; Sanr, 1948; Planhol, 1958 a; Hütteroth, 1959.

إيران : لا توجد أعمال مشابهة، غير أننا نتوفر على بعض المذكرات التي تجمع دراسات شاملة :

الألبروز : Planhol, 1964 b؛ بلوشستان : Castiglioni, 1960، وكذلك

(Barth, 1961) الذي يقدم أفضل دراسة عن مجموعة بدوية في الشرق الأوسط ؛ أفغانستان : Schurmann, 1962، الذي يقدم عرضا إثنوغرافيا إلا أنه يشكل أهم تحليل معمق للوسط الريفي ؛ تركستان الصيني : Golomb, 1959.

جـ. الجغرافية التاريخية :

فضلا عن كتاب (Le Strange, 1905) المذكور سابقا، يقدم الكتاب الضخم لـ (Schwarz, 1896-1935) صورة متكاملة عن إيران في العصور الوسطى اعتمادا على الجغرافيين العرب، غير أنه لا يشمل للأسف الشريط القزويني. ولا يوجد ما يشبه هذا العمل بالنسبة للمجالات الأخرى. هذا ولم يتم إلى حد الآن بلوغ زخم التصورات التاريخية-الأثرية التي توصل إليها (Tolstov, 1948 a et b) في دراسته حول خوارزم.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل السادس
الإخفاقات الأوربية

لم يتمكن الإسلام من الانتشار بشكل دائم في القارة الأوربية، وقد لعبت في ذلك العوامل الإستراتيجية البحتة دورا حاسما، حيث وصل الإسلام إلى أوربا مع آخر نفس له. ورغم أنه لا يمكن المقارنة بين حالتي شبه الجزيرة الإيبيرية والبلقان، فإن سبب إخفاق الإسلام في كليهما يجب البحث عنه في ظروف شغل الأرض التي لم تسمح بانتشار شامل للدين الجديد في الوسط الريفي، والتي ساعدت، على العكس من ذلك، السكان المسيحيين، خاصة منهم الجبليين، على الحفاظ على تميزهم. وسنحاول فيما يلي تحليل الأسس الأنثروبولوجية-الجغرافية لهذه الظاهرة.

1. حوض البحر المتوسط الغربي

1. إن الإشكالية الأساسية التي يجب حلها فيما يخص الإخفاق النهائي للتواجد الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، تتعلق بكثافة وتوزيع السكان المسلمين فيها والذين يشكلون المصدر الرئيسي للسيطرة ولاعتناق الدين الجديد في الفترات اللاحقة. من المؤكد أن هذا التواجد كان ضعيفا نسبيا، حيث قدر عدد الجند العرب الذين فتحوا إسبانيا بثلاثين ألفا، ومن المؤكد أن البربر كانوا أكثر عددا، غير أن المجموع يظل متواضعا[1]. وإذا ما تجاوزنا

(1) Terrasse, 1958, p. 33.

هذه الروايات الغامضة، فإن أهم مصدر للمعلومات حول التواجد السكاني يتمثل في أسماء الأماكن، غير أن استعمالها يظل صعبا كما أن الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها منها تظل محل جدل. وقد جمعت هذه المادة وحللت بعناية فائقة[1]، وهي معقدة جدا، بحيث يمكن التمييز فيما يتعلق بأسماء الأماكن في الفترة الإسلامية، بين الأسماء ذات الأصل الموزارابي (mozarabe) (المسيحيون الخاضعون للحكم الإسلامي) والتي يمكن التعرف عليها من خلال انعدام التغيرات الصوتية المتأخرة من قبيل الأسماء المنتهية بمقطع كلمة (ique)؛ والأسماء المعربة، حيث يشكل التعريب واسطة ضرورية بين الأشكال القديمة والحديثة ؛ والأسماء الهجينة التي تتضمن (أداة تعريف عربية تسبق اسما يعود للفترة السابقة للوجود العربي، أو نهاية رومية (romane) لاسم عربي ؛ وأخير أسماء ذات أصل إسلامي بحت كثيرة التنوع (أسماء مشتقة من مدن أو أشخاص أو أسر أو قبائل أو شعوب ؛ أسماء وصفية متنوعة جدا تدل على الاتجاهات، والتضاريس، والشبكة المائية، والتربة، والمياه المعدنية الباطنية، والغطاء النباتي وعالم الحيوانات، وتذكر المزروعات، وتعكس المشهد الزراعي أو تقنيات الري، والمهن المختلفة، والطرقات والأسواق، وأنماط السكن، والتحصينات والوظائف العسكرية، والحياة الدينية، إذ لم تغفل الأسماء الإسلامية أيا من مميزات المشهد الطبيعي أو العناصر الاقتصادية أو الروحية). على أنه يستحيل تحديد الطبقات التاريخية المختلفة ضمن هذه المادة الغنية جدا. والأسماء الهجينة ذات النهاية الرومية (romane) لاسم عربي هي وحدها التي يمكن تحديدها زمنيا بفترة الاسترجاع المسيحي، بينما تنتمي الأسماء الموزارابية المعربة أو الهجينة بأداة تعريف عربية إلى طبقة قديمة. كما تمت محاولة رسم توزيع ومراحل التواجد السكاني البربري في شبه الجزيرة من خلال أسماء الأماكن ذات الأصل البربري[2]، التي قسمت

---

(1) Lautensach, 1960, p. 11-37.

(2) Dubler, 1943 a.

إلى فترتين، أولاهما قديمة سابقة للوجود المرابطي ومست كل مناطق شبه الجزيرة وخاصة الجبال حتى السفوح الجنوبية لجبال البيرينيه، وثانيهما متأخرة ارتبطت بالهيمنة المرابطية وخصت السهول الجنوبية الخصبة. هذا ويجعل استمرار استعمال كلمات عربية عديدة في لغات شبه الجزيرة المختلفة في الفترة الحديثة من الصعب جدا ربط أسماء الأماكن في الفترة الإسلامية والفترات اللاحقة بمجموعة معينة. ويتمثل المعيار الحاسم الوحيد الذي يسمح بهذا الربط في توافق توزيع الأسماء المشكوك في أصلها مع التجمع العام لأسماء الأماكن ذات الأصل الإسلامي المؤكد.

رغم انعدام تصنيف حسب طبقات زمنية واضحة المعالم، فإنه يمكن اعتماد التوزيع الجغرافي لأسماء الأماكن ذات الأصل العربي وكثافتها الإقليمية للوصول إلى استنتاجات قيمة. إن الكثرة المطلقة والشاملة لأسماء الأماكن وكثافتها الكيلومترية[1] تزداد عموما وفقا لمدة التواجد الإسلامي، كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب. فالأسماء العربية تكاد تنعدم في أستوريا (Asturies) وغاليسيا (Galice) والبيرينيه (Pyrénées)، ويمكن تفسير الأمثلة القليلة الموجودة بظاهرة الاستمرارية اللغوية. ولا تظهر الأسماء الإسلامية فعلا إلا في حوض الإبرو (Ebre) وفي قشتالة القديمة، حيث يرجح أن التواجد السكاني البربري في الجبال كان معتبرا. ونجد أكبر كثافات في الجنوب، في الجبال الغنية بالمياه الجارية أو في سفوحها، على طول خطوط المنابع أو قرب المدن. كما ترتبط هذه الكثافة بالمناطق المروية، كما هو الحال على طول نهر الإبرو (Ebre) الذي يتبعه شريط مستمر لأسماء الأماكن الإسلامية، وصولا إلى منطقة نافارا (Navarre) التي تندر فيها هذه الأسماء. هذا ونلاحظ أعلى كثافة مطلقة في مملكة غرناطة القديمة، خاصة في جهة ألبوخارا (Alpujarra) جنوب جبال سييرا نيفادا (Sierra Nevada)، وفي فيغا

(1) الخريطتان 1 و2: .Lautensach, 1960

(Vega) مدينة غرناطة، وفي الجهة الشرقية (كتلة ألكوي (Alcoy)) بين سهول بلنسية (Valence) وأليكانت (Alicante))، وفي السهل الأوسط لجزيرة ميورقة (Majorque).

هذا ويحق لنا التساؤل عن قيمة هذه المعطيات، ونتوفر في هذا الشأن على وسيلة إثبات ثمينة تتمثل في خريطة أسماء الأنهار المعربة[1] التي لم تتأثر بالتغيرات اللاحقة للتواجد السكاني والتي تظهر كثافة تتزايد بانتظام كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب وفق خطوط متوازية. ونعتقد أن هذه الخريطة تعكس بشكل أفضل وبانتظام أكبر الكثافة الحقيقية لأسلمة البلاد، بينما تأثر توزيع أسماء الأماكن بالوضع الموروث عن التقلبات المرتبطة بحركة الاسترجاع المسيحي (reconquista)، فالقلة النسبية لأسماء الأماكن الإسلامية في سهول الجنوب باستثناء مملكة غرناطة ترتبط بالتحولات الجذرية لظروف التواجد السكاني التي تلت حركة الاسترجاع في المجال القشتالي، على العكس من ذلك، يمكن تفسير ارتباط هذه الأسماء بالمناطق المروية باستمرارية التواجد السكاني فيها عقب حركة الاسترجاع المسيحي والتي كان لها دور فعال في هذه الظاهرة. وتتضح الأمور بالنظر إلى التوزيع السكاني الموريسكي عشية عملية الطرد سنة 1610، الذي خضع لتحليل مفصل[2]، والذي نتج عن الظروف المحيطة بحركة الاسترجاع المتميزة على وجه الخصوص بطرد المسلمين إلى الجبال واستيطان مسيحي في السهول. ففي مملكة بلنسية (Valence) كان الوجود السكاني الموريسكي جبليا بالأساس، ولم يمتد إلى السهول إلا في منطقتين من نوع الروغاديو (regadio)، هما خاتيفا (Jativa) وغانديا (Gandia) ذاتي الغالبية المسلمة. إلا أن التقلبات التاريخية، وخاصة ظروف إخضاع المسلمين، لعبت دورا رئيسيا، حيث لم

(1) الخريطة 5: .Lautensach, 1960

(2) Lapeyre, 1959.

أنظر كذلك: .Donghi, 1956; Caro-Baroja, 1957

يغادر الموريسكيون مواطنهم عندما خضعوا دون قتال، مما يفسر كثرة أسماء الأماكن الإسلامية في الضفة اليمنى لنهر الإبرو (Ebre) أو في منطقة هويسكا (Huesca) في أراغون .(Aragon) أما في قشتالة التي اتخذت فيها حركة الاسترجاع أشكالا أكثر عنفا، فلم يعد المودخار (mudejares) يشكلون سوى أقليات محدودة موزعة في المدن حتى تمرد غرناطة سنة 1568 الذي دفع بعرش إسبانيا إلى إفراغ شرق مملكة غرناطة القديمة من سكانه الموريسكيين الذين وزعوا على قشتالة الجديدة والمانشا (Manche) والأندلس والإسترامادورا (Estramadure)، في شكل أقليات ريفية صغيرة مشتتة، تجمعت تدريجيا في المدن قبل 1610.

2. كما يمكن رسم صورة للتواجد الإسلامي من خلال الآثار الإسلامية في السكن والاقتصاد الإيبيريين. ففي مجال السكن، توجد عناصر معمارية من قبيل القوس الدائري المعقوف (arc à cintre outrepassé) (إذ يختلف قليلا القوس الموريسكي عن القوس القوطي الغربي (wisigothique))، والنوافذ المزدوجة، والمتاريس المدببة. وهناك جدل بخصوص أصل بعض هذه العناصر (مثل أنواع من المداخن التي انتشرت انطلاقا من مراكزها في الشمال والجنوب). ومن الصعب تحديد التأثير الإسلامي في مجال مواد البناء (باستثناء زخرفة الجبس المنقوش ذات الأصل الإسلامي البحت)، كما هو الشأن بالنسبة لعادة تبييض الجدران. كما يتعذر تقدير التأثيرات الإثنية والثقافية والمناخية المختلفة في انتشار البيت المسطح الذي ساهم فيه من دون شك توفر أنواع معينة من التربة[1]، والذي نجده حتى في أودية جبال البيرينيه (Pyrénées) التي ظلت بعيدة عن التأثيرات الإسلامية. هذا وهناك إجماع على أن البيت الذي تتوسطه الباحة (à patio) ذي الأصل الروماني قد انتشر بفعل التأثيرات الإسلامية (حتى سلامانكا (Salamanque))، وكذلك الأمر بالنسبة

(1) Sermet, 1949.

للمشربيات (التي امتدت حتى مدن بورتو (Porto) وفيلا ريال (Vila Real) وترمب (Tremp)). هذا ورغم أن الحضارة الإسلامية لم تؤسس سوى عددا قليلا من المدن في شبه الجزيرة، فإنها تركت بصمة قوية على مخطط وشكل كل المدن، ولم يبق شيء كثير من هذا التأثير بسبب عمليات الهدم والتحوير التي تلت الوجود الإسلامي، من قبيل بعض الآثار في مخططات المدن، وعدد قليل من المساجد أغلبها مآذن لم تهدمها الكنيسة، أو حمامات عمومية، وفي كثير من الأحيان قصور (alcazar) وحصون أو قصبات (alcazaba) المدن بتفاصيلها المعمارية المميزة (الأبراج المربعة)، وقصور ريفية، ورباطات محصنة، وجسور حجرية. ويظهر التأثير الإسلامي كذلك في طرازين معماريين مختلطين هما الطراز الموزارابي (mozarabe) والطراز المودخاري (mudejar)، وقد امتد تأثير هذا الأخير إلى الفترة التي تلت حركة الاسترجاع المسيحي. وقد جمعت هذه العناصر المختلفة في خريطة جغرافية ممتازة لإسبانيا[1]. وترتفع كثافة التأثيرات الإسلامية في الأندلس ومملكة غرناطة من جهة، وفي سهول مرسية (Murcie) وبلنسية (Valence) الغنية من جهة أخرى، وأخيرا في سهول الإبرو (Ebre) جنوب غرب سرقسطة .(Saragosse) وهناك اختلاف بين هذا التوزيع، الذي يعكس بدقة أكبر أسلمة المشهد الثقافي الإيبيري، وتوزيع أسماء الأماكن الإسلامية.

3 .كان للعرب في مجال الاقتصاد الفضل في إدخال ونشر عدد كبير من المزروعات، فقد نجحوا بالفعل في جعل أشجار النخيل التي كانت معروفة منذ العصور القديمة تتأقلم في هذه البيئة إلا أنها لم تكن تعطي سوى ثمارا حامضة. كما يرجح أن العرب جاؤوا بأشجار الليمون والبرتقال المر، إذا ما سلمنا بأن البرتقال أتى به البرتغاليون من شرق آسيا. ومن المؤكد أن العرب هم الذين أدخلوا شجر الخروب، فيما يظل أصل الرمان غامضا، وإن كان اسمه عربيا في

(1) الخريطة 6: .Lautensach, 1960

اللغة البرتغالية ولاتينيا في الإسبانية ورغم انعدام ذكره في الكتابات القديمة المتعلقة بشبه الجزيرة. ومما لا شك فيه أن العرب هم الذين أدخلوا أشجار المشمش والموز والتوت وفي سياقه إنتاج الحرير الذي تضرر كثيرا بسبب طرد المسلمين. وبخلاف الأشجار المثمرة، أوجد العرب قصب السكر، والأرز (الذي استمرت زراعته في مزارع (هويرتات) شرق الأندلس huertas levantines) منذ الفترة الإسلامية اعتمادا على نفس التقنيات)، والقطن الذي تراجع إنتاجه مع نزوح العرب والذي تزامن مع بداية منافسة القطن المنتج في المستعمرات، والباذنجان، والبطيخ. وكل هذه الزراعات من النوع الشبه الاستوائي، باستثناء الزعفران الذي نشره العرب في الهضبة العليا.

إلى جانب هذه المزروعات التي تعتمد أساسا على الري والتي أدخلها العرب، توجد الزراعات المطرية التي كانت معروفة من قبل والتي تبناها العرب وطوروها؛ أولها زراعة أشجار الزيتون التي تحمل ثمارها وزيتها أسماء عربية، رغم أن الشجرة نفسها تحمل أسماء لاتينية، ويعوض الزيتون كمصدر للمواد الدسمة المواشي التي تتم تربيتها في شمال شبه الجزيرة المسيحي؛ أما ثاني هذه الزراعات فهي أشجار التين. ويرجح أن ثمار غابات الزان ذات الكثافة القليلة والتي ترعى فيها اليوم قطعان كبيرة من الخنازير، كانت تستهلك من طرف الإنسان في الفترة الإسلامية. ومما لا شك فيه أن زراعة الكروم تراجعت منذ الفترة الرومانية رغم التسامح الكبير الذي كان يلقاه شرب الخمر، على أن الفضل يعود للمسلمين في تطوير إنتاج العنب المجفف.

أما فيما يخص الأنظمة الزراعية، فإن تصنيف السيكانو (secano) والريغاديو (regadio) يعود للفترة السابقة للوجود الإسلامي الذي لم يحدث تغييرات محسوسة في طرق استغلال واستعمال الحقول المخصصة للزراعة المطرية. كما أن اسم أحراش المصطكا (cistes)، المستغلة عن طريق القطع والحرق، مشتق من العربية، مما يدل على تأثير محتمل لبربر جبال شمال إفريقيا في انتشار هذا النمط الزراعي، غير أنه من الصعب الجزم بأن العرب

هم الذين أدخلوا زراعة المدرجات إلى شبه الجزيرة الإيبيرية.

كان التأثير الإسلامي أكبر بكثير في مجال تقنيات وأنظمة الري، خاصة منها العتاد الرافع، بالرغم من أن بعض النقاط لا زالت غامضة. ويبدو أن أحد نمطي النوريات التي تشغلها القوة الحيوانية من أصل إسلامي، بينما سبق الآخر الفترة الإسلامية، فيما يرجح أن النوريات التي تحركها التيارات النهرية من أصل عربي. أما نظام القطارات (kattara) فقد عرف منذ الفترة الرومانية. أما فيما يتعلق بأنظمة توزيع المياه، فمن المؤكد أن قنوات الري كانت معروفة على نطاق واسع قبل الوجود الإسلامي، الذي كان له الفضل في تطوير الري الفردي المعتمد على الدواليب الرافعة. أما بحيرات التخزين الكبرى فقد وجدت بعد حركة الاسترجاع المسيحي .(reconquista) كما يرجح أن آثار الفوقارات الموجودة شرق مدريد تعود للعرب. وقد تبين مؤخرا أن الري عن طريق الفيض المعروف في جنوب شرق إسبانيا الجاف يعود إلى فترة سابقة للاسترجاع المسيحي، وإن ظل أصله مجهولا[1]. على أي حال فإن أنظمة الري الحالية المنتشرة في الفيغات (vegas) الكبرى (بلنسية، مرسية، غرناطة، الخ) كان أغلبها معروفا في الفترة الإسلامية، ورغم صعوبة تحديد ما إذا كانت إرثا سابقا لهم (و هو أمر مؤكد بالنسبة لفيغا مرسية فقط)، فإن المسلمين طوروا بلا شك هذا الإرث القديم على نطاق واسع. أما مسألة الأنظمة القانونية لتوزيع المياه فتظل غامضة، فالنظامان الرئيسيان، وهما نظام "بلنسية" (Valence) الذي يربط الماء بالأرض، ونظام "إلش" (Elche) الذي يفصل استعمال الماء عن الأرض، كانا معروفين منذ الفترة الإسلامية.

هذا وقد طال التأثير الإسلامي مجالات عديدة أخرى، مثل : تربية المواشي (إدخال المرينوس (mérinos) والجمل الذي لم يعد له وجود اليوم، تطوير نظام النقل بالبغال والبهائم) ؛ والتقنيات الحرفية (أنماط من الرحى

(1) Vila-Valenti, 1961; Llobet, 1958.

المائية والهوائية، معصرة الزيت المستعملة إلى حد الآن، تقنيات خزفية عديدة، صناعة قطع الخزف المطلي والورق) ؛ والاستغلال المكثف للمناجم ؛ واستعمال منابع المياه المعدنية الذي طور على نطاق واسع مقارنة بالفترة الرومانية ؛ واللباس.

4. بفضل الفاعلية المتميزة للدين الإسلامي كعامل اجتماعي وثقافي وكذلك النزعة المحافظة في المجالين العقلي والمادي السائدة في شبه الجزيرة الإيبيرية والتي تفسر الاستمرارية الكبيرة للعناصر التي غرسها الإسلام، كان التأثير الإسلامي قويا جدا. ففي كامل الجزء الجنوبي من إسبانيا تمت أسلمة عميقة للأرياف التي لم تشهد مقاومة مسيحية ريفية، وظل الموزارابيون (mozarabes) يشكلون جماعات حضرية في الأساس. على أننا نلاحظ أن الإسلام لم يغير الحياة الريفية في شبه الجزيرة سوى في السهول ذات المناخ الشبه الاستوائي والزراعات المروية في الجنوب والجنوب الشرقي. وكان التأثير الإسلامي أقل بكثير في الأراضي المرتفعة وفي الجهات الجبلية وفي مناطق الزراعة المطرية في الهضبة العليا، حيث كان الدور الثقافي للفلاحين البربر البسطاء الذين استقروا فيها متواضعا، ولم تتجاوز المرحلة الثانية لاستقرارهم المناطق الجنوبية التي لم يتعداها في السابق الوجود العربي الذي شكل الخميرة الرئيسية للثقافة الجديدة. هذا ويعكس عجز الحضارة المنتصرة عن الانتشار في كامل شبه الجزيرة توقف التوسع الإسلامي أمام حواجز طبيعية حال مناخها وتضاريسها دون دخول الوافدين الجدد إليها بما فيهم أولئك القادمون من جبال شمال إفريقيا الذين تمكنوا من الاستقرار في أراضي الميزيتا (Meseta) المرتفعة إلا أنهم لم يتأقلموا في الجهات الأطلسية من إسبانيا.

5. وفي الأرض الفرنسية التي كانت فيها البصمة الإسلامية عابرة، نلاحظ أن مراكز الوجود القار الذي دام قرنين من الزمن، لم تتجاوز المنطقة المتوسطية أي الساحل البروفانسي وسهول اللانغدوك (Languedoc) والرون

الأسفل .(Bas-Rhône) وأطول تجربة في هذا الإطار دامت إلى نهاية القرن العاشر وتتمثل في تجمعات صغيرة لفلاحين بربر على الأرجح، استوطنت غابات كتلة المور (massif des Maures) الكثيفة[1] التي تشبه إلى حد كبير المجال الطبيعي للتل المغاربي. وفي صقلية، انتشر الإسلام في الجزء الغربي فقط أو ما يعرف بفال دي مازارا (Val de Mazara) أو صقلية باليرمو (Sicile de Palerme)، فيما ظلت منطقة فال ديموني (Val Demone)، أي المنطقة الجبلية في الشمال والشرق، مسيحية مستقلة بشؤونها باستثناء ميسينا (Messine)، في الوقت الذي بقت فيها منطقة فال دينوتي (Val de Note)، أي مقاطعة سيراكوز (Syracuse) مسيحية مرتبطة بالوجود الإسلامي[2]. ونلاحظ هنا أيضا الدور الحاسم الذي لعبته الأراضي المرتفعة الشمالية والشرقية في استمرار الوجود المسيحي، ضمن حدود تأثير القوة القرطاجية التي وجدها الإسلام كما كانت عليه تكاد لم تتغير[3]. وكما هو الشأن في إسبانيا، ترك العرب بصمتهم في المشهد الزراعي الصقلي بإدخال الزراعات الاستوائية والشبه الاستوائية، من قبيل النخيل قرب باليرمو في القرن الثالث عشر، وكذلك إنتاج الحرير، في الوقت الذي تراجعت فيه الكروم[4].

2. شبه جزيرة البلقان

تتوفر بخصوص العناصر الأنثروبولجية-الجغرافية للتوسع الإسلامي في البلقان معطيات أكثر دقة بكثير مما يتعلق بشبه الجزيرة الإيبيرية بالرغم من أنها لم تخضع لنفس القدر من الدراسة. إن الطابع المتأخر نسبيا لهذه الظاهرة، التي انتهت في القرن العشرين بعد أن دامت أكثر من خمسة قرون،

---

(1) Lacam, p. 209.

(2) Amari, I, p. 606 ss.

(3) Gautier, 1931, p. 142.

(4) Amari, II, p. 510.

يسمح لنا بالتوصل إلى استنتاجات أكثر يقينا.

1. تركز الوجود التركي في السهول التي كانت مجال التوسع والغزو العسكري، بينما لجأ السكان الأصليون من السلاف والإغريق إلى الكتل الجبلية المعروفة باسم "البلقان"، والتي اشتق منها اسم "بلقانجي" الذي يطلق أساسا على الفلاحين البلغار. ومنذ القرن الخامس عشر هيمن الغزاة على هضاب تراقيا (Thrace)، وأراضي ماريستا (Marista) المنخفضة، والأحواض الشبه البلقانية، ووصلوا إلى هضبة شرق الدانوب ودوبروجا (Dobroudja) التي اعتمدت فيها سياسة توطين منهجية لمواجهة القوة الروسية. وفي بلغاريا العليا، تم استيطان أغلب الأحواض الداخلية، خاصة منها سهل صوفيا، وأحواض إختيمان (Ikhtiman) وساموكوف (Samokov) ورادومير (Radomir). وفي بلاد اليونان، عمر الوافدون الجدد مجالات واسعة من سهلي سالونيك (Salonique) وتيساليا (plaine thessalienne)، واستقرت مجموعات كبيرة على طول واديي فاردار (Vardar) وموراڤا (Morava) الكبيرين الذين يشكلان الطريق الرئيسية باتجاه الشمال الغربي، خاصة في حوضي أوسكوب (Üsküb) ونيش (Nich)، وتقل كثافة الاستيطان كلما اتجهنا نحو الشمال الغربي والجنوب، التي اتخذ فيهما التواجد التركي طابعا إداريا وعسكريا بالأساس، وحضريا أكثر منه ريفيا، غير أنه تبين مؤخرا[1]، أن تجمعات ذات طابع ريفي محض أقيمت حتى في جنوب شرق السهل المجري في سنجاق سيغيد (Szeged) الواقع شرق وادي الدانوب.

ينقسم الاستيطان التركي، خاصة في الأحواض البلغارية، إلى مرحلتين اثنتين. مست المرحلة الأولى المدرجات المرتفعة التي تم استصلاحها في فترة سابقة والتي تتوزع فيها قرى سلافية طرد سكانها إلى الجبال. وتتعلق المرحلة الثانية بالاستصلاح التركي الجديد الذي تم على نطاق واسع في السهول

(1) Halasi-Kun, 1964.

المنخفضة والمستنقعات التي كانت تغطيها الغابات. ويطلق اسم تركي ومعناه الغابة المجنونة (Deli Orman) على المسطح الشبه البلقاني لجنوب دوبروجا (Dobroudja)، مما يعكس الطابع الإقليمي للمناطق الجديدة للتواجد السكاني التركي. وفي المناطق التي تم استيطانها في فترة متأخرة، اقتصر الوجود التركي على الصنف الثاني؛ ففي حوض صوفيا استمر وجود قرى بلغارية في الأطراف حول المجال الأوسط الذي شهد عملية تتريك، بينما تم تتريك حوض إختيمان (Ikhtiman)، الواقع جنوب شرق حوض صوفيا والذي استعمر في فترة سابقة، بشكل كامل. هذا واعتمد استيطان الأراضي المنخفضة أساسا على كبار الملاك أكثر من الفلاحين الأحرار الذين وطنوا في المدرجات المفتوحة مكان الفلاحين البلغار الأصليين[1]. بالإضافة إلى استقرار الفلاحين الأتراك، وضع على رأس القرى الأصلية في السهول أسياد جدد، وتحولت شيئا فشيئا إلى ملكيات كبرى خاصة معروفة باسم تشيفتليك (tchiftliks) ضمن التوجه العام الذي أدى إلى تدعيم الإقطاعات العسكرية التي عرفت بدايات هشة، والذي استمر على مدى القرنين السابع عشر والثامن عشر في كل البلاد العثمانية. وتطابق خريطة تشيفتليك (tchiftliks)، خريطة سهول أحواض شبه الجزيرة، أكثر من خريطة القرى التركية[2].

كما كان التأثير التركي مهما في مناطق تواجد السكان الأصليين، فعلى سبيل المثال، انقسمت القرى الكبرى البلغارية المعروفة بتاس (tas) والتي كانت تنتشر قبل الفتح التركي في سفوح منحدرات الكتل الجبلية البلقانية، إلى قرى صغيرة متناثرة في الأودية الجبلية[3]، قبل أن يبادر الأسياد الأتراك بإعادة تجميعها لتكوين قرى كبيرة تابعة لهم. وفي القرن التاسع عشر شجعت السلطة التركية نزول الفلاحين المسيحيين من الجبال واعتمدت سياسة منظمة لإقامة

(1) Wilhelmy, 1935, p. 163 ss.

(2) أنظر، فيما يتعلق بمقدونيا، خريطة: Schultze-Jena, 1927.

(3) Wilhelmy, 1935, p. 120.

قرى من السلاف البلقانجي في سهول شمال بلغاريا[1]. كما وجهت حركة هجرة عمل مؤقتة منتظمة اليد العاملة السلافية الجبلية نحو ملكيات تشيفتليك (tchiftliks) الكبرى الواقعة في السهول للقيام بأعمال الحصاد. وحتى قبل التراجع السياسي العثماني، بدأ ضغط ديمغرافي واستيطاني سلافي كبير على مناطق السهول. ومنذ القرن التاسع عشر، بدأ تراجع نسبي للسكان الأتراك الذين لم تعد الهجرة الآسيوية المتواضعة قادرة على تعويض خسائرهم العسكرية خاصة.

2. هذا ويمكن تفسير العناصر المادية والثقافية الإسلامية في المشهد البلقاني من خلال التواجد السكاني التركي الكبير في السهول. وكان أهم المستجدات في مجال المزروعات، إدخال زراعة الأرز في سنوات 1470-1480 إلى أراضي ماريستا (Marista) المنخفضة، ووصلت هذه الزراعة إلى حوض صوفيا منذ 1533، وظلت محتكرة من طرف المسلمين إلى غاية سنة 1856[2]. كما طور الأتراك وهم رعاة ورحل استقروا منذ وقت قريب، تربية المواشي بمختلف أنواعها، مثل تربية الخيول المستعلمة في الحروب، والجمال المستخدمة في النقل، وخاصة تربية الجاموس الذي كان معروفا في البلقان قبلهم والذي استعملوه في خدمة أراضي المستنقعات المنخفضة التي استوطنوها[3]. وفي مجال السكن، ساهموا في إدخال المشهد العمراني الإسلامي بمساجده وبازاراته وبادستاناته وبنيته المتميزة. ومما يعكس ازدهار الحياة الحضرية، انتشار البساتين في الضواحي وإنتاج الحرير خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر[4]. وتشهد الخانات الواقعة على الطرق على ازدهار تجارة القوافل الكبرى. أما التأثير على السكن الريفي فقد كان أقل

(1) Ibid, p. 150.

(2) Ibid, p. 259.

(3) Ibid, p. 270-271.

(4) Ibid, p. 271.

شأنا، ورغم أن المستوطنين أقاموا سكنات بمواد أكثر صلابة ومغطاة بالقرميد، عكس أكواخ الفلاحين السلاف المبنية بالمواد النباتية، لا نجد في البنية الفوضوية لقرى التشيفتليك (tchiftliks) ما يؤشر على طابع متميز شامل[1]، هذا وكان الأسياد الأتراك يسكنون منازل كبيرة في شكل أبراج تعرف باسم كولا (kula)، ترتفع بشموخ أمام منازل فلاحيهم المنخفضة، وقد انتشر هذا النوع من السكن في المجالين الألباني والإغريقي ولا يمت بأي صلة للمجتمع الإسلامي وإنما هو تعبير عن مجتمع "بطولي" قد يكون التوسع الإسلامي ساهم في نشره في البلقان غير أنه يعود إلى فترة سابقة.

3. إن تفضيل الاستيطان الريفي للسهول مع السماح للأقليات المحلية بالمحافظة على تميزها في الجبال والتحضير التدريجي لأسس نهضتها السياسية، كان هو السبب الأول للإخفاق النهائي للإسلام في شبه جزيرة البلقان كما في شبه الجزيرة الإيبيرية. هذا ويجب الإقرار بأنه كان من الصعب أسلمة كتل جبلية تغطيها غابات الزان وترعى فيها قطعان كبيرة من الخنازير (مثل كتلة شوماديا (Choumadia) الصربية)، لإخلال ذلك بأسس معيشة السكان، كما أن تحريم الإسلام للحم الخنزير كان عاملا حاسما في المحافظة على الدين القديم. غير أن السؤال المطروح هو: ما الذي يفسر ضعف الوجود التركي في الجبال في الوقت الذي تشكل فيه قبائل الرحل التركية، كما نعلم، أداة فعالة لانتشار البداوة في المرتفعات؟

لم يكن الرحل الأتراك غائبين تماما في البلقان[2]، فجداول الإحصاء المتوفرة بالنسبة للفترة الممتدة من 1520 إلى 1530، قدرت، في المنطقة

(1) Ancel, 1930, p. 32.

ذكر أن قرى تشيفتليك (tchiftliks) في سهل أوسكوب (Üsküb) تعرف من بعيد بشكلها الهندسي، غير أنه لا يمكن تعميم هذه الملاحظة.

(2) Trager, 1905; Truhelka, 1934; Wilhelmy, 1935, p. 278-80.

الواقعة بين الدانوب والساف (Save)، عدد السكان الرحل بـ 37,435 موقد يوروك (Yürük)[1] من بين 195,400 موقد للسكان المسلمين، أي ما يعادل الخمس. وتوزع الرحل بأعداد الكبيرة في تراقيا (Thrace) كلها، وفي بلغاريا الشرقية ودوبروجا (Dobroudja)، كما كانوا كثيرين في رودوب (Rhodope)، وحول سالونيك (Salonique)، وحتى الحوض الأعلى لنهر فاردار .(Vardar) وتشير الدفاتر الخاصة المحفوظة والمتعلقة بالفترة الموالية[2] إلى أعداد مشابهة، لا يمكن التقليل من شأنها.

على أن عدة عوامل حدت من تأثيرهم في المجال الجبلي. أولها وأهمها أن اليوروك (Yürük) لم يكونوا الرحل الوحيدين في جبال البلقان، فقد واجهوا منافسة الساراكاتسان (Saracatsans) الناطقين باليونانية، وخاصة الفالاشيين (Valaques) الناطقين بالرومانية، وهم سكان قدامى تحولوا إلى حياة الترحال خلال فترة الغزوات السلافية، ولم يتركوا للرحل الأتراك إلا حيزا ضيقا، فقد كانت المراعي الجبلية مستعملة على نطاق واسع، خاصة في كتلة بيند (Pinde) الكبرى التي تعتبر العمود الفقري لشبه جزيرة البلقان والتي لم يتمكن اليوروك (Yürük) أبدا من الاستقرار فيها وظلت مجالا أرومونيا (aromoune).

أما العامل الثاني فهو كون المخزون البشري البدوي الذي وصل الجزء الأكبر منه في سياق التوسع التركي الأول في شبه الجزيرة[3]، والذي كان يضم اليوروك القادمين من الأناضول والتتار الوافدين من مجال العصبة الذهبية، لم يتجدد أبدا وسرعان ما اندمج في المجال البشري الحضري من خلال الاستقرار التدريجي، في الوقت الذي كان فيه الرحل يتكبدون خسائر كبيرة بسبب الخدمات العسكرية المفروضة عليهم، إذ تبين دفاتر نهاية القرن

---

(1) Barkan, 1949-50 a, p. 131.

(2) Gökbilgin, 1957.

(3) Gökbilgin, 1957, p. 9-19.

السادس عشر انخفاضا مستمرا لتعدادهم[1]. ومنذ نهاية القرن السابع عشر، أكد تغيير تسمية الرحل تقلص أعدادهم وتحول نمط عيشهم، وانصب اهتمام السلطة العثمانية على إصلاح النظام العسكري لليوروك المستقرين الذين كانوا يتفادون التجنيد، ومنذ سنة 1691، أصبحوا يجندون تحت تسمية "أولاد الفاتحين" (Evlâd-i Fâtihân) مما يعكس تغير وضعهم بالنسبة لأجدادهم الرحل[2]. وعكس ما حدث في غرب الأناضول فإن المخزون البدوي الأصلي لم يتجدد بفعل الغزو البدوي الثاني الذي تلا تفكك الأحلاف التركمانية الكبرى في شرق الأناضول خلال القرن السابع عشر[3] والذي لم يمتد إلى البلقان.

4. هذا وقد كانت الأسلمة وحتى التتريك ظاهرتين نادرتين في المجال الجبلي. ويرجع الفضل فيهما في بعض الحالات إلى اليوروك، من قبيل الحالة الاستثنائية للقرى الأرومونية الإحدى عشر في موغلن (Moglen)[4]، وخاصة حالة البلغار المسلمين في رودوب والمعروفين باسم البوماك (Pomak) والذين يرجع إسلام أغلبهم إلى القرن السادس عشر (على أن ذكرهم ورد منذ 1495)[5]، في جبل شهد أكبر تأثير للرحل الأتراك مقارنة بغيره من جبال البلقان. أما الحالات الأخرى فهي من نوع آخر، فإسلام أهل البوسنة الجبليين يمكن تفسيره بانتشار النحلة المسيحية البوغوميلية (hérésie bogomile) بينهم والتي كانت تحرم أكل اللحوم كلها مما حد من تربية الخنزير في تلك المنطقة كلها وسهل على السكان التحول إلى الإسلام. كما أن موقع البوسنة

---

(1) Gökbilgin, 1957, passim (خاصة الصفحة 56 والصفحات الموالية) .

(2) Ibid, p. 255-56.

(3) أنظر أعلاه: ص. 235-8.

(4) Wilhelmy, 1935, p. 279.

نقلا عن: Le Conte, 1921.

(5) Ibid, p. 113.

في منطقة الثغور وحرص السلطة العثمانية على نشر الإسلام فيها، يؤكده وقوع المناطق ذات الكثافة الإسلامية العالية في كرايينا (Krajina) في الشمال الغربي، والتي تعتبر حصنا للإسلام ومنطقة معارك خارج مركز سراييفو (Sarajevo) الاقتصادي والثقافي. أما حالة الألبان فتظل محيرة، فالمرجح أن إسلامهم كان نتيجة نوع من الانتهازية الاجتماعية والسياسية وارتبط بقسوة الاحتلال العثماني بعد مقاومة إسكندربك (Scanderbeg)، ولم يتعمق الإسلام بينهم كما يدل على ذلك نجاح الدعوة البكتاشية (Bektachisme)[1].



(1) Birge, p. 70-73; Hasluck, II, 536-51.

مختارات بيبليوغرافية

حوض البحر المتوسط الغربي: فضلا عن الكتب العامة لصور (Sorre) ضمن (Sorre, Sion et Chataigneau, 1934, I)، وبيرو (Birot) ضمن (Birot et Dresch, 1953, I)، و(Lautensach, 1964)، التي تعرض كلها الإطار الجغرافي العام، يوجد تحليل معمق جدا للتأثير الإسلامي في شبه الجزيرة في كتاب (Lautensach, 1960) الذي اعتمدنا عليه كثيرا، وقد جاء بعد التحليل الجزئي لـ (Dübler, 1943 b). هذا ولا نتوفر على أعمال مشابهة فيما يخص منطقة اللانغدوك-بروفانس (Languedoc-Provence) أو صقلية، التي نكتفي بشأنها على كتب تاريخية بحتة: .Reinaud, 1836; Lacam, 1965; Amari, 1933-39

البلقان: لا يوجد عمل خاص بهذه المنطقة يشبه عمل لاوتنزاخ (Lautensach)، ففضلا عن الوصف العام لشاتينيو (Chataigneau) ضمن (Sorre, Sion et Chataigneau, 1934, II)، وبيرو (Birot) ضمن (Birot et Dresch, 1956, II)، والتحليلين الأنثروبولوجيين-الجغرافيين الشاملين لـ (Cvijiè, 1918) و(Ancel, 1926)، والذين رغم تميزهما لا يوليان للاستيطان الإسلامي الدور المنوط به، يمكن الرجوع إلى دراسات إقليمية، أحسنها فيما يخص كتابنا دراسة (Wilhelmy, 1935). وفيما يتعلق بألبانيا يمكن الرجوع إلى .(Louis, 1927) ويقدم العمل الضخم لـ (Philippson, 1950-59) حول اليونان وصفا دقيقا إلا أنه مجزأ بحيث يصعب الاعتماد عليه. ويقدم (Schultze-Jena, 1927) عرضا ممتازا عن مقدونيا في فترة التراجع العثماني الأخير، ويمكن تكميله بالرجوع إلى (Ancel, 1930) (الذي يركز على عملية الاسترجاع السلافي واليوناني، إلا أنه يمكن اعتماده كمنطلق). كما جمعت المعطيات التاريخية الأساسية للوجود التركي في (Barkan, 1949-50 a) و.(Gökbilgin, 1952-1957)

الفصل السابع
الأطراف الاستوائية

مقدمة

سرعان ما واجه التقدم الإسلامي في المناطق الاستوائية الرطبة العوامل البيولوجية التي حدت من انتشار الرعاة. فلا مكان هنا للغزوات البدوية الكبرى العنيفة من قبيل الغزوات الهلالية، حيث تحتاج قطعان المناطق الجافة إلى فترة طويلة جدا للتأقلم مع الظروف الصحية الصعبة جدا التي تسود العالم الاستوائي. وكلما اتجهنا جنوبا نحو المناطق الغابية أو ذات الغطاء النباتي الأكثر كثافة، تصبح طفيليات التريبانوزومياس (trypanosomiases) عائقا لا يمكن التغلب عليه. ولم تتمكن من التأقلم في هذا النطاق سوى مجتمعات رعوية متميزة جدا، واجهت صعوبات المجال من خلال "عادة الرعي" ونظام القطعان الكبيرة التي تشكل رأسمال غير قابل للتملك، غير أن هذه الإنجازات تفتقر للاستقرار[1].

هذا ما جعل انتشار الإسلام يتم بالتدريج، ولم يعتمد على أدواته الرعوية التقليدية، وإنما على أسلمة المجتمعات الرعوية التي كانت قائمة ومتأقلمة مع المجال البيولوجي الاستوائي. كما أن التوسع الإسلامي قام على المستعمرات الحضرية والتجارية أكثر منه على البداوة والفتوحات العنيفة،

---

(1) توجد آخر حوصلة بهذا الشأن في: Planhol, 1963 c.

مستفيدا في ذلك من كون الإسلام يظهر في هذا المجال بمظهر المجتمع الراقي الناشر للتأثيرات الحضارية. ولم تكن التحولات فجائية، كما تبدو النتائج العميقة عادة وكأنها أقل بريقا. هذا وتوجد فوارق جوهرية بين المجال الإفريقي من جهة، والمجال الهندي من جهة أخرى.

يكمن تميز الحالة الإفريقية أولا في التفوق الثقافي للإسلام والهياكل السياسية والاجتماعية المرتبطة به مقابل انعدام التنظيم السائد في المجتمع الفلاحي الزنجي الذي لم يتجاوز مرحلة البنيات العصبية المفتقدة للتميز. وقد جاء التأثير الإسلامي في سياق التأثيرات الحضارية التي بدأت منذ فجر حضارة المدن في الشرق الأدنى وضفاف البحر المتوسط والتي نشرت العربية الصحراء الكبرى لتزرع بذورها المنعشة في العالم الاستوائي[1]. وقد أمنت هذه التأثيرات للإسلام التوسع والنجاح. على العكس من ذلك لعب بعد المسافات وصعوبة الاتصال عبر المنطقة الصحراوية دورا كابحا، بحيث لم تتطور بذور حضارة المدن والتنظيم السياسي إلا بشكل جزئي جدا. وهنا كذلك كان الرعاة عامل انتشار أساسي للإسلام رغم الظروف الصعبة التي تواجه الحياة الرعوية والتي ذكرناها آنفا، مما نتج عنه تنوع كبير للحالات السياسية حسب درجة ارتباطها بالدول المنظمة، وكذلك تأثيرات وردود فعل معقدة جدا في العالم الفلاحي الزنجي. في المجموع خضع التطور العام الناتج عن الاتصال مع العالم الاستوائي الزنجي للحركية المعتادة التي ميزها انتشار البداوة، ثم نهضة حضرية وإعادة تنظيم في الفترة الاستعمارية.

أما في شبه القارة الهندية، فقد تحقق التصور النظري بشكل كامل نظرا لوقوع البلاد قرب المراكز الثقافية الإسلامية الكبرى التي لا يفصلها عنها سوى حاجز صحراوي مجزأ جدا تتخلله قطاعات جبلية لم تكن أبدا عائقا في

(1) هذا الموضوع أساسي في دراسات الإثنوغرافيا والجغرافية البشرية الخاصة بإفريقيا السوداء. أنظر على سبيل المثال: Gautier, 1943, passim, notamment, p. 182-83.

وجه تقدم الجيوش، مما جعل الهند أرضا خصبة لإقامة المدن والدول الإسلامية، في الوقت الذي ظل فيه التوسع الرعوي منحصرا في نطاق ضيق جدا.

1. إفريقيا السوداء : الهياكل السياسية الإسلامية وآثارها الأنثروبولوجية-الجغرافية

أ. الأسلمة الرعوية لمناطق الأدغال والبراري

1. بسط الإسلام هيمنته على الأراضي المنخفضة الشبه الصحراوية المحيطة بالكتلة الإثيوبية في إفريقيا الشرقية أكثر من غيرها بفضل النجاح الذي حققه بين السكان الرعاة. وعلى طول الطرق التجارية المؤدية من محطات البحر الأحمر أو المحيط الهندي إلى الأراضي الإثيوبية المرتفعة، انتشرت الدعوة الإسلامية بين قبائل الرحل، وارتبطت النشأة الإثنية لمجموعة الدناكيل (Danakil) (أو الآفار (Afar)) التي ظهر اسمها في القرن الثالث عشر مرتبطاً باعتناقها الإسلام، وكذلك الأمر بالنسبة لمجموعة الصوماليين التي لم يظهر اسمها الشامل إلا مع بداية القرن الخامس عشر، بينما كانت مجموعات أخرى معروفة منذ القرن الثاني عشر[1]. لا يمكن تحديد بداية انتشار الإسلام زمنيا، على أنها قد تعود إلى الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر كما تورد ذلك الروايات المحلية، على أن التحول الكبير للإسلام تم من دون شك بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر[2]. وتذكر الكتابات العربية

(1) مثل مجموعة الهديين المذكورة في الإدريسي: ..Cf. H.S. Lewis, 1966, p. 27 ويوجد الأصل البعيد لهذه المجموعات في إثيوبيا الجنوبية، كما هو الأمر بالنسبة للغالا (Galla) المنحدرين من نفس الأصل. وقد نتج الاختلاف بين الصوماليين والآفار عن هجراتهم من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وتأقلمهم التدريجي مع مجال أكثر فقرا.

(2) I. M. Lewis, 1955, p. 155; Cornevin, p. 496-503.

أن جزءا من بلاد الصومال كانت تسكنه في العصر الوسيط جماعات مستقرة من المزارعين الزنوج، وحول المراكز الدينية والتجارية انتظمت السلطنات التي كانت تدور في فلكها أحلاف الرحل المسلمين: سلطنة عدال (مركزها في داكار جنوب شرق هرار، ثم في هرار في القرنين الخامس عشر والسادس عشر)، وسلطنة أوسا (إلى يومنا هذا) فيما يخص الدناكيل؛ والسلطنات الساحلية خاصة (مقديشو) بالنسبة للصوماليين.

تفسر ظروف الجفاف القاسية تحول هؤلاء الرعاة الناطقين باللغة الكوشيتية (الحامية) إلى البداوة الكبرى العدوانية التي كانت تميز بوجه خاص صوماليي الشمال والدناكيل. وتطبع هذه البداوة بالنسبة للصوماليين بنية رعوية متميزة جدا، حيث تتشكل من قرى عائلية صغيرة جدا تضم عددا صغيرا من الأسر القاعدية (بمتوسط 2,6 أسرة للقرية الواحدة)، لا ترتبط دائما بصلات قرابة (مرتان من بين ثلاث مرات توجد صلة قرابة)، وتأوي هذه القرى قطعان الماعز والغنم وفي بعض الأحيان البقر، وهي تختلف بذلك عن معسكرات مربي الجمال، حيث يقوم رعاة شباب بحراسة الجمال وعدد قليل من الحيوانات المستعملة في النقل، وتضم هذه المعسكرات أسرا تنحدر من أصل واحد وأفراد جماعة واحدة تشترك في المسؤولية الجماعية المتعلقة بدفع ثمن الدم (الدية). وبينما تعتبر القرية الأسرية تنظيما "بيتيا"، يعكس معسكر مربي الجمال تنظيما "سياسيا" ترجع إليه مسؤولية التصرف في الموارد التي تكتسي أهمية قصوى في إطار البداوة الكبرى المحاربة، فهي ضرورية لدفع التعويضات، كما أن هذا التنظيم أكثر عرضة لأعمال النهب والغارات، مما يستوجب تضامن الجماعة التي تعتبر أساس الحياة الاجتماعية للصوماليين[1]. إن ازدواجية التنظيم تدفع بنا إلى البحث عن طبقتين اجتماعيتين ثقافيتين متتابعتين في النمط الصومالي، ثانيهما وأحدثهما هي البداوة الكبرى العدوانية

---

(1) Lewis, 1961.

لمعسكرات مربي الجمال والتي تنتمي إلى الصنف البدوي ويحتمل أنها كانت نتيجة للتأثير الإسلامي الذي نظم القبائل بدافع الجهاد؛ أما التنظيم الأقدم والذي لا يربط بين أفراده الانحدار من أصل واحد بالضرورة، فهو يجسد حياة رعوية سلمية؛ بحيث يمكن اعتماد فكرة بديهية مفادها أن انتشار البداوة في الصحراء الصومالية ارتبط بالإسلام والجهاد. فالطابع البدوي يختفي لدى صوماليي الجنوب المعروفين بالساب (Sab) الذين يعتبرهم صوماليو الشمال الأقحاح أقل درجة لاختلاطهم بالمزارعين الزنوج ورعاة الغالا (Galla) في مجال يسمح بالاستقرار، ومما يؤكد ذلك وجود اعتقادات دينية سابقة للإسلام لديهم تتجسد خاصة في تقديسهم الكبير للأولياء.

2. بين تشاد والبحر الأحمر تمتد المنطقة الكبرى للتوسع المباشر للبدو العرب حتى حدود العالم الزنجي. وهناك أسباب عديدة تفسر هذا الأمر ترتبط بطبيعة الصحراء ذاتها، حيث لا توجد بالصحراء الشرقية كتل جبلية كبيرة تشبه كتلتي الهقار والعاير بالتبستي التي كانت محور التميز العرقي للتوارق والتوبو. كما أن محور الاتصال السهل الذي يشكله وادي النيل سهل على القبائل التنقل عبر الصحراء، كما زادها حيوية قربها من مواطنها الأصلية. تضافرت كل هذه العوامل لتسهل عملية التعريب التي لم تفلت منها لغويا سوى قبائل بيجا (Beja) التي تقع مواطنها في أقصى الشرق إلى الشرق من أتبرة (Atbara)، غير أن الدم العربي يجري في عروق أفرادها رغم أن ذلك لم ينعكس في الاندماج اللغوي[1]. كما وجدت لوقت طويل منطقة انغلقت في وجه التأثير العربي، وهي منطقة المملكتين المسيحيتين لشلالات النوبة في النيل الأعلى وهما مملكة دونغولا (Dongola) ومملكة ألوا (Aloa)، وبسقوطهما نهائيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر انفتح في وجه البدو العرب طريق البراري باتجاه دارفور وتشاد وحتى تخوم الكتلة الإثيوبية. ولم

(1) Barbour, 1961, p. 80, 223.

يتوقف توافدهم حتى الفترة المعاصرة، حيث وصلت فرقة من أولاد سليمان إلى بلاد تشاد في القرن العشرين (كما ورد آنفا)، كما وصلت قبيلة الرشايدية الكبيرة إلى حافة الأراضي الإريترية المرتفعة خلال القرنين الأخيرين[1].

غير أن الظروف الطبيعية هنا كانت أقل ملاءمة لهيمنة البدو منها في إفريقيا الشرقية. ونجد بين هؤلاء العرب والسكان المستعربين كل أنماط العيش الانتقالية الممكنة، من كبار البدو مربي الجمال في الصحراء إلى الحضر الحقيقيين، مرورا برعاة البقر من أشباه البدو المتنقلين على مسافات قصيرة. ويمكن الوقوف على كل هذه الأشكال الانتقالية في العرق السوداني الكبير المتحجر المعروف بعرق قز (Qoz)، الذي يضم البقارة (Baqqara) الذين لا يزال يحتفظ أغلبهم بنمط البداوة الكبرى في قز الجنوبي حيث يصلون في الشتاء إلى الأودية المحيطة بمرتفعات النوبة أو حتى بحر العرب، وكذلك الحمار وهم عرب أقحاح اضطروا إلى الاستقرار بعدما فقدوا مواشيهم خلال تمرد المهدي[2]. كما نجدهم حتى في الأراضي التشادية التي توجد فيها جماعات من المولدين العرب المستقرين تماما، مثل جماعة التنجور التي شكلت الطبقة الحاكمة في مملكة واداي (Ouada)[3].

انبثقت عن هذه الجماعات العربية أو المستعربة الخميرة والنخبة الحاكمة في ممالك البراري الشرقية، فمنذ زوال ممالك النوبة المسيحية، ارتبط مفهوم الدولة المنظمة بالإسلام لدى الطبقة الحاكمة على الأقل. فمملكة فونغ (Foung) بمنطقة سنار (Sennar) بين النيل الأبيض والنيل الأزرق منذ بداية القرن السابع عشر، ودارفور منذ القرن السادس عشر، وواداي منذ بداية

---

(1) Ibid, p. 226.

(2) Ibid, p. 157-169.

فيما يتعلق بالبقارة، أنظر: Cunnison, 1966.

(3) Le Rouvreur, p. 105-107.

القرن السابع عشر، والباقيرمي (Baguirmi) منذ القرن السادس عشر، تشكل كلها هياكل سياسية تعكس التمازج في بلاد البراري بين الطبقات العليا العربية أو المستعربة ومجموعات الفلاحين الزنوج. وقد طبعت تطور هذه الدول الهيمنة المتعاظمة للعناصر المستقرة، وانعكس ذلك في إقامة عواصم قارة مثل الفاشر (القصر) بدارفور والتي اتخذها عبد الرحمن الرشيد عاصمة له بشكل نهائي مع نهاية القرن الثامن عشر[1]. ورغم أن البدو العرب لعبوا دورا حاسما في انتشار الإسلام عبر البراري الشرقية، فإنهم لم يتمكنوا من فرض نمط عيشهم واضطروا إلى القبول بأنماط مركبة تغلب عليها النشاطات الريفية.

3. كانت براري إفريقيا السوداء الغربية مجال توسع البول (peule) الذين مهما كانت أصولهم البعيدة[2]، فإنهم ظهروا في التاريخ في القرن الحادي عشر كشعب من رعاة الأبقار يتركز في منطقة فوتا تورو (Fouta Toro)، بوادي السنغال الأسفل، ومنها انتشروا شيئا فشيئا عبر براري السنغال وحتى ما وراء تشاد في مراحل عرفت أهمها تشكل شعب توكولور (Toucouleur) في وادي السنغال الأسفل؛ واختلاطهم بشعب الماندي (Mandé) الذي نتج عنه شعب الفولانكي (Foulanké)؛ واستقرار أعداد كبيرة منهم منذ القرن الرابع عشر في منطقة ماسينا (Macina) التي أصبحت أحد أهم نقاط ارتكازهم؛ وتسربهم منذ القرن السادس عشر إلى منطقة فوتا جالون (Fouta-Djalon) التي كونوا فيها إمبراطورية مع نهاية القرن السابع عشر؛ وغزواتهم في شمال نيجيريا ثم في هضاب أداماوا (Adamaoua) ابتداء من

---

(1) Cornevin, p. 341-43.

(2) كانت نشأتهم محل نقاشات عديدة وتظل إلى حد الآن غامضة. أنظر آخر حوصلة بهذا الشأن والتي تورد مختلف النظريات في: Cornevin, p. 346-55. هذا ويوجد تقارب لغوي بينهم وبين جيرانهم من السيرير (Sérère) والولوف (Ouolof)؛ ويرجح وجود قرابة بعيدة بينهم وبين الجماعات النبلية الحامية الشرقية، بحيث أن هجرتهم إلى أقصى غرب إفريقيا تمت في وقت مبكر جدا عبر الصحراء التي كانت لا تزال في الفترة النيوليتية رطبة.

الثامن عشر؛ وأخيرا دخولهم المعاصر إلى براري جمهورية إفريقيا الوسطى. ويبدأ تسرب البول عادة بشكل سلمي في نوع من التوافق مع المزارعين الذين كان البول يقومون بحراسة قطعانهم، ليتحولوا بعد ذلك إلى سارقين للمواشي. وبالإضافة إلى التنقلات المنتظمة التي تطبع البداوة الفصلية وتحددها الاختلافات المناخية والجيومورفولوجية الإقليمية، توجد ظاهرة "حركات الهجرة"[1]، وهي حركات موزعة تسمح بالانتشار الشامل للجماعة (من قبيل التوسع الحالي باتجاه شمال وشرق منطقة الساحل بتحويل المراعي الشتوية، خلال بضعة فصول وفي حالة إمكانية إقامة نقاط ماء دائمة، إلى قواعد ارتكاز في الفصل الجاف تسمح بانطلاق حملات رعي شتوية جديدة نحو الشمال)[2]. وقد تتخذ حركات الهجرة شكل هجرات عنيفة عارمة، مثل التي قامت بها سنة 1944-45 جماعات الودابي (Wodaabé) من بورنو (Bornou) إلى أداماوا (Adamaoua) على مسافة 700 كلم هربا من الضغط الجبائي المتزايد[3]. هذا وقد لعب انتشار الإسلام دورا حاسما في هذا التطور، بحيث انضوت هذه الجماعات تحت لواء الجهاد ووجدت فيه تبريرا دينيا لحملات النهب والفتح. وانتشر الدين الجديد على نطاق واسع منذ الفترات الأول للتوسع (فجماعات التوكولور تحولت إلى الإسلام منذ القرن الحادي عشر)[4]. واتخذ الدين الجديد، خاصة منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، شكل تعصب حربي كان أساس المراحل الأخيرة من توسعهم. في نفس الوقت ساعدهم الإسلام على الاستقرار وتنظيم فتوحاتهم ضمن دول مهيكلة.

---

(1) "migratory drift" Stenning, 1957.

(2) Dupire, 1962.

(3) Stenning, 1959, p. 222-24, et carte p. 230.

(4) Mauny, p. 523.

ب. التنظيمات السياسية الإسلامية

1. أسس البول العديد من الدول الإسلامية في غرب إفريقيا. وكانت النتائج الاجتماعية لهيمنة هؤلاء الرعاة متشابهة في كل الجهات، فبينما كانت الجماعات الصغيرة من البول الرحل التي تسربت إلى بلاد الفلاحين المستقرين تحتل مكانة اجتماعية متواضعة وتقبل بالقيام بالأعمال المأجورة، يختلف الأمر في حالة استقرارهم الدائم في البلاد المفتوحة، حيث يقوم تنظيم اجتماعي هرمي معقد، تهيمن فيه الأرستقراطية الرعوية الفاتحة طبقتي الأسرى والمزارعين المسخرين. على أن النتائج الأنثروبولجية-الجغرافية اختلفت حسب الحالات.

أ. الحالة الأولى تميزها عناصر سلبية فيما يخص شغل الأرض، حيث تعم الحياة الرعوية (و في بعض الأحيان البداوة)، وتتقلص كثافة السكان ويتراجع استغلال الأرض. وتتجسد هذه الحالة بشكل جيد في هضاب أماداوا (Amadoua) العليا (وسط الكامرون) التي فتحها في بداية القرن التاسع عشر الزعيم البولي أداما (Adama) (حكم بين 1805 و1847) والذي تنتسب إليه الجماعات المستقرة في مقاطعة بانيو (Banyo)[1].

قبل ذلك كانت الفلاحة التقليدية في البلاد، والتي لا زالت تمارسها جماعة الواوا (Wawa) الزنجية القبلية، تقوم على مراكز زراعة دائمة، خاصة في الأراضي الرسوبية بالوديان، مع تخصيب متقن للتربة يعتمد على تدوير منتظم للمحاصيل حيث تزرع في الأراضي التي تخضع لعملية الإراحة نبتة مغذية للتربة تعرف باليام (yam) (اسمها اللاتيني : Tephrosia Vogelii). وبخضوع البلاد للبول، طبق في الأراضي الخاضعة لعملية الإراحة نظام شامل لتنقل قطعان الرعاة في الفصل الجاف، مما أدى إلى تراجع كامل في نظام التدوير التقليدي، بحيث لم تعد زراعة اليام ممكنة، واضطر الفلاحون إلى

(1) Hurault, 1964.

الرجوع إلى زراعة متنقلة تستغل فيها الأراضي لعدة سنوات حتى إنهاكها، ثم تخضع لفترة إراحة تمتد على مدى 15 إلى 20 عاما. وقد تصحرت هذه الأراضي بسبب المبالغة في الرعي وبدء انجراف التربة. هذا ويقوم نمط عيش البول وخدمهم من المزارعين السود المتحررين من الأطر القبلية، بشكل كامل على تربية المواشي ورعي القطعان بحرية، بالإضافة إلى ممارسة فلاحة متنقلة استبدلت زراعة الدخن بزراعة الذرة والبطاطس والفول السوداني.

كما ارتسم تنظيم إقليمي، حيث تجمع السكان في قرى صغيرة تضم البول والخدم الذين لم تكن تربطهم دائما علاقات تبعية، ولم تعد الخلايا السياسية العصبية البدوية الصغيرة التي يميزها تنقل الأسياد رفقة خدمهم والتي نجدها في تقسيم مدينة بانيو (Banyo) مقر الزعامة (lamidat)، تمت بصلة للوحدات الإقليمية وتجمع السكان في قرى صغيرة، رغم ذلك فإن الطابع السائد في نظام السكن هو عدم الاستقرار، فقد بينت دراسة خصت 900 زعيم أسرة أن ربع السكان يعيشون حياة الاستقرار في نفس القرية منذ أكثر من 20 سنة، وربع آخر منهم قدم من مسافة تقل عن 5 كلم ويعتبر استقراره غير مكتمل داخل منطقة صغيرة، بينما جاء نصف السكان على الأقل من جهات بعيدة بحيث لا تربطه صلة سابقة مع الأرض التي يقتات منها. هذا ما يجعل السكان يتجددون باستمرار ويعرض توازن النظام القائم للهشاشة. وقد ترافق زوال الأطر القبلية لدى المزارعين الزنوج الخاضعين مع تراجع ديمغرافي متسارع، حيث لا يتعدى حجم الأسرة المتوسطة 2,7 أفراد بالنسبة للخدم، و3,5 بالنسبة للأسياد البول، كما يبلغ معدل الخصوبة المتراكم على مدى 25 سنة 59، وكانت هيمنة البول قائمة على نظام تجاوزه الزمن اليوم يقوم على خطف العبيد خلال غاراتهم ضد المجموعات الوثنية التي حافظت على هيكلة جيدة ونسبة ولادات مرتفعة. وفي منطقة أداماوا نتج عن هيمنة البول تصحر المنطقة وإقفارها من السكان.

إن هذا النوع من التطور الذي بلغ حدوده القصوى لم يكن القاعدة

العامة في أداماوا نفسها، حيث يبدو أن جهات أخرى (خاصة منطقة نغاونديري (Ngaoundere)) عرفت تعايشا مقبولا بين الزراعة وتربية المواشي، يميزه تنتقل قرى كبيرة من البول وخدمهم في شكل كتلة واحدة كل 15 أو 20 سنة، مع استمرار ممارسة زراعة الذرة، ومحافظة القرى المستقرة على وجودها. ومن المرجح أن التدهور الكبير الذي عرفته زعامة بانيو تسببت فيه ظروف طارئة وكثافة استثنائية للرعاة. على أن المنطقة السودانية شهدت حالات تحول شامل إلى الحياة الرعوية، مثل حالة هضاب فرلو (Ferlo) الواقعة بين السنغال وسلوم (Saloum) والتي تغطيها كثبان قديمة ودروع التربة اللاتيريتية (cuirasses latéritiques) ويعيش فيها ما بين 70,000 و90,000 من البول وعبيدهم في قرى صغيرة جدا تمارس فيها زراعات شتوية تترك المجال في الفصل الجاف لحياة شبه بدوية تنتقل فيها القطعان إلى أودية الأطراف، ولا تتعدى الكثافة السكانية 1 في الكيلومتر المربع[1].

ب. كان التطور مختلفا تماما في الجهات التي شكل فيها الرعاة الفاتحون أقلية عددية في البلاد المفتوحة، كما هو الحال في منطقة فوتا-جالون[2]، وهي هضبة عليا حجرية كثيرة الأمطار (2 م سنويا)، غير أنها مغطاة بمساحات البوي (bowé) العقيمة ودروع التربة اللاتيريتية (cuirasses latéritiques)، بحيث تقتصر الأراضي الصالحة للزراعة على الأودية وقلب المنخفضات الطينية التي تتركز فيها التربة الصالحة للزراعة. وقد كانت هذه المنطقة مجالا مفضلا للرعاة الذين دخلوا إليها منذ نهاية القرن السابع عشر وفتحوها نهائيا بالانتصارات الحاسمة التي حققها إبراهيما صوري ماودو (1751-1784). على أن شغل الأرض ظل زراعيا بالأساس في النطاقات المغلقة المزروعة على الدوام المعروفة بالغالي (gallé) التي تتوزع عبرها بيوت القرى المستقرة، وتسود فيها زراعة الذرة والمانيوك (manioc) والتارو

(1) Grenier, 1960.

(2) Richard-Molard, 1944; 1948-49; 1952.

(taro) والقطن. وعرفت مساحة الغالي التي كانت توفر مصدر القوت الرئيسي توسعا تدريجيا على حساب المناطق المحيطة بها التي ظلت مجالا لإشعال الحرائق في الأدغال وممارسة الزراعة المتنقلة المنتجة للفونيو (fonio) والفول السوداني، وفي بعض الأحيان الأرز في الأجواف والذرة .(mil) وتتميز هذه الحضارة التي يغلب عليها الطابع الزراعي كثافة سكانية مرتفعة نسبيا (20 في الكيلومتر المربع في المنطقة كلها، وما بين 50 و60 في بعض القطاعات ؛ وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأودية المنخفضة الكثيرة جدا في الأطراف والخالية من السكان فإن الكثافة الحقيقية أعلى بكثير)، مقابل ذلك فإن الكثافة الحيوانية أقل بكثير (حوالي 250,000 رأس لـ 700,000 هكتار، بينما تبلغ 200,000 رأس لـ 30,000 هكتار في زعامة بانيو في أداماوا). كما عمت حياة الاستقرار، ولم تعد القطعان تتنقل إلا تحت حراسة الرعاة وحدهم على مسافات قصيرة في حركة معاكسة تتم في الفصل الجاف باتجاه جوف الأودية الرطبة في الأطراف. وارتسم نسيج سكني يخضع لتنظيم هرمي محكم، يضم قرى مركزية تعرف باسم ميسيدي (missidé) تعتبر مقرات للقطاعات المختلفة وتوجد فيها المساجد، وغالبا ما تقام هذه القرى في المرتفعات ؛ ثم قرى البول الصغيرة المعروفة بالفولاسو (foulasso)؛ وأخيرا تجمعات الأسرى المسماة روندي (roundé) والمقامة غالبا في الأراضي المنخفضة. إن هذا التطور معاكس تماما لما عرفته منطقة أداماوا، ففي مقابل التصحر الرعوي، ازدهرت هنا حضارة زراعية كثيفة، ويمكن تفسير هذا التباين بالظروف المختلفة جدا التي أحاطت ببداية دخول الرعاة والتوازن السكاني الذي انجر عنها لاحقا. فالبول الذين جاؤوا بأعداد كبيرة وبشكل تدريجي إلى كتلة جبلية تضررت كثيرا من الاستغلال المدمر للمزارعين، اضطروا إلى الاستقرار وممارسة الزراعة في أراضيهم. وكان الضغط الديمغرافي لدى الأسرى (الذين يشكلون حوالي ثلث مجموع السكان) مشابها لذلك الذي كان يعيشه البول (ثلثا السكان)، وقضى توسع الزراعات شيئا فشيئا على القطيع.

جـ. أخيرا توجد حالة متميزة جدا تمت دراستها مؤخرا[1]، عرفت تعايشا منظما بين البول والسكان المستقرين على نفس الأرض في منطقة غيمبالا (Guimballa) وهي الجزء الأوسط من عرق بارا الميت جنوب نهر النيجر (شرق نيافونكي (Niafounké))، والذي يغمره بانتظام فيضان النهر الذي يصل حتى إلى الأخاديد الواقعة بين الكثبان. ويتواجد هنا صنفان من السكان: المزارعون السود البامبارا (Bambara) القادمون من الجنوب والذين استقروا في الجزء الجنوبي في القرن الثامن عشر في قرى محصنة في إطار إمارات زراعية صغيرة تنتشر في المستنقعات وتقاوم الغارات؛ والبول الرحل الذين كانوا يدخلون إلى العرق خلال الفصل الجاف، خاصة في الأطراف الشمالية والشرقية، بحثا عن المراعي الناتجة عن تراجع مياه الفيضان. وتحققت الوحدة بين العنصرين في إطار إمبراطورية شيكو حمادو (Chekou Hamadou) البولية (1800-1844)[2] التي وطنت البول في قرى شمال العرق، وفي أحياء مجاورة لقرى البامبارا في الجنوب حيث تم تنظيم التعايش بين المزارعين والرعاة. وفي شمال العرق حيث لم يجد البول سكانا مزارعين سابقين لهم، ارتسم مشهد يميزه تنقل القطعان، مع استقرارهم في تجمعات رعوية كبرى (مثل داري (Dari) التي تضم 10,000 نسمة في إقليم يتربع على 80,000 هكتار)، تحيط بها منطقة رعي شاسعة بحيث تنحصر الزراعات في الأطراف. أما في الجنوب فقد تشكل مجال مفتوح تمارس فيه إراحة التربة في الكثبان، إذ يخصص جزء منه للزراعات ويراح جزء آخر يقدر بثلثي المساحة الإجمالية يخصص لرعي المواشي، وبعد مدة تتراوح بين 5 و10 سنوات يتم عكس هذا التنظيم الصارم الذي يرجع إلى فترة سابقة لاستقرار البول في العرق، والذين تعهدوا بالإبقاء على الزراعات مقابل التزام المزارعين بتنظيمها في إطارات قطاعات كبرى. وقد تشكل هذا المجال المفتوح مكان بقايا مجالات مشجرة

---

(1) Vincent, 1963.

(2) Ba et Daget.

تفصل بينها حواجز من الشجيرات، وهي تعرف حاليا تراجعا وتدل بقاياها على نظام سابق كان يتطلب حماية الزراعات المختلطة بالمراعي من القطعان. ولم يتحقق هذا التكامل إلا في إطار دولة شيكو حمادو ذات التنظيم الجيد والتي حافظت على الأمن بصرامة.

2. هذا ما يدفعنا إلى الإقرار بأن الهيمنة السياسية والديمغرافية للرعاة البول لم يكن لها دائما آثار سلبية على الحياة الرعوية. ففي مقابل التصحر الرعوي في الكامرون، ازدهرت الحياة الريفية في فوتا-جالون وتحقق التوافق في غيمبالا. وهذا ما حدث في الحالات التي اكتفى فيها البول القليلون بتوفير هياكل الحكم أو الطبقة السياسة أو الأسر الحاكمة في دول ذات طابع حضري.

أ. كان الأمر كذلك في شمال نيجيريا الذي فرضت فيه الفتوحات البولية في القرن التاسع عشر ارستقراطية مهيمنة على دول الهاوسا الحضرية السابقة لها[1]، والتي كانت تشكل جمهوريات تجارية عددها الأصلي سبعة، أضيفت إليها سبعة دول أخرى "غير شرعية" يتواجد فيها الهاوسا بأعداد كبيرة غير أنهم لم يكونوا يشكلون الطبقة الحاكمة إلا خلال فترات متقطعة. هذا ويظل النشوء الإثني للهاوسا غامضا[2]، وربما ارتبط بتأثير أقليات بربرية وفدت لتجمع حولها عناصر بشرية متباينة جدا. على أية حال حققت هذه المدن-الدول ازدهارها بفضل النشاط التجاري القائم على التجارة العابرة للصحراء التي كانت مدن الهاوسا منطلقات لقوافلها، وكذلك على هجرة تجارية باتجاه بلاد البراري التي كانت عناصر الهاوسا تنشط فيها على الدوام. قام هذا النظام على بنية أوليغارشية تميزها ملكية انتخابية ذات سلطات محدودة، بحيث يكون أقرب إلى النظام الجمهوري الأرستقراطي منه إلى

(1) Cornevin, 1963, p. 318-24.

(2) Westermann, 1949.

الملكية الحقيقية، ويطبعه تنظيم إداري معقد وتقاليد تعكسها الحوليات المكتوبة التي وصلتنا منها تلك الخاصة بكانو (Kano) رغم الدمار الذي نجم عن الغزوات البولية. ويرجع تاريخ هذه المدن-الدول إلى القرن الحادي عشر، غير أن انتشار الإسلام الذي كان شاملا منذ القرن الرابع عشر، لعب بالتأكيد دورا أساسيا في حيوية وتوزع التجار الهاوسا.

كانت النتائج الأثروبولوجية-الجغرافية لهذا الاستقرار مدهشة جدا، فعلى مقربة من مدن شمال نيجيريا الكبرى، وهي سوكوتو (Sokoto) وزاريا (Zaria) وخاصة كانو (Kano)، نشأت منطقة زراعة دائمة اتخذت طابع مزارع صغيرة على تربة خفيفة تسهل فلاحتها ويتم تسميدها بفضل قطعان المواشي الكبيرة (حيث تقع شمال الحد الشمالي لذبابة التسي تسي) والسماد البشري الذي يوفره التنقل الدوري للأكواخ السكنية على الأرض المزروعة، كما يوجد الماء فيها بسهولة بفضل الآبار العديدة التي توفر مياه طبقة جوفية قريبة من السطح. وتغطي هذه المنطقة، التي يختلف استغلالها تماما عن عدم الاستقرار المعهود للزراعات المتنقلة في بلاد البراري، مساحة 6,000 كيلومتر مربع حول مدينة كانو، مع كثافة تصل أحيانا إلى ما بين 130 و150 في الكيلومتر المربع الواحد، وهي تعكس، في إطار ظروف طبيعية مساعدة، الأمن الذي وفره الأمراء البول الذين أعقبوا جمهوريات الهاوسا.

تعتبر مدن التجار المزارعين حالة فريدة في إفريقيا السوداء من حيث أهميتها، إلا أننا نلاحظ هنا وهناك بذورا مماثلة لجمهوريات حضرية حتى في قلب المنطقة الغابية، مثل ما هو حال مدينة كونغ (Kong) التي يسكنها تجار اعتنقوا الإسلام، وديولا (Dioula) في ساحل العاج العلوي التي تأسست على الأرجح في بداية القرن الثامن عشر، وربما بلغ عدد سكانها 15,000 مع نهاية القرن التاسع عشر (2,400 نسمة اليوم) لتكون مركز دولة صغيرة مزدهرة حتى تخريبها من طرف ساموري (Samory) سنة 1897. غير أن تأثير هذه المدن على مجالها كان محدودا، حيث يقتصر اليوم على سبع قرى زراعية صغيرة

منتشرة عبر أحياء المدينة. وخارج هذا النطاق تنتظم تجمعات القرى حسب تقسيمات سياسية شخصية مرتبطة بزعماء ليس لهم صلات اقتصادية مع المدينة[1].

ب. يشكل هذا الوضع على العموم تجسيدا غير مكتمل للإطار النظري للبناء الحضري الإسلامي المميز لمدن منطقة براري إفريقيا السوداء، كما يتبين بوضوح من خلال الصلات مع المجال الريفي. نذكر على سبيل المثال مدينة سان (San) (الواقعة على 4 درجات 58' غربا، و13 درجة 18' شمالا) المجاورة لبلاد جيني (Djenné) التي انتشر فيها الإسلام، والتي تضم سكانا ظلوا رافضين للإسلام مدة طويلة مثل البوبو .(Bobo) فرغم أن المدينة (يسكنها اليوم 10,000 نسمة) تحولت إلى الإسلام نهائيا منذ القرن الثامن عشر، فإنها تخضع لبنية عصبية إثنية من خلال أحياء تفصل بين جماعات بشرية مختلفة، ومع أن الحرف والتجارة تشكل مصدر عيش ثلث السكان وتحظى بأهمية كبيرة إلى جانب الفلاحة، إلا أنها موزعة عبر المدينة ولا تتوفر على نواة بينة للتركز التجاري. ولا زالت تهيمن على البنية الاجتماعية أرستقراطية زعماء العصب التقليدية المالكين للأراضي الزراعية، كما أن المجتمع الطبقي يختلف كثيرا عن مجتمع المدن الإسلامية القائم على المساواة ويتفاوت فيه الأفراد حسب ثروتهم. هذا وتختلف العلاقات مع الريف عما يميز علاقات المدينة الإسلامية بريفها، بحيث لا يوجد ملاك أراض يشتغلون خماسين أو مزارعين ويتجسد التحكم في المجال بواسطة الزعماء التقليديين من العائلات الكبيرة الذين يستغلون الأرض مباشرة باستخدام أفراد عائلتهم أو خدمهم أو رعاياهم[2].

يتأكد هذا الوضع بوضوح أكبر في المدن ذات التقاليد الرعوية

---

(1) Bernus, 1960.

(2) Kamian, 1959.

المتأخرة. فمدينة بولية مثل نغاونديري (Ngaoundéré)[1] الواقعة في الهضبة الكامرونية (12,400 نسمة في 1950، منهم 6,500 من البول وخدمهم، و2,500 من الهاوسا)، لا تعدو أن تكون سوى مجموعات أكواخ غير منتظمة تشكل قرية قش كبيرة تضم 30 "حيا" مقسمة على أساس الولاء الشخصي الذي يربط الأعيان بالأمير المعروف باللاميدو .(lamido) وقد يقطن العديد من هؤلاء الأعيان في نفس الحيز المكاني. هذا وتمارس التجارة، خاصة تجارة المواشي، عند أبواب المدينة. أما الحرف التي تشكل نشاطا مهما فهي موزعة عبر المدينة كلها. وانعكست التقاليد الرعوية المتأخرة في الغياب الشبه الكلي للزراعات حول المدينة التي تحيط بها مجالات الرعي. وتجسد هذه المدن البولية بوضوح عدم قدرة غالبية المدن الإسلامية في إفريقيا السوداء على لعب دور النواة المنظمة والمركز الإقليمي الحقيقي، ما عدا حالات استثنائية.

3. يتأكد هذا الأمر بالنسبة للهياكل السياسية الكبيرة من ممالك وإمبراطوريات ظلت صلتها بالأرض هينة جدا. فقد كان الوسط الغابي للبراري المفتوح أمام هجرات الشعوب مجالا مناسبا للحملات العسكرية والتأثيرات الحضارية في آن واحد، وميز عدم الاستقرار الدول التي قامت فيه، سواء تعلق الأمر بإمبراطوريات إفريقيا الغربية الكبرى التي اتسعت كثيرا أمام مقاومات الزنوج الأصليين الضعيفة والمتمركزة في الجنوب، أو بالممالك الأقل حجما في شرق السودان الواقعة شرق تشاد والتي ظلت منحصرة في الجزء الشمالي من المنطقة الصالحة للزراعة أمام المقاومات الوثنية الأكثر شكيمة والممتدة من جبال شمال الكامرون إلى جبال النوبة أو من مستنقعات شاري (Chari) إلى مستنقعات النيل الأعلى. وقد طبعت تتابع هذه الدول التركيبة الإثنية المعقدة جدا لعالم البراري، فقد ارتبط كل تنظيم سياسي مهم بنشوء إثني وتوسع مجموعة مهيمنة : مانديغي ساراكولي

(1) Froehlich, 1954.

(Mandingues Sarakollé) في غانا؛ مالينكي (Malinké) في مالي؛ كانمبو (Kanembou) وكانوري (Kanouri) في كانم-بورنو (Kanem-Bornou)[1]. وبعد زوال الهياكل السياسية التي قامت عليها، عادة ما تحافظ الإثنيات على وجودها بصعوبة وتتجزأ أكثر فأكثر لتشكل بقايا مشتتة تهيمن عليها مجموعات أكثر حيوية، مما يؤدي في النهاية إلى التجزئة اللغوية والإثنية المذهلة التي تميز على وجه الخصوص غرب إفريقيا حيث تتعايش عادة جماعات إثنية عديدة في نفس القرية.

يبدو أن عدم الاستقرار هذا متأصل وسابق للإسلام، فنمط الإمبراطورية الكبيرة الشاسعة والهشة التي تتوسع وتزول بسرعة، جسدته لأول مرة إمبراطورية غانا الوثنية التي سقطت تحت ضربات المرابطين. هذا ولم يتمكن الإسلام من مد أشكال الدولة التي ورثها بالبناء الضروري الذي يسمح لها بالتطور وذلك لأسباب معقدة. ففي الشرق الأدنى وشمال إفريقيا، سرعان ما سمحت الغزوات البدوية العنيفة بإيجاد ظروف السيادة الكاملة للإسلام، وتمكنت مجتمعات المدن المتحضرة من التحكم في البدو شيئا فشيئا، ورغم تفاوت النجاحات التي حققتها هذه الجهود فقد ظل المثل الأعلى الحضري للإسلام مهيمنا نظريا. أما في إفريقيا فقد اضطر حامل الرسالة الإلهية لأن يكون محاربا بالأساس، ومما لا شك فيه أن المجال المتقلب لعالم البراري ساهم في كبح انتشار الإسلام وفي التعثر الطويل لعملية فتح لم تكن تتوفر على نفس الأدوات التي كانت بحوزة القبائل البدوية الكبرى. فالمشهد العام لإفريقيا الإسلامية تطبعه حرب مقدسة لا نهاية لها، كانت فيه حالات التهدئة والتنظيم، مثل ما قام به شيكو حمادو، استثنائية، غير أنه تمكن من توريث نجاحات بشرية متميزة، كما هو الحال بالنسبة لغيمبالا وكذلك كوناري الواقعة

(1) تشكل إمبراطورية سونرهاي (Sonrhay) حالة استثنائية بحيث لم يكن ممكنا للإثنية المهيمنة استعمار البلاد المجاورة، أنظر:

Mauny, 1961.

شرق موبتي (Mopti)، حيث أقام المرابط عاصمته في حمدالاي (Hamdallaye)، التي تظل إلى يومنا هذا منطقة كثافة ريفية عالية (تفوق عادة 50 في الكيلومتر المربع الواحد) وزراعة دائمة، تختلف تماما عن الفراغ المحيط بها[1]. في المقابل كم هو عدد الدول والقرى-العواصم التي اندثرت ولم يبق لها أثر في المجال النباتي الاستوائي ! هذا هو أبلغ تعبير عن انغلاق العالم الاستوائي في وجه الغزوات العنيفة لرعاة المنطقة الجافة والذي يجسده وضع عدم الاستقرار المزمن.

جـ. الحصيلة السلبية للإسلام في إفريقيا السوداء

عجز الإسلام عن بلورة الحياة السياسية للبراري بشكل إيجابي، إذ لم يتمكن من إيجاد نمط الإمبراطوريات الغير المستقرة التي تعتبر القاعدة التاريخية، كما لم يرق، ما عدا في حالات استثنائية، بالاستقرار البشري إلى مستوى أرقى. حتى أنه يمكن القول أن حركة الجهاد والجو العدائي الذي ارتبط بانتشار الإسلام لم يسمح، هنا كما في المجالات الأخرى، بتطور الحياة الريفية وعرقل بدايات شغل أكثر كثافة للأرض. هذا ما يفسر أن العناصر التقنية المتفوقة التي استقدمها في بعض الأحيان لم تترسخ بعمق في الوسط الزنجي. هذا وقد تمت ملاحظة بعض الآثار الإيجابية الظاهرة، ففي ساحل العاج الأعلى[2]، يلاحظ أن زراعات المسلمين أكثر إتقانا من زراعات جيرانهم الوثنيين المنتمين لنفس العرق (مالينكي (Malinké))، فهم يفضلون زراعة الحبوب (الأرز والذرة والدخن والفونيو) على زراعة الإينيام (ignames) (نبتة استوائية متسلقة) ويتبعون أساليب أفضل، فتقنياتهم أكثر تطورا ومحاريثهم أمتن وأكبر وأثقل، كما يستعملون المنجل في جمع محصول الأرز، بينما يجني الوثنيون الأرز الناضج حبة حبة. هذا وقد طورت جماعات ديولا زراعة

---

(1) Forget, 1963.

(2) Marty, 1922, p. 379 ss.

القطن ونسجه لصناعة الثياب الإسلامية، كما أن جماعات أخرى من ديولا ذات أصول بولية قدمت من ماسينا، نشرت زراعة النخيل في ساحل العاج الأعلى باتجاه الجنوب. وفي جهات أخرى (النيجر)، نلاحظ أن الإسلام أدخل زراعة حبوب شمالية مثل القمح. كما يطبع زراعات المسلمين التزام بالعمل ووحدة في الطريقة المتبعة لا نجدهما عموما لدى الوثنيين، فالأسرة المسلمة تزرع حقولها المؤقتة الواحد تلو الآخر، وعادة ما يقع الاتفاق بين الجيران، فيما أن الأسر المنظمة جيدا تعمل بشكل أفضل تحت إشراف زعيم الأسرة. ويختلف هذا النظام عن الفوضى السائدة بين الوثنيين، وهناك من اعتبر الإسلام عامل استقرار وتنظيم مناف للمزراعة المتنقلة[1]. ومن المؤكد أن هذه النظرة مبالغ فيها، فـ"النظام الإسلامي" عادة ما يسفر عن آثار سلبية على استغلال الأرض، ففي منطقة كازامانس (Casamance) الداخلية، لم تستطع حضارة الماندينغي (Mandingues) المسلمين ذات الطابع الحربي والتجاري والمنظمة في إطار مجموعات قرى كبيرة والخاضعة لنظام اجتماعي وديني صارم، تطوير منشآت زراعية عقلانية تحافظ على خصوبة الأرض، وخصصت للعمل النسوي مساحات الأرز المهيأة من قبل والتي تم الاستيلاء عليها على حساب السكان الوثنيين الأصليين، بينما كان الرجال يؤثرون زراعة الفول السوداني المربحة. كما نلاحظ أن الانتشار الحالي للإسلام بين جماعات بالانت (Balant)في غينيا البرتغالية،الذين كانوا مزارعين متقنين يوفرون السماد للأرض بانتظام من خلال نقل أكواخ قراهم بشكل دوري، يترافق مع تركز للسكن في قرى كبيرة مستقرة على شاكلة قرى الماندينغي وقضاء على التوازن الزراعي[2]. وحتى التماسك الاجتماعي والروحي الكبير لنحلة المريدين (Mouride) المتصفة بالحماسة والتنظيم في العمل، لم ينعكس في المجال الزراعي إلا من خلال اتساع رقعة الاستيطان

(1) Ibid, p. 393.

(2) Pélissier, 1966, p. 606-610.

الرائد القائم حصرا على زراعة الفول السوداني المتنقلة والمربحة والمدمرة في الأراضي البكر داخل السنغال. وخلال السنوات الأخيرة، بدأ يرتسم باحتشام لدى زعماء النحلة وعي بضرورة الاستقرار والمحافظة على التربة[1].

على العكس من ذلك، عادة ما تؤثر الحياة الزراعية على إسلام المزارعين الجدد. ونذكر على سبيل المثال حضر ساراكولي المستقرين شمال دائرة باماكو (قرى بانمبا (Banemba) وكيبا (Kiba) وكروان (Kerouane)) الذين أفلسوا مع تراجع تجارة الخيل وتحرير الرقيق، مما اضطرهم إلى الرجوع إلى فلاحة الحقول وتخلوا في سياق ذلك عن الإسلام لصالح الوثنية[2]، ففي هذه الحالة فتر الإسلام وانكسر. وعادة ما زالت بذور الحضارة الإسلامية في العالم الفلاحي الزنجي، بحيث لم يكن من الممكن التغلب على مقاومات الوسط الريفي الإفريقي للإسلام إلا من خلال هيمنة طويلة الأمد وفعالة تتمتع بمستوى رفيع من التنظيم، ولم تكن الحال كذلك في أغلب الأحيان، فالإسلام الزنجي لم يول اهتماما كبيرا بالعناصر الإيجابية لأنه ظل حبيس أمراء رعاة أو فاتحين عدوانيين أكثر من كونه مجال مرابطين منظمين أو تجار مسالمين، مما جعل آثاره في منطقة البراري تندرج في سياق حركات انتشار البداوة، رغم أن الوضع هنا يتعلق بتجميد للتطور أكثر منه تراجعا. في المجموع وفي أغلب الحالات، كانت نتائج انتشار الإسلام على المشهد البشري بإفريقيا السوداء سلبية رغم تفوقه الثقافي البين والتأثيرات الحضارية التي حملها معه، بحيث تطورت قطاعات الحياة البشرية الأكثر كثافة واستقرارا في مواجهة الإسلام أساسا.

(1) Ibid, p. 350-51.

(2) Delafosse, 1921.

2. إفريقيا السوداء : المقاومات

أ. المقاومات الجبلية

شكلت الجبال إحدى المجالات المفضلة التي تشبثت بها الأطر البشرية الإفريقية الأصلية (Paléonigritiques) القائمة على الزراعات المركزة والتواجد السكاني الكثيف فوق البراري التي عمها الخراب. هذا وتختلف الظروف البيولوجية والجاذبية النسبية للوسط الجبلي بالنسبة للمزارعين والرعاة من منطقة مناخية إلى أخرى. والعنصر الأساسي المميز هو غياب طفيليات التريبانوزومياس (trypanosomiases) التي تزول في إفريقيا الغربية على ارتفاع حوالي 1,000 متر، مما يجعل الجبال مجالا مفضلا لرعاة البقر من البول إلى الماساي (Massa). ويظهر تميز المناطق الجبلية بشكل أوضح في المناطق الرطبة ذات المناخ الغابي الشبه الاستوائي أو في الأطراف الجنوبية لنطاق المناخ السوداني. وفي شمال حدود ذبابة التسي تسي وباتجاه الأطراف الساحلية يزول الانجذاب النسبي للرعاة نحو المناطق الجبلية. وتتمثل أهم ميزة للوسط الجبلي في كمية الأمطار المعتبرة فيه مقارنة بالسهول المجاورة، مما يجعله أكثر ملاءمة للحضارات الزراعية، مما يؤكد كذلك الانغلاق النسبي للوسط الجبلي في منطقة الساحل البارد شتاء، في وجه الجمل الناقل الرئيسي للبداوة. تتضافر كل هذه الظروف لتجعل من جبال الأطراف الجنوبية للصحراء التي تتشكل من أدغال النباتات الشوكية والبراري القليلة النباتات، سندا لمقاومات السكان المستقرين.

1. هكذا نجد أن أسرة من مجموعات سكانية ذات أنماط عيش متقاربة جدا تمتد على طول خط جبلي خلف المنطقة الغابية، من مرتفعات الطوغو (Togo) الشمالية إلى أتاكورا (Atacora) وحتى جبل مرة (Marra) وجبال النوبة بالسودان، مرورا بهضاب نيجيريا الوسطى (هضبة بوشي

(Bauchi) أو جوس (Jos)) وشمال الكامرون (جبال ماندارا (Mandara)[1].
وهناك جماعات أخرى تنتمي جزئيا إلى هذا الصنف، مثل الدوغون (Dogon) المتشبثين منذ القرن العاشر على أقل تقدير بصخور بانديا‌غارا (Bandiagara)[2].
في كل هذه البقاع نجد نفس الخصائص : سكن في شكل قرى صغيرة تأوي غالبا أسرة كبيرة واحدة أو عصبة صغيرة وتضم أكواخا عائلية متعددة الأجنحة موزعة بشكل غير منتظم ؛ وأساليب راقية للمحافظة على التربة من قبيل زراعة المدرجات أو على الأقل بناء حواجز حجرية صغيرة وتهيئة المنحدرات والمجال الجبلي على نطاق واسع ؛ وتقنيات متقنة لتسميد وتخصيب التربة بالاستعانة بقطعان محدودة العدد وخاصة التدوير الزراعي الدقيق واستعمال الأسمدة الخضراء ؛ ومستويات متنوعة لاستغلال الأرض مثل الزراعة الدائمة أو إراحة الأرض لفترات قصيرة نسبيا، والتي تتفوق من حيث الكثافات السكانية الممكنة على نمط الزراعة المتنقلة، فمتوسط الكثافة السكانية يصل إلى 110 في الكيلومتر المربع لدى جماعات كابري (Kabré) في شمال الطوغو، ويتجاوز 50 في الكيلومتر المربع في قطاعات عديدة من كتلة النوبة ؛ وأخيرا، اعتماد الوثنية دينا ولم تكن مقاومتهم موجهة ضد الإسلام وإنما شملت كل العادات والتقاليد الراقية، ويشكل اللباس مثالا لها بعد أن أخذ به الناس في البراري المفتوحة ؛ ومن الواضح أن كل هذه الخصائص تتداخل عموما فيما بينها. ويتعلق الأمر هنا بمجموعات سكانية مطرودة تعرضت لتضييق كبير في وسط جبلي فرض عليها عملا شاقا ومستميتا للتغلب على

---

(1) حول الجماعات الباليو زنجية الغربية، أنظر:
White, 1943; Froehlich, 1949; Dresch, 1952 a et b; Mercier, 1953; Enjalbert, 1956; Leboeuf, 1961; Lambézat, 1962.
وفيما يخص الفور (Fur)، راجع: Lebon et Robertson, 1961.
وفيما يتعلق بجماعات النوبة، أنظر: Barbour, 1961, p. 172-79; Lebon, 1965, p. 89-90.

(2) Palau Marti, 1957.

ضيق المجال من خلال تكثيف التقنيات الزراعية والرفع الضروري لمردود كل شبر من الأرض.

ويؤكد اسم النوبة هذا التطور، فقد احتفظوا باسم نوبيي وادي النيل الذين تراجعوا أمام المد العربي واختلطوا في تراجعهم مع السكان الزنوج الأصليين. وقد توقف التوسع الإسلامي عند الأطراف وممرات السهول الجافة التي تسرب إليها البدو العرب، خاصة في الشمال الشرقي حيث تأسست في القرن السادس عشر مملكة تيغالي (Tegale) العربية التي لعبت دورا في أسلمة البلاد، بينما لجأت جماعات النوبة (حوالي 700,000 اليوم) إلى التلال الأكثر ارتفاعا وتحصنت في مواقع دفاعية في المنحدرات الصخرية. هذا ويمكن تفسير التباينات بين مختلف المجموعات بالأشكال التي اتخذتها عملية الطرد، ففي شرق السودان، نلاحظ أن النمط الباليو - زنجي أقل ترسخا لدى جماعات النوبة والفور (Fur) في جبل مرة، لأن هذا المجال الجاف يشهد ضغطا أكبر للرحل العرب الذين تسربوا جزئيا إلى هذه الكتل الجبلية ؛ بينما يتجلى النمط الباليو - زنجي بشكل أفضل في براري إفريقيا الغربية التي ظلت كتلها الجبلية ممتنعة.

2. يندرج صمود الأراضي المرتفعة الإثيوبية في نفس الإطار، حيث توافق استمرار حياة استقرار متميزة وعريقة جدا مع وجود مركز مستقل لترويض أنواع النباتات (مثل التف - Eragrostis teff - (Teff) وهي أصغر الحبوب)، وكذلك مع عجز الرحل المسلمين عن أقلمة جمالهم مع المناخ البارد والرطب للأراضي المرتفعة[1]. ولم يسفر الفتح الإسلامي الذي قاده أحمد غراني في القرن السادس عاشر عن نتائج تذكر لعدم قدرة الفاتحين على التأقلم في الهضبة العليا، ولم يبق من آثاره سوى اعتناق الإسلام من طرف بعض سكان الأراضي المرتفعة الذين يشكل أحفادهم اليوم جماعة الجبرتيين المنتشرين وسط السكان المسيحيين. وفي الأطراف الشمالية للكتلة

---

(1) Simoons, 1960, p. 133-34.

الحبشية، أي أريتريا، تتتطابق الحدود بين الإسلام والمسيحية مع تلك التي تفصل بين القبائل البدوية في الأراضي المنخفضة والسكان المستقرين في الهضبة.

هذا ولا يمكن تفسير الصمود الإثيوبي بالأسباب الطبيعية وحدها. فهناك قبائل رعوية أخرى من الأراضي المنخفضة تمكنت من الدخول إلى الهضبة، مثل الغالا (Galla) في الجنوب الغربي الذين كانوا وثنيين في فترة الغزو وانتشروا في الفراغ الذي تركه الفتح الإسلامي، قبل أن تتحول أعداد كبيرة منهم إلى الإسلام بعد استقرارهم في الأراضي المرتفعة، التي كانت تتم السيطرة عليها كلما تعرضت لموجة بدوية قوية ومستمرة. ولعل سر الصمود الناجح للفلاحين الجبليين الإثيوبيين يكمن في الضعف النسبي للهجوم الذي تعرضوا له، ففي الشمال، اتجهت موجة التوسع العربي الكبرى من الشرق إلى الغرب على طول براري وأدغال منطقة الساحل ولم تواجه مباشرة الكتلة الحبشية، كما كانت المنطقة العربية القريبة من إثيوبيا، تتمثل في الأراضي المرتفعة اليمنية وهي مجال لسكان مستقرين لم يكونوا يتطلعون للغزو العنيف. هذا وانطلقت الهجمات المهمة من الجنوب، حيث انتظم الدناكيل والصوماليون في إطار السلطنات الإسلامية التي أقيمت في المدن التجارية الساحلية، غير أن صحاريهم القاسية[1] والضيقة لم تشكل مصدرا لموجة تماثل قوتها الموجة التي انبثقت من المجال الصحراوي النوبي الكبير. لهذا يجب الإقرار بأن نقص حيوية الهجوم على المجال المعقد للأراضي المرتفعة الحبشية، كان مرتبطا بالموقع العام للكتلة بالنسبة للموجات العامة للتوسع البدوي وليس فقط بالعوامل البيومناخية.

3. في الوسط الاستوائي يشكل الجبل مجالا رعويا يرتفع فوق السهول التي تنتشر فيها التريبانوزومايز، بحيث لم تكن إلا في حالات نادرة حدا

(1) Trimingham, 1952, p. 139.

للتوسع الإسلامي. ففي جنوب الكامرون تمر حدود المنطقة التي تعرضت للغزوات البولية بالهضاب العليا، إذ أن صمود جماعات باميليكي (Bamiléké)[1]، جنوب غرب نون (Noun) ذات الكثافات البشرية المرتفعة (80 في الكيلومتر المربع) والطبيعة المتميزة بالأحراش الكثيفة حيث تفصل الحواجز بشكل صارم بين المجال المخصص لرعي المواشي في قمم التلال والقطع الزراعية التي لا تخضع إلا نادرا للإراحة الرعوية (كل 4 أو 5 سنوات)، ارتسم في وقت سابق للضغط البولي. وقد بدأ هذا الصمود منذ القرن الخامس عشر في وجه جيرانهم البامون (Bamoun) في شمال شرق نون، وكنتيجة غير مباشرة لهذا الوضع فقدت بلاد البامون التي كانت موطن أقلية من الفاتحين عددا كبيرا من سكانها، ولم تتمكن من مواجهة الغزوات البولية خلال القرن التاسع عشر، ولم تصمد سوى العاصمة فومبان (Foumban) التي حمتها خنادقها العميقة وحواجزها، بينما تعرضت المناطق السهلية للخراب، بحيث لا تتجاوز الكثافة السكانية اليوم 9 في الكيلومتر المربع، كما أن آثار التهيئة الزراعية القارة قليلة مقارنة بتلك التي نجدها لدى الباميليكي. وقد عرف انتشار الإسلام مؤخرا نجاحا خاصة بين أفراد الطبقات الحاكمة (أسلم السلطان سنة 1916). هكذا عرف المجال الجبلي الشبه الاستوائي توسعا إسلاميا رعويا اندمج في الأطر السياسية والبشرية التي سبقته ولم يحدث وضعا إقليميا جديدا.

ب. السهول والأودية الفيضية ومناطق المستنقعات

1. شكلت المستنقعات والأودية الفيضية الكبيرة مجالا آخر لمقاومة التوسع الإسلامي، حيث احتمت فيها مراكز استقرار كثيفة بالاعتماد على تقنيات متطورة جدا للتأقلم الزراعي. على أن هذا المجال لا يوفر نفس

(1) Weulersse, 1931; Despois, 1945 b; Diziain, 1953; Tardits, 1962; Hurault, 1962.

الظروف المساعدة التي أدت إلى تراكم بشري كبير في الجبال، خاصة في وضع تنعدم فيه أطر سياسية قوية تسمح بالتحكم في المياه على نطاق واسع. ولم يكن هذا المجال في الواقع سوى شريطا طوليا غير قادر على المحافظة على استقلاليته في وجه الجهات المجاورة وكان مصيره المحتوم الذوبان فيها على المستوى الثقافي على أقل تقدير. هذا هو الوضع الذي كان سائدا في الأشرطة الواقعة على طول نهر السنغال ونهر النيجر، التي احتمت بها صفوف من القرى لم تستطع أبدا أن تشكل خط مقاومة للمد الإسلامي. فعلى طول نهر النيجر، نلاحظ مراكز بشرية كثيفة تمارس فيها زراعة الأرز العائم والدخن الكبير على الأراضي التي ينحصر عنها النهر بعد الفيضان، وتتخذ هذه المراكز طابع القرى الكبرى المتقطعة، وكذلك الأمر حول ضفاف بحيرات دلتا النيجر الداخلية[1]. كما أن القطاع الأوسط من حوض السنغال[2]، من باكل (Bakel) إلى ريشارد-تول (Richard-Toll)، يأوي عددا كبيرا من السكان (حوالي 300,000 بكثافة تتراوح بين 35 و50 في الكيلومتر المربع)، خاصة في الضفة اليسرى الأقل عرضة لغارات البربر .(Maures) وقد التحم العنصر البشري الفلاحي الأسود الممارس لزراعة الدخن الكبير (السورغو) في أراضي الفيض، بالطبقة البولية الحاكمة ليتم بذلك تحول مبكر للإسلام، ووضع قواعد نشأة جماعة التوكولور (Toucouleur) التي عبر عنها منذ نهاية القرن الثامن عشر تنظيم سياسي يتمتع بحيوية كبيرة.

و في السودان الشرقي، تشبث عنصر بشري حضري مستقر بالشريط الممتد على طول النيل الأوسط بممارسة الزراعة على أراضي الفيض أو بالاستعانة بآليات رافعة في التلال الرسوبية المرتفعة. أما في السهول الرسوبية بمناطق البحر الأحمر، أي في الدلتا الساحلية لتوكار (Tokar)[3] أو في الدلتا

(1) Grandet, 1957, 1958.

(2) Papy, 1951.

(3) Barbour, p. 228-231; Born, 1964 a.

الداخلية لغاش (Gash)[1]، فقد ظل شغل الأرض بدائيا بسبب الفيضانات التي لا يسيطر عليها وذات الطابع المتقلب، مما جعل البلاد كلها مجالا خاضعا لتوسع القبائل المجاورة، من العرب الممارسين لزراعات غير منتظمة في حالة توكار، ومن الهادندوا (Hadendowa) المنتمين لجماعة بيجا (Beja) الباحثين عن المراعي.

2. هذا ويوفر مجالان آخران إمكانيات أكبر بكثير : أولهما سهل النيل الأعلى الفسيح، وهو وسط مائي ضخم ؛ وثانيهما البلاد المنخفضة الفيضية لحوض تشاد وروافده (شاري (Chari) ولوغون (Logone)). على أن الاستقرار الدائم لم يكن ممكنا بسبب الفيضانات السنوية، واتخذ طابعا متقطعا ومعزولا في شكل جزر، كما أن مناطق شاسعة توفر مراع جيدة بعد انحسار ماء الفيضان مما جعلها مجالا رعويا. ويقوم نمط عيش العناصر النيلية (النوير (Nuer)، دنكا (Dinka)، شيلوك (Shilluk)) المتشابه إلى حد كبير، على ممارسة الزراعة في التلال التي لا تتعرض للفيض، وعلى شبه بداوة رعوية في المراعي الناتجة عن انحسار ماء الفيضان، ويحتل الرعي المكانة الأولى بسيكولوجيا في هذا النمط المزدوج، بحيث يمكن إلحاق هؤلاء السكان بالمجموعة البشرية الممارسة للرعي في المنطقة الاستوائية[2]. وبينما اعتنق رعاة البراري الجافة الدين الإسلامي، حال رعاة المستنقعات دون تقدمه نحو الجنوب.

هذا وتتميز أقاليم تشاد المنخفضة بتجانس أكبر، حيث تقوم الحياة فيها على الزراعة أساسا والتي تمارس في الكورو (koro) وهي تلال لا تتعرض للفيض وترتفع فوق السهل الفيضي[3]، كما هو الحال على الأقل لدى جماعات سارا (Sara) في منطقة تشكل فيها الغلوسينات (glossines) المعروفة بذباب التسي تسي خطرا محدقا بالقطعان الكبيرة. أما جماعات الماسا

(1) Barbour, p. 219-222; Born, 1964 b.

(2) Evans-Pritchard, 1940; Barbour, p. 234-248.

(3) Cabot, 1953, 1955, 1961, 1965.

(Massa)[1] فقد تحولت إلى حضارة رعوية تحتل فيها تربية المواشي المكانة الأولى وقد تنخفض فيها كمية الحبوب المتوفرة إلى 65 كيلوغراما للفرد الواحد سنويا. في كل الأحوال تظل الكثافة البشرية مرتفعة (ما بين 80 و100 في الكيلومتر المربع في بعض قطاعات التلال المرتفعة عن الفيض ؛ و10 في المجموع في إقليم لوغون الأوسط حيث تشكل أراضي الفيض نسبة كبيرة جدا)، وشكل الفلاحون الرعاة في سهول المستنقعات، كما هو الحال بالنسبة لجيرانهم من الزنوج الأصليين الجبليين في شمال الكامرون، حاجزا ممتنعا في وجه تقدم الإسلام.

3. وفرت المجالات الساحلية ومناطق مستنقعات مصبات الأودية والألسنة البحرية المهيأة في شكل بولدرات (polders) لزراعة الأرز ظروفا مشابهة، كما هو الحال في كل "بلاد الأنهار الجنوبية" من كازامانس السفلى (basse Casamance) إلى شرق سيراليون، حيث يشهد ساحل في طريق التشكل ضمن شبكة معقدة من مصبات الأودية التي يتم ردمها شيئا فشيئا، تواجدا كثيفا للمزارعين الذين بعد أن قسموا الأرض بينهم إلى أجزاء ونجحوا في إزالة الملح منها بالتدريج مارسوا فيها زراعة الأرز في شكل حصص مهيأة بعناية[2]. وقد طرد هؤلاء السكان إلى الساحل كما هو الحال بالنسبة لأصناف الأرز الإفريقي الذي كانوا يزرعونه المعروف بأوريزا غلابيريما (Oryza glaberrima) والذي يوجد موطنه الأصلي في الدلتا الداخلية لنهر النيجر الأوسط[3]، قبل حدوث مرحلة ثانية من تنوع الصنف في غامبيا العليا وكازامانس. وقد أدت الكثافة السكانية العالية جدا إلى تطور أنماط سكنية

---

(1) Garine, 1964.

(2) الأمر كذلك خاصة بالنسبة لديولا (Diola)، أنظر: Thomas, 1959; Pélissier, 1958; 1966, p. 655-772.

فيما يتعلق بزراعة الأرز عموما، أنظر: Dresch, 1949 a.

(3) Portères, 1950, 1955.

متميزة، من قبيل البيوت الكبرى الجماعية التي تتوسطها باحة وتعكس بنية سياسية فوضوية لم تتعد مرحلة التنظيم القائم على العائلات الكبرى الأبوية المتجاورة وغير المستقلة عن بعضها البعض[1]. على العموم احتفظ هؤلاء السكان في وسطهم المائي على تميزهم الثقافي في وجه ضغط البول والماندينغي المسلمين، ويتم ذلك أحيانا من خلال حدود واضحة المعالم، مثل ما هو حال جماعات ديولا (Diola) بكازامانس السفلى التي كانت تفصلها في بداية القرن حدود بينة عن الماندينغي المسلمين على طول وادي سونغروغرو (Songrougrou) شرقا والحدود الغامبية شمالا ؛ ونلاحظ أحيانا أخرى تداخلا كما هو الأمر بالنسبة لجماعات باغا (Baga) التي تمارس زراعة الأرز في غينيا السفلى والتي تختلط بجماعات توبا (Touba) التي اعتنقت الإسلام وتمارس زراعة الفول السوداني، كما تسمح لقطعان مواشي البول التي تنتقل إلى الساحل بالمرور عبر أراضيها.

جـ. مقاومات السهول المنفتحة

1. أخيرا تمكنت مجموعات زنجية أصلية في بعض الحالات من التطور والاستقرار بالبراري المفتوحة، وإن كانت هذه الحالات استثنائية، منها حالة مجموعة كونياغي (Coniagui) الصغيرة جدا (10 إلى 12 ألف شخص) المقيمة في الأراضي الغينية على حدود غينيا والسنغال وغينيا البرتغالية، والتي طردت إلى تخوم الغابة الكبرى حيث استقرت منذ القرن السادس عشر، وتمكنت من دحر البول مرات عديدة في هذا المجال الغابي الكثيف الذي سمح لها بالحفاظ على وثنيتها ومكنها من تطوير زراعة دائمة في مجال ضيق تعتمد على إراحة الأرض كل ثلاث سنوات أو بواسطة استعمال السماد ضمن قطاعات (متغيرة) وتتواتر مع زراعة الدخن والفول السوداني[2]. وفي

---

(1) Pélissier, 1958.

(2) de Lestrange, 1955.

جنوب السنغال، بين سلوم (Saloum) جنوبا وإقليم ولوف (Ouolof) المسلم شمالا، توجد جماعة السيرير (Sérères)[1] الوثنية الأكثر أهمية، والتي يرجح أنها كانت رعوية في البداية، إلا أن طردها نحو مجال ضيق وتأثرها بأقلية ماندينغية توسعية، جعلها تعتمد شيئا فشيئا على زراعة مستقرة تقوم على إراحة منتظمة للأرض المقسمة إلى قطاعات كبيرة هندسية الشكل يخصص فيها القطاع المراح لرعي المواشي، ويتحمل هذا النظام كثافات سكانية عالية (30 إلى 50 في الكيلومتر المربع).

2. شهدت قطاعات أخرى من البراري تطورات جزئية لم ترق إلى مستوى التنظيم الشامل للأرض الذي لا يدع مجالا للزراعة المتنقلة، إلا أنها اتجهت نحو أنماط شغل للأرض قائمة على بنية مركزية للأراضي حول مركز من الحقول الزراعية الدائمة تحيط بها حلقة من الزراعات المتنقلة في الأطراف. ويبدو أن أساس هذه التطورات ارتبط في أغلب الحالات بالمقاومة السياسية والدينية لانتشار الإسلام. فقد تمكنت دول وثنية من البقاء باعتماد العادات والأسلحة القادمة من الشمال كالتنظيم الإقطاعي وسلاح الفرسان والدروع. وتمكنت مجموعات أرستقراطية صغيرة قدمت في بعض الأحيان من الشمال، من هيكلة جماهير الفلاحين السود التقليديين الذين أدمجوهم لغويا وثقافيا. هذا وتعتبر إمبراطورية موسي (Mossi) أفضل نموذج معروف عن هذه الحالة[2]، وقد اتخذت من واقادوقو (Ouagadougou) مركزا لها وحافظت على سيادتها بلا انقطاع منذ القرن الرابع عشر، كما تمكنت منذ هذا القرن من إقامة نقطة تقدم نحو الشمال في واهيغويا (Ouahigouya)، وتدل على استقرار الحياة ببلاد موسي أهمية الحقول المسمدة على الدوام[3]، وهناك عنصر مميز إضافي في جنوب البلاد يتمثل في توزع السكن في قرى صغيرة

(1) Pélissier, 1953; 1966, p. 183-299.

(2) Tauxier, 1912, 1917; Delobson, 1932; Skinner, 1964.

(3) Dubourg, 1957.

أبوية تخضع لنفس تنظيم الأرض، مما يعكس الأمن الذي يسود هذه البلاد ذات التواجد البشري الكثيف.

كما ارتسمت تطورات من هذا النوع هنا وهناك لكنها أقل اكتمالا مثل ما حدث في: حلقة نهر النيجر (مملكة غورما (Gourma)؛ ومملكة بورغو (Bourgou) شمال داهومي (Dahomey) التي لم تشكل يوما دولة بأتم معنى الكلمة؛ ومملكة داغومبا (Dagomba) على ضفاف نهر فولتا الأبيض والتي اعتنقت الإسلام؛ وممالك باريبا (Bariba) القائمة على أرستقراطية الماندي (Mandé))؛ أو على ضفاف نهر النيجر الأسفل عند نقطة التقاء نهر النيجر ورافده الأيسر كادونا (Kaduna)، حيث قامت في القرن الخامس عشر مملكة النوب (Nupe) اللامعة ذات التنظيم الأرستقراطي الهرمي، والتي تأسس ازدهارها على صناعة حرفية متطورة جدا[1]، واعتنقت الإسلام في 1750 قبل انحطاطها بعد تقسيمها إلى إمارات هيمن عليها البول. ويبدو أن أغلب هذه الأطر السياسية الراقية المتأثرة بمنابع بشرية وتقنية شمالية وإسلامية أحيانا، عملت على صقل جمهور الفلاحين السود التقليديين.

3. إفريقيا السوداء: آثار الاستعمار

لم يؤثر الاستعمار الأوربي على البراري الإفريقية إلا على مدى نصف قرن من الزمن، إلا أن هذه الفترة كانت كافية لبدء عملية إعادة انتشار بشري وتحول نظام شغل الأرض، وإن لم تسمح باكتمال هذا التطور. كما أن أسباباً مرتبطة بفاعلية الأنظمة الزراعية المختلفة في المناطق الاستوائية حدت من حجم التحولات التي ظلت محدودة على العموم.

---

(1) Nadel, 1946.

أ. توسع وضعف مراكز المقاومة الباليوزنجية

مع عودة الأمن، تمكن الفلاحون الزنوج الأصليون المحاصرون في جبالهم ومستنقعاتهم من الخروج منها بحرية. وكان من المعقول أن يتم استيطان المجالات الانتقالية المخربة، حيث لوحظ في نقاط عديدة نزول الزنوج الأصليين الجبليين إلى الأدغال المهجورة الواقعة في أطراف الكتل الجبلية. هذا وظلت هجرة الباميليكي (Bamiléké) باتجاه أراضي الزراعة الأوربية فردية بالأساس، لأن المجالات المتوفرة حول هضبتهم الأصلية لم تكن تتسع لإعادة تشكل الزعامات أو الزعامات الفرعية التي تعتبر إطارا ضروريا للحياة الريفية التقليدية[1]. أما جماعات فالي (Fali) في شمال الكامرون فهي تعيش اليوم نزوحا باتجاه الأودية والسهول[2]، كما هو الأمر بالنسبة لسومبا (Somba) في إقليم أتاكورا (Atacora)[3]. غير أن هذه الظاهرة لم تسفر عن توسع نطاق الزراعة الدائمة المكثفة، إذ تخلى الزنوج الأصليون في البراري، التي تكاد تخلو من السكان وتوفر مجالا فسيحا، عن التقنيات الزراعية المتقنة والمتطورة التي كانوا يتبعونها في جبالهم والتي كانت تستوجب عليهم جهدا مستميتا وعملا مضنيا ومنهكا مقابل مردود متواضع للعمل البشري. ويعكس الرجوع إلى الزراعة المتنقلة في الأراضي المفتوحة حديثا، توفر مجالات غير محدودة يحبذ فيها اعتماد أساليب أقل تطورا مثل إراحة الأرض الغابية على فترات طويلة، التي وإن كانت لا تسمح سوى بشغل ضعيف للأرض وكثافة سكانية ضئيلة، إلاّ غير أنها توفر مردودا أعلى بكثير مقابل نفس الجهد[4]. لهذا لم يكن في استطاعة الفلاحين القدامى من الزنوج الأصليين الاضطلاع بمهمة استيطان البراري من خلال تواجد سكاني كثيف ونظام متطور لشغل للأرض.

---

(1) Diziain.

(2) Leboeuf, 1961.

(3) Mercier, 1953.

(4) Gourou, 1956, p. 345.

2. على العكس من ذلك أوجدت حالة الأمن المستجدة ظروف الانفصال التدريجي لمراكز التواجد السكاني الكثيف والقديم. وقد أثرت الإدارة الاستعمارية في نفس الاتجاه. فجماعات النوبة على سبيل المثال، التي واجهت جهود الإدارة البريطانية للسودان الإنكليزي-المصري للسيطرة عليها نفس الصعوبات التي لاقاها الأسياد العرب الأوائل، اضطرت بفعل السياسة الاستعمارية إلى الاستقرار في مواقع أقل تحصينا من قراهم القديمة المعلقة في منحدرات التلال. وأنشئت القرى الجديدة حول الكتل الصخرية في سفوح المنحدرات الشديدة حيث توجد منابع الماء[1]. وتم التخلي شيئا فشيئا عن زراعة المدرجات لأنها تتطلب يدا عاملة كثيرة. في الوقت نفسه أصبح الرعاة العرب البقارة يتوغلون أكثر فأكثر داخل أودية المنطقة الجبلية في فصل الشتاء الجاف. وفي الجهات الأخرى يتواصل التطور بشكل عفوي، إذ نلاحظ لدى جماعات ديولا تراجعا لزراعة الأرز المكثفة القديمة، التي تشكل أساس عيش الجماعة المنغلقة على نفسها، لصالح زراعة الفول السوداني ذات الطابع التجاري والتي تتطلب جهدا أقل. بالموازاة مع ذلك يتوغل الإسلام، منذ بداية الفترة الاستعمارية، في بلاد ديولا من خلال تلاحم مع جماعات المنادينغي خاصة شمال كازامانس. كما نلاحظ علاقة تناسبية واضحة بين الزراعات المختلفة والعوامل الدينية، ففي المناطق التي انتشر فيها الإسلام سابقا (الضفة اليمنى لكازامانس)، تغطي زراعة الفول السوداني 43من الأراضي مقابل 28 لزراعة الأرز؛ وفي المناطق التي تشهد انتشارا للإسلام (جزر كازامانس)، يغطي الفول السوداني 31من الأراضي والأرز 54؛ بينما في الجهات التي ظلت وثنية تماما في الضفة الجنوبية للنهر، فيشكل الفول السوداني 8و الأرز 90، فزراعة الأرز ترتبط بالوثنية، فيما يشهد المجتمع الديولي اليوم تفككا في أطرافه على الأقل، بينما بدأ يتقوى داخليا في القطاعات المنيعة من خلال

(1) Barbour, 1961, p. 174-75.

تزايد ديمغرافي كبير[1]. وفي غينيا السفلى، تعرف جماعات الباغا (Baga) القليلة العدد (حوالي عشرين ألف) والتي تمارس زراعة الأرز هيمنة متزايدة لجيرانهم السوسو (Soussou) الذين يدمجونهم بوتيرة سريعة[2] وتعلموا منهم في مقابل ذلك زراعة الأرز التي ساعدت جهود الإدارة البريطانية على انتشارها في سيراليون. فبينما تنتشر زراعة الأرز يختفي ممارسوها، في الوقت الذي يظل فيها تقدم تقنيات الزراعة المكثفة هشا. فمن جهة لا يستطيع قدامى الفلاحين المطرودين نشر أساليبهم الزراعية المتقنة في البراري، ومن جهة أخرى يرجح أن تتفكك بنياتهم التقليدية أمام تقدم الإسلام.

ب. حركة إعادة الاستيطان القائمة على الزراعة المطرية في البراري

لا يجب أن ننتظر تأثيرا أكبر للاستعمار على الأقل في مجال الزراعة المطرية المتنقلة. فقد ظهر تأثيره في التطور الكبير الذي عرفته الزراعات التصديرية مثل زراعة الفول السوداني التي تفرز نتائج سلبية على الوسط الطبيعي وتفقر التربة، كما هو الحال بالنسبة لجماعات ولوف بالسنغال[3] أو في شمال نيجيريا[4]. ولأن زراعة الفول السوداني تقوم على التنقل فإنها لن تؤدي إلى استقرار الحياة الفلاحية. هذا وتعتبر زراعة القطن أقل ضررا وتبدو أكثر فائدة لفترة مؤقتة[5]، على أن قيمته في المدى البعيد تظل محل جدل. وفي السودان[6] آلت إلى الفشل تجارب تكثيف الزراعة واعتماد التدوير المنتظم في إطار زراعة مستقرة. كما أن محاولات نقل السكان المنظمة باتجاه الأراضي الفارغة بهدف إعمارها كانت مكلفة وبطيئة وذات مردود يثير

---

(1) Thomas, 1959; Pélissier, 1966, p. 795-807.

(2) Paulme, 1957.

(3) Pélissier, 1951; Péhaut, 1961; Pélissier, 1966, p. 97-182.

(4) Buchanan et Pugh, p. 138-40.

(5) Cabot, 1957 a.

(6) Barbour, p. 188, 192-93.

الجدل، كما حدث في شمال غانا[1]. أما محاولات إدخال الزراعة الآلية التي تمت على نطاق واسع شرق السودان في غادامباليا (Ghadambaliya) (غرب جدارف (Gedaref))، فقد اضطرت إلى التخلي عن السمسم واقتصرت على أنواع من السورغو لا تتطلب كميات كبيرة من المياه. ورغم أن بعض الرأسماليين الخواص حاولوا إتباع خطى الحكومة إلا أنه يصعب التكهن بمآل جهودهم[2]. ويظهر أن هذا هو مصير كل مخطط استيطان واسع النطاق في المجال الاستوائي الفقير، حيث يبدو وكأنه من العبث محاولة تحقيق أنماط راقية لشغل الأرض في مجال تحقق فيه الزراعة المتنقلة نتائج مشابهة بجهد أقل. لهذا يجب أن تتوقف جهود التهيئة على مشاريع صغيرة مثل إيجاد نقاط الماء وعقلنة زراعة الأشجار المثمرة التقليدية القائمة على القطف، من قبيل الكاريتي (Karité) في السودان الغربي[3]، كما أن هذه الجهود يجب أن تركز خاصة على إدخال أو تطوير زراعة الأرز المروية في الأماكن الصالحة لها[4].

جـ. تطوير النطاقات المروية

عمل الاستعمار على تكثيف الحياة من خلال مشاريع الري الكبرى في السهول والأودية المروية.

1. حقق هذا المسعى أكبر نجاحاته في السودان الشرقي (الإنكليزي-المصري سابقا) لأسباب عدة منها: أولا، وجود تقاليد محلية في مجال الزراعة المروية مرتبطة بشريط وادي النيل وبالتأثير الثقافي المصري القديم جدا؛ ثم العمل الاستعماري المبكر والذي ارتسمت بوادره منذ التوسع المصري السابق للفترة المهدية والذي بدأ منذ 1820. وقد ظهر التأثير المصري

(1) Hilton, 1960.

(2) Barbour, p. 194-98.

(3) Chevalier, 1943; 1948.

(4) Gallais, 1959.

من خلال إدخال زراعة القطن في مناطق الدلتا الشرقية: دلتا توكار الساحلية (دلتا البركة الذي ينزل من مرتفعات أريتريا) منذ 1867؛ ودلتا غاش الداخلية منذ 1865. على أن بداية التحول إلى الزراعة التجارية لم ترافقها مشاريع ري معتبرة، فحتى يومنا هذا لا تزال دلتا توكار على حالتها الطبيعية وتعتبر منطقة ذات نظام مائي متقلب يتقاسمها بدو المنطقة من بني عامر أو وكلائهم السود، ويعرف إنتاجها من القطن تذبذبا وتظل الحياة الفلاحية فيها تفتقر إلى الاستقرار[1]. هذا وقد كان التأثير البريطاني سريعا بعد غزو 1896-98، وارتكز على تطوير منطقة الجزيرة[2] داخل المثلث الذي يرسمه النيل الأزرق والنيل الأبيض، وبدأ هذا المشروع الكبير فعلا بأشغال سد سنار التي انطلقت في 1913، بينما فتحت القناة الرئيسية سنة 1925. وهذا ما أدى إلى تزايد مساحة المناطق المروية التي بلغت 400,000 هكتار في 1959، بالموازاة مع ذلك تواصلت تهيئة دلتا غاش (انتهى العمل في شبكة القنوات في 1926 بعد وصول السكة الحديدية إلى كسالا في 1923)، كما توسع نطاق الري التقليدي القائم على ضخ الماء في القطاع الصحراوي من وادي النيل شمال الخرطوم، وكذلك في القطاعات العليا بالاستفادة من ارتفاع الماء الناجم عن السدود (أعلى سنار في حوض النيل الأزرق وعلى طول النيل الأبيض). وقد ظل هذا النظام قائما على زراعة القطن التجارية، غير أن اعتماد نظام تدوير محكم يقوم على إراحة الأرض وزراعة الخضروات في مجال لم يكن فيه الضغط الديمغرافي كبيرا ويتوفر على أراض لا حدود لها ويمكنه التطلع لمردودية أكبر واستغلال جيد سمح بعدم إنهاك التربة وأدى إلى نتائج اقتصادية مرضية. هذا وتشهد قطاعات مناقيل المجاورة التي يتم استصلاحها الآن تطورات جديدة، وهناك الكثير من الراغبين في الحصول على أراض بكر، كما زالت المشاكل الأولى المتعلقة بندرة اليد العاملة (تطلب الأمر في البداية اللجوء

---

(1) Barbour, 1961, p. 229-33; Born, 1964 a.

(2) Gaitskell, 1959; Barbour, p. 200-215.

إلى أهالي غرب السودان). هذا ما يسمح لنا بالقول أن تهيئة السهول السودانية الطينية الكبرى عن طريق الري أسفرت عن نجاح مذهل لا غبار عليه.

2. لم تعرف إفريقيا الغربية تطورا مشابها وناجحا. ففي دلتا السنغال[1]، ظلت أعمال تهيئة منطقة ريشارد-تول صغيرة الحجم، كما أن تجربة زراعة الأرز الآلية الواسعة النطاق بالاعتماد على المياه العذبة لبحيرة غويرس (Guiers) مع بناء سد على نهر توي (Touey) لمنع تسرب المياه المالحة، كانت عملية خاسرة. وفي الدلتا الداخلية لنهر النيجر عرف أعمال التهيئة تحولا، ففي البداية مكنت السدود الكبرى من فتح مناطق جديدة للاستيطان، وتمت المحاولات الأولى في مجرى النهر بعد باماكو بين 1926 و1935 (خاصة سد سوتوبا (Sotuba) الذي أنجز بين 1925 و1929)، وانتهت بسد سانساندينغ (Sansanding) الكبير الذي بني بين 1935 و1941. وفي 1959، بلغت المساحة المروية 36,000 هكتار، استقر فيها 27,000 مستوطنا جديدا قدموا من شرق وجنوب جمهورية مالي الحالية وفي البداية من بلاد موسي. ويتواصل استصلاح الأرض بوتيرة 2,000 هكتار سنويا، وقد أدت المشاكل التي أحدثتها زراعة القطن (انعدام تربة طينية عميقة، وافتقار المزارعين لتجربة في هذا المجال، وكلفة النقل المرتفعة في بلد يقع داخل القارة) إلى تحول تدريجي إلى زراعة الأرز التي أصبحت الزراعة الرئيسية اليوم[2]. أما المرحلة الثانية فقد اعتمدت مشاريع ري أكثر عددا وأقل حجما[3]، كان الهدف الرئيسي منها التحكم في الفيضانات بتدعيم الرفع الطبيعي وتحسين المنافذ والدفع بحياة السكان المجاورين التي كانت تحوم حولها مخاطر كبيرة نحو الاستقرار[4]. وهذا هو طريق المستقبل، فالمناطق المتحكم فيها تتوسع بوتيرة

---

(1) Papy, 1951.

(2) Demangeon, 1938; Spitz, 1949.

(3) Guillaume, 1960.

(4) هذا ما حدث على سبيل المثال في ضفاف بحيرة فاغيبين (Faguibine): Dupeyron,

تقدر بحوالي 3,000 هكتار سنويا؛ وفضلا عن إيجاد مجالات جديدة، فإن عملية الاستصلاح يجب أن تكتفي بإقرار وتوسيع المراكز التقليدية بشكل معقول، كما يحدث فعلا في بلاد تشاد السفلى التي كانت تجهل تقاليدها زراعة الأرز باستثناء قطف كمية قليلة من الأرز البري، والتي فرضت فيها الإدارة الاستعمارية الزراعة خلال الحرب العالمية الثانية، قبل أن يستمر هذا التوجه عفويا في سهول نهر لوغون الأوسط، خاصة في بلاد بانانا (Banana)، حيث تبلغ الكثافة في التلال المكتظة بالسكان 100 نسمة في الكيلومتر المربع والتي أصبح فيها الأرز موردا مهما[1].

في الوقت الذي يطرح فيه تعمير البراري عن طريق الزراعة المطرية مشاكل شبه مستعصية، فإن تطوير النطاقات المروية يظل في مرحلة التجارب والتردد، ولم يبلغ مرحلة النضج سوى في السودان الشرقي (الإنكليزي-المصري سابقا). ومن الواضح أن إعادة رسم خريطة البراري الإفريقية التي أضرت بها مجالات الرعي والزراعة المعتمدة على الحرائق، تمر عبر تحول الزراعة المكثفة في الأودية الكبرى، ونفس الدور يمكن أن تلعبه زراعة الأشجار المثمرة في الهضاب[2]، غير أن هذا التوجه يظل بطيئا.

د. التطور المتواضع لحياة البداوة

يتأكد تواضع التطور الذي تشهده الحياة الريفية من خلال العناصر الحالية لاستقرار الرحل، رغم أن التوجه نحو الاستقرار لا جدال فيه، إذ تتقدم حياة الاستقرار وتتراجع مكانة الرعاة في البراري، ففي ساحل النيجر يواصل مزارعو البراري تقدمهم بحيث يدفعون نحو الشمال والشرق جماعات الرحل الكبار من البول البورورو (Peul Bororo) الذين دخلوا في صراع مع

.1959 وبخصوص تهيئة هذه المنطقة، أنظر: Tricart, 1961.

(1) Cabot, 1957 b.

(2) حسب الأفكار التي طرحها: Gourou, 1947.

توارق الصحراء الجنوبية الذين توغلوا بعيدا في الجنوب خلال توسعهم الحربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. غير أن هذه البداوة المزدوجة تظل نشطة، إذ يتحول البول شيئا فشيئا إلى الشمال في حركة مستمرة تتحول فيها خلال مواسم معدودة مجالات الرعي الشتوية (الصيف) في الشمال إلى قواعد دائمة يستقرون فيها في الفصل الجاف، وتصبح نقاط انطلاق جديدة لهجرات الفصل الرطب باتجاه الشمال، ولا يحدث الاستقرار الحقيقي إلا إذا عم الفقر وفقدت القطعان. وهناك جماعات كثيرة مستقرة أو شبه بدوية في ساحل النيجر تؤثر حتى الآن الرجوع إلى حياة بدوية تماما إذا ما سمحت لها ثروتها الحيوانية بالتخلي عن ممارسة الزراعة، ولا تشذ عن هذه القاعدة الجماعات المختلطة كثيرا بالسود[1]. أما بول الفرلو (Peul du Ferlo) في السنغال الداخلي في أطراف البقاع التي لم يصلها الاستيطان الزراعي الولوفي، فلا زالوا يحافظون على شبه بداوة كاملة، كما لا زالت الجماعة كلها تتنقل على مسافات كبيرة في الفصل الجاف[2]. ويبدو أن عملية الاستقرار تتم بشكل أوسع في مجال التوارق، كما هو الحال في منطقة بحيرات النيجر الأوسط، إلا أن القرى الجديدة أسسها في غالب الأحيان العبيد السابقون (إكلان (Iklan)، بيلا (Bella)، بوزو (Bouzou))[3]. ويعرف السودان تحولا بطيئا للبقارة في القز الجنوبي إلى حياة شبه بدوية، كما هو الأمر بالنسبة لجماعات شكرية (Shukriya) وحاحاوين (Hahawin) في منطقة بطانة (Butana) في السودان الشرقي، التي تقبلت حركة الاستقرار في سياق توسع المجال المروي في المنطقة[4]. في المجموع، نلاحظ أن الرعاة لا يساهمون بشكل محسوس في الاستيطان الحضري القار في البراري الذي بدأه

---

(1) حول تطور البداوة في ساحل النيجر، أنظر: .Dresch, 1959; Dupire, 1962

(2) Grenier, 1960.

(3) Galloy, 1963; Bernus, 1963; Nicolas, 1962.

(4) فيما يتعلق بالسودان عموما، أنظر: .Barbour, 1961, passim وبالنسبة للبقارة: .Cunnison, 1966 وبخصوص منطقة بطانة: .Awad, 1964

المزارعون باحتشام. وفي مقابل سرعة وتيرة الاستقرار في المناطق الجافة من الشرق الأدنى، تحدث هنا تحولات بطيئة جدا، بحيث يتجلى التأخر البشري للأطراف الاستوائية الإفريقية.

4. الهند

1. من الصعب وضع تقييم دقيق لآثار الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام في شمال غرب الهند. ويظهر أن التوازن الذي كان قائما بين السكان الرحل والسكان المستقرين لم يتغير بشكل كبير. وقد ارتسم ضغط رعوي كبير في كل البراري والأدغال الجافة لشمال غرب الهند منذ الغزو الآري انطلاقا من منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد، حيث تأقلمت مواشي الآريين شيئا فشيئا مع المجال الاستوائي. ويمكن ربط التصحر الذي تسبب فيه الإنسان في منطقة ثار (Thar) بهذا الانتشار الأول للحياة الرعوية[1]. ولم يكن الفاتحون العرب سوى أقلية صغيرة، فيما كان شمال غرب الهند مجالا للغارات أكثر منه مجالا للاستقرار الدائم بالنسبة للقبائل الأفغانية أو التركية القادمة من الأراضي المرتفعة والتي لم تستطع التأقلم فيه. ولا توجد مشاكل توازن معقدة سوى في جبال سليمان بين قبائل محاربة شبه بدوية، من قبيل المشكلة التي نشأت في الهضبة الواقعة شرق كويتا (Quetta)[2]، حيث اضطرت قبيلة مري البلوشية ذات التزايد الديمغرافي الكبير إلى البحث عن تفاهم مع جيرانها في الشمال للحصول على مراع إضافية خلال فصل الصيف (خاصة لدى الباثان (Pathans) الجنوبيين الذين تغادر مراعيهم في الصيف باتجاه أفغانستان جماعات بويندا (Powindah) لقضاء الشتاء في أراضيها). أما في سهول السند فلم يشكل الرحل سوى عناصر ذات مكانة اجتماعية دنيا، خاصة شرق نهر السند .(Indus) والملفت للانتباه أن الحدود "القبلية" في

(1) Rathjens, 1959.

(2) Barth, 1964, a et b.

الهند كانت تمر دائما، في عهد المغول كما في الفترة البريطانية، عبر المناطق ذات التواجد السكاني الأفغاني (الباثان) أي التلال الشمالية الغربية. وقد أبدى أشباه البدو الجبليين هؤلاء[1] مقاومة مستعصية في وجه السلطات القائمة في السهل، بينما لم يطرح بدو السهول مشكلة صعبة أبدا.

2. وفي الهيمالايا (Himalaya) سرعان ما توقف التوسع البدوي. ورغم أن البدو تمكنوا من الهيمنة على الأودية الواقعة في أقصى الغرب إلا أن ذلك لم يغير بشكل محسوس من نمط شغل الأرض. ويعتبر وادي سوات (Swat) (الرافد الأيسر لوادي كابول في حوض بيشاور (Pashavar)) مثالا حيا في هذا الشأن، فهو منطقة كانت تمارس فيها الزراعة المروية منذ القدم، حيث يطلق عليها هيون-تسيانغ (Hiouen-Tsiang) اسم أوديانا (Udyâna) أي البستان[2]، قبل أن تخضع لقبائل الباثان في القرن السادس عشر، الذين لم يعودوا في تلك الفترة من البدو الكبار، كما يدل على ذلك انحصار اهتمامهم في جوف الوادي وتركهم مراعي منحدرات الجبال والقمم لعناصر أخرى من الكوهيستانيين (Kuhistani) والقوجار .(Gujar) في مقابل ذلك كان التنظيم القبلي في شكل أسر كبرى ذات طابع عصبي، لا يزال راسخا، واكتفى الوافدون الجدد بتوزيع دوري للأرض بين مختلف العصب، ولم يتأكد نظام الملكية هذا إلى حوالي سنة 1930 بتشكل ملكيات أرستقراطية كبرى، غير أن ذلك لم يغير من نمط استغلال الأرض المعتمد من طرف السكان الأصليين الذين تم استعبادهم وتحولوا إلى الإسلام واندمجوا، في الوقت الذي ظلت فيه تقاليدهم الزراعية حية وتم تبنيها دون تغيير[3]. وفي شرق الإندوس ظل البدو والرعاة يشكلون أقليات معزولة ينحصر مجالها في المراعي الجبلية التي ترتفع فوق الأحواض وبطون الأودية المستغلة بإتقان، وكانوا يشتغلون في

(1) Spain, 1963.

(2) trad. Beal, I, p. 119-135.

(3) Fautz, 1963.

بعض الأحيان لصالح المزارعين المستقرين في الأودية الذين كانوا يكلفونهم بالسهر على رعي قطعانهم في الجبال خلال الصيف، كما هو الحال في كشمير[1]، حيث يوجد نظام تراتبي معقد، فمراعي الجبال العالية (بين 3,000 و4,000 متر) تسكنها جماعات الباكيروال (Bakerwal) من كبار البدو مربي الماعز الذين يقضون الشتاء في هضبة سفوح جبال سيواليك (Siwalik) والبنجاب (Punjab)، وقد لجؤوا إلى كشمير فارين من شمال غرب الهند حيث حاولت الإدارة البريطانية توطينهم، ويحتل القوجار (Gujar) الطبقة الواقعة أسفل منهم، وقد كانوا في السابق بدوا كبارا يربون قطعانا ضخمة ويقضون الشتاء في سهول البنجاب التي طردهم منها بالتدريج انتشار الري، وهم يستقرون اليوم أكثر فأكثر في الأودية العليا المحيطة بحوض كشمير على ارتفاع يتراوح بين 1,900 و2,400 متر. ومن الواضح أننا بصدد بقايا البداوة التي انبثقت عن الضغط الحضري في البلاد المنخفضة واضطرت إلى الاكتفاء بالمناطق الفارغة الواقعة في أعالي المرتفعات، ولم تهدد هذه البداوة أبدا الحياة الريفية بالهيمالايا.

لا غرابة إذن في أن الإسلام لم يسفر في العالم الهندي عن تطور بداوة حقيقية. فالمحاربون الراجبوتيون الذين واجهوا الإسلام على طول حدود ثار الصحراوية وفرسان الحلف المهاراتي الذين قامت قوتهم على أنقاض الإمبراطورية المغولية في الهضاب الشبه الجافة المعشوشبة التي فقدت غطاءها الغابي في المساحات البركانية غرب دكان (Deccan) والتي ساعدت على انتشار فرقهم، لم يكن في إمكانهم التخلي عن قاعدة ريفية صلبة.

2. هذا ما جعل تقدم وتراجع الزراعة يتأثر أكثر بالتقلبات السياسية وأساليب القهر أو الحماية التي انتهجتها مختلف السلطات التي اهتمت بالمجتمع الفلاحي. ورغم الخراب والدمار اللذين أعقبا الغزوات الخارجية

---

(1) Uhlig, 1961.

مثل تلك التي قادها تيمور نهاية القرن الرابع عشر، فإن تراجع الحياة الريفية الذي بلغ أوجه خلال الفترة الإسلامية السابقة للمغول والتي سادت فيها الأسر الحاكمة الأفغانية (و التركية خلال القرن الرابع عشر)، يمكن إرجاعه قبل كل شيء إلى الضغط الذي فرضته على الفلاحين الإدارة المغولية (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر)، ثم السيخية في البنجاب (1760-1849)، وكذلك للآثار المدمرة لنظام الزاميندار (zamindar) (جامعو الضرائب الذين تحولوا إلى ملاك أرض كبار)[1]. هذا وتغيرت وجهة التحول مع الاستعمار البريطاني الذي عمم الزراعة المروية في كل الجهات الواقعة بين الأودية في البنجاب، قبل أن يبدأ في تطوير الري على نطاق واسع في حوض وادي الإندوس حيث تستمر هذه العملية اليوم بوتيرة سريعة[2]، غير أن أعمال التهيئة هذه جاءت نتيجة الضغط الديمغرافي المعاصر لشبه القارة الهندية أكثر من كونها تعبيرا عن حركة إعادة إعمار.

3. إذا كان الإسلام لم يغير التوازن الريفي بين البدو والحضر فإن أثره ظهر جليا من خلال إقامة مستوطنات حضرية كانت منطلقا لتوسعه، فقد أثر الدين الإسلامي والحياة الاجتماعية المرتبطة به بعمق في مشهد المدن التي كانت في أغلب الأحيان عواصم سياسية لدول خاضعة للهيمنة الإسلامية وواقعة بعيدا عن الحدود الرئيسية للإسلام. وتعتبر مدينة حيدرأباد[3] نموذجا في هذا الشأن، فهي تقع في أقصى شرق المساحات البركانية لدكان في الحدود الفاصلة بين بلاد ماهارات (Maharatte) وبلاد تيلوغو (Telugu)، وقد أسست سنة 1591 من طرف محمد قلي قطب شاه، ملك غولكوند

(1) Whyte, 1961, p. 112-113.

(2) أنظر الحوصلة التي أنجزها في هذا الصدد: Ahmad, 1964, p. 48-63.

فيما يخص السند، أنظر: Gulick, 1963.

أما فيما يتعلق بالمشاكل التي طرحها تقسيم الهند، راجع: Ahmad, 1959.

(3) Haberland, 1960.

(Golconde)، في موقع سهلي بجوار مدينة غولكوند القديمة المحصنة، في وقت سادت فيه علاقات سلمية مع إمبراطوريات الجنوب الفيجاناغارية (Vijanayagar). وأصبحت حيدرأباد مركز إمارة مستقلة قامت على أنقاض الإمبراطورية المغولية، ثم صارت عاصمة دولة آندرا (Andhra) التيلوغية، وظلت تعكس التأثير المستمر لأقلية من الحكام والأرستقراطيين المسلمين على أكثرية هندوسية، حيث تهيمن لغة الأوردو (Urdu) (43,6في 1951 مقابل 42,6للغة التيلوغو) وإن كانت تشهد تراجعا نسبيا (41,7في 1931 مقابل 37,1للتيلوغو). ولا زال العدد الكبير من الخدم العاملين لدى الطبقة الراقية المسلمة يطبع البنية الاجتماعية للمدينة (حيث يشكلون حوالي نصف السكان العاملين في مجال "الخدمات" : 51,3هذا ولا نتوفر، هنا أو في أي مكان آخر، على دراسة تبرز الملكية العقارية للطبقة المسلمة في الجهات الريفية المجاورة للمدينة، غير أنه يمكن الجزم بأن هذه الملكية معتبرة. وتتألف بيوت النبلاء المسلمين المعروفة بالديوري (Deori) من طابق علوي ويحيط بها سور عال يفصلها عن الشارع، وتنفتح على باحة داخلية تعكس الحياة الأسرية الإسلامية المنطوية على نفسها. أما مخطط حيدرأباد فهو غير منتظم، تتخلله شوارع ضيقة تحيط بنقاط التقاء مستقيمة للشوارع الرئيسية، وهو يعبر في الوقت ذاته عن التنظيم العام للمدينة الأميرية الإسلامية وفوضى التفاصيل التي تطبع المدن الإسلامية. وتوجد أحياء يختلط فيها الهندوس والمسلمون إلى حد كبير، غير أن المسلمين أكثر عددا في مدينة حيدرأباد القديمة، بينما يشكل الهندوس أغلب سكان اسكندرأباد (Sikanderabad) وهي الجزء الجديد من المدينة الذي أنشئ منذ 1806 حول المعسكر البريطاني.

و تجدر الإشارة إلى أن الهياكل العمرانية الإسلامية عرفت نوعا من التراخي في الوسط الهندي، فالبازار أو الحي التجاري المتخصص الذي يعبر بوضوح عن التأثير الإسلامي، لم يعد حيا تجاريا بحتا، فهو بالإضافة إلى ذلك حي سكني يقطنه الحرفيون الذين اتخذوا بيوتا فوق أو خلف دكاكينهم،

مما يختلف عن النمط السائد في الشرق الأوسط[1]. كما ترافق تطور عاصمة البنغال المغولية دكا (Dacca)، وهي مدينة جديدة ذات تخطيط عمراني رسمي أنشئت سنة 1610 شمال غرب مدينة صغيرة سابقة، مع تطور مدينة هندوسية يقيم في بازاراتها تجار يخضعون لنظام الطبقات[2]. وعلى العكس من ذلك نشأت تجمعات إسلامية هامة بجوار مدن هندوسية أساسا، مثل بناريس (Bénarès) حيث أنشئت أحياء إسلامية بحتة تأوي حول المدينة القديمة حرفيين متخصصين في نسج الحرير في البيوت والذي يعتبر النشاط الرئيسي للمدينة، على أن البنية العمرانية لا تمت للنمط الإسلامي بشيء، فالضواحي الإسلامية تجمع بين العمل والسكن ولا تخضع لنظام البازار[3]، وإن كان المسلمون يشكلون نسبة كبيرة من سكان المدينة (حوالي 20، ولا نجد مدنا لم تعرف التأثير الإسلامي إلا في أقصى جنوب دكان.

4. خارج الحدود الرئيسية للإسلام، توجد حالة فريدة لتحول كبير للإسلام وهي حالة البنغال، ويمكن تفسير هذا الوضع الاستثنائي بالظروف التي كانت سائدة قبل انتشار الإسلام. فالبنغال هي أكثر مناطق السهل الهندي-الغانجي رطوبة وظلت إلى فترة متأخرة غابة منيعة تعثرت أمامها قبائل الرعاة الآريين القادمة من الهضاب والتي وجدت في هذا المجال الغير المناسب لقطعانها حدودا لتوسعها، كما أنها وصلت إليها في آخر مرحلة من توسعها، مما يصنف البنغال، مع بعض الاختلافات، ضمن مجال الغابات الساحلية الواقعة على هامش الهضاب الجافة والتي استفادت في العصور الحديثة من تراكم سكاني قلب التوزيع القديم للسكان. ولم يصل الآريون إلى البنغال إلا في زمن موريا (Maurya) (القرن الثالث قبل الميلاد)، ولم يبدأ استيطانه إلا في فترة غوبتا (Gupta) (القرنان الرابع والخامس بعد الميلاد)،

---

(1) Humlum, 1954.

(2) Karim, 1964.

(3) Singh, 1955.

ولم يتم توغل الآريين في إطار جماعات منظمة طبقية على نطاق واسع، وإنما اتخذ شكل تسرب لعناصر رائدة قليلة منعزلة استقرت في فرجات الغابات، كما لم يكن العنصر البشري الوافد إلى البنغال من نخبة مجتمع شمال الهند وإنما ضم مغامرين هامشيين وأفراد لا ينتمون لنظام الطبقات هاجروا هربا من النظام الصارم للمجتمع الهندوسي. واندمجت هذه العناصر مع شعوب سبقت الوجود الآري من السنتال (Santal) والبودو كاشاري (Bodo Kachari). وتعبر نشأة اللغة البنغالية عن التميز الثقافي عن باقي السهل الغانجي. ولعب التجار دورا كبيرا في تنظيم هذا المجتمع الهامشي، كما تدل على ذلك نصوص تعود لزمن مبكر تخص العطايا المقدمة للمعابد وتذكر إقامة تجار قرب مراكز الرواد الأولى. ومن الطبيعي أن هذا المجتمع الذي لم يكتمل تنظيمه والمعادي للهياكل الهندوسية التقليدية والذي كانت طبقات التجار تتمتع فيه بسمعة كبيرة، وفر تربة خصبة للإسلام منذ فتوحات القرن الثالث عشر[1]. في الوقت ذاته لم يدخل الإسلام منطقة آسام (Assam) لأنها كانت شبه فارغة من السكان في فترة الفتح الإسلامي، كما أن المسلمين لم يبذلوا جهدا كبيرا لتعميرها.

---

(1) Ghosh, 1959.

مختارات بيبليوغرافية

1. إفريقيا السوداء :

أ. الكتب العامة :

بالإضافة للكتب القديمة لـ : ;Weulersse, 1934 c; Maurette, 1938 Bernard, 1929؛ يمكن الرجوع إلى أحدث دراسة حول إفريقيا الغربية أنجزها : .Harrison Church, 1957 كما أن كتاب : (Gautier, 1935) يظل مهما غير أنه يجب توخي الحذر في استعماله. كما يمكن استنتاج الكثير من مجموعة بحوث : .Richard-Molard, 1949 et 1958

ب. دراسة حالات الدول والأقاليم :

إفريقيا الغربية : NPANO, 1963؛ نيجيريا : Buchanan et Pugh, 1955؛ تشاد : Le Rouvreur, 1962؛ السودان : ;Barbour, 1961; Schultze, 1963 Lebon, 1965. أما فيما يخص وضع مسلمي إثيوبيا وظروف المقاومة الحبشية يمكن الرجوع إلى : .Simoons, 1960; Grotanelli, 1939

جـ. جماعات الرحل :

البول : .Tauxier, 1937; Hopen, 1958; Stenning, 1959; Dupire, 1962

الصوماليون : .Lewis, 1961

د. ظروف انتشار الإسلام والتاريخ الديني : توجد أدبيات كثيرة بهذا

الخصوص، على أن أفضل مجموعة دراسات أنجزها تباعا : Trimingham, 1949, 1952, 1959, 1964 . هذا ويتوجب الرجوع كذلك فيما يتعلق بإفريقيا الغربية إلى دراسات : Marty, 1915-16, 1917, 1918-22, 1921 a et b، والتي تظل مصدرا أساسيا رغم قدمها. كما يمكن الاعتماد على الدراسات التي جمعها : I. M. Lewis, 1966.

هـ. **المعالم التاريخية** : توجد في : Mauny, 1961 (بالنسبة لإفريقيا الغربية)، وكذلك : Cornevin, 1960 (فيما يتعلق بعمليات النشوء الإثني المختلفة).

2. الهند :

الكتب الأساسية هي : Sion, 1929; Krebs, 1939; Spate, 1954; Ahmad, 1964. ولا توجد دراسة جغرافية إقليمية جيدة ذات توجهات تاريخية.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثامن

بحار الجنوب

تختلف النتائج الأثروبولوجية والجغرافية لانتشار الإسلام في منطقة المحيط الهندي عن ما تعرضنا له حتى الآن، باستثناء بلاد الهند التي كان دور ظواهر انتشار البداوة والآثار السلبية محدودا فيها إلى حد كبير. وكما هو الحال بالنسبة للهند كان للإسلام الذي انتشر بفضل البحارة دور خلاق وغير مدمر، فقد نقل مغامرو البحر هؤلاء، خلال حملاتهم التجارية، إلى السواحل الاستوائية، بذور الحياة المدنية والحضارة، حيث كان الإسلام في هذه البقاع بمثابة الإسمنت لدول منظمة وبذرة لحياة اجتماعية راقية. وسنحاول فيما يلي أن نقيم بدقة مدى تأثيره الفعلي.

1. الأدوات

أ. الملاحة البحرية

1. اكتملت العناصر الرئيسية لنظام المواصلات البحرية في شمال غرب وشمال المحيط الهندي قبل ظهور الإسلام[1]. فبعد الغزوات البحرية المصرية ببلاد بونت وأوفير (Pount et Ophir) التي يبقى تحديد موقعها

(1) Hourani, 1951, chapitre I, p. 3-50; Toussaint, 1961, chapitres II, III et IV, 1, p. 13-48.

غامضا، وبعد انجذاب سكان السواحل الجرداء ودواخل الخليج العربي نحو سواحل الهند منذ زمن مبكر، خاصة بسبب وفرة أخشابها الثمينة خاصة خشب التك المقاوم للتعفن والذي يشكل المادة الأولية الأساسية لبناء السفن، وجدت علاقات منتظمة، بدأت على عهد السلجوقيين (Séleucides) والبطولوميين (Ptolémées)، وربطت بين الإمبراطورية الرومانية من جهة وجنوب الهند من جهة أخرى، خاصة بواسطة إغريق مصر. ويقدم لنا كتاب "رحلة بحر أريتريا" (Périple de la Mer Érythrée) وصفا دقيقا عن هذا النشاط[1] الذي كان يقود البحارة إلى رابتا (Rhapta) (عند تخوم زنجبار) على ساحل شرق إفريقيا وإلى جزيرة سيلان. وعشية الهجرة النبوية كان الدور الرئيسي في ملاحة المحيط الهندي من نصيب البحارة الفرس الذين امتد تأثيرهم إلى سواحل عمان[2]، وكذلك البحارة التاميل من جنوب الهند الذين يرجح أن رحلاتهم إلى دواخل الخليج العربي كانت قد بدأت منذ العهود القديمة[3]، والذين كان لهم دور فعال في هذا النشاط[4]. من جانب آخر، تظل علاقات البحارة الصينيين المباشرة مع منطقة الخليج العربي قبل الهجرة محل جدل وتبقى المعلومات المتوفرة بهذا الشأن غامضة[5]، مع الإقرار بوجود تبادلات مع الصين عن طريق البحر وإن كان ذلك يتم عبر مراحل.

لقد سمحت هذه الرحلات البحرية باستكشاف كل الطرق الممكنة.

(1) لا يزال النقاش قائما حول تأريخ هذا الكتاب، حيث تحدده النظرية الكلاسيكية في القرن الأول قبل المسيح، بينما هناك نظرية أخرى ترجح القرن الثالث الميلادي (Pirenne, 1961).

(2) Hourani, 1951, p. 36-46.

(3) Mookerji, p. 60.

(4) Ibid, passim, notamment p. 82-98, 118-119.

(5) من المؤيدين لنظرية وجود هذه العلاقات، نذكر: Ferrand, 1945. بينما يعارض هذه النظرية أو لا يقر بوجود أدلة عنها: Hourani, p. 46-50، غير أن هذا الأخير يجهل عمل فران.

فبالإضافة لعمليات الشحن والتفريغ على طول سواحل الجزيرة والخليج العربيين ورحلات الشتاء التي تسخر الرياح الموسمية العرضية الشتوية والتي كانت تقل البحارة الغربيين حتى جنوب الهند، تعززت هذه العلاقات البحرية باكتشاف الرحلة المباشرة والسريعة عبر أعالي البحار والتي تسخر الرياح الخلفية الموسمية الصيفية الجنوبية الغربية، والتي يرجع بلين (Pline) الفضل في اكتشافها إلى هيبال (Hippale)[1]. وكانت سفن إغريق مصر المتينة المركبة بواسطة المسامير قادرة على القيام بهذه الرحلة دون التعرض لخطر أمواج موسم الصيف العاتية. في المقابل كانت سفن أهالي بحر أريتريا الخفيفة تكتفي بالطرق البحرية الساحلية والشتوية، فهي مبنية بواسطة جذوع النخل وخشب التك التي يتم ربطها بأوراق النخل من دون مسامير، وهذا النوع من السفن كان لا يزال مستعملا لوحده تقريبا عبر هذه البحار عند وصول البحارة البرتغاليين[2].

2. في بداية الأمر لم يأت الإسلام بالجديد في مجال المواصلات البحرية في المحيط الهندي، فعرب الحجاز ووسط الجزيرة العربية، الذين حملوا راية الدين الجديد في البداية، لم يكونوا بحارة، وإن وجد في القرآن الكريم ذكر لأمور البحر، حيث ترتبط رحمة الله تعالى بفوائد ومخاطر البحر، كما أن الملاحة البحرية المعتمدة على النجوم كانت معروفة. هذا وقد كان للقرشيين، من دون شك، علاقة ببلاد الحبشة عبر البحر الأحمر، غير أنهم لم يمتلكوا سفنا خاصة بهم، كما يدل على ذلك عدم قدرتهم على متابعة المطاردين عبر البحر[3]. وفي البحر المتوسط، استعان العرب بأقباط مصر لتشكيل أول قوة بحرية خاصة بهم والتي عززوها بقوتهم العسكرية المحمولة

---

(1) Hourani, p. 24-28.

(2) Ibid., p. 89-98.

(3) أنظر في هذا الشأن: Barthold, 1929، ومن بعده: Hourani, p. 45.

بحرا[1]، علما بأن التوسع في البحر المتوسط لم يكن سوى هدفا ثانويا بالنسبة للخلافة الإسلامية، وكان عنصرا مهملا وهامشيا ضمن طموحاتها، رغم نتائجه الهامة المتمثلة في إحداث شرخ في وحدة منطقة البحر المتوسط[2].

أما في بحار الجنوب، فقد كان العنصر العربي يشكل نسبة متواضعة من مجمل البحارة، وذلك منذ أن تراجعت قوة حمير في القرن السادس الميلادي[3]. هذا وقد تعلم العرب فن الملاحة البحرية أولا عن طريق الفرس، الذين أقاموا، في عهد الساسانيين، أرستقراطية بحرية حقيقية حول الخليج العربي، وامتد تأثيرهم إلى عمان المنطقة العربية الوحيدة التي حافظت منذ العهود القديمة على علاقة بحرية مستمرة مع بلاد الهند[4]. هذا وقد سبق إبراز عدد وأهمية العبارات المستعملة في المجال البحري التي أخذها العرب عن الفرس[5]، فإن كانت كلمة "زنج" التي تطلق على سكان ساحل إفريقيا الشرقية السود مستعملة منذ القدم وليست من أصل فارسي[6]، إلا أن كلمات فارسية مهمة انتقلت إلى العربية من قبيل: بندر التي تعني الميناء والتي اشتقت منها كلمة بنادير التي تطلق على ساحل الصومال؛ ورحماني: كتاب التعليمات البحرية؛ ونخودة: قائد السفينة؛ ودفتر: تعليمات الملاحة؛ وغيرها من الكلمات من قبيل أسماء فروع دائرة الرياح، والتي تؤكد كلها عمق التأثير الفارسي. وقد استفادت أول ملاحة بحرية إسلامية في بحار الجنوب من

(1) Fahmy, 1950; Hourani, p. 53-60.

(2) أنظر بهذا الخصوص: Hoerenbach, 1950-55، بعد نظرية بيران الشهيرة.

(3) Hourani, p. 43.

(4) Sauvaget, 1948 b.

(5) Ferrand, 1924.

(6) كما بين ذلك حوراني، هامش الصفحة 39، خلافا لفران، فإن الكلمة مستعملة في بطوليمي ورحلة بحر إرتريا، في زمن سابق بكثير لبداية التوسع البحري الفارسي.

معارف الفرس في هذا المجال، بحيث كان لهم دور يشبه دور مدرسة مسيحيي مصر في المتوسط. ومما يؤكد قابلية الثقافة البحرية العربية لإدماج معارف غيرها من الثقافات استخدام مفردات بحرية مختلفة تماما بين نطاق البحر المتوسط من جهة، ومجال بحار الجنوب من جهة أخرى، خاصة ما يتعلق منها بأسماء السفن[1].

3. على المدى الزمني الطويل يمكن ملاحظة تطورات جديدة كثيرة. أولها تعزز الصلات البحرية مع الشرق الأقصى، حيث نشأت علاقات مباشرة بين العالم العربي والصين، جسدتها إقامة مستعمرة إسلامية مهمة في مدينة كانتون، استمر ازدهارها حتى مجزرة عام 878، ويرجح أنها استمرت بعد ذلك[2]، كما اعتاد البحارة الصينيون على ارتياد مياه الخليج العربي بشكل منتظم. ويمكن تفسير تطور العلاقات بين مناطق متباعدة بفترة تاريخية فريدة من نوعها شهدت ازدهار وثراء البلاط والمجتمع العباسيين خلال القرن الذي عقب إنشاء مدينة بغداد سنة 762، وميزها تزايد الطلب على المواد الكمالية الراقية. وخلال هذه الفترة تحديدا دونت الرحلات والتعليمات البحرية (Relations de Voyages et Instructions Nautiques) التي تخبرنا عن معرفة البحارة العرب بالشرق الأقصى، بدءا بـ"رحلة الصين والهند" التي تنسب حصرا وخطأ لتاجر وحيد هو سليمان (851)، ووصولا إلى تعليق أبي زيد الصيرافي حولها (حوالي 916)، و"كتاب عجائب الهند" المنسوب لقائد السفينة بوزورغ (الذي ألف على الأرجح بعد أواسط القرن العاشر)[3]. بعد هذه الفترة لم يوجد نص جديد، لمدة خمسة قرون ونصف، قبل ظهور

---

(1) أنظر على سبيل المثال: Gildemeister, 1882.

(2) Hourani, p. 77.

(3) جمعت هذه النصوص وترجمت في كتب:
Reinaud, 1845; Devic et Van der Lith, 1883-86; Ferrand, 1913-14; Sauvaget, 1948 b.

التعليمات البحرية لابن مجيد في القرن الخامس عشر، ويفسر هذا الانقطاع ببساطة توقف حركة الملاحة البحرية[1]. هذا ومنذ نهاية القرن التاسع أضعفت ثورة الزنج وتمرد القرامطة بشكل كبير الدولة العباسية، كما تقلصت المواصلات البحرية البعيدة المدى بسبب تراجع الطلب على المواد الكمالية، الذي كان الطابع المميز للازدهار الكبير الذي شهده العراق والذي ولى إلى الأبد. وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت معارف ابن مجيد - الذي تولى إرشاد فاسكو دي غاما في استكشافاته - وخلفائه[2] بإندونيسيا أقل منها ببحار الهند، حيث انحصر نشاط البحارة العرب في الجزء الغربي من المحيط الهندي.

4. إضافة إلى هذا حدثت تطورات مهمة في فن الملاحة البحرية :

أ. فقد اكتمل نظام الملاحة البحرية العربية القائم على دائرة الرياح الفلكية في القرون الهجرية الأولى، ويمكن تحديد زمن ابتكار نظام الملاحة هذا بشكل دقيق، فهو متأخر عن التأثيرات الفارسية على الملاحة البحرية العربية أي أنه ظهر بعد الهجرة، كما يدل على ذلك إدماج العديد من المفردات الفارسية ؛ من جهة أخرى فإن خلو المفردات الفلكية من التأثير الإغريقي يرجح أن اعتماد نظام دائرة الرياح سابق للقرن التاسع الذي ازداد فيه التأثير الإغريقي على المفردات العربية. كل هذا يجعلنا نعتقد أن نظام دائرة الرياح اكتمل في القرن الثامن الميلادي في المحيط الهندي وتحديدا في المنطقة الواقعة 10 درجات شمالا، حيث يسمح انتظام الرياح الموسمية وصفاء الجو والموقع العرضي المنخفض بتحديد مواقع النجوم القارة المتقاطعة مع خط الأفق حسب زوايا كبيرة. كل هذه العوامل شجعت على

---

(1) Sauvaget, 1948 a.

(2) Ferrand, 1922, 1925.

في ماليزيا لم يتعرف العرب بشكل كبير سوى على شمال غرب شبه الجزيرة. أنظر: Wheatley, 1961, p. 232.

تبني نظام استفاد من جهة أخرى من المعارف الفلكية القديمة البابلية منها ثم الإغريقية العربية التي انتشرت في المراكز الحضارية للمنطقة[1]. وقد ظل نظام دائرة الرياح معتمدا في بحار الجنوب حتى وصول الأوروبيين إلى المنطقة في القرن الخامس عشر. كما أن البحارة العرب لعبوا دورا حاسما عندما نقلوا استعمال البوصلة للأوربيين، فالبوصلة اختراع صيني يرجع على أقل تقدير إلى القرون الأولى للميلاد، وثبت وجودها في منطقة الخليج العربي نهاية القرن الحادي عشر[2]، ووصلت إلى العالم الغربي بواسطة الصليبيين، غير أن ضعف طرق المغنطة، قبل اكتشاف الغرب لطريقة المغنطة الدائمة ووضع محور لها، بالإضافة إلى سهولة الملاحة البحرية المعتمدة على علم الفلك، لم تسمح بتطوير البوصلة وبلوغها النجاح والانتشار الذي عرفته فيما بعد تحت غمام سماء البلاد المعتدلة المناخ.

ب. يوجد ابتكار آخر عرف رواجا كبيرا خارج موطنه الأصلي، ويتعلق الأمر بالشراع ذي الشكل المستطيل غير المنتظم وغير المتعادل بالنسبة للريح والذي يكون في وضعية ارتخاء طولية بالنسبة للسفينة، وقد انتشر هذا النوع من الشراعات في البحر المتوسط واتخذ شكل الشراع اللاتيني المثلث. وكما هو معروف فإن العهود القديمة[3] لم تشهد سوى الشراع المربع المتعادل بالنسبة للصاري في وضعية ارتخاء عرضية. والشراعان المستطيلان، العربي منهما (المنحرف الشكل ذي الأجزاء السفلى الغير متساوية) واللاتيني (المثلث)، يتمتعان بقدرة على شق الهواء تفوق قدرة الشراع المربع ذي المساحة المتساوية، ويعود ذلك للعلو الكبير وصلابة حافتهما التي تشق الريح والتي تكون مربوطة بالصاري، بينما حافة الشراع المربع التي تشق الريح تكون

(1) Saussure, dans Ferrand, 1928.

(2) Ibid., p. 74-75.

(3) خصوصا ..Poujade, p. 122-140

معلقة في صاري أفقي وتكون مرنة ومتغيرة الشكل. وبما أنه في وضع أفضل لمواجهة الريح التي تهب أمامه فإن الشراع المستطيل يسمح أكثر من الشراع المربع بالارتفاع إلى الريح والملاحة بسرعة كبيرة، فهو يحاصر الريح بفاعلية أكبر، مما يجعل منه تطورا حاسما في فن الملاحة البحرية، اعتمدته البحرية الشراعية المتوسطية بشكلٍ تام.

ويوجد عدد كبير من التفسيرات التي تحدد مجال تطور الشراع المستطيل في منطقة الملاحة البحرية الإسلامية شمال غرب المحيط الهندي.

– فمن وجهة النظر الزمنية: يرجع أول ذكر للشراع المستطيل في البحر المتوسط (و إن كان لم يكتمل بعد في شكله اللاتيني المثلث) لمخطوط بيزنطي مصور يعود إلى سنة 880، بينما الكتابات العربية التي تعود للقرنين التاسع والعاشر والتي تخص المحيط الهندي، تحوي صورا تشبه شراع سفينة ترى من بعيد بجناح حوت كبير أو بأعمدة الماء المنبعثة من داخله، مما يذكر بالرأس الرفيع للشراعات المستطيلة أكثر منها بالأشرعة المربعة. هذا ويوجد رسم لشراعات مستطيلة في نقوش في بوروبودور لم يحدد تاريخها بدقة والأرجح أنها تعود للقرن التاسع أو العاشر[1]. كل هذا يدل على أن اختراع الشراع المستطيل يرجع إلى بداية القرن التاسع على أقل تقدير. وعلى العكس من ذلك لا يوجد ما يؤكد وجود هذا النوع من الشراعات في المحيط الهندي في الفترة السابقة للإسلام، إذ أن اختراع هيبال (Hippale) الذي يسخر رياح الصيف الموسمية الخلفية لملاحة بحرية مباشرة تعتمد على صلابة سفنه ذات المسامير والتي كانت قادرة على مقاومة الأمواج العاتية، لا يمكن تخيله في ظرف عرف فيه الشراع المستطيل الذي يمكن من حصر الريح عن قرب، فاختراع هيبال ليس له معنى إلا في مجال بحري لا يعرف سوى الشراع المربع وكانت فيه الملاحة البحرية نحو الهند تتم بسفن

---

(1) Hourani, p. 102; Poujade, p. 147.

مخيطة تسلك في الشتاء الطريق الشمالي المحاذي لسواحل الجزيرة العربية الشرقية حتى لا تتعرض للريح العرضية الموسمية الشتوية حتى ساحل الهند الواقع إلى الجنوب بكثير. فاختراع هيبال لا يمكن تصوره إلا في إطار هذا النوع من الملاحة البحرية حيث تكمن أهميته في تحقيق ربح كبير للوقت[1]. من جهة أخرى، وفي الهند نفسها، وجدت قطع نقدية في إقليم أندرا (القرنان الثاني والثالث الميلاديين) على الساحل الشرقي تؤكد استمرار استعمال الشراع المربع، ونفس الأمر تؤكده قطع نقدية لمنطقة كورومبار (بالافا) الكورومنوديل (Kurumbar (Pallava) du Coromandel) معاصرة للعهد الساساني[2]. وهناك حجة دامغة تقدمها لنا رسوم مغارات أجانتا التي تعود للنصف الثاني من القرن السادس أو النصف الأول من القرن السابع[3] والتي تظهر شراعات مربعة. كل هذا لا يدع مجالا للشك في أن الشراع المستطيل انتشر شمال غرب المحيط الهندي في القرن الثامن أو القرن التاسع.

- أما من حيث المكان: فالمسلم به أن هذا الشراع ليس متأصلا في المتوسط حيث انتشر على حساب نوع أقدم منه واستمدت كلمة ميزان (misaine) من كلمة الميزان العربية[4]، ومن جانب آخر توجد شراعات مثلثة في منطقة المحيط الهادي. وإذا اعتبرنا أن انتشار الشراع المستطيل تم على الأرجح من الغرب باتجاه الشرق، في نفس اتجاه الهجرات البشرية والثقافية، وبالإضافة إلى وجود أشكال بدائية لهذا الشراع في مياه الهند الصينية، فإنه يتضح جليا بأن مركز انتشار الشراع المستطيل يقع غربا بما أن الأشكال البدائية تطرد نحو الأطراف حسب القانون الإثنوغرافي الأبدي[5]، كل هذا

---

(1) Hourani, p. 24-28.

(2) Mookerji, p. 24-36.

(3) Ibid., p. 28, fig. p. 32-33; Hourani, pl. 4, p. 35.

(4) Hourani, p. 103-104.

(5) Poujade, p. 148-151.

يدفع إلى البحث عن مركز انتشاره في شمال غرب المحيط الهندي. وقد تم اقتراح ساحل الهند الغربي[1]، إلا أننا نميل إلى رفض هذه النظرية لأن الشراع المستطيل لا وجود له في المياه الداخلية البعيدة عن التأثيرات الخارجية[2]، كما أننا نستبعد، في نفس الوقت ولنفس الأسباب، نظرية الأصل المصري[3]، رغم بداية تطور مماثل في مياه النيل السوداني، في المنطقة الواقعة بين الشلالين الثالث والرابع، حيث وجد النقار وهو شراع استعمل للملاحة نحو الشمال عكس ريح الصيف الشمالية، إلا أنه لم يتطور ولم يعرف انتشارا خارج نطاقه المحدود. ولهذا لا تبقى أمامنا سوى مياه الجزيرة العربية، وربما مياه الخليج العربي بالتحديد[4]، التي شهدت استعمال الشراع المستطيل للإبحار عبر مياه الخليج باتجاه الشمال عكس الرياح، ورغم هذا فالتساؤل الذي يبقى مطروحا هو لماذا تأخر هذا الابتكار إلى زمن الملاحة البحرية العربية بما أن المشكل كان موجودا قبلها بكثير. بالنظر للتواريخ التي يمكن حصر هذا الابتكار بينها، يرجح أنه تم في إطار حركة الملاحة البحرية الكبرى التي شهدها العصر العباسي والتي سمحت بتطور مواصلات كثيفة باتجاه الشرق بالاعتماد على الرياح الموسمية الشتوية، والتي كانت قائمة بشكل محدود عندما دخل البرتغاليون إلى المحيط الهندي.

5. إن هذه الفترة التي شهدت نشاطا كبيرا وإنجازات تقنية مهمة والتي يمكن تسميتها بفترة الملاحة البحرية العباسية الكبرى كانت فترة عابرة. فالثقافة البحرية ككل لم تعرف تطورا يذكر بعدها، حيث أن المحيط الهندي، في وقتنا الحاضر، يشكل متحفا بحريا مدهشا حيث

---

(1) Ibid., p. 158.

(2) Hourani, p. 101.

(3) Ibid., p. 102.

(4) Bowen, 1949, p. 9.

تستوقفك أحيانا سفن من النوع المخيط[1]، مما يجعلنا نتساءل عن أسباب هذا التحجر، والتي تأتي في مقدمتها الأسباب التاريخية الاقتصادية. فبعد القفزة التي عرفتها المبادلات والإنجازات التقنية بفعل ازدهار الخلافة العباسية، توقف هذا النشاط البحري بتوقف الملاحة البحرية الكبرى. فتجارة طريق الهند استعادت، حتى وصول الأوربيين، مميزاتها الطبيعية : "باعتبارها تجارة صغيرة الحجم لمواد مكلفة، يؤمنها، بين السويس وناغازاكي، عدد لا يحصى من الناقلين"[2]. فبعد الملاحة البحرية الكبرى المنتظمة ساد من جديد النظام غير المنتظم القائم على التفريغ والشحن على طول السواحل على مسافات قصيرة نسبيا والذي يستمد تبريره الاقتصادي وديمومته وقدرته التنافسية التي حافظ عليها حتى عصرنا هذا من كون السفينة ترسو في مكان ما لمدة طويلة وتصبح بالتالي دكانا حتى تنفذ البضاعة، مما يسمح بتوفير كلفة تفريغ وتخزين المواد[3].

و قد انجر عن هذا الوضع تراجع التأثير السياسي الإسلامي المحض عبر هذه البحار. وقد تم التأكيد على الدور الذي لعبه تحجر تقنيات بناء السفن في عجز البحارة العرب عن الخروج من نطاق الملاحة الخاص بهم، إذ لم تسمح لهم سفنهم المخيطة بأن يكون لهم السبق في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[4]، كما أن المحيط الهندي وقع في أيدي بحارة آخرين، أولهم الصينيون الذين وصلوا إلى سواحل إفريقيا الشرقية في القرن الخامس عشر[5]، وبعدهم البرتغاليون وغيرهم من الأوربيين، بينما انحصر نطاق البحارة العرب والفرس، كما بينا ذلك آنفا، في شمال غرب المحيط الهندي.

---

(1) بخصوص تصنيف السفن، أنظر: Hornell, 1942; Villiers, 1948; Bowen, 1949

(2) Van Leur, 1955, p. 219.

(3) Villiers, 1948.

(4) Moreland, 1939.

(5) Toussaint, p. 80-82.

على أن التأثيرات المتبادلة الأولى كان لها انعكاسات غير مباشرة، عميقة وطويلة الأمد على المستوى البشري وعلى مستوى التقنيات البحرية، حيث وضعت أسس ثقافة وحضارة مشتركة سمحت، عبر مراحل عديدة، بنشر الإسلام أبعد بكثير من حدود الملاحة البحرية العربية الفارسية.

ب. العنصر البشري

1. من هم الرجال الذين كان لهم دور في نشر الإسلام في بقاع بعيدة؟ إن الاعتبارات التي سبق ذكرها عن الطابع العابر للملاحة البحرية الكبرى باتجاه الشرق الأقصى يوحي لأول وهلة بأن دور بحارة الخليج العربي والجزيرة العربية كان محدودا، وفي آخر الأمر فإن عددا من عوامل الانتقال المتتابعة هي التي سمحت بنشر التيارات الروحية والمادية، فقد انتشر الإسلام رويدا رويدا عن طريق مراسي شكلت مراكز انتشار أنتجت غيرها وهكذا دواليك، وتتضح هذه الظاهرة جليا في سواحل آسيا. هكذا يعود الدور الرئيسي في انتشار الإسلام نحو إندونيسيا إلى مستوطنات تجار منطقة غوجرات غرب الهند، الذين دخلوا الإسلام في وقت مبكر، في إطار تيار تجاري تقليدي نقل في السابق التأثيرات الثقافية الهندوسية[1]. ويبدو أن نشاط منطقة غوجرات باتجاه جنوب شرق آسيا بقي هاما طوال الفترة السابقة لوصول البرتغاليين، رغم كثافة نشاط القراصنة بهذه السواحل[2]. أما بالنسبة لساحل شرق إفريقيا، لم يقر بعض الكتاب[3] بأسطورة "الشيرازيين" التي

---

(1) حول دور منطقة غوجرات في الفترة السابقة للإسلام، أنظر: Mookerji, p. 104-107.
وحول دور الغوجراتيين في مالقة خلال القرن الخامس عشر، أنظر: Wheatley, 1961, chap. XX, p. 306-20, passim.

(2) Mookerji, p. 133-146, passim.

(3) Trimingham, 1964.
ومؤخرا: Chittick, 1965.

ترجع أصول حضارة كيلوا الإسلامية بهذا الساحل إلى عناصر جاءت مباشرة من بلاد فارس، بينما الواقع أن حضارة الشيرازيين نشأت في بنادير، على ساحل الصومال، على أرض إفريقيا، وشكلت إحدى عوامل انتشار الإسلام. على كل فإن تاريخ كيلوا (chronique de Kilwa) يذكر بأن أهل مقديشو هم أول من وصل إلى سوفالة[1].

2. رغم وجود نقاط ارتكاز أخرى ظهرت مع مرور الزمن إلا أن وصول الأوربيين إلى المحيط الهندي أحدث قطيعة هامة، فقد أوقف البرتغاليون انتشار الإسلام في سواحل إفريقيا الشرقية مدة قرنين، وتوجب انتظار النصف الثاني من القرن السابع عشر ليضطلع أهل مسقط بهذا الدور بعد أن نجحوا في إبعاد البرتغاليين عن أرضهم في النصف الأول من هذا القرن (على عهد ناصر بن مرشد: 1625–1649 أساسا)، فأعادوا احتلال مومباسا في 1698 والتي لم تسقط نهائيا في أيديهم إلا في سنة 1728 بعد وجود برتغالي فيها. وعرفت هذه السواحل التأثير الإسلامي الأكبر خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، وبلغ هذا التأثير أوجه في الأربعينيات من القرن التاسع عشر عندما نقل سيد سعيد عاصمة سلطنة مسقط إلى زنجبار، مما نتج عنه نمو كبير للمدينة التي كانت في 1830 مجرد بلدة عدد سكانها 5,000 وتحولت في 1860 إلى مدينة يقطنها 60,000 نسمة. وفي هذه الفترة تدعم العنصر العربي بوفود أعداد معتبرة من الهنود المسلمين القادمين من كوتش وكاثياوار والذين كان لهم حي خاص بهم في المدينة[2].

في مقابل ذلك كانت الهجرات الإسلامية الجديدة المعاصرة نتيجة غير مباشرة للاستعمار الأوربي. فمنذ أواخر القرن الثامن عشر بدأت حركة الهجرة

---

(1) Guillain, I, p. 175.

(2) Coupland, 1938, p. 302-312.

الكبيرة من حضرموت باتجاه العالم المالاوي[1]، حيث استقر المستوطنون الأوائل في شمال جزيرة سومطرة، وبالتحديد في منطقة أجه، بينما لم يصل مد الهجرة إلى جافا ومادورا إلا مع حلول سنة 1820، وبعد ذلك تعاظم هذا المد بشكل كبير منذ 1870 مع اعتماد الملاحة البحرية البخارية، بحيث قفز عدد العرب، من أهل حضرموت خصوصا، في جزر الهند الهولندية من 8,000 في 1860 إلى 20,000 في 1890 و70,000 في 1930 وعلى الأرجح إلى 90,000 في 1939، مما يجعل هذه الهجرة تفوق المد التقليدي باتجاه إفريقيا الشرقية التي بلغ عدد عرب حضرموت فيها في نفس الفترة حوالي عشرة آلاف. وبينما كانت هذه الهجرة في أولها تخص سكان المدن، شملت فيما بعد البدو. وقد اشتغل هؤلاء المهاجرون بكل الأعمال تقريبا وخاصة التجارة وعادة ما كانوا يتعاملون بالربا رغم تحريمه في الإسلام. والكثير منهم اشتغل بمهن البحر (من أصحاب السفن إلى البحارة) رغم انعدام التقاليد البحرية لدى هؤلاء السكان المنحدرين من الداخل، وكان الأمر كذلك على الأقل حتى انتشار الملاحة البحرية البخارية في سنوات 1845-1855، بعدها لم يتوانوا في العمل في كافة حقول النشاط. وقد أثرت هذه العلاقات مع البلاد البعيدة على حضرموت عمرانيا وثقافيا بفعل عودة عدد من المهاجرين الأثرياء، وبذلك تشكلت أسس الثروات الكبرى للسادة التي تجلت في مشاريعهم المعمارية المهوسة. وفي مقابل ذلك رسخت هذه العلاقات أسس الإسلام في إندونيسيا، إذ أن أغلب المهاجرين يقدمون إلى البلاد عزابا ويذوبون في المجتمع الأهلي مما نتج عنه عدد كبير من المولدين. كما أن العربي كان يتمتع بمكانة اجتماعية وروحية متميزة[2].

و يمكن أن ندرج في سياق هذه الهجرات الهجرة المعاصرة التي

---

(1) Van der Berg; Leidlmair, 1961, p. 22-27.

(2) Van der Berg, p. 198.

نتجت إلى حد ما عن النمو الاقتصادي الذي عقب الاستعمار الأوربي، وكذلك وفود المسلمين الهنود بكثرة إلى جزيرة موريس، التي وإن كان أغلب المهاجرين إليها من تاميل جنوب الهند إلا أن نسبة المسلمين فيها (من البنغال خاصة) شكلت 15 بالمائة من العدد الإجمالي للسكان وربع السكان الهنود[1].

3. هل كان هؤلاء الرجال الذين نشروا الإسلام من المسلمين الملتزمين؟ ربما كان هذا حال بعض التجار، إلا أننا رأينا كيف أن أهل حضرموت الذين استقروا في جزر الهند الهولندية كانوا يتعاملون بالربا، كما أننا لاحظنا كيف أن الازدهار المادي الكبير في بعض الأحيان وحضارة المدن الراقية التي نمت في سواحل المحيط الهندي قد رافقها إجمالا فقر ثقافي كبير نسبيا. فالمراكز العمرانية التي كانت تضاهي في مظهرها الخارجي مراكز الشرق الأوسط العربي كان مستوى الحياة الفكرية بها أدنى بكثير من المستوى الذي بلغته هذه الأخيرة[2]. وقد كانت "الثقافة البحرية" خارجة عن المألوف كما بينت ذلك دراسة حول سواحل كينيا بلامو[3]. ومما كان يميز نمط العيش في هذا النطاق عدد من المظاهر الغريبة، نذكر منها: التدين الظاهري الذي كان يكتنفه عدم الاكتراث بالتعاليم الدينية؛ والحرية الجنسية والتسامح العقائدي (بين السنة والإباضية على سبيل المثال أو حتى تجاه غير المسلمين)؛ وغياب الالتزامات الاجتماعية وعدم احترام العادات النابعة من الدين (من قبيل ذلك العمل دون تغطية الرأس الذي كان منتشرا)؛ وتعدد الجماعات الهامشية وعصب المغامرين المكونة من عناصر بشرية لفظتها

---

(1) Robequain, 1954.

حول الإسلام في جزيرة موريس، أنظر: Gassita, 1912. كانت نسبة المسلمين في هذه الجزيرة قد تجاوزت 10 بالمائة من السكان عشية الحرب العالمية الأولى.

(2) Coupland, 1938, p. 36.

(3) Prins, 1965, chap. II, maritime culture, p. 263-75.

مجتمعاتها الأصلية ؛ وعدم انتظام الحياة حيث كانت فترات قصيرة من الاندفاع والحركة الدؤوبة تتبعها فترات طويلة ينعدم فيها النشاط ؛ وانتشار روح المخاطرة والمنافسة ؛ والولع بالزخرفات الغريبة وانتهاز فرص التسلية. كل هذه المظاهر تعبر عن عقلية بحرية تختلف تماما عن الجو الصارم المميز للمجتمع الإسلامي العادي. ويشكل عدم الالتزام الثمن الذي دفعه المجتمع البحري مقابل قابليته الكبيرة للتأقلم. وإذا كان تراخي الروابط الاجتماعية يشكل فرقا جوهريا بين مغامري البحر وبدو الصحراء الذين كانوا يخضعون لأطر قبلية قوية، فإن التدين الباهت والسطحي كان يجمع بينهم. فالإسلام المتزمت الذي ساد المجتمعات الحضرية، لم يؤثر إلا اسميا على حياة المجموعتين البحرية والبدوية، غير أن هذا لم يمنع بحارة المحيط الهندي، كما هو الأمر بالنسبة للبدو، من أن يكونوا ناشرين فعالين للدين الإسلامي، وإن كان هذا الانتشار بطيئا.

2 .النتائج

أ. بطء حركة انتشار الإسلام

قبل التعرض لهذا المسألة، يجب طرح إشكالية أولية يمكن صياغتها كما يلي : كيف تمكن هؤلاء المسلمون غير الملتزمين، هؤلاء البحارة البعيدون عن فضائل الأخلاق، هؤلاء التجار المفتقرون لسمعة طيبة، كيف تمكن هؤلاء من أن يصبحوا عوامل انتشار ونجاح للإسلام عبر سواحل المحيط الهندي؟ لقد دفعت هذه التساؤلات بعض الباحثين إلى عدم الإقرار بدور هذه الفئة، حيث اعتبروا، بقدر من الصواب[1]، أن تجارة الشحن والتفريغ المتواضعة التي هيمنت دوما على المحيط الهندي باستثناء بعض فترات النشاط العابرة، لا يمكن أن تكون عاملا حاسما في انتشار الدين

(1) عبر بقوة عن هذا الموقف: .Van Leur, 1955

الإسلامي وفي إحداث تحولات اجتماعية جذرية، بحيث لا يمكن تفسير دخول الإسلام إلى إندونيسيا بالحركة التجارية، كما لا يمكن تفسير انتشار الهندوسية التي سبقته بالحركة التجارية الهندية الكبيرة كما زعم بعض الكتاب الهنود الوطنيين[1].

هذا وما يدل على محدودية ديناميكية انتشار الإسلام البطء الكبير الملاحظ في اعتناق "إسلام البحارة". فالإسلام قد وجد بساحل سومطرة الغربي منذ سنة 674 تقريبا، ولم تظهر إمارتان إسلاميتان صغيرتان شمال الجزيرة إلا مع نهاية القرن الثاني عشر، كما لم يبدأ تأثير الإسلام الحاسم إلا مع حلول القرن الرابع عشر، وتجلى ذلك خاصة في نهاية القرن عند تأسيس ملقة ؛ كما لم ينتشر الإسلام في جزيرة جافا إلا بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر أي قبيل الفترة الهولندية. ويلاحظ نفس البطء بالنسبة لانتشار الإسلام بسواحل إفريقيا الشرقية، فالهجرات الأولى، التي لم يكن لها أثر يذكر والتي كانت بفعل مغامرين ومنبوذين انطلقت من عمان منذ القرن السابع[2]، ولم يتم تأسيس مقديشو إلاّ في القرن العاشر. ومنذ منتصف القرن العاشر، في الوقت الذي وصف فيه المسعودي "مروج الذهب"، كان للجغرافيين العرب معرفة حسنة بالسواحل الشرقية للقارة الإفريقية من بربرة إلى سوفالة[3]، إلا أن أول المدن الإسلامية في تنجانيقا لم تنشأ إلا حوالي سنة 1100، بالرغم من أن التجار المسلمين كانوا يتعاملون مع الأهالي الوثنيين منذ القرنين الثامن والتاسع، أما الشيرازيون فلم يصلوا إلى هذه البقاع إلا حوالي سنة 1200، مما نجم عنه نمو المدينتين الهامتين كيلوا ومافيا[4].

---

(1) على سبيل المثال: Mookerji; cf. Van Leur, 1955, p. 75 ss..

(2) (بخصوص أول هجرة للخوارج باتجاه إفريقيا الشرقية). Coupland, 1938, p. 22-23. Cf. Miles, p. 53

(3) Devic, 1883, passim, notamment p. 26-27.

(4) هو آخر من تعرض لهذا التسلسل الزمني.Chittick, 1965

هذا وقد يبدو الموقف المقلل من دور التجار المسلمين مبالغا فيه، إلا أنه يجدر بنا التفريق بين أساليب التأثير على السكان الأفارقة ذوي المستوى المتدني، حيث أن مجرد قدوم التجار كان قد يكفي لإيجاد حركة اعتناق للإسلام، من جهة، ومن جهة أخرى أساليب التأثير على سكان جنوب آسيا من الهنود أو معتنقي الهندوسية والذين كان مستواهم يضاهي مستوى التجار المسلمين. من خلال هذا يمكننا فهم الاختلاف التاريخي بين الانتشار المبكر للإسلام بالسواحل الإفريقية حيث يسهل التأثير على السكان، وبين انتشاره البطيء في إندونيسيا. وفي كل الحالات كان المبشرون يأتون في أثر البحارة، وحتى إن لم يكن التجار هم المسؤولون الرئيسيون عن انتشار الإسلام فإن الارتباط بديهي بين طرق المواصلات التي كان يرتادها هؤلاء التجار والدين الذي انتشر عبرها.

و ما يترجم هذا الارتباط كون الإسلام في المحيط الهندي ظل، ما عدا بعض الحالات التي تتوجب دراستها، دينا ساحليا، بحيث أن ولوجه إلى دواخل البلاد كان استثنائيا. هذا ونتعرض فيما يلي لما حمله الدين الجديد للحياة عبر السواحل.

ب. السواحل

1. إن الروابط التي نشأت بين منابع الإسلام وسواحل المحيط الهندي حققت في البداية ازدهارا عابرا استفادت منه المراسي التي انطلقت منها هذه الحركة، نذكر منها مدينة البصرة منفذ العراق الواقع في جوف الخليج العربي، غير أن صعوبة الملاحة في مياه هذا الجزء من الخليج جعلت دور البصرة يتضاءل لصالح مراسي أكثر قربا من أعالي البحار، بحيث عرفت العصور الوسطى انتقالا تدريجيا لمراسي الساحل الشمالي للخليج باتجاه مخرجه: فبعد صيراف التي عرفت ازدهارا كبيرا بين القرنين التاسع والحادي عشر، انتقل التأثير إلى جزيرة قيس التي حافظت على دورها حتى بداية القرن الرابع

عشر، لتخلفها فيما بعد جزيرة هرمز التي شكلت ملجأ في وجه غارات المغول وبقيت أهم إمارة في الخليج حتى خلال الفترة البرتغالية[1]. أما بالنسبة للضفة الجنوبية للخليج فقد تركزت التجارة في العهود الحديثة بميناء الكويت حيث تشكلت ثروات معتبرة بحرية وتجارية وذلك في زمن سبق بكثير اكتشاف البترول[2]، وازدهرت التجارة كذلك في ميناء سور على ساحل عمان بعد أن كانت السبب في تأسيس مسقط والبحرين. كما ازدهرت مراسي أخرى لفترات محدودة على سواحل اليمن وحضرموت.

هذا وما يجمع بين قواعد الانطلاق هذه هو عدم الاستقرار، فالازدهار الذي عرفته منابع حركة الملاحة البحرية البعيدة لم يكن طويل الأمد وقويا بالقدر الكافي، رغم بريق الثراء الذي عرفته في بعض الأحيان هذه المراسي. ومع أن أحد الجغرافيين المتدينين حمل على مدينة صيراف بذخها الوقح وفجورها[3] إلا أن كتاب القرن الرابع عشر لم يتمكنوا حتى من تحديد موقعها[4]، إذ تحولت أكبر المراسي إلى مجرد قرى صيادين إلى حد زوال ذكرها، مما يؤكد طبيعة التيارات التجارية التي تمر بطفرات عابرة قبل أن تتراجع إلى مستوياتها المتواضعة عموما.

2. أما بالنسبة للمناطق المستقبلة، فإنه يجدر بنا أن نؤكد في البداية على أن أثر الحركة التجارية كان محصورا في نقاط محددة، بحيث أن أجزاء هامة من سواحل المحيط الهندي لم تشهد تحولات ملموسة. فالسكان الذين يمارسون الصيد لم يعتنقوا الإسلام إلا قليلا منهم، وأفضل مثال على ذلك جزيرة سيلان حيث نشأت بمدن المناطق الساحلية طائفة من السكان المولدين المسلمين يسمون المورس (Moors) ويتمتعون بدور اقتصادي رئيسي في

---

(1) Wilson, 1928, p. 92-109.

(2) أنظر: Villiers, 1948.

(3) Moukkadasi, traduction dans Lindberg, 1955, p. 228.

(4) نصوص حول صيراف جمعت في كتاب: Lindberg, 1955, p.. 235-224

البلاد، على أن كتلة الصيادين بقيت إجمالا في منأى عن ظاهرة التمازج، وإن كان دخول هذه الطبقات الدنيا من المجتمع في المسيحية جزئيا في فترة لاحقة يبين لنا أنها لم تكن منغلقة في وجه التأثيرات الخارجية[1]. ونفس الملاحظة تنطبق على كل سواحل الهند الجنوبية حيث أن طبقات الصيادين المسلمين من قبيل طائفة لاباي (Labbay)[2] تشكل ظاهرة استثنائية.

وحتى في حالة دخول سكان السواحل الدين الإسلامي كلية نلاحظ أن ظاهرة التراكم بقيت محصورة في حدها الأدنى، كما هو الحال بالنسبة لكل السواحل المالاوية حيث تبلورت مكونات الحضارة البحرية في مجملها، من أنواع المراكب إلى تقنيات الصيد، قبل انتشار الإسلام[3]. ولم تتغير الحياة البحرية بشكل عميق سوى في السواحل القريبة من مركز الإسلام، كما هو الأمر، على سبيل المثال، في سواحل باكستان الغربية حيث تطعم العنصر البشري بالوافدين العرب ولم يبق أثر للسكان الأصليين المعتمدين في تغذيتهم على الأسماك وفي لباسهم على جلود الحيوانات وفي سكنهم على الأكواخ المبنية بهياكل الحيتان، ما عدا بعض أسماء الأماكن التي هجرت واستبدلت بمواقع جديدة، فالمراكب وتقنيات الصيد وملبس ومسكن السكان الحاليين مستمدة إجمالا من المؤثرات الثقافية الجديدة[4]، على أن هذا الاستلاب الثقافي الشامل لم يتعد مصب نهر السند شرقا، بينما امتد أثره بعيدا على طول الساحل الإفريقي وحتى جزر القمر على الأرجح، وإن كنا نفتقر لدراسات تفصيلية تبين نصيب التأثيرات الإسلامية من جهة، والدور المحتمل للأرضية المشتركة بين الثقافات البحرية من جهة أخرى.

---

(1) بخصوص صيادي سيلان، أنظر: .Bartz, 1959

(2) أنظر بخصوص هذه الطائفة: .Vinson, 1907-11

(3) للتعرف على نمط عيش الصيادين الماليزيين، أنظر: .Fraser, 1960; Firth, 1946

(4) بخصوص هذه السواحل، أنظر: .Siddiqi, 1956

3. يمكن أن تفسر الظروف الطبيعية السائدة انحصار التحولات في نقاط معينة ومحدودة. ففي هذه السواحل التي تختبئ خلف الغطاء النباتي الاستوائي الكثيف توجد نقاط مؤهلة أكثر من غيرها بفضل خصائصها البحرية وإمكانياتها في نسج علاقات مع الداخل وتطور حياة ريفية مستقلة. فبين النطاقات الغابية التي قد يستحيل الولوج إليها بحرا أو برا على حد سواء، توجد مصبات الأنهار الساحلية التي توفر إمكانية الاتصال بالداخل عن طريق المواصلات النهرية وتوجد بها نقاط التزود بالماء التي يبحث عنها البحارة، وتتوفر بالإضافة إلى ذلك على مواقع تضم أحزمة رملية تشكلت على حساب الطمي النهري ويمكن أن تقام على أرضها الصلبة القرى والواحات، بينما يمكن استغلال الأراضي المغمورة بالمياه والواقعة في المناطق المنخفضة خلف الحزام الساحلي في زراعة الأرز. ففي هذه المراسي الواقعة عند مصب الأنهار تركز العنصر البشري الوافد، وسرعان ما نتج عن زواج التجار العرب بنساء البلاد عنصر مولد إسلامي الثقافة، وتكونت حول هذه المراسي بشكل طبيعي الأطر السياسية المتمثلة في وحدات إقليمية متواضعة، حد من نموها الفراغ الذي كانت تشكله حولها النطاقات الغابية، فتركز تأثيرها على الأحواض النهرية لأن شبكة المواصلات النهرية كانت الوسيلة الوحيدة لربط علاقات مع المناطق الداخلية. وتتجلى هذه الظاهرة في ماليزيا أكثر من غيرها حيث تشكلت سلطنات مستقلة في أطراف شبه الجزيرة التي لم تتوحد قط قبل الفترة البريطانية. على أن نموذج النواة السياسية البدائية هذا قد ميز كل السواحل الاستوائية الغابية. وقد عرفت سواحل إفريقيا الشرقية الصحراوية نفس التطور بسبب ندرة مصادر المياه.

4. هذا ولا يمكن حصر تفسير الحجم الصغير للوحدات السياسية في العوامل الطبيعية التي تعرضنا لها. فالتجارة التي بقيت رغم كل شيء متواضعة لم تسمح بتراكم ثروات كبيرة أمكنها إحداث تحولات مادية عميقة. فقد تكدس القسم الأكبر من هذه الثروات في المدن ونجمت عنها تحولات

عمرانية تشبه في أغلب الأحيان ما كان موجودا في مدن الشرق الأوسط، وكنزت هذه الثروات خلف أبواب المدن المغلقة بإحكام في شكل مجوهرات أو قطع نقدية. على أن هذا النوع من النظام الحضري ذي الطابع الإسلامي ميز خصوصا الساحل الشرقي لإفريقيا حيث يلاحظ تباين كبير بينه وبين التجمعات الريفية الإفريقية مما جعله يبدو كثمرة حضارة أكثر رقيا. هذا ونجد في الشكل العمراني لهذه المدن بعض الخصائص المبتكرة التي لا توجد عادة في المدن الإسلامية أو في مدن الجزيرة العربية التي تعتبر النموذج الأصلي، فهذه المدن الساحلية بنيت بأحجار كلسية مرجانية، ولا يتعدى علو بيوتها طابقا أو طابقين إلا نادرا بحيث أنه لم يتم تكرار نموذج البيت المتعدد الطوابق المنتشر في جنوب الجزيرة العربية. من جهة أخرى يلاحظ أن شوارع هذه المدن الضيقة قد حافظت عموما على شكلها المستقيم، حتى أن المخطط شبه الهندسي لمدن المحيط الهندي العربية تم وصفه بالمخطط "الاستعماري"[1]. ومهما يكن فإن بذور التنظيم العمراني هذه قد اندمجت في محيطها المحلي، فمدينة شرق إفريقيا ذات الأصول العربية سرعان ما جذبت إليها السكان المحليين ولم تعرف أي توجه نحو الفصل بين السكان، بخلاف الأحياء المستقلة تماما التي أقامها المهاجرون الهنود بما في ذلك تلك التي أسستها المذاهب الشيعية والتوحيدية من قبيل الإسماعيلية والبوهورا والاثني عشرية وحتى الأحمدية[2]. ولم يؤثر هذا النموذج العمراني بنفس الدرجة على السواحل الهندية والسنغالية والمالاوية التي كانت قد استمدت تقاليدها العمرانية المختلفة من الهندوسية والتي تتميز بمدن متسعة تتوزع عبرها المعابد وتنقسم إلى أحياء طبقية.

هل أن هذه الثروات التي نتجت عن التجارة البحرية، وإن كانت

---

(1) Schneider, 1965, p. 12-13.

(2) فيما يخص دار السلام, Ibid., p. 14-16.

محدودة في حد ذاتها، أسهمت في استثمارات أكثر إنتاجية؟ وما هو بالتحديد مدى مساهمتها في تنمية استغلال الأرض وتكوين ثروات عقارية في المدن، تأسست عليها وحدات سياسية ذات حدود إقليمية مستقرة؟ إن أحسن مثال في هذا المجال هو مدينة زنجبار حيث أدت الجهود الدؤوبة لسيد سعيد في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى تطوير زراعة القرنفل حتى صار إنتاج جزيرتي زنجبار وبامبا من القرنفل يقدر بـ 90 بالمائة من الإنتاج العالمي. هذا ويعتبر تطوير حقول زنجبار متأخرا واستثنائيا، فقد أدخل الوجود العربي في العصور الوسطى بسواحل شرق إفريقيا زراعة الحمضيات وغيرها من الأشجار المثمرة، كما طور زراعة الواحات، غير أن زراعة السورغو والذرة البيضاء الأكثر انتشارا من زراعة الأرز بقيت متواضعة عموما. وفي المناطق الأخرى تجسدت استثمارات عقارية في مجال الزراعات المعيشية، حيث عرفت باتيكالوا على ساحل سيلان الشرقي، والتي كانت تشكل آخر منطقة ذات كثافة سكانية في هذه المنطقة الجدباء من الجزيرة قبل إعادة تعميرها في الحقبة المعاصرة، زراعات الأرز التي كانت تشرف على أغلبها طائفة المورس[1]، وكان الهدف منها توفير الحد الأدنى لضمان عيش طائفة من التجار في بلد أقفر من السكان، ولم تتجاوز الاستثمارات العقارية أبدا هذا الحد الأدنى.

إن تواضع الاستثمارات المادية يفسر بالتأكيد ضعف انتشار الإسلام في المناطق الداخلية. فنقاط الارتكاز لم ترق، مع بعض الاستثناءات، إلى مستوى قواعد يمكنها أن تكون منطلقا لدول قوية قادرة على بسط سيطرتها على المناطق الداخلية.

---

(1) Farmer, 1950.

جـ. التقدم نحو الداخل

1. إن التأثيرات الإسلامية التي تركزت بالسواحل لم تنجح إلا نادرا في الوصول إلى المناطق الداخلية، فمنطقة المحيط الهندي كلها لم تشهد سوى حالة واحدة من الانتشار الواسع للإسلام هي حالة إندونيسيا.

و يعتبر انتشار الإسلام في إندونيسيا حالة تاريخية غامضة، فهناك النظرية الكلاسيكية[1] التي ترجع انتشار الإسلام في جزيرة جافا إلى جهود التجار المسلمين الوافدين من الهند ليس كفاتحين وإنما كمؤسسي أسر ساهموا في اعتناق نساء البلد للدين الإسلامي، بحيث كان انتشار الإسلام في البداية حركة سلمية في الأساس قبل أن تشن الحرب على سكان الدواخل من غير المسلمين بعد أن عم الإسلام المدن الساحلية. وقد حسنت دراسات لاحقة جوانب عدة من هذه النظرية بالتأكيد على دور الزيجات الأميرية بين مختلف البلاطات الإندونيسية، وجهود التجار، والانجذاب النفسي لسكان جافا الفخورين نحو الإسلام أكثر منه نحو الهندوسية[2]. غير أن هناك من الباحثين من رفض هذه النظرية بشكل شبه كلي[3]، فالتاجر لم يكن يتمتع بالسمعة التي تسمح له بحمل الناس على اعتناق الإسلام، حيث أن انتشار الإسلام تم بفعل اعتناق الأمراء له، مما جعل وتيرة انتشار الإسلام تتسارع أو تتأخر بحسب النزوات الشخصية، وقد استفاد هذا الانتشار من عوامل مشجعة مثل التقدم الذي حققه الإسلام في الهند والذي أثر سلبا على قوة انتشار البراهمانية، وكذلك التنافس بين أمراء السواحل وملوك الدواخل، وأخيرا الجبهة الموحدة التي جمعت بين المسلمين والهندوس في مواجهة البرتغاليين

---

(1) يتعلق الأمر بنظرية سنوك-هورغرونج (Snouck-Hurgronje) الملخصة في: Berg, 1955, p. 111-112.

(2) Schrieke, cf. Ibid., p. 112-114.

(3) Van Leur.

الأعداء التاريخيين للإسلام. هذا وتبنت آخر نظرية بهذا الخصوص[1] وجهة النظر الأخيرة، معتبرة أن بعض حركات التحول إلى الإسلام، والتي ذاع صيتها، لم تكن في الواقع إلا مواقف تكتيكية، كما هو الشأن بالنسبة لدخول ملك المنطقة الداخلية أغونغ في الإسلام سنة 1633، بعد إسلام أمراء السواحل في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وهنا نتساءل : هل أن الدخول العرضي في الإسلام كان حاسما في حد ذاته، فإسلام الملك أغونغ مثلا لم تكن له نتائج حقيقية حيث قابله في عهده مد ثقافي للداخل باتجاه السواحل.

ومهما كانت الآلية والنتائج الدقيقة لانتشار الإسلام، تتوجب دراسة الأسس الجغرافية لهذا الانتشار، فلا يمكن تفسير إسلام إندونيسيا في معزل عن توازن قوى رجحت الكفة فيه في الأخير للمناطق الساحلية التي كانت تشهد تأثيرات خارجية على حساب الجهات الداخلية. من هذا المنظور يبدو إسلام إندونيسيا كتعبير عن مجال تشكلت فيه المراكز السكانية الرئيسية في السهول الساحلية المنخفضة المستغلة في زراعة الأرز المروية، ولم تبلغ فيه ثقافة المناطق الداخلية المستوى الذي يسمح لها بإقامة أطر إقليمية فعالة، فبرغم القاعدة الزراعية الممتازة القائمة على الأراضي الخصبة المحيطة بالبراكين، فإن دواخل جزيرة جافا لم تستطع أن تشكل نواة الوحدة السياسية، كما أن هذا الدور لم يكن في متناول القبائل البدائية التي ظلت تمارس الزراعة المتنقلة والتي كانت تشكل غالبية السكان في بورنيو أو في إندونيسيا الشرقية.

في نفس الوقت كان لزاما على هذه المناطق الداخلية الانضواء بسهولة تحت حماية سلاطين السواحل، بحيث ارتبط انتشار الإسلام تفصيلا بسهولة العلاقة بين الداخل والساحل، ولم يجد الإسلام صعوبة في الانتشار باستثناء

(1) Berg, 1955.

جماعات بدائية ومعزولة في داخل الجزر (بلاد باتاك حول بحيرة توبا بسومطرة، بينما انتشر الإسلام في جنوب بلاد باتاك حول المنخفض العرضي الذي يربطها بمينانغكاباو، والتي عرفت انتشارا للوهابية في القرن التاسع عشر؛ بلاد داياك في داخل بورنيو؛ بلاد توروجا في داخل سيليب)، أو أطراف الجزر (جماعة بادوجازان في حنوب جافا عند إقامة بانتام؛ جماعة ميهاناسان في شمال سيليب)، خلال ذلك اتخذت جزر كملاجئ (بالي الواقعة شرق جافا مباشرة والتي تفسر كثافتها السكانية بتوافد عدد كبير من الهندوس الذين فروا إليها أمام تقدم الإسلام)، وتشكلت فراغات حدودية (أقصى شرق جزيرة جافا الفاصل بين مسلمي جافا وهندوس بالي؛ جنوب أرخبيل الفلبين الذي يعتبر حلبة صراع بين مسلمي مينداناو ومسيحيي الشمال)، بينما انحصر تأثير الإسلام في جزر الملوك في المراكز التجارية والسياسية التقليدية (جولو في جزر سولو).

2. أما مدغشقر فقد كانت بالنسبة للإسلام بمثابة إندونيسيا مجهضة. فما هو سبب هذا الفشل؟ أولا، لم يكن تأثير العناصر المؤثرة من تجار ساحل إفريقيا الشرقية أو جزر القمر أو حتى العرب الذين حملتهم الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، مستمرا ومكثفا بسبب قلة وعدم انتظام المواصلات. ورغم أن بعض القبائل اعتنقت الإسلام فإن المسلمين الملغاش القاطنين في شمال غرب وجنوب شرق الجزيرة لم يأخذوا من الإسلام إلا اسمه. وقد تعرضنا للسبب الرئيسي لهذا الفشل والمتمثل في طبيعة الملغاش البربرية التي لم تسمح لهم باعتناق الدين الجديد، وهناك تفسير أبسط اقترحه نفس الكاتب مفاده أن الطريق المؤدي إلى مدغشقر لم يكن بالأهمية التي تسمح له بنقل تأثيرات ثقافية قوية[1]. فمدغشقر كانت تعتبر آخر المعمورة، ولم يتشكل فيها ما يشبه التوحيد المالاوي على حساب كتلة بشرية كانت لها

---

(1) Ferrand, 1891-1902, passim.

في البداية أوجه شبه بالكتلة البشرية الإندونيسية. إن هذا التفسير[1] صائب جزئيا إلا أنه يبدو غير مكتمل، إذ يجب أخذ الظروف الجغرافية الأساسية السائدة في الجزيرة بعين الاعتبار، حيث تتمتع المرتفعات الوسطى بظروف أفضل من أراضي السواحل المنخفضة الخانقة، كما أن تأثير الإسلام اقتصر على الأطراف مما لم يمكنه من ترك بصمته على التنظيمات السياسية السائدة في الأراضي المرتفعة بشكل دائم. فممالك ساكالاف في الأراضي الغربية المنخفضة، والتي شكلت في القرن الثامن عشر العنصر السياسي الفعال في مدغشقر واستفادت من مبادئ الحضارة والتنظيم التي نقلها التجار والمتعلمون العرب، لم تتمكن من تحقيق وحدة الجزيرة، ولم تترك أثرا أكثر دواما من ذلك الذي تركته التنظيمات العابرة التي أقامها مغامرون أوربيون في أعقاب التأثير الإسلامي والذي زال سريعا في غابات الساحل الشرقي[2]. هذا ويمكن تفسير هذه الظاهرة كذلك بتخلف التقنيات الزراعية في الأراضي المنخفضة والتي ظلت تعتمد على زراعة متنقلة ولم تعرف إلا نادرا زراعة الأرز المروية ؟ في مقابل ذلك كانت الهضبة العليا مجالا مساعدا على إقامة سلطة تمارس على الجزيرة كلها وتعتمد قوتها على زراعة الأرز المروية في الأحواض الداخلية المرتفعة، هذه الزراعة التي هي في حد ذاتها تقنية جديدة جاءت مع آخر هجرة إندونيسية وانتشرت انطلاقا من غابات الساحل الشرقي الكثيفة باتجاه الهضبة العليا التي وفرت طبيعتها السهلة مجالا مناسبا لممارسة زراعة الأرز. هذا ولم تتحدد معالم توحيد الجزيرة إلا مع مملكة هوفا التي سبقت الاستعمار الفرنسي الذي يكاد يحقق الوحدة النهائية للجزيرة بالاعتماد على قوته الذاتية. وبخلاف الإمارات الساحلية المتناثرة في العالم المالاوي والتي بلورتها التأثيرات الثقافية الخارجية وخاصة منها الإسلامية، فإن مدغشقر

---

(1) كان هذا التفسير الوحيد الذي ارتأيناه في: Planhol, 1957, p. 122-23.

(2) Isnard, 1955, p. 70-78.

بالنسبة للأراضي المرتفعة، أنظر: Isnard, 1953.

عرفت حالة وحدة داخلية استمدت أصالتها من تطور تاريخي داخلي طويل الأمد.

هذا وتوجد أوجه تشابه كثيرة بين مدغشقر وسيلان التي تركز تأثير المسلمين المورس بها في المناطق الساحلية ولم يتمكنوا من الانتشار باتجاه الداخل حتى وصول البرتغاليين ومن بعدهم الهولنديين. فقد كانت المناطق الداخلية خاضعة بإحكام لمملكة كاندي التي تكونت في مرتفعات وسط الجزيرة منذ أن دمرت الغزوات التاميلية في نهاية الألفية الأولى مراكز الحضارة في الأراضي المنخفضة الجدباء شمال الجزيرة، وقد طورت هذه المملكة تنظيما سياسيا قويا قائما على زراعة الأرز المروية ومجتمع أرستقراطي طبقي صارم.

وفي سواحل الهند الصينية الجنوبية لم تتمكن جماعة الشام المسلمة[1] المتمركزة في قرى الصيادين والتجار على طول مجاري المياه، من التأثير بسهولة على المناطق الداخلية أو منحدرات سلسلة الجبال الأنيمية نظرا لبعدها عن مراكز الحياة الحقيقية في البلاد وخاصة منها السهل الكمبودي.

3. أما ساحل إفريقيا الشرقي فهو يمثل نموذجا للانتشار المتأخر الذي عقب إنشاء مركز سياسي واقتصادي ساحلي تمكن بفضل نشاطه من مواجهة القبائل الداخلية المحاربة. فطوال العصور الوسطى لم تتعد المراكز الإسلامية السواحل. وأول دليل على وجود مركز داخلي في سينا على نهر الزامبيزي، على بعد 160 كلم من مصبه، يرجع إلى سنة 1531[2]، أي في الوقت ذاته الذي بسط فيه البرتغاليون سيطرتهم التي أوقفت تقدم الإسلام على مدى قرنين. ولم يعد تنظيم انتشار الإسلام على طول الطرق التجارية الداخلية إلا في القرن التاسع عشر وأساسا منذ 1840 بعد أن وضع سيد سعيد أسس قاعدة

---

(1) Cabaton, 1906-07, 1907; Ner, 1941; Rondot, 1949.

(2) Coupland, 1938, p. 29.

قوية في زنجبار. وعلى الطرق الرابطة بين زنجبار وتابورة وتنجانيقا، وبين كيلوا وبحيرة نياسة، وبين تانغا وبحيرة فيكتوريا، تنقلت جماعات كبيرة، بلغ تعدادها أحيانا ألف شخص، بحثا عن العاج والعبيد، إلا أن هذه الحركة كانت بطيئة، فقد كان من المستحيل الوصول إلى البحيرات الكبرى خلال الفصل الجاف الذي يمتد من توقف أمطار شهري أبريل ومايو الغزيرة إلى بداية أمطار شهري أكتوبر ونوفمبر الخفيفة، مما استوجب إقامة محطات قارة في الداخل يمكن اللجوء إليها في الفصل الممطر، منها تابورة منذ 1830 على الأرجح، وأوجيجي. وسمحت هذه الطرق للإسلام بالانتشار من جديد في الفترة الأوربية بطرق سلمية هذه المرة.

يمكننا أن نتساءل عن ما يربط بين الإسلام والمغامرات البحرية، وأين هو الإسلام من كل هذا؟ إن دراسة حالة بحار الجنوب تثبت في حد ذاتها المرونة القصوى التي يتمتع بها معتقد ديني اكتفى عموما بتسخير طرق المواصلات البحرية التي سبق رسمها، وانطبع بخصائص العنصر البشري في هذه المنطقة بالقدر الذي أثر فيه. إن هذه النظرية تبعدنا عن الإطار الجامد لنظرية الأخلاقيات الحضرية. رغم هذا، ومع اختلافات أكيدة، فإن خصائص الإطار البشري والعمراني للإسلام لا تزال بادية للعيان في زنجبار وجزر القمر وحتى في السواحل المالاوية، كما أن التنظيم السياسي للسلطنة المالاوية التي تبسط سلطتها على أرياف قريبة من المدن، تعبير عن نموذج المنطقة الحضرية الأساسية المنتشر في كل البلاد الإسلامية، فضلا عن أن إسلام الشرق الأقصى ليس الأقل تعصبا وتجذرا رغم مرونته الظاهرية في المجال العقائدي والعرفي. إن إسلام البحارة، مثله مثل إسلام البدو، ورث تيارات بشرية كبرى سبقته ولا تمت إليه بصلة، إلا أنه نجح في الاستفادة منها بشكل كامل. وإن لم يكن بدو الصحراء والبحارة مسلمين مثاليين فإنهم كانوا خداما للعقيدة، وهذا ما يشكل، بلا شك، الطبيعة الجوهرية للإسلام. فالسفن أو القوافل، والنطاقات الصحراوية أو المجالات البحرية، والبدو أو التجار، كل هذه المشاهد

والصور، تجسد نفس الظاهرة الأساسية. إن الإسلام هو عالم دائم الحركة في المجالات الفاصلة بين نقاط ارتكازه في المدن التي يرقى فيها إلى صورته المثلى[1]. كما أن التمازج الهائل والمستمر يمثل سر وحدة الدين الإسلامي، فبين مدن الجزيرة العربية المقدسة توجد الصحراء وبدوها على الدوام، وبين مسقط وزنجبار يوجد البحارة، ومن هذا التحالف العجيب بين الحضر والبدو والبحارة استمد دين نشأ في واحات تائهة في وسط صحراء الحجاز قوة إشعاعه المتفردة.



(1) هذا ما تنبه له: Coon, 1952, chap. 17, the ship and the caravan, cf. p. 340-41.

مختارات بيبليوغرافية

1. النطاقات البحرية :

أحسن حوصلة تاريخية عامة أنجزها : (Toussaint, 1961)، غير أن الاستفادة منها صعبة لافتقارها لمراجع مفصلة.

أما فيما يخص الملاحة البحرية العربية، يمكن الرجوع (Hourani, 1951; Mookerji, 1957; Hassan, 1928)؛ إلا أن هذه المراجع أقل فائدة بالنسبة للملاحة البحرية الهندية والفارسية لافتقارها للنظرة النقدية. ويوجد وصف ملموس وحي للحياة البحرية في كتابي : (Villiers, 1940; Prins, 1965).

2. السواحل :

- بخصوص البلاد المطلة على البحر الأحمر، توجد مادة غنية في عمل : (Kammerer, 1937-1949).
- الخليج العربي : (Wilson, 1928).
- الجزيرة العربية وحضرموت : (Leidlmair, 1961).
- عمان وساحل القراصنة : (Miles, 1966; Sanger, 1954, chap. XI-XIV).
- إفريقيا الشرقية : (Coupland,1938; Freeman-Grenveille, 1962; Gray, 1962).

- العالم المالاوي :

Manuels géographiques d'ensemble de Kolb, 1942 ; Robequain, 1946 ; Jin-Bee (Ooi), 1963).

- هناك دراسة متميزة للجغرافيا التاريخية لماليزيا في كتاب : (Wheatley, 1961).

- سيلان : (Sievers, 1964).

- مدغشقر : (Manuels d'ensemble de Robequain, 1958 ; Isnard, 1955).

وبخصوص الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة يمكن الرجوع بالتحديد إلى : (Ferrand, 1891-1902).



بيبليوغرافيا الكتاب

الكتابة المختصرة لعناوين الدوريات و الإصدارات المتسلسلة و الكتب الجماعية :

ASEC : Annales, Économies, Sociétés, Civilisations.
AG : Annales de Géographie.
AIEO : Annales de l'Institut d'Études Orientales, Alger.
ASB : L'antica societa beduina, Studi raccolti da Francesco Gabrieli, Roma, 1959 (Studi Semitici, 2).
AUDTCFD : Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Coğrafya Fakültesi Dergisi.
BAGF : Bulletin de l'Association de Géographes Français.
BEL : Belleten.
BGA : Bonner geographische Abhandlungen.
BIFAN : Bulletin de l'Institut Français d'Afrique Noire.
BSGE : Bulletin de la Société (royale) de Géographie d'Égypte.
BSOAS : Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
CAJ : Central Asiatic Journal.
COM : Cahiers d'Outre-Mer.
CT : Cahiers de Tunisie.
DEO : Documents d'Études Orientales publiés par l'Institut Français de Damas.
DG : Deutscher Geogrphentag.
EG : Economic Geography.
EI (1) : Encyclopédie de l'Islam (1ère édition).
EI (2) : Id. (2ère édition).
EsG : Estudios Geographicos.
FSL : Willmott (S.G.) et Clarke (J.I.), edit ; Field Studies in Lybia, Durham, 1960 (Research Papers Series, N° 4, Department of Geography, Durham Colleges in the University of Durham).
GA : Geographiska Annaler.
GJ : Geographical Journal.
GR : Geographical Review.
GU : Géographie Universelle sous la direction de P. Vidal de la Blache et L. Gallois, Paris.
GZ : Geographische Zeitschrift.
HLUAR : Stamp (Dudley), edit ; A History of Land Use in Arid Regions, Paris, 1961 (UNESCO, Arid Zone Research, XVII).
IA : İslam Ansiklopedisi.
IEJ : Israel Exploration Journal.
IFAB : Bibliothèque Archéologique et Historique de l'Institut Français d'Archéologie de Beyrouth.
IFM : İstanbul Üniversitesi İktisat Fakültesi Mecmuası.
IHEM : Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines.
IUCED : İstanbul Üniversitesi Coğrafya Enstitüsü Dergisi.
IUEFY : İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Yayınları.
JA : Journal Asiatique.
JAH : Journal of African History.
JESHO: Journal of the Economic and Social History of the Orient.
JRAS : Journal of the Royal Asian Society.
JRCAS : Journal of the Royal Central Asian Society (=Royal Central Asian Journal).
MEJ : Middle East Journal.
MG : Mélanges de Géographie et d'Orientalisme offerts à E.F. Gautier, Tours, 1937.
MRCFE : Thomas (W.L.), edit ; Man's Role in Changing the Face of the Earth, Chicago, 1956.
NNS : Cl. Bataillon, edit. ; Nomades et Nomadisme au Sahara, Paris, 1963 (UNESCO, Recherches sur la zone aride, XIX).
NPANO : P. Galloy, Y. Vincent et M. Forget ; Nomades et Paysans d'Afrique Noire Occidentale, Nancy, 1963 (Mémoires des Annales de l'Est, 23).

PAZ : The Problems of the Arid Zone – Proceedings of the Paris Symposium, Paris, 1962 (UNESCO, Arid Zone Research, XVIII).
PM : Petermanns Mitteilungen.
RA : Revue Africaine.
REI : Revue des Études Islamiques.
RFSEUI : Revue de la Faculté des Sciences Économiques de l'Université d'Istanbul.
RGA : Revue de Géographie Alpine.
RGE : Revue Géographique de l'Est.
RGI : Rivista Geographica Italiana.
RGIUI : Review of the Geographical Institute of the University of Istanbul.
RGL : Revue de Géographie de Lyon.
RISS : Revue Internationale des Sciences Sociales (International Journal of Social Sciences, édition en langue anglaise du précédent).
RMM : Revue du Monde Musulman.
RT : Revue Tunisienne.
SE : Sovetskaja Etnografija.
SI : Studia Islamica.
SWJA : Southwestern Journal of Anthropology.
TCD : Turk Coğrafya Dergisi.
TIE : Trudy Instituta Etnografii.
TIRS : Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes.
UCPG : University of California Publications in Geography.
ZDMG : Zeitschrift der deutschen morgänlandischen Gesellschaft.

ملاحظة :

لم تأخذ بعين الاعتبار في الترتيب الأبجدي (اللاتيني) بدايات الأسماء التالية : de, von، و كذلك (al, el) التي تسبق الأسماء العربية التقليدية. بينما تم اعتماد بدايات الأسماء الأخرى (... ,Van, le) ، و كذلك بداية الاسم بـ (Al) في حالة كونها جزء من اسم علم عالمي من الصنف الحديث.

Abou-Zeid (A.M.), 1959 ; La sédentarisation des nomades dans le désert ocidental d'Égypte. *RISS*, XI, 4, p. 573-581.
Abou Zakaria, 1878 ; *Chronique*, traduite et commentée par E. Masquray. Alger.
Achenbach (Hermann), 1963 ; Die Halbinsel Cap Bon : Strukturanalyse einer mediterraneen Kulturlandschaft im Tunisien. *Jahrbuch der geographischen Gesellschaft zu Hannover*, p. 1-182.
Adam (A.), 1940-50 ; Le bidonville de Ben Msik à Casablanca. *AIEO*.
, 1950 ; La population musulmane dans l'ancienne médina de Casablanca, *Bulletin Économique du Maroc*.
Adams (Robert Mc C.), 1965 ; *Land behind Bagdad : a history of settlement on the Diyala plains*. Chicago.
Ahmad (Kazi), 1959 ; Canal water problem in the Middle Indus plain. *Proceeedings IGU Regional Conference in Japan 1957*, Tokyo, p. 250-259.
, 1964 ; *A Geography of Pakistan*. Karachi.
Ahmet Refik, 1930 ; *Anadoluda Turk aşiretleri*. Istanbul.
Ahrweiler (Hélène), - voir aussi **Glykatzi – Ahrweiler**), 1962 ; L'Asie Mineure et les invasions arabes, *Revue Historique*, CCXXVII, p. 1-32.
Akarca (A. et T.), 1954 ; *Milâs*. Istanbul.
Akdoğan (Ahmet), 1955 ; Çukurova bahçe ve tarla işçiligine tesir eden bazı coğrafi factörler. *Dokuzuncu Coğrafya Meslek Haftası (22-29 aralık 1954) : Tebliğler ve Konferanslar (Turk Coğrafya Kurumu Yayıları, 2)*, Istanbul, p. 187-92.
Al-Feel (Muhammad Rashid), 1965 ; *The historical geography of Iraq between the Mongolian and Ottoman conquests 1258-1534*, I. Nejef.
Al-Kasab (N.N.), 1966 ; *Die Nomadensiedlung in der Irakischen Jezira* (Tübinger Geographische Studien, 20).

Amari (M.), 1933-39 ; *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 5 vols., Catane.
Amiran (D.H.K.) et Ben Arieh (Y.), 1963 ; Sedentarization of Beduin in Israel. *IEJ*, p. 161-181.
Ananou (P.), 1953, 1954 ; Les populations rurales musulmanes du Sahel d'Alger. *RA*, p. 369-414, 113-139.
Ancel (Jacques), 1926 ; *Peuples et nations des Balkans*. Paris.
, 1930 ; *La Macédoine et son évolution contemporaine*. Paris.
Arbaumont (J. d'), 1954 ; Le Tibesti et le domaine téda-daza, *BIFAN*, série B, XVI, p. 255-360.
Ardel (A.) et Tümertekin (E.), 1954 ; Geographical observations in Tuz gölü region, *RGIUI*, N° 1, p. 168-76.
Arne (T.J.), 1935 ; La steppe turcomane et ses antiquités. *Hyllningsskrift tillägnad Sven Hedin*, Stockholm, p. 28-43.
Ashkenazi (T.), 1938 ; *Tribus semi-nomades de la Palestine du Nord*. Paris.
Atabeyli (Nacı Kum – Cf. également au prénom Nacı), 1940 ; Teke (Antalya) yürükleri hakkında notlar. *Türk Tarih Arkeologya ve Etnografya Dergisi*, IV, p. 213-222.
Aubin (Jean), 1955 ; Références pour Lar médiévale. *JA*, p. 491-505.
, 1956 ; *Deux sayyids de Bam au XVème siècle. Contribution à l'histoire de l'Iran timouride.* (Akademie der Wissenschaften und der Literatur, Abhandlungen der Geistes – und Sozialwissenschaftlichen Klasse, N° 7), Mainz.
Aubréville (A.), 1949 ; *Climats, forêts et désertification de l'Afrique tropicale*. Paris.
Awad (Mohammed), 1954 ; The assimilation of nomads in Egypt. *GR*, p. 240-252.
, 1964 ; Sedentarization of nomads in the Butana region of Northern Sudan. *BSGE*, XXXVII, p. 5-33.

Ba (A.H) et Daget (J.), 1955 ; *L'empire peul du Macina, I. 1818-1853*. Bamako (Études Soudanaises, 3).
Bacon (Elizabeth E.), 1951 ; An inquiry into the history of the Hazara Mongols of Afghanistan. *SWJA*, 7, p. 230-247.
Bağdâd, 1962 ; *Arabica*, volume special publié à l'occasion du mille deux centième anniversaire de la fondation de Bagdad, Tome IX, Fasc. III.
Bagh (Abid Souleïman), 1961 ; *La région du Djolan : étude de géographie régionale*. Damas.
Bala (Mirza), 1952 ; article Kaçar. *IA*, VI, p. 33-38.
; article Kaşkay. *IA*, VI, p. 414-417.
Balâdhuri (Al-), 1916 ; *Kitâb futûh al-buldân* (Trad. Hitti : *The origins of the Islamic state*). New York.
Balout (L.), 1952 ; Pluviaux interglaciaires et préhistoire saharienne. *TIRS*, VIII, p. 9-21.
Balsan (F.), 1957 ; *La colline mystérieuse*. Paris.
Banse (E.), 1919 ; *Die Türkei*. Braunschweig.
Barbour (K.M.), 1961 ; *The republic of Sudan*. Londres.
Barkan (Ömer Lutfi), 1949-50 a ; Les deportations comme méthode de peuplement et de colonisation dans l'empire ottoman. *RFSEUI*, XI, p. 67-131.
, 1949-50 a ; Le problème de l'établissement des immigrés en Turquie et la nécessité d'un plan de colonisation intérieure. *Ibid*, p. 132-52.
Barth (Fr.), 1959-60 ; The land use pattern of migratory tribes of South Persia. *Norsk Geografisk Tidsskrift*, XVII, 1-4, p. 1-11.
, 1961 ; *Nomads of South Persia*. Oslo.
, 1962 ; Nomadism in the mountain and plateau areas of South West Asia. *PAZ*, p. 341-56.
, 1964 a ; Competition and symbiosis in North East Baluchistan. *Folk*, 6, 1, p. 15-22.
, 1964 b ; Ethnic processes on the Pathan-Baluch boundary. *Indo-Iranica (Festschrift Morgenstierne)*. Wiesbaden, p. 13-20.
Barthold (W.), 1929 ; Der Koran und das Meer. *ZDMG*, n.s., VIII, p. 37-43.
, 1945 ; *Histoire des Turcs d'Asie Centrale* (trad. Franç.). Paris.
Bartsch (C.), 1934-35 ; Das Gebiet des Erciyes Daği und der Stadt Kayseri in Mittel Anatolien. *Jahrbuch der geographischen Gesellschaft zu Hannover*.
, 1952 ; Stadtgeographische Problemen in Anatolien. *DG* Frankfurt 1951, Remagen, p. 129-132.
, 1957 ; Siedlugsgang und Sidlungsraum in südöstlischen anatolischen Hochland. *Bericht der Oberhessischen Gesellschaft für Natur-und Heilkunde zu Giessen, Neue Folge, Naturwissenschaftliche Abteilung*, 28, p. 58-81.

Bartz (C.), 1959 ; *Fischer auf Ceylan.* (*BGA*, 27).
Beal (S.), 1884 ; *Si-Yu-Ku, Buddhist records of the Western world.* Londres, 2 vols.
Beckett (Ph.), 1953 ; Qanats around Kirman. *JRCAS*, p. 47-58.
Bekri (Abou Obeïd El-), 1911-13 ; *Description de l'Afrique Septentrionale*, traduite par Mac Guckin de Slane. Alger (réimp. Paris, 1965).
Beliaev (E.A.), 1954 ; Formation of the Arab State and the origin of Islam in the VIIth century. *XXIIIrd Congress of Orientalists, Papers presented by the Soviet delegation. Islamic Studies*
Bémont (F.), 1961 ; L'irrigation en Iran. *AG*, p. 597-620.
Bent (Th.), 1900 ; *Southern Arabia.* Londres.
Berg (C.C.), 1955 ; The islamisation of Java. *SI*, IV, p. 111-142.
Bernard (Augustin), 1937-39 ; *Afrique septentrionale et occidentale.* Paris, 2 vols (*GU*, XI, 1 et 2).
et **Lacroix (N.)**, 1906 ; *L'évolution du nomadisme en Algérie.* Paris.
Bernus (Edmond), 1960 ; Kong et sa région. *Études Eburnéennes*, VIII, p. 239-324.
, 1963 ; *Quelques aspects de l'évolution des Touaregs de l'Ouest.* Niamey (*Études Nigériennes*, 9).
, 1966 ; Les Touregs du Sahel Nigérien. *COM*, p. 5-34.
Berque (J.), 1955 ; *Structures sociales du Haut Atlas.* Paris.
Besançon (Jacques), 1957 ; *L'homme et le Nil.* Paris.
Bessis (A.), **Marthelot (P.)**, **Montéty (H. de)** et **Pauphilet (D.)**, 1956 ; *Le territoire des Ouled Sidi Ali ben Aoun. Contribution à l'étude des problèmes humains dans la steppe tunisienne.* Paris.
Birge (J.K.), 1937 ; *The Bektashi order of dervishes.* Londres.
Birot (P.) et **Dresch (J.)**, 1953-1956 ; *La Méditerranée et le Moyen-Orient.* Paris, 2 vols.
Blanchard (Raoul), 1929 ; *Asie Occidentale.* Paris (*GU*, VIII).
Blunt (lady Anne), 1882 ; *Voyage en Arabie* (trad. Franç.). Paris.
Bobek (Hans), 1951 ; Die Verbreitung des Regenfeldbaues in Iran. *Festschrift J. Sölch*, Vienne, p. 9-30.
, 1953-54 ; Klima und Landschaft Irans in vor- und frühgeschichlischen Zeit. *Geographische Jahrbericht aus Osterreich*, XXV, p. 1-42.
, 1958 ; Teheran. *Festschrift Hans Kinzl*, Innsbruck, p. 5-24.
, 1959 ; Die Haupstufen der Gesellschafts- und Wirtschaftsentfaltung in geographischer Sicht. *Die Erde*, p. 259-298.
Bonniard (F.), 1934 ; *La Tunisie du Nord. Le Tell septentrional. Étude de géographie régionale.* Paris.
Born (Martin), 1964 a ; Das Tokar-Delta. *Geographische Rundschau*, p. 98-109.
, 1964 b ; Bevölkerung und Wirtschaft in der näheren Umbegung von Kassala (Rep. d. Soudan). *GZ*, p. 43-68.
Boucau (H.), 1924 ; La vie maritime indigene sur la côte atlantique du Maroc. *La Géographie*, XLII, p. 666-670.
Boucheman (Albert de), 1934 ; Note sur la rivalité de deux tribus moutonnières de Syrie, les Mawali et les Hadidiya. *REI.*
, 1937 ; *Une petite cité caravanière : Suhné.* Damas (*DEO*, VI).
Boukhâri (El-), 1949 ; *Livres de l'ensemencement et de la mousâqât* (trad. Peltier). Alger.
Bousquet (G.H.), 1954 ; Observations sociologiques sur les origines de l'Islam. *SI*, II, p. 61-87.
, 1956 a ; Quelques remarques critiques et sociologiques sur la conquête arabe et les théories émises à ce sujet. *Studi orientalistici in onore di Giorgio Levi Della Vida*, Roma, I, p. 52-60.
, 1956 b ; Observations sur la nature et les causes de la conquête arabe. *SI*, VI, p. 37-52.
Bowen (R. Le Baron), 1949 ; Arab dhows of Eastern Arabia. *Amercan Neptune*, IX, p. 1-46, et à part, Rehboth, Massachusetts.
, 1951 ; Pearl fisheries of the Persian Gulf. *MEJ*, V, p. 161-180.
Bowman (I.), 1924 ; *The Mohammedan world.* New York.
Boyer (Pierre), 1963 ; *La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française.* Paris.
Brehony (J.A.N.), 1960 ; Semi-nomadism in the Jebel Tarhuna. *FSL*, p. 60-69.
Brice (W.C.), 1955 ; The history of forestry in Turkey. *İstanbul Üniversitesi Orman Fakültesi Dergisi*, Seri A, V, N° 1-2, p. 28-38.
, 1955-56 ; The Turkish colonization of Anatolia. *Bulletin of the John Rylands Library*, 38, p. 18-45.
Brooks (C.E.P.), 1950 ; *Climate through the ages.* Londres (2ème édit.).
Brunot (L.), 1920 ; *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé.* Paris (*IHEM*, V).

Brunschvig (Robert), 1940-47 ; *La Berbérie orientale sous les Hafsides.* Paris, 2 vols.
, 1947 ; Urbanisme médiéval et droit musulman. *REI*, p. 127-155.
, 1953 ; Coup d'œil sur l'histoire des foires à travers l'Islam. *Recueils de la Société Jean Bodin, V, La Foire*, Bruxelles, p. 43-75.
Buchanan (K.M.) et Pugh (J.C.), 1955 ; *Land and peoples in Nigeria.* Londres.
Bulugma (Hadi), 1960 ; Ethnic elements in the Western coastal zone of Tripolitania. *FSL*, p. 111-119.
Butzer (K.), 1957 ; Der Umwelt Faktor in der grossen arabischen Expansion, *Saeculum*, VIII, p. 359-71.
, 1958 ; *Quaternary stratigraphy and climate in the Near East.* Bonn (*BGA* 24).
Butzer (K.), 1960 ; Remarks on the geography of settlement in the Nile Valley during Hellenistic times. *BSGE*, XXXIII, p. 5-36.
Byhan (Arthur), 1936 ; *La civilisation caucasienne* (trad. Franç.). Paris.

Cabaton (A.), 1906-07 ; Notes sur l'Islam dans l'Indochine française. *RMM*, p. 27-47.
, 1907 ; Les Chams musulmans dans l'Indochine française. *RMM*, II, p. 129-180.
Cabot (J.), 1953 ; Kim, village du Moyen Logone. *Bulletin de l'Institut des Études Centrafricaines*, N° 5.
, 1955 ; La mise en valeur des rizières du Moyen Logone. *AG*, p. 35-46.
, 1957 a ; La culture du coton au Tchad. *AG*, p. 429-508.
, 1957 b ; Un domaine nouveau de riziculture inondée : les plaines du Moyen Logone. *COM*, p. 158-173.
, 1961 ; Au Tchad : le problème des koros. *AG*, p. 621-633.
, 1965 ; *Le bassin du Moyen Logone.* Paris.
Caetani (L.), 1911 ; *Studi di storia orientale*, I. Milan.
Cahen (Cl.), 1951 a ; Notes sur l'histoire des Turcomans d'Asie Mineure au XIIIème siècle. *JA*, p. 335-354.
, 1951 b ; Les tribus turques d'Asie occidentale pendant la période seljoukide. *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, 51, p. 178-187.
, 1953 ; L'évolution de l'iqta' du IXème au XIIIème siècle. *AESC*, p. 25-52.
, 1954-55 a ; Le problème ethnique en Anatolie. *Cahiers d'Histoire Mondiale*, II, p. 347-362.
, 1954-55 b ; Le régime de la terre et l'occupation turque en Anatolie. *Ibid*, p. 566-580.
Caillemer (A.) et Chevalier (R.), 1954 ; Les centuriations romaines de l'Africa vetus. *AESC*, p. 433-460.
, 1957 ; Les centuriations romaines en Tunisie. *AESC*, p. 275-286.
Camena d'Almeida (P.), 1932 ; *États de la Baltique-Russie.* Paris (*GU*, V).
Camps-Fabrer (H.), 1953 ; *L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine.* Alger.
Capot-Rey (R.), 1953 ; *Le Sahara français.* Paris.
, 1960 ; compte-rendu de E. Demougeot (1960). *TIRS*, XIX, p. 261-63.
, 1961 b ; *Borkou et Ounianga, étude de géographier régionale.* Alger (*Mémoires de l'Institut de Recherches Sahariennes*, 5).
, 1961 b ; Note sur la sédentarisation des nomades au Sahara. *AG*, p. 82-86.
, 1962 ; The present stage of nomadism in the Sahara. *PAZ*, p. 301-310.
Carayol (P.), 1944 ; Les genres de vie indigènes dans l'Atlas de Blida. *RA*, p. 239-265.
Carcopino (J.), 1943 ; *Le Maroc antique.* Paris.
Caro-Baroja (Julio), 1957 ; *Los Moriscos del reino de Granada.* Madrid. Voir compte-rendu par A. Floristan Samanes. *EsG*, 1958, P. 381-89.
Caskel (Werner), 1953 a ; *Die Bedeutung der Beduinen fur die Geschichte der Araber.* Köln (*Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, Geisteswissenschaften*, 8).
, 1953 b ; Zur Beduinisierung Arabiens. *ZDMG*, 103, p. 28-36.
Castiglioni (G.B.), 1960 ; Appunti geografici sul Baluchistan iraniano. *RGI*, LXVII, p. 109-152, 268-301.
Célérier (J.), 1927 ; La transhumance dans le Moyen Atlas. *Hespéris*, p. 53-68.
, 1928 ; *La géographie de l'histoire au Maroc.* Mémorial Henri Basset (*IHEM*, XVII), p. 159-173.
, 1943 ; Le paysage rural au Maroc. *Hespéris*, p. 129-142.
, 1948 ; *Le Maroc* (4ème édition). Paris.
Chamoux (F.), 1953 ; *Cyrène sous la monarchie des Battiades.* Paris.
Changes of Climate/Les changements de climat, *Proceedings of the Rome symposium organized by UNESCO and WMO/Actes du Colloque de Rome organisé par l'UNESCO et l'OMM*, 2-7 oct. 1961. 1963, Paris, UNESCO.

Chapelle (Jean), 1957 ; *Nomades noirs du Sahara*. Paris.
Chardin (Jean), 1830 ; *Voyages en Perse*. Paris (Édit. Lecointe, Nouvelle Bibliothèque des Voyages).
Charles (H.), 1938 ; *Tribus moutonnières du Moyen Euphrate*. Damas (*DEO*, VIII).
Charnot (Y.), 1959 ; À propos de l'écologie des camélidés. *Bulletin de la Société des Sciences Naturelles et Physiques du Maroc*, p. 29-39.
Chelhod (J.), 1958 ; *Introduction à la sociologie de l'Islam*. Paris.
, 1964 ; *Les structures du sacré chez les Arabes*. Paris.
Chevalier (A.), 1943 ; Les sapotacées à graines oléagineuses et leur avenir en culture. *Revue Internationale de Botanique Appliquée et d'Agriculture Tropicale*, p. 47-60.
Chevalier (A.), 1948 ; Nouvelles recherches sur l'arbre à beurre du Soudan. *Ibid*, p. 241-256.
Childe (V. Gordon), 1953 ; *L'Orient préhistorique* (trad. Franç. sur la IVème édition). Paris.
Chittick (Neville), 1965 ; The `Shirazi` colonization of East Africa. *JAH*, VI, p. 275-94.
Christensen (A.), 1936 ; *L'Iran sous les Sassanides*. Copenhague.
Clarke (John), 1952 ; Des problèmes de nomadisme estival vers le Nord de la Tunisie. *BAGF*, p. 134-141.
, 1959 ; Studies of semi-nomadism in North-Africa. *EG*, p. 95-108.
, 1960 ; The Siaan : pastoralists of the Jeffara. *FSL*, p. 52-59.
, 1963 ; The Iranian city of Shiraz. (*Research Papers Series N° 7, Department of Geography, Durham Colleges in the University of Durham*). Durham.
Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. *Actes du symposium international de l'histoire de la civilisation musulmane*, Bordeaux, 25-29 juin 1956, organisé par R. Brunschvig et G.E. von Grunebaum. 1957. Paris.
Clerget (Marcel), 1934 ; *Le Caire, étude de géographie urbaine et d'histoire économique*. Le Caire, 2 vols.
Colin (G.S.), 1938 ; Origine arabe des grands mouvements de populations berbères dans le Moyen Atlas. *Hespéris*, p. 265-68.
Collin-Delavaud (Cl.), 1958 a ; Deux exemples de mise en valeur dans l'Afghanistan septentrional. *BAGF*, N° 273-274, p. 38-48.
, 1958 b ; Monographie humaine du terroir rural de Yörük Yayla (Phrygie, Turquie). *AG*, p. 522-540.
, 1960 ; Khoadja Qendu. Mise en valeur d'un piedmont dans le Turkestan Afghan. *AG*, p. 135-56.
, 1961 ; Trois types de terroirs dans les provinces caspiennes d'Iran. *Mémoires et Documents du Centre de Documentation Cartographique et Géographique*, VIII, p. 103-112.
Coon (Carleton S.), 1952 ; *Caravan ; the story of the Middle East*. Londres.
Coquery (M.), 1962 ; L'extension récente des quartiers musulmans d'Oran. *BAGF*, N° 307-08, p. 169-187.
Cordonnier (J.C.), 1964 ; Les tendances nouvelles de l'agriculture irriguée dans l'oasis d'Isfahan (Iran). *RGE*, p. 387-392.
Cornevin (Raymond), 1960 ; *Histoire des peuples de l'Afrique Noire*. Paris.
Coulter (J.W.), 1954 ; Transformations in the Caspian lowland. *GR*, p. 567-68.
Coupland (E.), 1938 ; *East Africa and its invaders*. Londres.
Courtois (Ch.), 1955 ; *Les Vandales et l'Afrique*. Paris.
Cressey (G.B.), 1958 ; The Shatt al-Arab basin. *MEJ*, p. 448-460.
, 1960 ; *Crossroads. Land and life in Southwest Asia*. Chicago.
Cunnison (I.), 1966 ; *Baggara Arabs*. Oxford.
Curzon (G.N.), 1892 ; *Persia and the Persian question*. Londres, 2 vols.
Cvijič (J.), 1918 ; *La péninsule balkanique, géographie humaine*. Paris.
Çetintürk (S.), 1943 ; Osmanlı imparatorolugunda yürük sınıfı ve hukuki statüleri. *AUDTCFD*, II, p. 107-116.

Darby (H.C.), 1956 ; The clearing of the woodland in Europa. *MRCFE*, p. 183-216.
Dauphin (J.), 1960 ; Les Ma'dan de basse Mésopotamie. *AG*, p. 34-49.
Davis (E.J.), 1879 ; *Life in Asiatic Turkey*. Londres.
Delafosse (M.), 1921 ; L'animisme nègre et sa résistance à l'islamisation en Afrique Occidentale. *RMM*, 49, p. 121-164.
Delmas (Y.), 1952 ; L'île de Djerba. *COM*, p. 149-168.
Delobson (Dim), 1932 ; *L'empire du Mogho Naba*. Paris.

Demangeon (A.), 1938 ; *La colonisation indigène et les travaux de bonification dans la vallée du Niger (AOF)*. Réimprimé dans A. Demangeon ; *Problèmes de Géographie Humaine*, Paris, 1953, p. 395-405.
Demougeot (E.), 1960 ; Le chameau et l'Afrique du Nord romaine. *AESC*, p. 209-247.
Denker (Bedriye), 1963-64 ; Die heutige Agrarwirtschaft der Bursa-Ebene (Türkei). *RGIUI*, N° 9-10, p. 116-132.
Dermenghem (Émile), 1954 ; *Le culte des saints dans l'Islam maghrébin*. Paris.
Descloitres (R. et Cl.) et Reverdy (J.C.), 1961 ; *L'Algérie des bidonvilles*. Paris.
Despois (Jean), 1927 ; L'emplacement et les origines de Kairouan. *RT*, p. 33-40.
, 1930 ; Kairouan, origine et évolution d'une ancienne capitale musulmane. *AG*, p. 159-177.
, 1935 a ; *Le Djebel Nefousa*. Paris.
, 1935 b ; *La colonisation italienne en Lybie*. Paris.
Despois (Jean), 1937 a ; Rendements en grain du Byzacium il ya deux mille ans et aujourd'hui. *MG*, p. 186-193.
, 1937 b ; Les îles Kerkena et leurs bancs, étude géographique. *RT*, p. 3-60.
, 1940 ; *La Tunisie orientale : Sahel et basse steppe*. Paris (*Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*, IIème série, XIII).
, 1942 a ; La bordure saharienne de l'Algérie orientale. *RA*, p. 196-219.
, 1942 b ; Régions naturelles et régions humaines en Tunisie. *AG*, p. 112-128.
, 1945 a ; Types of native life in Tripolitania. *GR*, p. 352-367.
, 1945 b ; Des montagnards en pays tropical : Bamiléké et Bamoun (Cameroun français). *RGA*, p. 595-635.
, 1946 ; *Géographie humaine du Fezzan*. Paris (*Mission scientifique du Fezzan*, 1944-45, III).
, 1949 ; *L'Afrique du Nord*. Paris.
, 1953 a ; Géographie et histoire en Afrique du Nord. Éventail de l'histoire vivante. *Hommage à Lucien Febvre*. Paris, I, p. 187-94.
, 1953 b ; Les greniers fortifiés en Afrique du Nord. *CT*, p. 36-60.
, 1953 c ; *Le Hodna*. Paris (*Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*, IIème série, XXIV).
, 1956 ; La culture en terrasses en Afrique du Nord. *AESC*, p. 42-50.
, 1957 a ; *Le Djebel Amour*. Paris (*Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*, IIème série, XXXV).
, 1957 b ; L'atlas des centuriations romaines de Tunisie. *AESC*, p. 460-66.
, 1959 a ; L'atlas saharien occidental d'Algérie : `ksouriens`et pasteurs. *Mélanges géographiques canadiens offerts à Raoul Blanchard*, Québec, p. 403-416.
, 1959 b ; Le Djebel Ousselat, les Ousseltiya et les Kooub. *CT*, p. 407-427.
, 1959 c ; *Pour une étude de la culture en terrasses dans les pays méditerranéens*. *Géographie et Histoire Agraires*, Nancy (*Mémoires des Annales de l'Est*, 21), p. 105-117.
, 1960 ; La répartition de la population en Algérie. *AESC*, p. 915-26.
, 1961 a ; *La Tunisie*. Paris.
, 1961 b ; Development of land use in Northern Africa with references to Spain. *HLUAR*, p. 219-37.
, 1962 ; Sur la limite Nord de l'emploi du dromadaire au Maghreb. *AG*, p. 217-19.
, 1964 ; Les paysages agraires traditionnels du Maghreb et du Sahara septentrional. *AG*, p. 129-171.
, **et Raynal (A.)**, 1966 ; *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest*. Paris.
Devic (M.), 1883 ; *Le pays des Zenjs ou la côte orientale d'Afrique au Moyen-âge*. Paris.
, 1883-86 ; *Kitâb adjâib el-Hind ; Livre des Merveilles de l'Inde par le capitaine Bozorg*, traduit par..., texte arabe et note par P.A. Van Der Lith. Leyde.
Dickson (H.R.P.), 1949 ; *The Arab of the Desert*. Londres.
Dillemain (Louis), 1962 ; *Haute Mésopotamie orientale et pays adjacents : contribution à la géographie historique de la région du Vème siècle avant l'ère chrétienne au VIème siècle de cette ère*. Paris (*IFAB*, LXXII).
Dizain (D.), 1953 ; Le facteur de l'expansion Bamiléké au Cameroun. *BAGF*, N° 235-36, p. 117-26.
Dobby (E.G.H.), 1950 ; *South-East Asia*. Londres.
Donghi (T.H.), 1956 ; Les Morisques du royaume de Valence au XVIème siècle. *AESC*, p. 154-182.

Dostal (W.), 1959 ; The evolution of Bedouin life. *ASB*, p. 11-34.
Doughty (C.M.), 1921 ; *Arabia Deserta* (3ème édit.). New-York, 2 vols.
Donmez (Y.), 1963-64 ; A Yörük (nomadic) settlement West of Karasu. *RGIUI*, N° 9-10, p. 161-79.
Dresch (J.), 1930 ; Le massif de Moulay Idriss (Maroc septentrional), étude de géographie humaine. *AG*, p. 496-510.
, 1941 ; *Documents sur les genres de vie de montagne dans le Massif Central du Grand Atlas*. Tours (*IHEM*, XXXV).
, 1949 a ; La riziculture en AOF. *AG*, p. 295-312.
, 1949 b ; Dans le Grand Atlas clacaire : notes de géographie physique et humaine. *BAGF*, p. 56-63.
, 1952 a ; Paysans montagnards du Dahomey et du Cameroun. *BAGF*, p. 2-9.
Dresch (J.), 1952 b ; L'occupation du sol en Afrique occidentale et centrale. *Symposium Intercolonial. Bordeaux*, p. 90-96.
, 1953 ; Migrations pastorales dans ke Haut Atlas calcaire. *Mélanges Ph. Arbos*, Paris II, p. 131-140.
, 1959 ; Les transformations du Sahel Nigérien. *Acta Geographica*, N° 30, p. 3-12.
Dubler (C.E.), 1943 a ; *Über Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel. Untersuchung auf Grund der Ortsnamen. Suche, Ort und Wort, Festschrift Jacob Jud*, Genève-Erlenbach (*Romanica Helvetica*, 20), p. 182-96.
, 1943 b ; *Über das Witschaftsleben auf der Iberischen Halbinse vom XI zum XIII Jahrhundert*. Genève-Erlenbach (*Romanica Helvetica*, 22).
Dubourg (J.), 1957 ; La vie du paysan Mossi, le village de Taghalla. *COM*, p. 285-324.
Dufourg (J.P.), 1951 ; La maison rurale au Djebel Druze. *RGL*, p. 411-22.
, 1955 ; Premières notes sur les problèmes de l'eau au Djebel ed-Druz. *RGL*, p. 309-28.
Dupeyron (G.), 1959 ; Bintagoungou, village du Fabiguine ; budgets et niveaux de vie. *COM*, p. 26-55.
Dupire (Marg.), 1962 ; *Peuls nomades, étude descriptive des Wodaabe du Sahel Nigérien*. Paris (*Travaux et Mémoires de l'Institut d'Éthnologie*, LXIV).
Dussaud (René), 1955 ; *La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam*. Paris (*IFAB*, 59).
Džikiev (A.), 1957 ; Poselenija i žilisča turkmenov jugovostočnogo poberežja kaspijskogo morja v XIX-XX v. v. *SE*, 4, p. 76-90.

Eberhard (Wolfram), 1953 ; Nomads and farmers in Southeastern Turkey : problems of settlement. *Oriens*, VI, p. 32-50.
Edmonds (C.J.), 1957 ; *Turks, Kurds an Arabs : politics, travel and research in Northeastern Iraq, 1919-1925*. Londres.
Eickstedt (E. von), 1961 ; *Türken, Kurden und Iraner seit dem Altertum*. Stuttgart.
Emsalem (R.), 1950 ; Les villages indigènes d'Oran. *RGL*, p. 289-99.
English (P.W.), 1966 ; *City and village in Iran. Settlement en economy in the Kirman basin*. Madison.
Enjalbert (H.), 1956 ; Paysans noirs : les Kabré du Nord Togo. *COM*, p. 137-180.
Erinç (S.), 1952-53 ; Van'dan Cilo dağlarına. *IUCED*, N° 3-4, p. 84-106.
Erinç (S.), et **Tunçdilek (N.)**, 1952 ; The agricultural regions of Turkey. *GR*, p. 179-203.
Etienne (G.), 1965 ; L'économie de l'Afghanistan, *Tiers-Monde*, p. 939-957.
Euting (Julius), 1896-1914 ; *Tagbuch einer Reise in Innerarabien*. Leyde, 2 vols.
Evans-Pritchard (E.E.), 1940 ; *The Nuer*. Oxford.
Evliya Çelebi, 1314 H – 1938 ; *Seyahatnâmesi*. Istanbul, 10 vols.
Évolution (l') économique, sociale et culturelle des Pays d'Islam s'est-elle montrée défavorable à la formation d'un capitalisme de type occidental ? *Colloque organisé les 22-24 mars 1960, Institut d'Études Islamiques et Centre d'Études de l'Orient Contemporain de l'Université de Paris*, ronéotypé.
Eydou (H.P.), 1942 ; *L'homme et le Sahara*. Paris.

Fahmy (A.M.), 1950-55 ; *Muslim sea-power in the Eastern Mediterranean*. Londres.
Faidutti (A.M.), 1961 ; Les grandes lignes du développement urbain de Constantine. *BAGF*, N° 298, p. 38-51.
Farmer (B.H.), 1950 ; Agriculture in Ceylan. *GR*, p. 42-67.
Fautz (Bruno), 1963 ; *Sozialstruktur und Bodennutzung in der Kulturlandschaft des Swat (Nordwset Himalaya)*. Giessen (*Giessener geographische schriften*, 3).

Feilberg (C.G.), 1944 ; *La tente noire*. Copenhague (*Nationalmuseets Skrifter, Etnografisk Roekke*, II).
, 1952 ; *Les Papis*. Copenhague (*Id.* IV).
Ferdinand (K.), 1959 a ; Preliminary notes on Hazara culture. *Historisk-filosofiske Meddelelser, Danske Videnskabernes Selskab*, 37, N° 5.
, 1959 b ; The Baluchistan barrel-vaulted tent and its affinities. *Folk* I, p. 27-50.
, 1960 ; The Baluchistan barrel-vaulted tent, Supplementary material. *Folk* II, p. 33-51.
, 1962 ; Nomad expansion and commerce in central Afghanistan. *Folk* IV, p. 123-159.
, 1964 ; Etnographical notes on Châhar Aimâq, Hazara and Moghôl. *Acta orientalia* (Copenhague), XXVIII, p. 175-203.
Ferrand (Gabriel), 1881-1902 ; *Les musulmans à Madagascar et aux Comores*. Paris, 3 vols.
, 1913-14 ; *Relations de voyages et textes géographiques Arabes, Persans et Turks relatifs à l'Extrême-Orient du VIIIème au XVIIIème siècle*. Paris, 2 vols.
Ferrand (Gabriel), 1922 ; Le pilote arabe de Vasco de Gama et les instructions nautiques des Arabes au XVème siècle. *AG*, 1922, p. 289-307.
, 1923 ; Les instructions nautiques de Sulayman al-Mahrî (XVIème siècle). *AG*, p. 298-312.
, 1924 ; L'élément persan dans les textes nautiques arabes, *JA*, CCIV, p. 193-257.
, 1928 ; *Instructions nautiques et routiers arabes et portugais des XVème et XVIème siècles. III : Introduction à l'astronomie nautique arabe*. Paris.
, 1945 ; Les ralations de la Chine avec le golfe persique avant l'hégire. *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*.
Ferrier (J.P.), 1856 ; *Caravan journeys and Wanderings in Persia, Afghanistan, Turkestan and Beloochistan*. Londres.
Feuvrier (Dr.), 1906 ; *Trois ans à la cour de Perse*. Paris.
Fevret (M.), 1949 ; La sériculture au Liban. I. sa fortune passée. II. son déclin actuel. *RGL*, p. 247-60, 341-361.
Field (Henry), 1939 ; *Contribution to the anthropology of Iran*. Chicago, 2 vols (*Anthropological Series – Field Museum of Natural History*, 29, 1 et 2).
Findeisen (H.), 1960 ; Die Ackerbaukultur an den Nordhangen des Kopet dagh. *Die Erde*, p. 277-290.
Firth (R.), 1946 ; *Malay fishermen : their peasant economy*. Londres.
Fisher (C.A.), 1964 ; *South-East Asia*. Londres.
Fisher (W.B.), 1950 ; *The Middle East*. Londres.
, 1953 ; Problems of modern Lybia. *GJ*, p. 183-95.
Forget (M.), 1963 ; Population et genres de vie dans le Kounary. *NPANO*, p. 152-233.
Fraser (M.), 1840 ; *Travels in Koordistan, Mesopotamia*. Londres, 2 vols.
Fraser (Th. M.), 1960 ; *Rusembilan, a Malay fishing village in Southern Thailand*. Ithaca.
Freeman-Grenville (G.S.P.), 1962 ; *The medieval history of the coast of Tanganyika*. Londres.
Froehlich (J.C.), 1952 ; Densité de la population et méthodes de culture chez les Kabré du Nord Togo. *Congrès International de Géographie, Lisbonne*, 1949, IV, p. 168-80.
, 1953 ; Ngaoundéré, la vie économique d'une cité peul. *Études camerounaises*, N° 43-44, p. 3-66.
Frödin (J.), 1944 ; Les formes de la vie pastorale en Turquie. *Geografiska Annaler*, p. 219-272.
, 1948 ; Turkiska Armenien och Kurdistan. Kungl. *Vetenskapssocietetens Årsbok*, p. 33-96.
Frye (R.W.), 1961 ; Remarks on Baluchi history. *CAJ*, p. 44-50.

Gabain (A. von), 1949 ; Steppe und Stadt im Leben der ältesten Türken. *Der Islam*, 29-1, p. 30-62.
, 1962 ; *Kazaklık. Nemeth Armağam*, Ankara (*Türk Dil Kurumu Yayınları*, 191), p. 167-170.
Gabriel (Afons), 1929 ; *Im weltfernen Orient*. Munich.
, 1952 ; *Die Erforschung Persiens*. Vienne.
Gadille (J.), 1957 ; L'agriculture européenne au Maroc. *AG*, p. 144-158.
Gafferberg (E.), 1960 ; Poezdka k Beludžam Turkmenii v 1958 g. *SE*, 1, p. 112-125.
Gaitskell (A.), 1959 ; *Gezira, a story of development in the Sudan*. Londres.
Gallais (J.), 1959 ; La riziculture de plaine en Haute Guinée. *AG*, p. 207-223.
Galloy (P.), 1963 ; Nomadisme et fixation dans la région des lacs du Moyen-Niger. *NPANO*, p. 11-34.
Garine (Igor de), 1964 ; *Les Massa du Cameroun : vie économique et sociale*. Paris.

Gaudefroy-Demombynes (M.), 1923 ; *La Syrie à l'époque des Mamelouks*. Paris (*IFAB*, III).
, 1957 ; *Mahomet*. Paris (*L'Évolution de l'humanité*, XXXVI).
Gautier (Émile-Félix), 1908 ; *Le Sahara Algérien*. Paris.
, 1927 ; *Les siècles obscurs du Maghreb*. Paris.
, 1928 ; *Le Sahara*. Paris.
, 1931 ; *Mœurs et cotumes des Musulmans*. Paris.
, 1943 ; L'Afrique Noire occidentale : esquisses des cadres géographiques. Paris.
Gershevitch (I.), 1959 ; Travels in Bashkardia. *JRCAS*, p. 213-225.
Ghirshman (R.), 1964 ; *Invasions des nomades sur le plateau iranien aux premiers siècles du I^{er} millénaire av. J.-C. Dark ages and nomads c. 1.000 B.C. : Studies in Iranian and Anatolian archeology*. Istanbul (*Publications de l'Institut Historique et Archéologique Néerlandais de Stamboul*, XVIII), p. 3-8.
Ghosh (O.K.), 1959 ; Some problems of Indian History in the light of geography. *Geographical Review of India*, XXI, dec., p. 43-50.
Gibb (H.A.R.), et Bowen (H.), 1950-57 ; *Islamic society and the West*. Londres, I, 1et 2.
Gibert (A.), 1949 ; L'irrigation dans la plaine de Homs et ses problèmes. *RGL*, p. 151-58.
et **Fevret (M.)**, 1953 ; La Djezireh syrienne et son réveil économique. *RGL*, p. 1-15 et 83-99.
Gildmeister (J.), 1882 ; Über arabisches schiffswesen. Nachrichten von der Königlich. *Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen*, N° 15, p. 431-448.
Glykatzi-Ahrweiler (H. – voir aussi Ahrweiler), 1958 ; Les forteresses construites en Asie Mineure face à l'invasion seldjoukide. *Acten des XI internationalen Byzantinisten-Kongresses*, Munich, p. 182-89.
Goblot (H.), 1961 ; Le rôle de l'Iran dans les techniques de l'eau. *Techniques et Sciences Municipales*. Février.
, 1963 ; Dans l'ancien Iran : les techinques de l'eau et la grande histoire. *AESC*, p. 499-520.
Golomb (L.), 1959 ; *Die Bodenkultur in Ost-Turkestan : Oasenwirtschaft und Nomadentum*. Puiseux. (*Studia Instituti Anthropos*, 14).
Golvin (Lucien), 1957 ; *Le Magrib central à l'époque des Zirides*. Paris.
Gourou (Pierre), 1947 ; *Les pays tropicaux*. Paris.
, 1956 ; The quality of land use of tropical cultivators. *MRCFE*, p. 336-49.
Gökbilgin (M. Tayyib), 1952 ; XV-XVI asırlarda Edirne ve Pasa livası. Istanbul (*IUEFY*, 508).
, 1957 ; *Rumeli' de Yürükler, Tatarlar ve Evlâd-i Fâtihan*. Istanbul (*IUEFY*, 743).
Gökçen (I.), 1946 ; *Saruhanda Yürük ve Türkmenler*. Istanbul.
Gözaydın (Ethem Feyzi), 1948 ; *Kırım : Kırım Türklerinin yerleşme ve göçmeleri*. Istanbul.
Grandet (Cl.), 1957 ; Les sédentaires du cercle de Tombouctou. *COM*, p. 234-56.
, 1958 ; La vie rurale dans le cercle de Goundam (Niger-soudanais). *COM*, p. 25-46.
Gray (J.), 1962 ; *History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856*. Londres.
Grenier (Ph.), 1960 ; Les Peul du Ferlo. *COM*, p. 28-58.
Grohmann (A.), 1957 ; Article Al-'Arab. *EI* (2), I, p. 540-541.
Grotanelli (V.L.), 1939 ; *Ricerche geographiche ed economiche sulle popolazioni*. Rome (*Missione di Studio al Lago Tana*, 2).
Grothe (Hugo), 1912 ; *Meine Vorderasien expedition 1906 und 1907*. Leipzig, 2 vols.
Grousset (René), 1939 ; *L'empire des steppes*. Paris.
, 1941 ; *L'empire mongol (I^{ère} phase)*. Paris.
, 1944 ; *Le conquérant du monde (vie de Gengis Khan)*. Paris.
Grötzbach (E.), 1965 ; Kulturgeographische Beobachtungen in Farkhar-Tal (Afghanischen Hindukusch). *Die Erde*, p. 279-300.
Grunebaum (G.E. von), 1955 ; Die islamische Stadt. *Saeculum*, VI, p. 138-153.
Gsell (St.), 1913-28 ; *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. Paris, 8 vols.
, 1926 ; La Tripolitaine et le Sahara au IIIème siècle de notre ère. *Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, XLIII, p. 149-66.
Guillain (M.), 1856-57 ; *Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique orientale*. Paris, 3 vols.
Guillaume (M.), 1960 ; Les aménagements hydro-agricoles de riziculture et de culture de décrue dans la vallée du Niger. *Agronomie Tropicale*, p. 73-91, 133-187, 273-319, 390-413.
Gulik (L.M.), 1963 ; Irrigation system of the former Sind province, West-Pakistan. *GR*, p. 79-99.
Gungör (Kemal), 1941 ; *Cenubi Anadolu Yürüklerin etno-antropolojik tetkiki*. Ankara.

Haberland (Günther), 1960 ; *Gross Haiderabad – Wachstum und Wandel einer indischen Stadt*. Hamburg.
Hacker (Jane M.), 1960 ; *Modern Amman : a social study*. Durham (*Research Papers Series N° 3, Department of Geography, Durham Colleges in the University of Durham*).
Hahn (H.), 1964-65 ; *Die Stadt Kabul, Afghanistan, und ihr Umland*. Bonn, 2 fasc. (*BGA*, 34-35).
Halasi-Kun (T.), 1964 ; Sixteenth-Century Turkish settlements in Southern Hungary. *BEL*, p. 1-72.
Hamdan (G.), 1961 ; Evolution of irrigation agriculture in Egypt, *HLUAR*, p. 119-142.
Hamidé (Abdul Rahman), 1960 ; *La région d'Alep, étude de géographie rurale*. Damas.
Hančar (F.), 1955 ; *Das Pferd in prähistoricher und früher historicher zeit*. Vienne.
Harris (Walter B.), 1896 ; *From Batum to Baghdad*. Londres.
Harrison Church (R.J.), 1957 ; *West Africa*. Londres (2ème édit.).
Hasan (H.), 1928 ; *A history of Persian navigation*. Londres.
Hasluck (F.W.), 1929 ; *Christianity and Islam under the sultans*. Oxford, 2 vols.
Hattal (Ahmed ben), 1858-59 et 1859-60 ; Expédition de Mohammed el Kebir, bey de Mascara dans les contrées du Sud (trad. Giorgios). *RA*, III, p. 52-61, 185-192, 286-95 ; IV, p. 347-57.
Henninger (Joseph), 1959 ; La société bédouine ancienne. *ASB*, p. 69-93.
Herzfeld (E.), 1907 ; Eine Reise Durch Luristan, Arabistan und Fars. *PM*, 53, p. 49-63, 73-90.
Herzog (Rolf), 1963 ; *Sesshaftwerden von Nomaden*. Köln-Opladen (*Forschungsberichte des Landes Nord-Westfalen*, 1238).
Hetzel (W.), 1961 ; Wadi-el-Natrûn, Beispiel eines Entwicklungsvorhabens in Aegypten. *Die Erde*, p. 43-54.
Hilton (T.E.), 1960 ; Frafra resettlement and the population problem in Zwarangu. *BIFAN*, série B, p. 426-442.
Hitti (P.K.), 1937 ; *History of the Arabs*. Londres.
Hoernebach (W.), 1950-55 ; Araber und Mittelmeer. *Anfänge und Probleme Arabischen Seegeschichte. Zeki Velidi Togan'a Armağan*, Istanbul, p. 379-396.
Hopen (C.E.), 1958 ; *The pastoral Fulbe family in Gwandu*. Londres.
Hornell (J.), 1942 ; A tentative classification of Arab seacraft. *Mariner's Mirror*, Jan.
Hourani (George), 1951 ; Arab seafaring. Princeton (Princeton Oriental Studies, 13).
Höfner (Maria), 1959 ; Die Beduinen in den vorislamischen Arabischen Inschriften. *ASB*, p. 53-68.
Humlum (J.), 1954 ; Il bazar di Rangamati. *Bolletino della Societa Geografica Italiana*, p. 1-27.
, 1959 ; *La géographie de l'Afghanistan*. Copenhague.
Huntington (Ellsworth), 1907 ; *The pulse of Asia*. Boston.
, 1911 ; *Palestine and its transformations*. Boston.
, 1935 ; Climatic pulsations. *Hyllningsskrift tillägnad Sven Hedin*, Stockholm, p. 571-607.
Hursault (J.), 1962 ; *La structure sociale des Bamiléké*. Paris.
, 1964 ; Antagonisme de l'agriculture et de l'élevage sur les hauts plateaux de l'Adamoua (Cameroun). *Études Rurales*, 15, p. 22-72.
Hütteroth (W.D.), 1959 ; *Bergnomaden und mittleren Kurdischen Taurus*, Marburg (*Marburger geographische Schriften*, 11).
, 1962 ; Getreidekonjonktur und jüngerer Siedlungsausbau im südlichen Inneranatolien. *Erdkunde*, p. 249-271.

Ibn Battûta, 1958-1962 ; *Travels*. Trad. Anglaise par H.A.R. Gibb. Cambridge, 2 vols.
Ibn Hauqal, 1964 ; *Configuration de la terre*. Trad. Française par J.H. Kramers et G. Wiet. Paris, 2 vols.
Ibn Khaldoun, 1925-26 ; *Histoire des Berbères*. Trad. De Slane. Nlle. Édit. Publiée par P. Casanova. Paris, IV vols.
, 1863-65 ; *Prolégomènes (Muqqaddimeh)*. Trad. De Slane. Paris, 2 vols. Id, 1958, trad. Anglaise, Rosenthal. New-York, 3 vols.
Ibn Serapion, 1895 ; Description of Mesopotamia and Baghdad, written about the year 900 A.D., transl. by G. Le Strange. *JRAS*, p. 1-76, 255-315.
Ingrams (W.H.), 1938 ; The Hadhramaut : present and futur. *GJ*, 92, p. 289-312.
Institut d'Études et de Recherches Sociales Tehran, 1964 ; Abadan, morphologie et fonction du tissu urbain. *RGE*, p. 337-386.
Isnard (Hildebert), 1936 ; Caractère récent du peuplement indigène du Sahel d'Alger. *RA*, p. 203-206.

Isnard (Hildebert), 1937 ; Le cantonnement des indigènes dans le Sahel d'Alger (1852-54). *MG*, p. 245-55.

, 1947 ; *La vigne en Algérie*. Gap.

, 1949 ; *La réorganisation de la propriété rurale dans la Mitidja*. Alger.

, 1953 ; Les bases géographiques de la monarchie hova. *Éventail de l'histoire vivante, hommage à Lucien Febvre*, Paris, p. 195-206.

, 1955 ; *Madagascar*. Paris.

, 1958 ; Structure de la colonisation agricole en Algérie à la veille de l'insurrection. *Bulletin de la Société de Géographie d'Aix-Marseille*, p. 85-118.

, 1961 ; Les exploitations agricoles européennes en Algérie. *Méditerranée*, p. 23-33.

, *Le Maghreb*. Paris.

Jackson (W.A.D.), 1956 ; The virgin and idle lands of Western Siberia and Northern Kazakhstan. *GR*, p. 1-19.

Jaeger (Fr.), 1936 ; *Trockengrezen in Algeria*. (*Petermanns Mitteilungen, Ergänzungsheft* 233).

Jakuboskij (A.J.), 1941 ; *K voprusu ob etnogeneze uzbekskogo naroda*. Tachkent.

Jakuboskij (A.J.), et Grekov (B.D.), 1950 ; *Zolotaja orda i ee podenie*. Moscou, 3ème édit. (Trad. Française par F. Thuret, *La Horde d'Or*, Paris, 1939, sur la 1ère édit. de Leningrad, 1937 ; Trad. Turque par H. Eren, *Altın ordu ve inhitatı*, Istanbul, 1955, sur la 3ème édit.).

Jaussen (A.), 1908 ; *Coutumes des Arabes au pays de Moab*. Paris.

Jin-Bee (Ooi), 1963 ; *Land, people and economy in Malaya*. Londres.

Joly (F.), 1948 ; Casablanca : éléments pour une étude de géographie urbaine, *COM*, p. 119-148.

Kafesoğlu (I.), 1958 ; Türkmen adı, mânası. *Jean Deny Armağanı*, Ankara, p. 121-134 (résumé français : À propos du nom Türkmen, *Oriens*, XI, 1958, p. 146-150).

Kamian (Bakari), 1959 ; Une ville de la république du Soudan . San. *COM*, p. 225-50.

Kammerer (Albert), 1929-1949 ; *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité*. Tome I, *Les pays de la Mer Erythrée jusqu'à la fin du Moyen Age*, 2 vols, Le Caire, 1929. Tome II, *Les guerres du poivre*, 2 vols, Le Caire, 1935. Tome III, *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie aux XVIème et XVIIème siècles et la cartographie des portulans*, 2 vols, Le Caire, 1947-49.

Karça (R.), et Koğay (H.Z.), 1959 ; *Karaçay-Malkar Türklerinde hayvancılık ve bununla ilgili gelenekler*. Ankara (*Ankara Universitesi Dil ve Tarih-Coğrafya Fakültesi Yayınlarından*, 101).

Karger (A.), 1965 ; Historisch-Geographische Wandlungen der Weidewirtschaft in den Trockengebieten der Sowjet Union am Beispiel Kazakhstans. *Weide-Wirtschaft in Trockengebieten, Stuttgart*, p. 37-50 (*Giessener Beiträge zur Entwicklungsforschung*, Reihe I, 1).

Karim (Abdul), 1964 ; *Dacca, the Mughol capital*. Dacca (*Asiatic Society of Pakistan*, Publication N° 18).

Karmon (Y.), 1953 ; The settlement of the Northern Huleh valley since 1838. *IEJ*, p. 4-25.

, 1959 ; Geographical conditions in the Sharon plain and their impact on its settlement. *Bulletin of the Israel Exploration Society*, XXIII, p. 3-4.

Klaer (Wendelin), 1962 ; *Eine Landnutzungskarte von Libanon*. (*Heidelberger Geographische Arbeiten*, 10).

Klengel (Horst), 1962 ; Zu einigen Problemen des altvorderasiatischen Nomadentums. *Archiv Orientalni*, p. 585-96.

Kolb (A.), 1942 ; *Die Philippinen*. Leipzig.

Kolpakov (N.), 1935 ; Über Kamelkreuzungen. *Berliner Tierartzliche Wochenschrift*, p. 607-622.

Kostanick (H.L.), 1957 ; *Turkish resettlement of Bulgarian Turks 1950-53*. (*University of California Publications in Geography*, 8, N° 2, p. 65-164).

Kovda (V.A.), Land use development in the arid regions of the Russian plain, the Caucasus and Central Asia. *HLUAR*, p. 175-218.

König (Wolfgang), 1962 ; *Die Achal-Teke : zur Wirtschaft und Gesellschaft einer Turkmenen-Gruppe im XIX Jahrhundert*. Berlin (*Veröffentlichungen des Museums für Völkerkunde zu Leipzig*, 12).

Köprülü (Fuat), 1935 ; *Les origines de l'empire ottoman*. Paris.

Krader (L.), 1955-56 ; Qan-Qayan and the beginnings of Mongol kingship. *CAJ*, I, p. 17-35.

, 1962 ; *Peoples of Central Asia*. La Haye (*Uralic and Altaic Series*, 26).

, 1963 ; *Social organization of the Mongol-Turkic pastoral nomads*. La Haye (*Uralic and Altaic Series*, 20).

Krebs (N.), 1939 ; *Vorderindien und Ceylon. Eine Landeskunde*. Stuttgart.
Kronenberg (Andreas), 1958 ; *Die Teda von Tibesti* ; Vienne. (*Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik*, XII).
Kupper (J.R.), 1957 ; *Les nomades en Mésopotamie au temps des rois de Mari*. Paris.
, 1959 ; Le rôle des nomades dans l'histoire de la Mésopotamie ancienne. *JESHO*, 1959, p. 113-127.
Kutluk (Halil), 1948 ; *Türkiye ormancılığı ile ilgili tarihi vesikilar*. Istanbul (*Tarım Bakanlığı orman genel müdürlüğü yayınlarından* 56).

Lacam (Jean), 1965 ; *Les Sarrazins dans le Haut Moyen-âge français*. Paris.
Lambert (W.G.), 1960 ; The domesticated camel in the second millenium – evidence from Alalakh and Ugarit. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 160, p. 42-43.
Lambton (A.K.S.), 1953 ; *Landlord and peasant in Persia*. Londres.
Lammens (H.), 1914 ; *Le berceau de l'Islam. L'Arabie occidentale à la veille de l'Hégire*. I. *Le climat. Les bédouins*. Rome.
, 1923-24 ; *La Mecque à la veille de l'Hégire*. Beyrouth (*Mélanges de la Faculté Orientale de l'Université Saint-Joseph*, IX, fasc. 4).
Langlois (Victor), 1881 ; *Voyage dans la Cilicie et dans les montagnes du Taurus exécuté pendant les années 1852-53*. Paris.
Laoust (E.), 1930-32-34 ; L'habitation chez les transhumants du Maroc Central. *Hespéris*, X, 1930, p. 151-253 ; XV, 1932, p. 115-218 ; XVIII, 1934, p. 109-196.
Lapeyre (H.), 1959 ; *Géographie de l'Espagne Morisque*. Paris.
Larnaude (M.), 1932 ; Le groupement de la population berbère dans la Kabylie du Djurdjura. *Cinquantenaire de la Faculté des Lettres d'Alger*, p. 269-93.
, 1936 ; Déplacements des travailleurs algériens en Algérie. *RA*, LXXIX, p. 207-16.
, 1937 ; Tentes et habitations fixes en Oranie. *MG*, p. 297-306.
, 1950 ; *L'Algérie*. Paris.
Laroche (E.), 1959 ; *Dictionnaire de la langue louvite*. Paris.
Latham (J.D.), 1957 ; Towards a study of Andalusian immigration an dits place in Tunisian history. *CT*, p. 203-252.
Latron (A.), 1936 ; *La vie rurale en Syrie et au Liban*. Damas.
Lattimore (Owen), 1915 ; *Inner Asian frontiers of China*. New-York, 2ème édit.
Lautensach (H.), 1954 ; Ueber die topographischen Namen arabischen Ursprungs in Spanien und Portugal. Arabische Züge im geographischen Bild der Hispanischen Halbinsel. *Die Erde*, p. 219-243.
, 1960 ; *Maurische Züge im geographischen Bild der iberischen Halbinsel*, (*BGA*, 28) Voir compte-rendu par X. de Planhol, L'Islam dans la physionomie géographique de la péninsule ibérique. *Revue Géographique des Pyrénées et du Sud-Ouest*. 1962, p. 274-281.
, 1964 ; *Die Iberische Halbinsel*. Munich.
Leboeuf (J.P.), 1961 ; *L'habitation des Fali montagnards du Cameroun septentrional*. Paris.
Lebon (J.H.G.), 1955 ; The new irrigation era in Iraq. *EG*, p. 47-59.
, 1956 ; The site and modern development of Baghdad. *BSGE*, XXIX, p. 7-32.
, et **Robertson (V.C.)**, 1961 ; The jebel Marra, Darfur and its region. *GJ*, CXXVII, p. 30-49.
, 1965 ; *Land use in Sudan*. Bude (*World Land Use Survey Monographs*, N° 4).
Le Conte (R.), 1921 ; Les Koutso-Valaques. *Mouvement géographique*, p. 166-170.
Le Coz (J.), 1964 ; *Le Rharb : fellahs et colons*. Paris, 2 vols.
Lees (G.M.), et Falcon (L.N.), 1952 ; The geographical history of the Mesopotamian plains. *GJ*, CXVIII, p. 24-39.
Lehmann-Haupt (C.F.), 1910-1931 ; *Armenien Einst und Jetzt*. Berlin, 3 vols.
Lehuraux (L.), 1931 ; *Le nomadisme et la colonisation dans les hauts plateaux de l'Algérie*. Alger.
, 1948 ; *Où va le nomadisme en Algérie ?* Alger.
Leidlmair (A.), 1961 ; *Hadramaut : Bevölkerung und Wirtschaft im Wandel der Gegenwart*, (*BGA*, 30).
, 1965 ; Umbruch und Bedeutungswandel im nomadischen Lebensraum des Orients. *GZ*, p. 81-97.
Lembézat (B.), 1962 ; *Les populations païennes du Nord-Cameroun et de l'Adamaoua*. Paris.
Léon (Jean) l'Africain, 1956 ; *Description de l'Afrique*. Trad. Epaulard. Paris, 2 vols.

Le Rouvreur (A.), 1962 ; *Sahéliens et Sahariens du Tchad.* Paris (*L'homme d'outre-mer*, Nlle Série, 5).
Lescot (Roger), 1938 ; Enquête sur les Yezidis de Syrie et du Djebel Sindjar. *MIFD*, 5.
Lesne (M.), 1959 ; *Évolution d'un groupement berbère : les Zemmour.* Rabat.
, 1962 ; Une expérience de déplacement de population : les centres de regroupement en Algérie. *AG*, p. 567-603.
Lespès (R.), 1930 ; *Alger, étude de géographie et d'histoire urbaines.* Paris.
, 1938 ; *Oran, étude de géographie et d'histoire urbaines.* Paris.
Le Strange (Guy), 1890 ; *Palestine under the Moslems.* Londres.
, 1905 ; *The land of the Eastern caliphate.* Cambridge.
Lestrange (Monique de), 1955 ; *Les Coniagui et les Bassari.* Paris.
Le Tourneau (R.), 1949 ; *Fès avant le protectorat.* Casablanca (*IHEM*, XLV).
, 1957 ; *Les villes musulmanes de l'Afrique du Nord.* Alger (*Bibliothèque de l'Institut d'Études Supérieures Islamiques*, XI).
Lewis (Herbert S.), 1966 ; The origins of the Galla and Somali. *JAH*, VII, p. 27-46.
Lewis (I.M.), 1955 ; *Peoples of the horn of Africa, Somali, Afar and Saho.* Londres.
, 1961 ; *A pastoral democracy : a study of pastoralism and politics among the Northern Somali of the horn of Africa.* Oxford.
Lewis (I.M.), edit. 1966 ; *Islam in tropical Africa.* Londres.
Lewis (N.N.), 1952 ; The Ismailis of Syria to day. *JRCAS*, p. 69-77.
, 1953 ; Lebanon : the mountain and its terraces. *GR*, p. 1-14.
, 1955 ; The frontier of settlement in Syria. *International Affairs*, XXXI, p. 48-60.
Lewis (R.A.), 1962 ; The irrigation potential of Soviet Central Asia. *Annals of the Association of American Geographers*, p. 99-114.
Lhôte (Henri), 1955 ; *Les Touregs du Hoggar.* Paris, 2ème édit.
Lindberg (K.), 1955 ; *Voyage dans le Sud de l'Iran.* Lund.
Llobet (S.), 1958 ; Utilisacion del suelo y economia del agua en la region semi-arida de Huercal-Overa (Almeria). *EsG*, 70, p. 5-22.
Lombard (Maurice), 1959 ; Le bois dans la Méditerranée musulmane. *AESC*, p. 234-54 .
Louis (A.), 1961-63 ; *Les iles Kerkena, étude d'éthnographie tunisienne et de géographie humaine.* Tunis, III vols.
Louis (Herbert), 1927 ; Albanien, eine Landeskunde. Stuttgart (*Geographische Abhandlungen*, II, 3).
, 1957 ; Die junge kulturgeographische Entwicklung der Turkei. *DG*, Hamburg 1955, p. 59-72.
Lozach (J.), 1935 ; *Le delta du Nil, étude de géographie humaine.* Le Caire.
, et **Hug (C.)**, 1930 ; *L'habitat rural en Égypte.* Le Caire.
Lynch (H.F.B.), 1901 ; *Armenia. Travels and Studies.* Londres, 2 vols (réimp. Beyrouth, 1965).

Macdonald (Alexander), 1893 ; *The land of Ararat, or up the roof of the world, by a special correspondent.* Londres.
Maçoudi (Al-), 1861-1877 ; *Les prairies d'or.* Trad. Franç. par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille. Paris, 9 vols.
Marçais (Georges), 1913 ; *Les Arabes en Berbérie du XIème au XVème siècle.* Paris.
, 1946 ; *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-âge.* Paris.
, 1955 ; Les villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen-âge, *AEIO*, XIII, p. 118 ss.
Marçais (W.), 1928 ; L'islamisme et la vie urbaine. *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, p. 86-100.
Marchal (L.), 1954 ; Alexandrie. *Cahiers de l'Information Géographique*, I, p. 12-19.
Marco Polo, 1955 ; *La description du Monde.* Édit. L. Hambris. Paris.
Margalit (H.), 1963 ; Some aspects of the cultural landscapes of Palestine during the first half of the nineteenth century. *IEJ*, 13, p. 208-223.
Marmadji (A.S.), 1951 ; *Textes géographiques arabes sur la Palestine.* Paris.
Marthelot (P.), 1965 ; Bagdad, notes de géographie urbaine. *AG*, p. 24-37.
Martin (J.), Jover (H.), Le Coz (J.), Maurer (G.), Noin (D.), 1964 ; *Géographie du Maroc.* Paris.
Marty (P.), 1913 ; Les Mourides du Sénégal. *RMM*, XXV, p. 1-164.
, 1915-16 ; *L'Islam en Mauritanie et au Sénégal.* Paris.

Marty (P.), 1917 ; *L'Islam au Sénégal. Paris*, 2 vols.
, 1918-22 ; *L'Islam et les tribus du Soudan*. Paris, 4 vols.
, 1921 a ; *L'Islam et les tribus Maures : les Brakna*. Paris.
, 1921 b ; *L'Islam en Guinée*. Paris.
, 1922 ; *L'Islam en Côte d'Ivoire*. Paris.
, 1926 ; *L'Islam au Dahomey*. Paris.

Mauny (R.), 1961 ; *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age*. Dakar (*Mémoires de l'Institut Français d'Afrique Noire*, 61).

Maurette (F.), 1938 ; *Afrique équatoriale, orientale et australe*. Paris (*GU*, XIII).

Meckelein (W.), 1951-52 ; Wesen und Wandlungen des Nomadenlandes im Nord-westlichen Kaspi-Randgebiet. *Veröffentlichungen aus dem Geographischen Institut der Freien Universität Berlin*, N° 17, p. 339-353.

Melgunof (G.), 1868 ; *Das südliche Ufer des Kaspischen Meeres oder die Nordprovinzen Persiens*. Trad. Allemande, Leipzig.

Melikoff (Irène), 1964 ; Géorgiens, Turcomans et Trébizonde. Notes sur le livre de Dede Korkut. *Bedi Kartlisa*, XVII-XVIII, N° 45-46.

Mellaart (J.), 1962 ; Anatolia circa 4000-2300 B.C., *Cambridge Ancient History*, Nlle Édit., Vol I, chap. XVIII.

Mensching (H.), 1962 ; Das Medjerda Projekt in Tunisien. *Die Erde*, p. 117-135.

Mercier (P.), 1953 ; L'habitat et l'occupation de la terre chez les Somba. *BIFAN*, p. 798-817.

Merner (P.G.), 1937 ; *Das Nomadentum im nordwestlichen Afrika*. Stuttgart (*Herausgegeben von Geographischen Institut der Universität Berlin*, Heft 12). Voir compte-rendu par R. Capot-Rey dans *AG*, 1939.

Mikesell (M.W.), 1955 ; Notes on the dispersal of the dromedary. *SWJA*, p. 231-245. Trad. Franç. Dans BIFAN, 1956, Série A, p. 895-912.
, 1961 ; *Northern Morocco : a cultural geography*. Berkeley (*University of California Publications in Geography*, 14).
, 1964 ; Historical geography of the forests of Lebanon. *20th International Geographical Congress. Abstracts of Papers*. Londres, p. 270.

Miles (S.B.), 1966 ; *The countries and tribes of the Persian gulf*. Londres, 2ème édit.

Mellingen (Fr.), 1870 ; *Wild life among the Koords*. Londres.

Milliot (L.), 1933-34 ; *L'exode saisonnier des Rifains vers l'Algérie*. *Bulletin économique du Maroc*, I, p. 313-21 et 397-402.

Minorsky (V.), Article Kurdes, Kurdistan, *EI* (1).
, 1957 ; Mongol place-names in Mukri Kurdistan. *BSOAS*, XIX, p. 58-81.

Monchicourt (Ch.), 1913 ; *La région du Haut Tell en Tunisie*. Paris.

Monod (Th.), 1946 ; *L'hippopotame et le philosophe*. Paris.

Montagne (R.), 1930 ; *Les Berbères et le makhzen dans le Sud du Maroc*. Paris.
, 1947 ; *La civilisation du désert*. Paris.

Monteil (V.), 1966 ; *Les tribus du Fars et la sédentarisation des nomades*. Paris-La Haye.

Mookerji (Radha Kumud), 1957 ; *A history of indian shipping*. Allahabad, 2ème édit.

Moreland (W.H.), 1939 ; The ships of the Arabian Sea about A.D. 1500. *JRAS*, p. 63-74 et 173-192.

Morgan (J. de), 1894-95 ; *Missions scientifiques en Perse*. I-II. Paris.

Muhsam (H.V.), 1951 ; Fertility and reproduction of the Beduin. *Population Studies*, IV, p. 354-63.
, 1959 ; La sédentarisation des nomades en Israël. *RISS*, XI, 4, p. 561-572.

Muqqadasi, 1886 ; *Description of Syria including Palestine*. Trad anglaise. Londres.

Muraciole (L.), 1950 ; *L'émigration algérienne*. Paris.

Musil (Alois), 1928 ; *Manners and customs of the Rwala bedouins*. New-York.

Mustawfi (Hamd-allâh), 1919 ; *Nuzhat al-Qulub*. Trad. Anglaise par G. Le Strange. Leyde (*E.J.W. Gibb memorial*, XXVIII, 2).

Nachtigal (Gustav), 1879-89 ; *Saharâ and Sûdân*. Berlin, 3 vols.

Nacı (= Kum), 1927 ; Ispartalı Seyrânî ; Ispartalı Seyrâni'nin eserlerinden. *Seyahat Destanı*. *Türk Yurdu*, VI, N° 31-33.

Nadel (S.F.), 1946 ; *A black Byzantium : the kingdom of Nupe*. Londres.

Ner (M.), 1941 ; Les musulmans de l'Indochine Française. *Bulletin de l'École Fançaise d'Extrême-Orient*, XLI, p. 151-202.
Nezam-Mafi (M.), 1962 ; *Une région agricole de l'Iran : le Khouzistan*. Lausanne.
Nicolaisen (Johannes), 1954 ; Some aspects of the problem of nomadic cattle breeding among the Tuareg of the Central Sahara. *Geografisk Tidsskrift*, p. 62-105.
, 1959 ; Political sysrems of pastoral Tuaregs in Air and Ahaggar. *Folk*, I, p. 67-131.
, 1962 ; *Structures politiques et sociales des Touregs de l'Air et de l'Ahaggar*. Niamey (*Études Nigériennes*, 7).
, 1963, *Ecology and culture of the pastoral Tuareg*. Copenhague (*Nationalmusects Skrifter, Etnografisk Roekke*, IX).
Nicolas (Guy), 1962 ; Un village bouzou du Niger, étude d'un terroir. *COM*, p. 138-165.
Nikitine (B.), 1956 ; *Les Kurdes*. Paris.
Nouschi (A.), 1959 ; Notes sur la vie traditionnelle des populations forestières algériennes. *AG*, p. 523-535.

O'Donovan (Edmond), 1882 ; *The Merv oasis*.Londres, 2 vols.
Olufsen (O.), 1904 ; *Through the unknown Pamirs*. Londres.
Oppenheim (Max Freiherr von), 1939-1952 ; *Die Beduinen*. Leipzig-Wiesbaden. 3 vols.
Oraltay (Hassan), 1961 ; *Hürriyet uğrunda doğu Türkistan Kazak Türkleri*. Smyrne.
Orhonlu (C.), 1963 ; *Osmanlı imperatorluğunda aşiretleri işkan teşebbüsü (1691-96)*. Istanbul (*IUEFY*, 998).
Öngör (Sami), 1958-59 ; Türkiye'de dahili muhaceret hakkında. *TCD*, N° 18-19, p. 101-117.
Özçörekçi (H.), 1944 ; Untersuchungen an Anatolischen Kleinstaedten. *AUDTCFD*, III, p. 76-83.

Pabot (H.), 1960 ; *Rapport au 'Khuzistan development service' sur la végétation naturelle et son écologie dans les bassins versants du Khouzistsn*. Tehran-Ahwaz (ronéotypé).
Palau Marti (M.), 1957 ; *Les Dogon*. Paris.
Palgrave (W.G.), 1866 ; *Une année de voyage dans l'Arabie centrale*. Trad. Franç. Paris, 2 vols.
Papy (L.), 1951 ; La vallée du Sénégal : agriculture traditionnelle et riziculture mécanisée. *COM*, p. 277-324.
Paulme (Denise), 1957 ; Des riziculteurs africains : les Baga (Guinée française). *COM*, p. 257-278.
Pédelaborde (P.), 1957 ; Les oscillations climatiques. *L'information géographique*, p. 154-59.
Péhaut (Y.), 1961 ; L'arachide au Sénégal. *COM*, p. 5-25.
Pélissier (P.), 1951 ; L'arachide au Sénégal, rationnalisation et modernisation de la culture. *COM*, p. 204-236.
, 1953 ; Les paysans Sérères : essai sur la formation d'un terroir du Sénégal. *COM*, p. 105-127.
, 1958 ; Les Diola : étude sur l'habitat des riziculteurs de basse Casamance. *COM*, p. 334-388.
, 1966 ; *Les paysans du Sénégal*. Saint-Yrieix.
Pelletier (Jean), 1955 ; Un aspect de l'habitat èa Alger : les bidonvilles. *RGL*, p. 280-88.
, 1959 ; *Alger 1955 : essai d'une géographie sociale*. Paris (*Cahiers de Géographie de Besançon*, 6).
Pennec (Pierre), 1964 ; *Les transformations des corps de métiers de Tunis*. Tunis.
Percy (Earl), 1901 ; *Highlands of Asiatic Turkey*. Londres.
Peretz (Don), 1964 ; River schemes and their effect on economic development in Jordan, Syria and Lebanon. *MEJ*, p. 293-305.
Perrin (R.), 1960-61 ; Le Sersou, étude de géographie humaine. *Méditerranée*, 1960, N° 2-3, p. 61-119 ; N° 1, p. 33-97.
Perrot (Georges), 1864 ; *Souvenirs d'un voyage en Asie Mineure*. Paris.
, 1865 ; Les Kurdes de l'Haimaneh. *Revue des Deux Mondes*, p. 607-631.
Peter of Greece (Prince), 1954 ; The Abul Camp in Central Afghanistan. *JRCAS*, 41, p. 44-53.
Philby (H. St. J.B.), 1922 ; *The heart of Arabia*. Londres, 2 vols.
, 1933 ; *The empty quarter*. Londres.
, 1952 ; *Arabian highlands*. Ithaca.
, 1957 ; *The land of Midian*. Londres.

Philby (H. St. J.B.), 1959 ; Riyadh : ancient and modern. *MEJ*, p. 129-141.
Phillipson (A.), 1950-59 ; *Die Griechischen Landschaften*. Francfort, 4 vols.
Phillips (Paul G.), 1954 ; *The Hashemite Kingdom of Jordan : prolegomena to a technical assistance program.* Chicago (*University of Chicago, Department of Geography : Research Paper* 34).
Pietschmann (V.), 1940 ; *Durch Kurdische Berge und Armenische Städte*. Vienne.
Pirenne (J.), 1961 ; La date du Périple de la Mer Erythrée. *JA*, p. 441-459.
Planhol (X. de), 1952 ; Les migrations de travail en Turquie. *RGA*, p. 583-600.
, 1954 a ; Limites antique et actuelle des cultures arbustives méditerranéennes en Asie Mineure. *BAGF*, p. 4-14.
, 1954 b ; La vie de montagne dans le Sandras dağ. *RGA*, p. 665-74.
, et **Tabuteau (M.)**, 1956 a ; Le recul de l'olivier depuis l'antiquité dans les Hautes Plaines du Maghreb oriental. *COM*, p. 412-415.
, 1956 b ; Vie pastorale caucasienne et vie pastorale anatolienne. *RGA*, p. 371-381.
, 1957 ; *Le monde islamique, essai de géographie religieuse*. Paris. Trad. Anglaise, *The World of Islam*, Ithaca, 1959.
, 1958 a ; *De la plaine pamphylienne aux lacs pisidiens : nomadisme et vie paysanne*. Paris (*Bibliothèque Historique et Archéologique de l'Institut Français d'Istanbul*, III).
, 1958 b ; Les villages fortifiés en Iran et en Asie Centrale. *AG*, p. 256-58.
, 1958 c ; La vie de montagne dans le Sahend. *BAGF*, N° 201-02, p. 7-16.
, et **İnandık (H.)**, 1959 a ; Études sur la vie de montagne dans le Sud-ouest de l'Anatolie. *RGA*, p. 375-390.
, 1959 b ; Géographie, politique et nomadisme en Anatolie. *RISS*, XI, 4, p. 547-554.
, 1960 a ; Expansion et problèmes de l'agriculture turque. *RGL*, p. 91-103.
, 1960 b ; Les transformations récentes de l'habitat et du paysage rural en Algérie. *COM*, p. 355-365.
, 1960 c ; Un village de montagne de l'Azerbaïdjan iranien, Lighwan. *RGL*, p. 395-418.
, 1961 a ; *Nouveaux villages algérois : Atlas Blidéen, Chenoua, Mitidja occidentale*. Alger (*Publications de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines d'Alger*, XXXIX (paru également dans *RA*, 1960, p. 229-283 et 1961, p. 5-48).
, 1961 b ; La formation de la population musulmane à Blida. *RGL*, p. 219-230.
, 1961 c ; Les nouveaux villages d'Algérie. *Geografiska Annaler*, p. 243-251.
, 1962 ; Caractères généraux de la vie montagnarde dans le Proche-Orient et dans l'Afrique du Nord. *AG*, p. 113-130.
, 1963 a ; Anciens openfields méditerranéens et proche-orientaux. *Colloque de Géographie Agraire organisé en l'honneur des 25 années d'enseignement de M. le Professeur Meynier à la Faculté des Lettres*. Rennes, p. 9-34.
, 1963 b ; A travers les chaînes pontiques : plantations côtières et vie montagnarde. *BAGF*, p. 2-12.
, 1963 c ; Pasteurs d'Afrique Noire, dans Nomades et Pasteurs III, *RGE*, p. 269-73.
, 1964 a ; Traits généraux de l'utilisation du sol en Perse. Land use in semi-arid mediterranean climates. *UNESCO/IGU symposium, Iraklion (Greece)*, 19-26 sept. 1962 (*Arid Zone Research*, XXVI). Paris, p. 95-99.
, 1964 b ; Recherches sur la géographie humaine de l'Iran septentrional. Mémoires et Documents de Centre de Documentation Cartographique et Géographique, IX, 4, p. 3-78).
, 1964 c ; Nouvelles discussions sur la genèse du nomadisme pastoral dans le Proche-Orient, dans *Nomades et Pasteurs* IV, *RGE*, p. 319-322.
, 1965 a ; Les nomades, la steppe et la forêt en Anatolie. *GZ*, p. 101-116.
, 1966 a ; *Aspects of mountain life in Anatolia and Iran. Geography as a human ecology* (S.R. Eyre et G.R.J. Jones, edit.), Londres, p. 291-308.
, 1966 b ; La signification géographique du Livre de Dede Korkut, *JA*.
, 1968 a ; L'évolution du nomadisme en Anatolie et en Iran : étude comparée. *Ost-westilche Studien über Viehzucht und Hirtenwesen*, Budapest, (sous presse).
, 1968 b ; *The geographical setting. The Cambridge History of Islam*, Tome I, 1ère partie, chap. III, (sous presse).
Poidebard (A.), 1927 ; La haure Djezireh. Notes de voyage. *La Géographie*, p. 191-206.
Polak (J.E.), 1865 ; *Persien : das Land und seine Bewohner*. Leipzig, 2 vols.

Poncet (J.), 1956 ; La mise en valeur de la basse vallée de la Medjerda et ses perspectives humaines. *AG*, p. 199-222.
, 1962 a ; *La colinisation et l'agriculture européenne en Tunisie depuis 1881*. Paris.
, 1962 b ; Les champs et l'évolution du paysage agraire en Tunisie. *AG*, p. 620-629.
, 1964 ; *Paysages et problèmes ruraux en Tunisie*. Paris (*Publications de l'Université de Tunis, 3ème série*, VIII).
Portères (R.), 1950 ; Vieilles agricultures de l'Afrique intertropicale. *L'agronomie tropicale*, p. 489-507.
, 1955 ; Un problème d'ethno-botanique : relation entre le riz flottant du Rio Nunez et l'origine médinigérienne des Baga de la Guinée française. *Journal d'Agriculture Tropicale et de Botanique Appliquée*, p. 538-542.
Poujade (J.), 1946 ; *La route des Indes et ses navires*. Paris.
Prenant (A.), 1953 ; Facteurs du peuplement d'une ville de l'Algérie : Sétif. *AG*, p. 434-451.
Prins (A.H.J.), 1965 ; *Sailing from Lamu*. Assen.
Prohuza (*Centre d'études et d'informations des problèmes humaines dans les zones arides*), 1960 ; *Les Mekhadma. Étude sur l'évolution d'un groupe humain dans le Sahara moderne*. Paris.
Prost (G.), 1954 a ; Utilisation de la terre et production dans le Sud Tunisien : Matmata et Oudema. *CT*, p. 28-66.
, 1954 b; Habitat et habitation chez les Oudema et les Matmata. *CT*, p. 239-253.

Rager (J.-J.), 1950, *Les musulmans algériens en France et dans les pays islamiques*. Paris (*Publications de la Faculté des Lettres d'Alger, 2ème série*, XVII).
Rakitnikov (A.N.), 1956 ; *Utilisation agricole et pastorale des terres dans le semi-désert (par l'exemple des semi-déserts de la région pré-caspienne en U.R.S.S.). Essai de géographie* (*Recueil d'articles pour le XVIIIème Congrès International de Géographie*), Moscou-Léningrad, p. 303-311.
, 1960 ; Nekotorye osobennosti istoričeskoj geografii zemledelija i životnovodstva v Srednej Azii. *Voprosy geografii*, 57, *Istoričeskaja geografija*, p. 71-90.
Ramsay (W.M.), 1895 ; *The cities and bishoprics of Phrygia*, Oxford, 2 vols.
Raswan (Carl R.), 1930 ; Tribal areas and migration lines of the North Arabian Bedouins. *GR*, p. 494-502.
Rathjens (Carl) senior, et **Wissmann (H. von)**, 1934 ; *Südarabien – Reise 3. Landeskundliche Ergebnisse*. Hamburg (*Abhandlungen aus dem Gebiet der Auslandskunde*, 38).
, 1957 ; *Jewish domestic architecture in San'a, Yemen, with an introduction by S.D. Goitein*. Jerusalem (*Oriental Notes and Studies*, 7).
Rathjens (Carl) junior, 1958 ; Mediterrane Beziehungen und Züge in der Landschaft Afghanistans. *Die Erde*, p. 257-266.
, 1959 ; Menschliche Einflüsse aud die Gestalt und Entwicklung der Tharr. *Arbeiten aus dem geographischen Institut der Universität des Saarlandes*, IV, p. 1-36.
Reich (S.), 1937 ; *Études sur les villages araméens de l'Anti-Liban*. (*DEO*).
Reifenberg (A.), 1955 ; *The struggle between the desert and the sown : rise and fall of agriculture in the Levant*. Jerusalem.
Reinaud (J.T.), 1836 ; *Invasions des Sarrasins en France*. Paris.
, 1845 ; *Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine*. Paris, 2 vols.
Richard-Molard (J.), 1944 ; Essai sur la vie paysanne au Fouta-Djalon. *RGA*, p. 135-240.
, 1948-49 ; Démographie et structure des sociétés négro-peul : parmi les hommes libres et les serfs du Fouta-Djalon. *Revue de Géographie Humaine et d'Ethnologie*, N° 4, p. 45-51.
, 1949 ; *L'Afrique Occidentale Française*. Paris.
, 1952 ; Les densités de population au Fouta-Djalon et dans les régions environnantes. *Comptes Rendus du Congrès International de Géographie de Lisbonne 1949*, IV, p. 192-204.
, 1958 ; *Problèmes humains d'Afrique Noire Occidentale*. Paris.
Robequain (Ch.), 1946 ; *Le Monde Malais*. Paris.
, 1954 ; Destin d'une île à sucre : l'économie et le peuplement de Maurice. *AG*, p. 255-273.
, 1958 ; *Madagascar et les bases dispersées de l'Union Française*. Paris.

Robert (Louis), 1961-62 ; Les Kordakia de Nicée, le combustible de Synnada et les poissons-scies. Sur des lettres d'un Métropolite de Phrygie au Xème siècle. Philologie et réalités. *Journal des Savants*, 1961, p. 97-166 ; 1962, p. 5-74.

Robertson (George), 1896 ; *The Kafirs of the Hindukush*. Londres.

Rodinson (Max), 1957 ; La vie de Mahomet et le problème sociologique des origines de l'Islam. *Diogène*, N° 20, p. 37-64.

, 1963 ; Bilan des études mohammadiennes. *Revue Historique* (1), p. 169-220.

, 1966 ; *Islam et capitalisme*. Paris.

Rondot (P.), 1949 ; Notes sur les Chams du Binh Thuan. *REI*, p. 13-47.

Rops (D.), 1961 ; La sédentarisation des nomades Yürük du vilayet d'Antalya (Turquie méridionale). *L'ethnographie*, p. 64-78.

, 1963 ; Quelques notes sur les nomades pasteurs de la province d'Antalya. *Ibid*, p. 55-70.

Rovillois-Brigol (Madeleine), La sédentarisation autour de Ouargla. *NNS*, p. 135-141.

Ryckmans (J.), 1956 ; Aspects nouveaux du problème thamoudéen. *SI*, V, p. 5-17.

Safa (Elie), 1960 ; *L'émigration libanaise*. Beyrouth.

Sahami (C.), 1965 ; *L'économie rurale et la vie paysanne dans la province sud-caspienne de l'Iran : le Guilân*. Clermont-Ferrand (*Publications de l'Institut de Géographie de Clermont-Ferrand*, XXVIII).

St-John (O..B.), 1876 ; *Narrative of a journey through Baluchistan and Southern Persia 1872*, dans Fr. John Goldsmid (edit.), *Eastern Persia*. I., Londres, p. 18-116.

Salim (S.M.), 1962 ; *Marsh dwellers of the Euphrates delta*. Londres (*London School of Economics. Monographs of Social Anthropology*, 23).

Sanger (Richard H.), 1954 ; *The Arabian peninsula*. Ithaca.

Sanır (F.), 1948 ; *Sultan dağlarından Sakarya'ya ve Akşehir*. Ankara.

Sanlaville (P.), 1963 ; Les régions agricoles du Liban. *RGL*, 1963, p. 45-89.

Sarel-Sternberg (Bruno), Semi-nomades du Nefzaoua. *NNS*, p. 123-133.

Saunders (J.J.), 1965 ; Le nomade comme bâtisseur d'empire : conquête arabe et conquête mongole. *Diogène*, N° 52, p. 85-109.

Saussure (L. de), 1923 ; L'origine de la rose des vents et l'invention de la boussole. *Archives des Sciences Physiques et Naturelles*, V, Genève (réimprimé dans Ferrand, 1928, p. 31-127).

Sauvaget (J.), 1941 ; *Alep des origines au milieu du XIXème siècle*. Paris (*IFAB*, XXXVI).

, 1948 a ; *Sur d'anciennes instructions nautiques arabes pour les mers de l'Inde*. Texte établi, traduit et commenté par... Paris.

Schaffer (F.X.), 1903 ; *Cilicia*. Gotha (*Petermanns Mitteilungen Ergänzungsheft*, 141).

Schlumberger (D.), 1951 ; *La Palmyrène du Nord-Ouest*. Paris (*IFAB*, XLIX).

Schmieder (O.), 1965 ; *Die alte Welt. I. Der Orient*. Wiesbaden.

Schneider (Karl Günther), 1965 ; *Dar es Salaam, Stadtentwicklung unter der Einfluss der Araber und Inder*. Wiesbaden (*Beiträge zur Länderkunde Afrikas* 2).

Schultze (J.H.), 1963 ; *Der Ost-Sudan, Entwicklungsland zwischen Wüste und Regenwald*. Berlin (*Abhandlungen des geographischen Instituts der freien Unversität Berlin*, 7).

Schultze-Jena (Leonhard), 1927 ; *Makedonien. Landschafts und Kulturbilder*. Iena.

Schumpeter (J.), 1918-19 ; Zur Soziologie der Imperialismen. *Archiv für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik*, 46, p. 1-39, 275-310. Trad. Franç. Partielle par G.H. Bousquet, Les conquêtes de l'impérialisme arabe, *RA*, 94, 1950, p. 283-97.

Schurmann (H.F.), 1962 ; *The Mongols of Afghanistan*. La Haye (*Central Asiatic Studies* IV).

Schwarz (Paul), 1896-1935 ; *Iran im Mittelalter*. Leipzig, IX vols.

Semple (E.C.), 1931 ; *Geography of the Mediterranean region : its relation to ancient history*. New-York.

Sergent (Edmond et Étienne), 1947 ; *Histoire d'un marais algérien*. Alger.

Sermet (J.), 1952 ; Les toits plats du Sud-Est de l'Espagne. *Comptes rendus du Congrès International de Géographie de Lisbonne 1949*, III, p. 141-154.

Shapley (Harlow), edit., 1953 ; *Climatic change*. Cambridge (Mass.).

Sherley, 1825 ; *The brothers of the travels and adventures of Sir Anthony, Sir Robert and Sir Thomas...* Londres.

Siddiqi (Mohamad Ismail), 1956 ; *The fishermen's settlements on the coast of West Pakistan* (*Schriften des geographischen Instituts der Universität Kiel*, XVI, 2).

Sievers (A.), 1964 ; *Ceylon*. Wiesbaden.

Simoons (Fred. J.), 1960 ; *Northwest Ethiopia*. Madison.
Singh (R.L.), 1955 ; *Banaras, a study in urban geography*. Bénarès.
Sion (Jules), 1929 ; *L'Asie des Moussons (2ème partie)*. Paris (*GU*, IX, 2).
Sivignon (M.), 1963 ; L'évolution du nomadisme dans les hautes plaines de l'Ouest Algérien. *RGL*, p. 205-223.
Skinner (E.P.), 1964 ; *The Mossi of the Upper Volta*. Stanford Univ. Press.
Sorre (Max), Sion (J.) et Chataigneau (Y.), 1934 ; *Méditerranée et péninsules méditerranéennes*. Paris. (*GU*, VII, 1-2).
Spain (James W.), 1963 ; *The Pathan borderland*. La Haye (*Publications in Near and Middle East Studies, Columbia University*, A IV).
Spate (O.H.K.), 1954 ; *India and Pakistan*. Londres.
Spencer (R.F.), 1952 ; The Arabian matriarchate : an old controversy. *SWJA*, 8, p. 478-502.
Spitz (G.), 1949 ; *Sansanding*. Paris.
Spreitzer (H.), 1957 ; Zur Geographie des Kilikischen Ala dağ im Taurus. *Festschrift zur Hundertjahrfeier der geographischen Gesellschaft in Wien, 1856-1956*, p. 414-459.
Stauffer (T.R.), 1965 ; The economics of nomadism in Iran. *MEJ*, p. 284-302.
Stein (Aurel), 1933 ; *On ancient Central-Asian tracks*. Londres, 2ème édit., New-York, 1964.
, 1940 ; *Old routes of Western Iran*. Londres.
Stenning (D.J.), 1957 ; Transhumance, migratory drift and migration : patterns of pastoral Fulani nomadism. *Journal of the Royal Anthropological Institute*, 87 (1), p. 57-74.
, 1959 ; *Savannah nomads, a study of the Wodaabe pastoral Fulani of Western Bornu provinces*. Londres.
Stökl (Günther), 1953 ; *Die Entstehung des Kosakentums*. Munich (*Veröffentlichungen des Osteuropa – Intitutes*, III).
Stratil-Sauer (G.), 1953-56 ; *Geographische Forschungen in Ostpersien. I. Die ostpersische Meridionalstrasse. II. Route durch die Wüste Lut*. (*Abhandlungen der geographischen Gesellschaft in Wien*, XVII, 2 et 3).
Su (Kamil), 1938 ; *Balıkesir ve civarında Yürük ve Türkmenler*. Istanbul.
Suter (K.), 1960 ; Djerba. *Erdkunde*, p. 221-232.
Sümer (F.) = Demirtaş, 1948 ; Osmanlı devrinde Anadoluda Kayılar. *BEL*, p. 575-615.
, 1949 a, Bozulus hakkında. *AUDTCFD*, VII, p. 29-60.
, 1949 b ; Osmanlı devrinde Anadoluda Oğuz boyları. *AUDTCFD*, VII, p. 321-385.
, 1949-50 a, Osmanlı devrinde Anadoluda yaşayan bazı Uç oklu Oğuz boylarında mensup teşeküller. *IFM*, XI, p. 437-508.
, 1949-50 b ; XVI asırda Anadolu Suriye ve Irakta yaşayan Türk aşiretlerine umumi bir bakiş. *IFM*, XI, p. 509-523.
, 1951 ; Yıva Oğuz boylarına dair. *Türkiyat Mecmuası* IX.
, 1951-53 ; Döğerlere dair. *Ibid*, X, p. 139-158.
, 1952 ; Bayatlar. *Türk Dili ve Edebiyatı Dergisi*, IV, p. 373-417.
, 1953 a ; Avşarlara dair. *Fuad Köprülü Armağanı*, p. 453-78.
, 1953 b ; Bozoklu Oğuz boylarına dair. *AUDTCFD*, XI, p. 65-103.
, 1953 c ; Bayındır, Peçenek ve Yüreğirler. *AUDTCFD*, p. 317-344.
, 1957 ; Azerbaycanın türkleşmesi tarihine umumi bir bakiş. *BEL*, XXI, p. 429-447.
, 1958 ; Onuncu yüzyılda Oğuzlar. *AUDTCFD*, XVI, N° 3-4.
, 1960 ; Anadoluya yalnız göçebe Türklermi geldi ? *BEL*, XXIV, p. 567-94.

Tanoğlu (Ali), 1955 ; The recent emigration of the Bulgarian Turks. *RGIUI*, N° 2, p. 3-35.
, 1959 ; Die Verteilung der Bevölkerung in der Türkei. *RGIUI*, N° 5, p. 94-106.
Tanyol (G.), 1952-54 ; Baraklarda örf ve adet araştırmaları. *Sosyoloji Dergisi*, N° 7, p. 71-108 ; N° 8, p. 126-135 ; N° 9, p. 67-96.
Tardits (C.), 1962 ; *Les Bamiléké de l'Ouest-Cameroun*. Paris (*L'homme d'Outre-Mer*. Nouvelle série, IV).
Tauxier (Louis), 1912 ; *Le Noir du Soudan*. Paris.
, 1917 ; *Le Noir du Yatenga*. Paris.

Tauxier (Louis), 1937 ; *Mœurs et histoire des Peuls*. Paris.
Tchalenko (G.), 1953-58 ; *Villages antiques de la Syrie du Nord ; le massif du Belus à l'époque romaine*. Paris, 3 vols. (*IFAB*, L).
Tchihatchef (P. de), 1864 ; *Le Bosphore et Constantinople*. Paris.
Teleki (Paul), 1935 ; The migrations of the peoples. *Földrajzi Közlemények*, LXIII (Mélanges Cholnoky), p. 168-189.
Terra (Helmut de), 1931 ; Zum Problem des Austrocknung des Westlichen Inneraniens. *Zeitschrift der Gesellschaft fur Erdkunde*.
Terrasse (Henri), 1949-50 ; *Histoire du Maroc*. Casablanca, 2 vols.
, 1958 ; *Islam d'Espagne*. Paris.
Thesiger (Wilfrid), 1954 a ; The Ma'dan or marsh dwellers of Southern Iraq. *JRCAS*, p. 4-25.
, 1954 b ; The marshmen of Southern Iraq. *GJ*, p. 274-281.
, 1964 ; *The marsh Arabs*. Londres.
Thevenot (Jean), 1664 ; *Relation d'un voyage fait au Levant*. Paris.
Thomas (Bertram), 1938 ; *Arabia Felix*. Londres.
Thomas (L.V.), 1959 ; *Les Diola ; essai d'analyse fonctionnelle sur une population de Basse Casamance*. Dakar, 2 vols (*Mémoires de l'Institut Français d'Afrique Noire*, N° 55).
, 1960 ; Esquisse sur les mouvements de population et les contacts socio-culturels en pays Diola (Basse Casamance). *BIFAN, Série B*, p. 486-508.
Thoumin (R.), 1936 a ; *Géographie humaine de la Syrie centrale*. Tours.
, 1936 b ; Le Ghab. *RGA*, p. 467-538.
Tinthouin (R.), 1937 ; La plaine de l'Habra. *MG*, p. 441-455.
, 1947 ; *Colonisation et évolution des genres de vie dans la région de l'Ouest d'Oran de 1830 à 1885*. Oran.
, 1954 a ; Une plaine oranaise transformée par l'irrigation : la Mina. *RGA*, p. 223-268.
Tinthouin (R.), 1954 b ; Le peuplement musulman d'Oran. *Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran*, p. 5-72.
Tlatli (S.), 1952 ; *Djerba et les Djerbiens*. Tunis (paru également dans *Revue Tunisienne*, 1941 et 1942).
Togan (Z.V.), Article « Azerbaycan », *IA*, II, p. 91-118.
Tolstov (S.P.), 1948 a ; *Drevnij Khorezm. Opyt istoriko-arkheologičeskogo issledovanija*. Moscou.
, 1948 b ; *Po sledam drevnechorezmijskoj civilizacii*. Moscou (Trad. Allemande, *Auf den Spuren der altchoresmischen Kultur*, Berlin, 1953).
Toussaint (Aug.), 1961 ; *Histoire de l'Océan Indien*. Paris.
Traeger (H.P.), 1905 ; Die Yürüken und Koniaren in Makedonien. *Zeitschrift für Ethnologie*, p. 198-206.
Tresse (R.), 1929 ; L'irrigation dans le Ghouta de Damas. *REI*, p. 459-573.
Tricart (J.), 1961 ; L'aménagement du Lac Faguibine au Mali. *Études Tiers-Monde : Afrique Noire*. Paris, p. 40-78.
Trimingham (J.S.), 1949 ; *Islam in the Sudan*. Londres.
, 1952 ; *Islam in Ethiopia*. Londres.
, 1959 ; *Islam in West Africa*. Londres.
, 1964 ; *Islam in East Africa*. Londres.
Trubelka (C.), 1934 ; Über die Balkan Yürüken. *Revue Internationale des Études Balkaniques*, I, p. 89-99.
Trumelet (Colonel), 1887 ; *Blida : récits selon la légende, la tradition et l'histoire*. Alger.
Tunčdilek (N.), 1957 ; Iç Anadolu bölgesinin kuzeybatı bölümündeki köylerde tarla şekilleri ve mülkiyet. *TCD*, N° 17, p. 119-123.
, 1959 ; Eine Übersicht über die Geschichte der Siedlungsgeographie im Gebiet von Eskişehir. *RGIUI*, N° 5, p. 123-137.
, et **Tümertekin (E.)**, 1959 ; *Türkiye nüfusu (the population of Turkey)*. Istanbul. *Istanbul Üniversitesi Yayınları* 802 ; *Coğrafya Enstitüsü* (25).
, 1960 ; Karapınar yöresinin zirai ekonomisine dair bazı notlar. *IUCED*, N° 11, p. 122-126.
Turan (O.), 1948 ; Le droit foncier chez les Seldjoukides de Turquie. *REI*.
, 1955 ; The ideal of world domination among Medieval Turks. *SI*, 4, p. 77-90.
Turri (E.), 1964 ; Villagii fortificati in Iran e Afghanistan. *Rivista Geographica Italiana*, p. 20-34.

Uhlig (H.), 1963 ; Typen der Bergbauern und Wanderhirten in Kaschmir und Jaunsar-Bawar. *DG* Köln 1961, Wiesbaden, p. 221-25.

Van den Berg (L.W.C.), 1886 ; *Le Hadhramaut et les colonies arabes dans l'archipel Indien*. Batavia.
Van den Branden (A.), 1957 ; L'unité de l'alphabet thamoudéen. *SI*, VII, p. 5-27.
Van der Maulen et von Wissmann (H. von), 1932 ; *Hadramaut : some of its mysteries unveiled*. Leyde.
Van Lennep (H.J.), 1870 ; *Travels in little-known parts of Asia Minor*. Londres, 2 vols.
Van Leur (J.C.), 1955 ; *Indonesian trade and society*. La Haye.
Vasileva (G.P.), 1954 ; Turkmeny-Nochu.li. *Sredneaziatskij Etnografičeskij Sbornik*, N° 1 (*TIE*, 21), p. 82-215.
Vaumas (E. de), 1948 ; Les conditions naturelles et l'occupation humaine au Liban. *AG*, p. 40-49.
, 1953 ; La répartition de la population au Liban. *BSGE*, XXVI, p. 5-75.
, 1954 ; *Le Liban, étude de géographie physique*. Paris, 2 vols.
, 1955 ; La répartition confessionnelle au Liban et l'équilibre de l'état libanais. *RGA*, p. 511-603.
, 1956 ; La Djéziré. *AG*, p. 64-80.
, 1958 ; Le contrôle et l'utilisation des eaux du Tigre et de l'Euphrate. *RGA*, p. 235-331.
, 1960 ; Le Djebel Ansarieh, étude de géographie humaine. *RGA*, p. 267-312.
Vigourous (L.), 1954 ; L'émigration mozabite dans les villes du Tell algérien, *TIRS*, III, p. 87-102.
Vila Valenti (J.), 1961 ; L'irrigation par nappes fluviales dans le Sud-Est Espagnol. *Méditerranée* (2), p. 19-32.
Villiers (Alan), 1940 ; *Sons of Sindbad*. New-York.
, 1948 ; Some aspects of the Arab dhow trade. *MEJ*, II, p. 399-416.
Vilčevskij (O.), 1961 ; *Kurdy*. Moscou (*TIE*, LXVII).
Vincent (Y.), 1963 ; Pasteurs, paysans et pêcheurs du Guimballa (partie centrale de l'erg du Bara). *NPANO*, p. 37-157.
Vinnikov (J.R.), 1952 ; Beludži turkmenskoj SSR. *SE*, I, p. 85-103.
Vinson (J.), 1907-11 ; Les musulmans du Sud de l'Inde. *RMM*, II, p. 199-204 ; XIII, p. 95-108.
Vivien de Saint-Martin (L.), 1845-46 ; *Histoire des découvertes géographiques des nations européennes*. Paris. Tomes II et III.
Vladimirtsov (B.), 1948 ; *Le régime social des Mongols : le féodalisme nomade*. Trad. Franç. Paris.

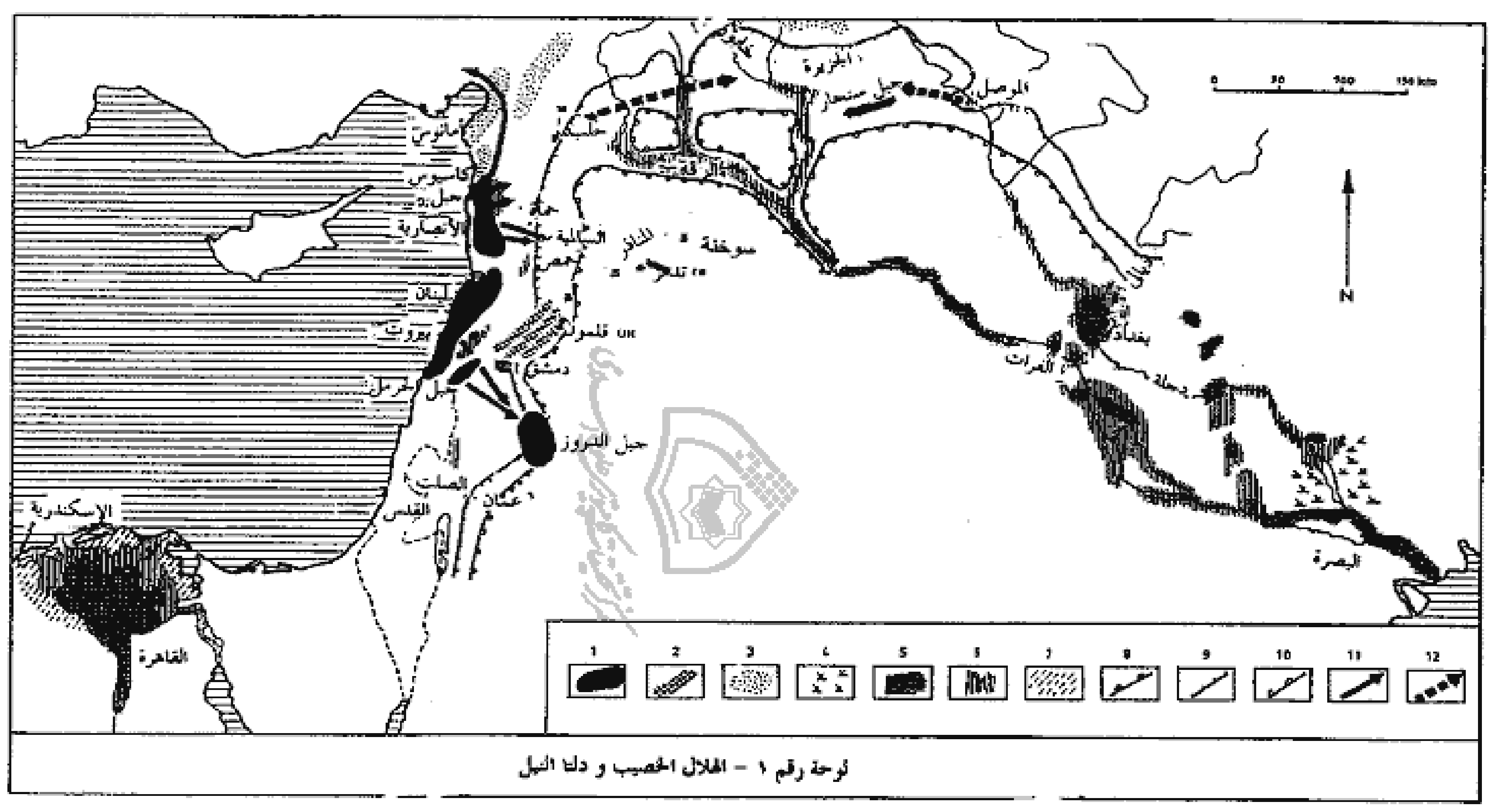
Watt (W.M.), 1953 ; *Muhammad at Mecca*. Londres (trad. Franç. Paris, 1958).
, 1956 ; *Muhammad at Medina*. Londres (trad. Franç. Paris, 1959).
, 1959 ; Arabie pré-islamique. Dans article Badw, *EI* (2).
, 1961 ; *Muhammad prophet and statesman*. Londres. Trad. Franç. Paris, 1962.
Weheba (A.F.), 1960 ; An outline of the economic geography of Egypt during the Middle Ages (640-1517 A.D.). *BSGE*, p. 219-240.
Wenzel (H.), 1937 ; *Forschungen in Interanatolien II. Die Steppe als Lebensraum* (*Schriften des Geographischen Instituts der Universität Kiel*, VII).
Westermann (D.), 1949 ; Die Volkerwerdung der Hausa. *Sitzungsberichte der deutschen Akademie der Wissenschaften* (2).
Westphal-Hellsbuch (Sigrid), 1956 ; Die Kultur des Ma'dan in Gegenwart und Vergangenheit. *Sumer*, XII, p. 66-75.
, et **Westphal (H.)**, 1962 ; *Die Ma'dan : Kultur und Geschichte der Marschenbewohner im Süd-Iraq*. Berlin (*Forschungen zur Ethnologie und Sozialpsychologie*, 4).
Weulersse (J.), 1931 ; Un exemple d'adaptation à la vie tropicale : la tribu des Bamiléké (Cameroun). *Congrès International de Géographie, Paris*, III, p. 500-505.
, 1934 a ; Antioche, essai de géographie urbaine. *BEO*, IV, p. 27-79.
, 1934 b ; Problèmes d'Irak. *AG*, p. 49-75.
, 1934 c ; *L'Afrique Noire*. Paris.
, 1938 ; La primauté des cités dans l'économie syrienne. *Congrès International de Géographie, Amsterdam*, III, Sect 3A, p. 233-39.
, 1940 a, *Le pays des Alaouites*. Tours.
, 1940 b ; *L'Oronte, étude de fleuve*.
, 1946 ; *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*. Paris.
Weatley (P.), 1961 ; *The golden khersonese*. Kuala Lumpur.

White (S.), 1943 ; L'économie agricole des montagnes Kirdis de l'émirat de Dikoa au Cameroun sous mandat britannique. *Bulletin de la Société des Études Camerounaises* (3), p. 77-92.
Whyte (R.O.), 1961 ; Evolution of land use in south-western Asia. *HLUAR*, p. 57-118.
Wilhelmy (Herbert), 1935-36 ; *Hochbulgarien. I. Die ländlichen Siedlungen und die bauerliche Wirtschaft. II. Sofia. Wandlungen einer Grosstadt zwischen Orient und Okzident.* (*Schriften des geographischen Instituts der Universität Kiel*, IV ; V, 3).
Wilson (Sir Arnold T.), 1928 ; *The Persian gulf.* Londres.
Wirth (Eugen), 1955 ; Landschaft und Mensch in Binnendelta des unteren Tigris. *Mitteilungen der geographischen Gesellschaft in Hamburg*, p. 7-70.
, 1962 ; *Agrargeographie des Irak.* Hamburg (*Hamburger geographische Studien*, 13).
, 1963 ; Die Rolle tscherkessischen « Wehrbauern » bei der Wiederbesiedlung von Steppe und Odland im osmanischen Reich. *Bustan*, N° I, 4 p.
, 1964 ; Die Ackerebenen Nordostsyriens. *GZ*, p. 7-42.
, 1965 a ; Junge Wandlungen der Kulturlandschaft in Nordostsyrien und dem Syrischen Euphrattal. *DG* Heidelberg 1963, Wiesbaden, p. 259-67.
, 1965 b ; Zur Socialgeographie der Religionsgemeinschaften im Orient. *Erdkunde*, XIX, p. 265-284.
, 1966 ; Damaskus-Aleppo-Beirut ; Ein geographischer Vergleich dreier nahöstlicher Städte im Spiegel ihrer sozial und wirtschaftlich tonangebenden Schichten. *Die Erde*, p. 96-137, 166-202.
Wissmann (H. von), et Höfner (M.), 1952 ; *Beiträge zur historischen Geographie des vorislamischen Südarabien.* (*Akademie der Wissenschaften und der Literatur in Mainz, Abhandlungen der Geistes-und Sozialwissenschaftlichen Klasse*, 1952, 4).
, 1953 ; Geographische Grundlagen und Frühzeit der Geschichte Südarabiens. *Saeculum*, p. 31-114.
, 1957 ; *De Mari Erythraeo. Festschrift Lautensach*, Stuttgart (*Stuttgarter Geographische Studien*, 69), p. 289-324.
, 1959 ; Histoire des origines du nomadisme et ses aspects géographiques. Dans article « Badw », *EI* (2).
Wittek (Paul), 1934 ; *Das Furstentum Mentesche.* Istanbul (Trad. Turque par O.S. Gökyay, *Menteşe beyliği*, Ankara, 1944).
Wittfogel (Karl A.), 1957 ; *Oriental Despotism : a comparative study of total power.* New haven.
Wolf (E.R.), 1951 ; The social organisation of Mecca and the origins of Islam. *SWJA*, 7, p. 329-56.
Worms (Dr.), 1842-44 ; Recherches sur la constitution de la propriété territoriale dans les pays musulmans. *JA*.

Yacono (X.), 1953 ; *Les bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'Ouest du Tell algérois (Dahra, Chélif, Ouarsenis, Sersou).* Paris.
, 1954 ; Peut-on évaluer la population de l'Algérie en 1830. *RA*, XCVIII, p. 277-307.
, 1955-56 ; *La colonisation des plaines du Chélif.* Alger, 2 vols.
Yalgın (A.R.), 1931-39 ; *Cenupta Türkmen Oymakları.* Ankara-Adana, 5 fasc.
Yücel (Talip), 1960-61 ; Türkiyede şehirleşme hareketleri ve şehirler (Die Verstädterungsbewegungen und die Städte der Türkei). *TCD*, N° 20, p. 23-35 ; N° 21, p. 31-44.

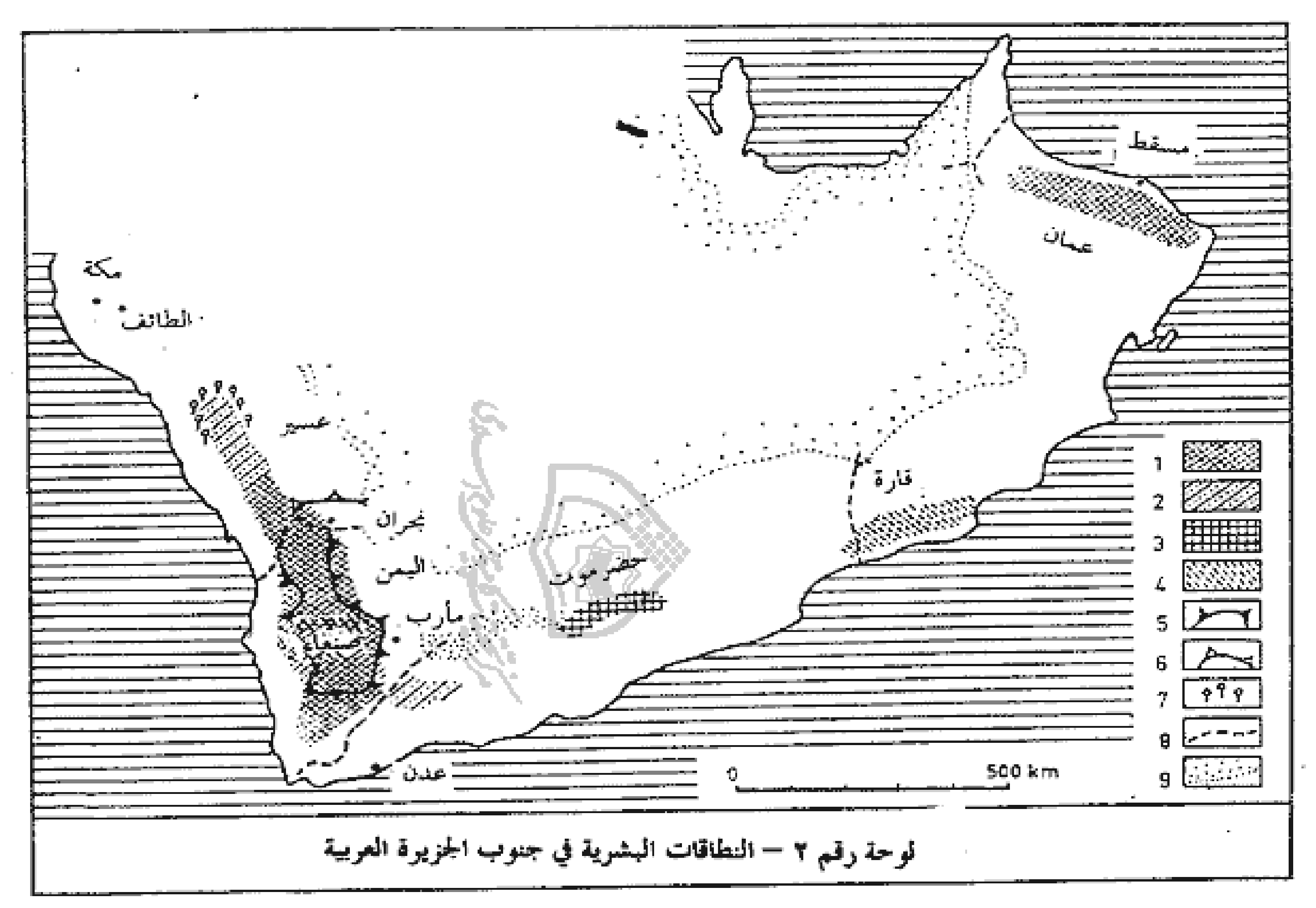
Ždanko (T.A.), 1950 ; *Očerki istoričeskoj etnografii karakalpov.* Moscou (*TIE*, IX).
, 1961 ; Problema polvosedlogo naselenija v istorii Srednej Azii i Kazachstana. *SE*, 2, p. 53-62.

الخرائط



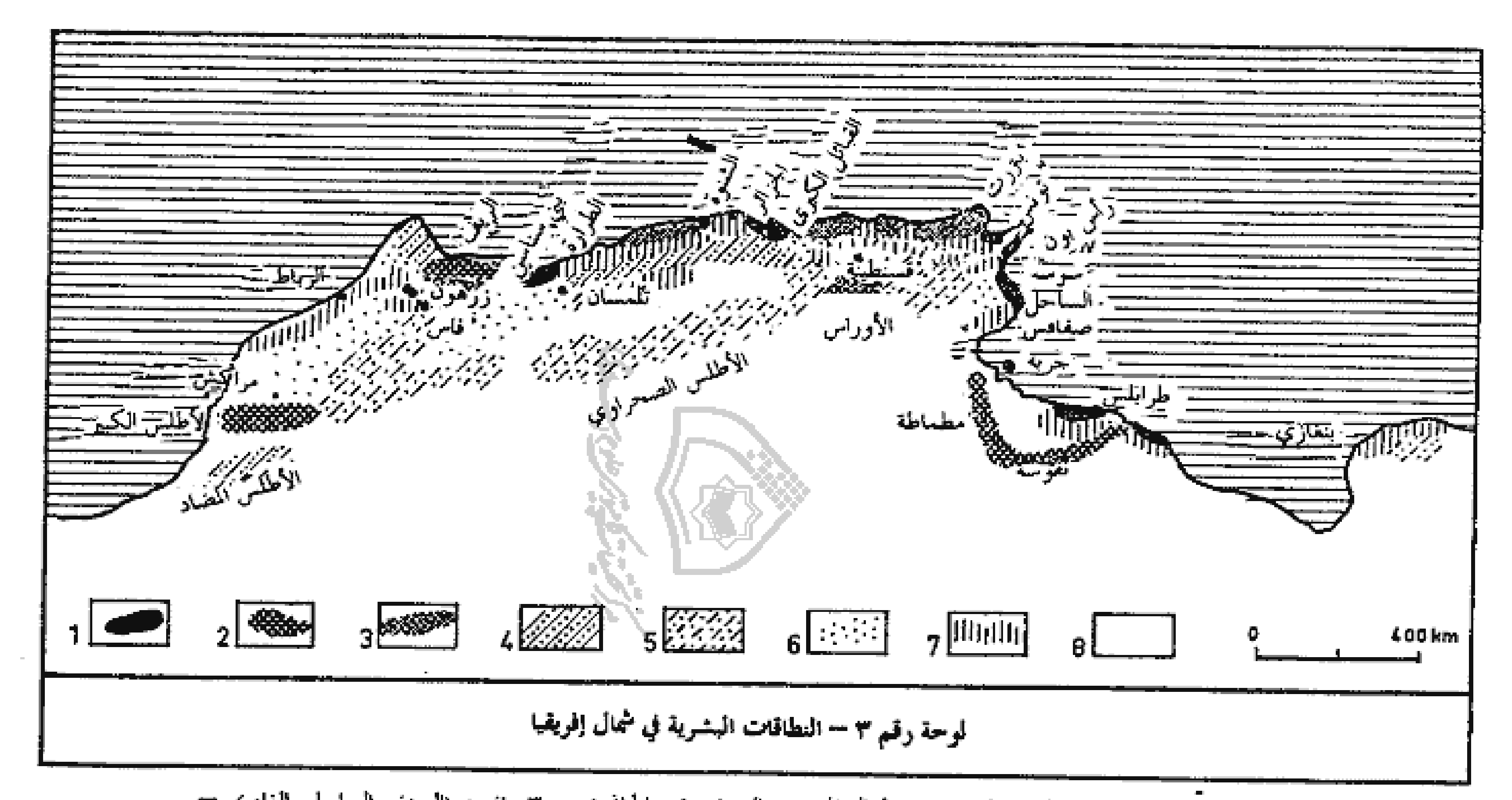
لوحة رقم ١ – الهلال الخصيب و دلتا النيل

١. جبال اللجوء و لواحقها. – ٢. الجبال المحتمة. – ٣. انتشار البداوة في الأعالي من الصنف التركماني. – ٤. مستنقعات العراق السفلي. – ٥. المناطق المروية في بداية القرن التاسع عشر. ٦. التوسع المتأخر للري. – ٧. نفسه في طور الإنجاز أو المرتقب (مصر). – ٨. حدود الزراعة في الدلتا المصرية في بداية القرن التاسع عشر. – ٩. حدود التواجد السكاني المستقر في بداية القرن التاسع عشر (الهلال الخصيب). – ١٠. نفسه، حوالي ١٩٥٠. – ١١. إعادة الاستيطان في الفترة المعاصرة انطلاقا من جبال اللجوء. – ١٢. الاستيطان الرأسمالي المعتمد على زراعة الحبوب في منطقة الجزيرة.



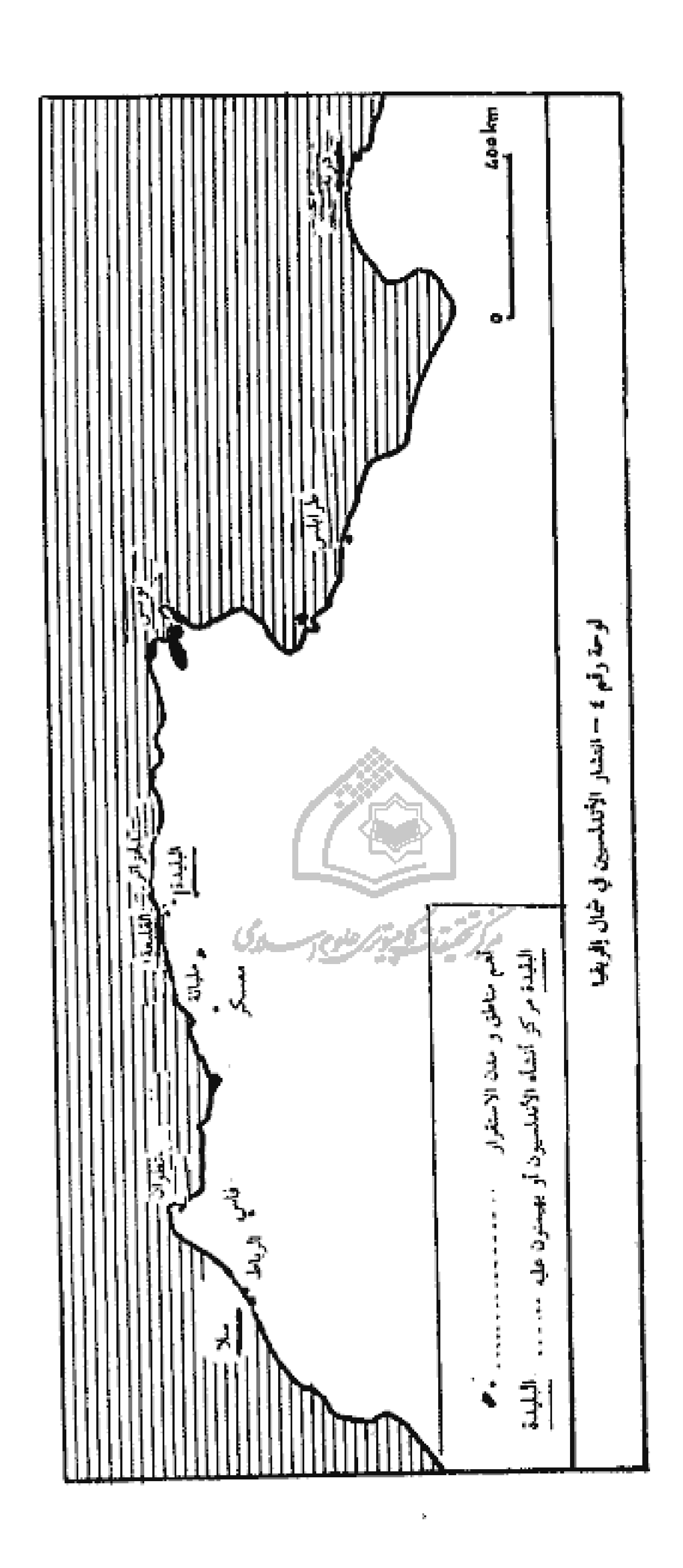
لوحة رقم ٢ — النطاقات البشرية في جنوب الجزيرة العربية

١. الجبال الممتنعة. — ٢. جبال شبه البداوة. — ٣. المقاومة الحضرية في الواحات. — ٤. أشباه الرحل في مرحلة ما قبل البداوة. ٢.
٥. حدود التوسع الزيدي. — ٦. نفسه. الإسماعيلي. — ٧. الحدود الشمالية لشجرة البن. — ٨. الحدود السياسية. — ٩. العروق.



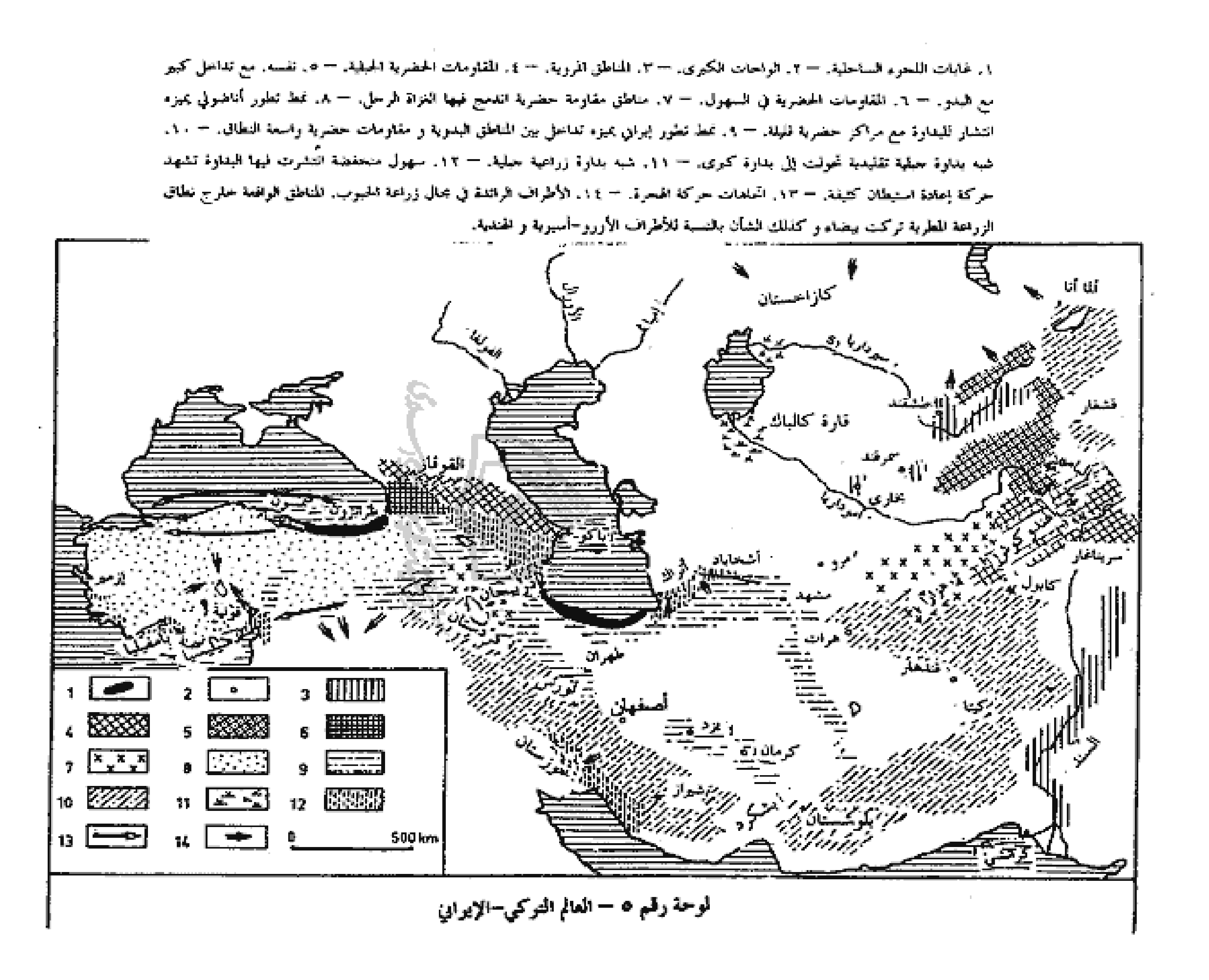
لوحة رقم ٣ — النطاقات البشرية في شمال إفريقيا

١. جبال اللجوء و السواحل. — ٢. الجبال الممتعة (الصنف شبه الجاف). — ٣. نفسه (الصنف الساحلي الغابي). — ٤. جبال في طور شبه البداوة. — ٥. جبال انتشرت فيها البداوة. — ٦. انتشار البداوة في السهول و الهضاب مع توجه متأخر نحو الاستقرار. — ٧. المناطق المتأثرة مباشرة بالاستعمار الأوربي. — ٨. جهات خارج نطاق الزراعة المطرية.

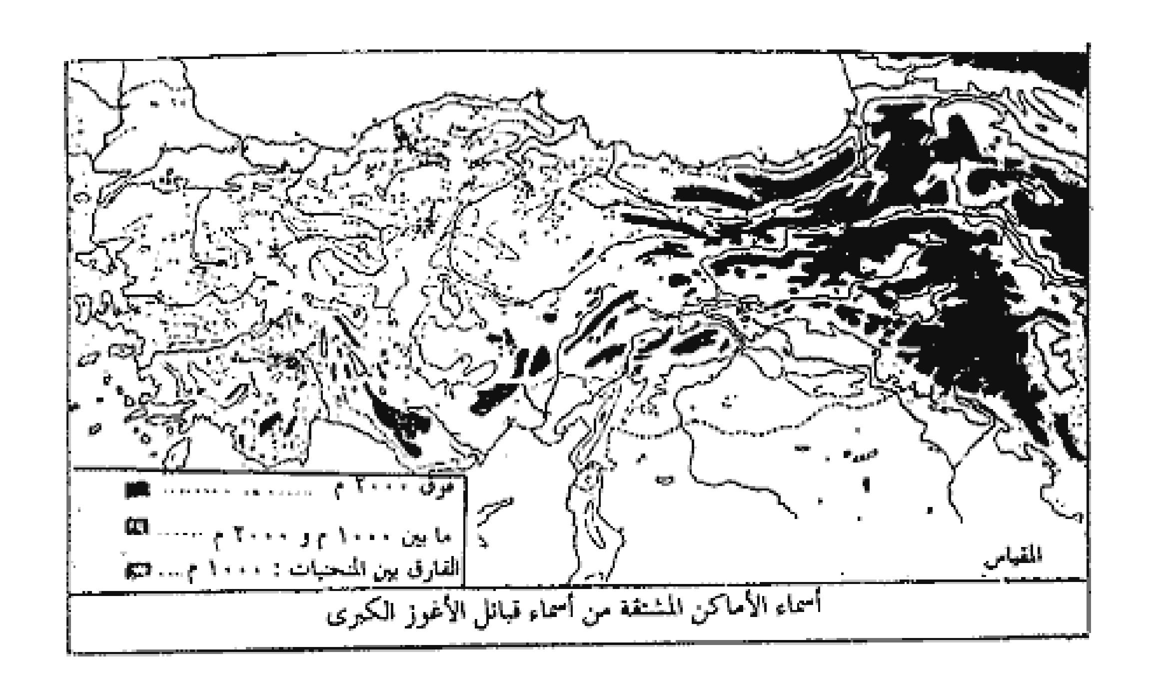


لوحة رقم ٤ — انتشار الأندلسيين في شمال إفريقيا

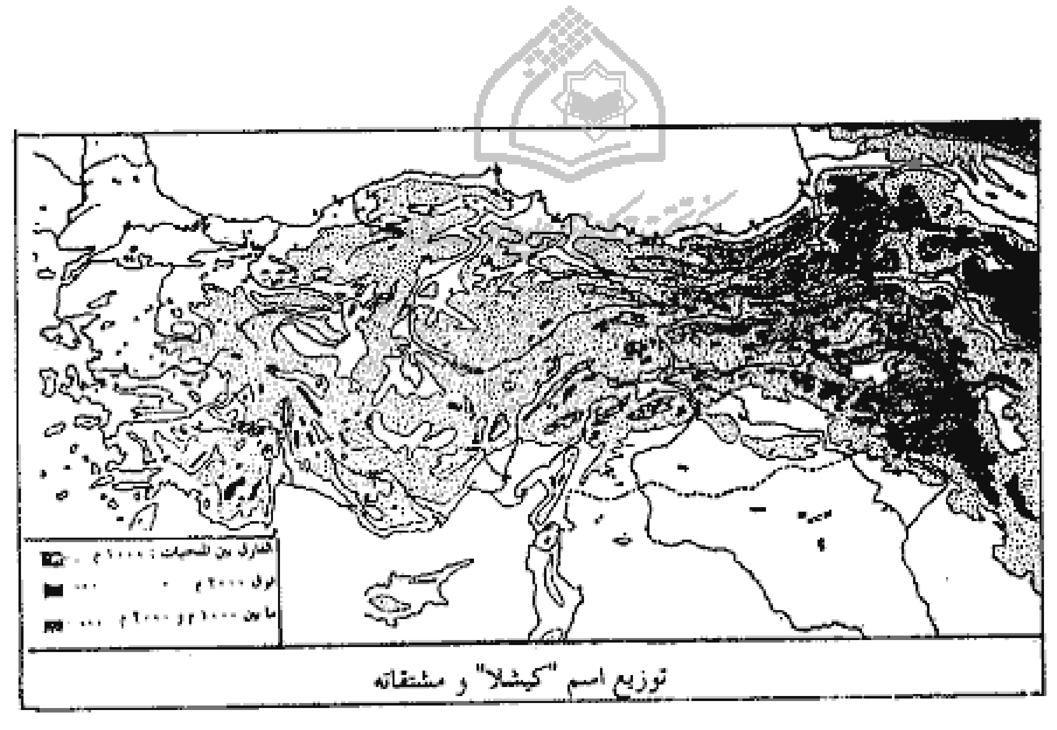
١. غابات اللحوم الساحلية. — ٢. الواحات الكبرى. — ٣. المناطق القروية. — ٤. المقاومات الحضرية الجبلية. — ٥. نفسه. مع تداخل كبير مع البدو. — ٦. المقاومات الحضرية في السهول. — ٧. مناطق مقاومة حضرية اندمج فيها الغزاة الرحل. — ٨. نمط تطور أناضولي يميزه انتشار للبداوة مع مراكز حضرية قليلة. — ٩. نمط تطور إيراني يميزه تداخل بين المناطق البدوية و مقاومات حضرية واسعة النطاق. — ١٠. شبه بداوة محلية تقليدية تحولت إلى بداوة كبرى. — ١١. شبه بداوة زراعية محلية. — ١٢. سهول منخفضة انتشرت فيها البداوة تشهد حركة إعادة استيطان كثيفة. — ١٣. اتجاهات حركة الهجرة. — ١٤. الأطراف الرائدة في مجال زراعة الحبوب. المناطق الواقعة خارج نطاق الزراعة المطرية تركت بيضاء و كذلك الشأن بالنسبة للأطراف الأورو-أسيوية و الهندية.



لوحة رقم ٥ — العالم التركي-الإيراني

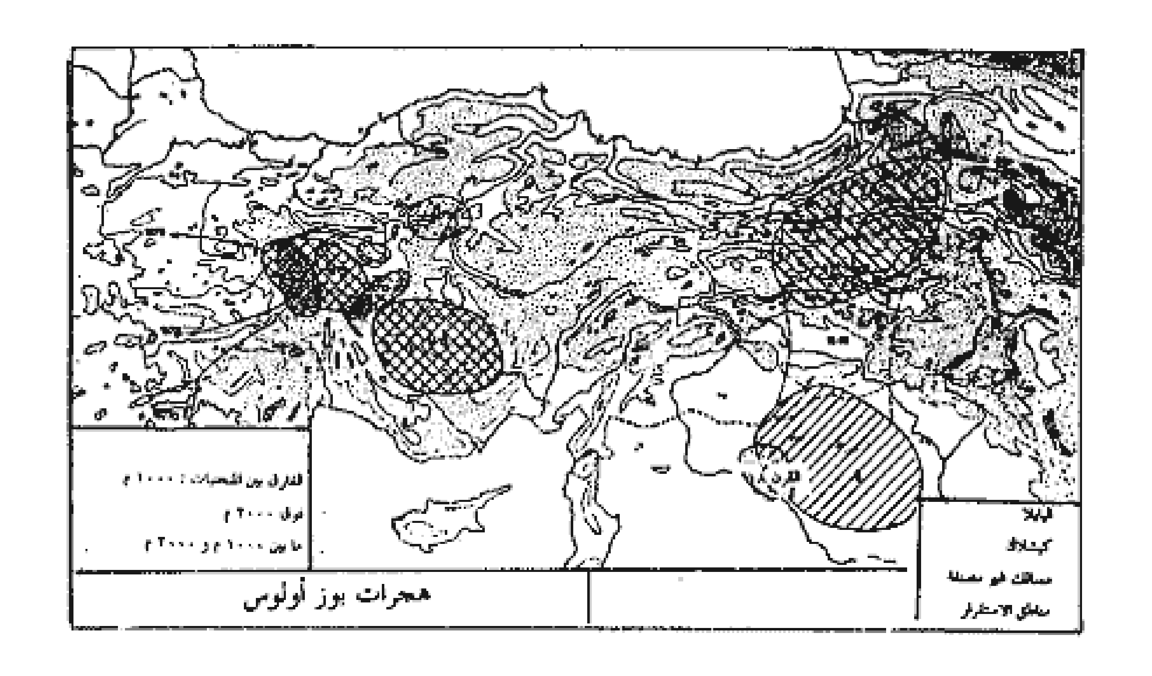


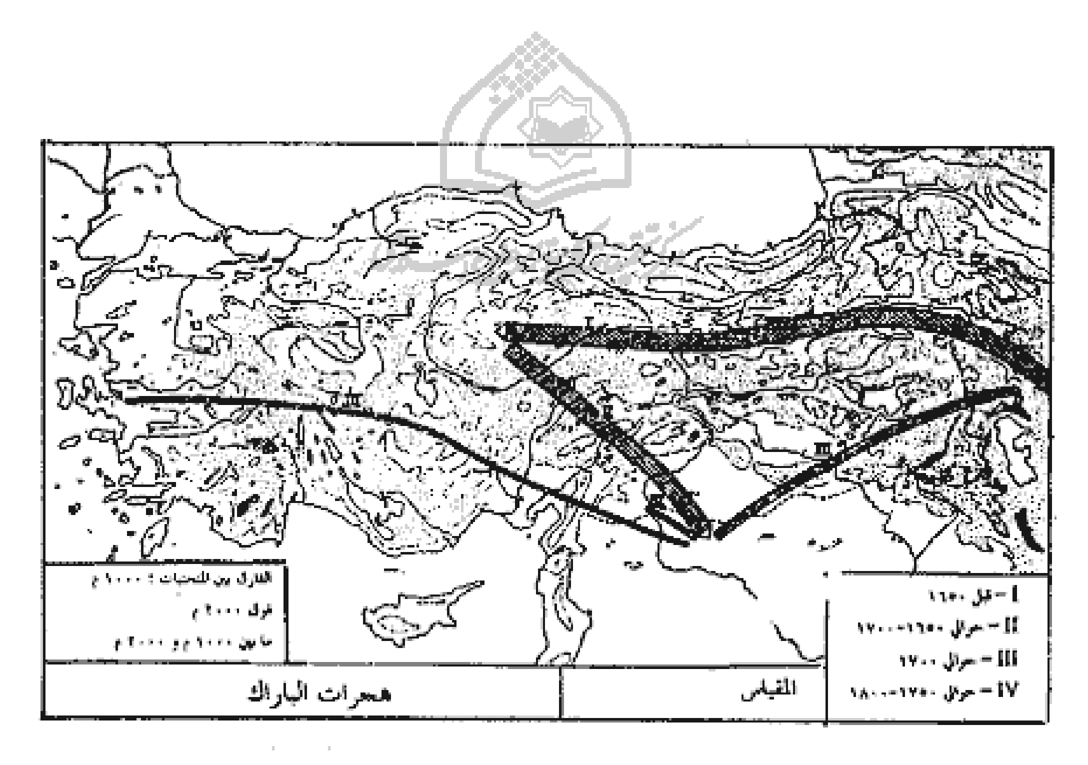
أسماء الأماكن المشتقة من أسماء قبائل الأغوز الكبرى



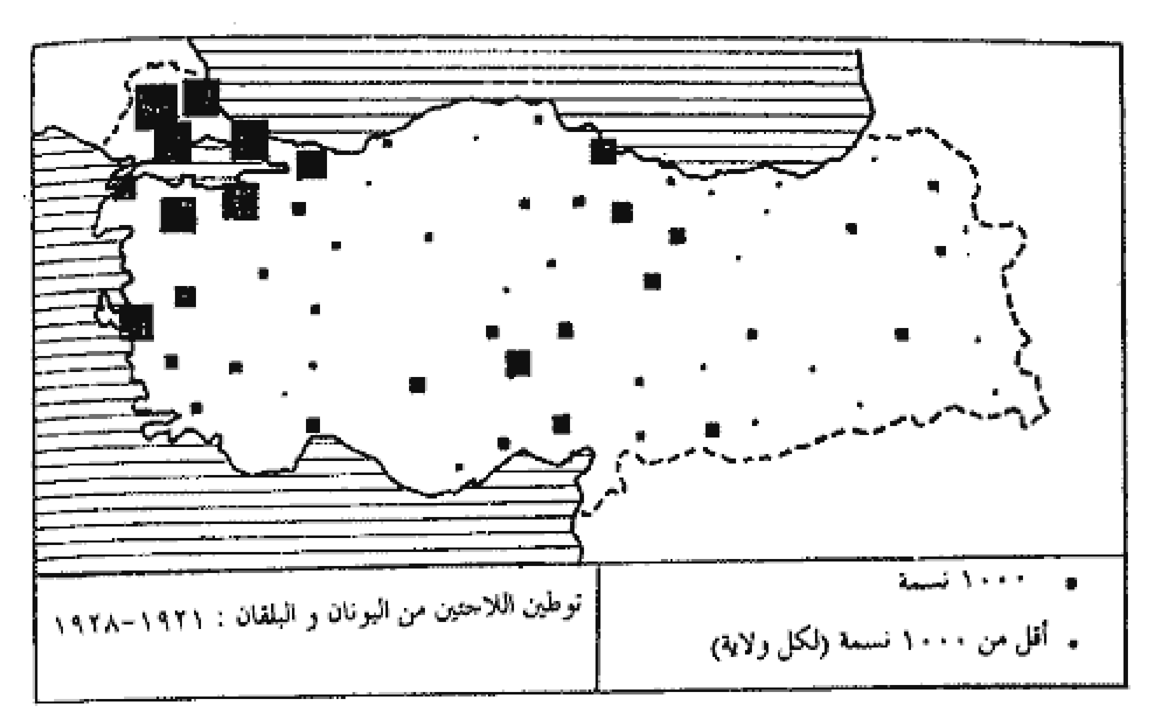
توزيع اسم "كيشلا" و مشتقاته

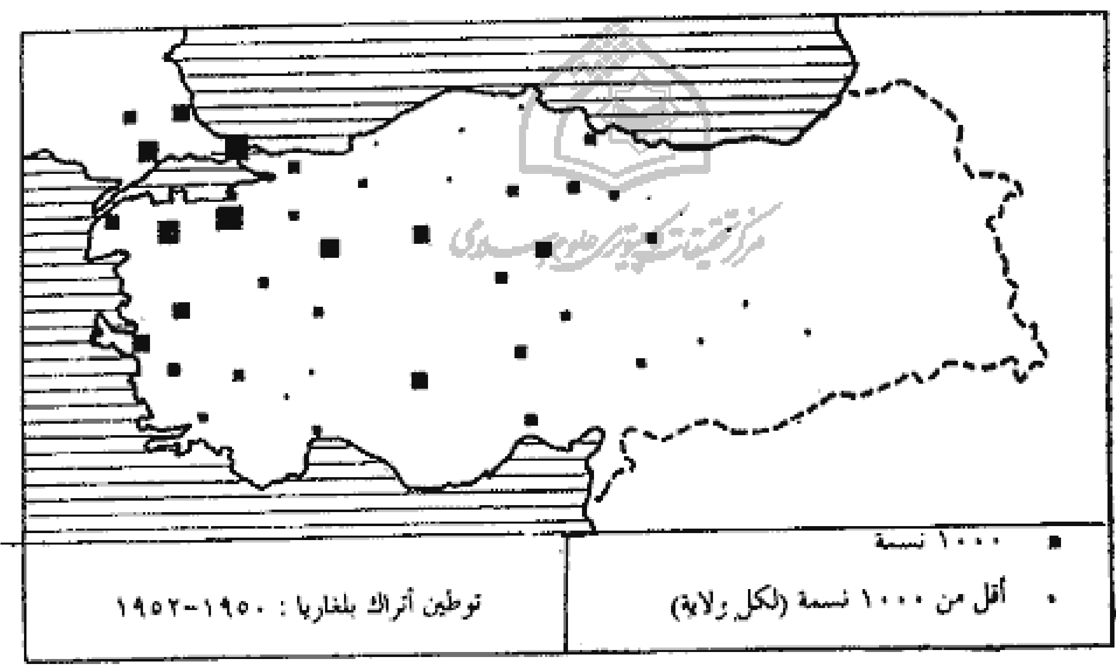
لوحة رقم ٦ — الاستقرار الأول للرحل الأتراك في الأناضول : أسماء الأماكن



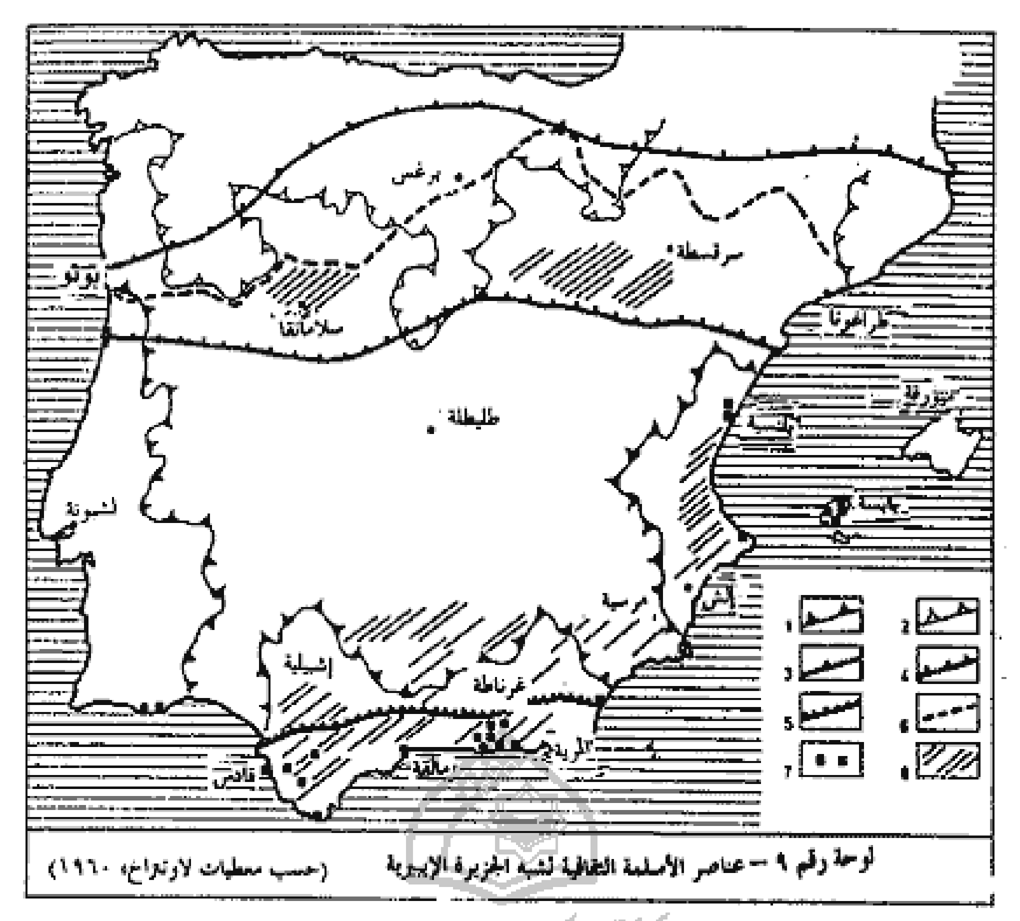


لوحة رقم ٧ – أنماط التحول القبلي في الأناضول



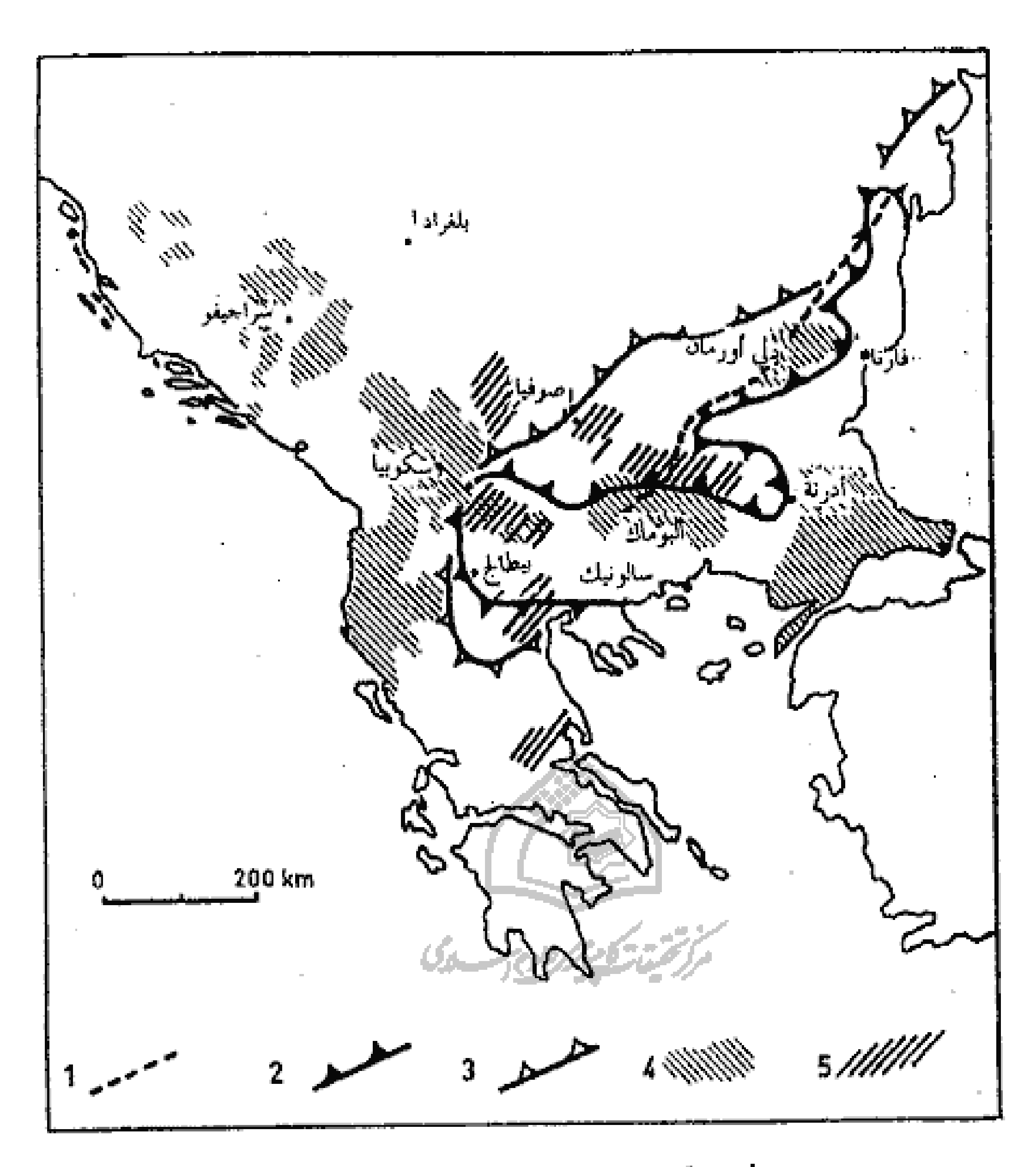


لوحة رقم 8 – أنماط توطين المهاجرين في الأناضول



لوحة رقم ٩ — عناصر الأسلمة الثقافية لشبه الجزيرة الإيبيرية (حسب معطيات لاوتنزاخ، ١٩٦٠)

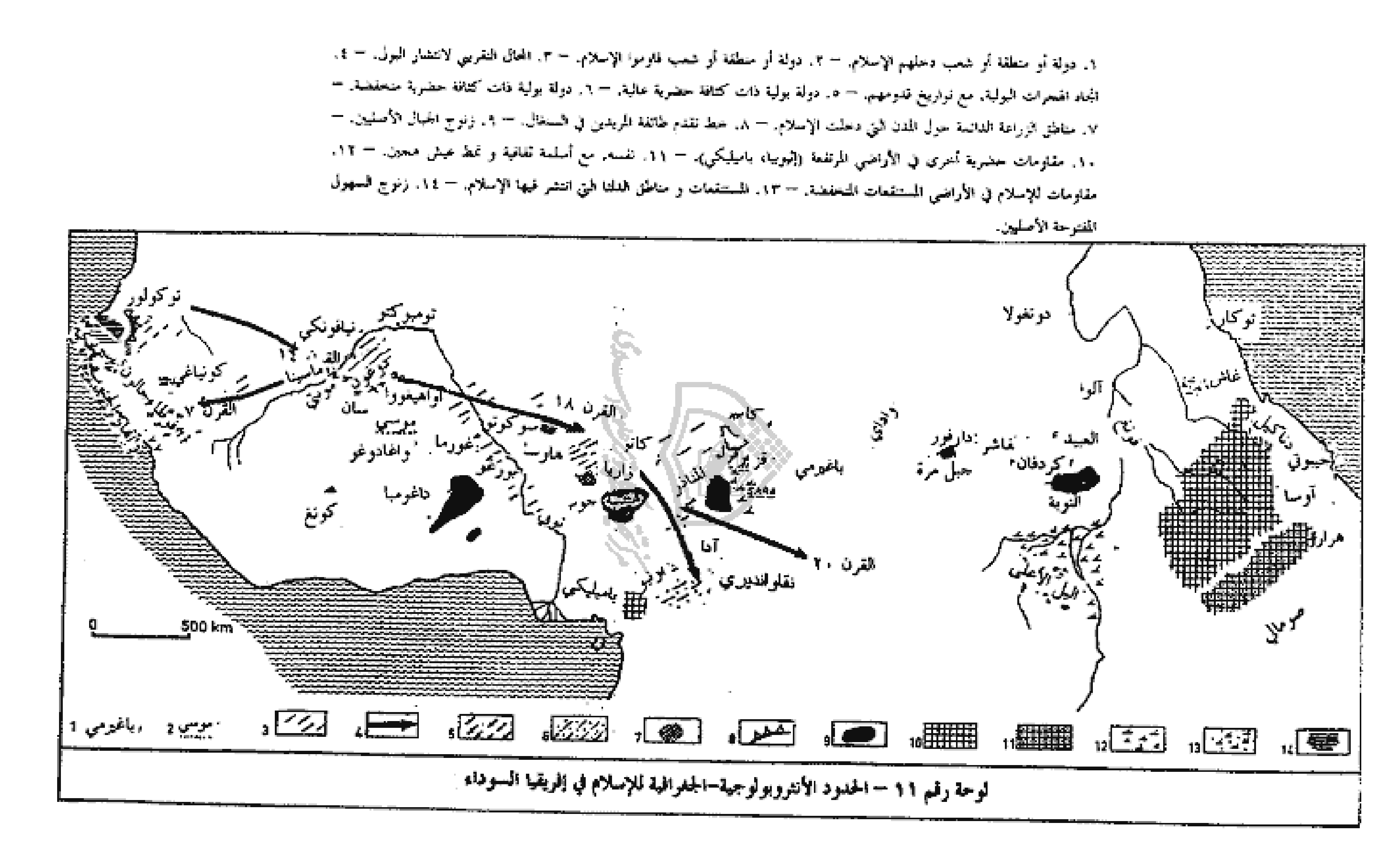
١. الحد الشمالي للمناطق التي يوجد فيها أكثر من خمسة أسماء إسلامية في الكلم٢. — ٢. الحد الشمالي للمناطق التي يوجد فيها أكثر من ١,٨ من الأسماء الإسلامية في الكلم٢. — ٣. الحد الشمالي لأسماء الأنهار المعربة. — ٤. الحد الجنوبي للمناطق التي لم تعرب فيها سوى أسماء الأنهار الرئيسية و الروافد من الصنف الأول. — ٥. الحد الشمالي للمناطق التي عربت فيها حتى أسماء الوديان. — ٦. الحدود التقريبية للمناطق الإسلامية حوالي سنة ٨٠٠. — ٧. السقوف المسطحة. — ٨. أعلى كثافة للآثار المعمارية الإسلامية.



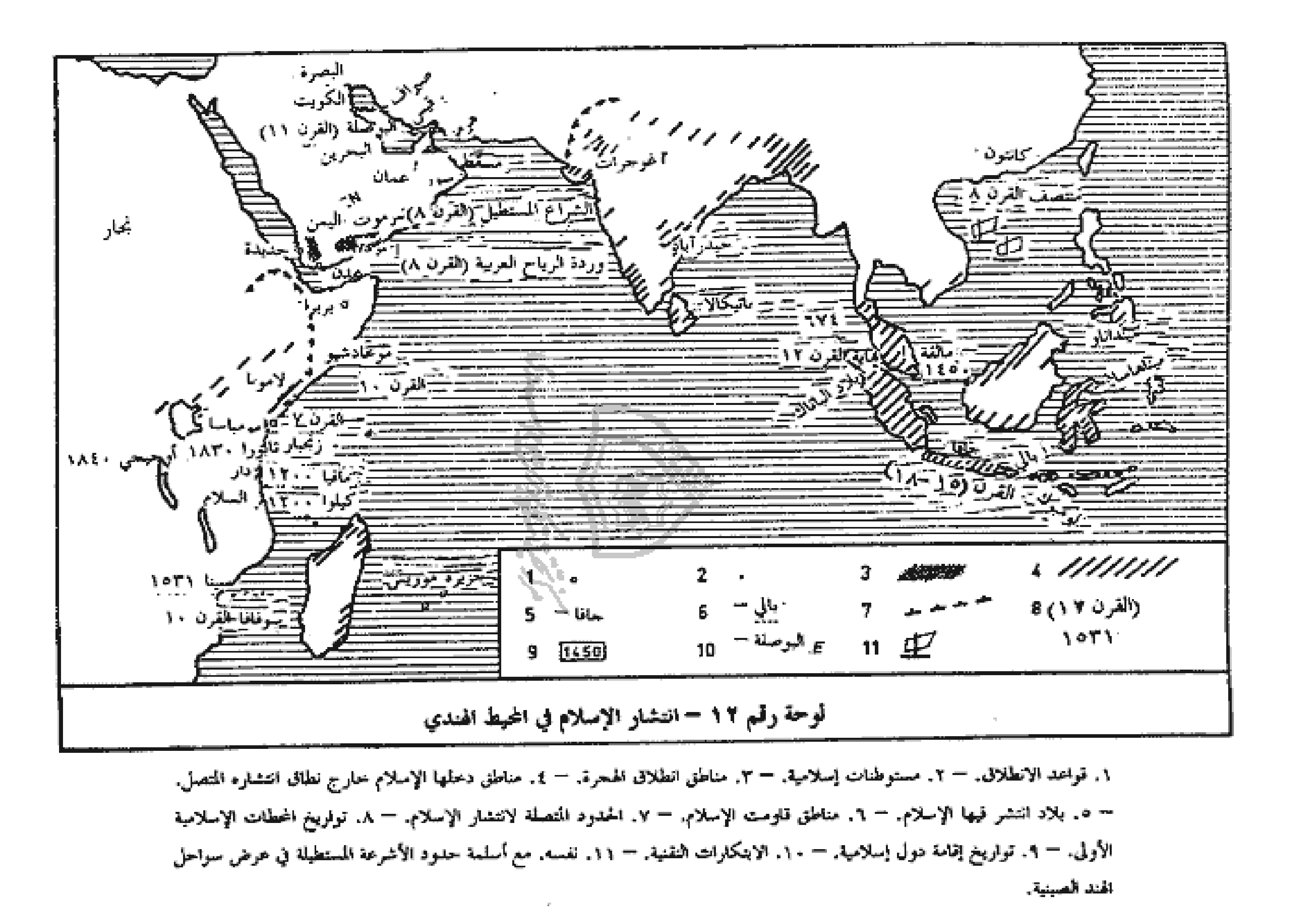
لوحة رقم ١٠ — عناصر التغلغل الإسلامي في البلقان

١. حدود المناطق التي يشكل المسلمون غالبية سكان الأرياف فيها في القرن ١٦ (حسب معطيات بركان، ١٩٤٩-٥٠ أ). — ٢. الحد الأقصى لانتشار اليوروك في بداية القرن السادس عشر (المصدر نفسه). — ٣. الحد الأقصى لانتشار اليوروك في منتصف القرن السادس عشر (حسب معطيات غوكبيلغين، ١٩٥٧). — ٤. استمرار تواجد أكثرية مسلمة بعد الحرب العالمية الأولى. — ٥. السهول ذات الطابع الاجتماعي الإسلامي الجلي (تشيفتليك).

١. دولة أو منطقة أو شعب دخلهم الإسلام. — ٢. دولة أو منطقة أو شعب قاوموا الإسلام. — ٣. الحائل الغربي لانتشار البول. — ٤. اتجاه الهجرات البولية، مع تواريخ قدومهم. — ٥. دولة بولية ذات كثافة حضرية عالية. — ٦. دولة بولية ذات كثافة حضرية منخفضة. — ٧. مناطق الزراعة الدائمة حول المدن التي دخلت الإسلام. — ٨. خط تقدم طائفة المريدين في السنغال. — ٩. زنوج الجبال الأصليين. — ١٠. مقاومات حضرية أخرى في الأراضي المرتفعة (إثيوبيا، باميليكي). — ١١. نفسه، مع أسلمة ثقافية و نمط عيش هجين. — ١٢. مقاومات للإسلام في الأراضي المستنقعات المنخفضة. — ١٣. المستنقعات و مناطق الدلتا التي انتشر فيها الإسلام. — ١٤. زنوج السهول المفتوحة الأصليين.



لوحة رقم ١١ — الحدود الأنثروبولوجية-الجغرافية للإسلام في إفريقيا السوداء



لوحة رقم ١٢ — انتشار الإسلام في المحيط الهندي

١. قواعد الانطلاق. — ٢. مستوطنات إسلامية. — ٣. مناطق انطلاق الهجرة. — ٤. مناطق دخلها الإسلام خارج نطاق انتشاره المتصل. — ٥. بلاد انتشر فيها الإسلام. — ٦. مناطق قاومت الإسلام. — ٧. الحدود المتصلة لانتشار الإسلام. — ٨. تواريخ المحطات الإسلامية الأولى. — ٩. تواريخ إقامة دول إسلامية. — ١٠. الابتكارات التقنية. — ١١. نفسه. مع أسلمة حدود الأشرعة المستطيلة في عرض سواحل الهند الصينية.

الفهارس العامة



فهرس الأعلام


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الجماعات

ت

ج

ح

ع

غ

ف

ق

فهرس المدن و الأماكن

ت

ث

ج

ح

خ

د

ز

س

ش

ص

ط

ل

م

و

ي

الخرائط

نبذة عن المترجم

د. معاوية سعيدوني من مواليد 1967، درس العمارة و تخطيط المدن بالمدرسة المتعددة التقنيات للهندسة المعمارية والتعمير بالجزائر التي حصل منها على دبلوم مهندس معماري سنة 1989، تابع دراساته العليا بالمعهد الفرنسي لتخطيط المدن بجامعة باريس و بمدارس عليا فرنسية، حيث نال دبلوم الدراسات المعمقة و دبلوم الدراسات العليا المتخصصة في تخطيط المدن سنة 1991، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في تخطيط المدن سنة 1995 من نفس المعهد. عمل أستاذا محاضرا بالمدرسة المتعددة التقنيات للهندسة المعمارية و التعمير بالجزائر من 1995 إلى 2003، لينتقل بعدها إلى مونتريال حيث حاضر بجامعتها في مجال العمران في البلاد النامية. اهتم في أبحاثه بالتاريخ العمراني للجزائر خلال الفترة الاستعمارية خصوصا، و بمسائل التراث المعماري والعمراني عموما، كما توسعت اهتماماته مؤخرا إلى مجال الدراسات الوقفية. نشر ثلاثة وعشرين بحثا علميا، كما ألف كتابا بعنوان: "مدخل إلى تخطيط المدن (تاريخ، منهجية، قوانين)". آخر أعماله هذه الترجمة العربية لكتاب كزافييه دو بلانهول: "أرض الإسلام: الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام".

***



نبذة عن المؤلف

ولد كزافييه دو بلانهول سنة 1926، و هو حامل لشهادة الدكتوراه في الآداب، اشتغل أستاذا في مجال جغرافية العالم الإسلامي في العديد من الجامعات و في معهد اللغات الشرقية بباريس، و هو عضو في كل من أكاديمية العلوم لما وراء البحار و الأكاديمية الأوربية، و أستاذ متميز بجامعة باريس الرابعة، يتمتع بسمعة عالمية بفضل أبحاثه الرائدة عن المجال الإيراني-التركي و البلاد العربية، كما أن إنجازاته العلمية كثيرة و متنوعة، أهمها أعماله حول المجالات الإسلامية من شمال إفريقيا إلى أفغانستان، نذكر من أهمها : العالم الإسلامي، دراسة في الجغرافية الدينية (1959) ؛ الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام (1968) - الذي نقدم ترجمته العربية ؛ الإسلام و البحر : المسجد و البحار (من القرن السابع إلى القرن العشرين) (2000) ؛ الأقليات في الإسلام : جغرافية سياسية و اجتماعية (2001).

Translator's biography

Maaouia SAIDOUNI was born in Algiers, Algeria, in 1967. He studied architecture and urban planning in Algiers (Bachelor, 1989) before graduating in the French Institute of Urbanism in Paris and other French High Schools (Two Masters in 1991, and PhD in 1995). From 1995 to 2003, he taught urban planning at Architecture and Urban Planning School of Algiers before leaving for Montreal in whose university he lectured on Developing Countries Urbanization. His research work has focused on urban history and heritage issues especially those related to the colonial era in Algeria. By 2000, his work widened to waqf studies. He published 23 scientific articles in various magazines and a book: *An Introduction to Urban Planning (History, Methodology, Regulations)*. His last work is this translation, from French to Arabic, of Xavier de Planhol's *Geographical Bases of the History of Islam*.

***

Author's biography

Xavier de Planhol was born in 1926. He is a Doctor in Humanities (Docteur ès Lettres). He taught Islamic world geography in various universities and in Oriental Languages Institute in Paris. He is a member in both the Overseas Sciences Academy and Academia Europaea. He is an Emeritus Professor at Paris-IV University, and a worldwide renowned geographer for his original researches on Turkish-Iranian world and Arab countries. His scientific achievements are numerous and various and the most noteworthy among them are related to Islamic worlds from North Africa to Afghanistan: *Islamic World, an Essay on Religious Geography* (1959); *Geographical Bases of the History of Islam* (1968); *Islam and Sea. The Mosque and the Sailor (7^{th}-20^{th} century)* (2000) ; *Minorities in Islam, Political and Social Geography* (1997, 2001).

ملخص كتاب: تاريخ أرض الإسلام : الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام

تأليف : كزافييه دو بلانهول

ترجمة : معاوية سعيدوني

تقديم الترجمة و مراجعتها : ناصر الدين سعيدوني

يقدم هذا الكتاب عرضا شاملا و مركزا عن دور الحضارة الإسلامية في رسم معالم مجالها الجغرافي الذي أثر بدوره عليها، في إطار توازن دقيق بين عالمي البداوة والاستقرار، وقد جاء في شكل حوصلة شاملة لأبحاث خصصها صاحبه لمجالات إقليمية محددة.

يرسم الفصل الأول الأطر المنهجية و يحدد الظروف الأنثربولوجية و الجغرافية لنشأة الإسلام في الجزيرة العربية و عملية انتشاره وآثارها و ما ارتبط بها من تحالف متميز بين البدو و الحضر، مما سمح للدين الإسلامي، الحضري المنشأ، من الانتشار بسهولة في مناطق السهول شبه الجافة المحاذية للصحاري ذات الظروف المناخية و البيوجغرافية المساعدة لنمط العيش البدوي. كما يبين هذا الفصل التمهيدي قدرة الإسلام على التأقلم في البيئات المختلفة التي انتشر فيها و التي أفرد لكل منها فصل خاص.

فالفصل الثاني يتعلق بالشرق الأدنى من العالم العربي، الذي شهد انتشارا سهلا للبداوة مع استمرار نبض الحياة الحضرية في مجالات جغرافية متميزة (وادي النيل، بلاد الرافدين، مدن الواحات الكبرى مثل دمشق و حلب) و في المناطق الجبلية التي حافظت على الحياة الزراعية، قبل أن تشهد الفترة المعاصرة توسعا لحياة الاستقرار على حساب البداوة، من خلال نزوح سكان المناطق الجبلية و جنوح البدو إلى الاستقرار و اتساع مجال المناطق المروية في إطار الدول الحديثة.

أما الفصل الثالث فيخص العالم العربي في مجاله المغاربي، الذي عرف تطورا مشابها للشرق الأدنى من حيث انتشار البداوة، و إن تميز عنه بظروفه المناخية و كتله الجبلية الضخمة و اعتماد الحياة الزراعية فيه على الأمطار في غياب أحواض الأنهار الكبرى. كما طبعت التاريخ المغاربي قوة التأثيرات الخارجية في العهود القديمة (الاستعمار الروماني) والمعاصرة (الاستعمار الأوربي)، و الهزات التاريخية الكبرى، من قبيل التغريبة الهلالية و الهجرة الأندلسية و الاستيطان الأوربي، التي رسمت معالم المجال المغاربي و نمط حياة سكانه الذي يشهد بدوره تقدما سريعا نحو الاستقرار.

أما الصحراء الكبرى التي خصص لها الفصل الرابع، فهي مجال مناسب لحياة البداوة منذ القدم و لم يحدث فيها الإسلام تحولات كبرى في نمط العيش، باستثناء مظاهر الاستقرار و العمران المتميزة، التي لعبت فيها حركات دينية مثل المذهب الإباضي و الطريقة السنوسية دورا مهما، و ساهم فيها التطور الاجتماعي للبداوة (إقامة القرى واستغلال الواحات من طرف القبائل الضعيفة)، قبل أن يفرض الاستعمار الأوربي و التطور الاقتصادي المعاصر تحولا جذريا في نمط عيش المجموعات السكانية الصحراوية باتجاه حياة الاستقرار.

أما أطول فصول الكتاب، و هو الفصل الخامس، فيتطرق للعالم التركي-الإيراني الذي شهد انتشارا شاملا للبداوة حسب أنماط مختلفة. فالمجال التركي عرف، عكس المجال العربي، انتشارا للبداوة في المرتفعات و الهضاب العليا الباردة، إذ وجد الأتراك في الأناضول و لواحقه مجالا مناسبا لانتشارهم الذي لم يتعثر سوى في الأراضي المنخفضة الرطبة و الغابية التي استمر فيها الوجود البيزنطي لفترة أطول، و قد شهد التاريخ التركي تحولا تدريجيا إلى حياة الاستقرار في وقت مبكر أكدته السياسة العثمانية و هجرة أتراك الأطراف باتجاه الأناضول مع انحصار الدولة العثمانية. أما المجال الإيراني فقد اجتاحه البدو و ميزه تجدد مستمر للبداوة لعبت فيه الغزوات المغولية-التركية و تشكل الأحلاف القبلية الكبرى المؤثرة دورا كبيرا، و لم تبق فيه سوى مراكز حياة حضرية قليلة منطوية على نفسها وسط مساحات شاسعة أو في مناطق جبلية معزولة في الشمال، مما أخر إلى حد كبير استقرار البدو في المجال الإيراني. أما في آسيا الوسطى فقد فرضت سياسة الاستعماريين الروسي و الصيني استقرارا قسريا على السكان الرحل.

و يتطرق الفصل السادس للمجالات التي انتشر فيها الإسلام غير أنه لم يتمكن من التجذر فيها، و يتعلق الأمر بشبه الجزيرة الإيبيرية و صقلية غربا والبلقان شرقا، حيث لم يستمر التواجد الإسلامي بسبب عدم انتشاره في الجهات الريفية الجبلية التي تمكن فيها السكان المسيحيون من استرجاع قوتهم و مباشرة عملية الاسترداد.

أما الفصل السابع فيتعرض للأطراف الاستوائية الرطبة، حيث واجهت تقدم الإسلام العوامل البيولوجية التي حدت من انتشار الرعاة. لهذا كان انتشار الإسلام عبرها تدريجيا بالاعتماد على المراكز الحضرية و التجارية أكثر منه على البداوة. ففي إفريقيا، كان التفوق الثقافي للإسلام في مواجهة انعدام التنظيم السائد في المجتمع الريفي الزنجي عاملا مساعدا على انتشاره، فيما لعبت المسافات الكبرى و صعوبة الاتصال عبر المنطقة الصحراوية دورا كابحا، مما جعل الرعاة يضطلعون بمهمة نشر الإسلام رغم الظروف الصعبة واجهت الحياة الرعوية في المناطق الاستوائية و ردود فعل العالم الريفي الزنجي. أما شبه القارة الهندية، فقد جعلها قربها من المراكز الثقافية الإسلامية الكبرى أرضا خصبة لإقامة المدن و الدول الإسلامية، في الوقت الذي ظل فيه التوسع الرعوي منحصرا في نطاقات محدودة جدا.

و يقدم الفصل الثامن و الأخير عرضا عن انتشار الإسلام عبر المحيط الهندي الذي يمثل نموذجا فريدا يؤكد قدرة الإسلام على التأقلم. فقد زرع المغامرون و البحارة و التجار في السواحل الاستوائية للمحيط الهندي (شرق إفريقيا، إندونيسيا، ماليزيا، و بدرجة أقل مدغشقر و سيلان) بذور الحياة المدنية والحضارة الإسلامية، رغم بطء حركة انتشار الإسلام في هذه البقاع، حيث ارتكزت أساسا على السواحل التي كانت بمثابة حلقة وصل في نقل التأثيرات الثقافية.

هذا و لم يضع المؤلف خلاصة عامة لكتابه الذي اختتمه ببيبليوغرافيا طويلة تضمنت المراجع المهمة حول الموضوع باللغات الفرنسية و الإنكليزية والألمانية والتركية والروسية، كما أدرج خرائط أساسية تسمح بمعرفة أدق للمجالات الجغرافية المختلفة التي تطرق لها هذا العمل الرائد.

the Ottoman rulers and the migration to Anatolia of Turks from the lost provinces of the Empire. In the other hand, the Iranian world has always been a propitious space for nomadic life, which had been continuously renewed by successive Mongol and Turkish invasions and the constitution of powerful tribal confederations. Only scarce islands of sedentary life survived withdrawing within themselves throughout vast solitudes or remote in northern mountain regions. This strength of nomadic life in the Iranian world delayed the settlement process. In central Asia, Russian and Chinese colonialisms compelled nomads to settle.

The sixth chapter, entitled « European failures », presents the spaces where Islam could not be maintained, like Iberian Peninsula and Sicily in Western Mediterranean and Balkans in South-Eastern Europe. A great part of the origin of this failure lies in the renunciation of Islam to strengthen its presence in rural mountain regions where Christian populations found the resources needed for the reoccupation of the territory.

The seventh chapter deals with what author calls tropical margins, whose humid biological conditions slowed down the progress of Islam and the spread of nomads. Thus Islam relied, in these regions, more on sedentary and commercial centers than on the vehicle of nomadic life. In Africa, the cultural superiority against the anarchy of rural black societies favoured Islam, while the long distances of the Saharan space were a real disadvantage, which could be overcome only by the nomads despite the hostility of the environment and the resistance of black rural world. In the other very end of the tropical world, the closeness of India to the important centers of Islamic civilisation make it a fertile ground for the foundation of Muslim cities and states, and the nomadic way of life was still limited there to narrow domains.

Finally, the eight chapter sets the issue of seas Islam, that of Indian Ocean, which is an outstanding case confirming the adaptability of Islam. Adventurers, sailors and traders scattered the seeds of a developed sedentary life and of Islamic civilisation in tropical coasts of Indian Ocean (Eastern Africa, Indonesia, Malaysia and, to a lesser extent, Madagascar and Ceylon). Those coasts became the bases for Muslim cultural influences despite the slowness of Islam penetration inland.

With no global conclusion, the book finishes with a long bibliography of important references on the issue written in French, English, German, Turkish and Russian. The several maps included in the book can help the reader to improve his knowledge of the different geographical contexts studied in this pioneering work.

Geographical Bases of the History of Islam
Summary

By Xavier de Planhol
Translated to Arabic by: Maaouia Saidouni
Presentation and review of Arabic translation by: Nacereddine Saidouni

This book is a whole history of the earth of Islam. It provides a sight, as wide as dense, of the moulding by Islamic civilisation of its geographical environment and of the manner the latter influenced it, through a delicate balance between nomadic and sedentary realms. The book should be read as a synthesis of author's researches dedicated to various contexts.

The first chapter draws up the methodological frame and presents anthropologic and geographical conditions of the birth of Islam in Arabian peninsula, and then its huge spread based on an alliance of nomad and sedentary groups of population, which allowed the new religion, sedentary at its origin, to extend easily over sub-arid plains bordering the great deserts and whose climatic and bio-geographical conditions favoured nomadic life. This introduction also shows the unique adaptability of Islam to different contexts approached in the next chapters.

The second chapter deals with the near eastern part of Arab world where the spread of nomads was quite easy though the preservation of important centers of sedentary life in the valley and the delta of the Nile, Mesopotamia, the great oases like Damascus and Aleppo and the refuge mountains, before the contemporary triumph of settlement through the drift of populations from mountains, the giving up by Bedouins of their ancient way life, to ensure their survival, and the development of irrigation enhanced by modern states.

The third chapter is dedicated to the North African part of Arab world, which experienced a process not much different from that witnessed in the Near East but with proper patterns due to specific climatic conditions, huge mountain masses, pluvial agriculture and the lacking of great river basins. North African history is one of important external influences best represented by Roman occupation during Antiquity and modern European colonisation. It is also a history of big clashes like the Hilalian migrations, the rush from Andalusia and the European colonization, which participated in shaping the singularity of North African space and the way of life of its inhabitants evolving rapidly towards settlement.

The fourth chapter is consecrated to the Saharan space which was favourable to nomadic life long before Islam who hardly upset it, except the progresses of settlement induced by religious movements like Ibadhism or the senoussi confraternity or by an inner evolution (foundation of villages and exploitation of oases by the weakest tribes), while European colonization and contemporary economic progress provoked radical changes in Saharans lives towards settlement.

The fifth chapter, which is the longest, approach the Turkish and Iranian world, which witnessed a general spread of nomadic life according to different patterns. Across the Turkish domain, unlike the Arab one, nomadic life extended over cold and high territories, and Turks found, in Anatolia an its dependencies, a favourable space for their spread which reached the whole territory but the low territories, humid and forest-covered, where the Byzantine presence lasted for a time. Nonetheless, Turkish history had been characterized by an early and steady settlement process favoured especially by

épargné que les basses terres humides et boisées où la présence byzantine s'est maintenue quelque temps. L'histoire turque est néanmoins marquée par une sédentarisation progressive mais précoce, favorisée notamment par le pouvoir ottoman et la migration, vers l'Anatolie, des Turcs des provinces perdues. De son côté, le monde iranien a toujours été un espace propice au nomadisme qui s'est toujours renouvelé grâce aux invasions turco-mongoles successives et la formation de puissantes confédérations tribales. De rares poches de vie sédentaire ont subsisté, repliées sur elles-mêmes, perdues dans de vastes étendues ou isolées dans les régions montagneuses du nord. Cette force du nomadisme a retardé la sédentarisation dans le monde iranien. En Asie centrale, les colonialismes russe et chinois ont, chacun à sa manière, imposé la sédentarisation.

Le sixième chapitre dresse un tableau des espaces où l'Islam n'a pu se maintenir, notamment à travers la péninsule ibérique et la Sicile à l'ouest et les Balkans à l'est. Cet échec s'explique essentiellement par le renoncement de l'Islam aux régions rurales montagneuses où les populations chrétiennes ont pu trouver les ressources nécessaires à la reconquête.

Le septième chapitre est dédié aux marges tropicales dont les conditions biologiques humides ont freiné l'avancée de l'Islam et l'expansion des pasteurs. Ainsi, l'Islam s'est appuyé, dans ces régions, plus sur des pôles sédentaires et commerciaux que sur le moteur du nomadisme. En Afrique, la supériorité culturelle de l'Islam face à l'anarchie des sociétés rurales noires a été un facteur favorable, alors que les longues distances à travers l'espace saharien ont toujours été un inconvénient qui n'a été surmonté que grâce au rôle des pasteurs, malgré l'hostilité du milieu et la réaction du monde rural noir. À l'autre extrémité du monde tropical, la proximité de l'Inde des grands pôles de la civilisation islamique en a fait un terrain fertile pour la création de villes et d'États musulmans, et l'expansion du mode de vie pastoral y est restée modeste.

Enfin, le huitième chapitre introduit la problématique de l'Islam maritime de l'océan indien, cas unique qui confirme le pouvoir d'adaptation de cette religion. Les aventuriers, les marins et les commerçants ont semé les germes de la vie citadine et de la civilisation musulmane sur les côtes tropicales de l'océan (Afrique de l'Est, Indonésie, Malaisie, et dans une moindre mesure Madagascar et Ceylan) qui ont été des bases de transmission des influences culturelles en dépit de la lenteur de l'expansion de l'Islam vers l'intérieur des terres.

Sans conclusion globale, le livre se termine par une longue bibliographie des ouvrages importants sur la question, en français, anglais, allemand, turc et russe. Il est aussi agrémenté par des cartes essentielles à une meilleure connaissance des différents milieux géographiques étudiés dans cette œuvre pionnière.

Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam
Résumé

Par Xavier de Planhol
Traduction arabe : Maaouia Saidouni
Présentation et révision de la traduction arabe : Nacereddine Saidouni

Ce livre est une histoire totale de la terre d'Islam offrant un aperçu, à la fois élargi et dense, de la manière dont la civilisation musulmane a façonné son cadre géographique et s'y est adaptée, à travers un équilibre délicat entre les modes de vie bédouin et citadin. C'est une synthèse de recherches consacrées par l'auteur à divers milieux géographiques.

Le premier chapitre fixe le cadre méthodologique et pose les conditions anthropo-géographiques de la naissance de l'Islam en Arabie, puis son expansion fondée sur une alliance entre bédouins et sédentaires qui a permis à la religion musulmane, sédentaire à son origine, de se répandre facilement à travers les plaines subarides limitrophes des grands déserts et dont les conditions climatiques et biogéographiques sont favorables à la bédouinisation. Cette introduction montre aussi l'adaptabilité unique de l'Islam aux différents contextes géographiques auxquelles sont consacrés les chapitres suivants.

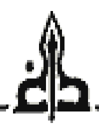
Le deuxième chapitre concerne la partie proche orientale du monde arabe qui a connu une bédouinisation facile, mais qui a aussi préservé des noyaux importants de vie sédentaire dans la vallée et le delta du Nil, la Mésopotamie, les grandes oasis comme Damas et Alep et les montagnes de refuge, avant que le mouvement de sédentarisation ne l'emporte, à l'époque contemporaine, à travers l'exode issu des montagnes, l'abandon par les bédouins, par nécessité, de leur ancien mode de vie et l'expansion des zones irriguées dans le cadre des États modernes.

Le troisième chapitre est consacré à la composante nord-africaine du monde arabe qui a connu une bédouinisation comparable à celle du Proche-Orient, mais qui s'en distingue par son climat, ses grands massifs montagneux et son agriculture pluviale en l'absence de grands fleuves. L'histoire maghrébine est celle de fortes influences extérieures, aussi bien à l'époque romaine que pendant la colonisation européenne. C'est aussi une histoire des grands chocs, comme les migrations hilaliennes, l'afflux des andalous et la colonisation européenne de peuplement, qui ont contribué à forger la singularité du Maghreb et le mode de vie de ses habitants qui connaît une évolution rapide vers la sédentarisation.

Le quatrième chapitre aborde l'espace saharien propice au nomadisme bien avant l'Islam qui le bouleversa peu sur le plan du mode de vie, si l'on excepte les progrès de la sédentarisation dus à des mouvements religieux (Ibadhisme, confrérie senoussie) ou par l'évolution des structures bédouines (fondation de villages et exploitation d'oasis par les tribus les plus faibles), alors que la colonisation européenne et l'évolution économique contemporaine ont provoqué des mutations radicales dans le mode de vie des populations sahariennes en faveur de la sédentarisation.

Le cinquième chapitre, le plus long du livre, concerne le monde turco-iranien qui a connu une expansion généralisée de la vie nomade, selon différents modes. Dans l'espace turc, contrairement à l'espace arabe, le nomadisme a gagné les hautes terres à climat froid, et les Turcs ont trouvé, en Anatolie, un espace favorable à leur expansion qui n'a





دار الغرب الإسلامي

تونس

لصاحبها الحبيب اللمسي

6 نهج الدالية بالفي - تونس – تلفون: 0021671393360 – فاكس: 0021671396545 – خليوي: 216-96-346567

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 200 - R.P. 1015 TUNIS



الرقم: 485 / 1000 / 5 / 2008

التنضيد: مطبعة الصراط ـ بيروت

الطباعة: مطبعة الصراط ـ بيروت

XAVIER DE PLANHOL
PROFESSEUR A L'UNIVERSITÉ DE NANCY

LES FONDEMENTS GÉOGRAPHIQUES DE L'HISTOIRE DE L'ISLAM

FLAMMARION, ÉDITEUR
26, rue Racine, Paris



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS